

447

اللورد كرومر

الإمبريالى والحاكم الاستعمارى

تأليف:

روجر أوين

ترجمة وتقديم:

رءوف عباس

هذه ترجمة كتاب:

Lord Cromer: Victorian Imperialist, Edwardian Proconsul

By: Roger Owen

Oxford University Press 2004

للإتصال: info@RaoufAbbas.org

المحتويات

مقدمة المؤلف للطبعة العربية

فى هذه المقدمة للترجمة العربية لسيرة إيفلن بارنج، أو اللورد كرومر، التى أتقدم بها للقارئ المصرى أود أن أطرح ثلاث نقاط قد تكون مفيدة فى شرح المبادئ العامة التى استلهمتها فى هذا العمل:

أولاً – لقد إتبعت الأسلوب التقليدى الأوروبى فى كتابة السيرة الذاتية، أى عن طريق تتبع المترجم له من الميلاد إلى الوفاة، ومزج ما هو عام مع ما هو خاص من نواحى حياته حتى يتضح كيف أثر كل جانب فى الآخر. وبالنسبة للورد كرومر، فأنا أرى سيرته كسيرة شخص بدأ حياته العملية فى خدمة رجال ذوى نفوذ (وفى بعض الحالات كفرد من أفراد بيوتهم) حتى يتمرس فيما أسماه "فن الحكم" قبل أن ينال المناصب الحكومية المهمة الواحد تلو الآخر فى مصر وفى الهند البريطانية.

ثانياً – لقد إهتممت بأن أركز بشكل شبه تام على الطريقة التى نظر بها معاصرو اللورد كرومر له فى أثناء حياته، وأن أتغاضى عما قيل عنه من القليلين ممن مدحوه والكثيرين ممن انتقدوه بعد وفاته. إن هذا الإختيار نابع من قناعتى بأن مهمة المؤرخ الرئيسية هى بث الحياة فى الماضى بقدر الإمكان، وأن يكون ذلك باستلهام روح ذلك الماضى ومفاهيمه، وعدم الحكم على الماضى بإسقاط روح الحاضر ومفاهيمه عليه. إن هذا المنهج ذو أهمية خاصة فيما يتعلق باللورد كرومر، نظراً لأنه كان يتمتع بسمعة أحسن بكثير لدى البريطانيين ولدى الكثيرين من أعضاء النخبة المصرية خلال حياته من تلك السمعة التى تمتع بها فى العقود التى تلت وفاته.

ثالثاً – وقد تكون تلك النقطة مثيرة للنقاش أكثر من سابقتيها، لقد حاولت أن أضع الفترتين اللتين قام فيهما كرومر بالخدمة الإدارية فى مصر فى السياق التاريخى المصرى والبريطانى لعصره. ويعنى هذا، فى حالة مصر، أولاً، تلك الإدارة المالية الدولية التى فرضت على البلاد فى أعقاب إشهار الإفلاس عام 1875 والأحداث التى نتجت عن ذلك والمعروفة بالثورة العرابية. ويعنى هذا، ثانياً، تلك التطورات بالغة الأهمية التى وقعت خلال فترة خدمته التى استمرت لقرابة عشرين عاماً من 1883 – 1907، والتى تصرف أثناءها كحاكم البلاد

الفعلى. وتبدو الطريقة التى اتبعها للتعامل مع هذه التطورات، بل وتشكيلها فى المقام الأول، معروفة للجميع، وكانت دوماً محل إنتقاد له. ومن الأمثلة على ذلك عداؤه المتزايد للحركة الوطنية المصرية ومعارضته لمطالب المصريين بالحكم الذاتى. ولكن بعض تصرفاته الأخرى فى هذا السياق المصرى لا تحظى بنفس تلك الشهرة؛ فمثلاً لا يعرف الكثير عن دوره فى استحداث نظامين للتعليم الإبتدائى كانا منفصلين تماماً عن بعضهما البعض حتى تم إدماجهما معاً عام 1949. أما الأمور الأخرى مثل مسئوليته عن أزمة القطن قبيل الحرب العالمية الأولى ودوره المتزايد فى تأسيس نظام غير متكافئ للملكية الخاصة للأراضى الزراعية فتندر إن لم تنعدم التعليقات حولها. وبشكل عام، وأياً كان حكمنا على الرجل، فأنا أزعم بأن اللورد كرومر جزء أساسى من التاريخ السياسى والإجتماعى والإقتصادى لمصر فى القرن العشرين.

روجر أوين

مقدمة المترجم

اللورد كرومر (أو إيفلن بارنج) من الشخصيات العتيدة التى لعبت دوراً مهماً فى إدارة الإمبراطورية البريطانية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر، عندما كانت الإمبراطورية قد بلغت أقصى اتساع لها فى العصر الفيكتورى الذى حفل بالمشاكل الناجمة عن كيفية إدارة تلك الإمبراطورية التى "لا تغرب عنها الشمس"، وكيفية التعامل مع شعوبها، وهى مشاكل كان لكرومر موقف منها، ورأى فيها، وكلها ظواهر امتدت إلى العصر الإدواردى القصير، الذى كان – بحق– ختام مرحلة تاريخية للإمبراطورية البريطانية، طويت صفحتها فى عصر جورج الخامس الذى شهد الحرب العالمية الأولى أولاً ثم شغل بما كان لها من نتائج على بنية الإمبراطورية وطريقة إدارتها فى مرحلة علا فيها مد حركات التحرر الوطنى هنا وهناك.

من هنا تأتى أهمية كتابة سيرة كرومر الذى لعب دوراً محدداً فى الإدارة الاستعمارية فى الهند، ولكن دوره الأكبر كان فى مصر؛ حيث قدر له أن يضع قواعد الوجود البريطانى فى مصر، ويضع السياسة البريطانية بالشكل الذى جعله الحاكم الحقيقى لمصر منذ 1883 حتى 1907. فنحن هنا أمام شخصية ذات تكوين متميز يعكس ظروف العصر، كانت موضع خلاف بين معاصريها، على اختلاف الزوايا التى نظروا إليه منها: فللبريطانيون رؤية خاصة للرجل بإعتباره من قادة عصر الإمبراطورية، وللهنود والمصريين نظرة مبعثها الهيمنة الإمبريالية والاستبداد الإدارى الذى شهدته البلاد التى خضعت للإمبراطورية على يد حكامها الإنجليز.

وهكذا يكتسب هذا العمل – الذى نقلناه إلى العربية– أهمية خاصة، لا من حيث الموضوع فحسب، بل من حيث التأليف ذاته؛ فالمؤلف روجر أوين Roger Owen من المؤرخين الإنجليز الذين برزوا فى الستينيات من القرن العشرين، واختاروا التخصص فى تاريخ مصر الإقتصادى، فكانت رسالته للدكتوراه موضوع كتابه الأول الذى نشرته جامعة أوكسفورد عام 1969 بعنوان: "القطن والإقتصاد المصرى 1820 – 1914"، فكانت السياسة الإقتصادية لكرومر العمود الفقرى لتلك الدراسة المهمة، والتى سبقها نشر المؤلف لبحثين أحدهما عن

"تأثير التجربة الهندية على السياسة الإنجليزية فى مصر (1883 – 1907)، ونشر فى أوراق سانت أنتونى رقم 17 الصادر فى يوليو 1965، ثم دراسة بعنوان: "لورد كرومر وتطور الصناعة فى مصر"، نشر بالمجلد الثانى – العدد الرابع من "دراسات شرق أوسطية" يوليو 1966. وتعددت وتنوعت الدراسات التى نشرها روجر أوين فى السبعينيات والثمانينيات حول الإقتصاد المصرى فى القرن التاسع عشر، جاء معظمها عن السياسة البريطانية من مختلف جوانبها، وعن التنافس الإنجليزى الفرنسى فى مصر، ثم اتسعت دائرة إهتمامه فى الثمانينيات لتشمل إقتصاد الشرق الأوسط الذى كان موضوعاً لكتابه "الشرق الأوسط والإقتصاد العالمى 1800 – 1914" الذى تناول فيه سمات الإقتصاد العثمانى ثم خص مصر والعراق والشام وجبل لبنان والأناضول بفصول متفرقة من الكتاب".

وجملة القول، إننا أمام مؤلف واسع الخبرة فى تاريخ مصر والشرق الأوسط الإقتصادى فى القرن التاسع عشر، وبالتالى له دراية كبيرة بالسياسات الإمبريالية فى المنطقة عامة ومصر خاصة، وعندما يكتب سيرة كرومر، فهو أدرى بمصادرها وأكثر معرفة بالجدل الذى ثار حول هذه الشخصية التاريخية المهمة، وخاصة أنه لم يكن رائداً فى هذا المجال، فقد سبقه مؤرخون آخرون من نفس جيله، تأتى فى مقدمته عفاف لطفى السيد التى ما زال كتابها عن "كرومر ومصر" مرجعاً أساسياً منذ نشر عام 1968 من مطبعة جامعة شيكاغو، وكذلك كتاب جون مارلو "كرومر فى مصر" الذى نشر فى لندن عام 1970، والرسالة غير المنشورة التى قدمها محمد جمال الدين المسدى إلى جامعة لندن عام 1966 بعنوان "العلاقات بين كرومر وعباس الثانى"، ناهيك عن أول كتاب تناول سيرة كرومر ونشر بلندن عام 1932 من تأليف اللورد زيتلاند، إضافة إلى عشرات المقالات التى نشرت بالدوريات العلمية منذ مطلع القرن العشرين حتى نهايته.

معنى ذلك أن من يكتب سيرة جديدة شاملة لكرومر فى العقد الأول من القرن الحادى والعشرين، عليه أن يلتمس لنفسه طريقاً بين هذا الكم من الدراسات، وكتابات من عاصروا كرومر وعملوا معه، وأوراقه الخاصة التى كانت متاحة لجميع من كتبوا عنه، ووثائق وزارات: الحرب، والمستعمرات، والخارجية التى استخدمها الجميع استخداماً كثيفاً، واستخرجوا منها كل ما احتوت عليه من معلومات، بما فى ذلك "الملاحظات البيوجرافية" التى إهتم

كرومر بكتابتها بنفسه – وجاءت فى 400 صفحة– ليستخدمها من يكتب سيرته فيما بعد، فكانت المصدر الأساسى للورد زيتلاند ولغيره ممن كتبوا عن كرومر.

ولكن روجر أوين استطاع أن يجتاز كل تلك الصعاب، وأن يخرج لنا هذه الترجمة الغنية بالمعلومات عن كرومر، وإن كان قد إتبع منهجاً سردياً، يروى تفاصيل حياة كرومر، وإذا عرض لنقد بعض مظاهرها لجأ إلى إقتباس مقولات الغير ممن سبقوه على طريق دراسة هذه الشخصية المهمة، وقلما جنح نحو التحليل حتى فى الخاتمة التى وضعها للكتاب؛ فقد استقى معظم ما جاء بها من تقييم لشخصية كرومرممن كتبوا عنه من معاصريه مع بعض الإضافات المحدودة من عنده، واتبع أسلوباً للمعالجة يقوم على تقسيم حياة كرومر إلى مراحل زمنية؛ فالفصول التسعة عشر إختص كل واحد منها بفترة زمنية محددة، جمع فيها روجر أوين بين ما اتصل بتطور حياة كرومر العملية، وحياته الخاصة جنباً إلى جنب، فجاء ما اتصل بالحياة الخاصة للرجل مبعثراً بين فصول الكتاب، وأصبح على القارئ أن يبذل جهداً خاصاً لاستخلاص الخاص من العام، والربط بين ما إنقطع من حديث حول أداء كرومر وأفكاره وسياساته على طول الفصول؛ ليقف على المعلومات المهمة التى جمعها المؤلف وعرضها بصبر وأناة.

ولعل مما يثير عجب القارئ العربى لهذا الكتاب، إغفال روجر أوين لذلك الكم الهائل من الدراسات التى أنتجها المؤرخون المصريون فى العقود الثلاثة الأخيرة من القرن العشرين، عرف الكثير منها طريقه إلى النشر، وما زال بعضه يندرج ضمن الرسائل غير المنشورة، فلا نكاد نجد إلا القليل من المادة المعبرة عن وجهة النظر المصرية فى سياسات كرومر استقاها المؤلف من عفاف لطفى السيد ومحمد جمال الدين المسدى، وإن كان قد أشار مرة واحدة إلى أحد كتب عبد الرحمن الرافعى وإلى اقتباس من "الجريدة"، وإقتباس من "الأهرام"، ولكن إغفاله للمصادر والمراجع العربية المعبرة عن وجهة النظر المصرية حرمه – دون شك – من فرصة إبراز بعد غائب فى جميع الكتابات التى نشرت عن كرومر فى الغرب، باستثناء دراسة عفاف لطفى السيد.

على كل، لا يقلل ذلك – أبداً – من أهمية هذا العمل وقيمته، فهما اللذان كانا وراء إقدامنا على نقله إلى اللغة العربية، إدراكاً منا لأهمية المادة التى جمعها المؤلف من الأوراق

الخاصة والمصادر المختلفة التى تلقى المزيد من الضوء على ما هو معروف عن كرومر وسياساته وأفكاره وآرائه.

وقد إعتمد المؤلف فى الباب الأول على "الملاحظات البيوجرافية" التى كتبها كرومر بنفسه إعتماداً كبيراً؛ ففترة الطفولة والصبا والشباب الباكر لكرومر تفتقر إلى التوثيق، فلم يكن أمام روجر أوين سوى اتباع ما فعله زيتلاند قبل ما يزيد على السبعين عاماً، وكذلك ما فعله غيره ممن كتبوا عن كرومر، لنعرف أن عائلة بارنج التى انتمى إليها كرومر ألمانية الأصل، كانت تشتغل بالنشاط المصرفى، وأسست بنكاً خاصاً بها فى لندن، وأن الجد الأعلى هاجر إلى إنجلترا فى مطلع القرن الثامن عشر، وأن الأسرة بعدما مدت بجذورها فى المجتمع الإنجليزى إلتحمت بالنخبة الأرستقراطية عن طريق الزواج، وورث بعض أبنائها الرتب الرفيعة عن طريق فروع الأمهات؛ فمنهم من حمل لقب السير، ومن حمل لقب اللورد، ثم بدأ رجال الأسرة يحصلون على تلك الرتب بحكم تميزهم وبروزهم فى المجتمع.

ويكتشف القارئ أن إيفلن بارنج (الذى أصبح عام 1892 اللورد كرومر) كان تلميذاً كسولاً مشاغباً، تعلم فيما يشبه الكتاب عندنا، فإلتحق بمدرسة خاصة لتعليم أبناء النخبة كان يديرها قس وزوجته، ولأنه كان أقل تلاميذ المدرسة تحصيلاً وإقبالاً على التعليم أرسلته أمه إلى مدرسة نظامية، وهى مدرسة عسكرية متوسطة تعد التلاميذ للإلتحاق بالأكاديمية العسكرية.

ولكن إلتحاق إيفلن بالمدرسة النظامية، وكذلك الأكاديمية العسكرية لم يكن سهلاً، فاستخدمت الأم معارفها من ذوى الحيثية لقبوله فى كل من هاتين المدرستين، ولم تكن المحسوبية وحدها مفتاح الإلتحاق بالمدارس المهمة، بل كان لها دورها أيضاً فى الوظائف التى يحصل عليها من يتخرجون فى هذه المدارس، وهنا يبرز التميز الطبقى على السطح؛ فأبناء الطبقة الأرستقراطية من أمثال إيفلن بارنج يضعون أقدامهم على طرق تقودهم إلى المناصب الرفيعة، بينما أبناء الطبقة الوسطى لا تدفعهم "الواسطة" إلى ما هو أبعد من الوظائف الإدارية والفنية فى بدايتها الأولى، وقد يقضى الفرد منهم حياته فى دائرة السكرتارية أو الأعمال المعاونة، كما كانت الحال بالنسبة لهارى بويل السكرتير الشرقى بدار المعتمد البريطانى فى القاهرة وذراع كرومر اليمنى فى إدارة مصر، وعالم اللغات التركية والفارسية والعربية والخبير بالثقافات الشرقية فلم يرشحه وضعه الإجتماعى إلى ما يتجاوز

حدود الإدارة الوسطى، وكوفئ برتبة السير عند نهاية خدمته، وكذلك كانت الحال بالنسبة لرونالد ستورس الذى خلفه فى منصبه، والذى كان إبن قسيس من الطبقة المتوسطة الصغيرة، ساعدته تزكية خاله الصحفى الشهير فى الحصول على الوظائف التى تولاها فى مصر وفلسطين، ثم رشحته كفاءته لحكم قبرص والحصول على رتبة السير.

وهناك فئة ثالثة من الشريحة الدنيا للطبقة الوسطى من الإنجليز الذين شغلوا الوظائف الإدارية الدنيا فى البلاد الخاضعة للإمبراطورية، فلا يصل منهم إلى الحلقة الوسطى من مناصب الإدارة إلا من استطاع أن يرتبط برئيس أو مدير من أبناء جلدته، يتبعه كظله فى المناصب التى يرقى إليها ممثلاً مركز المعاون أو المساعد.

هذا الأسلوب فى الحصول على الوظائف المهمة كان مسئولاً عن إختيار مواقع "مريحة" للضابط الصغير إيفلن بارنج؛ فخدم فى جزيرة كورفو (اليونانية) وجزيرة مالطا؛ ليقفز منها بمساعدة رئيسه فى كورفو وعمه اللورد نورثبروك إلى وظيفة بإدارة مهمة بالحربية، كانت نواة إدارة المخابرات. وعندما يعين عمه نائباً للملك بالهند، يختاره ليكون سكرتيراً خاصاً له، بل ويختار ولده فرانك ليكون معاوناً عسكرياً له. كان الولاء الشخصى هو المتطلب الرئيسى لتلك الوظائف، ولم يكن إسناد مناصب من هذا النوع إلى إبن الأخ أو الإبن مثار إنتقاد؛ فالجميع كانوا يفعلون ذلك.

وهكذا أتيح لإيفلن بارنج الذى كان حظه من التعليم بالغ التواضع أن يتولى وظائف مهمة بفضل إنتمائه الإجتماعى والطبقى وليس بفضل كفاءته، وإن كان المؤلف قد أجهد نفسه ليثبت عكس ذلك، ويبالغ فى تقدير قيمة الخبرات التى إكتسبها إيفلن بارنج فى كورفو ومالطا والفترة القصيرة التى قضاها بوزارة الحرب، بل بالغ كثيراً فى تقدير حجم الدور لذى لعبه كسكرتير خاص لعمه اللورد نورثبروك نائب الملك فى الهند، حتى إنه جعل من إيفلن شريكاً للحاكم العام، نائب الملك على قدر من الندية، فإذا تحرك نورثبروك هنا أو هناك، أو اتخذ موقفاً معيناً، إستخدم روجر أوين صيغة المثنى، مما يوحى للقارئ أن السكرتير الخاص الذى يفتقر إلى الخبرة كان صانع قرار ! ولكن المؤلف قدم وصفاً مستفيضاً لفترة حكم نورثبروك وأحوال الهند فى السنوات الأربع التى قضاها فى الحكم، وطبيعة العلاقة بين

حكومة الهند البريطانية والسلطة المركزية ممثلة فى وزارة الهند ومجلس الوزراء، بل والبرلمان البريطانى، بما يتجاوز حدود موضوع الكتاب.

ولما كان وجود إيفلن بارنج بالهند يرتبط بوجود عمه، فقد غادرها معه عندما استقال لخلاف نشب بينه وبين وزير الهند، فكان من الطبيعى أن يعود إلى وظيفته بالحربية حيث تزوج من المرأة التى أحبها، ورتب له عمه وظيفة تضعه على الدرجات الأولى لسلم الإدارة الاستعمارية، فعين مندوباً لبريطانيا بصندوق الدين العام فى مصر (وهو ضابط برتبة كابتن – أى نقيب) حيث بدأت تظهر كفاءته الشخصية؛ لأن هذا المصنب كان يعطيه قدراً كبيراً من حرية الحركة يتيح له إبراز قدراته الخاصة، وقد أثبت نجاحه فى المهمة التى أسندت إليه على مدى ثلاث سنوات، ثم عين مراقباً مالياً فى المراقبة المالية الثنائية التى فرضها الإشراف الأوروبى على المالية المصرية لمدة عام واحد، عين بعده عضواً مالياً بمجلس نائب الملك بالهند (اللورد ريبون) الذى كان صديقاً حميماً لنورثبروك، ولكن لا شك أن نجاح إيفلن بارنج فى عمله بمصر والخبرة المالية التى اكتسبها كانت سنداً لترشيح عمه له لتولى ذلك المنصب الذى يعادل منصب وزير مالية الهند من حيث الإختصاص والصلاحيات. فاكتسب خلال السنوات الثلاث التى قضاها فى المنصب العديد من الخبرات المالية والإدارية والقانونية التى زكت إختياره لتولى منصب قنصل بريطانيا العام ووكيل بريطانيا British Agent فى مصر. (وقد أطلقت الصحافة المحلية على هذه الوظيفة إسم "المعتمد البريطانى" وعلى مقر الوكالة البريطانية "دار المعتمد البريطانى"، وهو المصطلح الذى استخدمناه فى هذه الترجمة) وذلك بعد إنقضاء عام واحد على احتلال بريطانيا لمصر، أى عام 1883، مع منحه رتبة السير.

كان السير إيفلن بارنج عندئذ فى مطلع الأربعينيات من عمره، أنضجته تجربة العمل بمصر والهند، وقلبت أفكاره رأساً على عقب. فبعد أن كان ليبرالياً يرى أن وظيفة الإدارة الإمبراطورية هى تدريب أبناء البلاد على حكم أنفسهم تدريجياً،ويؤمن أن التطور الإقتصادى لبلاد الإمبراطورية يضيف إلى التطور الإقتصادى العام فى الإمبراطورية، ولا ينقص منه، ومن ثم كان من أنصار تشجيع الصناعة المحلية فى الهند، تحول فى مصر إلى محافظ يؤمن بتدعيم أركان الإدارة الاستعمارية وترك مساحة ضيقة يلعب فيها عدد محدود من

أبناء البلاد دوراً متواضعاً فى الإدارة، إنطلاقاً من إيمانه بأن "المصلح" الإنجليزى له مهمة حضارية تسعى للنهوض بالبلاد الشرقية حتى تقترب من المستوى "المتحضر" للمستعمر، وهو هنا المستوى الذى بلغته الحضارة الأوروبية بإعتبارها "حضارة مسيحية". إتسعت دائرة الرؤية العنصرية عنده لتجمع بين التمييز القائم على أساس عنصرى ودينى معاً، ولا عجب فقد كان الرجل متأثراً بثقافة العصر الذى رأى فى الأوروبى إنساناً كاملاً، بينما غير الأوروبيين كانوا من "أشباه" البشر، وخص الإسلام بنظرة تعصبية متعالية بغيضة ذات أصول صليبية، وهى أفكار جرت بها أقلام كتاب أوروبيين فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، من حيث النظرة إلى الإسلام كنوع من "الهرطقة"، ونسبته إلى صاحب الدعوة ونبيها فيسمى فى تلك الأدبيات "المحمدية"، ويطلق على المسلمين إسم "المحمديين"، وينسب ما أصاب شعوب الشرق من تخلف ناتج عن اتساع فجوة التطور الإقتصادى والسياسى إلى الدين الإسلامى ذاته، والزعم بأن ذلك الدين يحض على الكسل والتقاعس وليس العمل، ومن ثم لا منجاة لشعوب الشرق من التخلف إلا بإعتناقها المسيحية وأخذها بحضارتها.

كان هذا ما آمن به السير إيفلن بارنج الذى أصبح اللورد كرومر عام 1892، ومن هذه الزاوية كانت نظرته إلى المصريين بإعتبارهم لا يصلحون لتنفيذ خطة الإصلاح التى استهدفتها سياسته، ومن ثم كان لابد من الإعتماد على غيرهم فى الإدارة، على الإنجليز بالدرجة الأولى والشوام (المسيحيين) بالدرجة الثانية، بعدما اكتشف كرومر أن الأقباط لا يصلحون لهذه المهمة؛ لأنهم – رغم مسيحيتهم– إنتقلت إليهم عدوى التخلف من المسلمين، وذكر فى كتابه "مصر الحديثة" أنه إكتشف أن "الفرق الوحيد بين المسلم والمسيحى فى مصر هو أن الأول مصرى يتعبد فى مسجد، والآخر مصرى يتعبد فى كنيسة".

ومن ذلك – أيضاً– إدراك كرومر لأهمية مصر بالنسبة للإمبراطورية، وإذا كان الوضع الدولى، وتمسك بريطانيا بمبدأ "المحافظة على وحدة وسلامة أراضى الدولة العثمانية" يحولان دون ضم مصر إلى الإمبراطورية، فلابد من استمرار الإحتلال إلى الأبد، حتى تتدعم أركان (الإصلاح) ويصبح المصريون فى وضع يسمح لهم بحكم أنفسهم بأنفسهم، وهو ما يراه بعيد التحقيق بسبب إيمانه بتخلف المصريين. ولابد من تحقيق أمرين بهذا الصدد: "تسليم الدول الأوروبية بمبدأ استمرار الإحتلال إلى أجل غير مسمى، والتخلص من

القيود الدولية التى تحد من قدرة (المصلح) البريطانى على الحركة، ويعنى بها الإمتيازات الأجنبية، والمحاكم المختلطة.

ولكن ذلك كله يتصل بالسياسة الأوروبية، ويحتاج إلى موافقة الحكومة البريطانية التى عليها أن تعالج المسألة المصرية فى إطار المواثيق الأوروبية التى تحدد مصالح الأطراف المعنية، لعل أهمها قرارات مؤتمر برلين 1878 بشأن المسألة الشرقية، وطبيعة الإحتلال البريطانى لمصر الذى تم بإسم الدول صاحبة المصالح فى مصر، ومن ثم لها وحدها أن تقرر مصيره. ولذلك كان تناول مسألة استمرار الإحتلال بمثابة السير على سلك مشدود، وهو ما أغفله المؤلف عند معالجته للخلاف بين كرومر والحكومة البريطانية بلندن حول بقاء الإحتلال لأجل غير مسمى. ويرجع المؤلف ذلك إلى أيديولوجية حزب الأحرار الذى كان يعارض استمرار الإحتلال، مع أن كل الدلائل كانت تشير إلى أن بريطانيا جاءت إلى مصر لتبقى، لو قرأنا ما بين السطور فى بعثة دراموند ولف، ولو قدرنا وضع بريطانيا المتميز فى مصر منذ حصولها على صفقة حصة مصر فى أسهم قناة السويس، وما تمثله القناة من ضرورة حيوية للمواصلات الإمبراطورية، بل وما تمثله مصر من لعب دور القاعدة الأساسية للتوسع الإمبراطورى فى أفريقيا استناداً إلى حقوق مصر فى السودان. كانت تلك كلها شواهد على تعليق فكرة الجلاء عن مصر، ولم يكن كرومر – وحده– مبدع تلك الفكرة التى استجابت الحكومة البريطانية لها نتيجة إلحاحه، على نحو ما ذهب المؤلف.

كذلك كانت الحال بالنسبة لموضوع الإمتيازات الأجنبية الشائك الذى فكر كرومر – بطريقة ساذجة– فى التخلص منه بعدما تم تسوية النزاع مع فرنسا حول مصر بتوقيع إتفاقية 1904. فالبديل الذى يطرحه كرومر للإمتيازات والمحاكم المختلطة لا يحتاج إلى قبول الأوروبيين وحدهم فحسب، بل يحتاج إلى موافقة المصريين أيضاً على تعريف "المصرى" عند كرومر، بإعتبار أن كل من يسكن مصر ينتمى إليها، بغض النظر عن أصله العرقى وجنسيته وديانته، فإذا كان من الممكن قهر "السكان المحليين" (وهو المصطلح الذى استخدمه كرومر للدلالة على المصريين) فلا يمكن إقناع الجاليات الأوروبية فى مصر بذلك؛ لأن وجودها فى البلاد، ونشاطها الإقتصادى، ومصالحها قائمة على التصارع والتنافس، لا التنسيق والتعاون. هذا فضلاً عن كون نظام الإمتيازات الأجنبية يتعلق بالدولة

العثمانية كلها ومطبق فى جميع ولاياتها العربية وغير العربية، وإلغاؤه فى مصر يخل بالتوازن فى العلاقة بين الجاليات الأجنبية والقوى المحلية فى جميع بلاد الدولة ويحتاج تغييره أو تعديله أو إلغائه إلى موقف أوروبى موحد؛ لذلك كان مشروع كرومر مشروعاً فاشلاً، جعل الحكومة البريطانية لا تتحمس كثيراً لمساندته.

وجاءت (إصلاحات) كرومر الإقتصادية من حيث الإهتمام بالرى داعماً للتوجه الأساسى الذى إلتزمه كرومر فى تأكيد دور مصر كمنتج لمادة خام أساسية هى القطن، وليس ثمة دليل على الإهتمام بتنويع الإنتاج الزراعى، بينما هناك أدلة عديدة على معارضة فكرة تنويع مصادر الدخل عموماً، لعل أهمها موقف كرومر من الصناعة والتصنيع، ومقاومته محاولة كبار الملاك الزراعيين الاستثمار فى مجالات صناعية وفى مشروع للسكك الحديدية الضيقة بالفيوم. فقد ضربت كل تلك المحاولات، وحرص كرومر على إبقاء المستثمرين المصريين فى إطار الإنتاج الزراعى، وحرص على ألا يتجاوز دورهم فى التجارة دور الشريك الصغير لرأس المال الأجنبى الذى سيطر على مجالات التجارة فى الصادرات والواردات ومجال التموين والإئتمان. وإذا كان كرومر قد اهتم بتحسين حال الفلاح نسبياً، فقد جاء ذلك من قبيل الحفاظ على الدجاجة التى تبيض ذهباً؛ لأن التحسن النسبى لأحوال الفلاح يضمن استمراره فى سداد الضرائب، وبذلك تستمر مصر فى سداد أقساط الديون، مما يخفف من ضغوط الدول الأوروبية على سلطة الإحتلال البريطانى، والقبول التدريجى بفكرة استمرار الإحتلال طالما أن وجوده يخدم مصالحهم.

ولم يكن كرومر رائداً فى مجال التنمية الزراعية من خلال التوسع الأفقى والرأسى فى الرى، فذلك اتجاه عرفته مصر على نطاق واسع فى عصر محمد على، واستمر الإهتمام به فى عهد خلفائه حتى قبيل أواخر عصر إسماعيل، عندما أدت الأزمة المالية إلى الإضرار بمختلف مشروعات التنمية، ومن بينها الرى، وجدير بالذكر أن فكرة إقامة خزان أسوان طرحت لأول مرة فى صورة اقتراح تقدم به بعض أعضاء مجلس شورى النواب أمام الثورة العرابية، كما طرحت أيضاً فكرة استبدال نظام المقاولات كبديل للسخرة فى أعمال الرى، وجاء وقوع الإحتلال البريطانى ليقطع الطريق على الحكم الوطنى لتنفيذ هذه المشروعات التى تبناها كرومر لأسباب تخدم مصالح بريطانيا بالدرجة الأولى.

لم يكن (إصلاح) كرومر – إذن– فتحاً جديداً، ولكن كان استمراراً طبيعياً لاتجاه أحادى فى التنمية الإقتصادية ركز على الزراعة وحدها، واستبعد غيرها من الأنشطة الإستثمارية الأخرى، خدمة للتوسع الاستثمارى الاستغلالى الأجنبى وليس "تحديثاً" للإقتصاد المصرى.

ولما كانت مصر تعد لتكون الدرة الثانية فى تاج الإمبراطورية البريطانية بعد الهند؛ فقد كانت سياسة كرومر الاستعمارية، بل كان شخص كرومر نفسه بما عرف عنه من غطرسة وعناد مطلوباً لتنفيذ المشروع الاستعمارى فى مصر، وكان ذلك يتطلب الإنفراد بإدارة أمور البلاد، وتنحية دور الخديو، واختيار النظار الذين لا يرفعون إصبع المعارضة، وامتلاك المستشارين والمفتشين الإنجليز لزمام السلطة فى الإدارة المصرية. ولذلك عندما تغيرت الأمور بعد وفاة توفيق، وبدأ الخديو الشاب يتطلع إلى ممارسة سلطته بإعتباره حاكماً لمصر من قبل السلطان العثمانى، وأن سلطاته تحددها الفرمانات الصادرة من السلطان، وليس الأمر الواقع الذى فرضه الإحتلال، كان من الضرورى أن يلقن درساً يجعله يعلم من أين تهب رياح السلطة. وعندما اعترض رجال الحرس القديم من الوزراء نوبار ورياض وشريف على ما رأوا فيه انتهاكاً صارخاً لحقوق مصر ومصالحها، كان عليهم أن يخلو مواقعهم على المسرح لمن يدركون حقيقة دورهم من أمثال مصطفى فهمى باشا، حتى يسير قطار (الإصلاح) الذى رسمه كرومر.

ولكن كيف استطاع كرومر إدارة أمور مصر منفرداً، وهو الذى لم يفهم المصريين على حقيقتهم كما نكتشف من قراءة كتابه "مصر الحديثة" ؟ الغريب أن كرومر استقى كل معلوماته عن أحوال مصر الداخلية والمصريين من شخص واحد هو هارى بويل السكرتير الشرقى الذى كان مصدر الوحى لكرومر، إضافة إلى جورست الذى كان ذراعه اليمنى فى الإدارة، ونفر قليل من معاونيه بدار المعتمد البريطانى لم يتجاوز عددهم الستة أفراد، كانوا هم وحدهم مصدر الإلهام لكرومر، ومنفذى سياسته.

لذلك ظل كرومر يدير مصر بعقلية الحاكم الاستعمارى فى العصر الفيكتورى، ولم يدرك المتغيرات السياسية الدولية التى جاء بها مطلع القرن العشرين، والتى أدت إلى حدوث تغيير فى قواعد لعبة التنافس الاستعمارى ببروز ألمانيا كقوة متعطشة للتوسع الإمبريالى، وتبنيها سياسة الإتجاه نحو الشرق، وبداية سباق التسلح وبناء القوة البحرية الألمانية، وسياسة

استقطاب التحالفات على القارة، تلك التغيرات كانت الباعث الحقيقى للإتفاقية البريطانية الفرنسية عام 1904 التى عرفت بالإتفاق الودى، وكانت وراء تحول المشهد السياسى الأوروبى فى إتجاه العد التنازلى نحو الحرب العالمية الأولى.

هذا التغير لم يدركه كرومر فى معالجته لموضوع دنشواى، وفى سوء تقديره لدور الرأى العام البريطانى المتأثر بالصحافة فى معارضة السياسات التى تنتمى إلى عصر مضى يمثله كرومر، ولذلك كان لابد من تغيير أسلوب أداء السياسة البريطانية فى مصر، ولم يكن كرومر يصلح للعب الدور الجديد فتمت تنحيته عام 1907. ومن الغريب أن المؤلف لم يدخل تلك التغيرات فى اعتباره، وترك القارئ يظن أن كرومر ترك مصر بمحض اختياره، كما لم يلفت نظره إصرار كرومر على متابعة أسلوبه فى حكم مصر من خلال النصائح التى كان يواصل تزويد جورست ثم كتشنر بها، ويدهشه عدم استجابتهم لها، فقد ظل الرجل يظن أن شيئاً لم يتغير، ولعل ذلك يفسر ميوله إلى المحافظين فى مجلس اللوردات، واتساع الشقة بينه وبين الأحرار فى سنوات التقاعد.

وعلى كل، دخل اللورد كرومر التاريخ من الباب الإمبراطورى لحكام المستعمرات، ومثل هؤلاء يختلف تقييم دورهم بإختلاف الزاوية التى يتم النظر إلى أعمالهم من خلالها، ولا أظن أن كل القراء الإنجليز يقبلون بالصورة التى رسمها كرومر لنفسه، كما أن بعض المصريين قد ينظرون نظرة إيجابية إلى "الإصلاحات" التى تمت على يديه، ولكن تقييم الدور الذى لعبته شخصية تاريخية ما، يجب ألا يخضع للتجزئة، بل يتم النظر إليه نظرة شاملة فى إطار عصره.

رءوف عباس

تقديم

عندما بلغت الإمبراطورية البريطانية شأوها قبيل الحرب العالمية الأولى، حظى حاكمان استعماريان من البريطانيين بالشهرة وتقدير الشعب البريطانى، وتساوت قامتاهما معاً، هما اللورد كيرزون Lord Curzon نائب الملك فى الهند (سابقاً)، واللورد كرومر Lord Cromer الذى ارتبط اسمه ارتباطاً وثيقاً بالإحتلال البريطانى لمصر، وكان الحضور الطاغى لكرومر والتألق المبهر لكيرزون يعكسان الروح الجوهرية للحكم البريطانى الاستعمارى، فى عصر مثلت فيه القاهرة وكلكتا قطبى القوة البريطانية فى آسيا وأفريقيا.

ولكن، بينما سلطت أضواء التاريخ على كيرزون، أسدل النسيان أستاره على الشهرة الواسعة والصيت الذى كان من نصيب كرومر قبل الحرب العالمية الأولى، وحملت الترجمة الرسمية التى كتبها ماركيز زيتلاند Marquess of Zetland – أحد حكام الأقاليم فى الهند– عن اللورد كرومر، ونشرت عام 1932، حملت نغمة إعتذارية، وكأن الإتجاه الراسخ لكرومر نحو ما أسماه "حكومة الأجناس الخاضعة (للإمبراطورية)"، لم يعد يناسب عالم ما بعد العام 1914[1]. وتردى دور اللورد كرومر فى القصة الطويلة البائسة للعلاقات البريطانية المصرية إلى لعب دور الشرير فى نظر الآخرين؛ فقد كان الحاكم الفعلى لمصر معظم ربع القرن (1883 – 1907)، لا يتزحزح قيد أنلمة عن موقفه على نحو ما ذهب إليه بعض الكتاب البريطانيين، ذلك الرجل الذى تعلم المصريون كيف يضمرون الكراهية له، حتى إن فريقاً من الطلاب الشباب المصريين زاروا مدينة نورفولك (مدينة كرومر)، عام 1998، وسألوا مسئول الأرشيف المحلى للمدينة عن "المكان الذى دفن فيه هذا الرجل؛ لأننا نريد أن نبصق على قبره".

ترى... لماذا نبذل كل هذا الجهد لدراسة حياة رجل لا يكاد اسمه يذكر خارج سياق تاريخ مصر، بعد ما كادت تتلاشى تلك السمعة العظيمة التى كانت له ذات يوم ؟ ثمة سبب واضح يعود مباشرة إلى العصر الذى نعيش فيه، وذلك التشابه بين موجة العولمة وتلك التى سادت العصر الذى لعب فيه كرومر دوراً رئيسياً على مدى أربعة عقود من الزمان قبل

---

[1] كان هذا عنوان مقال نشره كرومر بمجلة إدنبره ريفيو Edinburgh Review (يناير 1908).

الحرب العالمية الأولى. فقد ميز العصران تنامى الترابط الإقتصادى الذى تعد الإدارة المالية الدولية، والقواعد الثابتة للممارسات المالية، وحرية التعامل. والقروض، والديون الدولية، تعد من مكوناته الأساسية.

وعلى كل، هناك عوامل أخرى جعلت الموجة (الإمبريالية) الأولى تختلف عن الموجة الثانية، وإن كان الإختلاف ليس اختلافاً جذرياً كما يظن أحياناً، من بين عوامل الإختلاف أنها حدثت زمن علو المد الإمبريالى عندما سار التوسع العسكرى والسياسى والإقتصادى معاً، يداً بيد، بصورة مازالت فى حاجة إلى تفسير الجهود التى بذلت فى هذا الصدد، تأثراً بمنظرى العصر الفيكتورى الإمبراطورى، من هوبسون مروراً بروبنسون وجالاجر، وصولاً إلى كين وهوبكنز[2]. أما عامل الإختلاف الآخر فيتمثل فى الربط العمد بين الإمبراطورية والتفوق العنصرى الذى تضمنته الفكرة القائلة بأن مهمة تحقيق ما أسماه البريطانيون "بالتقدم المعنوى والمادى للشعوب المستعمرة" تقع على عاتق أوروبا، التى تلتزم بها بغض النظر عن قبول تلك الشعوب أو رفضهم لها.

لقد لعب كرومر دوراً بارزاً فى تلك التطورات التى شهدها القرن التاسع عشر، فى الربط بين الأفكار الليبرالية الإقتصادية عن العوائد الجمركية المنخفضة والضرائب والميزانيات المعتدلة، وبين المبادئ السياسية والثقافية المتغيرة والتحيز لطبقته الحاكمة البيضاء، وذلك بحكم إنتسابه إلى أسرة مصرفية حضرية هى "إخوان بارنج Baring Brothers"، وبحكم كونه مفوضاً لصندوق الدين العام فى مصر، ووزيراً للمالية فى الهند. ورغم نشأة كرومر فى أسرة تنتمى لحزب الأحرار، وتطلعه إلى الراديكالية فى شبابه، سار على النهج الذى كان مألوفاً فى زمانه فتحول من النزعة العالمية الليبرالية القائمة على حرية التجارة التى تبناها جناح برايت جلادستون بحزب الأحرار فى الستينيات والثمانينيات من القرن التاسع عشر، إلى النزعة القومية العنصرية المستندة إلى القوة المفرطة التى تبناها الإمبرياليون الليبراليون فى العقدين السابقين على الحرب العالمية الأولى، وقد فعل ذلك على نقيض خلفيته فى الخدمة

---

[2] J. A. Hobson, Imperialism: A Study (London, James Nesbit, 1902); Ronald Robinson and John Gallagher with Alice Denny, Africa and the Victorians: The Official Mind of Imperialism (London: Macmillan, 1961). P. J. Cain and A. G. Hopkins, British Imperialism: Innovation and Expansion, 1688 – 1914 (London: Longman, 1993), esp. chs. 3 and 4.

العامة، فى القواعد الإمبريالية القديمة بالجزر مثل كورفو ومالطا، ومستعمرات السكر بجزر الهند الغربية، وفى الهند، ثم فى الإمبراطورية الأفريقية الجديدة عقب احتلال مصر عام 1882 والسودان عام 1898. ولم تتوفر مثل هذه الخبرات إلا للقليل من رجال الإدارة الإمبراطورية، وإنفرد وحده بالخبرة الطويلة فى حكم الشعوب غير الأوروبية، فى وقت كانت فيه الفكرة الإمبراطورية كلها موضع جدل سياسى مركزى متزايد.

أما الأسباب الأخرى التى تكمن وراء كتابة سيرة كرومر فشخصية محضة؛ فقد كانت دار المعتمد البريطانى (السفارة البريطانية الآن)، التى بناها كرومر على شاطئ النيل معلماً من معالم القاهرة – التى زرتها– لأول مرة– فى يونيو 1956، عندما كانت اللافتات معلقة فى شوارع القاهرة، تعلن جلاء القوات البريطانية من منطقة قناة السويس؛ حيث كانت هناك منذ العام 1882. وكان كرومر موضوع أول مقال أكاديمى قمت بنشره بعنوان: "تأثير خبرة كرومر بالهند على السياسة البريطانية فى مصر 1883 – 1907"[3]. وقد زرت مؤخراً الأماكن التى أقام بها كرومر فى مالطا وكالكتا وسملا، فزرت البيوت التى سكنها، والمكاتب التى عمل فيها؛ لتتضح لى فكرة حياة الرجل الذى اختار الإقامة فى المدن الحارة الرطبة؛ حيث كانت جهوده الكبيرة ترافقها معيشة صعبة تفتقر إلى الراحة، فقد تم تنفيذ مشروعات كبيرة مثل خزان أسوان، ومواجهة كوراث طبيعية مثل المجاعات فى الهند، وحيث لا تتوفر الرقابة على السلطة الشخصية المطلقة، وحيث يستدعى وجود حكومة أجنبية مقاومة مستمرة من جانب المحكومين.

وأخيراً بعد ما قضيت معظم حياتى العملية فى كتابة التاريخ الإقتصادى والسياسى للشرق الأوسط، وتدريسه، تاقت نفسى إلى إرتياد مجال آخر من مجالات التاريخ؛ إذ لا يتوفر فى التاريخ الإقتصادى مساحة كافية لممارسة بعض المهارات التقليدية الحيوية مثل التخيل التاريخى الذى يحتاج المرء إليه لإمعان الفكر فى فترات زمنية معينة ليضع يده على بعض دقائق الأمور، وأنماط الحياة، والرؤى العالمية التى ميزتها.

[3] Roger Owen, St Antony's Papers, 17: Middle Eastern Affairs, 4, ed. Albert Hourani (London: Oxford University Press, 1965).

وكتابة الترجمة –أيضاً– لا تتطلب بالضرورة حدوداً كتلك التى يتطلبها التاريخ الإقتصادى، وإلى حد ما التاريخ الإجتماعى؛ فالسيرة تكتب على النحو الذى عاشه أصحابها؛ حيث تحكمها المصادفة والتلقائية ومحدودية الخيارات، فليس فيها تخطيط مسبق، وغالباً "لا تحدث الأمور هكذا، بل تعتمد على ما تأتى به الظروف" على نحو ما كتب بول باولز Paul Bowles فى توقيع على إحدى نسخ كتاب من كتبه[4]. وقد تبدو الطريقة التى عاشتها الشخصية المترجم لها ذات أبعاد إجتماعية مدهشة من وجهة نظر كاتب السيرة المبتدئ؛ فعندما ينظر الكاتب إلى المساهمات الشخصية للمترجم له فى صناعة السياسات وصياغة الأفكار، يكتشف أنه لم ينفرد وحده بذلك، بل شاركه فيه كل من جمعته به رابطة العمل، حتى يصبح تحديد صاحب المبادرة بدقة، أمراً بالغ الصعوبة، ولذلك يجب أن ننظر إلى كرومر بإعتباره محفزاً ومنسقاً، ومنفذاً، وحلالاً للمشاكل، ومبرراً. ولا يجب أن نرى فيه مفكراً أصيلاً على طريقته الخاصة، شأنه فى ذلك شأن الكثير من رجال الإدارة الإمبراطورية.

وكتابة مثل هذه السيرة تقدم عدداً من التحديات الواضحة: فإن تراث كرومر –من وجهة النظر العامة– وتأثير سياساته فى حياة ملايين المصريين (و200 مليون هندى قبل ذلك) سوف يظل موضع إختلاف فى الرأى، وقد لاحظ أندريه ريمون فى ذكرى مرور قرنين من الزمان على الغزو الفرنسى لمصر عام 1798 أنه "لا وجود لإحتلال يحظى بالرضى والقبول"[5]. غير أنه فى بداية القرن الحادى والعشرين بعد ما أصبحت الإمبراطورية من ظواهر الماضى البعيد، تصبح مناقشة مثل هذه الأمور أقل حدة وتوتراً، مما يفسح المجال أمام التحليل بدلاً من إطلاق الأحكام. وتظل كتابة التاريخ –دائماً– عملية تربط بين الجدل المتصل والمواقف السابقة و"المتزايدة فى التقييم"[6]. وهدفى هنا البحث فى التفسيرات السابقة بالرجوع إلى المصادر الأصلية الجديدة التى أستطيع الحصول عليها.

غير أنه فيما يتصل بكتابة التراجم، تبقى المشكلات الرئيسية المتصلة بكتابة سيرة إنسان آخر على حالها، رغم كل تلك الإثارة التى اتسمت بها مؤلفات كتاب التراجم الجدد مثل

---

[4] Quoted in New York Times, Book Review, 19, Dec. 1999, 39.

[5] Andre Raymond, Egyptiens et Francaises au Caire, 1798 – 1801 (Cairo: Institut FrancAis d' Archeologie Orientale 1998), 365.

[6] المصطلح ينسب إلى ديان جونسون، نيويورك ريفيو أوف بوكس، 19 أكتوبر 2000.

ريتشارد هولمز، وهرميون لى، ومايكل هولترويد، ... وغيرهم؛ فعند صياغة قصتك تسلك نهجاً قد يكون غريباً على المترجم له؛ لأنك تتعامل مع سجلات خاصة وعامة تعكس مختلف الأمزجة، وتتضمن فهماً مجتزئاً، ووجهات نظر مبدئية. وعليك أن تتبع الهدف المحرك للشخصية التى تدرسها فى مجال نموها، وما اتصل بالتغيرات الجسمانية والعاطفية التى طرأت عليها، وعليك أن تقنع بما يسمى "الذات المخترعة"، ونعنى بها محاولات الشخصية المترجم لها فى تقديم نفسها للعائلة والأصدقاء والزملاء، وكذلك لنفسها بقدر من الوضوح أو الغموض، ويبقى عليك مراعاة أن تظل الشخصية نابضة بالحياة على صفحات كتابك، وهو ما يعد أساسياً فى عمل كاتب السيرة.

وهو – دون شك– من الصعوبة بمكان، ولذلك يحرص كتاب التراجم على ذكر شئ من ذلك تأسياً بكبار الكتاب المرتابين الماثلين أمامهم. فعلى سبيل المثال، يرى و. م. ثاكراى أن محاولة فهم إنسان آخر محكوم عليها بالفشل، فقد أجاب يوماً أحد السائلين: "آه.. سيدى، إن هناك عاملاً متباعداً تحت قبعتك وقبعتى، فأنت وأنا لسنا سوى كائنات منعزلة تماماً... مع بعض الجزر التى تتفاوت فى القرب والبعد عن بعضها البعض"[7]. غير أن الإرتباط ببعض الشخصيات التاريخية، ومحاولة تكوين نظرة إجمالية عنها وتفسير تأثيرها فى مجالات معينة وجدت نفسها فيها، سوف يظل يمثل جانباً من عمل كاتب الترجمة، وغالباً ما يكون ذلك مجزياً لما يبذل من جهد.

وبالنسبة لإيفلن بارنج Evelyn Baring الذى أصبح اللورد كرومر عام 1892، يعد التحدى الذى تمثله دراسة شخصيته أمراً يتسم بأهمية خاصة نتيجة المحاولة المعتمدة التى قام بها كرومر فى بداية الستينيات من عمره، عندما تزوج مرأة أخرى، وأحس – فى الوقت نفسه– بدنو أجله، فنظم أوراقه بطريقة تتيح لمن يريد دراسته وفهمه أو كتابة ترجمة له أن يضع يده على مادة كاملة. ويتصدر هذا الجهد "الملاحظات المتعلقة بالسيرة Biographical Notes" التى يضمها مجلد يقع فى 400 صفحة يحمل تاريخ 12 نوفمبر 1905، لعله تاريخ قيام السيدة سبرنجنت بكتابته على الآلة، وعندها أصبح النص كاملاً، وهناك بعض الملاحق

---

[7] Quoted in John Sutherland's review of D. J. Taylor, Thackeray: "Wife Over board", London Review of Books, 20 Jan. 2000, 35 – 36.

القصيرة (من بينها مقتطفات من قصيدة لير كتبها كرومر نفسه، وأربع إضافات كتبت خلف الورق تحمل ثلاث منها تواريخ: 2 أغسطس 1910، و26 يوليو 1911، و15 فبراير 1915 على التوالى، أما الإضافة الرابعة فلا تحمل تاريخاً، ولكنها تشير مباشرة إلى وفاة السير الدون جورست. Eldo Gorst فى صيف العام 1911.

وقد أهدى "الملاحظات" إلى رولاند Rowland أكبر أبنائه الثلاثة، وجاء فى مقدمتها أنها "كتبت" فى ستراتمور لودج بإسكتلندا فى أغسطس 1905، حتى يقف الأبناء على سيرة والدهم من ناحية، وحتى يستخدمه أحد كتاب التراجم "إذا قدر لسيرة حياتى أن تكتب".

وتقدم مادة "الملاحظات" معظم ما هو معروف عن إيفلن بارنج وحياته الشخصية حتى ذهابه إلى الهند عام 1872 وهو فى الحادية والثلاثين من عمره، وهى تبين بعض مؤشرات التفكير أو الرغبة فى استقصاء الخيارات الشخصية وتحليل دوافعها، ولكنها قدمت بصورة تضفى قدراً من القوة على العقود الثلاثة الأولى من عمره، فيشرح كيف تحول من تلميذ مهمل لم يحصل إلا على قدر محدود من التعليم الرسمى إلى ضابط جيش شاب يميل إلى اللذات والتبذير، وكيف أصلح من حاله بنفسه عندما وقع فى غرام إمرأة طيبة، متأسياً بزملائه الضباط وأصدقائه الذين نالوا حظاً أوفر من التعليم، ورغم أن هذا الجانب كتب على نحو يوحى بأن الهدف منه التربية الخلقية لأولاده، فإنه كان بالغ الأثر على ماركيز زيتلاند عند كتابته للترجمة الرسمية لكرومر بعد خمسة عشر عاماً من وفاته[8]. ولا شك أن عمل زيتلاند يعطى جديداً لمصطلح "الكاتب المنتحل"؛ فقد استمد الإلهام من الشخصية التى ترجم لها وهى فى قبرها.

وقد بذلت أقصى الجهد حتى لا أقع فى الفخ نفسه، ولكن المادة الغزيرة التى تركها كرومر عن حياته الباكرة تجعل من الصعب تفادى ذلك. ومن بين محاولات التخلص من هذا المأزق، استخدمت الأدلة التى أغفلها كرومر نفسه مثل المعلومات المتصلة بإبنته غير الشرعية، أو صدامه باللورد ريبون Lord Ripon نائب الملك بالهند عام 1881 الذى كاد أن يودى به إلى الوقوع فى كارثة. ومن المحاولات الأخرى التركيز على البدائل الأخرى ذات

---

[8] طلب رولاند (إبن كرومر الذى حمل لقب والده لورد كرومر الثانى) من زيتلاند كتابة ترجمة لوالده:
Zetland to Boyle, 19 Feb. 1931, CP/ 3, file 1 / 4.

الطابع العام التى اتصلت بحياته، وخاصة تغيير مسار حياته العملية التى قادت إلى نيله التقدير ثم تقاعده الذى كان مثار الإهتمام العام. من ذلك – أيضاً– تتبع شخصية كرومر الفيكتورية فى مصر على مدار العام، حيث يبلغ النشاط ذروته ما بين ديسمبر ومايو بالقاهرة التى تمتلئ عندئذ بالزوار الأجانب، ثم إجازة الصيف السنوية التى تحمله إلى لندن لإنهاء بعض الأعمال الرسمية، ثم التوجه إلى إسكتلندا لممارسة الصيد وغيره من وسائل تمضية وقت الفراغ عند الطبقة العليا. ولكن جل إهتمامى إنصرف إلى دار المعتمد البريطانى بالقاهرة الذى ضم مقر الإقامة، ومكاتب الإدارة، مما مكن كرومر من الجمع بين الحياة الأسرية ومتابعة العمل الرسمى فى الوقت نفسه، والاختلاط بموظفيه وزواره وضيوفه يوميا. وقد وجدت ذلك مناسبا حتى أستطيع الكتابة عن زوجتيه، وزملائه، ورفاقه الذين قضوا دون أن يتركوا أثرا عن حياتهم الأسريه شأنهم فى ذلك شأن نساء العصر الفيكتورى اللواتى لا يأتى أزواجهن على ذكرهن فى يومياتهم أو مراسلاتهم مع الأصدقاء والاقارب، وكان هذا مصير سيسليا شقيقة إيفلن بارنج وزوجتيه إيثل وكاترين.

كلمة أخيرة أوجهها إلى أصدقائى المصريين. أعلم جيداً أن الكتابة عن شخصية ممقوتة عند المصريين كاللورد كرومر تجعلنى أخاطر بالظهور، وكأننى ألتمس الأعذار للحقبة الإمبريالية، وهو ما لا أقصده بكل تأكيد، وعذرى الأساسى أن المؤرخين الهنود إكتشفوا أن تاريخ البلاد فى عهد الاستعمار يمكن فهمه على ضوء التجارب التى تتصل به، والتى قد يدخلها الاستعمار إلى البلاد عن غير قصد، وقد اعترف بذلك بعض معاصرى كرومر من المصريين الذين كانوا على استعداد للإعتراف بالجوانب الإيجابية من حكمه أكثر مما فعل من جاءوا بعدهم. وفضلاً عن ذلك يشكل كرومر جانباً من تاريخ مصر بنفس قدر اتصاله بتاريخ بريطانيا.

ومن المسلم به الآن على نطاق واسع أن رجالاً مثل إيفلن بارنج. اللورد كرومر، إعتبروا أنفسهم إنجليزاً رغم أن دولتهم شملت إسكتلاندا وإيرلندا وويلز، وخدموا بالجيش الذى كان يعرف بالجيش البريطانى، ويمثلون ما سمى بالإمبراطورية البريطانية، وفى الصفحات التالية حاولت الحفاظ على هذا التمايز اللغوى فى ذلك العصر وحتى الآن، تاركاً كرومر

ومعاصريه يتحدثون عن انجترا أو عن القسطنطينية، أو عن المحمديين... إلخ، عندما أقوم بالكتابة عن بريطانيا واستانبول والمسلمين.

روجر أوين

كامبريج، ماساشوستس

مايو 2003

عرفان وتقدير

لم يكن باستطاعتى كتابة هذه السيرة لولا التعاون الكريم الصادق الذى لقيته من عائلة بارنج، وخاصة من الكونتيسة دواجر كرومر، واللورد كرومر (الرابع)، والسيدة فيفيان بارنج المحترمة، واللورد هوويك، فإليهم جميعاً أتوجه بالشكر والعرفان.

وما بقى، جاء نتاجاً لعمل وجهد فريق العمل، وأود أن أتوجه بالشكر للسادة الآتية أسماؤهم على ما قدموا من معلومات، وتوجيهى إلى بعض المصادر، ومساعدتى فى تحرير النص، والإهتمام بالاستماع إلى، وقراءة النص، وتزويدى بالنقد، وغير ذلك من العون المعنوى والثقافى:

جيوفرى آدمز، روجر أدلسون، شاهد أمين، توم أندروز، منى أنيس، بول اشترلونى، جيليان بارات، مارتن بارات، جراهام بويس، هيلين كالوواى، ستيوارت كاميرون، جون شالكروفت، جيل كريستى، أومادا جونتا، أيمن الدسوقى، جون فوكس، بيكولاس فراين، مارتن جلبرت، مروان حنانيا، روبرت هاريسون، فايزة حسن، القس تيرنس هيلى، جان هورتون (أرشيف الأوراق الخاصة بجامعة درام)، دافيد جونز (مكتبة مجلس اللوردات)، روث كيرشو، ذكرى لوكمان، س. ر. مهروتا، بيتر مللينى، جون أوربل، مرجريت أوين، أورسولا أوين، جون بارمر، سوزان بدرسون، كارول كنس بوب، سالى ريتشموند، جوهر رضوى، يوجين روجر، جون روبر، الأب جورج روتلر، جورج سكانلون، كاب شوكروس، ريلى ششتر، جينى سنيدون، أليس واير، ريتشارد ويلسون، دافيد ولتون.

وأخيراً أتوجه بالشكر إلى السادة الذين أذنوا لى بنشر صور من المجموعات التى لديهم أو الإقتباس من الوثائق الخاصة بهم والمحفوظة لديهم وهم: عائلة بارنج كرومر، والمكتبة البريطانية، ومكتبة هاتون بجامعة هارفارد، ومكتبة جامعة درام، ومركز الشرق الأوسط بسان أنتونى كوليدج (أوكسفورد)، ومتحف كرومر وولسنجام، ولندن برو أوف سيتون، وذا اللستراتد لندن نيوز، كوربس، روبرت باكستر.

الباب الأول
تربية الضابط والجنتلمان
(1872 – 1841)

الفصل الأول
الطفولة فى نورفولك
(1852 – 1841)

العائلة وغياب الوالدين

قام عمال التعداد بزيارة كرومر هول، وهو بيت حديث البناء على الطراز القوطى الحديث، يبعد نحو ميل ونصف الميل عن محلة لصيد الأسماك تسمى كرومر فى نورفولك، وكانت تلك الزيارة فى 8 من يونيو 1841. وفى استمارة بيانات التعداد التى حررها أولئك العمال نجد أن البيت يضم طفلين من الذكور هما:

السيد / توماس بارنج (وعمره عامان)، والسيد / إيفلن بارج (وعمره خمسة شهور)، ومعهما خمس خادمات من بينهن آن كوكس Ann Cox مربية الطفلين. أما والدا الطفلين فقد كانا – كعادتهما– يقيمان فى بيت لندن الكائن برقم 11 بيركلى سكوير مع إبنتهما سيسليا Cecilia وعمرها ثمان سنوات، والتوأم روبرت وريشتارد وعمرهما سبع سنوات، يتولى خدمتهم 14 من الخدم المقيمين. وغاب عن البيت وقت التعداد ولدان كبيران هما وليم ونداموWilliam Windham وإدوراد (ند) Edward (Ned)، فلعلهما كانا بالمدرسة.

ولما كان الطفل إيفلن أصغر أبناء الأسرة الكبيرة، يبلغ والده الخامسة والستين من عمره، فقد كان من المتوقع أن يعانى الطفل – الذى أصبح لورد كرومر فيما بعد– من الحرمان من رعاية والديه. ولعل ذلك جعله يشق طريقه فى الحياة بعد تحصيل قدر محدود من التعليم، واشتهر بالخشونة (والشقاوة) مما أكسبه إسماً للشهرة خلعته عليه الأسرة هو "مينا"؛ لأنه كان يلتقط أى شئ يقع فى يده، ويرمح به صائحاً "mine – e" (إنه لى).

كان هنرى (1776 – 1848) والد إيفلن ينتمى إلى عائلة تجارية ألمانية تدعى يوهان Johann (جون John فيما بعد) بارنج، نزحت إلى إكستر Exeter عام 1717. وأسس الإبن الثالث لجون، ويدعى فرانسس، بيتاً مصرفياً هو بنك جون وفرانسس بارنج وشركاه بلندن عام 1762. ونما ذلك البيت نمواً سريعاً من خلال إصدار الحوالات وخطابات الإئتمان التى شاع استخدامها فى تمويل التجارة أواخر القرن الثامن عشر ثم من خلال شبكة واسعة من

العلاقات السياسية والمالية، التى أتاحت للبيت المصرفى جنى أرباح كبيرة من القروض التى قدمها أثناء الحروب النابليونية. وفى مطلع القرن التاسع عشر، كان بيت بارنج المصرفى قد تصدر النشاط المصرفى بلندن، ثم ما لبث أن واجه منافسة من عائلة مصرفية أخرى هاجرت من ألمانيا إلى لندن هى عائلة روتشيلد[9] Rothschils.

ومثلما كان الحال بالنسبة لعائلة التجار المصرفية الأخرى، تزوج آل بارنج من بنات العائلة الكبيرة، وأرسلوا أولادهم إلى أجود المدارس، وبنوا أو إشتروا بيوتاً ريفية، ورسم صورهم كبار الرسامين من أمثال جانسبوره Gainsborough ولورانس Lawrence، وأقاموا علاقات سياسية إستراتيجية، ودخلوا البرلمان، ونالوا ألقاب الفرسان، وأصبحوا بكل الطرائق يحتلون مركزاً بارزاً وسط عالم أقطاب الرأسمالية الذين كانوا القوة الدافعة للتوسع الإمبريالى فى القرن التاسع عشر على نحو ما يذكر كين وهوبكنز[10]. وأصبح وضعهم فى هيكل الطبقة مستقراً، ولكن لا نعرف ما إذا كان ألكسندر بن فرانسس بارنج الذى حصل على لقب لورد أشبورتون Ashburton عام 1793 هو أول من دخل فى زمرة الأرستقراطية، فيذكر إدجار فنسنت Edger Vincent الذى عمل مستشاراً مالياً لإيفلن بارنج بمصر فى منتصف الثمانينيات من القرن التاسع عشر، إن إيفلن بارنج وعمه لورد نورثبروك لا يزالان من رجال الأعمال الكادحين "لا تتجاوز أحلامهم حدود الطبقة الوسطى من التجار"، على نحو ما جاء بيومياته الخاصة[11]، وعلى عكس الطبقة الأرستقراطية القديمة لا يمكن أن يطوى النسيان المصادر التى كونوا من خلالها ثروتهم.

ومن المفيد أن نشير عند وصف آل بارنج بإعتبارهم من النخبة الإجتماعية الثرية إلى أنهم "مروا فى شبابهم بعملية تعليمية طويلة المدى استندت إلى قواعد الشرف التى تجمع بين الأصول المسيحية والإقطاعية معاً، تلك القواعد التى أعلت من شأن الواجب، وجعلت له الأولوية حتى على التقدم الشخصى. وعندما تقدم بهم العمر إحتلوا موقعاً اجتماعياً وفر لهم

---

[9] للوقوف على تاريخ أسرة بارنج، راجع:
Philip Ziegler, The Sixth Great Power: A History of one of the Greatest of all Banking Families, the House of Baring 1762 – 1929 (New York: Alferd Knopf, 1988). For the Rothschilds, Niall Ferguson, The World's Banker: The History of the House of Rothschild (London: Weidenfeld & Nicolson, 1998).

[10] Cain and Hopkins, British Imperialism, Ch. 1.

[11] Note, 29 Aug. 1884, DP, Add. MS 48948, 112.

قدراً كافياً من الترف الذى هيأ لهم سبيل ممارسة فنون الطبقة الأرستقراطية كالقيادة، والإدارة، والمسابقات الرياضية"[12]. ويذهب كين وهوبكنز إلى أن الأرستقراطية الرأسمالية تبنت رؤية واحدة للعالم والكيفية التى يجب أن يكون عليها، وكانت المنازعات بينهم تعالج بإعتبارها خلافات داخل الأسرة الواحدة الكبيرة "فالحديث عن الخلافات يدور بصراحة؛ لأن القيم المتصلة بها لم تكن موضوعاً للخلاف"، ولأنهم كانوا يدركون تماماً أن ما يجادلون فيه يعد الطريق السوى لتحقيق أهدافهم المشتركة[13].

كان هنرى والد إيفلن هو الإبن الثالث لفرانسس، وما لبث ولعه بالأرقام أن اقترن بسوء السلوك، فأرسلته أسرته إلى الصين عندما كان فى الخامسة عشرة من عمره، ولكن تلك السفرة لم تجد معه نفعاً، فعند عودته أصبح ميالاً للعبث بارعاً فى القمار حتى إن أسرته لم تسمح له بلعب دور بارز فى أعمال البيت المصرفى، رغم أنه ظل شريكاً بالبنك من الناحية القانونية حتى العام 1823[14]. ووفقاً لما يذكره إيفلن، حصل هنرى على بيته فى بيركلى سكوير عندما ربحه من لورد أكسورد على مائدة القمار[15]. وما لبث هنرى أن ازداد فظاظة عندما تزوج وطلق إمرأة أمريكية كانت بنتاً لأحد أعضاء مجلس الشيوخ يدعى وليم بنجام William Bingham من فيلادلفيا، وأنجب منها ثلاثة أولاد وبنتين. وتزوج ثانية من سيسليا آن بنت الأدميرال وليم وندام Admiral William Windham من فليرج هول قرب كرومر، وكانت فى العشرين من عمرها عندما بنى بها هنرى الذى كان – عندئذ – يقترب من الخمسين. وولد لهما أول طفل (وليم) فى أبريل 1826، ثم ند عام 1828 الذى أصبح رئيساً لبيت بارنج. وجاء مولد الإبن السادس (إيفلن) فى 26 فبراير 1841، والطفل الأخير (والتر) عام 1844.

ورغم فارق السن، نجح هنرى وسيسليا فى زواجهما بفضل إنغماسهما فى الحياة الإجتماعية اللندنية، فكانت لهما دائرة واسعة من الأصدقاء السياسيين من بينهم رئيس الوزراء المحافظ السير روبرت بيل Sir Robert Peel فقد أيدوه فى المناقشات التى دارت حول قوانين القمح

---

[12] Cain and Hopkins, British Imperialism, 23.
[13] Ibid. 28 – 9.
[14] Ziegler, Sixth Great Power, 40 – 7.
[15] BN 10.

رغم كونهم من الأحرار، وبذلك وضعوا أنفسهم فى معسكر المحافظين من أصدقائهم وجيرانهم من ملاك الأراضى، وكان هنرى يحظى بشعبية كبيرة فى نوادى لندن. وكان لسيسليا الفضل فيما حققته الأسرة من نجاح، فقد كانت رفيعة الثقافة تتكلم الفرنسية والألمانية والإيطالية بطلاقة وذات إلمام جيد باللاتينية واليونانية، وكانت تعشق السفر والترحال، كما كانت تتمتع بصوت أوبرالى جيد – على نحو ما يذكر إيفلن – تلقت تدريباً على يد روسينى وغيره من المغنيين والموسيقيين الإيطاليين[16].

ولعل ثقافة السيدة سيسليا جعلتها موضع ثقة شارل جرافيل Charles Greville كاتب اليوميات والمعلق السياسى البارز فى عصره، فكانت تلتقيه وتتحدث إليه فى لندن، أو تكتب له عندما تنتقل إلى كرومر هول. وتفيض خطاباته الموجهة إليها بالمناقشات السياسية والدينية، كما تتضمن بعض ما يشاع عن فضائح الشخصيات البارزة فى تلك الأيام، بما فى ذلك الإشارة إلى الخيانات الزوجية، وحالات الطلاق التى أطاحت بها ظروف صعبة بين أطرافها من الطبقة الأرستقراطية. كما تتضمن تلك المراسلات نصائح عالمية الطابع حول طرائق تربية الأطفال. وكتب لها فى العاشر من يناير 1842، قبل مرور عام على مولد إيفلن: "يسرنى أن أعلم أن أولادك يبعثون الرضى فى نفسك بمستقبل زاهر، ولا يخالجنى الشك أنهم سوف يحققون آمالك، ولكن لا يجب أن تبنى آمالاً عريضة وتتوقعى منهم أن يكونوا نموذجاً للطهارة حتى لا يصيبك الإحباط"[17].

كانت "كرومر هول" دار الأسرة التى قضى بها إيفلن بارنج السنوات الأولى من عمره، داراً مستأجرة من خالته كونتيسة ليستويل. وقد إحترق البيت الأصلى عام 1829 وأعيد بناؤه من الحجر الصوان على الطراز القوطى الحديث. وبعد مرور سنوات طوال، زار السير آرثر كونان دويل Sir Arthur Conan Doyle الدار حاملاً معه فكرة إقامة المبنى الكئيب "باسكرفيل هول"، كانت الدار – من وجهة نظر أحد مؤرخى الفن "تبدو بيتاً ريفياً قوطى

[16] BN 46 – 7.
[17] Greville to Mrs Baring, 10 Jan. 1842, GC, Add. MS 41184.

الطراز الملئ بفتحات إطلاق النار (المغازل)، أغبر اللون، يعبر عن الإنحطاط المأساوى[18]. ولا تزال هذه الفكرة المنفرة من هذا الطراز شائعة حتى اليوم.

وعلى كل، هناك رسم للدار نحو العام 1850 يشير إلى قيامه وحيداً فى فضاء رحب، أمامه مناظر ريفية خلابة، يقع على مسافة كبيرة من كنيسة كرومر وشاطئ البحر من خلفه، بيت أنيق من طابقين له خمسة عقود فى الوسط، تعلوه عدة مداخن تتخذ شكل الأبراج. ولعل هذا البيت الكبير كان عند إيفلن الطفل مثيراً غامضاً، يحتشد بالخدم والزوار، ولكنه يخلو لفترات طويلة من الدفء العاطفى، والرعاية الأبوية.

ومحلة "كرومر" ذاتها كانت مرفأً صغيراً لصيد الأسماك وتشتهر بأسماك الرنجة وسرطان البحر بمختلف أنواعه (الكابوريا والإستاكوزا)، وكان يسكنها 1200 نسمة، واشتهرت فى الأربعينيات من القرن التاسع عشر كمكان مناسب للسياحة لتمتعها بشاطئ رملى ومناظر خلابة[19]. وكان كرومر يخوض معركة حامية ضد زحف البحر عليها، شأنها فى ذلك شأن غيرها من الأماكن الواقعة على شاطئ نورفولك؛ فقد اجتاحت عاصفة وقعت فى العام 1837 قسماً كبيراً من الروابى التى أقيمت عليها البيوت. وكان حاجز الأمواج الذى بنى بعد ذلك بعام لحماية كرومر إجراء إتخذ على سبيل التجربة. ولا يتوفر بها ما يجعلها مرغوبة لأبناء بارنج، فليس بها فندق، ولا توجد بها إلا كنيسة صغيرة ومكتبة جوالة، لذلك وجدت الأسرة فى لندن مكاناً للتسلية، وشغلت وقت الإقامة بكرومر فى زيارة البيوت الأرستقراطية الكبرى بالإقليم، واستقبال الزوار من الأصدقاء، وخاصة فى موسم الصيد البرى.

لا مفر أمامنا من الإعتماد تماماً على ما كتبه إيفلن عن السنوات الأولى من عمره فى "ملاحظات حول السيرة"، وليس غريباً أن يحتاج المرء من حين لآخر لقراءة ما بين السطور للوقوف على حقيقة علاقته بوالديه. فيذكر أن والده كان عجوزاً بعيداً عنه، لا نفع منه حتى نهاية حياته، وأنه لم يره إلا قليلاً، بل كان والده – عنده– ينتمى إلى عصر آخر، فيصفه قائلاً: "كان أرستقراطياً عجوزاً، يرتدى لفاحاً خشناً أبيض اللون، وسروالاً من قماش نانكن

---

[18] Review of Richard Davenport – Hines, Gothic, Times Literary Supplement, 22 Jan. 1999, 12.

[19] Samuel Lewis (ed.), A Topographical Dictionary of England, 7th edn., vol. I (London: Samuel Lewis, 1848), 730.

(نسيج قطنى متين صنع يدوياً بالصين) مغلق بالأزرار عند مفصل القدم، يتعاطى النشوق من علبة ذهبية قديمة الطراز، ويمتطى فى رحلة الصيد جواداً شرساً حسن التدريب"[20].

كان إيفلن يقدر لأمه فضلها عليه، رغم أنها لم تقترب منه واعتبرته غبياً أو – على حد تعبيره– "غبى العائلة"[21]، ولكن خطابات جريفل إليها تكشف عن قلقها على أولادها من حيث تربيتهم ومستقبلهم. ويذكر إيفلن نفسه أنها إحتفظت بإحدى قصائده الأولى فى كشكول خاص يجمع ما يجذب الإهتمام من المأثورات، وكان عنوان القصيدة "حصار جبل طارق"، جاء فيها:

عندما ظهر الإسبان أمام جبل طارق
أصلاهم إليوت الشجاع ناراً حامية
فماتوا جميعاً غرقاً فى البحر
ما عدا نفراً قليل تم إنقاذهم[22].

ورغم عدم استطاعتنا الوقوف على حقيقة الأمر، يبدو أن إيفلن الصغير وجد نفسه مضطراً لجذب انتباه أمه من خلال الصراع مع أشقائه الكبار وأخيه الصغير والتر، مدعياً السذاجة والغفلة، جامعاً معها العنف (والشقاوة).

وعندما أعاد إيفلن النظر إلى سنوات عمره الأولى فى شيخوخته ذكر أنه يعتقد أن والدته وجهته "من خلال القدوة وليس من خلال الحث على التمسك بالأصول المرعية"؛ فقد كانت فكرتها عن تنمية شخصية أولادها، تركهم وشأنهم بعيداً عنها أطول فترة ممكنة، فيقول "إن أحداً لم يقوم سلوكى فى طفولتى فكان على أن أكتشف بنفسى ما يجب أن أقول وأن أفعل"[23]. ولا ريب أن هذا الإهمال كان مؤلماً للطفل عندئذ، وخاصة أن سيسليا كانت تضحك ساخرة من تصرفات أولادها، وهو ما اعتبره إيفلن – فيما بعد– خطأً جسيماً، "فالصغار حساسون ولا يتحملون السخرية منهم"، غير أنه لم يكف عن السعى لنيل احترامها

[20] BN 10.
[21] Bn 15.
[22] BN. 11.
[23] BN 47 – 8.

"فقد اعتبرتنى شديد الغباء، مما جعلنى أبذل الجهد كى أتعلم"[24]. ولا ندرى متى بدأ إيفلن محاولته تلك، ولكنه لم يحقق قدراً ملموساً من التقدم عندما بدأ تعلم اليونانية القديمة عندما كان ضابطاً بحامية كورفو أوائل الستينيات من القرن التاسع عشر عندما زارت أمه الجزيرة، وأطلعها على ما حصله من اليونانية القديمة.

كان توم – الأخ الأكبر– خير رفيق لإيفلن، وظل وثيق الصلة به مدى الحياة. وتولت مربيتهما آن كوكس التدريس لهما، ويبدو أنها تمتعت بشخصية متميزة، فقد كان زوجها رقيباً مجندا بالجيش، فلقنتهما بعض أغانى الجندية[25]. واعتبرها شارل جريفل مصدراً لما أسماه "حكاوى المربيات"، وكثيراً ما طالب سيسليا أن تزوده بالكثير منها[26]. وفيما بعد، وضع الأولاد فى رعاية معلمة تدعى الآنسة إلهارد Ilhardt "كانت ماهرة، حادة الطبع"، ما لبثت أن تركت خدمة آل بارنج بعد وقت قصير لتصبح معلمة أطفال الملكة فيكتوريا بقصر وندسور[27]. ولعل استخدام آل بارنج لهذه المعلمة الألمانية يكشف عن حرصهم على الإحتفاظ بروابطهم الثقافية الأصلية. كما أبدت الأسرة إهتماماً بالأدب، فيذكر إيفلن أنه قرأ أحد أعمال السير والترسكوت وهو فى الثامنة من عمره، كما أحب قصص الهنود الحمر، وتأثر بتلك القصص فى اللعب مع إخوته، فكان كل منهم يتقمص إحدى شخصيات الرواية، عندما يلعب دورها[28].

وكان من مصادر تعليم الأولاد تلك العظات الطويلة التى كان يلقيها كاهن كنيسة الأسرة "كنيسة القديسين بطرس وبولس" فى كرومر. كان الكاهن شاب يلقى عظاته بلهجة نورفولك وصفه إيفلن "بالبروتستانتى المتشدد الذى يرى أن بابا روما مصدر الشرور فى العالم"[29]. وفيما عدا ذلك كان الأولاد يقضون وقتهم خارج البيت مع غيرهم من اللاعبين، وإطعام الدواجن صيفاً، وصيد الأرانب شتاءً، وكان ذلك كافياً لتدريب الولدين على استخدام السلاح، وهى مهارة لازمتهما طول حياتهما.

---

[24] BN 49.
[25] BN 8 – 9.
[26] BN 9.
[27] BN 16.
[28] Ibid.
[29] BN 21 – 2.

أما المعلومات عن العالم خارج حدود "كرومر هول" فاكتسبها إيفلن من الزوار الذين ينزلون فى ضيافة الأسرة، أو أثناء رحلة الصيف إلى لندن بعدما شب قليلاً عن الطوق وكان من بين زوار "كرومر هول" أعضاء أسرة والدته، منهم خاله هنرى الذى كان ضابطاً بالبحرية، ويذكر إيفلن أن خاله علمه أغنية البحرية: "سفننا صنعت من قلب البلوط ورجالنا من القار الساخن، سنقاتل ونغزو الأقطار مرات ومرات"[30]. وجاء الزوار الآخرون من مجالات مختلفة تماماً مثل السير روبرت بيل Robert Peel الذى أهدى إيفلن كتاب "حكايات بيتر بارلى" واضعاً إسمه على صفحة العنوان، أو اللورد أوكلاند ضعيف البصر الذى أطلق الرصاص على أحد رجاله وكان يرتدى معطفاً من الفراء الأسود، فظنه فريسة[31].

وكانت الزيارات لبيت الأسرة بلندن أكثر إثارة. لم يكن هناك خط حديدى يربط كرومر بلندن حتى العام 1877، فكانت الأسرة تستخدم الطريق البرى قاطعة مسافة 130 ميلاً عبر نورفولك، وإبوتش، وكولشستر، وكان الوالدان يركبان عربة مكشوفة تسمى "برشكا" يتبعهما الأولاد والخدم والمتاع فى عربات مقفلة تجرها الخيول، ويذكر إيفلن أن موقعة ووترلو كانت تدور مرة أخرى على مائدة الطعام بلندن كل مساء. ويذكر أنه التقى دوق ولنجتون أثناء عودته وتوم بصحبة المربية بعد اللعب بحديقة هايد بارك؛ فعند المرور أمام بيت آسبلى، عبرت المربية عن احترامهما لرجل عجوز أشيب الشعر محنى الظهر، وعندما سأل الرجل عنهما، وعلم من المربية أنهما ولدا هنرى بارنج، ربت على رأسهما، وقال إنه يعرف والدهما[32].

وفى إحدى زياراته للندن عام 1846، يذكر إيفلن أنه رأى حشداً من الناس يقفون إلى جانب الطريق فى إنتظار شخص يدعى إبراهام باركر، كان فى حقيقة الأمر إبراهيم باشا نجل محمد على باشا حاكم مصر[33]. وفى لندن كانت وفاة والده فى 13 من أبريل 1848 عندما كانت نخبة المدينة تتهيأ للقيام بمظاهرة ضخمة فى هايد بارك حاملين وثائق المجلس

---

[30] BN 5 – 6.
[31] BN 21.
[32] BN 6.
[33] BN 7.

الخاص، مبدين استعدادهم لإطلاق النار على كل من يعرض مصالحهم للخطر[34]. ومنذئذٍ لم تعد الحياة إلى سيرتها الأولى.

الولد الشرس يرسل إلى المدرسة

كان أول قرار اتخذته سيسليا بعد وفاة زوجها إرسال توم وإيفلن إلى المدرسة، والصلة واضحة بين الحدثين؛ ففى خطاب أرسلته إلى جريفل بعد ما يزيد على العام، عبرت سيسليا عن قلقها على أولادها، فرد عليها قائلاً: "إن البحث عن موقع للأولاد وتصريف شئونهم أمر بالغ الصعوبة". كان وليم – أكبر الأبناء– فى الثانية والعشرين "مصدر الحرج"، فحاول الدخول فى خدمة الكنيسة، ولكنه كان "لا يفعل شيئاً". وكان التوأم مشكلة أخرى، إدوارد وحده كان على استعداد للعمل بالبنك، وكان سنه عشرين عاماً عند وفاة أبيه. أما ند، فقد تنبأ له جريفل أن "يصبح مليونيراُ ويتولى رئاسة البيت المصرفى"[35]، ومهما كانت نتيجة هذه النبوءة، فقد دفع إيفلن وتوم جانباً من الثمن، وكان إيفلن فى السابعة عند إتخاذ القرار، وكان (من وجهة نظره) صغيراً على الإلتحاق بالمدرسة، ولكنه يقر أنه كان "يستعصى على التوجيه"، وكانت آخر وقائعه مطاردة معلمته الخاصة الألمانية بالسيخ الذى يستخدم فى إزكاء نار المدفأة بعد ما سخنه حتى درجة الإحمرار[36].

وكانت المدرسة التى وقع اختيار أمه عليها تقع فى بيت القس فردريك بيكمور الذى كان يقبل الأولاد من أبناء الريف الأثرياء شأنه فى ذلك شأن غيره من رجال الدين فى مطلع العصر الفيكتورى، ويذكر إيفلن أن من بين تلاميذ المدرسة أبناء الأدميرال وودهاوس، واللورد شافتسبورى، وعائلة لامتورن، وأولاد خاله الأول فريدريك ويدام[37]. ومن بين الطلاب الأخيرين بالمدرسة الذين سجلوا كمقيمين بتعداد عام 1851، نجد أبناء جون موت قاضى فض المنازعات فى كرومر. وكان القس بيكمور قد تولى التدريس لأبناء السير جون بواليه من قبل، وكان بواليه قد اشترى ضيعة فى نترنجهام قرب نورويتش عام 1841، ولم يكافأ

---

[34] Charles Greville Memories: Reign of Queen Victoria 1837 – 1852, vol. III (London: Longmans, Green, 1885), 164 – 65.

[35] Greville to Mrs. Baring, 15 Dec. 1849, GC, Add. MS 41185.

[36] BN 25.

[37] BN 30 – 1.

القس بيكمور بالزواج من الآنسة براموند معلمة بواليه فحسب، بل أقام بأحد بيوت الضيعة الحسنة هو "هيثل هول"، وهو بيت بنى على طراز بيوت أواخر القرن الثامن عشر به حديقة إضافية يطل عليها المطبخ. وبعد قرن من الزمان استخدمه رجال القاعدة الجوية الأمريكية كمطعم لهم خلال الحرب العالمية الثانية، وهدم عند نهاية الحرب وفى عام 1851 كان يقيم بالبيت بيكمور وزوجته، وثمانية من التلاميذ أحدهم إيفلن فى السابعة، والباقون تتراوح أعمارهم بين الثمان سنوات والثلاثة عشر عاماً، أضف إلى ذلك طباخ وحوذى وثلاث خادمات.

وليس غريباً أن نجد إيفلن يحتفظ فى آخر العمر ببعض الذكريات الطيبة عن هذا المكان، فيذكر أن القس بيكمور كان عاملاً كلاسيكياً "ولكنه لم يعلمنى الكثير"، واتخذ من كتاب أرنولد فى قواعد اللغة اللاتينية أساساً للتدريس، ولكنه كان يعنف إيفلن، ويرى "أنه قادر على التعلم، ولكنه لا يريد ذلك". بينما تسلحت السيدة بيكمور بمسطرة طويلة وحاولت عبثاً أن تعلمه العزف على البيانو[38]. لم تكن الأمور تبدو مناسبة لإيفلن منذ البداية، فقد تعارك مع ألبرت وودهاوس بعد ساعة واحدة من وصوله إلى المدرسة[39]. وحدث بعض التحسن فيما بعد، ولكنه ظل يعامل مدرسه وكأنه "عدوه الطبيعى" شأنه فى ذلك شأن غيره من الأطفال[40]. وفى مرحلة تالية من حياته، أحس إيفلن بالإرتياح عندما تواصل مع بعض زملائه السابقين فى هذه المدرسة الذين شاركوه تجربة هذا النوع من مدارس العصر الفيكتورى. فاللورد سولسيرى على سبيل المثال يحمل ذكريات حزينة لمدرسة القس فرانسس فاثفل التى أرسل إليها وهو فى السادسة من عمره، وعد تجربته بها "حياة فى وكر الشياطين"[41].

وكان إيفلن حاضراً عندما وقع النزاع – الذى اشتهر فيما بعد– بين السير جون بواليه، وكاهن محلى يعرف بإسم القس وليم آندرو الذى طرد من "هيثل هول" ليحل محله القس بيكمور[42]. فقد رفض آندرو الإقامة داخل حدود الإبراشية إنتقاماً من السير جون بواليه، ورفض إلقاء المواعظ التى طلبها سيد الضيعة، وقد سجل القس آندرو تفاصيل الصراع فى

---

38 BN 30.
39 BN 26.
40 BN 30.
41 Andrew Roberts, Salisbury: Victorian Titan (London: Weidenfeld & Nicolson, 1999), 8.
42 Owen Chadwick, Victorian Miniature (London: Hodder & Stoughton, 1960), 46.

يومياته[43]. ووجد القس بيكمور أن من الحكمة الوقوف وراء السير جون بواليه، وقام بإلقاء المواعظ التى رفض آندرو إلقاءها.

وشهد إيفلن بعض الأحداث المثيرة التى اتصلت بهذا الصراع، بداية من مقتل أحد الفلاحين المحليين عام 1849، فيذكر فى "الملاحظات" أنه علم بمقتل الفلاح من القس بيكمور نفسه الذى ارتدى معطفه، وهرع إلى الضيعة فى حالة غضب[44]. وبعد القبض على الجانى فيما بعد، ألقى القس آندرو موعظة اشتهرت فى طول البلاد وعرضها، بكنيسة كيترهام فى أبريل 1849، ومن المحتمل أن يكون إيفلن وزملاؤه قد حضروا تلك المناسبة، وقام آندرو بزيارة القاتل فى سجنه قبل إعدامه وتحدث معه عن ضرورة التوبة. أصبح بدوره موضوعاً لموعظة أخرى استغرقت 140 دقيقة ذكر فيها أن مبدأ الخلاص لا يستند إلى إرادة الفرد، ولكنه يعود إلى الإرادة الإلهية الحرة، وأن على المسيحيين أن يدركوا طبيعة العالم ومغرياته (مشيراً إلى المراقص والمسارح وصحيفة يوم الأحد على وجه الخصوص)، وأن عليهم أن يبحثوا فى نفوسهم ليروا ما إذا كانت الحياة تقودهم إلى الهاوية، وقد أثارت الموعظة اهتمام سكان المنطقة، ثم طبعت لتحظى بانتشار وقبول فى جميع أنحاء البلاد[45]. وإذا كان إيفلن إبن الثامنة حاضراً تلك الموعظة، فلابد أن تكون قد دفعته إلى التفكير فى الأمر.

ومن الأمور الأخرى التى يذكرها إيفلن إنتظار زملائه الكبار وصول حلقات دافيد كوبر فيلد إلى مدرسة هيثل هول بقدر كبير من الترقب، ولما كانت معظم أحداث القسم الأول من الرواية وقعت فى نورفولك، فقد أدى ذلك إلى تقوية حاسة التوقع عندهم. وكان باركز الحوذى الحزين فى هذا العمل يذكره بالحوذى الخاص بأسرته المسمى دان الذى كان يقود عربته وتوم عبر نورفولك إلى طريق كرومر أيام الإجازات، فقد كانا يتشاجران حول من يجلس بجوار الحوذى على المقعد المخصص للقيادة[46].

وكانت نهاية وجود إيفلن فى تلك المدرسة مرهونة بقرار والدته، التى اتخذت قرارها بعد الكثير من التردد، استجابة لنصيحة جريفل بإخلاء كرومر هول عام 1852، والإقامة

---

[43] استخدم تشاويك هذه اليوميات، انظر: .Ibid

[44] BN 26.

[45] Chadwick, Victorian Miniature, 113 – 18.

[46] BN 29.

الدائمة فى بيركلى سكوير بلندن. وفى إطار الوضع الجديد قررت أن ترسل توم (الأكثر ذكاء) إلى مدرسة إيتون، وأن ترسل إيفلن إلى المدرسة النظامية التى أنشئت حديثاً فى كارشالتون بمنطقة سارى، وهى مدرسة عسكرية تعد التلاميذ للإلتحاق بالأكاديمية العسكرية الملكية فى وولوتش. وكان الإلتحاق بالمدرسة يقتضى إجتياز إختبار القبول، ولهذا السبب حول القس بيكمور الشهور الأخيرة لإيفلن بالمدرسة إلى جحيم؛ فقد كثف الدروس فى الوقت نفسه الذى بدأ فيه تعلم اليونانية[47].

وهكذا انتهت السنوات الإحدى عشرة الأولى من عمر إيفلن حيث قضى معظمها فى نورفولك، وجاء إختياره للقب لورد كرومر عندما نال رتبة البارونية عام 1892 دليلاً على تأثره الكبير بالمكان رغم أنه لم يعد إليه مرة أخرى إلا لماماً، ولم يقم به أبداً بعد مغادرته مدرسة بيكمور. وقد اكتسب من محصلة تلك السنوات لهجة نورفولك ومجموعة من الأصدقاء والعلاقات الإجتماعية، ومجموعة من الذكريات التى رغم اختلاطها قدمت له زاداً عاطفياً عاش عليه بقية حياته، لعل جانباً منها يتمثل فى ذكريات التنقل بين أرجاء الضيعة فى كرومر هول، وثمة جانب آخر يتمثل فى تأثير مناظر الريف المنبسط تحت سماء نورفولك، والطريق بين نورفولك ولندن ومدرسة بيكمور، والمناظر الطبيعية على شاطئ بحر الشمال.

وفى نورفولك على أيام إيفلن سادت العلاقات الإجتماعية الريفية السابقة على العصر الصناعى، والتى يحس بها كل من ولد هناك؛ حيث قامت علاقة السيد بالخادم على أسس ريفية خلت من الصراع المادى الأجوف، كما خلت من الصراع الطبقى الذى نجده فى المدن الصناعية البريطانية. ومن ترك نورفولك غالباً ما يجدها على النحو الذى تخيله فى أماكن أخرى فى قرى أفريقيا وآسيا، فيشعر فى تلك المجتمعات بالألفة التى تعوضه الغياب عن الوطن. وعلى حد قول كين وهوبكنز: "نظر هؤلاء إلى النزعة الأبوية للإمبراطورية نظرة السيد إلى ضيعته الجديدة"[48].

---

[47] BN 31.

[48] Cain and Hopkins, British Imperialism, 34
وقد أخذت هذه الفكرة عن شومبيتر، انظر:

الفصل الثانى
التعليم العسكرى (1852 – 1858)

مدرسة كارشالتون النظامية

كانت المدرسة العسكرية التى أرسل إليها إيفلن بارنج عام 1852، وهو فى الحادية عشرة من عمره قد أنشئت قبل ذلك التاريخ ببضع سنوات بهدف إعداد الصبية للإلتحاق بالأكاديمية العسكرية الملكية بوولوتش، ولم تحقق المدرسة النجاح، فألغيت عام 1859 بعد عشر سنوات من إنشائها نتيجة الخلاف الذى نشب بين معلميها. واتخذت لنفسها مكاناً فى كارشالتون هاوس الذى بنى معظمه على يد تجار شركة الهند الشرقية فى القرن الثامن عشر، وتم تأجيره إلى مجلس إدارة المدرسة النظامية عام 1847، ويوضح رسم يعود إلى عام 1850 أن المدرسة كانت بناءً ضخماً من ثلاثة طوابق، بنى من الطوب البنى المائل للصفرة مع زخارف من الطوب الأحمر الأجود نوعاً، ونوافذ حجرية. كما كانت بها حديقة واسعة ذات بحيرة كبيرة بها جزيرة يقوم عليها جسر بديع المنظر. ويوضح الرسم مجموعة من الأولاد يرتدون سترات مدرسة إيتون وقمصان بيضاء وأغطية للرأس يجلسون أو يقفون حول البحيرة، أو يجدفون فى قاربين، ومازال البيت قائماً حتى اليوم يضم مدرسة القديس فيلومينا الكاثوليكية الرومانية للبنات.

وعندما التحق إيفلن بارنج بالمدرسة، كانت تضم ناظراً ومساعدين وإثنى عشر خادماً[49]، وكانت تتسع لنحو مائة طالب، وإن كان عدد الطلاب المقيمين بها فى منتصف الخمسينيات من القرن التاسع عشر لم يتجاوز الثمانين طالباً إلا قليلاً[50]. ووفقاً للائحة التى نشرت عام 1849، فإن القبول بالمدرسة يتم باختبار ناظر المدرسة للمتقدمين (وكان الناظر – عندئذ– من أصدقاء آل بارنج)، والنجاح فى امتحان القبول والكشف الطبى، وفيما يتعلق بالإمتحان كانت هناك مادتان: أولهما اللغة الإنجليزية فكان يجب على الطلاب أن يحسنوا الهجاء،

Schumpeter, Imperialism and Social Classes, trans. Heinz Norden (New York: A. M. Kelley, 1951).

49 Captain F. G. Guggisberg, "The Shop": The Story if the Royal Military Academy, 2nd edn. (London: Cassell, 1892), 69.

50 BN 32.

والإملاء، والإنشاء. وثانيهما الرياضيات، فكان على الطالب أن يؤدى إمتحاناً فى الحساب يضم مسائل متنوعة فى الجمع والقسمة والضرب. وكان الإمتحان يجرى بمعرفة ناظر المدرسة، ولما كان إيفلن بارنج لا يذكر أنه قام بتأدية هذا الإمتحان، يبدو أن الأولاد ذوى الواسطة كانوا يقبلون بمجرد إجراء الناظر لمقابلة شخصية معهم[51].

وكانت مدة الدراسة بالمدرسة ثلاث سنوات، يعقد فى آخرها امتحان للتخرج يتخذ أساساً للقبول بالأكاديمية الملكية العسكرية، ويتضمن ذلك الإمتحان: اللغة الإنجليزية والحساب، والجبر، والهندسة، والرسم، والتاريخ، ثم أخيراً المعرفة الدقيقة للإنجليزية، والمعلومات العامة التى تتضمن الإلمام بالوقائع التاريخية المهمة قديماً وحديثاً. وكانت هناك رسوم للتخرج تتفاوت بتفاوت المستوى الإجتماعى للخريج، أعلاها من هم فى مستوى إيفلن بارنج (أى أبناء الأعيان ممن ليسوا ضباطاً بالجيش أو البحرية) فيدفعون 110 جنيهاً فى السنة، وفى السنوات الأولى للمدرسة كان الزى الإجبارى يتكون من معطف، وثلاث سترات، وثلاثة سراويل ذات لون قاتم، وعشرة قمصان بيضاء، وتسعة مناديل جيب، وثلاثة أحذية، وست مناشف، ولكن فى السنة الثانية لإيفلن بارنج جاء ناظر جديد هو الكابتن بيتر ماكلين، فأدخل التدريب العسكرى، وفرض على الطلاب ارتداء الملابس العسكرية، وكان المصروف اليومى للطالب شلن واحد، وسمح للطالب بأن يحتفظ عنده بجنيه واحد للطوارئ.

وتتسم مذكرات إيفلن بارنج عن الفترة التى قضاها بمدرسة كارشالتون النظامية بالخلط. فيكتب فى "الملاحظات" أن النظام كان صارماً يتضمن العقاب البدنى واستخدام العصى، وقد عوقب على يد ناظر المدرسة ذات يوم بعشرين ضربة بالعصا، بذل فيها الناظرأقصى قوته، تركت أثرها على جسده عدة أسابيع، وعدها "عقوبة بالغة القسوة لطفل فى الثانية عشرة من عمره"[52]. ولا يظن إيفلن أنه كان يحظى بالقبول عند المدرسين لخروجه على النظام، وإهماله فى الاستذكار، وتحايله للتهرب من الواجبات، مما جعله عرضة للعقاب من وقت لآخر، وزادت رداءة الطعام الطين بلة، حتى إن طبيب عائلة بارنج السير هنرى هولاند قرر أن سوء التغذية ترك آثاراً على وجه إيفلن، وأوصى له بشرب نوع من النبيذ البرتغالى

---

[51] Ibid.
[52] Ibid.

كعلاج لهذه الحالة، غير أن إيفلن يذكر أن أوضاعه تحسنت بالمدرسة عندما زار اللورد راجلان صديق العائلة المدرسة وسأل عن أحواله، وأوصى به خيراً[53].

أما الجانب المشرق من الحياة الدراسية، فتمثل فى تشجيع التلاميذ على ممارسة الألعاب الرياضية العادية، وليس الكريكيت وحدها التى لم يستسغها إيفلن، بل كرة القدم والهوكى التى كانت لعبة ممتعة على صفحة البحيرة المتجمدة فى الشتاء[54]، أضف إلى ذلك السباحة فى البحيرة صيفاً التى رآها إيفلن أكثر متعة من الاستحمام مرة واحدة أسبوعياً مساء السبت فى الشتاء؛ حيث كان كل ثلاثة من الطلاب يشتركون فى كمية واحدة من الماء[55].

وتتضمن "الملاحظات" بعض التلميحات عن النمو وإدراك أحوال الدنيا، فيذكر إيفلن بارنج أنه كان الولد الوحيد الذى حرص على قراءة الصحيفة اليومية، مما يعكس اهتماماً بمتابعة ما كان يجرى فى حرب القرم التى كانت الحدث السياسى الرئيسى طوال سنوات وجوده فى كارشالتون[56]. وثمة إشارة أخرى إلى حادثة وقعت أثناء إجازة الصيف عام 1853، وكان فى الثانية عشرة من عمره؛ فقد تركته أمه فى سالسبرج (بالنمسا) ليعود وحده إلى لندن ليتعلم الإعتماد على النفس. ويبدو أنه نجح فى ذلك، ولكنه نسى نقوده وجواز سفره عندما توقف لتناول الطعام بين سالسبرج وميونيخ، فاتجه إلى أفخم فنادق ميونيخ وانتظر حتى وصلته النقود وجواز السفر ثم تابع رحلته فى الطريق إلى لندن[57]. ويتضح من ذلك الثقة الكبيرة التى كانت الأم وابنها يكنانها للنخبة المالية فى أوروبا التى ينتميان إليها، مما يؤكد وجهة نظر جريفل فى أبناء بارنج عام 1849 عندما كتب لسيسليا مؤكداً أن أولادها قادرون رغم عيوبهم الشخصية على اجتياز الصعاب مما يجعلها أسعد حظاً من غيرها من الأمهات[58].

وعلى كل فإن تصرف إيفلن فى تلك المشكلة يعكس الهدف من كتاباته "الملاحظات"، فإن بناءها الهيكلى يركز على جهده الفردى ليعلم نفسه، واعتماده على الذات، مع التقليل من دور الأسرة والثروة. وإن كان لم يغفل تماماً استخدام والدته لعلاقاتها الإجتماعية لمساعدته

[53] BN 32 – 4, 39.
[54] BN 35.
[55] Marquess of Zetland, Lord Cromer (London: Hodder & Stoughton, 1932), 25.
[56] Ibid, 26.
[57] BN 48.
[58] Greville to Mrs. Baring, 15 Dec. 1844, GC, Add MS 41185.

فى الأوقات الحرجة، كما يذكر كيف يمكن أن أمه سارعت بالتوجه بعربتها إلى قيادة الجيش عندما رفضت الأكاديمية الملكية العسكرية قبوله بسبب ضعف قوة الإبصار عنده، وكيف أقنعت مدير الأكاديمية بإعادة النظر فى قراره[59]. غير أن إيفلن لم يواجه أية صعوبة فى اجتياز إمتحان القبول، وإن كان يذكر أنه لم يسمع أن أحداً رسب من قبل فى ذلك الإمتحان[60]. والواقع أن حاجة الجيش إلى انضباط نتيجة حرب القرم كانت من العوامل التى أدت إلى عدم التشدد فى القبول.

الأكاديمية الملكية العسكرية فى وولوتش

كانت الأكاديمية الملكية العسكرية بوولوتش تقبل الأولاد الراغبين فى الإنضمام إلى سلاح المهندسين أو إلى سلاح المدفعية، وكانت واحدة من معهدين لتخريج الضباط، أما الآخر فكان الكلية الملكية العسكرية فى ساند هيرست التى يقصدها من يريد أن يكون ضابطاً بسلاح المشاه أو سلاح الفرسان. وعندما التحق إيفلن بارنج بوولوتش عام 1855 كانت رياح التغيير الأولى تهب على الجيش البريطانى بعدما كشفت حرب القرم عن أوجه القصور فى التنظيم والتدريب. فقد أصبح القبول بالأكاديمية يتم عن طريق امتحان لجميع الراغبين بالإلتحاق، ثم ينخرط الطلاب مباشرة فى المستوى "العملى" للتعليم العسكرى بدلاً من قضاء عامين فيما كان يسمى بالدراسات "النظرية"، ويعزى هذا التغيير إلى مبادرة اللورد بانميور Lord Panmure زميل فلورانس نايتنجيل والمصلح سيدنى هيربرت Sidney Herbert Nightingale. وقبل ذلك كان الإلتحاق بالأكاديمية يتم عن طريق الإختبار أو عبر المدرسة النظامية العسكرية. وقد التحق بالأكاديمية عام 1855 واحد وثلاثين طالباً حسب النظام الجديد للقبول، مقابل ثلاثين طالباً بطريق الإختبار، وواحد وتسعين طالباً من خريجى المدرسة النظامية من بينهم إيفلن بارنج[61].

ويشير سجل إيفلن العسكرى أنه عين طالباً فى 7 من أغسطس 1855 وعمره 14 عاماً وخمسة شهور، وفى 17 أغسطس إنضم إلى الفرقة الأولى[62]. وكان الزى يتكون من صديرية

---

[59] BN 38 – 9.
[60] BN 38.
[61] Guggisburg, "The Shop", 88.
[62] RMA, Cadet Register of Royal Military Academy at Woolwich, PRO, WO 149 / 6.

مزدوجة ومعطف أزرق طويل الذيل مبطن بالأحمر، ودعامة جلدية قوية تحت الياقة، وحزام عريض أبيض اللون، وغطاء للرأس مكسو بالفراء أثناء الوجود بالأكاديمية، يستبدل به قبعة سوداء عالية فى عطلة الأحد، وكان حشوها المكون من شعر ذيل الحصان الأبيض يذكر إيفلن دائماً بفرشاة الحلاقة[63]. ويذكر جوجيسبرج فى تأريخه للأكاديمية أن الزى تغير فى العام التالى إلى القلبق والتنك (سترة قصيرة ضيقة)[64]. وكان كل من طلاب الفرقتين الأولى والثانية يحصل على 2.8 شلن يومياً لتغطية تكاليف المأكل والملبس، زيدت إلى ثلاثة شلنات عام 1857[65].

ويقدم جوجيسبرج معلومات تفصيلية عن الحياة فى الأكاديمية الملكية العسكرية كما يصفها طالب من خريجى كارشالتون، إلتحق بالأكاديمية بعد إيفلن بارنج بعامين، ويطابق هذا الوصف النظام الجديد الذى أدخله الجنرال ويلفورد آمر الأكاديمية؛ فقد كان ضد كل ما يوحى بالرفاهية. وكان اليوم يبدأ فى الساعة 7.55 صباحاً بتناول إفطار مكون من القهوة، والسجق، والخبز البنى والزبد، يلى ذلك ثلاث ساعات من الدراسة، تعقبها وجبة خفيفة تتكون من الخبز والجبن وكوب من البيرة، تليها تدريبات عسكرية من 11.15 صباحاً حتى الساعة الواحدة بعد الظهر، حيث يتم تناول وجبة الغداء المكونة من قطعة من اللحم والبطاطس والبيرة يضاف إليها فطيرة التفاح أيام الثلاثاء، ونوع من الحلوى أيام الأحد. يلى ذلك دراسة من الثانية إلى الرابعة يعقبها ساعة من التدريب العسكرى، ثم دراسة لمدة ساعتين من السادسة إلى الثامنة حيث موعد العشاء الخفيف المكون من السجق والخبز والزبد والشاى، وينتهى اليوم فى العاشرة مساء بنداء تمام النوم. ولما كان الجنرال ويلفورد يأمر بإطفاء النور فور انتهاء نداء النوم، فقد كان على الطلاب أن يتقنوا الوصول إلى أسرتهم فى الظلام الدامس[66].

وكان كل أربعة من الطلاب ينامون فى غرفة واحدة تحت إمرة واحد منهم، أما الحمامات فكانت بالفناء وتزود بالماء البارد فقط. ووقع على عاتق طلبة الفرقة الأولى تزويد الحمامات

---

[63] BN 40.
[64] Guggisburg, "The Shop", 91.
[65] Ibid, 96.
[66] Ibid, 91 – 4.

كل صباح بالصفائح، وهى مهمة شاقة شتاءً؛ لأن الطالب لا يرتدى سوى سروال وقميص ونعل خفيف. وفى الصيف يستحم الطلاب فى بركة قريبة من الأكاديمية ويتعلمون السباحة، وكان التدخين وشرب الخمور محظورين، وحاولت إدارة الأكاديمية إلتزام الحزم فى تطبيق الحظر بما فى ذلك اتباع نظام التجسس.

ووفقاً لما يذكره أحد الطلاب، كان الطلاب المدخنون يلتزمون بطاعة الأوامر التى يلقيها عليهم الطالب القديم، كما كان عليهم القيام بأعمال لا تدخل فى إطار اللوائح المعمول بها، مما أوجد نوعاً من الإبتزاز وأعمال "البلطجة"؛ فقد كان المدخنون يتعرضون للمطاردة والعقاب بالضرب بالأحزمة ومضارب التنس، وأفشى أحد الطلاب تعرض زملاؤه لضغوط وإبتزاز الطلاب الأقدم الذين رسبوا فى الإمتحان النهائى، فألزموا صغار الطلاب بالإجابة عن نصف أسئلة الإمتحان فقط حتى يؤدى ذلك إلى هبوط معدلات النجاح، كما تسربت معلومات عن إيذاء الطلاب القدامى لزملائهم الجدد، وعندما أجرت الإدارة تحقيقاً رفض من تعرضوا للإعتداء أن يبوحوا بما حدث لهم من تعد، فاضطرت الإدارة إلى الكشف عليهم طبياً، ومن وجدت بجسده آثار الضرب ألزم بتحديد مصدر الإصابة، وقد ترتب على ذلك طرد بعض قدامى الطلاب، وتأخير تخرج البعض الآخر.

ولم يرد ذكر لهذه التفاصيل فى "الملاحظات" التى كتبها إيفلن؛ فكل ما ذكره ذلك التمييز الممقوت بين المعلمين المدنيين والضباط العسكريين الذين يتولون تدريس التدريبات العسكرية دون أن يجيدوا التعامل مع الطلاب. ويذكر أن أحداً لا يعاقب بالجلد على خطأ إرتكبه، ولكن تفرض عليه ساعات تدريب إضافية، وهى عقوبة كانت تفرض لأتفه الأسباب على حساب أوقات الراحة، فيكلف الطالب (المذنب) بحمل عتاد ثقيل وبندقية ثقيلة من الطراز القديم، والجرى حول فناء الأكاديمية[67]. وقد عاقبه أحد الطلاب القدامى – ذات مرة– بيد مضرب الراكيت عندما قذفه إيفلن على رأسه بفردة من الحذاء العسكرى الثقيل[68].

وبعد انقضاء عامين من الدراسة والتدريب، إلتحق إيفلن بالفرقة "العملية" فى سبتمبر 1857، فانتقل إلى ثكنات سابر Sapper القريبة من الأكاديمية، ولم يكن يسمح سوى للطلاب

---

[67] BN 40 – 1.
[68] Cromer to Major Leslie, 17 Mar. 1913, CP / 2, FO 633 / 24.

القدامى بالتردد على الأكاديمية لمهام محددة، ومن تلك المناسبات زيارة الملكة فيكتوريا لتفقد فرقة المدفعية العائدة من حصار القرم، وكان إيفلن ثانى ثلاثة شكلوا طاقم أحد المدافع التى أطلقت تحية للملكة[69]. وتضمن الجانب العلمى من الدراسة حفر الخنادق واختيار مواقع توزيع المدافع، وبناء الجسور المؤقتة، وتحريك المدافع عبر المستنقعات، والتدريب على ركوب الخيل بثكنات المدفعية الملكية. وكانت هناك مواد دراسية أخرى نظرية. ورغم نجاح إيفلن بارنج فى الإختبارات النهائية، فإنه لم يكن متميزاً، فلم يكن يوماً آمراً لمجموعة من الطلاب، كما لم ينل أية جائزة[70]. ولا يرد فى "الملاحظات" أى إشارة إلى الطريقة التى قضى بها إجازته فى لندن، وما إذا كان قد بدأ التدخين فى وولوتش.

عين إيفلن بارنج بدرجة ملازم بسلاح المدفعية الملكية فى 22 يونيو 1858، وقد فضل المدفعية على الهندسة؛ لأنه اعتبر الهندسة العسكرية مهمة ثانوية، ويؤكد أن أمه لم تتدخل فى تحديد اختياره؛ لأنها لم تكن لديها فكرة واضحة عن الفرق بين التخصصين[71]. ورغم أن وولوتش كانت قريبة من لندن، مما يعنى أن إيفلن كان يقضى إجازاته بالبيت فى بيركلى سكوير، فإن ذلك لا يعنى أن أمه وجدت متسعاً من الوقت لتناقش معه دراسته ومستقبله العملى.

ولعل بارنج أو والدته قد قاما بتوظيف صلاتهما الإجتماعية القديمة بجارهما السابق فى نورفولك الكولونيل وود هاوس أحد مساعدى قائد المدفعية لنقل إيفلن إلى بطارية المدفعية بحامية جزيرة كورفو وهى جزيرة يونانية كانت تحت السيطرة البريطانية منذ الحروب النابليونية، ويرجع إيفلن إختياره للمكان إلى ما سمعه من وجود مناطق صيد غنية فى بلاد اليونان على بعد بضعة أميال من كورفو[72]. وفى طريقه إلى موقعه الجديد صحبته أمه فى رحلة عبر أوروبا إلى فينسيا (البندقية) حيث أبحر من هناك إلى كورفو، وعندما ودعته

---

[69] BN 42.
[70] RMA, Cadet Register.
[71] BN 43.
[72] Zetland, Lord Cromer, 27.

والدته أهدته دلاية ذهبية علقها بسلسة ساعته وإحتفظ بها طوال حياته، كانت تحمل فى داخلها صورتها وكتب إلى جانبها "إيفلن بارنج، تذكار فينسيا، سبتمبر 1858"[73].

ومن الواضح أن بارنج لم يحصل على قدر مناسب من التعليم، ولا حتى ذلك القدر من التعليم الذى وصفه إدوارد بولور ليثون Edward Bulwer Lython بأنه اقتصر على الكلاسيكيات التى كان يتم تدريسها بطريقة سيئة[74]. وقد ندم إيفلن بارنج على ذلك فيما بعد، فقد خلت مواد الدراسة فى الأكاديمية العسكرية من التاريخ والجغرافيا، واللغات القديمة، فلم يتبق لديه سوى ذلك القدر الضئيل من اللاتينية الذى تعلمه على يد القس بيكمور أيام الطفولة، ويبدو أنه لم يجد معلماً يشجعه أو أحداً يهتم بتوجيهه نحو توسيع آفاقه الثقافية؛ فكل ما كان لديه من خبرة عملية تتصل بمحاولة الجيش التغلب على الصعوبات التى واجهها فى القرم، وهو أتاح له الإتصال بالمصلحين العسكريين، عندما أعير للعمل بوزارة الحرب بعد ذلك بعشر سنوات.

كانت سنوات إيفلن بارنج فى كارشالون وولوتش تمثل ما نسميه اليوم فترة المراهقة، وهى السنوات التى يتم فيها تكوين شخصية الفرد (على حد قول جون ماك)، وتتم فيها مواجهة الحياة الجنسية للبالغين، ويحتفظ المرء بمسافة عاطفية كافية تفصله عن والديه، ويتم التخلص من أوهام الطفولة، ومواجهة حقائق الحياة[75]. ولكن لا يبدو أن ذلك التطور قد سار بإيقاع مناسب مع جيل العصر الفيكتورى من الذكور الذين دفعوا منذ الطفولة إلى تحمل مسئوليات البالغين، ولابد أن يكون إيفلن بارنج قد أعاد ترتيب علاقاته بإخوته وأمه فى تلك الأيام.

وبحكم إنتمائه إلى عائلة بارنج، كانت الفرصة متاحة أمام إيفلن لتعلم بعض ما اتصل بالسياسة الدولية والأمور المالية ذات الصلة بالمصارف، فنجده يشير إلى أنه استمع إلى خطبة ألقاها جون برايت فى حملة السنوات العشر التى دعا فيها إلى توسيع حق الإنتخاب

---

[73] BN 44 – 5.

[74] Edward Lytton, England and the English, new edn. (Chicago: Chicago University Press 1970), 7.

[75] John Mack, A Prince of Our Disorder: The Life of T. E. Lawrence (Boston: Little, Brown, 1976) 476 n.

ليشمل جانباً من الطبقة العاملة، وأبدى إعجابه بدعوة برايت إلى تضييق الفجوة بين الأرستقراطية والطبقة العاملة[76]. ويذكر جون فنسنت أن برايت جعل شباب الأحرار راديكاليين، وأن الكثيرين إجتذبتهم دعوته، وأن الراديكالية أصبحت طريقاً لا يقود إلى الضياع، وإنما يقود إلى المناصب السياسية[77]، ولكننى أرى أن بارنج عندما ذهب إلى كورفو وجد أن أمامه الكثير حتى يبلغ مرحلة النضج مستفيداً من وقت الفراغ الكبير الذى أتيح له هناك.

---

[76] BN 37.

[77] John Vincent, The Formation of the Liberal Party 1857 – 1868 (London, Constable, 1966) 15 – 16, 205.

الفصل الثالث
الحياة فى حامية كورفو
(1864 – 1858)

متعة الملازم

تقع جزيرة كورفو إلى أقصى الشمال من سلسلة الجزر الأيونية السبع التى تمتد من الشمال إلى الجنوب عند النقطة التى يلتقى عندها بحرى الأدرياتيك والأيونى، فيما بين سواحل إيطاليا والسواحل الألبانية – اليونانية، وكانت تلك الجزر خاضعة للبندقية قروناً من الزمان حتى استولى عليها الفرنسيون ثم البريطانيون خلال الحروب النابليونية، واعترف باستقلالها (إسماً) فى مؤتمر فيينا عام 1814. وبعد ذلك بعام إعترفت معاهدة باريس (التى وقعتها بريطانيا وفرنسا وروسيا) بتلك الجزر كدولة قائمة بذاتها حرة مستقلة، تحمل إسم "الولايات المتحدة الأيونية" تحت حماية بريطانيا العظمى.

وكلف اللورد البريطانى المندوب السامى بأن يقدم دستوراً لتلك الدولة. ولسوء حظ شعب تلك الجزر، رأى المندوب السامى الأول السير توماس ماتلاند أنهم مهيئون للحكم البرلمانى، وأعد وثيقة وضعت أقل قدر ممكن من السلطة بيد الأعضاء المنتخبين لهيئة ذات صلاحيات تشريعية محدودة ينتخب أعضاؤها من الجزر السبع[78]، ولكن، بمرور الزمن استطاعت مجموعة صغيرة من السياسيين المحليين أن تتعلم كيف تستخدم تلك الآلية التشريعية لخدمة مصالحها، وأن تبدأ تنظيم حملة تدعو إلى انضمام الجزر إلى اليونان، وأصبح مبدأ "اليونان لليونانيين" واضحاً فى أواخر الخمسينيات من القرن التاسع عشر، وهو المبدأ الذى واجهه بارنج هناك، وظل يواجهه بأشكال مختلفة طوال حياته العملية، وقد حظى المبدأ بتأييد الكنيسة الأرثوذكسية[79] وكانت غالبية سكان الجزر الذين قدر عددهم بمائتى

---

78 H. Jervis – White, History of the Island of Corfu of the Republic of the Ionian Islands (Chicago: Argonaut, 1970, First pub. London 1852), 200 – 5.

79 Edmond Spencer, Travels in European Turkey in 1850, vol. II (London: Colbourn, 1851), 222.

ألف نسمة من الأرثوذكس، مع وجود أقلية من الروم الكاثوليك، وكان سكان الريف يتحدثون اليونانية، بينما كان للإيطالية الغلبة فى المدن.

كانت كورفو أكبر الجزر السبع، تشبه شريحة الضأن المستطلية، يبلغ طولها ستين ميلاً وأقصى عرض لها ثلاثين ميلاً، وتقع مدينة كورفو العاصمة فى منتصف الجانب الشرقى تقريباً، فى مواجهة بلاد اليونان. وبلغ عدد سكانها عام 1860 ما يزيد قليلاً عن 17700 نسمة من بينهم 4450 من الأجانب. وأهم معالمها قصر المندوب السامى الذى تم تشييده عام 1816، وإلى جانبه يقع مقر رئيس ما عرف محلياً بجمهورية الجزر السبع، ويقعان على مساحة واسعة تظل الأشجار الباسقة جوانبها، وأمامها مجموعة من البيوت الأنيقة ذات الطابع الاستعمارى[80]. وقد عرفت الجزيرة بجمالها، فقد نجح البنادقة فى تحويلها إلى مزرعة للزيتون على منحدرات التلال، إضافة إلى بساتين الليمون، والبرتقال، والخوخ، والمشمش، والكمثرى فى الوديان وعبر السهول. ويبلغ ارتفاع جبل بوكتوكراتور فيها 3000 قدم، كما يقع عدد من الجبال الأقل ارتفاعاً مما يكسب المنظر جمالاً خلاباً، بينما الجبال الأعلى على الطرف الآخر فى بلاد اليونان يكسوها الثلج شتاء، وجذب هذا الجمال عددا من الفنانين إلى المدينة من بينهم إدوارد لير الذى قضى شتاء السنوات الثلاث (1856 – 1858) هناك يرسم مناظر الجزيرة.

وكان الملازم بارنج الضابط بالحامية يشارك فى الكثير من المناسبات الإجتماعية؛ فليس لديه من واجبات سوى التأكد من نظافة المدافع والإبقاء عليها صالحة للاستخدام، وأسندت إليه مهمة حسابات الضباط التى كانت فى حالة سيئة، وربما كانت تلك فرصته الأولى لإبراز كفاءته فى الشئون المالية[81]. وكان يكتب من حين إلى آخر بصحيفة الحامية التى كان يصدرها صديقه الحميم آرثر يونسونبى الذى تزوجت أخته – فيما بعد– من وليم الشقيق الأكبر لإيفلن[82]. وفيما عدا ذلك، كان له أن يتمتع بما أسماه البريطانيون "جنة على الأرض"

---

[80] Jervis – White, History of the Island of Corfu, 263.

[81] Sir Henry Drummond Wolff, Rambling Recollections, vol. I (London: Macmillan, 1908), 291 – 2.

[82] BN 63.

والصيد فى بلاد اليونان وألبانيا، ورحلات اليخوت، ومخالطة رجال ونساء الطبقة الأرستقراطية[83].

وكان الصيد يحتل أولوية اهتمامات بارنج، فقد ترك له والده 1200 جنيه فى وصية، أنفق معظمها على يخت اقتناه يسر له سبيل القيام برحلات للصيد إلى خليج أرتا، وهو خليج طويل يمتد داخل بلاد اليونان يقع على بعد خمسين ميلاً جنوب شرقى مدينة كورفو[84]. وهناك قام بصيد الطيور، والخنازير البرية، والغزلان، والظباء. ورافقه أخاه توم فى واحدة من تلك الرحلات، ويشير كتاب رحلاتهم إلى إصطياد العديد من الطيور والبط[85]. وقد دفعه عشقه للصيد إلى الوقوع فى مآزق صعبة، من ذلك تعجله فى رد التحية لسفينة حربية عثمانية مرت أمام كورفو حتى ينهى عمله بسرعة، ويذهب للصيد، وبدلاً من إطلاق 21 طلقة على مدى زمنى 15 ثانية يفصل بين كل طلقة وأخرى، أمر بإطلاق سبع طلقات متتالية على ثلاث دفعات، مما لفت أنظار الجنرال بولر الذى يقع منزله أسفل بطارية مدافع الحامية[86]. ولا يذكر بارنج شيئاً عن مجازاته بسبب هذا العمل، وربما كان العقاب بسيطاً لتعلقه بسفينة عثمانية.

ومن الممكن أن يكون بارنج قد اتخذ لنفسه عشيقة من بنات كورفو، فقد كان ذلك شائعاً عند الضباط من أبناء طبقته، كما شاع بين الدبلوماسيين المتدربين. فعندما أوفد ولفرد بلنت إلى سفارة مدريد عام 1862، طلب من رجل أيرلندى إسبانى أن يبحث له عما تسميه كاتبة ترجمته "عشيقة محترمة" تعلمه اللغة الإسبانية وكل ما يريد معرفته، فعاش مع إمرأة فى الثالثة والعشرين من عمرها هجرها زوجها، واضطرت لكسب عيشها من الإشتغال بالحياكة[87]. وبالنسبة لبارنج، يأتى الدليل من اعترافه بإبنة غير شرعية تدعى لويزا صوفيا، ولدت فى صيف 1863، ونجد ذلك فى ملف مراسلاته مع أسقف كورفو الكاثوليكى أثناء

---

83 Viscount Kirkwall (ed.), Four Years in the Ionian Islands: Their Political and Social Condition with a History of the British Protectorate, vol. II (London: Chapman & Hall, 1864), 17.

84 BN 68 – 9.

85 BN 54.

86 Zetland, Lord Cromer, 27 – 8.

87 Elizabeth Longford, A Pilgrimage of Passion: The Life of Wilfrid Scawen Blunt (London: Granada, 1982), 31 – 2.

خدمته بالهند (1880 – 1882) عندما كانت لويزا صوفيا تقترب من سن البلوغ، ويتضح من تلك المراسلات أن البنت كانت فى رعاية الراهبات[88]. ولا يتضح من الرسائل ما إذا كان الغرض منها إقتصادياً أو إجتماعياً، أو لأن الأم أدركتها الوفاة.

ولابد أن يكون بارنج قد عاد إلى بريطانيا لقضاء إجازة خلال عام 1860؛ لأنها السنة التى التقطت فيها صورة "لأبناء السيدة هنرى بارنج"[89]، وهناك خمسة فقط بالصورة هم: وليم، وإدوارد (ند)، وريتشارد، وإيفلن (19 سنة)، ووالتر. وغاب عن الصورة توم الذى ربما كان موجوداً – عندئذٍ– بأمريكا، كما غاب عنها التوأم الآخر روبرت. وكان الخمسة يرتدون حلات سوداء رسمية (الفروك)، وقمصان بيضاء، وأربطة عنق سوداء، وأحذية لامعة. وجعلهم المصور فى دائرة على مقعدين، وجعلهم ينظرون فى اتجاهات مختلفة، واتكأ إيفلن الذى وقف فى قلب الصورة على أحد المقاعد بركبتيه، ورفع رأسه بشكل يبرز أنفه الرومانى الشامخ، ويبدو نحيفاً وأكثر طولاً من إثنين على الأقل من إخوته، وقدر أحد من شاهدوا تلك الصورة فيما بعد طول إيفلن بستة أقدام[90].

وحصل بارنج على إجازة أخرى فى العام التالى، سمح له فيها بالسفر إلى لندن عبر الأراضى العثمانية التى كانت لا تزال ممتدة من شمال اليونان عند الحدود المجرية – النمساوية حتى الدانوب عند بلجراد. وكان خط رحلته من دورازو (دوريس الآن) على الساحل الألبانى قرب تيرانا إلى فيدن فى منتصف الطريق بين بلجراد وبوخارست، مسافة 160 ميلاً حسب ملفات كراو، وكانت تلك فكرته الأولى عن الإدارة العثمانية، فلم يعجبه كثيراً ما شاهده، ولاحظ "أنه حيث يحكم الترك، نجد الفساد والفوضى وغياب كل مظاهر الحضارة"، ولكنه لاحظ أيضاً أن الأمن مستتب فى تلك البلاد، وعلى أساس هذه التجربة، أخذ يتساءل عن جدوى الإحتفاظ بالدولة العثمانية حاجزاً يحول دون تقدم الروس إلى البحر

---

[88] CP / 1, File marked "Letters about the girl Louisa Sophia" (in Evelyn Baring's hand) and "1st Earl's correspondence about his illegitimate daughter Louisa" (in another).

[89] توجد نسخة من الصورة فى BA, DEP 272.

[90] Quoted in Peter Mellini, Sir Eldon Gorst: The Overshadowed Proconsul (Stanford, Calif.: Hoover Institution Press, 1977) 54.

المتوسط، وكان مثل ذلك التساؤل نادراً فى تلك الأيام، رغم أنه قوى بين ساسة حزب الأحرار فى السبعينيات من القرن التاسع عشر[91].

وقد أحس بارنج بالحاجة إلى التعلم، وقرر أن يبذل الجهد فى هذا الصدد، فى السنوات الأولى من وجوده فى كورفو، ويذكر فى "الملاحظات" أن ذلك يعود إلى إحتكاكه بضباط كانوا أفضل منه تعليماً، فاكتشف أنه يجهل الكثير مما يعرفونه، فهو يجهل اليونانية القديمة تماماً، ولا يعرف إلا القليل من اللاتينية، ورغم أنه كان يتذكر بعض الألمانية، كانت فرنسيته بالغة السوء[92]، ونتيجة لذلك بدأ يتعلم الإيطالية (ربما على يد عشيقته) حتى أصبح قادراً على قراءتها والحديث بها بطلاقة، وخصص بعض الوقت للتدريب على العزف على البيانو، واستطاع أن يحقق قدراً كبيراً من الإتقان، ولكن الإنجاز الذى بعث الرضى فى نفسه هو تعلم اليونانية الحديثة ثم القديمة على يد معلم محلى خاص، وإن عانى من صعوبة النحو[93]. وقد بذل جهداً كبيراً لإبهار والدته بما حققه من تقدم فى اليونانية عندما زارته بكورفو عامى 1863 و1864[94]. وعندما عاد بالذاكرة إلى تلك الأيام عند كتابة "الملاحظات" يذكر أن أمه بدأت تهتم به – لأول مرة– بعد زيارتها لكورفو وإكتشافها أنه استطاع أن يترجم لها كورس من أجاممنون أخليوس، وكان قد تعلمه حديثاً[95].

معاون المندوب السامى

ثمة شخصين عرفهما بارنج فى كورفو عام 1862 كان لهما تأثير بالغ فى دفعه إلى تعليم نفسه بنفسه: أولهما المندوب السامى السير هنرى ستوركس الذى طلب من بارنج أن يشغل مكان الضابط الذى كان أحد إثنين من معاونيه، وأصبح عاجزاً عن مواصلة العمل بسبب ما تسببه له إصابته فى حرب القرم من آلام[96]، ولم تنقذ هذه المهمة بارنج من العودة إلى

---

[91] BN 65.
[92] BN 55.
[93] BN 56.
[94] Drummond Wolff, Rambling Recollections, 1, 358. Drummond Wolff mentions that Mrs Baring and one of her sons Came out "Towards the end of our Stay (which ended in June 1864).
[95] BN 49.
[96] Drummond Wolff, Rambling Recollections, 1, 291.

بريطانيا مع فرقته فحسب، بل منحته الفرصة أن يشق لنفسه طريقاً فى ميدان الإدارة العسكرية، وبذلك استفاد مرة أخرى من سلبيات حرب القرم.

كان السير هنرى ستوركس ضابطاً خدم بحامية كورفو فى الثلاثينيات والأربعينيات من القرن التاسع عشر، وقد تم تعيينه مندوباً سامياً بعد تحقيق أجراه وليم جلادستون – الذى كان عضواً شاباً بالبرلمان البريطانى– حول أزمة خطيرة حدثت بالجزر الأيونية فى أكتوبر عام 1858. وتعود تلك الأزمة إلى الدستور الذى منح للجزر عام 1848 وحد من سلطات المندوب السامى تجاه رئيس الجمهورية والبرلمان بصورة كبيرة، ونتج عن ذلك احتدام الصراع بين المندوب السامى والجمعية التشريعية مما أدى إلى تفاقم مشكلة جباية الضرائب، وزيادة عجز الموازنة، ونقص المخصصات اللازمة للحفاظ على البنية الأساسية للجزر. وقد زار جلادستون كل الجزر فيما بين نوفمبر وعيد الميلاد عام 1859، محاولاً تقريب وجهات النظر وإيجاد مخرج للأزمة، وفى النهاية وجد نفسه عاجزاً عن القبول بوحدة الجزر مع اليونان تلبية لطلب معظم الساسة المحليين، أو إيقاف العمل بدستور 1848، وكل ما استطاع عمله هو أن يحول "مهزلة الحكومة الحرة" إلى واقع حقيقى[97].

كما وصل جلادستون إلى استنتاج أن المندوب السامى عجز عن التعاون مع أعضاء الجمعية التشريعية، ولذلك حاول القيام بعمله لفترة وجيزة، ولكن تلك الفترة سادها التوتر؛ لأن الجمعية التشريعية اتخذت قراراً بالإجماع يقضى بالإتحاد مع اليونان، فرد جلادستون عليهم باقتراح إرسال القرار فى صيغة طلب موجه إلى الملكة فيكتوريا، مما زاد من حدة التوتر، وقرعت أجراس كنائس المدن لمدة يومين، وأعلن الأسقف الكاثوليكى (أحد قادة المطالبة بالإتحاد) إقامة قداس للشكر، وألقيت خطب مطولة بالجمعية التشريعية. ووسط هذا الهرج اكتشف جلادستون أنه لا يستطيع الجمع بين عضوية البرلمان البريطانى وإدارة الجزر، وقرر العودة إلى لندن، عندئذ تم تعيين ستوركس مندوباً سامياً.

ولد السير هنرى ستوركس عام 1811، وتزوج من إمرأة إيطالية أثناء خدمته الأولى بالجزر مما ساعده على إتقان اللغة الإيطالية، وتوفيت زوجته عام 1848 دون أن تنجب، وشجع

[97] John Morley, The Life of William Ewart Gladstone, vol. I (New York: Macmillan, 1903), 602, 610 – 17.

ذلك ستوركس أن يحيا عزباً برفقة معاونيه وبعض ضباط الحامية. وكثيراً ما لقى إنتقاداً لعدم دعوته أهل البلاد من أعضاء الجمعية التشريعية لزيارة قصر المندوب السامى، وهو ما حاول دراموند وولف – سكرتيره– وزوجته أن يقوما به كحل للمشكلة[98]. غير أنه استطاع أن يهدئ من حالة الغضب السائدة بتعطيل الجمعية التشريعية معظم العام 1859، ثم عطلها مرة أخرى فى مارس 1861 ومارس 1862. وعمل خلال تلك الفترة على إصلاح الموازنة، محاولاً إيجاد مبالغ مناسبة لتنفيذ أعمال الخدمة العامة التى لا يمكن إرجاؤها[99].

كان هذا هو الوضع السائد عندما انضم الملازم بارنج إلى العمل بدار المندوب السامى، ولا شك أن معرفته الحديثة باليونانية والإيطالية زكته لهذا العمل، وإن كانت يونانيته أقل من مستوى تلك التى يتحدثها المعاون الآخر للمندوب السامى، وكان ضابط مدفعية يدعى جورج ستراهان، إختاره جلادستون بنفسه لإمتلاكه ناصية اللغة اليونانية، ويذكر بارنج أنه هو وزميله كانا يعملان سكرتيرين للمندوب السامى وليس معاونين عسكريين[100]، وكانا يقيمان بالقصر ويعملان فى الوقت نفسه. وكان الدور الأرضى يضم الغرفة الثانية (مجلس الشيوخ بالجمعية التشريعية) فى جانب، ومكاتب السكرتير الرئيسى للشئون الإدارية المدنية، ورئيس الشرطة، فى الجانب الآخر. واحتلت مكاتب المندوب السامى ومساعديه الدور الأول؛ حيث يطل على منظر بديع لقناة كورفو وجبال ألبانيا من ورائها. وللقصر حديقة واسعة أمامه ذات أشجار نخيل وأشجار أخرى دائمة الإخضرار، وخلف القصر حديقة خاصة صغيرة[101]، وقد تم تحويل القصر إلى متحف للآثار عام 1935.

استمر الوضع السياسى متوتراً، وواجه ستوركس أزمة حادة عام 1862 عندما قام بفصل بعض القضاة المحليين، وكان عليه بعد ذلك أن يواجه ثورة قامت ضد الملك أوتو باليونان فى أكتوبر اضطر معها الملك إلى مغادرة البلاد على متن بارجة بريطانية حملته إلى كورفو فى حالة يرثى لها – رث المظهر– وكانت الملكة لا تتوقف عن البكاء (على حد وصف بارنج) وذكرت الملكة قصة ما حدث من وجهة نظرها مؤكدة أنها والملك لا ذنب لهما فيما

---

[98] Kirkwall (ed.), Four Years in Ionian Islands, II, 5, 7, 23.
[99] Ibid. 1, 248, 250, 265.
[100] BN 66.
[101] D. N. Anstead, The Ionian Islands in the Year 1863 (London: W. H. Allen, 1863), 23.

حدث[102]، وأدى هذا الحدث إلى دعم موقف الحكومة البريطانية فى الجزر، وعرض عرش اليونان على أمير من الدانمارك هو وليم جورج، وهو رجل متفتح ميال لليبرالية على عكس أوتو الميال للدكتاتورية والاستبداد، وبمجرد إعلان الأمير وليم جورج قبوله عرش اليونان، قامت الحكومة البريطانية إعلان نيتها إجراء انتخابات للجمعية التشريعية بالجزر اليونانية للتأكد من رغبة الشعب فى الإتحاد مع اليونان.

وكان ذلك بداية للكثير من الإثارة فى كورفو. فما كاد الملك الجديد يقبل رسمياً من جانب الشعب اليونانى فى يونيو 1863 حتى وجه الأسقف الكاثوليكى الدعوة إلى ستوركس لحضور قداس شكر، فأناب عنه سكرتيره دراموند وولف وبرفقته بارنج معاوناً، وقد قدم وولف وصفاً للحدث فيما بعد على النحو التالى:

"استقبلنا بالهتاف، وعند وصولنا إلى الكنيسة عزف نشيد (حفظ الله الملكة)، وجلست بين قنصلى روسيا وفرنسا (وهما الدولتان الموقعتان على معاهدة باريس مع بريطانيا) وأقيمت الصلاة لملك اليونانيين، تلاه عزف النشيد الوطنى الدانماركى، وتعالت الهتافات (الإتحاد)، ثم قيمت الصلاة لملكة بريطانيا، وأعيد عزف (حفظ الله الملكة) ولم يعقب ذلك هتافاً، ثم صلاة من أجل اليونانيين، واتجهت مظاهرة كبرى تحمل أعلام اليونان وبريطانيا إلى قصر المندوب السامى، حيث علا الهتاف للمندوب السامى، وتلألأت أضواء الزينات بالمدينة"[103].

كانت العودة إلى الوراء مستحيلة؛ ففى أكتوبر 1863 أجريت انتخابات حرة للجمعية التشريعية التى اتخذت – بالإجماع– قراراً بالإتحاد مع اليونان، رغم أن الجمعية نفسها حلت لرفضها الموافقة على الشروط التى وضعت للإتحاد، وجرت مفاوضات بين الدول إنتهت أخيراً بتوقيع دول معاهدة باريس الثلاث على معاهدة لندن التى انضمت إليها اليونان فى 29 مارس 1864، وتمت الموافقة على شروط تسليم الجزر الذى تم بالفعل خلال شهرين.

هيأت تلك التطورات فرصة تدريب نادرة لبارنج فى الإدارة، والسياسة، والدبلوماسية، وكذلك مواجهته الحركات الوطنية الشعبية. وكان ستوركس (الذى تصوره "الملاحظات" كعسكرى

---

[102] BN 79.

[103] Drummond Wolff, Rambling Recollections, I, 384 – 5.

سئ) إدارياً مدنياً من الطراز الأول، ودبلوماسياً بارعاً وشهد له بارنج بأنه كان اقتصاديا بارعا فى إدارته للمال العام[104]. وقد شاركه بارنج فى نظرته المتعالية إلى الساسة المحليين من أبناء الجزر الأيونية[105]. غير أن بارنج كان على يقين أن أهل الجزر يريدون الإنضمام إلى اليونان، وكان يرى أنه يجب عدم حرمانهم من ذلك. ولعل ذلك يتسق مع راديكاليته التى جعلته يؤيد جون برايت فى الحزب الليبرالى فى بريطانيا، وكذلك يؤيد الوطنيين من أمثال كافور وجاريبا لدى خارجها (فى إيطاليا)[106]. ورغم أنه أصبح محافظاً مع تقدمه فى العمر، فإن اعتقاده فى أحقية الجزر الأيونية فى الإنضمام إلى اليونان لم يتزعزع أبداً[107].

إيثل Ethel

كان اللقاء الثانى المميز الذى صادف بارنج عام 1862 هو لقاؤه بالآنسة إيثل إرنجتون Ethel Errington ذات السبعة عشر ربيعاً، التى أحضرها والدها السير رونالد إرينجتون مع شقيقتيها إلى كورفو بعد وفاة والدتهما جوليا عام 1861[108]. فقد قبل السير رونالد دعوة تلقاها من شقيقة زوجته السيدة هنريتا بولار (زوجة قائد الحامية) لقضاء جانب من الشتاء بالجزيرة. والسير رونالد ينحدر من الفرع الكاثوليكى القديم لعائلة تششاير ستانلى، ويملك منزلاً فى بادنجتون بمنطقة ويرول. وقد ورث لقب السير إرنجتون عن أخيه المتوفى، كما ورث أيضاً ضيعة أخرى فى ساندوك قرب هكسام فى نور ثمبرلاند عن عمه الأكبر هنرى الذى لم يكن له وريث، فأوصى له بالضيعة على أن يحمل إسم إرنجتون[109]. وكان فى شبابه من أكثر شباب لندن أناقة، أو على حد قول بارنج "كان متأنق الطراز"[110]. ولكن بعد ما ورث ضيعة ساندوك استقر هناك ليلعب دور السيد وقاضى فض المنازعات، ويمارس الصيد، وأعاد بناء ساندوك هول دون أن يغير كثيراً من طراز عصر إليزابيث الذى كانت

---

[104] BN 68.
[105] Drummond – Wolff, Rambling Recollections,i 375 – 9.
[106] BN 37.
[107] BN 87 – 8.
[108] Zetland, Lord Cromer, 34, gives the date of Lady Errington's death as 1861, but the North – umberland Country History, iv. 194, gives it as 1859.
[109] Northumberland County History, IV. 194, 205.
[110] BN 71.

عليه من قبل، ولكنه أعاد تنظيم الحدائق[111]، واهتم بموسم الصيد السنوى فى أغسطس بضيعته.

تزوج السير رونالد عام 1839 من إبنة السير جون ماكدونالد الذى شغل منصب نائب القائد العام للجيش البريطانى. وكانت زوجته من جميلات العصر، تماثل والدة إيفلن بارنج فى ثقافتها الرفيعة[112]. وكان لإرنجتون ثلاث بنات، أكبرهن كلودين التى ماتت بالدفتريا بعد عودتها من كورفو، وإيثل الصغرى التى تزوجت من الكونت بولنجتون – الإبن الوحيد للورد مكسبرو– الذى ظل موضع ثقة بارنج طوال حياته.

أعار ستوركس آل إرنجتون بيته الريفى فى كورفو، وكان بيتاً جميلاً مجهزاً يسمى "الكازينو"[113]. وكان بارنج يزور العائلة بانتظام، وكان يلعب مع البنات لعبة الألغاز التى تعتمد على ترادف الكلمات والمعانى، فأحس بتفوقهن عليه، وما لبث أن وجد نفسه غارقاً فى الحب[114]. وتأثراً ببارنج، عد زيتلاند هذا الحدث نقطة تحول فى حياة إيفلن بارنج، فحتى التقى إيثل كان رجلاً يسعى للمتعة والترف، فأصبح رجلاً جاداً – بعد اللقاء– يهتم بالجد والعمل. ولكن لم يكن لديه مال يغطى نفقات الزواج بعد أن بدد ميراثه عن والده. وكان كل ما يملكه حصة مالية تدر عليه ربحاً سنوياً قدره 300 جنيه إضافة إلى راتبه السنوى الذى يبلغ مائة جنيه. فقرر السعى لتحسين وضعه المالى حتى يصبح "جديراً بالمرأة التى إختارها"[115]. واعتبر زيتلاند أن إيثل أصبحت قدر إيفلن بارنج، وأنها كانت حدثاً حاسماً فى حياته:

"كان السعى لتحقيق هدف ما، قوة دافعة تفوق حدود التقدير، فأصبح أسير طموح لا يقاوم، غدا القوة المحركة لحياته، هذا الطموح لا يقتصر على جعل الزواج ممكناً فحسب، بل هيأ بنفسه وجهده حتى يكون أهلاً للمرأة التى طابت له صحبتها، لقد

[111] Bulmer's History and Directory of Northumberland (1886), 403 – 4.
[112] BN 72.
[113] BN 92.
[114] Ibid.
[115] BN 68 – 9.

كانت هبة ربانية لإيفلن بارنج الإهتداء إلى إمرأة قادرة على وقف عملها على ما هو بديع، وقد أعطته القدرة على تقدير الأمور وتبادل المشاعر"[116].

حسناً، ربما يبدو ذلك صحيحاً، ولكنه لا يمثل الحقيقة كلها فقد استمد زيتلاند الصورة التى رسمها للحدث من الطريقة التى إتبعها بارنج فى "الملاحظات" عند تناوله له، ولكنها صيغة تتخذ صورة أدبية أخلاقية قصدها بارنج ليفسر فضيلة الإرتباط الوثيق، وهناك أيضاً تطلع من نوع خاص "فهو لا يعرف أمراً يمكن تقديره مثل وجود شاب تحيطه كل المغريات التى قد تلحق به الأضرار، وأن يجد بعد ذلك ما يساعده على إتقان عمله سوى الإرتباط الوثيق بإمرأة صالحة"[117]. ويتعارض ذلك مع الخطاب الذى أرسله إلى إيثل قبل ذهابه إلى الهند عام 1872 ذاكراً أنه قد يغيب لمدة خمس سنوات طوال[118]. غير أن من المؤكد أن ثمة قدر من "التعلق" بإثيل جعله يقبل الدعوة للصيد بساندوك التى تلقاها من آل إرنجتون عندما عاد إلى إنجلترا بإجازة صيف 1864[119].

هناك أيضاً مسألة وجود عشيقة من كورفو التى كان على علاقة بها حتى نهاية 1862 على أقل تقدير عندما ولدت إبنته غير الشرعية صيف ذلك العام، ويمكننا أن نتصور أن الحديث عن "المغريات الكثيرة" وعن "المرأة الصالحة" مثلت نوعاً من المراجعة الأخلاقية فى ذلك الوقت.

ولا نعرف ما إذا كان قد أفضى بذلك إلى إيثل قبل أو بعد زواجهما عام 1876، ولعل التعليق الممكن هو أن بعد مضى الحياة بإيجابياتها وسلبياتها يكتب المرء "ملاحظاته" عنها باسترجاع الماضى وإعادة ترتيب ما عجز الزمن – عندئذ– عن ترتيبه.

أخيراً، هناك مشكلة اختلاف العقيدة الدينية بينهما، فقد يوافق السير رونالد الذى تزوج من غير أتباع الكاثوليكية أن يقبل تزويج إبنته من بارنج طالما أن الأبناء سوف ينشأون على الكاثوليكية مثل إيثل وشقيقتها، ولكن يبدو أنه فى نهاية الأمر إتجه إلى عدم الموافقة، ويبدو

---

[116] Zetland, Lord Cromer, 33 – 4.
[117] BN 69.
[118] Baring to Ethel Errington, 26 Feb. 1872, CP / 1, file marked "Letters and Papers of the 1st Lady Cromer".
[119] BN 24.

أن رفضه تصاعد مع مرور الوقت حتى ان إيفلن عندما أرسل خطاب إعلانه عن مشاعره تجاه إيثل عام 1872 أعطى الخطاب لأخيه ليوصله بيده إلى إيثل خشية أن يعترض أبوها طريق الخطاب، ومما يؤكد هذا الإفتراض أن الكنيسة الكاثوليكية البريطانية إتجهت إلى مقاومة الزواج المختلط منذ مطلع السبعينيات من القرن التاسع عشر، ويتم إرجاع ذلك – أحياناً– إلى الفتوى الأولى للفاتيكان عام 1870. ويبدو أن بارنج نحا باللائمة على الكاردينالماننج رئيس الكنيسة البريطانية (الكاثوليكية) الذى عرف بالتشدد[120]، ويرجع البعض ذلك إلى الخصوصية البريطانية التى سادت كل الأصقاع فى ذلك العصر، ولكن الكنيسة الكاثوليكية فاقت الجميع فى تشددها[121].

الشهور الأخيرة مع إدوارد لير فى كورفو

كانت الشهور الأخيرة من عهد الحماية البريطانية بالغة الصعوبة، فقد استجاب البريطانيون للمطالب النمساوية والعثمانية بتدمير تحصينات الجزر قبل الخروج منها، وكان ذلك موضع سخط أهالى الجزر. ومن ناحية أخرى كانت هناك احتجاجات عارمة من نوادى كورفو الإجتماعية والسياسية على قرار تعطيل الجمعية التشريعية وخلال بضعة أسابيع أصبحت كل حادثة صغيرة هدفاً للتضخيم والتهويل، مثلما حدث عندما إتهم جماعة من البريطانيين خرجوا للصيد بإتلاف مزارع الكروم الخاصة باليونانيين[122]، وأدى ذلك كله إلى شعور البريطانيين المقيمين بالجزيرة بالقلق على مستقبلهم بعد إنسحاب القوات البريطانية.

ولعل بارنج نفسه كان على صلة وثيقة بخطط التسليم الرسمى للجزر ورحيل المندوب السامى ورجاله. غير أن الأمور لم تقتصر على العمل ومشاكله؛ فقد كانت الشهور الأخيرة لبارنج فى الجزيرة تتسم بالحيوية نتيجة صداقته المتنامية للرسام والشاعر الساخر إدوارد لير. وكان لير – عندئذ– فى مطلع الخمسينيات من عمره، تربطه صداقة قديمة بتوماس بارنج إبن عم إيفلن، الذى أصبح – فيما بعد– لورد نورثبروك، والذى كان محباً للفن، مما جعله يرعى لير مادياً. وكان هناك راع آخر للفنان هو السير هنرى ستوركس الذى أهدى إليه لير

---

[120] BN 39 – 41.

[121] Mary Heimann, Catholic Devotion in Victorian England (Oxford: Clarendon Press, 1995), 123.

[122] Kirkwall (ed.), Four Years in the Ionian Islands, II, 272.

كتابه: "نظرات فى الجزر الأيونية السبع" الذى نشر فى ديسمبر 1863. ولا شك أن لير كان مغرماً بمناظر الجزر الأيونية، يصف مشهد جبال ألبانيا من جزيرة كورفو بأنه "من أحب المناظر فى العالم". أما الجزر المزدانة بأشجار الزيتون فقد رأى فيها "إطاراً لمناظر جميلة بفروعها الملتوية، والأشعة التى تعكسها حولها أوراقها التى تكاد تبلغ درجة الشفافية"[123]. ويبدو لير – فى صورة فوتوغرافية إلتقطت له عام 1865– ضخم الجسم، مسناً، له لحية كبيرة غير مشذبة، وأنف متكور نوعاً ما، وعينان تشعان ذكاءً من خلف نظارة بلا إطار[124]، أما رسمه لنفسه الذى يشبه الكارتون، فيبدو فيه أصغر حجماً ولكن جسده مستدير رغم أنه كان طويل القامة قوى البنية. وكانت نبرة الحزن فى قصائده ذات دلالة، تخفى وراءها شعور بالإكتئاب، ووسواس المرض، والشعور بالضيق[125].

ويذكر ليرفى فى يومياته أنه التقى بارنج أول مرة فى قصر ستوركس فى ديسمبر 1862، وأنهما عرفا بعضهما جيداً فى الشهور الأولى من عام 1863، وإن كان يبدو أن العلاقة لم تكن قد قامت بينهما على أساس متين بعد[126]. فقد كتب لير فى أبريل أن ميوله لبارنج أقل من ميوله لزميله ستراهان المعاون الأول للمندوب السامى. وتوثقت صداقته ببارنج عندما عاد إلى كورفو فى يناير 1864، وأصبح الفنان حاضراً طوال مشهد شتاء كورفو حتى إنه كان يدعى بإنتظام لتناول العشاء على مائدة المندوب السامى أيام الأحد، حيث يقتصر الحضور على المندوب السامى والمقربين إليه من معاونيه، وفى وصفه لترتيب الجلوس إلى المائدة يشير لير إلى أنه جلس بين ستوركس وستراهان فى 10 يناير، وبين ستوركس وبارنج فى 17 يناير، وبعد ذلك بأسبوعين يشير إلى أنه توجه بعد العشاء إلى حجرة كل من ستراهان وبارنج لتناول الشراب والتدخين، وبعد ذلك أصبح من عادته أن يقضى ساعة أو ساعتين مع بارنج، قبل أن يعود سيراً على الأقدام إلى مقر إقامته.

---

[123] Edward Lear: Views in the Seven Ionian Islands (London, 1 Dec. 1863) introd.

[124] Edward Lear: Selected Letters, ed. Vivian Noaks (Oxford: Clarendon Press, 1988), Frontispiece.

[125] إعتمدت هنا على ملاحظات فيفيان نوكس فى كتابها: Vivian Noakes, Edward Lear: The Life of a Wanderer (Boston: Houghton Mifflin, 1969).

[126] اليوميات السنوية للير محفوظة فى Houghton Library, Harvard University, Ms Eng. 797. 3.

ومع إزدياد حميمية الصداقة بينهما، سرعان ما كان لير يعد رسالة ساخرة أسبوعياً رداً على دعوة العشاء التى يحملها له بارنج أو يرسلها إليه نيابة عن السير هنرى ستوركس، كانت إحداها مؤرخة (12 يناير 1864) مرفق بها رسم لرأس لير تطل من كيس، نصها:

عزيزى بارنج

من غير اللائق أن أرجوك إبلاغ شكرى لصاحب السعادة على زعم أننى لن أحضر العشاء، وأن لدى عودة من دى فير، ولكنى أعانى من نزلة برد تجعلنى لا أفكر فى الخروج على الإطلاق.

لقد أرسلت فى طلب زوج من مفارش المائدة لأفرغ فيهما محتويات أنفى بعدما استخدمت جميع ما لدى من مناديل. إننى لا أصلح للصحبة التى وضعت فى كيس علق فى فرع شجرة حتى ينتهى أمر ذلك الطغيان[127].

وثمة رسالة أخرى أرسلت أواخر يناير 1864 معها رسم للير على هيئة طائر كبير، جاء فيها:

بارنج الخير حسن المعشر

شكراً على رسالتك، سوف أقصد مقر سعادته غداً، ولكن أرجو أن تعطيه الرسالة المرفقة والكتاب الذى أتمنى أن ينال إعجابك أنت وستراهان، ولديك بعض الكتب الأخرى المفزعة التى يمكنكما قراءتها.

وأنهى الرسالة بالحروف اليونانية:" إلى اللقاء يا صديقى؛ إدوارد لير"[128].

وفى رسالة ثالثة بتاريخ 4 فبراير إتخذت الكتابة شكل دوائر تقف إلى جانب بعضها البعض داخل إطار دائرى، ومعها رسم للير على شكل حشرة طنانة، جاء فيها:

"عزيزى بارنج... ما أجمل كتابتك ! كل حرف أحسن من غيره، أتمنى أن تكتب بعينيك أيضاً"، وينهى الرسالة قائلاً:

---

[127] Edward Lear, Selected Letters, 192.
[128] Ibid., 191.

لا تشغل نفسك بالسؤال عنى، فلديك ما يشغلك، ولكن عندما يعود ستراهان (من سوريا)، تعال لنتناول العشاء معاً ذات يوم. لماذا ينام يعقوب مع خمسة فى سرير واحد ؟ عندما نام مع آبائه الأربعة. قل لصاحب السعادة إنه يسعدنى الحضور يوم الأحد إذا لم تصادفنى عقبات[129].

وفى رسالة رابعة إقترح على بارنج أن يتبادلا صورهما معاً:

(عزيزى بارنج، وجدت صورتين هذا الصباح أرسلتهما لك، يمكنك الإحتفاظ بهما، وعندما تكون لديك صورة جيدة لك أرسلها لى)[130].

ومن الواضح أن بارنج استجاب لروح الدعابة التى امتاز بها لير التى تجمع بين التلاعب بالألفاظ والسخرية، واستمتع بنكاته وطرائفه، فيذكر أنه كان يضحك كثيراً عندما يقرأها[131].

كما كانت استجابته مغلفة بالسرور لإهتمام رجل مثل لير به مع فارق السن بينهما، رجل واسع الثقافة والمعرفة، كثير الأسفار، علم نفسه بنفسه، يعرف اليونانية القديمة، وكان عليه – رغم صغر سنه– أن يقدم شيئاً رداً على ما يلقاه من إهتمام لير، فقد كان لير لا يجيد ترتيب الأمور، ويحتاج لشخص "حسن المعشر" مثل بارنج لمساعدته على حل بعض ما يواجهه من صعاب، وقد سجل لير شهاداته على ذلك:

"لم يكن إيفلن بارنج أجمل وأرق وأظرف الشباب فحسب، بل كان يتمتع بموهبة الكفاءة"[132].

وهناك دليل آخر على علاقة الصداقة بين بارنج ولير عندما التقيا مرة أخرى فى الهند عام 1873 – 1874، فكان بارنج رقيق الحاشية فى مواجهة سخرية لير وتقلب مزاجه. وعلى كل، كان بارنج حتى فى المراحل الباكرة من علاقته بالفنان حريصاً على التخفيف عنه من هموم الحزن المتزايد مع إقتراب موعد تسليم جزيرة كورفو لليونان، فقد خشى لير أن يحرم

---

[129] Ibid., 193 – 4.
[130] Ibid., 195.
[131] Peter Levi, Edward Lear: A Biography (New York, Scribner, 1995), 246.
[132] Ibid., 194.

من زيارة الجزيرة التى عشقها مرة أخرى. وقد عبر لير عن تلك المشاعر فى يومية 19 يناير 1864:

"هناك جاذبية خاصة لجزيرة كورفو، فالحياة فيها مبهرة، ولا يمكن أن أجد ذلك فى غيرها عندما أضطر إلى مغادرتها". وفى يومية 10 مارس كتب: "من الصعب العثور على مكان بمثل هذا الجمال، فلا أجد مثل هذا القدر من السعادة فى غير هذا المكان". ولعل الشعور الذى إنتاب لير عند مغادرته الجزيرة فى أوائل أبريل بأنه قد طرد من الجنة، هو الذى جعل ستوركس يكلف بارنج بإصطحاب الفنان إلى أثينا بعد ما تناول آخر عشاء بقصر المندوب السامى فى 3 أبريل، وظل حتى الحادية عشرة مساء يغنى بصحبة بارنج وستراهان.

وفى مساء اليوم التالى صعد لير صحبه بارنج على متن السفينة بيرايوس المتجهة إلى أثينا، ويذكر لير أن معنوياته إرتفعت بسبب وجود بارنج برفقته، فتناولا العشاء معاً بالباخرة ثم تمشيا على رصيف الميناء حتى الثامنة مساء. وفى الساعات الأولى من صباح اليوم التالى، كتب لير قصيدة حزينة مطلعها:

جلست عند بلبلها
طوال ساعات الليل
وخيم عليها الأفق المعتم
وإختفى الضوء خلف اليشمك
ساعات الوحدة تغرق ببطء
فى الجرف الصخرى العميق
ومن عشه العالى ينوح بشدة
على زهر البرواق القرنفلى الأبيض[133].

ووصل الإثنان إلى ميناء بيريه يوم 6 أبريل، وأمضيا اليوم التالى فى زيارة معالمها: الأكروبول، ومعبد باخوس الذى إكتشف حديثاً، وانتهت الجولة عند المسرح.

[133] Lear, 1864 Diary, 5 – 8.

وتناولا العشاء فى المفوضية البريطانية يوم 8 أبريل، وجلسا بعده يتبادلان أطراف الحديث حتى الحادية عشرة والنصف مساء، وفى اليوم التالى تفرقت بهما السبل: لير حملته سفينة إلى كريت، وبارنج أعاد أدراجه إلى كورفو لمعاونة ستوركس فى آخر مهام تسليم الجزيرة. وكان التوتر – عندئذ– قد زاد عن ذى قبل؛ حيث كان البريطانيون ينسفون التحصينات وتسمع أصوات التفجير فى جميع الجزر، كما كان هناك شعور بالضيق لالتزام الحكومة اليونانية بدفع تعويضات كبيرة للموظفين البريطانيين الذى لا تحتاج إلى خدماتهم، فحصل دراموند وولف – مثلاً– على معاش سنوى كبير بلغ 576 جنيهاً و13 شلناً[134].

وفى 19 مايو، وصل إلى كورفو زايمس، المفوض فوق العادة لملك اليونان، لإعادة ترتيبات احتفالات التسليم النهائى يوم 2 يونيو، فاستقبل بحفاوة بالغة من الجماهير التى كانت تلوح بأعلام اليونان. وفى 24 مايو حل موعد الإحتفال بميلاد الملكة فيكتوريا تبعه آخر استعراض للقوات البريطانية خارج قصر المندوب السامى، وبدأت القوات ركوب السفن يوم 27 مايو[135]. وأخيراً، جاء يوم 2 يونيو، فألقى ستوركس كلمة وداع قصيرة على بعض الأصدقاء الذين تجمعوا بهذه المناسبة، ثم إعتلى متن البارجة مالبورو فى الطريق إلى كاتاكولا لمقابلة الملك الجديد. وتم إنزال العلم البريطانى من سوارى ما بقى من حصون، ورفع مكانه علم اليونان فى جو إحتفالى[136].

وسافر بارنج نفسه بعد مغادرة ستوركس بساعات حاملاً معه آخر حقائب المراسلات. كان عندئذ فى الثالثة والعشرين من عمره، يواجه احتمال العودة إلى حياة الثكنات فى بريطانيا. وعلى كل، كان أمامه عملان مثيران عليه أن يتطلع إليهما: أولهما رحلة إلى الولايات المتحدة وكندا بصحبة أخيه توم، وثانيهما محاولة رؤية إيثل بلندن أو عندما يتجه شمالاً فى أغسطس فى رحلة الصيد.

---

[134] Stefonos Xenos, Eastand West: A Diplomatic History of the Annexation of the Ionian Islands to the Kingdom of Greece (London: Trubner, 1865), 33.

[135] Ibid., 193 – 6.

[136] Drummond Wolff, Rambling Recollections, I, 390 – 1.

الفصل الرابع
المعاونة فى حكم مالطا بالكثير من الرحلات
(1867 – 1864)

الصيد فى أمريكا

عاد بارنج إلى إنجترا على وجه السرعة بعد مغادرته كورفو، ثم ذهب إلى أمريكا الشمالية فى رحلة صيد، ولزيارة أخيه توم الذى كان يعمل فى بيت بارنج المصرفى بنيويوك. وكتب إليه لير: "إياك أن يتم إصطيادك، فتتزوج إمرأة من الهنود الحمر"[137]. ويبدو أن بارنج وعى هذه النصيحة، فهرع إلى واشنطن ليرى جانباً من الحرب الأهلية التى كانت فى مراحلها الأخيرة، فى أعقاب حملة الجنرال جرانت فى أصقاع جنوب فرجينيا. كان ذلك جانباً من زحف جرانت الساحق فى قلب أراضى الكونفدرالية الذى لم يتوقف إلا عندما التقى جيش روبرت لى فى منطقة مليئة بالبوص الكثيف والمستنقعات خارج مدينة بيترزبورج التى تبعد نحو 30 ميلاً من عاصمة الكونفدرالية ريتشموند. وحصل بارنج على إذن من اللورد ليونز – السفير البريطانى– للقيام بزيارة لمعسكر جرانت حيث قضى بضعة أيام يشاهد تصاعد التكتيكات العسكرية بعد ما إشتبك الجيشان فى حرب خنادق دامت شهوراً[138].

وقد تطلبت المناوشات من الخطوط الثابتة قدراً كبيراً من الألغام، وهو أحد المواد التى درسها بالأكاديمية الملكية العسكرية بوولوتش. وقبيل معركة كارتر الشهيرة سار بارنج داخل الأنفاق التى حفرها عمال مناجم الفحم التابعين للفيلق 48 من بنسلفانيا ليسمع صوت مدافع الكونفدرالية تجرى فوق رأسه، ولكنه غادر المكان قبل تفجير 8000 رطل من البارود الأسود فى 30 يوليو تحت جبهة الكونفدرالية، وما أعقبها من فشل قوات الإتحاد فى استغلال حالة الإضطراب للهجوم على خطوط الدفاع الثانوية للعدو[139].

---

[137] هذا الخطاب المؤرخ 30 يونيو 1864 أورده بارنج فى تقديمه لكتاب إدوارد لير:
Queery Leary Nonsense: A Lear Nonsense Booked Lady Strachey (London: Mills & Boon, 1911), 17.

[138] BN 95 – 7, 99.

[139] The Earl of Cromer, "Reminiscences of The American Civil War" Pt. I, The Spectator, 3 June 1916, Copy in CP / 2, FO 633 / 33.

وسمح لبارنج بمقابلة الجنرال جرانت برهة، على نحو ما يذكر فى "الملاحظات"، ولم يعقب الجنرال إلا بكلمات محدودة عندما امتدح بارنج براعته فى رسم الخطط[140]. وحرص على إرتداء زى المدفعية الملكية طوال الرحلة رغم عدم ملاءمته لحرارة الجو فى يوليو، كما اعتمر القبعة العسكرية فيما عدا الزيارات التى قام بها للمواقع المتقدمة بالجبهة، فارتدى عندئذ الكاب الأمريكى الخفيف المصنوع من القماش؛ لأن الشارة الذهبية فى قبعته تلمع فى الشمس، وتجعله صيداً مناسباً لقناصة القوات الكونفدرالية، وعندما تركها مرة فوق الساتر الذى إحتمى به، إخترقتها عدة طلقات على الفور فكانت المرة الأولى التى شهد فيها (على حد قوله) رصاصاً يطلق إخلاصاً لمبدأ[141]. وقام – فيما بعد– بزيارة القوات الشمالية التى حاصرت شارلستون بجنوب كارولينا على بعد 350 ميلاً جنوباً.

ومن الواضح أن رؤية بارنج لمعركة حديثة، والسلاح الجديد، والإصابات الضخمة كان لها أثرها عليه، وكانت من بين الأشياء الكثيرة التى جعلت منه مصلحاً عسكرياً بعد بضع سنوات، ويبدو أنه تأثر بمستوى ضابط الأركان وأعمال الاستخبارات ودورهما فى رسم الخطط للمعارك، وإن كنا لا نستطيع التأكد من مدى استيعابه للأهمية الحقيقية للتغيرات التى حلت بفنون القتال، فقد أدرك القليل من المراقبين الأجانب أن استخدام البنادق التى تعبأ بالذخيرة جعلت من الخنادق خطوط دفاع فعالة بدلاً من حشد الفرسان والمشاة، وأصبحت تمثل النظام القتالى الجديد. ومن الطريف أن الضابط البريطانى الذى وعى دورس الحرب الأهلية الأمريكية (الكولونيل باتريك ماكدوجال) لم يقدر له أن يزور ميادين المعارك الأمريكية، وهو مؤلف كتاب "الحرب الحديثة وتأثرها بالمدفعية الحديثة"، وأصبح فيما بعد قائداً لبارنج فى كلية الأركان بكامبرلى فى نهاية ستينيات القرن التاسع عشر[142].

وما امتاز به بارنج الشاب فى ذلك الوقت هو الرغبة فى تأييد قضية الشمال فى وقت كان فيه معظم رجال النخبة البريطانيين يؤيدون الجنوب، وكما كتب لمحرر التايمز بعد ذلك بربع القرن "إن تصديقه لما كانت تنشره الصحف المؤيدة للكونفدراليين (الجنوب) لم يصمد أسبوعاً

[140] BN 98.

[141] BN 106.

[142] Jay Luvaas, The Education of any Army: British Military Thought, 1815 – 1940 (Chicago: University of Chicago Press, 1964), 109 – 12.

واحداً بعد وصوله إلى أمريكا"[143]. وجعله ذلك يشعر بالسخط عندما أطلعوه على قذيفة هوايتوارث أطلقت من بطارية مدفعية جنوبية فى تشارلستون، لإعتقاده أن السلاح جلب من بريطانيا عن طريق التهريب رغم فرض الحصار[144].

وبعد تلك التجربة، إتجه بارنج إلى كندا للصيد فى نيوبرونزويك عند مصب نهر سانت لورانس؛ حيث قضى ستة أسابيع صحبة دليليين من الهنود، ومن الحوادث التى وقعت له فى هذه الرحلة إنقاذه لأحد الأدلة الهنود عندما انقلب بهم القارب لعدم إجادته السباحة، فجذبه من شعره الطويل، وأبقى رأسه فوق الماء فنجا بذلك من الموت غرقاً[145]. وبعد ذلك سافر بارنج على متن الباخرة الألمانية هانسا من نيويورك إلى ساوثامبتون، قبل أن يعود على الفور إلى الولايات المتحدة لقضاء بعض المصالح العائلية، قضى خلالها ثلاثة أيام مع أخيه توم بنيويورك ثم عادا معاً إلى إنجلترا[146].

مع ستوركس فى مالطا

عندما عاد بارنج إلى لندن، علم أن السير هنرى ستوركس قد عين حاكماً لمالطا فى نوفمبر 1864، فطلب منه ومن ستراهان أن يعملا معه مرة أخرى كمعاونين عسكريين. وقد وصل ستوركس وستراهان إلى فاليتا فى 30 نوفمبر ثم لحق بهما بارنج فيما بعد.

وهكذا وجد بارنج نفسه – مرة أخرى– يعمل فى إدارة جزيرة من جزر البحر المتوسط، استولت عليها بريطانيا فى الحروب النابليونية. ومرة أخرى كانت السلطة فى الجزيرة قسمة بين الموظفين البريطانيين والمجلس المحلى، وإن كان الحاكم البريطانى لمالطا يعين عشرة من أعضاء المجلس، ويكتفى بإنتخاب ثمانية أعضاء. وكان من بين المعينين خمسة من المالطيين. ومرة أخرى أيضاً كانت هناك خلافات بين العناصر المختلفة أدت إلى استقالة الحاكم السابق السير جون لومارشان. ونتيجة لذلك عين ستوركس حاكماً للجزيرة، وتلقى تعليمات خاصة من اللورد كاردويل وزير المستعمرات بأن يعمل على كسب تعاون الأعضاء

---

143 Baring to Moberley Bell, 3 Apr. 1890, MBL, TA (1890).
144 BN 39
145 BN 108 – 9, 111.
146 BN 111 – 12.

المنتخبين والحرص على عدم اتخاذ قرار بشأن الموارد المالية دون موافقتهم إلا فى الظروف ذات الطابع الخاص[147].

كانت مالطا أصغر من كورفو، يبلغ طولها 17 ميلاً وعرضها 8 أميال. وعند إجراء تعداد عام 1861، كان بها 120 ألف نسمة من السكان، من بينهم 1263 بريطانياً (ولا يدخل فى العدد رجال الحامية البريطانية)، و1126 أجنبياً. ومن أهم معالم عاصمتها فاليتا الميناء الكبير، وقصور قادة فرسان القديس يوحنا المقدسى، وكاتدرائية القديس يوحنا، ودار الأوبرا. وكان هناك قصر الحاكم، وبيت ريفى صيفى فى سان أنطونيو، وهى جزيرة مساحتها أربعة أميال، ريفية، وجد فيها الشاعر البريطانى كوليردج مكاناً مناسباً لإرتفاعها وإعتدال هوائها، وللمنزل حديقة رائعة، ويطل على منظر بانورامى خلاب[148].

وكان أول أمر أصدره ستوركس إجراء الإنتخابات العامة حسب قانون الإنتخاب الجديد فيما بين 9 – 14 يناير 1865، ووصف الإنتخابات بأنها يجب أن تكون سلمية خاضعة للنظام. وكان جميع الأعضاء الثمانية الذين تم انتخابهم، باستثناء واحد فقط ممن ينتسبون إلى "حزب المعارضة"[149]. ولم يكن بارنج هناك ففاته رصد تلك الإنتخابات، فيشير فى يومية الشهور الأولى من 1865 إلى أنه وصل إلى نابولى فى 10 يناير بعد رحلة دامت ثمانى ساعات[150]، وبعد قضاء ثلاثة شهور بنابولى عاد إلى لندن، لذلك من الصعب الوقوف على أسباب غيابه عن موقع عمله الجديد كمعاون للحاكم طوال النصف الأول من العام. ومن الواضح أن ذلك الغياب كان بموافقة ستوركس، ولعل أمه (وربما إيثل أيضاً) كانت عندئذ بنابولى وطلبت من الحاكم أن يأذن له بالبقاء معها هناك، ولعله – أيضاً– كان يستنفذ رصيد إجازاته السابقة عن السنوات الست التى قضاها بكورفو.

---

147 Edith Dobie, Malta's Road to Independence (Norman: University of Oklahoma Press, 1967), 18, 21 – 20.

148 Richard Holmes, Coleridge: Darker Reflections, 1804 – 1834 (New York, Pantheon Books, 1998), 19.

149 Storks to Cardwell, 24 Jan. 1865, PRO, CO 156 / 206.

150 BA, DEP 121. 10. The handwriting is tiny, full of Personal Shorthand, and often difficult to understand.

وأثناء وجوده بنابولى، استأجر بارنج جناحاً بفندق "جراند بريتانيك" الذى يطل على حدائق فيلا ناشيونال والريفييرا دى كياجا، حيث يشاهد الزوار المتأنقين يجوبون الطريق قرب الساحل بعرباتهم، وقد قضى الأيام العشرة السابقة على وصول والدته فى نشاط اجتماعى متصل؛ إذ يبدو من "الملاحظات" أنه كان على صلة بعدد من الشخصيات التى جاءت إلى نابولى لقضاء الشتاء، فكان ينتقل من بيت إلى آخر، وخاصة أنه كان شاباً وسيماً ينتمى إلى أسرة معروفة فى أوروبا، ولابد أن تكون دراسته للإيطالية فى كورفو قد ساعدته على التحرك يبن الأوساط الإجتماعية. ولما كانت نابولى هى المدينة التى قصدتها أمه قبل الزواج لتعلم الموسيقى، فلابد أن العائلة كانت لها صلات اجتماعية واسعة فى المدينة.

وقضى بارنج سهرته الأولى بأوبرا سان كارلو يوم 16 يناير حيث جلس بمقصورة جايرييلى، وكان العرض يتضمن "موسى فى مصر" لروسينى التى أعجبه الغناء فيها، ولكن لم يعجبه الباليه. وبعد ذلك بيومين حضر حفل راقص فى بيت الليدى باكهاوس التى تعرف أيضاً بإسم مارجريت دى سالزا، ومن الواضح أنه كان معجباً بها، وقد قدمته للكثير من نخبة المجتمع الإيطالى السياسية. وفى اليوم التالى زار بيت مدام جابرييللى حيث كان واحداً من 15 مدعواً، ورقص بعد العشاء حتى منتصف الليل.

ويبدو أن أمه وصلت يوم السبت التالى 21 يناير، وكانت بصحبتها الآنسة D، وشخص آخر أشار إليه بالحرف E، ولا ندرى ما إذا كانت إيثل إرنجتون، فهو لا يشير إلى ذلك من قريب أو بعيد، وإن كان قد ذكر فى 3 مارس مرض من تدعى إيثل دون تحديد هويتها. وثمة تساؤل أيضاً عن قبول السير رونالد إرنجتون أن يسمع بسفر إبنته (التى كانت فى التاسعة عشر أو العشرين) لتقابل شاباً لم يخطبها رسمياً حتى لو لعبت أمه دور الوصيفة لها. ومن الممكن أن يكون قد تم الإتفاق على شئ من هذا القبيل عندما كان بارنج عند أمه بلندن وآل إرنجتون فى ضيعتهم بساندوك، على كل تبقى كل الإحتمالات قائمة.

وقد أمضى بارنج معظم الأيام التالية مع أمه ورفاقها، كان الوقت موسم الكرنفال، وهناك عروض بالشوارع يراها الناس من شرفات الفندق. وجاءت النسوة اللاتى يعرفن آل بارنج لزيارة الأم ودعتهم إديث دى بورج ومارى فوكس للعب الكريكيت، ولكن إيفلن بارنج إعتذر عن عدم الحضور "لمرضه". وعند نهاية يناير بدأ ينشط فى الزيارات الإجتماعية مرة أخرى،

ولا يتضح ما إذا كان يقوم بها وحده أو بصحبة مجموعة أصدقاء والدته، ففى 29 يناير ذهب إلى الأوبرا لسماع مارتا لفلوتو، وفى اليوم التالى حضر حفل رقص عند دوقة سان أبريتو الذى استمر حتى الرابعة صباحاً؛ حيث أدى كل الرقصات، وخاصة مع جارونيت دى باراجا، وهى إمرأة أخرى كان يلتقيها كثيراً فى تلك الأيام. وفى 2 فبراير حضر أول حفل راقص للبلاط، وشارك فيه، واستمتع بالجلوس مع الدوقة. وفى 4 فبراير حضر حفل رقص خيرى شاركته الرقص فيه جارونيت.

وكان عليه أيضاً رعاية علاقات أمه بالبحرية، فعندما وصلت البارجة البريطانية ريفنج إلى ميناء نابولى، دعت الأم الأدميرال لتناول العشاء مساء 7 فبراير. وفى اليوم التالى دعيت أسرة بارنج وبطانتها لتناول الغذاء على ظهر البارجة، وتلا ذلك مراقصة المدعوات على متن البارجة، وحضر إيفلن بارنج حفلان آخران بالأوبرا، كما حضر حفل عشاء يوم 12 فبراير بقصر ملك نابولى السابق.

وبعد ذلك أصاب المرض إيفلن وعائلته، فقضوا أسبوعين فى الفراش يعانون من الصداع والحمى، وبلغ من حدة المرض استدعاء الطبيب لعيادتهم أربع مرات فى يوم واحد، وترتب على ذلك تأجيل الإحتفال بعيد ميلاد إيفلن بارنج إلى مارس عندما شفى الجميع من المرض. وبعد حضور بضع حفلات فى مارس، عاوده المرض مرة أخرى فلم يستطع تلبية الدعوة لحضور الإحتفال بعيد ميلاد الملك فيكتور إيمانويل، ولم يشف هو ووالدته إلا بعد أن تركا المدينة فى رحلة إلى آمالفى وبومبى فى نهاية مارس.

وأمضى إيفلن بارنج الأيام الأخيرة فى نابولى فى مشاهدة سباق الخيل، والقيام بزيارات لوداع الأصدقاء بما فى ذلك زيارة روما بالقطار صحبة والدته والآنسة D وE (الغامضة) حيث ودعوا الأصدقاء، وزاروا معالم المدينة بما فى ذلك كنيسة القديس بطرس وجاليرى الفنون بقصر دوريا، وكذلك مشاهدة سباق الخيل والمراهنة عليها ولعب الكريكيت.

وترك آل بارنج روما بالقطار فى 14 أبريل، متجهين إلى باريس عبر لجهورن وبيزا وفلورنسا وبولونيا وتورينو وماسون وديون. وفى باريس تناولوا العشاء مع أصدقائهم من آل ستانلى حيث التقوا أحد أحفاد تاليران، وحضروا حفل رقص أقيم بقصر التويلرى بدعوة من

الإمبراطورة حيث استمتع إيفلن بارنج بالرقص حتى الثانية صباحاً. وعند عودتهم من زيارة لقصر فرساى وسان كلو القصر القائم على الضفة اليسرى لنهر السين على بعد بضعة أميال من باريس، حيث يقضى الإمبراطور نابليون الثالث والإمبراطورة أوجينى معظم الربيع والصيف، ومروا بعربتهم وسط غابة بولونيا فى ضوء القمر الذى رأوه جذاباً. وأخيراً وصل آل بارنج (وربما إيفلن وحده) إلى فولكستون فى 20 مايو، ثم إلى لندن فى اليوم التالى. وهناك إلتقى إيفلن بارنج معاونين آخرين للحاكم فى طريقهما إلى مالطا، وإلى هنا تنتهى المقتطفات التى جاءت "باليوميات" عن تلك الرحلة، التى لم يذكر عنها بارنج شيئاً فى "الملاحظات".

ولا نعلم علم اليقين موعد وصول بارنج إلى فاليتا، فإذا كان قد عاد إلى هناك أوائل يونيو، لشهد آخر الجلسات الثلاث عشر للمجلس الجديد الذى إنفض فى المدة من 5 يونيو إلى 29 ديسمبر. ومن الواضح أن ستوركس كان سعيداً بما آلت إليه الأمور، وقد إبتدع أشياء جديدة سوف يستخدمها بارنج عندما انتقل إلى وزارة الحرب عام 1870، من ذلك ربط أعضاء المجلس المنتخبين بمقترحات الحكومة عن طريق إشراكهم فى اللجان التى تضع هذه المقترحات، مع إعطائهم الأغلبية فيها[151]. وإذا كان بارنج قد عاد فى أغسطس ليمر بتجربة وباء الكوليرا الذى حصد 1600 روحاً[152]. وكان من المؤكد أن بارنج كان موجوداً فى يناير 1866، عندما تلقى ستوركس أمراً بالتوجه إلى جامايكا لرئاسة لجنة تحقيق ملكية فى الطرق التى اتبعها الحاكم جون إير لسحق الثورة المسلحة التى قام بها بعض عبيد المزارع السابقين، فقد تم حل شفرة البرقية الواردة من لندن فى الثامنة صباحاً، وفى الثالثة بعد الظهر ركب ستوركس وبارنج وستراهان سفينة حربية إتجهت بهم إلى جزر الهند الغربية.

التحقيق فى أعمال الحاكم إير Eyre

يعود السبب فى رحيل ستوركس على الفور إلى أن سلوك الحاكم إير أثار قلق لندن. فقد قامت الثورة فى أكتوبر السابق، ووصلت أنباء سحق الثورة على مدى شهر إلى لندن وأثارت

---

[151] Storks to Cardwell, 6 Jan. 1865, PRO, CO 158 / 206.
[152] Storks to Cardwell, 11 Nov. 1865, PRO, CO 158 / 207.

نقاشاً حاراً، وطلبت أحزاب المعارضة طرد الحاكم على الفور من منصبه أو تشكيل لجنة تحقيق، تمنى مؤيدو الحاكم أن تأتى نتيجة عملها لصالحه. ولم تقم قوات الشرطة والجيش بقتل خمسمائة من الجامايكيين السود فحسب، بل تم إحراق منازلهم. وقد انتهز إير الفرصة لفرض الأحكام العرفية ثم قام بإعدام معارضه المحلى الرئيسى جورج وليم جوردون الذى كان عضواً بالجمعية التشريعية بجامايكا. وقد شنت صحافة لندن هجوماً شديداً على تلك التصرفات، وقامت بنشر رسائل قادة الميليشيا رداً على تقارير الحاكم المضللة، ذاكرين أعداد المقتولين ومن تم إعدامهم، وعدد المنازل التى أحرقت، وأشاروا إلى أن ذلك كله تم دون محاكمة[153].

وشعر اللورد كاردويل وزير المستعمرات بالحاجة إلى تصرف سريع، وتم إيقاف الحاكم إير عن العمل حتى انتهاء التحقيق، واختير ستوركس حاكماً مؤقتاً بدلاً منه.

واجتمعت اللجنة للمرة الأولى فى 20 يناير فى كنجز هاوس فى المدينة الإسبانية، وبدأ سماع الشهادات يوم 25. وعمل بارنج وستراهان مساعدين لسكرتير اللجنة تشارلز راوندل، وكان عملهما تسجيل ملخص الشهادات التى كانت تضطرهم (حسب قول بارنج) لمطالبة الشاهد بتكرار القسم[154]، فكان العمل مرهقاً إلى أقصى حد. واستمرت اللجنة فى عملها 41 يوماً حتى 21 مارس، وتضمن ذلك زيارات قام بها أعضاء اللجنة وبارنج للمناطق التى تأثرت بالثورة حول خليج مورانت فى الطرف الجنوبى – الشرقى للجزيرة، واستمعت اللجنة خلال عملها إلى 730 شاهداً[155].

ويقدم تقرير اللجنة وصفاً دقيقاً للمشاكل التى واجهتها، فلم يواظب الشهود من السود والبيض – المتعلمين وغير المتعلمين– على حضور جلسات اللجنة، وكان الكثير منهم يجهل قيمة الأدلة المطلوبة، وكان على اللجنة أن تحذرهم دائماً من الخروج عن السياق. واشترك آخرون فى سوء فهم طبيعة مهمة اللجنة، فظنوا أنها سوف تدفع لهم فوراً التعويضات عن

---

[153] Bernard Semmel, Jamaican Blood and Victorian Conscience: The Governer Eyre Controversy (Westport, Conn.: Greenwood Press, 1976), 13 – 23.

[154] BN 127.

[155] Report of the Jamaican Royal Commission 1866, 9 Apr. 1866, 10, Baring's own copy can be found in CP / 2, FO 633 / 98.

الممتلكات التى أتلفت أو توقع العقاب فى الحال على من ارتكبوا جرماً. وفيما يتعلق عن وصفهم التقرير "بالزنوج" كان معظمهم فلاحين غير متعلمين، يتكلمون بلهجة غريبة يصعب فهمها، ليس لديهم قدرة على تحديد الأرقام أو التواريخ، ولا يستطيعون طرح الأمور بوضوح، وبعضهم ما زال مصاباً بجروح[156]. وبلغ عدد صفحات الشهادات بضع آلاف من الصفحات، تم طباعتها فيما بعد، ونوقشت على مدى عدة أسابيع قبل التوصل إلى النتائج النهائية.

ورغم جميع الصعوبات التى واجهتها اللجنة، فإنها إطمأنت إلى ما وصلت إليه من نتائج سواء عن طريق الأدلة الثابتة أو التقديرية، وهو ما يؤكده أيضاً المؤرخون الذين درسوا هذه القضية[157]. وبعد أن عرضت اللجنة لمسار الحوادث، وصلت إلى النتائج الثلاث الرئيسية: أولاً، أن الثورة كانت تهدف إلى مقاومة السلطة للتخلص من إيجار الأراضى، وأنهم سعوا للقضاء على البيض حتى تخلص الأراضى لهم وحدهم. وثانياً أن الثورة إنتشرت بسرعة، وإذا لم تواجه بالقوة على نفس الدرجة من السرعة، ترتب على ذلك المزيد من الخسائر وإزهاق الأرواح وضياع الممتلكات. ثالثاً، رغم بعض المديح للطريقة التى عالج بها الحاكم إير الأمور، فإن تطبيق الأحكام العرفية والتوسع فى الإعدام وتوقيع عقوبة الجلد دون ضوابط، وإحراق المنازل، كانت تصرفات مشينة وقاسية[158]، وإنتقد التقرير طريقة عمل المحاكم العسكرية، وخاصة حيال جوردون السجين الذى لم يكن له دخل فيما حدث.

وانتقلت اللجنة بعد ذلك إلى لندن، وصدر التقرير فى 18 يونيو، وأعطى إير مهلة لقراءته بعناية ودراسة الأدلة التى فى صفه معه وتلك المضادة له، وكانت فترة حافلة بالإثارة، ولا يعود ذلك إلى رد الفعل لما توصلت إليه اللجنة من نتائج، بل جاء صدور التقرير وسط أزمة قانون الإصلاح الثانى مما أعطى للشعور العام قوة. وقدم إير للمحاكمة بتهمة إرتكاب جرائم كبرى وسوء التصرف. ورغم أن الحكم قد صدر ببراءته فإن، بارنج كان مضطراً للدفاع عن النتائج التى توصلت إليها اللجنة وسط مناخ سياسى ساد لندن قام فيه كبار الكتاب من أمثال راسكين، وتنيسون وكارليل، وديكنز بالمشاركة فى حملة الدفاع عن إير.

---

156 Ibid, 7 – 8.
157 Ibid, 8.
158 Ibid., 40 – 1.

ولا نعرف وجهة نظر بارنج الشخصية فى هذا الحدث، ولكنه يذكر فى "الملاحظات" أن الحاكم إير كان مخطئاً لأنه لا يعلم شيئاً عن شئون الهند الغربية، كما أن له طباعاً شخصية كان من شأنها أن تحول دون تعيينه فى هذا المنصب هو تعصبه للكنيسة الإنجليزية فى بلاد معظم سكانها من العبيد السابقين الذين لهم معتقداتهم الخاصة بهم.

وما بقى من تجربة بارنج فى جامايكا، هو اعتقاده بأن قرنين من الحكم البريطانى فى تلك البلاد فشلت فى تكوين "زنجى متعلم"، أرقى من مستوى مدرس الإبتدائى القروى[159]. ويتسق هذا الرأى مع الإتجاه السائد فى لندن عندئذ، من أن سياسة تحرير العبيد لم تحقق ما كان مقدراً لها من نجاح؛ لأن العبيد المحررين لم يشجعوا على تنويع مجالات عملهم بدلاً من الإقتصار على الزراعة، ويبدو أن تجربة بارنج فى المستعمرات الثلاث التى إحتك بها (كورفو ومالطا وجامايكا) جعلته يكون فكرة عن نوعية الحكام الذى يجب أن تسند إليهم إدارة المستعمرات.

لم يستأنف السير هنرى ستوركس عمله بمالطا حتى ديسمبر 1866 عندما عاد إلى فاليتا بصحبة معاونيه، ولا ندرى ما إذا كان بارنج من بينهم؛ لأننا نجد طلباً مقدماً منه إلى وزارة المستعمرات لصرف أجرة السفر من لندن إلى مارسيليا[160]. وقد شغل حاكم مالطا أربعة شهور فى تكوين لجان المناطق المختلفة بحيث تتكون كل منها من ثلاثة أعضاء منتخبين واثنين من موظفى إدارة الحاكم، لتوسيع دائرة الاستشارة المحلية التى أحس أن غيابها كان وراء تفاقم مشكلة وباء الكوليرا عام 1865، وعلق الآمال أن يساعد تكوين هذه اللجان على إقناع السكان بالإهتمام بنظافة الشوارع، وإنارتها وتوفير مياه الشرب[161]. وعقد المجلس التشريعى إحدى عشرة جلسة قبل أن تفض إجتماعاته فى أبريل. وقد كتب ستوركس لوزير المستعمرات الجديد دوق باكنجهام أن الإجتماعات سادها الشعور الطيب بسبب مراعاة العدالة[162]. وقد ترك ستوركس مالطا بعد ذلك بأيام، ليشغل منصب مدير المساحة بوزارة

---

159 BN. 131 – 2.

160 Storks to Sir Frederick Rogers, 27 Dec, 1866, PRO, CO 158 / 208.

161 Storks to Caerenarvon, 2 Feb. 1867, PRO, Co 158 / 211.

162 Storks to Buckingham, 13 Apr. 1867, PRO, Co 158 / 211.

الحرب، ثم رقى بعد بضعة شهور إلى درجة وكيل وزارة ومراقب عام. وعاد بارنج إلى إنجلترا ليستأنف عمله ضابطاً بسلاح المدفعية فى ثكنات وير لى بمنطقة إسكس.

وبعد ذلك بسنوات عدة، عندما كتب بارنج "الملاحظات" زعم أنه إنبهر بأداء السياسيين المحليين فى مالطا، ووصفهم بأنهم مجموعة من المهيجين الذين يهيمنون على مسرح فاليتا، والذين يمثلون آراء ومصالح سكان البلاد. وميز بين إيمانه بضرورة تحرير الجزر الأيونية، والنظرة إلى مالطا باعتبارها ذات أهمية إستراتيجية كبرى للإمبراطورية البريطانية من الناحية العسكرية، وللبحرية الملكية على وجه الخصوص، ومن ثم يجب الحرص على تحقيق نوع من الترضية لممثلى البلاد وتحييد المعارضة أو قمعها عند اللزوم[163]. ولا يبدو أن بارنج لم يكن حتى فى تلك الأيام التى تأثر فيها بالراديكالية، يؤمن حقاً بالديموقراطية فى المستعمرات وحق السكان فى اختيار ممثليهم فى انتخابات حرة تعبر عن مصالح أهالى البلاد. ولكن البديل هو تحقيق نوع من التوازن بين متطلبات الفئات العليا فى تلك المجتمعات والحاجات الضرورية للقاعدة العريضة من السكان. وقد يتحقق ذلك على يد مجلس عموم إصلاحى (كما اعتقد ذلك فى ستينيات القرن التاسع عشر) أو عن طريق مجموعة من الكوادر المثقفة المنزهة عن الغرض، تتولى أمور الإدارة، وهى الفكرة المثالية التى آمن بها بعض رجال حزب الأحرار. فإذا نقلت هذه الفكرة إلى الإمبراطورية، يرى بارنج أنها تصلح نموذجاً لحكم الإمبراطورية منذ سبعينيات القرن التاسع عشر وما بعدها[164].

---

[163] BN 114.

[164] فيما يتعلق بوجهات نظر الأحرار، راجع:

Vincent, Formation of the Liberal Party, 16 – 17.

الفصل الخامس
ضابط الأركان والمصلح العسكرى
(1872 – 1867)

كلية الأركان

ما لبث بارنج أن وجد فى عودته إلى حياة الجيش ما لا يناسبه[165]، ولابد أن غيابه عن الجيش تسع سنوات فى كورفو ومالطا كان له أثره فى ذلك، ورغم قربه جغرافياً من إيثل، فإن ذلك لم يقربه مالياً من القدرة على الزواج بها، والحادثة الوحيدة الشخصية التى سجلها فى "الملاحظات" يبدى فيها – ضمناً– عدم ارتياحه للزواج المختلط؛ حيث قام بزيارة أسقف الكاثوليك فى وستمنستر هنرى إدواردماننج ليلقى موعظة على مجموعة من الجنود، ويذكر بارنج أنه قد صدم عند سماعه عظة الأسقف، فبدلاً من دعوة الناس إلى العيش بسلام مع جيرانهم، شن الأسقف هجوماً عنيفاً على البروتستانت عامة[166].

وبعد وقت قصير، قرر بارنج الإلتحاق بكلية الأركان الجديدة التى تأسست عام 1858، وانتقل إلى سكن دائم فى كمبرلى بمنطقة سارى عام 1862، وكان هناك اختبار للقبول إقتضى قضاء بضعة أسابيع فى دراسة مكثفة للغة الفرنسية على يد معلم خاص من أولئك الذين كانوا يكسبون عيشهم من وراء إقبال الضباط على الإلتحاق بالكلية، وجاء ترتيب بارنج الثانى من بين عشرين متقدماً، وقبل على الفور فى برنامج الدراسة الذى بدأ فى فبراير 1868، واستمر لمدة عامين.

وجاء إنشاء كلية الأركان فى إطار الإهتمام بترقية التعليم العسكرى بعد حرب القرم، وضمت مواد الدراسة بالسنة الأولى: التاريخ العسكرى، ورسم الخرائط الطبوغرافية، والرياضيات، والفلك، واللغة الفرنسية، ويعقد امتحان فى نهاية السنة... وتضمنت مواد الدراسة بالسنة الثانية: التاريخ العسكرى، والإدارة العسكرية، والقانون العسكرى، والتحصينات، والمساحة العسكرية، والاستطلاع، وكان على الطالب – أيضاً– إختيار ثلاث مواد من بين ثلاث

---

[165] BN 139.
[166] BN 139 – 41.

مجموعات: الرياضيات، واللغات الحديثة (الفرنسية – الألمانية – الهندوستانية)، والعلوم التجريبية[167]وكانت مادة الهندسة العسكرية تلقى دعماً من سلاح المهندسين الملكى الذى يقدم بياناً عملياً فى بسط ميادين العمل، وبناء الجسور، وغيرها من الأعمال الهندسية التى اقتصر دور الطلاب فيها على الملاحظة دون المشاركة العملية. واستغرقت دراسة الإدارة العسكرية أسبوعاً واحداً، وتضمنت نشاط الإمداد بالمؤن، ومناورات الإمداد والتموين فى البحر والبر، وتخطيط المعسكرات وتصميمها، وتم تعليم اللغات على مدى ثلاثة أسابيع بواقع ساعة ونصف الساعة كل أسبوع[168]. ويبدو أن بارنج اختار اللغة الألمانية رغم أنه ندم على ذلك الإختيار فيما بعد عندما أدرك أن تعلم الهندوستانية كان أجدى نفعاً له عندما ذهب إلى كالكتا عام 1872[169]، وإنتهى العام بامتحان أمام ممتحنين خارجين فى سبع مواد من تلك المواد، كما كان هناك ثلاثة إمتحانات داخلية سنوياً[170]. أضف إلى ذلك الدروس الإجبارية فى ركوب الخيل، وبذلك بدت الدراسة فى كلية الأركان للضباط مشابهة "للنظام المدرسى"[171].

وأقام الطلاب بمبنى على الطراز الإيطالى صممه جيمس بنيثورن، كان مصمماً لإيواء أربعين طالباً "بأسلوب إسبرطى"؛ إذ كانت تسهيلات الاستحمام محدودة، وثمة سخان واحد للماء بالمطبخ لا يوفر لكل ضابط عند الاستحمام سوى (كوز) واحد من الماء الساخن، فمن أراد حماماً ساخناً من الضباط، كان عليه أن يكلف خادمه بتسخين كمية مناسبة من الماء على موقد المطبخ بالدور الثانى[172]، أما وقت التسلية فاقتصر على لعب الكريكيت، ومارس بعض الضباط الصيد. ولما كانت الاستعانة بخدم من الخارج ممنوعة، فقد اعتمد الطلاب على الخدم العاملين بالكلية ذاتها، ومعنى ذلك أن الطالب الضابط كان يحتاج إلى إنفاق مائة جنيه سنوياً إضافة إلى راتبه "حتى يعيش بالمستوى اللائق"[173].

---

[167] Brian Bond, The Victorian Army and the Staff College, 1854 – 1914 (London: Eyre Methuen, 1972), 88 – 92.

[168] Brevet – Major A. R. Godwin – Austin, The Staff and the Staff College (London: Constable, 1927, 130 – 7).

[169] BN 151.

[170] Bond, Victorian Army, 88 – 92.

[171] Ibid. 92.

[172] Godwin – Austin, Staff and Staff College, 129 – 30.

[173] Ibid, 142, 44.

ومن حسن حظ بارنج أن لجنة ملكية شكلت فى يونيو 1868 للنظر فى مدى تقدم كلية الأركان، واستمعت اللجنة لآراء بارنج وغيره من الطلاب، فقد كان هناك خلاف كبير فى أوساط الجيش حول التعليم العسكرى، وكانت هناك مجموعة قوية من كبار الضباط حول دوق كامبردج – عم الملكة والقائد العام للقوات المسلحة– ترى أن أى تدريب خارج إطار الفرق العسكرية يعد مضيعة للوقت. وثمة مجموعة أخرى تحلقت حول اللورد كاردويل – الذى ما لبث أن أصبح وزير الحرب– والسير هنرى ستوركس ترى أن ضباط الأركان المدربين تدريباً جيداً مثل الضباط الألمان أو الأمريكان لا غنى عنهم الآن، وتولى رئاسة اللجنة الملكية اللورد دافرين، الذى أصبح فيما بعد سفيراً لدى السلطان العثمانى ثم نائباً للملك فى الهند، وكان من بين أعضاء اللجنة توماس بارنج – العم الأكبر لإيفلن– الذى كان قد أصبح لورد نورثبروك خلفاً لوالده المتوفى فى 1866.

وقدم بارنج ملاحظاته للجنة بثقة بالنفس بالغة لا تتناسب مع كونه مستجداً بالكلية، فلم يمض على التحاقه بها سوى نصف العام، فقد ذكر للجنة أن الضباط يستعدون للإمتحانات قبل عقدها بسويعات، ثم ينسون كل شئ عن مواد الدراسة بعد الإمتحان. وقال إنه يعتبر الإدارة العسكرية أهم المواد على الإطلاق، ويقترح أن تتخذ الطابع العملى أكثر من ذى قبل. وتساءل عن كيفية تدريب ضابط الأركان على اتخاذ قرار سريع فى ظل النظام الحالى، وضرب مثلاً بأنه كلف بإعداد دفاع عن قرية فى مدة شهر، رغم أنه من المفترض أن القرية عرضة للهجوم خلال ست ساعات[174]. غير أنه رأى أن كلية الأركان: "رغم ما بها من قصور، أفضل من ألا تكون موجودة. فالسواد الأعظم من الضباط يكلفون بمهامهم مباشرة ولا يعرفون شيئاً خارج إطار المهام العسكرية التى كلفوا بها، ولا تكاد تتاح لهم الفرصة للتزود بالمعرفة التى يحتاجون إليها (دون كلية الأركان)[175].

وكان الجهد الآخر الذى بذله بارنج لتشجيع الضباط على تحسين مستواهم المهنى، يتمثل فى نشر سلسلة من ثلاث أوراق ضمها مجلد صغير بعنوان "مقالات كلية الأركان"[176]، وقد

[174] Royal Commission on Military Education: Minutes of Evidence, First Report (1869), quoted in Bond, Victorian Army, 92.
[175] Bond, Victorian Army, 103.
[176] (London, Longmans, Green, 1870) "by Lt. Evelyn Baring, RA (11 Berkeley St. 19 March 1870). This was his mother's address.

كتب المقالات بمقدمة قصيرة كجزء من دراساته عامى 1868 و1869، وكان الهدف منها إطلاع الرأى العام والضباط الذين لا علم لهم بكلية الأركان، طبيعة عمل هذه الكلية. ولقيت هذه المقالات تشجيعاً من الماجور آدمز – محاضر التاريخ العسكرى بالكلية– الذى خدم بالجيش النمساوى عام 1848، وكانت عناوين المقالات: "التغير فى فنون الحرب من 1792 إلى 1815"، و"موقعة أولم Ulm وتعليقات على الحملة"، و"العمليات فى بولندا من 1 – 26 ديسمبر 1866، وتعليقات على الحملة"، ومن الواضح أن المقالات الثلاث تعكس اهتمامات الماجور آدمز الشخصية؛ فالمقالات جميعاً توجه الأنظار إلى أهمية التاريخ العسكرى. كما أنها تشير إلى استجابة بارنج للتغيرات الكبيرة فى إدارة الحروب من الحرب الأهلية الأمريكية إلى الحملات البروسية فى 1864 و1866 التى تصاعدت حتى هزيمة الألمان للجيش الفرنسى عام 1870. واعتبر بارنج أن كل حالات النجاح تعزى بالدرجة الأولى إلى العمل المتميز الذى قام به قادة الأركان.

وقد أحس بارنج فى دراسته حتى تخرج فى ديسمبر 1869 على رأس دفعته من الضباط. وخدم فترة وجيزة بفرقة الفرسان فى ألدرشورت قبل أن يعين فى مارس 1870 بقسم الطبوغرافيا والإحصاء بوزارة الحرب، وهو ما أصبح – فيما بعد– يعرف بقسم المخابرات العسكرية. وقد دفع به هذا الإنتقال إلى قلب معركة الإصلاح العسكرى التى كان يقودها اللورد كاردويل الذى أصبح وزيراً للحرب عام 1868، وجعل من اللورد نورثبروك وكيلاً للوزارة. وكان بارنج – عندئذ– فى التاسعة والعشرين، قريباً من مركز السلطة فى لندن، لديه فرصة كبيرة لإكتساب الشهرة بوصفه شاباً قريباً من الجناح الإصلاحى فى حزب الأحرار الحاكم.

إصلاحات كاردويل

تأسس قسم الطبوغرافيا والإحصاء عام 1855 لعلاج الكثير من أوجه القصور التى كشفت عنها حرب القرم، نتيجة غياب الخرائط العسكرية. وفى عام 1870 أعيد تنظيم القسم تنفيذاً لإحدى توصيات لجنة التحقيق التى رأسها اللورد نورثبروك للنظر فى نظام العمل بوزارة الحرب التى وضعت تقريرها النهائى فى فبراير 1870. وأصبح القسم منذ ذلك الحين تابعاً

للإدارة العسكرية للقائد العام، واختص بتقديم المعلومات عن الجيوش الأجنبية والخطط العسكرية الأجنبية[177].

ويبدو أنه قد وقع على عاتق بارنج إعداد مقارنة بين الجيوش الألمانية والفرنسية، مكنته من التنبؤ بأن الجيش الفرنسى سوف يلقى الهزيمة فى معركة كبيرة تدور فى مكان ما قرب شالون، وأن من المحتمل أن يحتل الألمان باريس. وقد توصل بارنج لذلك قبل أن تبدأ الحملة فعلاً. ونظراً لكون تلك النبوءة خالفت معظم الآراء العسكرية فى ذلك الوقت، فإن اقترابه من الدقة فى التقدير، ووقوع المعركة الحاسمة فى سيدان على بعد 60 ميلاً شمالاً وليس فى مارن، فلابد أن يكون قد جعله موضع الرضى، وميزه على زملائه[178]. وكلف فى نوفمبر 1870 بإعداد تقرير للجيوش العثمانية والروسية فى وقت كانت فيه بريطانيا توشك على الدخول فى حرب ضد روسيا بعد خرقها لمواد معاهدة 1856 الخاصة بالبحر الأسود[179]. كما كلف بمهمة ثالثة من كاردويل نفسه هى دراسة الجيش الألمانى، وخاصة المناورات التى يقوم بها وقت السلم، مما أدى إلى نشر ترجمة موجزة لكتاب فون تشيشفتز بعنوان "ممارسة لعبة الحرب" (1872)، وكتاب بريزونيس "التكتيكات الأساسية لسلاح المشاة البروسى" (1871)[180].

وأدت معرفة بارنج بالنظام العسكرى الألمانى إلى ارتباطه المباشر بالمناورات الأولى للجيش البريطانى فى يوركشاير وأجزاء من هامشاير وسارى فى خريف 1871؛ فتولى سكرتارية اللجنة التى ضمت ممثلى اللوردات وأعضاء البرلمان المحليين، ووقع على عاتقها ترتيب الأمور بين الجيش والمدنيين من سكان منطقة المناورات، وخاصة أراضى كبار الملاك التى كانت عرضة لإتلاف المحاصيل نتيجة المناورات، وكان من بين واجبات بارنج أن يجوب الأقاليم شارحاً للفلاحين المحليين حقيقة الأمر. هنا اتبع بارنج تكتيكاً تعلمه من ستوركس فى مالطا، فاقترح على من يبدى اعتراضه من السكان الإنضمام إلى عضوية اللجنة. وعندما استرجع ذكريات تلك الفترة، رأى أن شيئاً لا يستطيع تهدئة المعارضة أكثر من ضم زعيم

---

[177] Michael Roper, The Records of War Office and Related Departments 1960 – 1964 (London: Public Record Office Publications, 1998), 213.

[178] Zetland, Lord Cromer, 45 – 6.

[179] Ibid., 46.

[180] نشر الأول من إدارة الطبوغرافيا والإحصاء بوزارة الحرب والآخر من HMSO (المطبوعات الحكومية الملكية).

المعارضين إلى اللجنة، وجعله مسئولاً عن تصرفات كان رافضاً لها من قبل[181]. وقد اتبع بارنج هذا التكتيك فى أماكن عمله خارج البلاد، لعل أبرزها دعوة أبرز نقاده من المصريين – سعد زغلول– ليصبح وزيراً للمعارف عام 1906. وقد نجحت هذه السياسة فى جنوب إنجلترا، فلم يتجاوز ما تم دفعه تعويضاً عن التلفيات الناجمة عن المناورات 1200 جنيه[182].

أعيد تنظيم إدارة الطبوغرافيا والإحصاء – مرة أخرى– عام 1871، وتحدد إختصاصها "بجمع وترتيب المعلومات التى يمكن الحصول عليها فيما يتعلق بقوة وتنظيم الجيوش الأجنبية، بما فى ذلك نظام الإعداد للمعارك للوقوف على التقدم الذى يتم إحرازه فى الفنون والعلوم العسكرية فى البلاد الأجنبية"[183]، وللنهوض بهذه المهام تم تقسيم الإدارة إلى ثلاثة أقسام يختص كل منها بالمعلومات الخاصة بجيوش بلاد بعينها، وأعطى بارنج مسئولية بريطانيا وأيرلندا وشمال ألمانيا وإسبانيا والبرتغال وإيطاليا[184]. وترتب على ذلك زيادة راتبه. وقررت لجنة أخرى فى 24 يناير 1871 زيادة راتب بارنج وزميليه من 232 جنيهاً و13 شلناً سنوياً إلى 450 جنيهاً سنوياً. ولعل من الطريف مقارنة ذلك براتب السيدة فيرل عاملة النظافة التى رأت اللجنة إبقاء راتبها السنوى على ما كان عليه وهو 39 جنيهاً وشلنان[185].

وتمت الاستفادة بالخبرة الشخصية لبارنج فى مجالات الإصلاح العسكرى الأخرى؛ فعلى سبيل المثال، اختير عضو بلجنة أخرى شكلت فى أكتوبر 1870 لتضع توصيات بشأن المنشآت العسكرية المناسبة مع تحديد الرجال والمعدات اللازمة لمختلف أنواع الوحدات بالجيش البريطانى الجديد بما فى ذلك كتيبة مشاة، وفيلق فرسان وبطارية مدفعية[186]. غير أن نشاطه البارز يتمثل فى العون الذى قدمه لكاردويل ونورثبروك ورئيسه السابق هنرى ستوركس فى حملتهم لإقناع كامبردج بالموافقة على إلغاء النظام الذى كان يسمح للضباط

---

181 Quoted in Zetland, Lord Cromer, 47.

182 General Sir Robert Biddulph, Cardwell at the War Office: A History of His Administration (London: John Murray 1904), 189.

183 Roper, Records of the War Office, 214.

184 Captain E. H. H. Collen "Report on the Intelligence Branch, Quarter – Master – General's Department, Horse Guards", Oct. 1878, PRO, WO 33 / 23, 6.

185 "Report of a Committee on the Topographical and Statistical Department", 241 / 1871, Appendix 253 – 7, PRO, WO 33 / 22.

186 شكلت اللجنة فى 30 أكتوبر 1870 PRO, WO 33 / 32.

بشراء المناصب الرئيسية لقاء مبالغ مالية كبيرة، وكان ذلك مثار مناقشات حامية بالبرلمان أوائل 1871[187].

وكان المتحدث الرئيسى عن السياسة العسكرية الجديدة هو نورثبروك فى مجلس اللوردات، وستوركس بمجلس العموم بعد ما دخل البرلمان نائباً لريبون. وكانت هناك مجموعة من الضباط الشبان تمدهما بالمعلومات من بينهم بارنج وزميله خريج كلية الأركان جارنت ولسلى الذى كان – فيما بعد– قائد الحملة البريطانية التى احتلت مصر عام 1882، وأعد بارنج مذكرة بعنوان "الجدل المؤيد والمعارض لنظام الشراء" ذهب فيها إلى أن إلغاء شراء المناصب يمثل مفتاح إصلاح الجيش[188]، وقد استخدمت هذه المذكرة من جانب دعاة الإصلاح العسكرى فى البرلمان[189].

وكما حدث بالنسبة للجنة الملكية الخاصة بجامايكا، وجد بارنج نفسه غارقاً فى توصيات الكثير من الجدل. وفى هذا الصدد غامر بمستقبله الوظيفى بالوقوف ضد الرغبات المعلنة للقائد العام. وتم تسوية المسألة نهائياً فى يوليو 1871 بصدور إعلان ملكى تم بموجبه إلغاء بيع المناصب العسكرية إعتباراً من أول نوفمبر فى ذلك العام. ونستنتج مما يورده بارنج عن دوره بهذه المسألة فى "الملاحظات" أن ذلك الدور كان مصدر فخر حقيقى عنده[190].

حياة لندن وإيثل والهند

كان مقر إدارة الطبوغرافيا العسكرية يقع فى هورس جاردز باريد على مسافة قريبة من 11 بيركلى سكوير الذى عاش فيه إيفلن بارنج مع أمه بعد تخرجه فى كلية الأركان، ووفقاً لتعداد 1871 كان يقيم بالبيت بارنج وأمه وأخوه ريتشارد (وكان تاجراً فى الثامنة والثلاثين) وثمانية من الخدم. وكان ند شقيق إيفلن الكبير – الذى كان على وشك رئاسة البيت المصرفى للأسرة– يقيم بالقرب من بيت الأسرة فى 37 شارع تشارلز مع زوجته لويزا وأبنائه الستة: 3 ذكور و3 إناث.

---

[187] Biddulph, Cardwell at the War Office, 108 – 41.
[188] Quoted in Zetland, Lord Cromer, 48.
[189] Cromer to Major Leslie, 20 Mar, 1913, CP / 2, FO 633 / 24.
[190] BN 151 – 4, 161 – 73.

وكان من مزايا إقامة إيفلن مع أمه، القرب من ليدى بوللر عمة إيثل التى كانت تسكن فى شارع بروتن وراء بيركلى سكوير، كما أن السير رونالد إرنجتون كانت له منازل بالمدينة فى شارع جرو سفنر وشارع كيرزون، وكانت أيضاً بالجوار، ولكن لا نعرف ما إذا كانت إيثل تقيم بلندن، فقد أصبح اعتراض والدها على الزواج من إيفلن بارنج مشكلة كبرى، كما أن فينشيا شقيقة إيثل تزوجت من الكونت بولنجتون الكاثوليكى فى أبريل 1867، وثمة دليل على قيام فينشيا بالوساطة بين الطرفين عندما عجز بارنج عن الإتصال مباشرة بإيثل فى تشيشاير أو نورثمبرلاند.

ولابد أن تكون عائلة بارنج على صلة مستمرة باللورد نورثبروك الذى كان بيته بالقرب من هاملتون بلاس بيكاديللى، وكان أرمل منذ 1867، ثم نكب بفقد ولده الثانى آرثر الذى غرقت به سفينة فى سبتمبر 1870، وقد هده الحزن حتى بدا أكبر سناً ممن يكبرونه بعشرات السنين، وكان لديه إلتزام شديد بواجبه، يعمل ساعات طويلة، ولا يرتاح إلا بين العائلة والأصدقاء. كما كان يمثل جناحاً متنفذاً من رجال حكومة الأحرار، الذين رغم ثرائهم إعتبروا أنفسهم من العامة، واهتموا بالثقافة أكثر من إهتمامهم بالثروة[191].

وقد أصابت الدهشة لورد نورثبروك تماماً عندما تلقى عرضاً بتولى منصب نائب الملكة بالهند فى فبراير 1872 بعد اغتيال اللورد مايو. وبمجرد قبوله المنصب طلب على الفور من إيفلن بارنج أن يرافقه إلى الهند سكرتيراً خاصاً أو سكرتيراً عسكرياً، ولما كان بارنج لا يريد المضى قدماً فى السلك العسكرى، فقد فضل الوظيفة الأولى على الثانية، وهذا مثال آخر لما يتجاوز حدود التوقع فى حياة البشر من حوادث كتلك التى غيرت مجرى حياة بارنج ونقلته إلى الإدارة الاستعمارية مع خبرة خاصة بالإقتصاد السياسى الذى كان على رأس العلوم فى عصر جلادستون.

وكتب بارنج على الفور رسالة إلى إيثل يبلغها النبأ، ويطلب منها إنتظاره حتى يعود من الشرق:

26 فبراير 1872

[191] Vincent, Formation of the Liberal Party, 15 – 16.

عزيزتى الآنسة إرنجتون

إننى على وشك الذهاب إلى الهند لمدة خمس سنوات، وتمنيت أن أكتب لك قبل السفر لولا خشيتى ألا أتلقى رداً منك؛ لذلك فضلت أن أترك هذه الرسالة مع أخى، عساه يجد سبيلاً لتسليمها لك.

إنك تعلمين مدى تعلقى بك منذ عدة سنوات، ولم أتحدث معك حول هذا الموضوع، كما لا أعرف موقفك منه، وهو ما أهتم به كثيراً، وهى مسألة يجب أن تظل بيننا، ولن أتخلى عن هذه الفكرة التى اعتنقتها منذ زمن بعيد ما لم أسمع منك شخصياً مطالبتى بصرف النظر عنها، وسوف يكون ذلك مؤلماً؛ لأننى جعلت منها فكرة حياتى لمدة طويلة. وأرجو أن لا تترددى فى إبلاغى برأيك مهما كانت الحقيقة محبطة لى، ولكن إذا جاء ردك إيجابياً كما أتوقع، فهل أطمع فى أن تكتبى لى سطراً واحداً بهذا المعنى ؟ إننى عندئذ لن أشعر باليأس حتى تنقضى السنوات الخمس ما دمت أعيش على أمل جديد. وعلى عكس ذلك فإنه مهما كان ردك، فإنه لا يلزمك بشئ، بل يمكنك التصرف وفق ما تريدين مستقبلاً، وكل ما أريده أن أعرف على وجه اليقين ما إذا كنت أعيش على أمل زائف أم أن على أن أنتظر الأمل ؟ وعلى كل، أرجو ألا تغضبى من إقدامى على الكتابة إليك، فقد طال صمتى حتى لم يعد باستطاعتى تحمله مهما كانت النتيجة.

ثقى أننى سأكون المخلص دائماً

إيفلن بارنج[192]

جاء هذا التعبير القوى عن مشاعره كتابة فى عيد ميلاده الحادى والثلاثين[193]. وهو يعكس خوفه من أن تكون إيثل فى وضع لا يسمح لها بإتخاذ قرار، ولكن يبدو أنه تلقى رداً إيجابياً قبل أن يشد الرحال إلى الهند بصحبة نورثبروك، فمن بين مجموعة خطابات إيثل المحدودة، نجد خطاباً من السيدة هنرى بارنج: إلى "عزيزتى إيثل" تخبرها فيه أنها ستقيم حفلة غداً،

---

192 CP/1, Letters and Papers Of the 1st Lady Cromer.
193 Ibid.

وكل يوم جمعة مما يعنى أنها أصبحت صديقة حميمة للعائلة[194]. ولكن الخطاب لا يحمل – لسوء الحظ– تاريخاً، ولكن لابد أن يكون قد أرسل قبل وفاة والدة بارنج فى 1874، وهناك خطاب آخر أكثر دلالة أرسله لها بارنج من الهند فى 20 يوليو 1873 خاطبها فيه "عزيزتى إيثل"[195].

---

[194] Ibid.
[195] Ibid.

الباب الثانى
التلمذة فى الحكومة الإمبريالية والمالية الدولية
(1883 – 1872)

الفصل السادس
نائب الملك: الهند
(1876 – 1872)

تعلم حكم الهند من كلكتا إلى سملا

سافر اللورد نورثبروك وبصحبته إيفلن بارنج إلى الهند فى مارس – أبريل 1872، تاركاً ولديه فرانك (21 سنة) الذى عين معاوناً لنائب الملك، وإبنته إيما Emma ليلحقا به فيما بعد عندما يتحسن الجو. وقد سافر نورثبروك وبارنج بالقطار إلى مارسيليا ثم بحراً إلى الإسكندرية، ثم وصلا إلى القاهرة بالقطار، حيث احتفى بهما الخديو إسماعيل. وكانت تلك أول زيارة للقاهرة التى سيقضى فيها بارنج معظم حياته فيما بعد. وسافر بعد ذلك إلى السويس بالقطار، ثم حملتهما الباخرة جلا سجو إلى بومباى عبر جزيرة بريم ومستعمرة عدن البريطانية. وقضى نائب الملك الوقت على ظهر الباخرة فى قراءة الكتب الزرقاء وغيرها عن الهند، وبدأ دروسه الأولى فى الهندوستانية، وقراءة سيرة النبى محمد[196]. ويمكننا أن نستنتج أن إبن أخيه (بارنج) قد حذا حذوه.

وصل نائب الملك ورفاقه إلى بومباى فى 29 أبريل، وبعد أن تم تقديمه لمجموعة من الموظفين والأمراء الهنود، قطع رحلة طويلة عبر شبه الجزيرة الهندية فى جو شديد الحرارة، ثم ركب قطار سكك حديد شرق الهند إلى كلكتا فى رحلة تستغرق عادة 65 ساعة فيما عدا الوقفات الإضطرارية على الطريق التى يقوم بها نائب الملك. وهناك مكثا بضعة أيام، قبل القيام برحلة إلى شمال الهند. فقد أراد اللورد نورثبروك أن يقف على أحوال الهند بنفسه – على نحو ما ذكر بارنج لأحد المراسلين الصحفيين المحليين– وأنهى الجولة فى سملا العاصمة الصيفية التى تقع على سفوح الهمالايا شمال دلهى، وذلك فى يوم 28 مايو[197].

---

[196] Bernard Mallet, Thomas George Earl of Northbrook G. C. S. I.: A Memoir (London: Longmans Green 1908), 54 – 5; Bernard Cohn, Colonialism and Its Forms of Knowledge: The British in India (Princeton: Princeton University Press, 1996), 33 – 45.

[197] Baring to Routledge, 17 May 1872, Letters from Cap. Baring to Persons in India (Simla: Private Secretary's Office Press, 1873), copy in CP/2, FO 633/1.

وأنهى السنة بجولة ثانية فى 17 أكتوبر، زار فيها لاهور وكراتشى ثم بالباخرة إلى بومباى، قبل أن يعود مرة أخرى إلى كلكتا فى 13 ديسمبر قبيل عيد الميلاد (الكريسماس).

كان عدد سكان كلكتا نصف المليون نسمة منهم 7265 صنفوا فى تعداد 1872 أوروبيين، معظمهم موزع بين الخدمة المدنية والخدمة العسكرية، والنخبة المهيمنة من رجال الأعمال، مع وجود تباين واضح بينهم. وقد بنيت المدينة فى الأصل على أرض المستنقعات على نهر الجانج المقدس، وهو النهر الذى يصر الأوروبيون على تسميته نهر الهوجلى Hooghly. ورغم التحسينات التى أدخلت على المدينة فى السبعينيات من القرن التاسع عشر مثل مد شبكة مياه الشرب، ونظام الصرف الصحى، فقد اشتهرت المدينة بجوها القاتل شديد الحرارة وانتشار الأمراض. وكتب رود كيلنج – الذى زارها عام 1888– باستفاضة عن الرائحة الكريهة التى تأتى من النهر وتغطى كل أحياء المدينة[198]. ولخص لورد ماكولاى – الذى عاش وعمل هناك فى ثلاثينيات القرن التاسع عشر– الحياة فيها بقوله: "نحن نعبأ أربعة شهور ونغلى أربعة شهور أخرى ونترك لنبرد إن استطعنا إلى ذلك سبيلاً أربعة شهور ثالثة، فالحشرات واللحادين سعداء بهذا الطقس"[199].

ويقع مقر الحكومة – المقر الرسمى لنائب الملك– على النهر، بين مكاتب الحكومة حول دالهاوس سكوير وأرض الحديقة الطويلة المفتوحة، اليدان التى تمتد على الضفة اليسرى من الجانج، وبعدها أرض الكريكيت يليها الطريق إلى قيادة الجيش فى فورت وليم وما حولها، وقد قام الماركيز ولسلى ببناء مقر الحكومة (1799 – 1803) بتكلفة باهظة أثناء حكم شركة الهند الشرقية فى البنغال، وهو يشبه كدلستون هول فى دربيشاير، يتكون من قطاع مركزى كبير من طابقين يتصل بأربعة أجنحة من خلال ممرات على شكل هلال. ويضم القطاع المركزى: قاعة احتفالات كبيرة مكسوة بالرخام (تتسع لجلوس مائة ضيف، وسقف مرتفع حتى يمكن استخدام النخيل للزينة) ثم قاعة العرش لاستقبال أعضاء الأرستقراطية الهندية، وقاعتان للرقص، وقاعة مكتب كبيرة. أما الأجنحة فتضم مكاتب إدارة نائب الملك، وشقق إقامة هيئة المكتب وغرف نوم وحمامات للضيوف، وقاعة المجلس. وكان التصميم

198 Rudyard kipling, City of Dreadful Night (New York,: H. M. Cardwell, 1899), ch. 1.

199 Quoted in the foreword to Official History of the Bengal Club, Calcutta, (May 1997), 35 – 6.

جيداً يجتذب كل نسمة تهب، وتم تحسينه بإدخال الإضاءة بالغاز عام 1863، وشبكة المياه الجارية الباردة والساخنة عام 1872 عند وصول نورثبروك وبارنج. وكانت الإسطبلات على الجانب الآخر من الطريق فى مواجهة مدخل القصر. وفى المناسبات الرسمية يخرج موكب نائب الملك من المقر فى عربة مكشوفة يحيط بها الحراس على ظهور الخيل بزيهم المميز.

وتولى معاونو نائب الملك تصريف الشئون الداخلية، وتولى كل واحد منهم إدارة واحدة منها: المقر، المطابخ والطهى، الدعوات، الإسطبلات، وعدد كبير من الخدم الهنود. وكتبت ليدى دافرين زوجة نائب الملك فى النصف الثانى من ثمانينيات القرن التاسع عشر عن الجمادار الذين كانوا الخدم الخصوصيين لأسرة نائب الملك، والحجاب الذين يقفون بباب حجرة نوم كل فرد، وغيرهم من الخدم ذوى الزى المميز الذين يتولون الخدمة على مائدة الطعام، وجيش من عمال النظافة بواقع 7 أو 8 للغرفة الواحدة[200]، وقد أبطل نورثبروك كل المراسم المرتبطة بالحياة الخاصة لنائب الملك (مشبهاً نفسه بسمكة الزينة داخل إناء فوق المائدة لا تجد ما تختفى تحته)[201]. ولم يشعر إدوارد لير بالمتعة عندما نزل ضيفاً على نورثبروك فى أعياد الكريسماس ورأس السنة 1873، وكتب عن الحياة الصناعية التى عاشها فى حجرات مظلمة، حيث لا مجال للراحة[202]. ولم يعجبه سوى الحديقة التى تبلغ مساحتها ستة إكر رغم أنها فقدت معظم أشجارها فى عاصفة عام 1864.

وكان لنائب الملك مقر ريفى – أيضاً– فى أعالى النهر عند باراكبور يتم الوصول إليه بالقارب البخارى أو فى رحلة برية يبلغ طولها 12 ميلاً. وقد قصد نورثبروك هذا البيت كل أحد للراحة طوال وجوده فى كلكتا، وكان البيت مؤثثاً على مستوى نائب الملك وبه بعض الغرف، بينما كان طقم الخدمة يقيم فى مكان مجاور. وعندما زاره لير فى يناير لم يرتح لبرودة المكان وجفافه[203]. ولكن كانت له حديقة بديعة على شاطئ النهر تشبه الحديقة الإنجليزية بها حدائق نبيان ضخمة[204]. وعندما زرته بنفسى عام 1997 فى يوم ممطر بارد

---

[200] The Marchioness of Dufferin and Ava, Our Viceregal Life in India: Selections From My Journal 1884 – 1888 (London: John Murray, 1890), 8 – 9.

[201] Mallet, Thomas George Earl of Northbrook, 81.

[202] Ibid., 271 – 2.

[203] 27 Dec. 1873, Edward Lear, Journal in India, vol I. (Oct. 1873 – May 1874) Houghton Library, Harvard University.

[204] Marchioness of Dufferin, Our Viceregal Life, 14.

وجدته قد تحول إلى كلية للشرطة الهندية وبه صف طويل من تماثيل نواب الملك القدامى والقادة العسكريين البريطانيين، بعد ما تمت إزاحتها من ميادين كلكتا بعد الاستقلال.

أما سملا، فكانت شيئاً آخر: خليط من الأكواخ (الشاليهات) ذات السقوف المثلثة (الجمالونات) تسدل الستائر على نوافذها، وتحمل أسماء إنجليزية مختلفة، تتجمع على سفح جبل إرتفاعه سبعة آلاف قدم، ولم تتحول إلى مقر صيفى إلا نتيجة إصرار نائب الملك فى ستينيات القرن التاسع عشر، لورد لورانس، وكان الوصول إليها صعباً، وتفتقر إلى وسائل الراحة، وفى عام 1873 وصل الخط الحديدى إلى القاعدة العسكرية فى أمبالا على بعد 1100 ميل من كلكتا بعدها ينتقل المسافر إلى كالكا عند سطح الجبل بعربة (البريد) قطعها ألفرد ليال (عضو مجلس نائب الملك) فى 11 ساعة عام 1873 – أو 41 ميلاً عبر الممر الجبلى[205]. أما الصعود إلى المقر بالعربة فيستغرق وقتاً أطول ربما يصل إلى ثلاثة أيام، ولكن النزول لا يستغرق وقتاً طويلاً. وما يكاد المرء يصل إلى سملا حتى يقع على مناظر بديعة، وخاصة تجاه جبال التبت فى الشمال الشرقى حتى تتوالى قمم الجبال خلف بعضها البعض حتى القمم المغطاة بالثلوج.

وكان جميع الموظفين يسكنون بيوتاً مستأجرة فى الغالب، من نورثبروك الذى أقام فى بيت مهراجا ماهار حتى أقل الموظفين مرتبة، وجاء الخدم الهنود (نحو عشرين ألفاً) من أهالى السهول. وتذكر زوجة لورد ليتون الذى خلف نورثبروك فى المنصب أن مقر نائب الملك فى سملا يشبه "الأسقفية الكبيرة" التى يقوم على خدمتها 300 خادم ومائة طباخ، وكانت مياه الأمطار تتسرب من السقوف فكان لابد من نصب خيمة داخل القاعة لاستقبال الضيوف من الأمراء الهنود وغيرهم[206]. وأقام معاونو نائب الملك فى أكواخ متباعدة مما جعلهم يتجشمون الصعاب للوصول إلى المقر لتناول العشاء[207]. وعانى سكان المنطقة من ارتفاع نسبة الوفيات التى يعزوها الأهالى إلى بناء المقر على موقع جبانة. وعانت المنطقة من

---

[205] Lyall to Sibylla, 17 Apr. 1873, LP, MS, Eur. F 132/5.
[206] Quoted in E. J. Buck, Simla Past and Present, 2nd edn, (Bombay: Times Press 1825), 39 – 40.
[207] Quoted Ibid, 46.

الأمطار الغزيرة فى الربيع والحاجة إلى التدفئة باستمرار، وانزلاق التربة التى تجرف معها البيوت والدكاكين وجميع من يقع فى نطاقها.

وخارج نطاق العمل الرسمى، كانت هناك حياة إجتماعية تتمثل فى التنزه والحفلات وعروض المسرح للهواة ولعب الكريكيت، وسباق الخيل، ورحلات القنص وصيد الأسماك، وركوب الخيل لمسافات طويلة للنساء والرجال على السواء، والرحلات الخلوية فى الغابات. وبالنسبة للبريطانيين كانت كل متاعب الإقامة بسملا يهون أمرها مقارنة بالحال فى كلكتا فى أكثر شهور السنة حرارة ورطوبة، وخاصة أنهم كانوا قادرين على خلق جو مناسب لأسلوب الحياة الإجتماعية الإنجليزى مع صلات محدودة بالمجتمع الهندى كلما كان ذلك ممكناً. وقد أوجد نوعاً من الشعور بالتضامن بين النخبة من الموظفين ذوى الرواتب الكبيرة، ويجتمعون يوم الأحد لأداء الصلاة فى "كنيسة المسيح" بحضور نائب الملك وقائد القوات المسلحة وغيرهم.

ومنذ البداية أثار الإنتقال السنوى إلى سملا نقداً شديداً لإرتفاع التكلفة، وبعد المسافة بينها وبين كلكتا وانقطاع الصلة مع الدوائر التجارية بها، كما أنها معزولة بشكل خطير عن المراكز الرئيسية جنوباً مما أثار مخاوف من أدركوا ثورة 1857 على وجه الخصوص[208]غير أن لورد لورانس، ولورد نورثبروك، وبارنج رأوا فى الإنتقال إلى سملا مناسبة للتركيز على إنهاء الكثير من الأعمال التى لا يمكن إنجازها فى كلكتا أو غيرها من المدن، فتتهيأ الفرصة لنائب الملك ورجاله لبحث الأمور قبل إتخاذ قرار بشأنها[209]. ولعل من بين الأسباب التخلص من مضايقات رجال الصحافة الإنجليزية الهندية الذين يترقبون نوايا الحكومة، والمراسلين الصحفيين الذين يرشدون صغار الموظفين لتسريب المعلومات ويحومون حول مكاتب الحكومة؛ لتصيد الأخبار مما يسبب القلق للإدارة[210]. ولا يعنى ذلك أن سملا نجت من تلك الممارسات؛ حيث يذكر كيلنج أنه عند انعقاد المجلس المالى عام 1886، "كانت

---

[208] Lyall to Sibylla, 17 Apr. 1873, LP, MS Eur. F 132/5.

[209] Baring to Dr. G. Smith, 3 June 1873, Letters from Capt. Baring.

[210] The Same thing could also happen at the India office in London. See Salisbury to Northbrook, 26 Aug. 1874, NP, M, Eur. C 144/11.

التلال مليئة بالطيور التى تحلق هنا وهناك لالتقاط المعلومات"[211]. ولما كان صحفياً مبتدئاً فلا شك أنه كان على علم بما يدور هناك.

وكان نورثبروك سعيداً بهدوء سملا وبعدها، حتى إنه حرص على الإنتقال إليها فى أبريل ولا يتركها إلا فى منتصف أكتوبر، مع القيام بجولة واسعة فى الخريف، مما يعنى أنه لم يقم فى كلكتا سوى ما يزيد قليلاً على ثلاثة شهور سنوياً، ولعل عشقه للرسم والنباتات وصيد السمك وركوب الخيل وراء ذلك على نحو ما تذكر إبنته إما Emma فى خطاب أرسلته لعمتها فى لندن[212].

ولما كان بارنج السكرتير الخاص لنائب الملك، فقد أقام بصفة دائمة مع عمه نورثبروك باعتباره فرداً من أفراد العائلة فى كلكتا وسملا وجميع الجولات الطويلة التى يقوم بها نائب الملك. وكان نورثبروك يحرص على نظام العمل اليومى شأنه فى ذلك شأن رجال العصر الفيكتورى، وكما ذكر لأخته حينة كان يستيقظ فى السادسة أو السابعة صباحاً فيشرب كوباً من الشاى، ويمشى فى جولة سريعة حول الحديقة، ثم يقرأ فى الكتاب المقدس أو يتلو صلاة حتى يبدأ موعد العمل فى الثامنة والربع فيحضر إيفلن بارنج حاملاً جدول أعمال اليوم[213]. وبذلك يظل بالملابس غير الرسمية حتى موعد الإفطار مع العائلة فى التاسعة والربع،ثم يرتدى الملابس الرسمية حيث يعمل حتى الثانية بعد الظهر فيتناول وجبة خفيفة، مكونة من الحساء ولا يضاف إليه شئ آخر إلا فى حالة وجود ضيف[214]، ويرتاح فترة ما بعد الظهيرة ثم يمتطى حصانه فى جولة حول الميدان بصحبة أحد معاونيه فيما بين السادسة والسابعة مساء.

ويتم تناول العشاء فى الثامنة والنصف، وقد يقتصر على نورثبروك وعائلته وبعض معاونيه، وقد يتسع لنحو 50 أو 60 ضيفاً، ولعبت إبنته إما دور المضيفة فى فصلى الشتاء الأولين قبل أن تعود إلى لندن بصفة دائمة نتيجة عدم ملاءمة المناخ لها صحياً، ولن تعد إلا فى

[211] Rudyard Kipling, "Parturiunt Montes", 26 Apr. 1886, in Early verses by Rudyard kipling 1879 – 1889: Unpublished, uncollected and Rarely Collecteel Poems ed., Andrew Rutherford (Oxford: Clarendon press, 1986).

[212] Quoted in Mallet, Thomas George Earl of Northbrook, 78.

[213] Ibid, 80 – 81.

[214] 24 Dec – 1873, Lear, Journal in India, I.

أواخر عام 1875. وفى أثناء غيابها لعبت زوجة السكرتير العسكرى لنائب الملك دور المضيفة، وتولى الطباخ الفرنسى الخاص للورد نورثبروك الإشراف على الطهى فى الحفلات والمناسبات المهمة. وينهى اليوم بتناول كأس من البراندى مع السيجار فيما بين الحادية عشرة ومنتصف الليل؛ حيث يأوى نورثبروك إلى فراشه. أما راحة الأحد فى البيت الريفى ببركبول، فكان نظامه مختلفاً؛ إذ يخلد نائب الملك للراحة التامة، وكتابة الخطابات الخاصة[215].

الهند عام 1872

جاء تعيين اللورد نورثبروك نائباً للملك بالهند فى وقت أثار فيه اغتيال اللورد مايو المخاوف عن إحتمال وجود مؤامرة أوسع نطاقاً من حادث الإغتيال، أو ربما الإعداد لتمرد ثان واسع النطاق. وجاءت تلك المخاوف على رأس أخرى سبقتها، أثارها مقتل القائم بأعمال قضاء البنغال فى مدخل المحكمة، كما أثارها نشر كتاب هانتز عام 1872 بعنوان: "المسلمون الهنود: هل يتجهون إلى الثورة ضد الملكة ؟" الذى ذهب فيه إلى وجود سخط مستشرى بين المسلمين ضد الحكم البريطانى، يرتكز على التعصب الدينى أساساً. وكانت تلك المخاوف تتركز حول نشاط الوهابيين، وهم جماعة إسلامية إصلاحية إزداد نشاطها إتساعاً فى الستينيات من القرن التاسع عشر وكذلك نشاط مسلمى القوقاز، وقد واجهت الحكومة الإقليمية بالبنجاب تنظيماً من السيخ هاجم المسلمين، مواجهة عنيفة تضمنت تصفية 49 سجيناً من الكوكا باستخدام بنادق الميدان فى يناير 1872.

وقد بدأ نورثبروك بحثاً متعمقاً فى الوضع الأمنى فى الهند قبل مغادرته إنجلترا فى طريقه إلى الهند، وعندما وصل إلى بومباى تأكد من صحة النتيجة التى تم التوصل إليها من أنه لا يوجد مبرر مباشر يدعو للقلق والتحسب. ولم يقبل اللورد – بصفة خاصة– الفكرة القائلة بوجود مؤامرة وهابية، غير أنه قرر أن يضعهم والكوكا بالبنجاب قيد المراقبة[216]. ودخلت هذه المهمة فى نطاق اهتمامات بارنج من ناحيتين: أولهما بإعتباره المسئول عن الأمن بحكم

[215] Mallet, Thomas George Earl of Northbrook, 81.

[216] Edward C. Moulton, Lord Northbrook's Indian Administration. 1872 – 1876 (London: Asia Publishing House, 1968), 9, 10.

كونه السكرتير الخاص لنورثبروك، وخاصة أن الإهتمام بأمن الحكم البريطانى فى الهند تضاعف بعد اغتيال اللورد مايو، فأصبحت حراسة المبانى الحكومية – مثلاً– من اختصاص الحراس الأوروبيين وحدهم. ونتج عن ذلك أن أصبح بارنج على إتصال مباشر مع صامويل ووتشوب Wauchope كبير مفوضى الشرطة فى كلكتا، لإعداد الترتيبات الخاصة بضمان سلامة وأمن نائب الملك. ويستطلع رأيه بصفة خاصة فيما إذا كان من المناسب أن يقوم نورثبروك بزيارة بعض المناطق التى ينشط فيها الوهابيون وسيخ الكوكا. فى طريقه إلى سملا، وأخذ بارنج على عاتقه أن يظل المتفرجون الهنود على موكب نائب الملك على مسافة بعيدة تحقق الأمن لنورثبروك، ويلقى وصفه لسياسته فى رسالة إلى السير وليم موير – حاكم الأقاليم الشمالية الغربية– الضوء على وضع بارنج المتميز فى حاشية نورثبروك[217]:

"أتخذ كل الخطوات لضمان السلامة الشخصية للورد نورثبروك على مسئوليتى دون أن أخبره بها، فقد فوضنى فى اتخاذ ما أراه مناسباً فى هذا الصدد، وهو لا يخشى شيئاً، وكثيراً ما عبر عن عدم ارتياحه للإجراءات المشددة التى أتخذها، ولكن بينى وبينك لا أقيم اعتباراً لاعتراضاته، قائلاً له إن عليه الخضوع لهذه الإجراءات التى يتخذها الحرس الشخصى والعام على السواء".

وتمثل الإختصاص الآخر بالأمور الأمنية الذى وقع على عاتق بارنج، فى مساعدة نورثبروك فى تأسيس نواة المخابرات الهندية، وهى مهمة انبثقت عن خبرتهما بالإصلاحات التى تبنتها وزارة الحرب، وبدأ ممارسة هذه المهمة من خلال تبادل خطابات سرية مع رجال المخابرات خارج إطار أرشيف نائب الملك، مستخدماً فى ذلك أكياس بريد جلدية خاصة ذات أقفال معينة فى عملية التبادل للرسائل والتقارير تلك، كما احتفظ بها صندوق مغلق، ولم تخضع نفقات جهاز المخابرات الجديد لمراقبة حسابات الحكومة، ولم تكن هناك وثائق تبين كيفية صرف ما تم إنفاقه من مبالغ[218]. وفيما بعد أصبح هذا الجهاز الذى أنشأه نورثبروك يحمل إسم "قوة تحريات الشرطة الخاصة بالنشاط السياسى"، وتولى قيادتها

[217] 7 Sept. 1872, Letters From Capt. Baring.

[218] Baring to Lee Warner, 19 June 1873, Letters from Capt. Baring.

الماجور إدوارد براد فورد الذى جاء تعيينه فى مايو 1874 مفوضاً عاماً لإدارة مكافحة العصابات الإجرامية، بمثابة غطاء لعمله الحقيقى رئيساً للمخابرات[219].

وتم اتخاذ الخطوة الأولى نحو إنشاء إدارة للمخابرات العسكرية بعد ذلك بفترة وجيزة (أكتوبر 1874) بتعيين ضابطين للتأكد من سلامة الطرق التى تسلكها القوات العسكرية "داخل الحدود وخارجها"[220]. ويبدو أن نتائج تلك الإجراءات، وفرت لنورثبروك شعوراً بالثقة عبر عنه فى إحدى مراسلاته بالقول: "أعتقد أنه لم يعد باستطاعة أحد المقيمين بالمناطق المتوترة أن يقدم على عمل دون أن يكون لدى الحكومة علم مسبق به، وتقدير تام لما يتضمنه مثل هذا العمل من مخاطر"[221].

ورغم أن نورثبروك لم يخش قيام تمرد مسلح، فإنه كان على يقين أن ثمة شعوراً قوياً بالسخط كامن فى الهند، وهو ما عبر عنه عند تفسيره لوجهات نظر المتعلمين الهنود، كما تعكسها الصحافة المحلية، أو التنظيمات النخبوية مثل "الجمعية البريطانية الهندية". وقد عزى بعض أسباب ذلك إلى "تجاهل رأى الوطنيين عند إعداد التشريعات الأخيرة فى الهند". وقد حاول معالجة هذا الأمر بدعوة بعض الهنود إلى حفلات عشاء محدودة العدد، وزيارة بعض بيوت الهند البارزين، وتعيين راماناث تاجور (وهو من عامة الهند) عضواً بالمجلس التشريعى الذى تم توسيعه عام 1861 ليضم أعضاء من غير الموظفين من الهنود والإنجليز[222]. سبب آخر للسخط، رأى فيه نورثبروك تأثيراً كبيراً على جميع ما اتبع من سياسات لاحقة، هو أن الهند شهدت بضع سنوات من "الإسراف فى إصدار التشريعات"، بما فى ذلك فرض إجراءات لا تحظى بالقبول الشعبى مثل ضريبة الدخل، والضرائب المحلية الإضافية التى إرتبطت بإصلاحات اللورد مايو للنظام المحلى للحكم[223].

---

[219] Northbrook to William Taylor, 10 Jan. 1878, NP, MS Eur. C 144/7.

[220] Captain E. H. H. Collen, "Report on the Intelligence Branch, Quarter – Master General's Department, Horse Guards, Oct. 1878, PRO, WO 33/23.

[221] Northbrook to Taylor, 10 Jan. 1878.

[222] Moulton, Lord Northbrook's Indian Administration, 18.

[223] يذكر داسجوبتا أن موضع الخلاف يعود إلى الطريقة غير العادلة والمرتجلة التى تجبى بها الضرائب وليس الضريبة ذاتها، انظر:

Uma Dasgupta, Rise of an Indian Public: Impact of Official Policy 1870 – 1880 (Calcutta: BDDHI, 1977), 85 – 8.

وغالباً ما كانت الخلافات ينظر إليها من جانب بارنج وغيره على أنها تعود إلى إختلاف "المدارس الفكرية" حول السياسة التى يجب اتباعها فى الهند، وإلى الإتجاه العام إلى تصنيف صناع السياسة الهندية ومستشاريهم تبعاً لموقفهم من الإنفاق الحكومى: إسرافاً أو توفيراً، واتجاههم نحو الإصلاح أو التمسك بالأوضاع القائمة. وكانت تلك الخلافات مفيدة فى تحديد ألوان وصور عهود نواب الملك فى الهند بالشكل الذى سيبين للرأى العام البريطانى والهندى كيف كانت سياسة نورثبروك – مثلاً– تختلف عن سياسة كل من سلفه مايو وخلفه ليتون Lytton.

وكان اتجاه نورثبروك السياسى محكوماً بضرورة اتباع مجموعة من المبادئ المتشابكة استندت إلى تفسيره لتأثير الإقتصاد السياسى والحكم الصالح، وتطويعهما لما اعتبره ظروفاً خاصة بالهند، وتضمن ذلك الحاجة إلى موازنة سليمة تقوم على الحد الأدنى من الضرائب، والإقتصاد الشديد فى الإنفاق الحكومى، وخفض حجم الجيش بقدر الإمكان، والمعارضة الشديدة لأى تفكير فى القيام بمغامرات عسكرية. وفى الهند، تأكدت هذه المبادئ وتدعمت بتحديد الوعود التى قدمتها الملكة فيكتوريا فيما يتعلق بقانون حكم الهند (عام 1858)، بما فى ذلك عدم ضم أراض أخرى للإمبراطورية، والوعد الذى قدمه نورثبروك عند وصوله إلى الهند بأنه لن تكون هناك ضرائب جديدة[224]. وقد حددت تلك الوعود – بما أسماه بارنج– "إيقاع التقدم" بمعنى مدى السرعة التى يتم بها تحقيق التحسن، على نحو ما أوضح فى إحدى مراسلاته فى أكتوبر 1872 "يتعلق كل سؤال عام فى هذه البلاد بالناحية المالية"، ورغم أن موارد الخزانة فى الهند هى التى تحدد مستوى الإنفاق الحكومى وليس العكس، كما فى إنجلترا، و"لذلك تظل مشكلة كيفية إيضاح أهمية فرض ضرائب عالية دون المساس بالتطور التدريجى المادى للبلاد مشكلة بالغة التعقيد"[225].

[224] James Routledge, English Rule and Native Opinion in India: Some Notes Taken 1870 – 74 (London: Trubner 1878), 191.

[225] Baring to Tait, 12 Oct. 1872, Letters from Capt. Baring.

الأوضاع المالية والمجاعة

عند وصول نورثبروك وبارنج إلى الهند، حان موعد تقديم الموازنة المالية للعام 1872 / 1873 التى أعدها السير ريتشارد تمبل Temple العضو المالى بمجلس نائب الملك، وبذلك لم يتح لنورثبروك الوقت الكافى للتعرف على حقيقة الأوضاع المالية لأول وهلة، وخاصة فيما إتصل بالزيارة الأخيرة فى الضرائب، وإن كان نورثبروك وبارنج قد ألما بالإطار العام للموازنة غير العادية للهند من خلال قراءة الموازنات الأخيرة والكتب الزرقاء. وفيما يتعلق بالموارد المالية جاء ما يزيد قليلاً على 40% منها من ضريبة الأطيان الزراعية التى تم تحديدها فى جميع أنحاء البلاد بما سمى "بالتسوية الدائمة"، مما يعنى أن فئات الضريبة لا يمكن تعديلها على مدى زمنى طويل، وفيما عدا ضريبة الأطيان، جاء نحو 15% من موارد الخزانة من حصيلة بيع الأفيون (الذى ذهب معظمه إلى الصين)، و10% من حصيلة إحتكار الملح، وما يتراوح بين 5% من الضرائب الجمركية على التجارة، و5% من مكوس ورسوم أخرى، وفى الجانب الخاص بالمصروفات بالموازنة، ذهبت ثلث المصروفات إلى الجيش والثلث الثانى إلى الإدارة بالهند وبريطانيا، 15% على الأشغال العامة، وخصصت 10% لتسديد دين الهند[226].

ويبدو أن الإلتزام الشخصى الذى قدمه نورثبروك بتخفيض الضرائب قد تأثر مباشرة بالقرار الذى اتخذه فى يناير 1873 بالإعتراض على قانون البلديات الذى قدمه السير جورج كامبل، لإعتقاده أن ذلك القانون سوف يؤدى إلى زيادة الضرائب المحلية بالبنغال، واتخذ خطوة أبعد مدى عندما قام بإلغاء الضريبة على الدخل (التى قررت عام 1861)، وذلك إعتباراً من موازنة 1873 / 1874، رغم اعتراض تمبل ووزير الهند دوق أرجيل Duke of Argyll. وأدى ذلك إلى خفض فائض الموازنة ليصل إلى 200 ألف جنيه إسترلينى (مقارنة بإجمالى الموارد البالغ خمسين مليوناً). وعلى كل، حتمت الظروف الطارئة صرف النظر عن تلك الحسابات بسبب الحاجة الماسة إلى إنفاق الملايين لمواجهة مجاعة البنغال – بيهار – على نحو ما سيأتى ذكره.

---

[226] S. Bhattacharyya, Financial Foundation of the British Raj: Men and Ideas in the Post – Mutiny Period of Reconstrution of India Public Finance 1858 – 1872 (Simla: India Institute of Advanced Study, 1971), 10.

فإذا تم تخفيض الضرائب، فلابد من خفض المصروفات أيضاً، وباعتبار المبادئ التى اعتنقها نورثبروك، فنقطة البداية لابد أن تكون بخفض الإنفاق العسكرى، وبالنظر إلى حقيقة كونه وبارنج كان لهما نشاط بارز فى إصلاحات وزارة الحرب بلندن، كانت هناك حساسية من اقتران خفض النفقات العسكرية مع الاستخدام الأجود للموارد العسكرية الهندية. وبداية، كتب بارنج "مذكرة الجيش المحلى" التى اقترح فيها خفض القوات الهندية 120 ألف جندياً مع إدخال نظام خدمة الإحتياط. وأضيفت فقرات من هذه المذكرة إلى المقترحات الخاصة بالإصلاح واسع النطاق التى أرسلها نورثبروك إلى أرجيل (وزير الهند) فى يوليو 1873. غير أن تلك المقترحات لن تلقى قبولاً من دوق أرجيل أو اللورد سولسبرى الذى خلفه فى منصبه فى فبراير 1874، كما كانت هناك معارضة قوية من جانب الدوائر العسكرية فى لندن والقيادة العسكرية بالهند (الجنرال لورد نابييه أوف مجدلا General Lord Napier of Magdala).

وسرعان ما اكتشف نورثبروك وبارنج أن محاولتهما إصلاح جيش الهند أثارت الكثير من المتاعب التى واجهتهما من قبل بلندن واضطرا أن يتركا المقترحات تسقط، واقتنعا بمقاومة كل محاولة لزيادة الإنفاق العسكرى فى الهند عن الحد الذى بلغه عندئذ رغم الضغوط القوية التى قام بها اللورد نابييه نفسه، مستنداً إلى حملة فلورانس نايتنجيل الداعية إلى تحسين الخدمات الصحية للقوات البريطانية فى الهند التى تم إحياؤها فى منتصف السبعينيات من القرن التاسع عشر[227]. وما تم تحقيقه من نجاح تمثل فى استبدال بنادق الجنود الهنود التى يتم تعميرها من مؤخرة الماسورة بتلك التى كانت تعمر من مقدمة الماسورة، وذلك رغم ما أثير من شكوك حول ولاء الجنود الهنود أثناء الثورة. مع مراعاة أن هذا النوع المتطور من البنادق قد زودت به القوات البريطانية قبل ذلك بسنوات معدودة. ولكن بارنج فشل فى إقناع قيادة جيش الهند بإتباع النظام الألمانى بإجراء المناورات العسكرية زمن السلم، بعدما ساهم فى تشجيع هذا الإتجاه بإنجلترا.

---

[227] Moulton, Lord Northbrook's Indian Administration, 50 – 1; E. T. Cook, The Life of Florence Nightingale, vol II, (London: Macmillan 1913), 274 – 5.

أحبطت الأفكار الداعية إلى التخطيط المالى بعيد المدى، عندما وصلت أنباء تجاوز الأمطار الموسمية معظم أنحاء بيهار وشمال البنغال، وعندما اكتشف نورثبروك بنفسه أن محصول أرز الخريف، وهو المحصول الرئيسى فى العام، قد جاء مخيباً للآمال مما جعل البذور اللازمة لمحصول الربيع بعيدة المنال، لا تنتج الشتلات المعتادة، وقدر عدد السكان المتوقع أن يعانوا المجاعة بعشرين مليوناً، ولكن كان من حسن الحظ أن العلامات الأولى للقحط لن تظهر قبل حلول الربيع[228] مما أتاح وقتاً محدوداً أمام نورثبروك وجورج كامبل (وكيل حاكم البرتغال) للاستعداد لمواجهة الكارثة، وقد فعلا ذلك لتجنب الأخطاء الجسيمة السابقة التى وقعت فيها الحكومة خلال مجاعة أوريسا الخطيرة عام 1866.

وخلال زمن قصير، إتخذ نورثبروك القرارات الأساسية التى تحدد السياسة التى تتبع لمواجهة المجاعة المتوقعة، وتوفر لها ضمانات النجاح، وتضمن ذلك الإعلان فى الجريدة الرسمية أن الحكومة تتحمل كافة التبعات الناجمة عن الجفاف، وهو إجراء غير مسبوق فى تاريخ الإدارة البريطانية فى الهند، وكان ذلك إعلان خطوة أولى لتخفيف حالة الفزع التى تصيب الناس فى مثل تلك الظروف، كما حدث من إمكانيات تخزين التجار للغلال للاستفادة من الأزمة. وقرر نورثبروك شراء 340 ألف طن من الأرز من بورما، وهى الكمية التى قدرت الحاجة إليها لمواجهة الأزمة، وذلك لوجود فائض كبير فى محصول بورما فى ذلك العام. كما تم شراء كميات من مدراس، وأبقيت أرقام مشتريات الحكومة للأرز سراً[229]. وتقرر أن يقدم جانباً من تلك المشتريات للقادرين على العمل فى مشروعات الأشغال العامة كأجر نظير عملهم فى بناء خزانات المياه ورصف الطرق، ويوزع جانب آخر على العاجزين عن العمل مثل كبار السن والأطفال والمرضى، ومن يحول انتماؤهم الطائفى دون ممارسة مثل هذه الأعمال.

وفى الوقت نفسه، أقدم نورثبروك على عمل اختلفت حوله الآراء عندما لم يمنع تصدير الأرز من البنغال على أساس أن الصادرات تمثل كميات قليلة مقارنة بالواردات، وأنها سوف

[228] Sir Richard Temple, Men and Events of My Time in India, (London: Murray 1882) 393 – 4.

[229] زيدت مشتريات الأرز إلى 480 ألف طن فى مارس 1874 بضغط من حكومة بريطانيا Multon, Lord Northbrook's Indian Administration, 100 – 1.

تؤدى إلى إرتفاع أسعار الأرز قليلاً عند بداية الأزمة، وبذلك لا يتم إهدار الطعام المحدد الكميات، كما أنه ليس من الحكمة حظر النشاط التجارى فى وقت ستكون الحاجة ماسة إليه بعد انتهاء المجاعة[230]. وكانت هناك انتقادات قوية لهذه السياسة شارك فيها كامبل نفسه، وزادت الإنتقادات عند رؤية السفن المحملة بصادرات الأرز تلتقى بالسفن المحملة بواردات الأرز فى نهر الجانج، ولكن نائب الملك تلقى دعماً لسياسته من لندن، وظل صامداً فى تنفيذها بحزم.

بدأ شراء الأرز على الفور، وبحلول 19 ديسمبر 1873، كان بمقدور نورثبروك أن يبلغ دوق أرجيل (وزير الهند) أن تعاقدات استيراد الطعام تكفى لإطعام 4.2 مليون نسمة لمدة أربعة شهور[231]. وبدأت أعمال الإغاثة فى بعض المناطق مع بداية العام الجديد، ثم ما لبثت المشكلات أن بدأت عندما تدهورت صحة كامبل، وحل محله ريتشارد تمبل، كما كانت هناك صعوبات فى نقل الغذاء إلى الأماكن المصابة التى تقع بعيداًعن مجرى النهر. وهذه مشكلة تطلب حلها إنشاء خط حديدى مؤقت وتأجير 40 ألف عربة نقل (تجرها الدواب) فيما بين منتصف فبراير ومنتصف يوليو[232]. وأخيراً، عندما بلغت المجاعة ذروتها فى مايو، توقف العمل فى الزراعة وغيرها من الأعمال، وفتحت الحكومة مخازنها لبيع الحبوب للقادرين على الشراء بأسعار الأزمة، ومساعدة الفقراء بتوفير أعمال مؤقتة لهم أو تقديم بعض المعونات الغذائية لهم. وشكلت لجان الإغاثة فى كل إقليم، فقد كان أهل القرية هم الذين يحددون القادرين على العمل، والذين لا يقدرون، ولذلك زارت اللجان القرى لمعاينة الظروف على الطبيعة، ولحسن الحظ، وجدت الأزمة انفراجاً من أوسع الأبواب عندما هطلت الأمطار الموسمية بغزارة، ولكن متاعب الإدارة لم تنته عند هذا الحد، بل كان من الضرورى تقديم سلفيات للمزارعين لضمان زراعة محصول الشتاء فى شهر يونيو[233].

تطلب ذلك كله رباطة الجأش، فقد توافد الصحافيون من بريطانيا والصحف الهندية – الإنجليزية على موقع الأحداث فوراً، وحاول بعضهم البحث عن أدلة تشير إلى أن الحكومة

[230] حول دفاع نورثبروك عن سياسته، انظر: Minute of 30 Jan 1874, quoted in Mallet, Thoms George Earl of Northbrook, 84 – 5.

[231] Northbrook to Argyll, 19 Dec. 1873, NP, MS Eur. C 144/10.

[232] Routledge, English Rule, 207.

[233] Temple, Men and Events, 398 – 403.

لم تستعد للأزمة أو وقعت فى أخطاء جسيمة، وجعل ذلك من بيانات الحكومة الشهرية حول أرقام وفيات المجاعة موضع قلق وترقب، وقام نورثبروك بإلغاء الإنتقال إلى سملا حيث المقر الصيفى ذلك العام (1874) حتى يؤكد تعامله مع الأزمة بجدية، وأرسل إبنته إما إلى لندن، وأعد لنفسه مقراً فى هزار باغ فى تشوتا ناجبور بالقرب من مناطق المجاعة، وللاستفادة من الموقع الذى يبلغ إرتفاعه 330 قدماً عن سطح البحر حتى يتخفف من حرارة الجو[234]. وفى الوقت نفسه، أسند إلى بارنج مهمة المشتروات السرية للأرز التى لم تكن بياناتها معروفة لأحد سواه ونورثبروك وأشلى إيدن المفوض العام لبورما البريطانية[235]. وكتب لير – الذى كان عندئذ يجوب الهند– أن بقاء نورثبروك وبارنج فى قيظ كلكتا كان بمثابة عقاب لهما[236]. وكتب بارنج للير حوالى الوقت نفسه يذكر إصابته بالحمى ثم شفاءه منها بعد حين[237]. وبإعتبار الظروف القاسية التى واجهها نورثبروك وبارنج أثناء المجاعة، لم يكن أمامهما مفر من الصمود فى مواجهتها.

وبحلول الخريف بدأت الأزمة تتقشع، ولم يمت من جراء المجاعة سوى 25 شخصاً عندئذ، وكان لا يزال هناك القليل ممن يحتاجون الحصول على عمل مؤقت لكسب الرزق، وعادت الحياة الزراعية – بصورة أو بأخرى– إلى طبيعتها[238]. غير أن الإنتقادات استمرت من جانب الصحافة الهندية – الإنجليزية، وليس من جانب الصحافة الهندية، وتعالت الأصوات عندئذ بأن مبالغة الحكومات فى تقدير الأزمة جعلها تهدر الأموال على شراء الغلال التى اضطرت إلى بيعها بالخسارة. ولكن نورثبروك ذاته كان واثقاً أنه لولا خطته لشراء الغلال لمواجهة الطوارئ لارتفعت أرقام الوفيات بسبب المجاعة، على نحو ما جاء فى تقريره لسولسبرى (وزير الهند)[239]. وما لبث معظم نقاده فى بريطانيا والهند أن اقتنعوا بذلك.

---

[234] Buck, Simla, Past and Present, 38.
[235] Northbrook to Argyll, 23 Jan – 1874, NP MS Eur. C144/10.
[236] Lear to Lord Carlingford, 12 June 1874, Edward Lear: Selected Letters, 241 – 6.
[237] Ray Murphy (ed)., Lears Indian Journey (London: Jarrolds 1853), 150 – 153.
[238] Moulton, Lord Northbrook's Indian Administration, 114 – 15.
[239] Northbrook to Salisbury, 2 Dec. 1874, NP, MS Eur. C144/11.

دور بارنج

من الجلى أن دور بارنج فى تلك الأحداث المضطربة كان دور المعاون ولا يتوفر العديد من القضايا التى كان له فيها تأثير مباشر على نورثبروك أو على السياسة التى انتهجها، وارتبطت تلك المناسبات المحدودة بمجالات كانت له خبرة سابقة بها، كانت توازى – على الأقل– تلك التى كانت لنورثبروك فى مجال الإصلاح العسكرى. وتظل حقيقة حياته بالقرب من نائب الملك، والثقة الخاصة التى تمتع بها لتوحى بأن ما كان يبديه من رأى موضع ترحيب، سواء فيما يتعلق بتحسين الأداء أو التحذير من المخاطر؛ فكما أشار بارنج فى "الملاحظات". طلب منه نورثبروك أن يلعب دور إبن كريون أى أن يقدم له الإنتقادات الودية التى لا يرغب الآخرون فى تقديمها والإشارة هنا إلى "أنتيجون" عمل سوفكوليس، حيث أخبر هايمون – إبن الملك– والده: "لمصلحتك – إذاً– تعودت أن أضع فى اعتبارى كل شئ يقوله إمرؤ أو يفعله، أو يوجه اللوم عليه؛ لأن نظراتك تخيف المواطنين العاديين وتردعهم عن استخدام تلك الكلمات التى قد لا تسر لسماعها، ولكننى أسمعها من موقعى فى الظل"[240].

ولعب بارنج دوراً مستقلاً فى الإتصال بمختلف مراكز الرأى العام الإنجليزى – الهندى فى الحالات المهمة من الأمور المتصلة بسياق العمل التى تتصل بتوجيه الصحافة؛ ففيما يتصل بالجانب الأول، كان عليه أن يسعى إلى الموظفين الذين تتوفر لديهم معرفة واسعة بالمجتمع الهندى، ومختلف الإتجاهات الفكرية السائدة فيه. وكان من بين هؤلاء آلان أوكتافيان هيوم وزير الزراعة والموارد والتجارة، والذى كان – فيما بعد– من مؤسسى المؤتمر الوطنى الهندى، ووليم هانتز مدير عام الإحصاء ومحرر مجلة Imperial Gazeteer of India، وألفرد ليال Alfred Lyall الذى نالت كتاباته عن ديانات الهند إعجاب بارنج، والذى أصبح وزير الداخلية بحكومة الهند – بناء على توصية– عام 1873. ومثل هذه الإتصالات كانت ذات أهمية خاصة فيما يتصل بتأكيد ردود أفعال النخبة الهندية تجاه أمور ذات حساسية خاصة مثل الضريبة على الدخل، أو خلع أحد حكام الولايات الهندية من الأمراء (جايكوار بارودا).

---

[240] أورد زيتلاند النص الإنجليزى من ترجمته فى كتابه Lord Cromer, 53 n.

والتعامل مع الصحافة كان أكثر تعقيداً؛ فقد كان له – بصورة عامة– وجهان: أولهما تقديم سياسات نائب الملك بأوضح صورة ممكنة محلياً وفى لندن، وثانيهما منع تسرب المعلومات، وتصويب المعلومات المغلوطة، وتحذير رؤساء التحرير الهنود عندما يصل نقدهم للحكومة حداً بعيداً. ولتحقيق ذلك، كان بارنج يجرى اتصالات متنوعة، ويستخدم قنوات تراسل معينة من بينها الكتابة إلى عدد من السكرتيرين الخصوصيين للوزراء فى لندن، وحكام الأقاليم فى الهند. كما فتح قنوات اتصال أخرى مع محررى الصحف الهندية – الإنجليزية الذين كان الكثير منهم يلعب دور المراسل لصحف لندنية معينة، مما سهل الأمور أمام بارنج، كذلك فتح قناة ثالثة مع محررى الصحافة اللندنية مثل جوزيف ليفى الصحافى واسع النفوذ، مؤسس أول صحيفة يومية بريطانية ثمنها بينى واحد هى الدايلى تلجراف Daily Telegraph.

ويبدو عمل بارنج – على هذا النحو– متوافقاً مع ما نقرأه عن ممارسات أواخر القرن العشرين، فكان يتولى تسريب المعلومات لبعض المحررين والمراسلين المحظوظين، واقترح الكتابة فى موضوعات معينة على بعض الأصدقاء من الصحافيين، وقام بتصحيح الأخطاء، وكتب ذات مرة مقالاً بدون توقيع نشر بالتايمز أثناء الجولة التفقدية التى قام بها نائب الملك فى الخريف من العام 1872، وإن كان ذلك المقال لا يعد من بين المقالات التى ظل يفخر بها[241]. غير أننا لا يجب أن نبالغ فى التشابه بين زمانه وزماننا، فقد كانت الصحافة العامة قليلة الوجود فى سبعينيات القرن التاسع عشر، وخاصة فى الهند، التى لم تبدأ الصحافة فيها إلا فى أربعينيات ذلك القرن. كما لم يكن هناك إجماع على ما يعد علاقة مناسبة بين الموظف العام والصحافة، فلم يكن هناك قانون يحمى أسرار الدولة، أو قواعد تتعلق ببذل أو تلقى الأموال. ولعل ذلك يفسر تلك المجموعة المختارة من المراسلات بينه وبين عدد من محررى الصحف بالهند التى نشرها فى سملا عام 1873، وتتضمن معلومات عن مبالغ دفعت لصحفيين تبدو شديدة الصراحة، بل وصادمة فى عصرنا الحالى. ولكنها لم تكن تبدو كذلك فى نظر أهل ذلك العصر من القلة التى أتيحت لها قراءة تلك المجموعة عندئذ. وهى تعكس عصراً كان فيه رجال النخبة الإجتماعية المتميزة يشعرون بالثقة عند

[241] Baring to Routledge, 31 Nov. 1872, in Zetland, Lord Cromer.

تعاملهم مع رجال من مستواهم الإجتماعى، وتبين أن إيضاح الأبعاد الخلفية للأوضاع القائمة لم يكن على هذه الدرجة من الأهمية.

على كل، هناك المزيد من الأدلة التى تشير إلى أن بارنج كان يدرك بعض المشاكل الكامنة فى الأوضاع القائمة، وتمنى أن يرى استخدام قواعد تتسم بالشفافية مع الموافقة التامة على ما يعد من قبيل الممارسات السليمة. كتب يوماً إلى ألن G. W. Allen محرر ذى بايونير The Pioneers يقول إنه كان سعيداً "بتقديم كل ما باستطاعته من مساعدة لأصحاب ومحررى الصحف الكبرى، ولكن علاقتى بهم كانت ترتكز على الإهتمام الشخصى، ولم تكن مملاة أو موحى بها من الحكومة بأى حال من الأحوال"[242]. ولا شك أن ذلك يبدو على درجة من السذاجة، ولا يتجاوز حدود الكلام المرسل، وإن كان من الممكن النظر إليه باعتباره نوعاً من إرساء القواعد لما يعرف اليوم بالمعلومات الخاصة التى يفضى بها الموظف العام إلى صحفى لمعلوماته الخاصة وليس لينشرها منسوبة إليه.

وثمة مبادرة أكثر وضوحاً جاءت عام 1875 عندما رتب بارنج مع السكرتير الشخصى لوكيل حاكم البنغال إقامة "غرفة المحررين" بكلكتا، حيث يتاح لهم الإطلاع على نسخ من وثائق الحكومة التى لا يتم نشرها بالجريدة الرسمية، ويتم تصويب المعلومات الخاطئة التى يتم نشرها بالصحف المحلية[243]، وصحب ذلك صدور قانون فى يونيو 1875 منع الإتصال بين الموظفين وأعضاء "جمعية الصحافة"[244].

وهذا النوع من العلاقات بين بارنج والصحافيين كان مقصوراً على الصحافة الهندية – الإنجليزية، والصحافة البريطانية، وكانت ضرورية لوضع أسس السياسات تجاه الصحافة المحلية التى تزايدت أعدادها بين أسبوعية وشهرية ويومية، وكانت تصدر باللغات الهندية المختلفة مع بعض الصفحات بالإنجليزية أحياناً. وكانت تلك الصحف المحلية تشارك الصحافة الهندية – الإنجليزية إهتماماً بالشئون التشريعية والإدارية، ولكنها تميزت بقدرتها المتنامية على تشكيل إتجاهات الرأى العام الهندى تجاه سياسات الحكومة[245]. وتولت

---

242 Baring to Allen, 26 May 1873, Letters From Capt. Baring.
243 Baring to Buckland, 2 July 1875, TC, MS Eur. F 86/11.
244 Dasgupta, Rise of an Indian Public, 43.
245 Ibid, 43 – 51.

الحكومات الإقليمية متابعة ما ينشر بتلك الصحف التى بلغ عددها بضع المئات. وكانت تلك المتابعة تخضع لقواعد وضعها نورثبروك ونفذها بارنج. من بين تلك القواعد أن يتحدث الموظف الإنجليزى ببطء عندما يجرى معه أحد الصحافيين الهنود مقابلة، فإذا تجاوز ما ينشر حدود ما دار بالمقابلة كان من حق الإدارة المعنية إنذار الصحيفة. ومن تلك القواعد أيضاً ما وصفه بارنج باستخدام "الصحافة المحلية المحترمة" فى الرد على بعض ما جاء بالصحف المحلية "غير المحترمة"[246]، فقد كان نورثبروك لا يريد أن يدفع إلى اتخاذ إجراءات قمعية ضد الصحف، أو إصدار قانون مقيد للصحافة مثل "قانون المطبوعات" الذى أصدره خلفه اللورد لايتون عام 1878 وقام باستخدامه كما فعل بارنج الشئ نفسه فى مصر[247].

وجاءت مساهمة بارنج الأساسية فى الطريقة التى اتبعها لجعل أفكار وآراء وسياسات نائب الملك معروفة للرأى العام على أوسع نطاق ممكن، وفى الطريقة التى نسجها بها بهدف إضفاء مغزى سياسى خاص على فترة حكم نورثبروك للهند، فقد كتب إلى جيمس روتلدج محرر تايمز أوف إنديا Times of India عشية وصوله صحبة نورثبروك إلى كلكتا فى مايو 1873، يطلعه على الفكرتين الرئيسيتين اللتين تدوران بخلد نورثبروك: الحاجة الماسة إلى تنظيم المالية على أسس سليمة، وعدم إصدار أى تشريع جديد "دون التروى فى النظر إلى مختلف الإعتبارات"[248]. وقد استمر بارنج يؤدى تلك المهمة طوال عمله بالهند الذى ختمه بدفاع شامل عن فترة حكم اللورد نورثبروك للهند فى المذكرة التى كتبها فى أبريل 1876، وطبعت بعد عودته للهند بعنوان: "إدارة اللورد نورثبروك للهند 1872 – 1876"[249].

قضية الجايكوار حاكم بارودا، والصدام مع اللورد سولسبرى

كانت التأكيدات التى تضمنها إعلان الملكة فيكتوريا الصادر فى 1858 أن بريطانيا لا ترغب فى توسيع ممتلكاتها فى الهند بأى سبيل من السبل، كانت تمثل حجر الزاوية فى سياسات اللورد نورثبروك. وقد فسر هذا الإعلان بالتوقف عن ضم المزيد من الولايات التى

---

[246] Baring to Buckland, 29 June 1875, TC, MS Eur. F 86/11.
[247] Ibid.
[248] 17 May 1873, Letters From Capt. Baring.
[249] نشر بمطبعة نائب الملك بالهند، وتوجد نسخة فى: CP/2, FO 633/106.

يحكمها أمراء من الهنود إلى الأملاك الإمبراطورية فى الهند؛ لأن تلك السياسة كانت من بين أسباب ثورة 1857 (التى يرد ذكرها فى الأدبيات الإنجليزية بإسم "التمرد Mutiny"). وقد تم وضع هذا المبدأ موضع الإختبار بصورة مؤلمة فى حالة بارودا – أكبر الولايات المستقلة فى غربى الهند– حيث دار صراع بين الجايكوار ملهار راو حاكم الولاية، والكولونيل روبرت فاير Robert Phayre المقيم فى الولاية، الذى حاول التدخل فى الطريقة التى يمارس بها الجايكوار الحكم التى إعتبرها استبدادية. وجاء تدخل اللورد نورثبروك فى الصراع على شكل تكوين لجنة تحقيق من ثلاثة بريطانيين وهندى واحد، أعدت تقريراً فى مارس 1874 عن التصرفات السيئة التى وقعت من الجايكوار، وأعطته مهلة زمنية قدرها 18 شهراً ليجرى الإصلاحات اللازمة تحت رقابة الكولونيل فاير. ولكن الأمور تأزمت فى نوفمبر عندما قدم الكولونيل فاير تقريراً إتهم فيه "أحدهم" بأنه سعى لقتله بإضافة خليط من مسحوق الماس والزرنيخ إلى كوب الشربات الذى يتناوله صباحاً.

ونظراً لإدراك نورثبروك حساسية الموقف عين السير لويس بيلى مقيماً بريطانياً بالولاية بدلاً من فاير، وعندما وضع يده على دليل قوى على تورط الجايكوار فى محاولة دس السم، أصدر نائب الملك قراراً بالقبض عليه وتكوين لجنة تحقيق جديدة تضم هذه المرة ثلاثة بريطانيين وثلاثة من الهنود (من بينهم إثنان من المهراجا) بهدف الوقوف على حقيقة الأمر. وقد تناول برنارد مالت – مؤلف سيرة نورثبروك– هذا القرار بإعتباره دليلاً على حرص نائب الملك على احترام الحقوق الوراثية التى تمتع بها الأمراء الهنود[250]. ولكن – لسوء حظه– أصاب الإحباط خطته بسبب انقسام لجنة التحقيق على أن ملهار راو هو الذى دبر محاولة دس السم للمقيم البريطانى، ذهب الأعضاء الهنود إلى أن الواقعة لا تستند إلى دليل واضح يقيم البرهان على صحتها. وكان نورثبروك نفسه على يقين من ارتكاب ملهار راو لهذا الجرم، وأصدر قراراً فى 19 أبريل 1875 بخلعه من منصبه بحجة سوء ممارسته لسلطاته، وجنوحه إلى الاستبداد (وليس بتهمة محاولة قتل المقيم البريطانى، وذلك بناء على نصيحة سولسبرى وزير الهند)[251].

250 Mallet, Thomas George Earl of Northbrook, 93.

251 Moulton, Lord Northbrook's Indian Administration, 163.

وقد أثار قرار اللورد نورثبروك عاصفة من النقد فى كل من بريطانيا والهند. وكان عدم تضمن القرار ما يمس مبدأ "عدم الضم" يدعم موقف نورثبروك الذى تحرك بسرعة لاختيار جايكوار جديد كان طفلاً فى العاشرة، يمت بصلة قرابة بعيدة للأسرة الحاكمة فى بارودا، حتى يتاح للحاكم الجديد الوقت الكافى ليتربى تربية إنجليزية، بينما يتولى وزراؤه إجراء الإصلاحات المطلوبة تحت إشراف المقيم البريطانى. وقام نورثبروك (وبرفقته بارنج) بحضور حفل تنصيب الحاكم الجديد فى بارودا فى آخر مايو 1875. وهناك طلب نورثبروك ومرافقه زيارة والدة الأمير الجديد، وكانت إمرأة هندية تعيش حياة الحريم المنعزلة، ولكنها ناقشت نائب الملك فى شئون الحكم بحكمة واقتدار أدهشت نورثبروك وبارنج الذى وصفها بقوله: "تتمتع بذكاء فطرى وتدرك حقائق الأمور إدراكاً تاماً"[252].

وقد أيد سولسبرى – وزير الهند– اللورد نورثبروك تأييداً تاماً فى طريقة معالجته لتلك الأزمة. غير أنه عانى الكثير من الحرج بسبب ما جاء بقرار لجنة التحقيق الثانية الذى شكك فى صحة الإتهام بمحاولة قتل المقيم البريطانى، مما يعنى سقوط الدعوة قضائياً، ويجعل الدفاع عنه أمام البرلمان أمراً صعباً. وكانت تلك إحدى الحالات التى أظهرت – بصورة عامة– الخلافات بين اللورد سولسبرى – وزير الهند بالوزارة البريطانية المقيم بلندن– ونورثبروك – نائب الملك بالهند المقيم بكلكتا– حول السياسة البريطانية فى الهند، وهى خلافات أصبحت – عندئذ– معروفة، وهى التى جعلت اللورد نورثبروك يقدم استقالته فى ربيع 1876 قبل عام كامل من موعد إنتهاء مدة اسنوات الخمس لولايته منصب نائب الملك فى الهند.

كانت العلاقة طيبة بين نورثبروك والدوق أرجيل سلف سولسبرى، الذى جاء خروجه من الوزارة ليفقد نورثبروك ما حظى به من دعم، جعله وكأنه يقف وحيداً، ولكنه ما لبث أن نال تأييد سولسبرى (الذى تولى وزارة الهند فى فبراير 1874) فى سياسة مواجهة المجاعة، غير أن المتاعب بدأت تلوح فى الأفق، فقد ألح سولسبرى على نورثبروك للاستفادة من دروس المجاعة بالتوسع فى بناء خطوط السكك الحديدية ومشروعات الرى، وكان نورثبروك يبدى مخاوفه من أن تلك السياسة قد تقود إلى فرض ضرائب كبيرة لتوفير الموارد المالية اللازمة لها، ورد سولسبرى على ذلك بهجوم شديد على سياسة نورثبروك الذى فضل البرامج التى

---

[252] أورد مالت هذا الإقتباس، ص 95.

تؤدى إلى إهدار الأموال بسبب إسراف كبار موظفى وزارة الأشغال العمومية بالهند الذين يعيشون "أضغاث أحلام" على حد تعبيره، وأصر سولسبرى أن يكون هناك عضو بمجلس نائب الملك يتولى مراقبة إنفاق وزارة الأشغال العمومية والتأكد من سلامة توجيهها[253]. وأصر نورثبروك على الإعتراض على هذا الإقتراح؛ لأن تعيين مثل هذا العضو سوف يعطى مؤشراً على احتمال زيادة المصروفات، ويعطى انطباعاً (على الصعيد الشخصى) أن هذا العضو سيكون رجل سولسبرى فى المجلس؛ لأنه سيكون – فى تقديره وبارنج– من "معسكر" الخصوم[254].

وما لبثت أبعاد النزاع أن اتسعت، فسولسبرى يعتقد – من ناحية– أن نورثبروك وقع تحت تأثير المصالح الشخصية لأعضاء مجلس نائب الملك، وشن عليه حملة تدعوه إلى دعم سلطته، ونورثبروك – من ناحية أخرى– يرفض ذلك مؤكداً أن الإفراط فى ممارسة صلاحيات نائب الملك، والحد من صلاحيات المجلس يفقد نائب الملك ميزة الوقوف على وجهات نظر وآراء أعضاء المجلس[255]. وأخذ كل طرف فى توجيه نظر الطرف الآخر إلى المبادئ الأساسية والسوابق، واتسعت دائرة النزاع لتصل إلى حدود العلاقة بين بريطانيا والهند، وهى أمور ظلت بعيدة عن الطرح منذ حلت الحكومة البريطانية محل شركة الهند الشرقية فى إدارة الهند عام 1858، أسئلة مثل: ما العلاقة المثلى بين حكومتى بريطانيا والهند ؟ ومن هو صاحب القول الفصل ؟ وحتى عند الإجماع على أن الملكة – من خلال البرلمان– لها هذا الحق، يبقى التساؤل حول سقف الصلاحيات المعطاة لنائب الملك ومجلسه غير المنتخب فى الهند ذاتها.

وفى مثل ذلك النوع من النزاعات، تختلط طبيعة الشخصيات المعنية، وعادات وعلاقات العمل، والأفكار التى يؤمن بها أطراف النزاع ولا يحيدون عنها، يختلط ذلك كله ببعضه البعض. وقد بذل سولسبرى جهداً لا يقل عما بذله نورثبروك لتكون له اليد العليا فى شئون الهند، صغيرها وكبيرها على السواء. وبرر سولسبرى ذلك بأنه وحده المسئول أمام البرلمان عن السياسة التى تتبع فى الهند خطأً كانت أم صواباً. وأصر نورثبروك أنه لابد أن يضع

[253] Salisbury to Northbrook, 13 March, 24 July 1874, NP, MS Eur. C 144/11.
[254] Northbrook to Salisbury, 30 July 1874, Ibid.
[255] Northbrook to Salisbury, 20 Aug. 1875, Ibid.

الرأى العام فى الهند، سواء الهندى أو الإنجليزى – الهندى نصب عينه عند صناعة القرار، بينما رأى سولسبرى أن أمور الهند يجب أن تدار من خلال المراسلات المتبادلة بين وزير الهند ونائب الملك[256]. وقد اعترض نورثبروك على ذلك (ومعه بارنج) باعتبار بطء الإتصال من خلال الخط البرقى الجديد الذى يربط لندن بالهند، وتم إفتتاحه عام 1870، وأن ذلك يهبط بسلطات نائب الملك إلى ما يوازى السفير الذى يوفد إلى بلد ما لتنفيذ ما لديه من تعليمات لا يحيد عنها[257].

وعلى كل، كان بالإمكان إحتواء تلك الخلافات لولا بروز مصادر جديدة للنزاع بين الطرفين عام 1875. وأول تلك الخلافات إصرار سولسبرى أن يقوم نورثبروك بتعيين وكيل أو وكلاء بأفغانستان لمراقبة أعمال أمير أفغانستان خشية أن يقوم الروس – على حد قوله– "بمحاولة إلقاء الأفغان علينا"[258]. وكان سولسبرى قد درس باهتمام شديد تقارير المخابرات الهندية عن أحوال أفغانستان وبلاد وسط آسيا التى كان يرسلها نورثبروك بإنتظام إلى وزارة الهند، واقتنع أن أفغانستان والبلاد التى تقع إلى الشمال منها ذات أهمية إستراتيجية كثيرة، وأنها "مهلهلة ولا تبعث على الإطمئنان"[259]. وكان نورثبروك يخشى أن تقود مثل هذه السياسة إلى زيادة الإنفاق العسكرى، ليقينه أن أمير أفغانستان سوف يرفض قبول وكلاء إنجليز فى بلاده، مما يتطلب شن حملة عسكرية لتأديبه، وأخذ يماطل فى تنفيذ ما طلبه سولسبرى لأطول فترة ممكنة حتى تمكن سولسبرى من استصدار قرار مجلس الوزراء الذى أصدر أمراً لنائب الملك فى الهند ببذل الجهود للحصول على موافقة أمير أفغانستان على تعيين وكلاء بريطانيين فى بلاده، وعلى كل ما كادت تصل تلك الأوامر إلى الهند حتى كان نورثبروك قد تقدم باستقالته بالفعل، وتحولت المسألة إلى خلفه لتنفيذها.

ودارت المعركة الثانية والأكثر حدة بين الرجلين حول إصلاح النظام الجمركى، وإصرار سولسبرى – خاصة– على قيام حكومة الهند بإلغاء الرسوم الجمركية على المنسوجات البريطانية بمجرد تحسن أحوالها المالية، وذلك استجابة لضغوط أصحاب صناعة

---

256 Lady Gwendolen Cecil, Life of Robert Marquis of Salisbury (London: Hodder & Stoughton, 1921) i, 66 – 7.

257 For example, Baring to Lyall, 8 May 1880, LP, MS Eur. 132/60.

258 Salisbury to Northbrook, 19 Feb. 1875, quoted in Cecil, Life of Salisbury, I, 71 – 2.

259 Roberts, Salisbury, 145.

المنسوجات القطنية بلانكشاير، وكعادته قام نورثبروك بتشكيل لجنة لدراسة الموضوع فى نوفمبر 1874. وانتهت اللجنة فى تقريرها إلى أن الرسوم الجمركية التى تبلغ قيمتها 5% على المنسوجات القطنية "ليست رسوماً مانعة تماماً" لشراء المزيد من المنسوجات المستوردة، ولكن اللجنة قررت زيادة الرسوم الجمركية على واردات القطن الخام استجابة لمخاوف دوائر الصناعة فى لانكشاير؛ لأن استيراد القطن الأمريكى والقطن المصرى الممتاز طويل التيلة، يتيح لمصانع النسيج فى الهند أن يطوروا إنتاجهم بتعلم النسيج الرفيع المستوى، وشكلت قرارات اللجنة أساساً لقانون التعريفة الجمركية الجديد الذى أصدره نورثبروك فى أغسطس 1875 دون التشاور مع لندن. وقد أدى هذا القانون إلى خفض الرسوم الجمركية على الكثير من أصناف الواردات، ولكنه أبقى الرسوم على القطن الخام وواردات المنسوجات القطنية عند 3.5% للأول و5% للثانى.

وأدى صدور قانون الرسوم الجمركية إلى شيوع حالة من الذعر والفزع، فقد سارع سولسبرى بإرسال برقية شديدة اللهجة إلى نورثبروك معلناً أن قراره "يتناقض مع سياستنا المعلنة" وأنهى برقيته بالقول "يؤسفنى أن هذا القرار لا يجب العمل به". وقد أثارت البرقية دهشة نورثبروك لإعتقاده أن ما تضمنه القرار من تخفيض الرسوم الجمركية على الكثير من الورادات سيلقى تقديراً فى لندن، وجرت محاولة فاشلة لإحتواء النزاع فى نوفمبر بإيفاد السير لويس ماليت وكيل وزارة الهند، والخبير الإقتصادى، الذى تربطه صداقة حميمة بنورثبروك، إلى كلكتا للتوصل إلى حل ودى للمشكلة، فوجد مالت أن نائب الملك ومجلسه متمسكون بموقفهم، وأن كل ما استطاع عمله هو إقناعهم بإنقاص الرسوم الجمركية على واردات المنسوجات القطنية من 5% إلى 3.5%. وأعلن نورثبروك أنه قدم استقالته بعد ذلك ببضعة أيام فى 5 يناير 1876، بعد ما علم أن سولسبرى يسعى سراً للبحث عمن يخلفه فى منصبه، وأنه استقر على اختيار اللورد ليتون Lord Laytton نائباً للملك فى الهند[260].

وما زال سبب عرض نورثبروك تقديم استقالته فى 5 سبتمبر 1875 يكسوه الغموض، فهناك من يرى أن وراءه أسباباً شخصية، فيذكر إدوارد مولتون أن نورثبروك استاء لوجود علاقة غرامية بين ولده فرانك وإمرأة متزوجة فى سملا، كما أن هناك تقارير تشيد إلى حالة "حزن

[260] Mallet, Thomas George Earl of Northbrook, 114 – 15.

خاصة" كان يعانى منها نورثبروك[261]. وعلى كل يذهب مولتون إلى أن الرجل فضل أن يرجع استقالته إلى أسباب شخصية حتى لا تثير نقاشاً حولها فى مجلس العموم قد يمتد تأثيره إلى الهند ذاتها[262]. ويذهب مولتون أيضاً إلى أن من أسباب الاستقالة توصل نورثبروك إلى قناعة بأن الخلافات بينه وسولسبرى تستعصى على الحل، وأنها قد تزداد حدةً وسوءاً، ويبدو ذلك من الرسالة التى بعث بها إلى سولسبرى فى يناير 1876، وذكر فيها أنه عندما عرض تقديم استقالته "لم تكن هناك مسائل سياسية تثير القلق، ولكن الآن أصبحت هناك مسألتان: أفغانستان والتعريفة الجمركية[263].

ولا نستطيع تجاوز هذا الحد بحثاً عن دوافع الاستقالة دون توفر أدلة أخرى، وإن كان باستطاعتنا أن نستنتج أنه بعد تلقيه برقية سولسبرى بعد صدور قانون التعريفة الجمركية فى أغسطس 1875، وجد نائب الملك نفسه طرفاً فى معركة مع لندن لا يستطيع الإنتصار فيها حتى لو دافع عن قراراته بإعتبارها تخدم مصالح الهند، طالما كان سولسبرى والمحافظون فى السلطة. وربما كان ذلك يرجع إلى طبيعته الشخصية بالبحث عن مخرج قبل أن تزداد الأمور سوءاً. ولعل موافقته على البقاء فى منصبه إلى ما بعد زيارة أمير ويلز (ولى العهد) المرتقبة، كانت تهدف إلى الحصول على فسحة من الوقت مدتها ستة شهور قد تتيح له إنقاذ سياساته التى علق عليها آمالاً كباراً، وخاصة ما اتصل بالتعريفة الجمركية التى رفض تعديلها، والتى كان ينظر إليها فى الهند باعتبارها دفاعاً عن الصناعة الهندية فى مواجهة المصالح البريطانية الطاغية.

ولأفكار بارنج المتصلة بهذه القضية مغزاها؛ فقد أكد فى خطاب أرسله إلى ألفرد ليال فى 25 يناير 1876 أن "كل الآمال فى التوصل إلى حل ودى للنزاع قد تبددت، ففكرة سولسبرى عن الحل تتلخص فى المثل الإسبانى (لن تميل إلى ولن أميل إليك) فهو يريد أن يأتى الحل فى صفه وحده؛ لذلك لا مفر من الصراع... إنه أمر مؤسف حقاً، ولكنه احتجاج عملى ضد

---

[261] تم تناول هذه المسألة بالتفصيل فى كتاب مولتون (75 – 257).

[262] Ibid, 275.

[263] 7 Jan. 1876, NP, MS Eur. C 144/12.

السبل الحالية التى تستخدم لحكم الهند من لندن أصبح ضرورياً من وجهة نظر المصلحة العامة"[264].

وقد ألقى المزيد من الضوء على وجهات النظر تلك فى مراسلات لاحقة ووردت بعد ذلك بسنوات فى رسالة إلى برنارد مالت الذى تبادل الرسائل معه بخصوص ترجمته لحياة نورثبروك. وهنا يشير بارنج إلى الثورة الكبرى التى جلبها وصول البرق إلى الهند. التى جعلت الحكومة والبرلمان فى لندن أكثر اقتراباً من الهند وشئونها، وقد انقضت سنوات قبل تبين مدى أهمية هذا الأثر. وعلى كل كانت إدارة اللورد نورثبروك "نقطة تحول" فى الطريقة التى كانت تدار بها الهند، تضمنت الخضوع للمصالح البريطانية أكثر من ذى قبل[265].

ومثل هذه الملاحظات التى جاءت من شخص قريب إلى نورثبروك تدعم وجهة النظر القائلة بأن الرجل قد تبين أن الخلافات غير قابلة للحل، وأن هدفه فى حماية مصالح الهند مستحيل المنال، وأن من الأكرم له أن يستقيل، ولعل ذلك يفسر موقف نورثبروك بعد العودة إلى لندن؛ فعلى نقيض ما توقعه سولسبرى، لم يبذل الرجل جهداً كبيراً فى الدفاع عن سياساته فى الهند[266].

ومرة أخرى كانت مشاعر بارنج الشخصية مختلفة؛ ففى الوقت نفسه الذى أعلنت فيه استقالة نورثبروك، أبرق إلى شقيقة إيثل إرنجتون المقيمة بلندن التى أبرقت بدورها إلى إيثل فى ساندروك هول: "وصلتنى برقية صباح اليوم من إيفلن بارنج. سوف يعود للوطن فى الربيع، ربما فى أبريل، أخبرى العائلة أن استقالة نائب الملك خبر بالغ الأهمية"[267].

إن السنوات الخمس التى توقع أن يقضيها بعيداً عن الوطن قد نقصت بمعجزة لتصبح أربع سنوات، وبعد وفاة السير رولاند إرنجتون فى مارس 1875، أصبح باستطاعته وإيثل أن يتزوجا، ولكنه سوف يعود أيضاً إلى لندن التى تغيرت أحوالها، فقد غابت عنها أمه وبيتها فى بيركلى سكوير، وكان عليه أن يشترى بيتاً يعيش فيه مع إيثل، وأن يسعى للحصول على

[264] Baring to Lyall, LP, MS Eur. F 132/39.
[265] Cromer to Mallet, 2 Aug. 1907, CP/2, FO 633/98.
[266] Roberts, Salisbury, 147.
[267] CP/1 Letters and Papers of the 1st Lady Cromer.

وظيفة تمكنه من أن يشق طريقه فى الحياة إعتماداً على قدراته وما اكتسبه من صيت خلال خدمته بالهند.

مغادرة الهند

ولعل من المفارقات الصعبة أن يلعب نورثبروك ورجاله دور المضيف لأمير ويلز، الذى أصبح – فيما بعد– إدوارد السابع ملك بريطانيا، حتى مع وجود اللورد سافيلد (زوج سيسليا شقيقة بارنج) على رأس حاشية الأمير، وقد ذهبوا لاستقباله عند وصوله إلى بومباى فى أوائل ديسمبر، ثم عادوا إلى كلكتا لإعداد سلسلة من الحفلات التى بدأت بحفل عشاء بمقر الحاكم العام، أعقبها فى اليوم التالى استقبال بقاعة العرش كان من بين الحضور فيه ستة مهراجات من الهنود، وخصص الأسبوع الثانى للجولات السياحية وحفلات الاستقبال، وسباق الخيل، ومباريات البولو والألعاب النارية، ثم عشاء رسمى آخر بقصر الحاكم العام، ثم مسرحية فكاهية مما يفضله الأمير[268].

وبعد الفراغ من ذلك كله، بقيت مسألة التوصل مع مالت إلى اتفاق حول التعريفة الجمركية، مع العديد من المناسبات الإجتماعية والرسمية المرتبطة برحيل الملك، من بينها رحلة إلى مدينة الله أباد (6 – 7 أبريل) لتحية الأمير، وحفل عام على شرف نورثبروك بدار البلدية بكلكتا (8 أبريل) ألقى فيه خطاباً دافع فيه عن سياسته ومواقفه، وأخيراً مراسم نقل السلطة إلى خلفه اللورد لايتون فى جلسة لمجلس نائب الملك (12 أبريل)[269]. وأخيراً اعتلى نورثبروك ظهر البارجة تينا سريم (15 أبريل) وبصحبته إبنته إما التى جاءت خصيصاً لتلعب دور المضيفة لأمير ويلز، وإبنه فرانك، وإيفلن بارنج واثنين من معاونيه، وقد أبحرت السفينة عن طريق سيلان وعدن (حيث قاد نورثبروك مرافقيه فى رحلة تريض على التلال) ثم مصر، فبرنديزى بإيطاليا، زار بعدها صديقه لير فى فيلا سان ريمو قرب جنوا (26 –

---

268 Philip Magnus, King Edward the Seventh (New York: E. P. Duttan, 1964), 138, lieutenant – Colonel H. A. Newall, Calcutta: The First Capital of British India (Calcutta: Caledonian Printing Co. n. d. Introd, 1922), 127 – 8.

269 Northbrook's farewell speech as printed as Copy in CP/2, 633/99.

27 مايو)[270]، ولكن بارنج فضل التوجه مباشرة إلى لندن للقاء إيثل ولعمل الترتيبات الخاصة بالزواج.

بارنج فى الخامسة والثلاثين

إحتفل بارنج بعيد ميلاده الخامس والثلاثين بكلكتا فى فبراير 1876 قبل عودته إلى لندن بما يزيد على الشهرين، ورغم المشاكل الكثيرة التى واجهها نائب الملك مع سولسبرى، نجد بارنج راضياً عن نفسه بعد ما بدأ حياة وظيفية جديدة فى مجال يتيح له الاستمرار فى العمل حتى النهاية. وكما ذكر فى "الملاحظات" كان يريد عملاً شاقاً، فطوال السنوات الأربع التى قضاها فى الهند حصل على إجازتين فقط كل منهما لمدة ثلاثة أسابيع، ولم يعد يمارس رياضة الرماية، كما لم يجد متسعاً من الوقت للواجبات الإجتماعية. وكانت التركة التى يريد أن يورثها أولاده الحكمة القائلة "لابد أن تعمل من أجل الصالح العام"؛ لأن الواجب واللهو والمتعة "لا تجتمع معاً"، وكان الأمر يستحق العناء؛ لأن خير تدريب للموظف العام أو السياسى أن يعمل سكرتيراً خاصاً لرجل يشغل منصباً كبيراً، وقد أخرجته هذه الوظيفة من المجال المحدد السابق، وجعلته يرقب عن قرب "طريقة معالجة أهم أمور الحياة العامة". لقد ذهب إلى الهند كخبير عسكرى، وعند نهاية عمله أصبح لديه رصيد هائل من المعرفة المتصلة بأمور عدة تتصل بالإدارة المدنية التى أصبحت بالغة القيمة فى حياته[271].

وكان لمهاراته الجديدة تأثير جيد على بعض أصحاب النفوذ فى لندن الذين كانوا فى وضع يسمح لهم بمكافأته فى أكثر من مناسبة فيما بعد.

ولا يعنى ذلك أنه كان يوافق تماماً على كل ما قام به نورثبروك من أعمال، أو ما صدر عنه من أقوال، ولكن أهم ما فى الأمر تعلمه كيف يحزم أمره، وأن يجيد طرح وجهة نظره، وحتى عندما كتب مذكرة الدفاع عن إدارة نورثبروك وهو يتأهب لمغادرة الهند، كان على استعداد للإقرار بأن اختيار أعضاء لجنة التحقيق الثانية الخاصة ببارودا كان خطأ[272]. وفى

---

270 Mallet, Thomas George Earl of Northbrook, 21; Lear, 1876 Diary, Houghton Library, Harvard University.

271 BN 196 – 9.

272 Moulton, Lord Northbrook's, Indian Administration 24 – 5.

السنوات التالية أبدى بارنج انتقاده لإفراط نورثبروك فى المعالجة "السياسية" لموضوعات بعينها، ويقصد بذلك عناد نورثبروك وتمسكه بوعده الخاص بعدم زيادة الضرائب، وكذلك إيمانه بالرأى العام الهندى دون أن يقدر ما لذلك من أثر سلبى على إمكانية التوصل إلى تسوية للنزاع مع سولسبرى[273].

غير أن الدروس المستفادة التى تعلمها من نورثبروك هى الضرائب المنخفضة، والتحمس لجماهير الفلاحين من السكان وأن يقدر الرأى العام، والاستماع بحرص شديد إلى الآراء النقدية التى ترد بالصحف غير الخاضعة للرقابة التى ظلت مصدراً مهماً له طوال حياته الوظيفية. وظل لنورثبروك تأثيراً قوياً عليه من حيث نزاهته وعدم رغبته فى أن يعمل تحت ضغط الرأى العام الشعبى على نحو ما فعل تجاه انتقادات طريقة معالجته للمجاعة[274]. وأخيراً، ظل بارنج متأثراً بالقدرات الإدارية لنورثبروك، مثل قدرته على التوصل إلى اتخاذ قرار فى وقت قصير، ومبادرته إلى استخدام آلة الإختزال فور ظهورها عند إملاء مراسلاته، وهو ما ظل يفعله بارنج طوال حياته.

هذا الإنشغال التام بالعمل، لم يترك لبارنج متسعاً من الوقت لتكوين الصداقات أو ممارسة الهوايات التى حرص عليها نورثبروك، مثل الرسم والإهتمام بالنبات والسير لمسافات طويلة، فقد كان لنورثبروك ولع بالطبيعة الهندية يتجلى فى لوحاته التى رسمها بالألوان المائية والتى سجل فيها ما شاهده فى جولاته وكان يضمنه تقاريره الدورية إلى الملكة. أما بارنج فيكتب ملتمساً العذر لنفسه لإخفاقه فى كتابة تقرير صحفى "إننى معتاد على ما يسمى بالجدل، ولا أحسن الكتابة الوصفية؛ لأن استعدادى الأولى فطرى"[275]. وكانت الهند تعنى عنده – وغيره من الطبقة الحاكمة البريطانية– مصدراً لمفاهيم عفوية، ومناظر، وروائح، وأصوات واضحة، ولكنها غير مباشرة، لا اتساق بينها، غير أنها لافتة للنظر[276].

---

273 e. g. Cromer to Mallet, 2 Aug. 1907, CP/2, FO 633/98.

274 Mallet, Thomas George Earl of Northbrook, 87.

275 Baring to Routledge, 31 Nov. 1872, Letter from Capt. Baring.

276 Amit Chaudhuri, "A feather ! A very Feather upon the Face", London Review of Books, 6 (6 Jan 2000) 22.

وتناظر بارنج مع نورثبروك فى صرامته، وتحفظه، ورباطة جأشه، وتحفظه مع مرءوسيه، وتعاليه، والحرص على وجود مسافة بينه وبين الآخرين، ما عدا من ارتاح لصحبتهم. وكان بارنج – على حد قول ليال عام 1873– حريصاً على إتقان كل عمل على أكمل وجه رغم أنه مدنى[277]. ولابد أن يكون تأثيره قد تدعم بمرور الزمن نتيجة الثقة المتزايدة بالنفس التى توفرت عنده، وبفضل قربه من حاكم الهند البريطانى الذى يخضع له 200 مليون نسمة.

ويعطينا الخطاب الوحيد الذى بقى من كتاباته إلى إيثل أثناء وجوده بالهند فكرة عن تمضيته وقت الفراغ، فقد كتبه فى 20 يوليو 1873 مستنداً على ركبته وهو على إرتفاع 13 ألف قدماً شمال غرب سملا على حافة ما يعرف اليوم بكشمير، أنه يشعر بضيق فى التنفس، مرسلاً لها تحياته، طالباً منها أن تذكره دائماً[278].

ويقدم لنا إدوراد لير نماذج عما كان يفعله بارنج بعيداً عن العمل؛ فقد كان يساعده على الصعود إلى السفينة، ويتمشى معه فى حديقة نائب الملك؛ ويحيط بيته بالفيلة، ودعاه للصعود إلى لاكناو، وهو ما إعتذر عنه لير؛ لأن خادمه يخشى المرتفعات[279]. وقد بدا بارنج للآخرين إنساناً رقيقاً خارج نطاق العمل، يجلس مع عائلة نورثبروك يدخن ويشرب آخر زجاجة من البيرة أو آخر كأس من الشيرى الصودا مع لير الذى كان يتحدث معه بحرية عن الفن والأدب اليونانى القديم، كما كان يستمع إلى قصائد لير الهزلية التى أعطاه لير نسخة منها قبل مغادرته قصر الحكومة فى يناير 1874 تبدأ كالتالى:

لماذا أو متى أو أيها أو ماذا
أو كيف أو أين أخوند سوات أو ماذا
أخوند سوات ؟

أو يمضى فى كتابة أبيات أخرى مثل:

---

277 Lyall to Barbara Lyall, 24, Apr. 1873. LP, MS Eur. F 132/5.
278 CP/1, Letters and Papers of the 1st Lady Cromer,.
279 2, 21, 27, 30 Dec. 1873, 3, Jan. 1874, Lear vol. I Journal in India.

هل يحبه أهله حباً جماً ؟

أم أنهم يثورون كلما كان ذلك ممكناً

فى خوند سوات[280] ؟

وكان الحديث دائماً مسلياً فى غرفة لير، ولكن الفارق الوحيد أن خوند سوات كان شخصية حقيقية، وهو حاكم مسلم لولاية صغيرة ذات موقع استراتيجى مهم تقع عند الحدود الشمالية الغربية، وكان من المتوقع وصوله إلى كلكتا فى زيارة رسمية. ولذلك كان نشر القصيدة فى صحيفة محلية يمثل صدمة لقرائها[281]. ولا ندرى ما سببه ذلك لبارنج من حرج، ولكن لير استمر يكتب مثل هذه القصائد الهزلية مثلما فعل عند زيارته للقاهرة فى الثمانينيات فكتب قصيدة إستخدم فيها الرتب العسكرية فى سياق هزلى مثل اللواء والسردار والبمباشى والميرالاى[282].

[280] Noakes, Edward Lear, 258.

[281] Mallet, Thomas George Earl of Northbrook, 271 – 2.

[282] توجد نسخة فى DP, Add. MS 48929.

الفصل السابع
الزواج ونهاية السلك العسكرى والعودة إلى الشرق من جديد (1879 – 1876)

الزواج والحياة الزوجية

عاد إيفلن بارنج من الهند فى مايو 1876 عاقداً العزم على الزواج والاستقرار بإنجلترا، فقد أزيحت جميع العقبات عن طريق الزواج؛ إذ استطاع أن يوفر جانباً من راتبه فى الهند إضافة إلى ميراث صغير من تركة أمه، وما كان لدى إيثل من مال ورثته عن أبيها بعد وفاته وبيع منزله ببادنجتون فى يونيو 1875، وجاءت وفاة السير رولاند لترفع العقبة الأخيرة أمام الزواج لرفضه تزويج إبنته من غير كاثوليكى فى كنيسة غير كاثوليكية. وفى ظل تلك الظروف كان على إيثل وحدها أن تقدم معظم التنازلات، فلم يدع أى كاثوليكى لحضور الزفاف وقبلت بشرط بارنج أن ينشأ الأطفال الذين يأتون ثمرة هذا الزواج نشأة بروتستانتية، وقد برر ذلك فى "الملاحظات" بتجنبهم التعرض للتمييز فى بلد بروتستانتى.

واتسمت الإستعدادات للزواج بالسرعة الشديدة؛ فقد اشترى بارنج بيتاً برقم 15 شارع سيمور بين ماربل آرش وبورتمان سكوير، وكان بيتاً أنيقاً من خمسة طوابق تحتل موقعه الآن الحديقة الرئيسية لفندق ليونارد، وتم كل ذلك خلال الأسابيع الأربعة ما بين وصوله لندن أواخر مايو وزواجه فى 28 يونيو. بما فى ذلك ترتيبات الزواج وكتابة وصيته ووصية إيثل، وقد قضى إيفلن آخر أيام العزوبية فى بيت أخيه ند Ned (الذى أصبح رئيساً لبنك بارنج) وزوجته، فى تشارلز ستريت. ونالت إيثل مساعدة خالتها (الليدى بولر) التى كانت لا تزال تقيم فى بروتون ستريت. وتمت مراسم الزواج، وشهد على الزواج الجنرال جورج بولر وجورج بارنج (لعله كان إبن عمه جورج)، وكان إيفلن يضع وردة على صدره إحتفظت بها إيثل فى مغلف خاص كتبت عليه "الوردة التى ارتداها حبيبى مينا يوم زفافنا"، وحسبما ورد بالتايمز كان ظهر ذلك اليوم دافئاً.

وبعد العودة من شهر العسل، تسلم بارنج عمله فى إدارته القديمة بوزارة الحرب التى أصبحت تسمى منذ أبريل 1873 "فرع المخابرات"، وكان مركزها الرئيسى فى سانت جيمس

سكوير، وكان قد تم إعادة تنظيمها حديثاً، فأصبحت تضم خمسة أقسام بدلاً من ثلاثة، واتسعت دائرة إختصاصها. فبجانب إهتمامها الأساسى برعاية مشروع نشر القوات البريطانية وتقديم المعلومات عن جيوش الخصوم وتحديث تلك المعلومات، أصبح لها اهتمام بالبلقان حيث ثورة البوسنة والهرسك ضد الحكم العثمانى، وشهد العام السابق إعلان الصرب الحرب على الدولة العثمانية فى نهاية يونيو 1876، وعلى ضوء خبرته بقلاع البحر المتوسط، وخبرته الجديدة المكتسبة فى الهند، طلب من بارنج أن يعد تقارير عن الظواهر الإستراتيجية، كان أولها بتاريخ 16 أكتوبر 1876 بعنوان: "مذكرة عن التصرفات المحتملة للروس إذا قرروا محاولة احتلال بلغاريا، والزحف على القسطنطينية"[283].

وتركز تقارير بارنج على الطرق والسرعة المتوقعة لزحف الجيوش، ولكن هناك مذكرة أخرى بتاريخ 8 يناير 1877 بعنوان "مذكرة عن مسألة وسط آسيا" تناول فيها الأمور الجيوبوليتيكية مؤكداً أنه يمكن الدفاع عن الهند عند حدودها وليس داخل منطقة وسط آسيا، وعقد فى نهاية المذكرة مقارنة بين الحكم الروسى والحكم العثمانى، وبذلك انضم إلى الأقلية الضئيلة من الخبراء، التى ترى أن من الأفضل لبريطانيا أن تدافع عن مصالحها بعقد الإتفاقات مع روسيا بدلاً من محاولة مساندة الإمبراطورية العثمانية المتداعية، وتناولت فكرته ما اعتبره ملاحظة جديدة:

> "هل أرغب فى الظهور بمظهر من يلتمس العذر لروسيا ؟ إننى أود أن أدعو إلى ألا نجعل الغيرة السياسية أن تعطل تقدم الحضارة فى وسط آسيا.. وروسيا فى وضع متخلف، ولكنى لا أكف عن الإعتقاد أن الإنجيل يقدم ديناً أنقى وأكثر إنسانية من القرآن الذى تتأصل الحضارة الروسية ضده من أجل تحقيق التقدم المحتمل... وهى حضارة أرقى من القوانين والمؤسسات المتداعية للمحمدية"[284].

وفى ذلك الوقت تحديداً تلقى عرضاً بالذهاب إلى الشرق الأدنى كمندوب مفوض لبريطانيا فى "صندوق الدين العام" الذى تمت إقامته فى إطار مناورات دولية بدأت عام 1875

---

[283] توجد نسخ من هذه الأوراق والمذكرات التى كتبها بارنج للمخابرات فى:
CP/2, FO 633/16.

[284] Ibid.

لمواجهة عجز مصر عن سداد الفوائد عن ديونها الدولية المتزايدة، وكان المستشار المالى الرئيسى من الجانب البريطانى هو جورج جوشن الذى اشترك مع جوبير الفرنسى فى وضع التسوية المالية فى نوفمبر 1876. وكان جوشن هو الذى اختار بارنج للمنصب بناء على تزكية لويس مالت الذى كان زميلاً لبارنج فى مكتب نائب الملك فى الهند اللورد نورثبروك. وحتى تلقى هذا العرض، كان بارنج يفكر فى الاستقالة من وزارة الحرب، والحصول على مكافأة نهاية الخدمة عن عشرين عاماً قدرها 2000 جنيهاً، وأن يرشح نفسه فى انتخابات مجلس العموم نائباً عن حزب الأحرار. ولكن المنصب الذى بلغ راتبه 3000 جنيه فى القاهرة كان مغرياً. وفى مارس 1877 وصل بارنج وزوجته إلى القاهرة.

وسرعان ما وجدا مسكناً مناسباً بحى الإسماعيلية الجديد عبارة عن فيلا واسعة بحديقة، وحقل صغير فى شارع يزينه صف من الأشجار يشكل جانباً من الخطة التى وضعها على باشا مبارك ناظر الأشغال العمومية لتنمية القاهرة الحديثة فى أواخر الستينيات من القرن التاسع عشر، وامتد حى الإسماعيلية من المركز الرئيسى للنشاط الأوروبى عند حديقة الأزبكية تجاه نهر النيل، وجنوباً فى اتجاه قصر عابدين وحى الدواوين حيث الإدارات الحكومية. وتأثر تخطيط الأزبكية بحديقة مونسو بباريس من حيث التنسيق والممرات المظللة، وفرق الموسيقى العسكرية التى تعزف من حين لآخر، وحولها الفنادق والبنوك والمحلات الكبرى والمسارح والقنصليات الأجنبية التى مدت خدماتها إلى الجاليات الأجنبية التى ازدادت أعدادها حتى بلغت – عندئذ– 200 ألف نسمة[285]. وإلى جانب الحديقة مجموعة من البيوت الأوروبية الطراز الأنيقة التى تضم النادى الخديوى بصالوناته وقاعة الطعام والمكتبة وقاعة البلياردو[286].

وزودت البيوت الجديدة بمياه الشرب النقية التى توفرت لكل من كان باستطاعته تحمل نفقات إدخالها، ورصفت الشوارع بالقار، وزودت بمصارف المياه والإضاءة بالغاز. وكان كبار الموظفين والوزراء يجوبون الشوارع فى عربات بديعة حولها حراس يرتدون الزى

---

[285] كان تعداد سكان القاهرة 350 ألفاً فى أوائل السبعينيات (ق 19) كان من بينهم 19.120 أوروبياً
Statistique de L'Egypte: Annee 1873. – 1290 de L' Hegire (Cairo: Imprimerie Francaise Moures, 1873), 20 – 21.

[286] J. C. McCoon, Egypt As it Is (London Cassell, Petter, & Galpin, n.d.; Preface 1877), 51 – 8.

الرسمى، واستخدم غيرهم عربات الأجرة التى بلغ عدد المسجل منها 486 عربة (حنطور) عام 1875[287]. فإذا أراد بارنج استئجار واحدة من تلك العربات كان عليه أن يتجه إلى أحد المواقف التى نظمها بايديكر، وكان أقربها إليه فى ميدان عابدين على مقربة من وزارة المالية حيث مقر عمله.

وليس هناك دليل على أن إيثل التى كانت دائماً تحرص على مستقبل زوجها الوظيفى، قد رحبت بالإنتقال الجديد إلى القاهرة، كما أنها ما لبث أن عانت المرض بعد أسابيع قليلة من وصولها إلى القاهرة، مما جعل بارنج يفكر جدياً فى الاستقالة والعودة إلى لندن، غير أن إيثل إعترضت على ذلك وشجعته على الاستمرار فى منصبه، وبعد شهور تبين لها أنها كانت حاملاً، ووضعت طفلها الأول (رولاند توماس) فى 29 نوفمبر من نفس العام. وقد حمل الطفل إسم جده لأمه. وأثار ذلك التساؤل حول حقيقة مرض إيثل وأثره على حياتها الزوجية التى استمرت عشرين عاماً حتى وفاتها فى أكتوبر عام 1898.

وفى المرات المحدودة التى أشار فيها بارنج إلى حالتها الصحية فى رسائله، أرجع ذلك إلى حرارة الجو، وعدم توفر وسائل الراحة. فكان العام 1877 شديد الوقع عليها على وجه الخصوص رغم أنهما أمضيا جانباً منه بالإسكندرية ذات الجو المعتدل[288]. وعندما قاما بزيارة الهند معاً عام 1882 أشار ألفرد ليال إلى حالة إيثل الصحية فذكر أنها كانت تعانى من إلتهاب الأعصاب[289]. وقد ذكر بارنج فيما بعد أنها كانت تعانى من مرض برايت Bright's deseas وهو مرض يسهل تشخيصه لوجود الدم والزلال فى البول، وقد علمت به الأسرة عند إكتشافه بعد الزواج[290]. وقد حمل المرض إسم مكتشفه نحو العام 1820 ويعرف الآن بإسم إلتهاب الكلى المزمن، ويتسبب فى معاناة المريض لنوبات من المغص الكلوى، وغالباً ما يشعر المريض بالتوتر والفزع وتحسب الموت[291]. وكان يعتقد فى القرن التاسع عشر أن هذا المرض يرتبط بإرتفاع ضغط الدم ويسبب أضراراً بالقلب، وظل الجدل دائراً

---

[287] على مبارك: الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة (القاهرة، دار الكتب المصرية، بولاق 1886 – 1889) 1، 103.

[288] Baring to Lyall, 6 Nov. 1877, LP, MS, Eur. F 132/39.

[289] Lyall to Barbara Lyall, 7 July 1881, LP, MS Eur. F 132/7.

[290] Cromer to (Viscount) Errington (his son Rowland), 20 Oct 1898 CP/3. See also Clara Boyle, A Servant of Empire: A Memoire of Harry Boyle (London: Methuen 1938) 62 – 3.

[291] Marion Shaw, The Clear Stream: A Life of Winifred Holthy (London: Virago, 1999) 269.

منذ منتصف القرن التاسع عشر حول ما إذا كان المرض مصدره الكلى أم ضغط الدم المرتفع[292]. ومن الأعراض الأخرى للمرض الوهن وتورم الأرجل والوجه. ولم يكن هناك علاج ناجح للمرض، واقتصر الأطباء على نصح المريض بإلتزام الراحة التامة، وإجراء فصد للدم.

ومن الواضح أن إيثل وبارنج وقفا على حقيقة المرض عند حملها الثانى فى 15 أغسطس 1880 عندما كتبت لبارنج من بيتهما فى لندن ما يفيد أنها على وشك الموت[293]:

زوجى العزيز

أود فى سطور قليلة أن أقول لك إنك جعلتنى أسعد زوجة على وجه الأرض، ولا أظن أن مبلغ حبى لك يكفى لرد دينى لك وحبك الشديد وإخلاصك وحنانك الشديد وحدبك على، ولكنى لا أستطيع أن أعطيك حباً أكثر مما أعطيت، فقلبى ملك لك... إننى على يقين أن طفلى الغالى الذى أحمله سوف يكون محل رعايتك وحبك الكبير وحنانك.. مما يجعلنى أموت سعيدة، فلا أجد ما يدعونى للقلق على مستقبله طالما بقيت على قيد الحياة، ولكنه لن يدرك متعة أن يولد كاثوليكياً، غير أنك ستعلمه دينه كما تعلمت دينى وتجعله يصلى بنفس الإرتياح النفسى الذى أصلى به.

تشجع قليلاً يا حبيبى.. فسوف نلتقى مرة أخرى فى الجنة.. صل من أجلى يا زوجى العزيز

إن حباً مثل حبنا لابد أن يستمر إلى الأبد

حفظك الله وولدنا المبارك رولاند

---

[292] J. S. Cameron, "Villain and Victim: The Kidney and High Blood Pressure in the Nineteenth Century", Journal of the Royal College of Physicians of London, 33/4 (July – Aug. 1999), 382 – 99.

[293] The Letter, in the file marked "Letters and Papers of 1st Lady Cromer" (CP/1) and written on 15 August, does not give the year. Some late editor has Pencilled in "1881" but this is clearly wrong. The letter specifically refers to just one child, Rowland, whereas a second son was born on 29 September 1880. This leaves any of the three years 1878 – 80 as a possibility, with 1880 as a best guess. As it was common Victorian practice to send letters from one person to another in the same house, it is no help to know whether Evelyn was in London when the letter was sent or not.

زوجتك المحبة السعيدة أبداً

إيثل

وكان بارنج قد أصر – لحسن الحظ– على عدم سفرهما إلى كلكتا حتى نوفمبر 1880 بعد تعيينه فى الهند للمرة الثانية بما يزيد على أربعة شهور، وذلك حتى تضع إيثل مولودها الثانى فى لندن. ولكن منذ ذلك التاريخ، إن لم يكن قبله، أصبحت حالة إيثل الصحية موضع القلق، وخاصة أن الوظائف التى أتيحت لبارنج خارج إنجلترا كان من شأنها زيادة متاعب إيثل المريضة التى كانت تقف حائلاً أحياناً دون بقائها إلى جانبه، وإضطرارها إلى الإقامة فى لندن. ولكنها حثته هذه المرة على قبول التعيين بالهند، كما كان شأنها دائماً فحتى عندما كانت تحتضر عام 1898 طلبت منه البقاء فى القاهرة حيث كانت الحملة على السودان على قدم وساق، وطلبت منه عدم الحضور إلى لندن للإطمئنان على صحتها[294].

والخطاب الذى أوردناه فيما سبق يطرح مسألة دور الدين فى هذا الزواج، على ضوء هجوم بارنج المتكرر على الكنيسة الكاثوليكية، حيث يتضمن "الملاحظات" إنتقاداً للمعتقدات الكاثوليكية؛ فالكنيسة لا تسمح بحرية الإعتقاد، ورجال الدين لا تربطهم بالناس روابط إنسانية، وأنهم لا يعرفون معنى التسامح، إلى غير ذلك من مطاعن[295]. والكثير من ذلك كان شائعاً بين بروتستانت ذلك الزمان، ولكن من الصعوبة بمكان تبين مدى تأثير هذه المواقف على الزوج وعلى عائلته، وقد رأينا صلاته بأسقف كورفو بشأن ابنته غير الشرعية، وخلافه مع والد إيثل بسبب اعتراضه على زواجهما.

ولكننا يجب أن ندرك مدى سعادة بارنج لزواجه من كاثوليكية، فما لدينا من معلومات محدودة متناثرة تفيد أن حب إيثل وإخلاصها له وتمسكها به، أقام نوعاً من التقارب الوثيق الذى جعل كل منهما يتفهم ديانة الآخر، ويحترم معتقداته وخاصة أن كليهما سيلقى نفس المصير. وقد أوضح وجهة نظره حول الموضوع فى خطاب يائس كتبه لإيثل من القاهرة فى عيد زواجهما التاسع (يونيو 1885) بدأه كالتالى:

---

[294] انظر مقالة الماجور هربرت دنت: "The First Lady Cromer", The Graphic, 6 Jan. 1923. A Copy of which can be found in CP/1 in a file marked "1st Lady Cromer: Letters and Papers concerning her death".

[295] BN 115 ff.

"لم أستطع أن أبرق لك يا حبيبتى لأثبت لك أننى أفكر فيك دائماً، وخاصة اليوم الذى يفوق غيره من الأيام أهمية. تسع سنوات سعيدة مرت منذ تزوجت من أحسن وأعز زوجة، وشاء الله أن نقضى الكثير من الأيام السعيدة معاً، وبعد ذلك – كما أتمنى وأعتقد– إذا كانت هناك حياة أخرى سوف تجمعنا الأبدية، فكيف تكون أى جنة ذات قيمة دون زوجتى الملاك"[296].

والأدلة التى نستقيها من خطابات خاصة كهذه، لا تترك مجالاً للشك أن زواج بارنج من إيثل كان دعامة حياته، منحه الحب والحنان والدعم، والملاذ من متاعب العمل ومشاكله. كما جلبته إلى عالم العواطف الذى يبدو أنه لم يشارك فيه أحد سوى زوجته والتعبير عنها بالكتابة أكثر من المواجهة، فالخطاب الذى أوردنا إقتباساً منه يستمر ليتضمن:

"كثيراً ما أفكر فى التعبير لك عن عبادتى لك... فإن الخجل يتملكنى عندما أحاول التعبير عن أنبل مشاعرى".

مصر فى العام 1877

كان انتقال إيفلن بارنج إلى مصر مرتبطاً إرتباطاً وثيقاً بتزايد الدين الدولى الذى أثقل كاهل البلاد، وقد بلغت الديون عام 1876 ما يزيد على 68 مليوناً من الجنيهات الإسترلينية. تطلبت سداد ما يقرب من 5.7 مليون جنيه إسترلينى سنوياً فى صورة أقساط وفوائد، أو ما يعادل 60% من الإيرادات السنوية للحكومة المتوقع تحصيلها[297]. فقد حاول حكام مصر سعيد باشا (1854 – 1862) وإسماعيل (1863 – 1879) الاستفادة من أسواق المال فى لندن وباريس التى نمت نمواً سريعاً، لاقتراض مبالغ كبيرة من المال لاستثماره فى تنمية بلادهم دعماً لأطماعهم ببناء السكك الحديدية والموانى، ومشروعات الرى التى ساد الإعتقاد بأهميتها للتقدم الإقتصادى. وكان شأن حكام مصر – فى هذا الصدد– شأن حكام الدولة العثمانية، والدول الكبرى فى أمريكا اللاتينية.

---

296 CP/1, Letters and Papers of the 1st Lady Cromer.

297 Abdel-Maksud Hamza, The Public Debt of Egypt 1854 – 1876 (Cairo: Government Press, 1944), Appendices II & III; Earl of Cromer, Modern Egypt, vol. I (New York: Macmillan 1908) 11.

وبالنسبة لمصر، كان هناك حافزان قويان للسير فى هذا الإتجاه: أولهما، مشاركة الحكومة فى مشروع قناة السويس، الذى التزمت به مصر بموجب تحكيم من طرف واحد للإمبراطور نابليون الثالث – إمبراطور فرنسا– عام 1864، أن تدفع لشركة قناة السويس نحو 3.360 مليوناً من الجنيهات الإسترلينية مقابل استرداد الأراضى والأصول التى سبق أن منحها سعيد للشركة فى امتيازى 1854 و1856. وتمثل الحافز الثانى فى الإرتفاع الكبير فى أسعار سلعة التصدير المصرية الأساسية، وهى القطن طويل التيلة، خلال الحرب الأهلية الأمريكية، فأنتج ما أسماه أحد المؤرخين الإقتصاديين "التكالب على النيل" حيث سعت الحكومة وفريق من الممولين والمضاربين والسماسرة إلى تحقيق أقصى مكاسب ممكنة من الفرصة المتاحة للإثراء السريع[298]، وزاد من سوء الأحوال مزيج من سوء الإدارة المالية وإسراف الحكام إلى تراكم ديون سايرة بلغت 26 مليوناً من الجنيهات الإسترلينية فى صورة سندات حكومية قصيرة الأجل ذات فوائد عالية[299].

وبذلت محاولات أساسية فى 1868 و1873 لتوحيد الديون وضبط خدماتها (سداد الأقساط والفوائد) دون أن تحقق نجاحاً، وقام إسماعيل ومستشاروه – فى الوقت نفسه– باتخاذ إجراءات يائسة وغير ملائمة بالتزامات الحكومة تجاه الدائنين، من ذلك مشروع "المقابلة" عام 1871، الذى شجع الخاضعين لضرائب الأطيان على سداد مبالغ توازى ضريبة ست سنوات دفعة واحدة مقابل إعفائهم من نصف الضريبة سنوياً، ورغم تلك الإغراءات، لم تحصل الخزانة إلا على نصف المبلغ المتوقع وترتبت عليه مجموعة من الإلتزامات والمشكلات التى تطلب علاجها عدة سنوات. وكان آخر تلك الإجراءات اليائسة الغبية بيع حصة مصر فى أسهم شركة قناة السويس التى بلغت نسبتها 46% إلى الحكومة البريطانية عام 1875 مقابل مبلغ زهيد لم يصل إلى الملايين الأربعة من الجنيهات الإسترلينية. وكان ذلك دليلاً على أن القوى الأوروبية الكبرى لا تستطيع تجاهل الأزمة المالية فى مصر، فكل منها تسعى لضمان حقوق مواطنيها من حملة سندات الدين المصرى، مع الحرص – فى

---

[298] كان هذا عنوان أحد فصول كتاب دافيد لاندز: "بنوك وباشاوات" الذى نشر بالإنجليزية عام 1958، وترجمه عبد العظيم أنيس إلى العربية، وصدرت الترجمة عن دار المعارف بالقاهرة 1969.

[299] Cromer, Modern Egypt, I, 11.

الوقت نفسه– ألا تستطيع أى قوة منافسة أن تقيم لنفسها وضعاً خاصاً فى مصر يفوق ما للأطراف الدولية الأخرى.

وبعد عدة شهور من المنازعات فى نهاية عام 1875 ومعظم عام 1876 نجح الإنجليز والفرنسيون من حملة سندات الدين المصرى فى التوصل إلى تسوية 16 نوفمبر 1876، التى عرفت بتسوية "جوشن – جوبير" وهما المفوضان عن الطرفين الإنجليزى والفرنسى لهذا الغرض، وأدى ذلك إلى أمرين: أولهما، تقسيم الديون إلى ثلاثة أقسام هى الدين الموحد الذى بلغ نحو 59 مليوناً من الجنيهات الإسترلينية، والدين الممتاز الذى بلغ نحو 17 مليوناً، وأخيراً، الديون قصيرة الأجل التى بلغت نحو الأربعة ملايين، ويتم سدادها جميعاً على قسطين سنوياً بموجب كوبونات خاصة لهذا الغرض وبفائدة موحدة قدرها 7% سنوياً. ومن بين هذه الأقساط كان أكبرها قسط الدين الموحد (نحو المليونين) استحقاق 15 يوليو و15 ديسمبر من كل عام. والأمر الآخر الذى ترتب على التسوية أن شروطها دعمت قواعد نظام المراقبة المالية الأوروبية الذى أقيم فى العام السابق بتعيين مراقبين عامين إثنين أحدهما بريطانى والآخر فرنسى، يتولى الأول مراقبة الإيرادات ويتولى الآخر مراقبة المصروفات. وإلى جانب ذلك، وافقت الحكومة البريطانية على تعيين مندوب بريطانى فى الإدارة الرباعية لصندوق الدين العام Caisse de La Dette Publique الذى أقيم فى مايو 1876، ليتلقى المبالغ التى تدفعها الحكومة المصرية، نيابة عن حملة سندات الدين المصرى من الإنجليز والفرنسيين والإيطاليين والنمساويين، وكان إيفلن بارنج هو المندوب البريطانى فى إدارة الصندوق.

وكانت واجبات بارنج واضحة، فكان مرءوساً لجوشن، مسئولاً أمام حملة سندات الدين العام عن التنفيذ الدقيق لتسوية جوشن – جوبير، وكانت هذه المهمة ذات فائدة كبرى بالنسبة له؛ لأنها جعلته يعرف الكثير عن المالية الدولية، وطريقة إدارة الدين، وكلاهما مرتبط بعمله، والعمل مباشرة مع الرجل الذى اعتبره أكبر خبير مالى بريطانى (جوشن). وكان جوشن لبرالياً إسماً، ولكنه كان وثيق الصلة بخبراء المالية العامة فى الحزبين البريطانيين الكبيرين، وذلك كان فى وضع يسمح له بالتأثير على سياسة بريطانيا تجاه مصر على النحو الذى رآه مناسباً لبلاده.

ولسوء الحظ، فقدت مجموعة الخطابات المتبادلة بين بارنج وجوشن قبل منتصف ديسمبر 1877 أثناء انتقاله من منزله بشارع سيمور بلندن[300]. ولكن الخطابات التى تعود إلى عام 1878 والشهور الأولى من عام 1879 نجت من الضياع، وتبين أنه كان يكتب لجوشن عدة خطابات أسبوعياً، وأحياناً عدة خطابات يومياً، وأنه كان يحاول دائماً أن يجد مخرجاً لحل المشكلات الناجمة عن استمرار عجز مصر عن الوفاء بالتزاماتها المالية. وتتجلى ثقته بنفسه فى حرصه على تقديم نصائحه لجوشن على النحو الذى فعله مع من راسلهم طوال خدمته الرسمية، باعتباره الشخص الذى يستطيع المقامرة به، ويستعين به على حل معضلات الأمور.

وخلال ما يقرب من السنوات الثلاث التى قضاها بارنج عضواً بإدارة صندوق الدين العام، أقام علاقات عمل مهمة مع شخصين آخرين هما: إرنست جابريل دى بلنيير Blignieres الذى استطاع أن يتواصل معه على الفور، وعلى خلاف بارنج الذى كان ممثلاً لحملة سندات الدين البريطانيين وليس ممثلاً للحكومة البريطانية، كان بلنيير يتبع مباشرة قنصل فرنسا العام بالقاهرة وسفير فرنسا بالعاصمة العثمانية إستانبول ومن خلالهما مجلس الوزراء الفرنسى، ولكنه كان رجلاً عالى الهمة، مستقل التفكير بادر بإبداء رغبته فى إقامة شراكة متينة مع بارنج، ورأى الرجلان فيها ضرورة للحفاظ على فاعلية علاقة العمل المشتركة بين البلدين.

كتب بارنج خطاباً إلى جوشن فى 18 ديسمبر 1877، وصف فيه زميله الفرنسى بأنه "سليط اللسان"، ولكنه أضاف أنه عندما تستدعى الحاجة إنجاز عمل ما "فهو رجل صريح مخلص لم أر نظيراً له من قبل"[301]. ولما كانت لغة التعامل فى صندوق الدين العام هى الفرنسية التى تكتب بها كل المحررات، وتدور بها كل المناقشات، وهى لغة لم تتح لبارنج فرصة استخدامها على هذا النحو المكثف من قبل، فقد لجأ إلى دى بلنيير لمراجعة المذكرات التى كان يعدها، ويقوم ما إعوج من أسلوبها، وبذلك إشتركا معاً فى كتابة معظم المراسلات والمذكرات التى أعدتها إدراة صندوق الدين العام. وبدلاً من أن كان دى بلنيير يستهل

---

[300] BN, 209.

[301] CP/2, FO 633/2.

خطاباته له بعبارة: "عزيزى الكابتن بارنج" أصبح يخاطبه بحلول العام 1879 "صديقى العزيز".

أما علاقة العمل الثانية لبارنج فكانت مع الوكيل البريطانى والقنصل العام هسى فيفيان Hassey Vivian، وكان مثل جوشن يكبره بعشرة أعوام، خدم فى مصر مدة قصيرة فى 1873، ثم عاد إلى القاهرة فى مايو 1876. وقد اتضح أن وجهات نظره حول المالية المصرية تطابقت مع رؤية بارنج لها، وما لبثا أن نسقا معاً للضغط على لندن من أجل دعم التعديلات التى كانا يريان ضرورتها؛ فاستخدم فيفيان قنوات الإتصال بينه وبين وزارة الخارجية لهذا الغرض، بينما استخدم بارنج جوشن واللورد نورثبروك وبعض المتنفذين من عائلته لتحقيق نفس الغاية.

وثمة عامل آخر له مغزاه، فقد كان بارنج – نظرياً– موظف لدى الحكومة المصرية، يرتدى الحلة الرسمية الإستانبولية والطربوش، ويعمل بنظارة المالية، وكان عرضة – كغيره من الموظفين– لتراكم متأخرات الرواتب، فقد بلغت متأخرات راتبه 1250 جنيهاً إسترلينياً عند نهاية ديسمبر 1877[302].

هذا الوضع المتعدد الوجوه: موظف مدنى مصرى، وممثل لحملة سندات الدين البريطانيين، ووكيلاً عاماً للمصالح البريطانية فى مصر، أعطى لبارنج قدراً كبيراً من حرية المناورة التى فضل اللجوء إليها، كما حررته من التبعية لفريق واحد من الرؤساء، وأتاحت له أن يتخذ موقفاً مستقلاً فى أمور معينة على نحو ما سنرى، ولكن ذلك اعتمد على قدرته على الحفاظ على علاقات العمل الثلاث الرئيسية مع جوشن، ودى بلنيير، وفيفيان، بالإضافة إلى العديد من الشخصيات من الخديو إلى أقطاب الجاليات الأوروبية فى مصر، وقناصل الدول الأوروبية الأقل أهمية. وهو وضع تطلب التعامل معه قدراً كبيراً من الوقت والجهد، إلى جانب قدر لا بأس به من الدبلوماسية والتحفظ. ومع التجارب التى مر بها فى الهند، يبدو أن بارنج أحسن التصرف بقدر أكبر مما كان مطلوباً منه، تحلى بالصبر فى معاملاته

[302] Baring to Goschen, 31 Dec. 1877, CP/2, FO 633/2.

العامة وأطلق العنان لنفسه فى مراسلاته الخاصة، وربما مع زوجته الجديدة عندما يعود إلى بيته.

الحملة من أجل لجنة التحقيق

ثارت الشكوك على نطاق واسع حول ما إذا كانت التسوية التى وضعها جوشن وجوبير قد وضعت لتبقى، وذلك حتى قبل وصول بارنج إلى القاهرة، وجاءت معظم أسباب القلق من سلوك الخديو إسماعيل نفسه، فنقطة الضعف فى النظام المالى المصرى كله أن مرد كل شئ لإدارة رجل واحد، على نحو ما لاحظ بارنج فى خطاب إلى نورثبروك بتاريخ 12 مايو، وخاصة أن "هذا الرجل مراوغ ومخادع"[303]. ولكن مع تقدم شهور الصيف واقتراب موعد سداد كوبون الدين الموحد استحقاق 15 يوليو، طفت على السطح مظاهر قلق أخرى كانت موضوع تساؤلات مثل: هل سيتم السداد فى موعده ؟ وهل يقترن ذلك بإجبار الفلاحين على تسديد الضرائب مقدماً على نحو ما كان يحدث من قبل ؟ وحتى لو تم السداد، فهل سيبقى ما يكفى لتغطية المصروفات الإدارية، وسداد متأخرات الأجور والرواتب لموظفى الحكومة، ومستحقات الدائنين المحليين، ناهيك عن المطالب الأخرى غير المتوقعة مثلما طلبت الحكومة العثمانية من الخديو المساعد فى تغطية نفقات حرب البلقان ؟

ولعب فيفيان دوراً كبيراً فى نقل هذه المخاوف إلى اللورد داربى Lord Derby وزير الخارجية المحافظ فى لندن. وعندما عاد تم تدبير المبلغ اللازم لسداد الكوبون، بدأ فيفيان يضرب على وتر آخر، فبدون توفر معلومات موثوق بها عن أحوال الريف من الصعب معرفة مدى استطاعة البلاد تحمل أعباء الدين[304]، وفى هذه المرحلة إنضم إليه بارنج، فزوده بالأرقام الدقيقة عن العجز فى الإيرادات عما قدره جوشن وجوبير، وما استطاعت الحكومة جمعه من الإيرادات الفعلية[305].

[303] NP, MS Eur. C 144/7.
[304] Vivian to Derby, 12 July 1877, PRO, FO 78/2633.
[305] Statement by Baring, 29 July 1877, enclosed in Vivian to Derby, 20 July 1877, PRO, FO 78/2633.

ونظراً لفقد مراسلات بارنج وجوشن قبل ديسمبر 1877، لا يمكننا أن نقف على حقيقة درجة مشاركة بارنج لفيفيان فى جميع مخاوفه عندئذ، ولكنه يظهر بقوة فى الصورة فى سبتمبر عندما قامت أزمة بعد ما ظهرت مؤشرات عن اتجاه الخديو إسماعيل إلى معارضة شروط تسوية جوشن – جوبير لقيامها على تقديرات مضللة، والمطالبة بتخفيض فورى لنسبة الفائدة، كان ذلك سبباً كافياً لجعل بارنج ودى بلنيير يعودان على عجل من الإسكندرية، حيث كانا هناك بصحبة الحكومة هرباً من حر الصيف بالقاهرة إلى البيت الريفى لجوشن فى سيكوكس فى منطقة كنت بإنجلترا. لإطلاعه على جلية الأمر وكسب دعمه لخطتهما الرامية إلى إصدار إعلان فورى بأنه لن يطرأ على التسوية أى تعديل قبل إرسال لجنة تحقيق فى المالية المصرية، وبدون ذلك لن يتم القبول بأى تعديل أو تخفيض فى المبالغ التى يتم دفعها للدائنين[306]. وفى ذلك إشارة إلى أن بارنج ودى بلنيير لا يستطيعان الإعتماد على تقديرهما للأمور، ولكن على ما يحمله ذلك من تهديد لمصالح الدائنين الذين يمثلانهم، وأن ذلك لن يكون موضع القبول فى أوروبا.

وفى الوقت نفسه كان فيفيان يطرح فكرته عن ضرورة إجراء تحقيق شامل فى المالية المصرية مستنداً فى ذلك إلى رأى المراقبين البريطانى والفرنسى، وذكر أن الكابتن بارنج يرى إسناد التحقيق إلى المراقبين الماليين ذاتهما والمندوبين الأربعة بصندوق الدين العام[307]. غير أنه كانت هناك معارضة قوية من جانب الخديو والحكومة الفرنسية، بينما كان موقف الحكومة البريطانية فاتراً ربما بسبب تلك النزعة الأخلاقية التى جاءت ببرقيات فيفيان عندئذ. وعندما علت نبرة اللوم لمعاناة الفلاحين المصريين الطويلة من مظالم الضرائب، كانت تلك نقطة جدل صغيرة للبحث عمن تلقى التبعة على عاتقه: الخديو وجباته القساة، أو الفرنسيون غلاظ القلوب، وشعر بارنج بعدم الإرتياح لاحتمال تصنيفه إلى جانب جباة الضرائب الذين يطاردون الفلاحين. فقد كتب إلى ليال فى نوفمبر 1877 أن الأوروبيين فى مصر يمثلون طبقتين مختلفتين واحدة منها فرنسية تعتنق مبدأ "شيلوك" تريد الإطباق على رقبة الخديو واستخلاص كل ما يمكن استخلاصه من مستحقات الدائنين، والثانية (لعل من بينهم فيفيان

---

[306] جاء وصف الإجتماع فى:
Baring to Goschen, 23 Jan. 1878, CP/2 FO 633/2.

[307] Vivian to Derby, 5 Aug. 1877, PRO, FO 78/2634.

وغيره) ترى أنه لا يمكن الإنتقال بضربة عصا سحرية من نظام حكم قائم على استخدام العصا إلى نظام حكم لا يستخدمها. واعتبر نفسه من "الأحرار" بين المصريين الذين يقفون فى الوسط بين التطرف ومحاولة حماية العربة من السقوط رأساً على عقب بالبحث عن حل وسط[308]. ولكن رغم وقوفه موقف الدفاع يبدو أنه كان يعلق الآمال على إمكانية تخفيض أعباء خدمة الديون بعد ما ينتهى عمل لجنة التحقيق، والتى قد ترى أن يتحمل كل من إسماعيل والدائنين جانباً من الأعباء الثقيلة للدين، مما قد يؤدى إلى تخفيف الأعباء عن الفلاحين المطحونين، غير أن الأزمة الدورية التى تقع عند حلول موعد سداد كوبون الدين الموحد ظلت ماثلة دائماً. فقد تم تأجيل كوبون 15 ديسمبر، ولكن كجزء من صفقة تهدف إلى تعديل مواعيد السداد إلى الربيع والخريف لتناسب مواسم الحصاد، فيصبح استحقاق الكوبونات أول مايو وأول نوفمبر[309]. عندئذ قام بارنج بزيارة الخديو فى 17 ديسمبر ليحضه على إصدار بيان للدائنين يوضح أسباب تأجيل موعد سداد الكوبونات. وقد ذكر لجوشن أنه لقى صعوبة فى إقناع إسماعيل بالموافقة، حتى بعد مشاركته فى كتابة مسودة البيان، وبعد ذلك وضع الخديو اللمسات الأخيرة عليه[310].

ورغم وقوع بعض الخلافات البسيطة التى حدثت بين فيفيان وبارنج إلا أنهما إتخذا موقفاً موحداً فى ديسمبر لمحاولة حث الحكومة البريطانية للقيام بالضغط على الخديو والحكومة الفرنسية للموافقة على لجنة التحقيق المقترحة، وكانا – فى الوقت نفسه– يمتصان الصدام مع الخديو الذى كان يسعى إلى تقديم مشروعات تحيد تماماً عن الطريق الذى يرغبان السير فيه، من ذلك تهديد الخديو بتشكيل لجنة تحقيق خاصة بمعرفته، واستمر بارنج – كعادته– فى حث جوشن على تأييده وفيفيان فى جهودهما، وأرسل خطة من وضعه فى ديسمبر 1877، ذكر فيها أهمية قيام إسماعيل ببيع بعض أملاكه الشخصية كوسيلة لإقناع الدائنين بالموافقة على القيام ببعض التضحيات من جانبهم.

وتضمنت خطة بارنج إقتراحاً آخر، هو قيام الحكومة البريطانية بضمان مصر فى الحصول على قرض لسداد ديون بعض الدائنين الأوروبيين، وقد رفض جوشن الإقتراح على الفور

---

308 Baring to Lyall, 6 Nov. 1877, LP, MS Eur. F 132/39.
309 إن جانباً من تلك الصفقة قيام الحكومة المصرية بسداد جزء من كوبون ديسمبر مقدماً فى نوفمبر 1877.
310 Baring to Goschen, 19 Dec. 1877, CP/2, FO 633/2.

بإعتباره "خيالياً"، ولكن بعض مقترحات بارنج الأخرى كانت موضع ترحيب؛ لأنها تعطى جوشن وجوبير صلاحيات الضغط على الخديو من خلال الإصرار على عدم تخفيض أعباء الضرائب قبل انتهاء لجنة التحقيق من عملها وتوصلها إلى توصية بهذا الصدد.. وتحمل هذه المقترحات روح التفاهم مع فيفيان، فقد كان التشاور مستمراً بينه وبين بارنج، كما كان كل منهما يطلع الآخر على المراسلات التى يعتزم إرسالها إلى لندن.

وتجلت أهمية ذلك كله من خلال الجهود المتواصلة التى قام بها الخديو والفرنسيون لصياغة مقترحاتهما بصورة يمكن قبولها، وتضيق نطاق التحقيق فى المالية المصرية، وكان هناك مقترح مضاد لمواجهة كل اقتراح يصدر عنهما مع الإصرار على أن لجنة التحقيق هى الحل الذى يمكن القبول به. وكان ذلك عملاً مضنياً وسخيفاً، ولكن بارنج وفيفيان ظلا صامدين طوال الشهور الأولى من العام 1878 حتى تجمعت عدة تطورات أوروبية للتدخل لجسر الفجوة بين مقترحات الخديو ولجنة التحقيق ذات الصلاحيات المناسبة.

ومن بين تلك التطورات تدخل السير تشارلز ريفرز ولسون Sir Charles Rivers Wilson المفوض السابق للدين الوطنى البريطانى الذى أصبح المستشار الرئيسى لحكومة المحافظين فيما يتعلق بالشئون المالية المصرية، على ضوء الشهور التى قضاها فى مصر لمساعدة إسماعيل الذى كانت لديه خطة خاصة لإصلاح المالية المصرية. وقد بذل ولسون جهداً فى إقناع الحكومة البريطانية بضرورة أن يكون هناك تحقيق شامل فى المالية المصرية تقوم به لجنة مستقلة.

أما التطور الآخر، فهو تزايد تدخل المحكمة المختلطة المنشأة حديثاً فى مصر فى الأمور المتصلة بالديون، وقد تم إنشاء هذه المحكمة بعد مفاوضات معقدة بين الحكومة المصرية والدول صاحبة الإمتيازات من أجل إقامة نظام قضائى موحد ينظر فى المنازعات بين المصريين والأوروبيين، وقد استخدمت هذه المحكمة القانون الفرنسى فى مرحلتين للتقاضى الإبتدائى والاستئناف، وضمت خليطاً من القضاة الأجانب والمصريين.

وكان من بين العديد من القضايا المتصلة بالدين وتسوية جوشن – جوبير، قضية فى ديسمبر 1877 أقامها موظف أوروبى بالحكومة المصرية، وحصل منها على حكم بسداد

متأخرات راتبه، وتضمن حكم المحكمة سداد تلك المتأخرات من المبالغ المخصصة لصندوق الدين، واختلف المندوبون الأربعة فى صندوق الدين حول الطريقة التى يرد بها الصندوق على الحكم، فيذكر بارنج أن دى بلنيير إقترح "إلقاء الموضوع من النافذة"، بينما رأى بارنج رفع قضية أمام المحكمة المختلطة على أساس أن أموال الصندوق لا تخص الحكومة ولكنها أموال خاصة بالصندوق[311]. وفى فبراير كان بارنج وراء استدعاء المحكمة المختلطة لناظر المالية ليجيب عن سؤال للمحكمة عن الإيرادات المخصصة لسداد بعض الديون، وكان الجدل قد دار بالجلسة حول الإختلاف بين المبالغ التى أعلنها الناظر من قبل وبين الأرقام الخاصة بالإيرادات التى تمت جبايتها بالفعل.

فى الأول من مارس 1878 صدر حكم المحكمة لصالح صندوق الدين، وهى مسألة ذات أهمية؛ لأنها أكدت الوضع القانونى لصندوق الدين كوكيل للدائنين وممثل لهم[312]، ولذلك أثارت قضية ذلك الموظف الأوروبى جدلاً حول إمكانية لجوء أى حكومة أجنبية إلى القضاء المختلط لنسف تسوية جوشن – وجوبير إذا أيدت دعوى أحد رعاياها بأن حقه فى الحصول على مستحقاته من إيرادات الحكومة يفضل ما للدائنين من حقوق. ولعل الخوف من ذلك كان وراء تبنى الحكومة البريطانية لفكرة لجنة التحقيق باعتبارها الخيار الممكن إتباعه[313].

وعلى كل، كان هناك مصدران أخيران للقلق، أحدهما يتعلق بتشكيل اللجنة المقترحة، فبذلت جهود خلال بضعة أسابيع لإقناع الخديو بتعيين الكولونيل جوردون –الحاكم السابق للسودان– رئيساً للجنة بعد ما اجتمع بارنج بجوردون وأقنعه بأنه "عالى الهمة، وصاحب مقدرة"، ولكن بارنج كان مقتنعاً بينه وبين نفسه أن جوردون "مناسب للوظيفة بنفس القدر الذى يجعلنى أنسب من يتولى وظيفة البابا"[314]. وعندما استحال تعيين جوردون رئيساً للجنة وقع اختيار الخديو على فردنان ديلسبس، صاحب مشروع قناة السويس المرموق الذى اعترض عليه بارنج لتقدمه فى السن، ثم وردت أخبار جيدة عن تعيين ريفرز ولسون – الذى كانت فكرة بارنج عنه جيدة– واحداً من نائبى رئيس اللجنة، أما النائب الآخر فكان الوزير

---

[311] Baring to Goschen, 21 Dec. 1877, CP/2, FO 633/2.

[312] Baring to Goschen, 8 Mar. 1878, ibid.

[313] هذا ما ذهب إليه جون مارلو فى كتابه Cromer in Egypt, (London: Elek Books, 1970), 27.

[314] Bernard M. Allen, Gordon and the Sudan (London: Macmillan, 1931), 209; Baring to Goschen, 8 Mar 1878, CP/2, FO 633/2.

المصرى مصطفى رياض باشا. وأخيراً استسلم الخديو وقبل اقتراح تعيين المراقبين الماليين، ومندوبى صندوق الدين الأربعة أعضاء باللجنة مع الترخيص لهم بفحص الوضع المالى لمصر من شتى جوانبه بما فى ذلك ما اتصل بالخديو ذاته، وعبر بارنج عن ابتهاجه بما تم التوصل إليه فى رسالة كتبها إلى جوشن فى 25 مارس.

عزيزى جوشن

أخيراً، وبعد خمسة شهور من العمل المضنى تمت تسوية مسألة لجنة التحقيق، وقد حصلنا على كل ما كنا نريده، وهو ما يبعث على الإرتياح[315].

أما مصدر القلق الآخر فقد برز على الفور؛ ففى 16 أبريل تلقى فيفيان مجموعة من التعليمات من وزير الخارجية البريطانى الجديد اللورد سولسبرى – الذى حل عندئذ محل اللورد داربى– وقد بينت تلك التعليمات عدم الترحيب بالتراجع الكامل لتأييد الموقف المتشدد للفرنسيين، ونص الفقرة الأساسية فى الخطاب كالتالى:

تلقى السفير الفرنسى برقية من حكومته تفيد أن الشواهد كلها تشير إلى مقدرة الخديو على سداد كوبون مايو إذا رغب فى ذلك، وأن الحكومة الفرنسية ترى ألا يتخذ تشكيل لجنة التحقيق حجة لتأجيل سداد الديون. ووزير الخارجية الفرنسى يلح على ضرورة أن تنسق مع زميلك الفرنسى لتقديم هذا الرأى إلى الخديو والسلطات التابعة لحكومة صاحبة الجلالة للعمل فى نفس السياق[316].

وكان فيفيان وبارنج يدركان تماماً أن ذلك يعنى فى الواقع تأييد سياسة الضغط العنيف والقاسى على دافعى الضرائب من الفلاحين، كما كانا يعتقدان أن ذلك يعد عملاً غير مسئول من الناحية المالية، وأنه لا محالة يعنى جمع أكبر قدر من الضرائب مقدماً حتى يتم سداد كوبون نوفمبر. ومجئ هذه التعليمات من سولسبرى الذى لقى منه نورثبروك وبارنج الأمرين فى الهند كان يعنى صب الملح على الجراح القديمة؛ فكتب بارنج إلى جوشن فى 18 أبريل يعلن اعتزامه الإستقالة، وبعد ما أشار إلى أنه لم يتوقع أبداً أن تؤيد الحكومة

---

[315] Baring to Goschen, 25 Mar. 1878, CP/2, FO 633/2.
[316] Salisbury to Vivian. 16 Apr. 1878, PRO, FO 78/2851.

البريطانية مصالح الدائنين تأييداً أعمى، قال: "إن ذلك يذهب بى بعيداً عن مهمتى كممثل لحملة سندات الدين من البريطانيين، وكرجل إنجليزى أود أن أرى الحكومة البريطانية قد ذهبت"، غير أنه ما لبث أن استعاد هدوءه. وبعد الخوض فى موضوعات شتى، أنهى خطاباً كتبه لجوشن فى اليوم التالى بالقول بأن الأمر يدخل فى مسئولية الخديو، وأن صندوق الدين لم يحدد موقفه بعد مما إذا كان سداد قيمة الكوبون كاملة يمثل التزاماً قانوناً أم لا.

لم تكن تلك هى المرة الأولى التى يهدد فيها بارنج بالاستقالة؛ فقد ذكر من قبل فى يناير عندما واجه احتمال أن يقوم الخديو بتغيير شروط تسوية جوشن – جوبير بصفة ودية، ثم يقدم لصندوق الدين نسبة ضئيلة من قيمة كوبون مايو. وظن عندئذ أن دى بلنيير وأحد زملائه الآخرين على الأقل سوف يحذو حذوه[317]. وكان الهدف الواضح من ذلك الضغط على الحكومة البريطانية، ولكنه طالب بأن تبدأ لجنة التحقيق عملها قبل حلول قيظ الصيف لأسباب شخصية محضة؛ لأنه كان ينوى قضاء إجازة الصيف بإنجلترا بصحبة إيثل وولده، وجاء تأخر بداية عمل اللجنة ليجعل ذلك مستحيلاً.

ومن الحقائق الجديرة بالنظر، أن بارنج شعر أنه قد ترك وقتاً طويلاً يتصرف على مسئوليته الخاصة وحده فى ظروف سياسية بالغة الصعوبة لم يتبين فيها أين تنتهى مسئوليته الوظيفية وتبدأ مسئولياته الأدبية. وفى وسط ذلك الجو المضطرب ظل متمسكاً بإعتقاده أن تشكيل لجنة التحقيق، وما يترتب عليها من تعديل تسوية جوشن – جوبير هو من مصلحة كل الأطراف: حملة سندات الدين، والحكومة البريطانية، ودافعى الضرائب من الفلاحين المصريين الذين ينتجون معظم ثروة مصر الإقتصادية. والآن بعد ما أصبح ذلك للحظة غير ممكن فى مارس السابق؛ فقد خشى أن يضطر إلى القيام بعمل يعده مناف للمبادئ التى تبنتها حكومة بلاده التى اهتمت بمصالح الدائنين والمصالح العسكرية على حساب مصالح الفلاحين الفقراء من دافعى الضرائب.

---

[317] Baring to Goschen, 23 Jan. 1878, CP/2, FO 633/2.

ولعل حالة الإضطراب الذهنى التى عانى منها بارنج عندئذ كانت وراء رغبته فى العودة إلى الخدمة العسكرية، عندما برزت حالة التهديد بالحرب عام 1878، عندما دعت الحكومة البريطانية قوات الإحتياط تحسباً لظروف قد تدفعها إلى إرسال قوات إلى إستانبول. فقد أرسل بارنج خطاباً إلى نائب قائد المدفعية الملكية يضع فيه نفسه تحت تصرف دوق كامبريدج قائد عام القوات البريطانية، فى حالة إعلان الحرب[318]. وكان ذلك – على أى حال – يمثل مخرجاً شريفاً من المآزق الكثيرة التى وجد نفسه فيها. وقد تلاشى احتمال وقوع الحرب بفضل الجهود الدبلوماسية التى بذلها اللورد سولسبرى وغيره من الساسة، ولسوء حظ بارنج كان الثمن الذى دفعه سولسبرى لتفادى قيام الحرب هو أن يكون أكثر مراعاة للمصالح الفرنسية فى مصر.

لجنة التحقيق ونتائجها المدمرة

لقد بدأت بعض مظاهر الأمور الشخصية لبارنج فى التحسن حتى قبل ورود برقية سولسبرى التى أثارت غضبه، ففى اجتماع مع ريفرز ولسون فى اليوم ذاته (13 أبريل 1878) عشية وصول ولسون إلى القاهرة لتولى مهام منصبه كنائب لرئيس لجنة التحقيق، استطاع بارنج أن يقنعه بوجهة نظره، وربما – أيضاً– بوجهات نظر زملائه، ورغبتهم فى عدم العمل خلال فصل الصيف، وكانت نتيجة اللقاء الإتفاق على جدول زمنى يسمح بوضع تقرير أولى فى أغسطس، بعده يستطيع جميع أعضاء اللجنة التوجه إلى أوروبا، على أن يتم استكمال التقرير بعد عودتهم من الإجازة فى الخريف، واستقر فى الأذهان أن القيام بالمهمة على وجه السرعة يقى اللجنة مشقة الدخول فى مراجعات للنظام الدفترى المحاسبى للمالية المصرية فى الشهور الأولى من عمل اللجنة، وهو قصور تم تبريره بحاجة أعضاء اللجنة إلى التركيز على المسائل الأكثر أهمية التى "تكمن عند جذور الشر، والتى يمكن فحصها دون إضاعة المزيد من الوقت" على حد قول ولسون[319].

---

318 Baring to Goschen. 29 Mar. 1878, ibid.

319 Sir Charles Rivers Wilson, Chapters from My Official Life (London Edward Arnold 1916), 113.

وقدم مبرراً أفضل للفكرة بأن اللجنة لن تستطيع الوقوف على حقائق الأمور بصورة أعمق، إذا غرقت فى الحسابات مباشرة، فيسبب لها ذلك "الوقوع فى متاهة" على حد قول ولسون أيضاً. وهو رأى صائب – دون شك– فجميع الخبراء الأوروبيين الذين جاءوا إلى مصر عندئذ إعتمدوا فى تعاملهم مع الحسابات المالية على الأرقام التى قدمها لهم الموظفون المصريون، الذين لا يعرف بعضهم حقيقة ما يجرى من أمور، وبعضهم الآخر ممن يدرك بواطن الأمور يسعى لحماية مركزه الوظيفى. ونتيجة لذلك كان من الصعب التوصل إلى معرفة يقينية بمدى قدرة البلاد على تحمل الضرائب دون تحمل مشقة اتباع أسلوب التجربة والخطأ، كما يتعذر معرفة كيفية توصل الأرقام الرسمية إلى نتائج معينة، دون قضاء عدد لا نهاية له من الشهور فى تتبع أعمال الكتبة والمحاسبين.

ويحسب لبارنج أنه أدرك ذلك تماماً كما أدركه ريفرز ولسون، ولعله كان وراء إقناع ولسون بإتباع هذا الأسلوب بحكم قوة شخصيته، وثقته بالنفس، ومعرفته بواقع الحال من خلال الشهور الثلاثة عشر التى قضاها فى قلب النظام المالى المصرى (نظارة المالية). وزاد موقفهم قوة تعيين الخديو لرياض باشا ممثلاً للحكومة باللجنة؛ فقد كان مصطفى رياض أحد أبرز الخبراء من بين نخبة كبار الموظفين، تولى مسئولية خزانة إسماعيل نفسه، كما كان ناظراً للخارجية، والزراعة، والحقانية، والمعارف، وهى جميعاً وظائف أتاحت له المعرفة الكاملة بأحوال البيروقراطية المصرية وطريقة عملها[320]. ومن حسن الحظ أن تزايد معارضة رياض لسياسات الخديو إسماعيل حولته إلى أحد أهم نقاده، ومن ثم كان مصدراً لا غنى عنه لمعرفة عمليات جباية الضرائب، وتناقضات الموازنات المالية[321]. ويصفه موبرلى بل بأنه "كان رجلاً نحيفاً، طول قامته نحو خمسة أقدام ونصف القدم (165 سم)، محدوب الأكتاف، صوته عالى النبرات بالغ الحدة، وأنه كان نشيطاً، مشغولاً دائماً بعمله، عملياً فى سلوكه ومواقفه، مع تمتعه بقدرة على العمل الشاق والنظرة البراجماتية للحكومة[322].

[320] أورد روبرت هانتر قائمة بالوظائف التى تولاها رياض فى كتابه:
Egypt Under the Khedives, 1805 – 1879: From Household Bureaucracy to Modern Government (Pittsburgh: university of Pittsburgh Press, 1984) table 25, p. 160.

[321] Ibid. 190 – 1.

[322] Charles Moberley Bell, Khedives and Pashas: Sketches of Contemporary Egyptian Rulers and Statesmen (London ["by One who Knows Them well"] 1884), : Sampson Low, marston, Searle, & Rivington, 121 – 30.

بدأت اللجنة جمع الأدلة الشفوية فى 25 أبريل باستجواب رومان Romaine المراجع البريطانى لمدة ثلاث ساعات، ثم ناظر الإيرادات المصرى بمديرية الجيزة، وسجلت الشهادات بطريقة الإختزال[323]. وقد سارت كل الأمور بهدوء وإيقاع معقول حتى بدأت اللجنة البحث فى شئون الخديو نفسه وثروته الخاصة فى 19 مايو، فتحول المشهد إلى العنف (على حد قول ولسون)[324]. واستمر الحال على هذا المنوال المؤسف حتى 22 يونيو عندما انتقلت اللجنة إلى الإسكندرية لتصبح بالقرب من قناصل الدول الأوروبية حتى تستعين بهم – عند الحاجة– للضغط على الخديو. وعادت اللجنة إلى القاهرة – مرة أخرى– فى أوائل يوليو بعد ما حصلت – على حد قول ولسون– على تنازلات مهمة من الخديو، وتضمن ذلك وعداً من جانبه بالتنازل عن أراضيه الخاصة التى بقيت بحوزته بعد أن وضع الأوروبيون أيديهم على نصفها بموجب تسوية خاصة تفاوض حولها جوشن فى العام السابق، كما وعد إسماعيل بإنقاص مصروفات الحكومة بما يوازى 1.2 مليون جنيه إسترلينى[325].

وبدأت عائلات أعضاء اللجنة مغادرة البلاد أواخر يوليو لقضاء إجازة الصيف بأوروبا، فأقامت عائلة فيفيان حفل وداع بفيلتها الأنيقة بالقاهرة لمدام دى بلنيير، حيث قدم الطعام بالشرفة المطلة على الحديقة، حيث النافورات والبدر الساطع والمشروبات الباردة[326]. ووقع بارنج وزميله النمساوى فون كريمر Von Kremer فى 16 أغسطس على مذكرة اللجنة الفرعية التى كلفت بالبحث فى موضوع الديون السايرة وجاء تقريرها فى 25 صفحة[327]. وبذلك بقى على ريفرز ولسون وبارنج ودى بلنيير إكمال بقية التقرير المبدئى الذى وضع دى بلنيير مسودته بالفرنسية، وحمل عنوان: "تقرير مبدئى مرفوع إلى سمو الخديو".

وجاء الآن دور المهمة الصعبة، ألا وهى الحصول على موافقة الخديو على توصيات اللجنة التى لم تتضمن المطالبة بإجراء تغييرات جذرية فى الممارسات المالية فحسب، بل طالبته

323 Rivers Wilson, Chapters from My Official Life, 120.
324 Ibid, 126.
325 Rivers Wilson, Chapters From my official life 136, 138, 141 – 2.
326 Ibid, 146 – 7.
327 France, Ministere des Affaires Etrangeres: Affaires Etrangeres, Documents Diplomatiques, Affaires d'Egypte 1879 – 1880. (Paris: Impiremerie Nationale, 1880), 55.

بالتنازل عن ممتلكاته وقصوره. وكان بارنج يعد العدة للسفر إلى لندن لقضاء إجازة طال ترقبه لها، عندما دعى لاجتماع مهم للجنة التحقيق. ويصف نوبار فى مذكراته التى كتبها فى أوائل التسعينيات (ق 19) موقف بارنج فى ذلك الإجتماع، فيذكر أنه شن هجوماً قاسياً على الخديو مهدداً إياه بعاصفة من غضب الدول إذا لم يقبل بتوصيات اللجنة كما هى. ويقول نوبار إن هذا العنف أثاره، ولكنه احتفظ برباطة الجأش عندما أدرك أن تلك التهديدات قد تؤثر على الخديو إسماعيل، وتجعل مهمة نوبار سهلة[328]. وسواء أكانت هذه الرواية صحيحة أم كانت غير ذلك، فقد قام ريفرز ولسون ونوبار باشا بتنسيق حملتهما لدفع الخديو إلى التسليم والخضوع لتوصيات اللجنة. وأخيراً، قدم التقرير للخديو فى 20 أغسطس، وأعلن قبوله له فى 22 منه، ولكنه كان يعد العدة لخوض آخر معارك المقاومة ضد الإدارة الأوروبية لمالية البلاد.

وقد عمل بارنج بتوافق تام مع ولسون، فيما عدا موقف واحد عارضه فيه، عندما انضم إلى زملائه بصندوق الدين فى الإعتراض على طريقة اختيار سكرتير لجنة التحقيق التى اقترحها ديلسبس وولسون[329]، ونتيجة لذلك أصبح له تأثير فى اللجنة، كما اتخذ منها قاعدة لنفوذه الشخصى، فأخذت بوجهة نظره من أن هناك مصالح مشتركة بين دافعى الضرائب المصريين والدائنين؛ فكلاهما ينتفع من تقييد سلطة الخديو القائمة على الاستبداد والتبذير. كما أصبح مقتنعاً شيئاً فشيئاً أن باستطاعة الحكومة المصرية أن تسدد أقساط ديونها دون الإضطرار إلى الجباية المجحفة للضرائب إذا تم تطبيق مبدأ المسئولية الوزارية، على أن يقترن ذلك بالتعاون الأوروبى وكانت تلك وصفته الشخصية لإدخال إصلاح مالى قابل للتنفيذ[330].

كانت تلك الأفكار شائعة نسبياً، وكان لها تأثيرها حتى على روتشيلد عندما وضع شروطاً بهذا المعنى عند عقده لصفقات القروض. ليقينه أن الحكومات الدستورية ذات السلطات الملكية المحدودة أقدر من غيرها من الحكومات على سداد ما تقترضه من ديون[331]. ولم يتم

[328] Nubar Nubarian, Memoires de Nubar Pasha, with introd. And notes by Mirrit Boutros Ghali (Beirut: Librairie du Liban, 1983), 491.

[329] Rivers Wilson, Chapters From My Official, 113.

[330] Marlowe, Cromer in Egypt, 31.

[331] Fergusson, The World's Banker, 132.

رصد أى مظاهر لعدم الإرتياح لقرار اللجنة؛ فقد علق اللورد سولسبرى عليه فى إحدى رسائله لفيفيان أن اللجنة كانت حاسمة بشكل عام، فإذا أرادت عزل الخديو كان ذلك جيداً ونافعاً، ولكنها لم تر ذلك، مما يجعل "دفع الخديو إلى اليأس عملاً غير مجد، لن يؤدى إلى إحكام قبضتنا عليه؛ فهذه المكاسب التى تم تحصيلها عنوة تترك أثراً مؤلماً لا يمكن تفاديه، ولكن إذا تم عزل الخديو، ينتفى ذلك الأثر"[332].

لم يعد بارنج من إجازته إلى مصر إلا فى أكتوبر، سافر مع زوجته عن طريق فينسيا؛ حيث سجلت زوجته المغزى الشخصى لهذه المناسبة بالحصول على خصلة من شعره الرفيع الكستنائى اللون، إحتفظت بها فى مغلف خاص مع جملة أشياء أخرى. وبعد العودة إلى مصر انفرد بارنج باستكمال عمل اللجنة بجهده الشخصى. فقد أصبح ريفرز ولسون وزيراً للمالية فيما عرف بإسم "الوزارة الأوروبية" التى تولى رئاستها نوبار وشغل فيها دى بلنيير منصب وزير الأشغال العمومية، وأدى ذلك إلى التخفيف من أعباء العمل فى صندوق الدين، فأتاح ذلك لبارنج متسعاً من الوقت للعمل فى مجال آخر شغله بعيداً عن التوتر المتزايد الذى أثر على الوزارة الأوروبية، وأدى إلى طرد نوبار من منصبه بعد مظاهرة لضباط الجيش المصرى معادية للأوروبيين، خرجت احتجاجاً على تخفيض الإنفاق العسكرى[333].

وأثناء ذلك، وقع خلاف بين فيفيان وولسون حول ما إذا كان على وزارة نوبار محاولة التعاون مع الخديو أم تمتنع عن ذلك. فقد ذهب فيفيان إلى أن الطريقة الوحيدة التى يمكن أن يدفع بها الإصلاح إلى الأمام فى مصر هى التعاون مع الخديو وظل بارنج مؤيداً لهذا الرأى بضعة أسابيع[334]. وتبنى ريفرز ولسون ونوبار وجهة نظر مختلفة ترى أن الإصلاح لا يمكن أن يتم إلا إذا تم استبعاد إسماعيل نهائياً من عملية صنع القرار[335]. وفى النهاية خسر الجميع مراكزهم نتيجة استمرار إسماعيل فى شن حملة سياسية مضادة. فقد تم استدعاء

---

332 Quoted in Marlowe, Cromer in Egypt, 33.

333 Alexander Scholch, Egypt For The Egyptians ! The Socio – Political Crisis in Egypt 1878 – 1882, trans. Scholch (London, Itheca Press 1981), 66 – 9. (ترجمة رءوف عباس للعربية، ونشر مرتان بالقاهرة 84، 1994)

334 Baring to Goschen, 15 Feb. 1878, CP/2, FO 633/2.

335 Rivers Wilson, Chapters From My Official Life, 177 – 80.

فيفيان إلى لندن فى مارس كخطوة أولى لنقله إلى مكان آخر فى يونيو. ثم طرد ريفرز ولسون ودى بلنيير من الوزارة فى أبريل 1879 بعد بضعة أيام من إعلان التقرير النهائى للجنة التحقيق، ولكنه كان إنتصاراً وهمياً، فبعد شهرين من ذلك التاريخ أصدر السلطان فرماناً بعزل الخديو إسماعيل استجابة للضغوط البريطانية والفرنسية والألمانية.

ولعب بارنج دوراً لا يخلو من الأهمية خلال تلك الحوادث من خلال صياغته لجانب كبير من تقرير لجنة التحقيق النهائى، فالمقدمة التى تناولت المبادئ التى يتم على أساسها مراجعة التسوية المالية تضمنت نفس العبارات والجمل التى جاءت بمراسلاته الشخصية فى الشهور السابقة على ذلك. فقد كانت مصر مفلسة بالفعل منذ العام 1876، ويجب أن يعلن ذلك صراحة بتعيين لجنة للتصفية.

وثمة موضوع آخر شكل أساس مشروع بارنج بعد عودته إلى مصر 1879، ثم مرة أخرى فى 1883 هو أنه لما كانت مصر بلداً زراعياً فإن ضرائب الأطيان تعد أهم مصدر للإيرادات، وتظل الضرائب الأخرى غير ذات أهمية. وأهم من ذلك فكرة عدم تحمل الدائنين أى تضحيات ما لم يقدم المدينون "تضحيات معقولة" وتضمن ذلك ضغط نفقات الخديو إلى 300 ألف جنيه إسترلينى سنوياً، وإلغاء المقابلة (الذى أدى إلى حرمان من دفعوا المقابلة من المزايا التى وعدوا بها) وزيادة الضرائب المفروضة على ما سمى بالأطيان العشورية التى مثلت نحو ثلث مساحة الأراضى الزراعية بالبلاد، وكان امتلاك النخبة الإجتماعية الحاكمة لهذا النوع من الأراضى سبباً فى إثارة الجدل حول ذلك الإقتراح، وتمثلت "تضحيات" الدائنين فى تخفيض الفائدة على الدين الموحد من 7 إلى 5%[336].

كان لذلك كله مغزاه من وجهة نظر أحد الإقتصاديين السياسيين من عصر جلاد ستون – على نحو ما لاحظ مارلو– فقد كانت تلك الأفكار بمثابة "ديناميت سياسى" فى السياق المصرى المعاصر، أدى إلى تزويد إسماعيل بالذخيرة اللازمة بما يشبه الإنقلاب على الرقابة الأوروبية المتزايدة على مالية البلاد[337]. فرغم أنه لم يطلع رسمياً على التقرير إلا فى

336 Rapport concernant le reglement proviso ire de La situation Financiere, PP (1878 – 9), 78, 121 – 63.

337 Marlowe, Cromer in Egypt, 37.

أبريل، فقد عرض عليه خلاصة بالمقترحات كتبها ريفرز ولسون فى نهاية مارس، وبذلك أصبح قادراً على التحرك قبل صدور التقرير فى 11 أبريل[338].

وكان مجلس شورى النواب أحد الأدوات الرئيسية التى استخدمها إسماعيل، فقد دعاه للإجتماع فى مايو 1876، ولم تكن اللهجة المعارضة الحادة التى ميزت مناقشات المجلس فى يناير 1879 تبدو غريبة أو مفاجئة، فقد زاد انتقاد النواب للحكومة الأوروبية، وهو ما لم يحاول نوبار أو ريفرز ولسون وضع حد له، ومكن ذلك إسماعيل من أن يتخذ من تقرير لجنة التحقيق حافزاً للإعلان الذى أصدره فى 7 أبريل أن يستبدل بالوزارة أخرى "مصرية تماماً" برئاسة شريف باشا، وهو سياسى بارز، إكتسب شعبية فى صيف العام السابق عندما فضل الاستقالة من منصبه على المثول أمام لجنة التحقيق.

وتمثلت المبادرة الثانية لإسماعيل فى إعداد خطة مالية بديلة لقيت تأييد زعماء مجلس شورى النواب، استنكرت إلغاء المقابلة دون أن تتناول ضغط نفقات الخديو أو ضرائب الأطيان العشورية، وبينما ثار الجدل بين مؤرخى ذلك العصر حول أصول الخطة البديلة، وما إذا كانت علامة على أن الأعيان بدأوا التحرك بمفردهم، فلا شك أن ما جاء به تقرير لجنة التحقيق بعد ثلاث سنوات من التدخل الأوروبى فى الإدارة، وإنشاء المحاكم المختلطة قد أثار سخط قطاعات كبيرة من المجتمع المصرى، ليمثل ذلك بؤرة كل ما تعانيه البلاد من متاعب[339]. ويبدو أن بارنج ولسون لم يستطيعا رؤية الشواهد المنذرة بذلك؛ فعلى ضوء رؤيتهم النخبوية السياسية، كان إسماعيل هو اللاعب الوحيد فى الميدان، فلم يستمعوا إلى صيحات المصريين وإحتجاجات ضباط الجيش.

ومع إبعاد ولسون ودى بلنيير، طلب شريف باشا من بارنج أن يتولى مهمة المراقب العام للإيرادات، فإعتذر فى 9 أبريل عن تولى المنصب، ذاكراً للخديو أنه لا يستطيع الإشتراك فى خطة غير مجدية ضارة بمصالح مصر والدائنين[340]. وفى اليوم التالى (10 أبريل) استقال جميع أعضاء لجنة التحقيق بعد ما أصدروا تحذيراً من أن الترتيبات المالية الخاصة

---

[338] Hunter, Egypt Under the Khedives, 218.
[339] e. g. ibid 219 – 24; Scholch, Egypt For the Egyptians ! 85 – 93.
[340] Enclosure in Lascelles to Salisbury, 11 Apr. 1879, PP. (1878 – 9), 78, 90.

بمصر لا يمكن إتخاذها من طرف واحد، وأن خطة إسماعيل المضادة للإصلاح لا يمكن أن يقبل بها الدائنون.

وكان آخر عمل لبارنج الاستقالة من منصبه بصندوق الدين، معلناً أن كل الآمال التى علقها على وضع شئون مصر المالية على الطريق المستقيم قد ذهبت سدى[341]. وحل محله أوكلاند كالفن Auckland Colvin الذى وصل لتوه من الهند ليتولى الإشراف على أعمال مساحة الأراضى التى رأى كل من ولسون وبارنج ضرورتها لإصلاح النظام الضريبى. وتردد بضعة أيام فى أوائل مايو أن بارنج قد يتولى منصب وزير المالية فى استانبول، فقد قبل أن يقدم إسمه كمرشح بعد تردد، ولكن تبين أن الحكومة العثمانية ليس لديها رغبة فى طرح هذا الموضوع[342]. وبذلك أصبح بارنج حراً فى العودة إلى لندن دون تأخير.

العودة إلى لندن مرة أخرى

عاد بارنج إلى بلاده فى 24 مايو بعد أن قضى بمصر عامين وربع العام كان سلسلة متصلة من العمل المضنى لم يغادرها إلا قليلاً عندما ذهب فى سبتمبر 1877 للقاء جوشن وقضى شهرين فى أوروبا من منتصف أغسطس إلى منتصف أكتوبر 1878. وكان أول منصب يتولاه يتصرف فيه على مسئوليته الخاصة دون أن يتلقى التعليمات من رئيس يعلوه مرتبة، وجاءت الحاجة إلى اتخاذ قرارات سريعة فى المشاكل التى يواجهها لترضى عنده حالة القلق والتوتر الذهنى. وتطلب العمل إتقان مهارات جديدة بما فى ذلك اللغة الفرنسية التى كانت لغة العمل بصندوق الدين، وذلك فى جو عمل مختلف تماماً يتسم بالطابع الدولى إلتقت فيه السمات الدولية للمالية الأوروبية مع الضوابط القانونية، مع أداء الحكومة المصرية ذات الطابع المفرط فى الأوتقراطية، والتى كان العمل معها يمثل نقلة مؤلمة.

وفى ظل هذه الظروف الصعبة، حزم بارنج أمره على اتخاذ مسار معين لعمله يدعو من حين لآخر إلى تشكيل لجنة تحقيق ذات وجهة معينة، من ذلك قوله لجوشن: "منذ جئت إلى هنا كنت دائماً قائداً لا تابعاً"، وكان ذلك فى إحدى لحظات التوتر فى يناير 1878،

---

[341] Marlowe, Cromer in Egypt, 38.

[342] Baring to Northbrook, 10 May 1879, NP, MS Eur. C 144/7; Sir Edward Malet, Egypt 1879 – 1883 (London, John Murray 1909), 33 – 4.

واستطرد قائلاً: "ولا أضع فى إعتبارى إلا المصالح التى أمثلها، وأننى سأستمر على هذا النهج"[343]. كان ذلك تدريباً مهماً له على إدارة المناقشات، وتحسب المشكلات، وإقامة التحالفات الدبلوماسية الشخصية وأنه يلتمس لنفسه طريقاً وسط متغيرات الظروف القائمة. وقد وصف شريف باشا قدرات بارنج فى رسالة بعثها – بدوره– إلى جوشن بقوله إن بارنج حاد الطبع ولكنه معقول[344]. غير أننا يجب أن نتذكر أن ذلك كان جزءاً من التوتر القائم بين مصر وأوروبا الذى إنعكس على العمل بالقاهرة، هو أنه لم يكن مقبولاً لدى أى من أصحاب المصالح، وأن عليه أن يضمن تأييد حكومة بلاده وزملاؤه فى صندوق الدين.

ويمكن أن نرى بعض ملامح التوتر الشخصى والحدة فى رسائله لجوشن التى سجل فيها ما حققه من نجاح وما أصابه من إخفاق أسبوعياً، وأحياناً يومياً؛ حيث تولى تحديد موقفه وما يعتزم عمله فيما بعد، وكانت الفترة بين ديسمبر 1877 وأبريل 1878 حافلة بإختبارات ذات لون خاص. فكما كتب فى 2 فبراير 1878:

"يعانى صندوق الدين أوضاعاً بالغة الصعوبة على مدى الشهور الثلاثة، ولا أستطيع القول أن غيرى (من الزملاء) قد حقق ما لم أستطع تحقيقه، وطالما كان عملى يلقى قبولاً لدى الأقلية العالمة ببواطن الأمور والذكية، فسوف أتلقى هجوم الصحف على بصبر جميل، ولكن أحاول الرد على الهجوم"[345].

وقد التزم بارنج هذا الموقف، فلم يعر هجوم الصحافة عليه اهتماماً فى العلن على أقل تقدير، حتى عندما كان يكتب إلى بعض المحررين عندما يجد أن الهجوم قد تجاوز الحدود[346].

كذلك كانت خطابات بارنج لجوشن وسيلة لتصريف بخار التوتر الكامن فى صدره. فقد وصف رومين المراقب العام الذى كان يخطط لحل معضلات مصر المالية بأنه "مجنون

[343] Baring to Goschen, 23 Jan. 1878, CP/2, FO 633/2.
[344] 13 Dec., 1877, CP/2, FO 633/2.
[345] Baring to Goschen, 2 Feb. 1879, CP/2 FO 633/2.
[346] e. g. his Letter to Palgrave, editor of the Economist, 23 March 1878, Copy in CP/2, FO 633/2.

خطير"، ووصف خطاباً أرسله الخديو فى يناير 1878 بأنه "سلسلة من الأكاذيب"[347]، كذلك احتوت الخطابات على ما يمكن أن نسميه "السخرية السوداء" ففى خطاب أرسله فى فبراير 1878 إلى جوشن عن رجل ظهر فى حفل تنكرى راقص بالإسكندرية بأنه كان يرتدى ما يشبه "زكيبة صندوق الدين" يحمل على ظهره كيساً فارغاً كتب عليه "صندوق الدين العام مدين لى بثلاثة جنيهات"، وهو تعبير لاذع يعبر عن مشاعر الجاليات الأجنبية فى مصر، يعنى أن على بارنج وزملائه الذين يريدون اعتصار آخر مليم من إسماعيل جباة للضرائب[348].

وبرز موضوعان كانت لهما نتائجهما المهمة عندما عاد إلى مصر 1879 و1883. أولهما الضغط الذى مارسه بارنج على حملة سندات الدين أن عليهم الإعتبار "بالمصالح الدائمة لمصر" فلا يجب أن تغيب عن ذاكرتهم[349]. ويعنى ذلك أن عليهم ألا يزيدوا من الضغوط على الفلاحين دافعى الضرائب لأن جباية الضرائب مقدماً تهدد بإنقطاع العائد من الزراعة، ولذلك رأى أن الأمر يتطلب؛ إعتراف كل طلب بمصالح الطرف الآخر، والتوصل إلى حل مرض للطرفين، مما يعنى أنه وبعض من شاركه الرأى من زملائه كانوا يدركون حدود هذه المصالح.

والموضوع الثانى هو تزايد هواجسه تجاه الخديو إسماعيل نفسه، فقد قابل الخديو فى عدة مناسبات عام 1877، ولذلك أتيحت له معرفته عن قرب، وما لبثت جاذبية الخديو أن تناقصت، وأصبح بارنج يراه وحشاً تنسب إليه كل الجرائم. ومن ثم توصل إلى استنتاج فى فبراير 1878 (إن لم يكن قبله) أن من الخير أن يذهب (يعزل)[350]. وبدت المسألة وكأنها معركة شخصية بين بارنج والخديو "أمير الشر" لابد أن يخرج منها أحدهما منتصراً. وفى أبريل 1878 بدا وكأن الخديو قد انتصر، ولكن ما كاد بارنج يصل إلى لندن حتى علم أن إسماعيل قد عزل، وأن سولسبرى يعرض عليه العودة إلى مصر ليكون أحد المراقبين الماليين.

---

[347] Baring to Goschen, 23 Dec. 1877 and 23 Jan 1878, Ibid.
[348] Baring to Goschen, 4 Feb. 1878, ibid.
[349] e. g. to Goschen 23 Jan. 1878, ibid.
[350] Baring to Goschen, 15 Feb. 1878, ibid.

غير أن المعركة لم تكن قد انتهت بعد بأى حال من الأحوال فقد ظل طيف إسماعيل يقض مضاجع بارنج بعد عودته إلى مصر عام 1883، مما أعطاه مبرراً لاستمرار الرقابة الأوروبية. وظل هناك ما يجب مواجهته باستمرار إلى ما لا نهاية، ذلك هو شبح إسماعيل الذى لا يريد أن يختفى بهدوء.

كان بارنج قد عقد العزم على الإقامة فى إنجلترا إلى الأبد، ورغم استقالته من الجيش، لم يكن يدرى ما يفعله بعد ذلك، كان قد كتب إلى ليال فى نوفمبر السابق: " لا أستطيع دخول البرلمان، رغم رغبتى فى ذلك"[351]. حقاً يتناقض ذلك مع ملاحظة أوردها فى كتابه "مصر الحديثة" الذى كتبت مسودته الأولى فى أواخر التسعينيات (ق 19) من أنه كان يريد ترشيح نفسه عن حزب الأحرار فى شرق نورفولك فى الإنتخابات البرلمانية التالية[352]. ولا شك أن أموراً كثيرة دارت فى ذهنه عندئذ، لعل من بينها أن دخول البرلمان يعنى عدم الحصول على راتب مما يؤدى إلى استنزاف رصيده المالى الشخصى.

ومهما كانت الخطط التى دارت فى مخيلته، فلابد أنه لم يكن بينها خدمة حكومة دزرائيلى – سولسبرى التى كانت لا تحظى بثقته بسبب سياساتها فى الهند التى رآها تتجه إلى إثارة متاعب لا لزوم لها على الحدود الشمالية الغربية للهند، ولتأييد الحكومة للدوية العثمانية[353]. ولكنه اتخذ هذا الموقف عندما عرض عليه سولسبرى أن يتولى منصب المراقب المالى فى مصر. فبعد تردد قبل العرض لعدة أسباب لها وجاهتها من بينهما أن غياب إسماعيل سوف يفتح الطريق أمام الإصلاح الذى تضمنه تقرير لجنة التحقيق. ولعل قبول دى بلنيير لمنصب المراقب المالى الثانى دعم هذه الفكرة عنده. والسبب الثانى هو حصوله على راتب سنوى قدره أربعة آلاف جنيه إسترلينى؛ أى يزيد عن راتبه السابق، ويقترب من مرتب الوزير فى بريطانيا[354].

---

351 Baring to Lyall, 17 Nov. 1879, LP, MS. Eur, F 132/39.

352 Cromer, Modern Egypt, i, 159 n.

353 Baring to J. Scott, 30 Dec. 1877, CP/2, FO 633/2; Zetland, Lord Cromer, 73.

354 Baring to Salisbury, 20 Sept. 1879 CP/2, FO 633/2;
ويذكر فى "الملاحظات" أن دخله الخاص عام 1879 لم يكن يسمح له بالاستغناء عن الراتب الرسمى.

ورغم كل هذه المبررات، فقد اشترط بارنج أنه ما دام يسعى للبحث عن حل لمشاكل مصر المالية الحالية؛ لذلك يصر على انتهاء مهمته فى مصر بمجرد تحقيق هدف حل معضلات مصر المالية، ويحل محله شخص آخر. ولا شك أن القلق على حالة إيثل الصحية، والوقت الذى تستطيع أن تقضيه معه وإبنها الصغير بالقاهرة كان عاملاً قوياً وراء تمسكه بهذا الشرط، كما أن هناك ما يوحى بأن زوجته كانت تحثه – كدأبها– على قبول المنصب.

الفصل الثامن
مراقبة مالية مصر
(1879 – 1880)

إعادة ترتيب الأمور: لندن وباريس وفيينا

فى الخامس والعشرين من يوليو 1879، أرسل السلطان العثمانى برقيتين إلى مصر، أمر فى إحداهما "سمو إسماعيل باشا الخديو السابق" بمغادرة البلاد على الفور، والبرقية الأخرى تعلن تعيين إبنه توفيق خديوياً لمصر، وبعد ذلك بخمسة أيام (30 يونيو) غادر الخديو الإسكندرية على متن يخته الخاص إلى غير عودة.

وأدى رحيل إسماعيل عن مصر إلى إرتفاع درجة حرارة المشاورات بين سولسبرى وادنجتون نظيره فى باريس، عن أفضل السبل لإعادة البدء فى عملية الإصلاح المالى فى مصر، وخطا وزير الخارجية البريطانى بضع خطوات فى الطريق إلى تحديد مصالح بلاده فى ذلك الإصلاح، من بينها التشاور مع بارنج وريفرز ولسون وفيفيان فى يوليو، كلف بعدها بارنج بالإشتراك مع دى بلنيير فى وضع مشروع إقامة لجنة التصفية التى تتولى النظر فى مسألة إفلاس مصر، وهو ما أوصت به لجنة التحقيق من قبل[355]. وبعد نحو الأسبوع عرض على بارنج العودة إلى مصر ليشغل منصب المراقب المالى (البريطانى) إلى جانب زميله القديم دى بلنيير المراقب المالى (الفرنسى)[356].

إلتقى سولسبرى بارنج عدة مرات فى أغسطس ليبحث معه مهمته الجديدة فى القاهرة، وتدارسا معاً المقترحات التى يعتزم سولسبرى تقديمها إلى وادنجتون حول إعادة إقامة المراقبة المالية الثنائية الأنجلو – فرنسية، ويذكر بارنج أنه وسولسبرى تعاونا معاً رغم مشاكل الماضى والإختلاف الجذرى فى وجهات النظر بينهما. وقد لخص بارنج تلك المسألة فى

---

[355] Salisbury to Lyond Lyons (British Ambassador to France), 22 July 1879, PP. (1880) 79, 15.

[356] لا تتوفر معلومات عن تاريخ قبوله للمنصب، ولكنه كان سابقاً على 6 أغسطس تاريخ رسالة سولسبرى إلى القائم بالأعمال البريطانى فى مصر حاملاً النبأ:

Salisbury to Lascelles, 6 Aug. 1879, pp. (1880) 79, 46.

رسالة إلى نورثبروك قال فيها: "إن سولسبرى يعتقد أن التجديد السياسى للمحمدية (الإسلام) ممكناً، على الأقل فيما يتصل بإصلاح البيروقراطية التركية، وهو ما لا اتفق معه عليه"[357]. ولكنه – رغم ذلك– وجد ما يجمع بينهما من آراء فيما يتعلق بمصر، فقد توصل سولسبرى إلى ما ذهب إليه بارنج من قبل، أن من الأفضل ممارسة سلطة غير رسمية فى مصر من ممارسة سلطة رسمية (فعلية). وكتب إلى بارنج فى 11 سبتمبر أنه قد عين من جانب الحكومة البريطانية مباشرة ليمارس سلطة "التفتيش والمشورة"، ولا تدخل فى إختصاصاته الإدارة المباشرة[358].

وما دار فى مخيلة سولسبرى وبارنج هو ما أثاره وجود ريفرز ولسون ودى بلنيير فى الوزارة الأوروبية التى رأسها نوبار باشا، وما ترتب على ذلك من آثار فى الربيع السابق، وكان الرجلان على اتفاق تام بالنسبة لأهمية مشاركة الفرنسيين مع الإنجليز فى الرقابة المالية، ولكن سولسبرى كان يعتقد أن باستطاعة الإنجليز توسيع مساحة نفوذهم على حساب الفرنسيين فى المستقبل نتيجة "التفوق الطبيعى للإنجليز فى هذا المجال" على حد قوله لجوشن[359].

وثمة عاملين لعبا دوراً مهماً فى تقديرهما للأمور: أولهما أن سولسبرى وبارنج إعتمدا على تقرير لجنة التحقيق فى تحديد الخطوة التالية التى يجب إتخاذها، وأدى ذلك إلى إثارة العديد من المسائل التى لم تكن هناك حاجة لإثارتها من بينها تحديد تاريخ معين تصبح عنده جميع العقود التى تبرمها الحكومة المصرية خاضعة للنظام الجديد، وليس من الغريب أن معظم هذه المسائل كان بارنج قد توصل إلى رأى بشأنها، وكانت لديه فرصة التنسيق بشأنها مع دى بلنيير خلال لقائهما فى يوليو والخطابات المتبادلة بينهما بهذا الصدد.

والعامل الآخر، حرص بارنج على ممارسة نفوذه بالإصرار على أنه هو ودى بلنيير لا يذهبان إلى مصر إلا بعد تسوية الأوضاع السياسية والمالية الخاصة بالدين المصرى، وكتب سولسبرى فى 19 سبتمبر أن من الواضح أن التسويات التى تتوصل إليها لجنة

---

357 Baring to Northbrook, 12 Sept. 1879, NP, MS Eur. C 144/7.
358 Salisbury to Baring, 11 Sept. 1879, CP/2, FO 633/2.
359 Roberts, Salisbury, 228 – 9.

التسوية المقترحة لابد أن يصدر بها قرار رسمى من الحكومة المصرية. وعلى كل، كان صدور مثل هذا القرار لا معنى له دون موافقة الدول الأربع عشرة الموقعة على إتفاقية إنشاء المحاكم المختلطة؛ فإذا لم يتم ذلك تعرضت التسوية للمنازعات القضائية على أساس المساس بالحقوق القانونية المكتسبة منذ العام 1876[360]. وكان بارنج يرى ضرورة تشكيل لجنة دولية للتشريع المصرى للتفاوض حول عقد إتفاقية عامة تحدد سلطات المحاكم المختلطة، ولكن سولسبرى رفض الفكرة؛ لأنه "لما كان من الضرورى التشاور مع هذا العدد من الدول، فلابد أن نتعرض للعديد من العقبات التى لا نهاية لها"، وفضل على ذلك السعى لإبرام إتفاقية دولية بشأن لجنة التصفية، وهو عمل من الصعوبة بمكان[361].

وقد قضى سولسبرى بعض الوقت فى إجازة بديب Dieppe استغلها لتسوية الأمور مع الفرنسيين، وتم التوصل إلى اتفاق تام فى منتصف سبتمبر حول عدة موضوعات، كان أهمها من وجهة النظر المالية هو تأييد الدولتين لإقامة لجنة التصفية الدولية التى لها صلاحية اتخاذ القرار بشأن الدين الموحد والإلتزامات الأخرى التى تقع على عاتق المالية المصرية. كما اتفق الطرفان على أنه قبل تسديد أى مبالغ للدائنين يجب تخصيص مبالغ لنفقات الحكومة على النواحى الإدارية، كذلك اتفقا على أن يعقد بارنج ودى بلنيير إجتماعاً فى باريس لوضع مشروع قرار تشكيل لجنة التصفية، وكذلك تحديد التعليمات الخاصة بما يقع على عاتقهما من واجبات[362].

وعندما وصل بارنج إلى فرنسا فى 21 من سبتمبر، لم تواجهه مشكلة تنفيذ الجانب المنوط به ودى بلنيير، فاتفقا على أن يقدما النصيحة ولا يمارسان صلاحيات إدارية، وأدخلا شرطاً ينص على عدم جواز إقصاء أى منهما عن منصبه دون الحصول على موافقة دولته، ورغم أن المراقب المالى البريطانى إختص بالإيرادات وزميله الفرنسى بالمصروفات، فإنهما فضلا ترك الأمور دون تحديد لحين وصولهما إلى القاهرة، فيتوليا توزيع العمل بينهما خشية ما قد تأتى به الظروف[363].

---

[360] Baring to Salisbury, 19 Sept. 1879, CP/2, FO 633/2.
[361] Salisbury to Baring, 25 Nov. 1879, ibid.
[362] Salisbury to to Malet, PP (1880) 79, 1127 – 8.
[363] Cromer, Modern Egypt, i, 159 – 63.

وبعض الظروف الأخرى احتاجت إلى وقت أطول للتفاوض حولها، وأصر سولسبرى على أن يتولى ريفرز ولسون رئاسة لجنة التصفية رغم معارضة الخديو لذلك وعدم تحمس بارنج للفكرة. كما كان يجب التوصل مع الفرنسيين إلى اتفاق حول الإطار المرجعى للجنة، وكان بارنج يتوقع أن تتوصل اللجنة إلى خفض الفائدة على الدين الموحد إلى 4%، وأراد بذلك أن يؤكد أن لجنة التصفية ليست ملزمة بتكرار ما توصلت إليه لجنة التحقيق، وقد اعترض الفرنسيون على ذلك لعدم رغبتهم فى مناقشة أمر تخفيض الفائدة، وتم التوصل إلى صيغة توفيقية دعيت بموجبها اللجنة الجديدة أن تأخذ بعين الإعتبار التوصيات التى توصلت إليها لجنة التحقيق[364].

وعندما تم التوصل إلى اتفاق بين الدولتين وأصبح باستطاعة بارنج وبلنيير التوجه إلى القاهرة، وطلب منهما أن يعرجا على فيينا فى طريقهما إلى مصر؛ لمناقشة بعض الآراء النمساوية المجرية فيما يتعلق بمصالح تلك الإمبراطورية فى مصر، تاركين لسولسبرى وادنجتون مهمة الإتصال بالدول الإحدى عشرة الموقعة على إتفاقية المحاكم المختلطة، للحصول على موافقتها.

وكان على بارنج أن يقوم بعملين آخرين قبل توجهه إلى فيينا فى 20 أكتوبر، أحدهما لقاء مع اللورد سولسبرى حرص خلاله أن يسجل أنه رغم كونه معيناً من الحكومة البريطانية فإنه يرى أن عليه مسئوليات تجاه الحكومة المصرية التى قد تتعارض مصالحها مع مصالح بريطانيا، وفى هذه الحالة سوف يعطى الأولوية لمسئولياته تجاه الحكومة المصرية[365]. وقد اقتنع سولسبرى بذلك فكتب له أن من حقه أن يتخذ موقفاً مستقلاً تجاه حكومة جلالة الملك "فمهمتك صعبة التحديد، وعليك واجبات تجاه حاكم مصر وشعب مصر ولا يمكننا وكذلك لا يمكنك التعامل معها من زاوية المصالح البريطانية وحدها"[366]. وكانت هذه النقطة واضحة أو بالأحرى غير واضحة فى الوقت نفسه لما يجب أن يكون عليه الحال، يمكن تفسيرها على عدة أوجه، تعطى بارنج حرية المناورة، ولكنها تشير إلى ضرورة أن تكون هناك حدود واضحة للمدى الذى يمكن أن يذهب إليه.

---

364 Marlowe, Cromer in Egypt, 54 – 6.

365 Ibid, 46.

366 Salisbury to Baring, 29 Oct. 1879, CP/2, FO 633/2.

أما العمل الآخر الذى كان على بارنج القيام به فهو زيارة البارون إدمون دى روتشيلد Baron Edmond de Rothschild ليتحدث معه بشأن القرض الخاص بالحكومة المصرية وقدره 8.5 مليون جنيه إسترلينى، الذى وافق روتشيلد بريطانيا وفرنسا على تعويمه فى اتفاق أبرم فى أكتوبر 1878، وكان قد تم التفاوض على هذا القرض بمعرفة ريفرز ولسون، والغرض منه سداد بعض الديون الصغيرة وتكوين احتياطى مالى لتغطية أى نقص فى الإيرادات قد يقع لأمور لا تدخل فى الحسبان على مدى زمنى قصير، ووفقاً لما يذكره ولسون طلب آل روتشيلد ضمان الحكومة البريطانية لهذا القرض، ولكنه نجح فى إقناعهم بضمان بديل يمثل جانباً من أراضى الدومين المملوكة للخديو، تتولى إدارتها لجنة من ثلاثة: بريطانى، وفرنسى، ومصرى، ويلتزم ثلاثتهم بضمان الإيرادات اللازمة لخدمة هذا الدين[367]. وتضمن جزء آخر من الإتفاق أن يقدم روتشيلد أموال القرض للحكومة المصرية على دفعات، وبذلك احتفظ آل روتشيلد لأنفسهم بالقدرة على التهديد بعدم المزيد من الدفعات فى حالة عدم الاستجابة لمطالبهم.

كان آل روتشيلد قد اتجهوا إلى وقف سداد الدفعات فى فبراير 1879 حتى يتم البت فى عدد من الدعاوى المهمة المرفوعة على الدومين، وقد كان ذلك يساعد على إحباط الخطة المالية البديلة (الوطنية) التى تبنتها وزارة شريف باشا فى أبريل (سواء جاء ذلك بقصد أو بدون قصد)، وهى خطة اعتمدت على ما يقدمه روتشيلد من دفعات القرض، لسداد قيمة القروض قصيرة الأجل الأكثر إلحاحاً[368]. وحدث تدخل آخر فى المراحل الأولى للمباحثات الخاصة بإقامة اللجنة الدولية للتصفية فى يوليو 1879 عندما أعلن آل روتشيلد بوضوح تام إمتناعهم عن دفع أى دفعات أخرى، ما لم يصدر إعلان صريح من لجنة التصفية أن أراضى الدومين لن تتعرض للاستيلاء[369]. ومن الواضح أن هدفهم من وراء تأكيد أن أحداً لن يستطيع استخدام المحاكم المصرية للمطالبة بادعاءات قانونية سابقة، سواء فى أراضى الدومين أو إيراداتها، وذلك فى ظل حرية التقاضى المتاحة للجميع مع إنشاء المحاكم المختلطة.

---

[367] Rivers Wilson, Chapters From My Official Life, 172 – 4.

[368] يبدو أن المسألة قد سويت بصدور حكم محكمة القاهرة الجزئية المختلطة فى أول أبريل، ولكن روتشيلد استمر فى تعليق دفعات القرض:

Lascelles to Salisbury, 4 Apr. 1879, PP (1878 – 9) 78, 90.

[369] M. M. Roth Scthschild, "Pro – Memorial", 22 July 1879. PP (1880), 89, 17.

وفى لقاء بارنج مع البارون روتشيلد، وافق بارنج على بذل مساعيه الحميدة لدى الحكومة المصرية؛ لحثها على تحويل الجزء المستحق لروتشيلد من إيرادات أراضى الدومين، إلى حساب خاص مؤقت يفتح لهذا القرض فى بنك إنجلترا Bank of England فى محاولة لدفع روتشيلد إلى متابعة سداد دفعات القرض، وهو ما فعله بعد وصوله إلى القاهرة ببضعة أيام، غير أن المسألة ظلت مستعصية على الحل كما سنرى، وما لبثت أن أصبحت مصدر إزعاج شديد، عندما بدا أن آل روتشيلد يحاولون التملص من تبعاتهم فى تلك الصفقة، وكانت هذه المرة الأولى – وإن لم تكن الأخيرة– التى يدخل فيها بارنج فى مواجهة مع أحد البنوك المناوئة لمصرف أسرته على مر التاريخ.

أما المفاوضات مع السلطات النمساوية فقد اتخذت طابع المقايضة؛ فقد أكد بارنج – فى مذكرة بتاريخ الأول من نوفمبر– أن ما يريدونه هو المشاركة مستقبلاً فى الإدارة المالية لمصر، وهو طلب يهدد – فى رأيه– الجهود المبذولة لإبقاء الألمان والطليان بعيدين عن الموضوع. والنتيجة ستكون إقامة نوع من "الحكومة الدولية"، وهى عبارة كثيراً ما أثارت قلق سولسبرى الذى كان يعتبر معارضة هذه الفكرة مسألة حياة أو موت. وبذلك لم يعد أمام الإنجليز والفرنسيين سوى المضى قدماً فى اتخاذ القرار عما إذا كانوا بحاجة إلى توسيع نطاق الرقابة الأوروبية على المالية المصرية، أم لا يجدون حاجة لذلك ؟ فإذا كانت الإجابة بالنفى كان على بارنج ودى بلنيير أن يتجها إلى القاهرة على الفور، أما إذا كان بالإيجاب، فإن عليها الاستمرار فى التفاوض مع النمساويين[370]. ومن الواضح أن بارنج كان يتوقع أن تأتى الإجابة بالنفى؛ حيث أبرق إلى سكرتير سولسبرى فى اليوم التالى يقول: "إذا كانت الحكومتان البريطانية والفرنسية على استعداد للإنسحاب من المحاكم المختلطة، وتأكيد الرقابة الثنائية تأييداً تاماً، وتضمن دعم الخديو ضد أى تدخل خطير من جانب الدول الأخرى، فليس هناك ما يدعو إلى عدم رفض مطالب النمساويين"[371].

ومع زيادة حرارة الموقف، كان بارنج شديد الرغبة أن يدفع قدماً بالحلول البسيطة الجسورة لمسألة إدارة مصر المالية التى وجدها حائرة بلا أمل فى إطار وضع دولى من الإلتزامات

---

[370] مذكرة عن إجتماع الماجور بارنج والبارون كاليس والبارون تشيفجل
Vienna, 1 November 1879, a copy can be founded in CP/2, FO 633/2.

[371] Baring to Currie, 2 Nov. 1879, CP/2, FO 633/2.

المتناقضة والصراعات المستمرة. غير أن المزيد من المشاورات الدبلوماسية قد يحقق النفع، كما حدث فى هذه الحالة على وجه الخصوص، عندما تحقق المباحثات فى فيينا هدفاً، طلب من بارنج ودى بلنيير متابعة التحرك للأمام، وترك النقاط الشائكة لسولسبرى ووادنجتون لإنهائها، مما كان له آثاره البعيدة المدى على موقف بارنج فيما يتعلق بلجنة التصفية، فأصبح يميل إلى الإعتقاد بأنه لو وقفت بريطانيا وفرنسا موقفاً حازماً من الدول الأخرى، فلن تكون هناك حاجة إلى مثل هذه اللجنة على الإطلاق، مع ترك الحكومة المصرية تدبر أمورها بنفسها.

وصل المراقبان الماليان إلى القاهرة أواخر نوفمبر، فجاء وصول بارنج فى العشرين ودى بلنيير فى السادس والعشرين، ووجد بارنج لنفسه مسكناً بشارع المغربى (عدلى الآن) الذى امتد من ميدان الأوبرا بجوار الأزبكية حتى ترعة الإسماعيلية[372]، وكان قريباً من الكنيسة الإنجليزية (التى أقيمت من حصيلة التبرعات الشخصية عام 1876، و تولى رئاستها بوتشر الذى ثارت حوله الشكوك)، وفندق شبرد، ومعظم القنصليات والوكالات السياسية الأوروبية، وما لبثت إيثل أن لحقت به، ولكن صحتها ما لبثت أن ساءت؛ مما جعل نورثبروك يلاحظ فى يناير 1880 أنه "كان يتمنى أن يكون هناك توافق بين المسز بارنج ومدينة القاهرة"[373]. ووجدت إيثل نفسها حاملاً مرة أخرى فى الربيع التالى، ويبدو أنها قد عادت إلى لندن لتكون بالقرب من طبيبها المعالج، وإن لم يكن هناك دليل على ذلك.

إقامة إدارة ثلاثية جديدة: رياض وبارنج ودى بلنيير

عند وصول بارنج ودى بلنيير إلى مصر، كانت هناك وزارة يرأسها رياض باشا تم تعيينها منذ شهرين، وقد لقى رياض انتقاد المصريين لمشاركته فى لجنة التحقيق حتى إضطر إلى مغادرة البلاد – بضغط من الخديو– إلى أوروبا فى أبريل، وعندما أحس أن رياحاً سياسية جديدة ستهب على مصر بعد رحيل إسماعيل عنها، عاد إلى مصر فى سبتمبر، وما لبث أن عهد إليه برئاسة الوزارة التى حصلت على تأكيد جديد من الخديو باستعداده لممارسة

[372] كان فم ترعة الإسماعيلية يبدأ من النيل عند موقع بداية شارع رمسيس الحالى، واتخذ مجراها نفس الشارع (الذى أقيم بعد ردم هذا الجزء من الترعة ونقل الفم إلى شبرا الخيمة)، وكان مجرى الترعة ينحرف شمالاً عند غمرة، ويعبر تحت الخط الحديدى حتى الأميرية ثم تتابع الترعة جريانها من هناك (المترجم).

[373] Northbrook to Baring, 16 Jan. 1880, CP/2, FO 633/2.

الحكم من خلال وزرائه، وبالإضافة إلى رئاسته لاجتماعات مجلس الوزارة فى حالة عدم حضور الخديو، إحتفظ لنفسه بنظارتين على درجة كبيرة من الأهمية هما المالية والداخلية.

وكان رياض مثل نوبار، على استعداد تام للتعاون مع نظام أوروبى للرقابة المالية لأسباب تتصل بالواقعية السياسية، ولرغبة فى أن تتوفر له السلطة الضرورية لإصلاح أحوال البلاد[374]. وكان يؤمن بنزاهة الحكم، ويمقت الكثير من الوسائل الدكتاتورية التى اتبعها إسماعيل لممارسة سلطته، بما فى ذلك إتجاهه إلى جمع الضرائب مقدماً من حين إلى آخر، كما كان رياض مسلماً تقياً نادراً ما تراه دون أن تكون سجادة الصلاة بصحبته، كما كان يسكن بيتاً قاهرياً متواضعاً[375]. وكان يؤمن أن الإسلام يتضمن وسائل إصلاح شأنه، وهى وجهة نظر دعمها إرتباطه بالناشط جمال الدين الأفغانى الذى استقدمه من إستانبول إلى مصر عام 1871.

وكان نشاط الأفغانى قد فعل الكثير لإزكاء روح المعارضة للرقابة الأوروبية عند الحركة (الوطنية) المصرية، بما فى ذلك استخدام الصحافة المحلية الوليدة لنشر الدعوة إلى الحاجة الماسة إلى إصلاح إسلامى، وإلى تأكيد الطابع الإسلامى للمجتمع. ولعل بارنج كان مصيباً عندما قال إن رياض إعتبر الرقابة الثنائية الأنجلو – فرنسية "شراً لابد منه"، وكان يتطلع إلى تحسين الأوضاع خلال ثلاث أو أربع سنوات حتى يستطيع التخلص منها إلى الأبد[376]. وغلب الإعتقاد نفسه على ولفرد بلنت Wilfrid Blunt الذى جاء إلى مصر عام 1880 لدراسة الإسلام، وما لبث أن عرف العديد من أعضاء النخبة المصرية[377].

وحدثت بعض الأمور المهمة فى صيف 1879، كان أحدها وصول فرمان تولية محمد توفيق باشا الخديوية من إستانبول فى أغسطس، وتضمن مراجعة بعض ما جاء بفرمان 1873 حول وضع مصر فى الدولة العثمانية، وجاء الكثير منها بضغط من بريطانيا

---

[374] Hunter, Egypt, 191 – 2.

[375] Bell, Khedives and Pashas, 124.

[376] Baring, "Memo. On the Present Situation of Affairs in Egypt" 30 Apr. 1880, enclosed in Malet to Salisbury, 5 May 1880, PRO, FO. 78/3142.

[377] Wilfrid Scawen Blunt, The Secret History of the British Occupation of Egypt, (New York, Alfred Knof 1922), 97 – 8.

وفرنسا. وفيما يتعلق بعمل المراقبة الثنائية تضمن الفرمان عدم أحقية الخديو فى التعاقد على المزيد من القروض، وألا يتجاوز عدد الجيش المصرى 18 ألف جندى زمن السلم[378].

والأمر الثانى يتمثل فى الحملة التى شنها الخديو توفيق، ونفذها رياض باشا ضد المعارضة للرقابة الأوروبية وللسلطة الخديوية التى تجاوزت الحدود. فتم نفى جمال الدين الأفغانى فى الصيف، وإنذار كل صحيفة توجه إنتقاداً ولو بسيطاً لسياسة الحكومة، ومارس رياض باشا توجيه الإنذارات بنفسه، وفى نوفمبر 1879 حظر صدور صحيفتين حظراً تاماً[379]. والأمر الثالث إصدار رياض – تنفيذاً لنصيحة المراقبين– أمراً بتنظيم واجبات المراقبين الماليين بطريقة قصد بها الحد من الإنتقادات الداخلية بالتأكيد على الطبيعة الاستشارية لمهمتهما، وأنهما لا يزاولان أى عمل إدارى[380].

وكانت نتيجة ذلك كله تمهيد الطريق أمام فترة من التعاون التام بين رياض والمراقبين الماليين الذين خصص لهما مكتبان بجوار مكتبه فى نظارة المالية، التى كانت بناء ضخماً شيد فى الأصل ليكون سراى حراملك إسماعيل باشا صديق المفتش، وكانت علاقة المراقبين بارنج ودى بلنيير على وفاق تام مع رياض[381]. ولكن ما غاب عن هذه الترتيبات، وقوفهما على مدى قوة الشعور المعادى للأوروبيين الذى كان موجوداً بين قطاعات عديدة من المجتمع المصرى، وبصفة خاصة بين ضباط الجيش المصرى الذين لم يصبح لهم مكان فى الجيش المصرى محدود العدد الذى رأى كل من رياض وبارنج ودى بلنيير أنه يكفى حاجة البلاد، ولم تعن تلك المسألة شيئاً عند بارنج الذى كان فى طريقه إلى ترك مصر للعمل بالهند يوليو 1880 قبل حدوث ما ينذر بما حدث فيما بعد. ولكنه كان مجبراً على مواجهة ذلك كله عند عودته إلى مصر فى سبتمبر عام 1883، بعد عام من الإحتلال

---

378 Cromer, Modern Egypt, i, 155 – 8.

379 Scholch, Egypt for the Egyptians, 107 – 8, 111 – 12; Lascelles to Salisbury, 31 Oct. 1879, PRO, FO 78/3004.

380 Moniteur Egyptien, 16 – 17 Nov. 1879, quoted in Scholch, 104.

381 Ronald Storrs, Orientation, (London; Nicholson & Watson, 1937), 19 – 20
الباشا كان إسماعيل صدقى، سيئ الصيت، وكان وزير المالية فى عهد الخديو، ومن المفترض أنه قتل بناء على أوامر من إسماعيل عام 1875
(وقد ترجم رءوف عباس هذا الكتاب بعنوان "توجهات بريطانية – شرقية"، ونشر ضمن المشروع القومى للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة 2005).

البريطانى للبلاد الذى جاء نتيجة انفجار المشاعر الشعبية المعادية للنفوذ الأوروبى فى 1881 و1882.

وقد وصف بارنج كيف عمل ثلاثتهم معاً فى مذكرة بتاريخ أبريل 1880، فوجود مكاتبهم بجوار بعضها البعض أتاح له هو ودى بلنيير الحديث مع رياض طوال اليوم. وحرصوا ثلاثتهم على لقاء الخديو بإنتظام رغم أنه لم يكن له دور فعلى فى إدارة الأمور، أضف إلى ذلك أن المراقبين كانت لهما ما أسماه بارنج "بالرؤية الموحية" فى مجلس النظار الذى كان لهما حق حضوره والإدلاء بآرائهما دون أن يكون لهما حق التصويت على القرارات، وتركا كل الأعمال التفصيلية المالية لموظفى نظارة المالية، ونادراً ما ظهر إسماهما فى أى مستند رسمى، ولكن لم تغادر أية ورقة ذات أهمية مقر النظارة دون أن يكون إعدادها قد تم تحت إشرافهما، كما لم يكن باستطاعة أى وزير أن يضيف شيئاً إلى موازنة نظارته دون موافقة مجلس النظار[382].

كانت تلك هى الظروف التى أتاحت لبارنج ودى بلنيير ممارسة عمل الرقابة "الحساس" دون أن يبدو فى موقع السيطرة على صنع القرار، ويؤكد بارنج أن هذه الطريقة قد نجحت؛ لأن الموظفين الكبار المصريين وثقوا بهما، وكانوا يتشاورون معهما حتى فى الأمور التى لم يشملها قرار تحديد إختصاصهما، ويرجع ذلك إلى أنهما أقنعا الوزراء بأنهما لا يمثلان مصالح أى جهة، وأن نصائحهما مبعثها الحرص على مصلحة البلاد. وفى الوقت الذى لم يسمحا فيه بالجور على الحقوق الأوروبية، رأيا أن وجهة النظر المصرية جديرة بالاستماع إليها عندما كانت التدخلات الأوروبية تتعارض مع حقوق مصر أو مع العدالة[383].

ولغة بارنج التى وصف بها ما أسماه "روح نظام المراقبة" هى لغة الصفوة الإدارية المعتدة بنفسها، إنها لغة حراس أفلاطون تتردد أصداؤها فى العصر الثانى للعولمة الحديثة على ألسنة الكثير من المستشارين الدوليين الذين يوفدون لمساعدة الدول غير الأوروبية على اجتياز أزمات مالية أخرى. ومازالت هناك الرغبة فى أن يجملوا من صورتهم أمام رؤسائهم، ويدعون صلاحية النهج الذى اتبعوه، وأنه كان السبيل الوحيد لإحراز النجاح فى المهام

[382] Baring, "Memo. On the Present Situation of Affairs in Egypt.
[383] Ibid.

المسندة إليهم. وهناك أيضاً نفس العمى الإختيارى وعدم الرغبة فى تقبل النقد، ونفس الاستعداد لإقامة نظام على أساس العلاقات الشخصية مع حفنة من الأفراد المحليين الذين لا غنى عنهم. وكما يتضح من العديد من الأمثلة التاريخية، ليست الأوضاع التى تنتمى إلى هذا النوع تتسم بالبساطة التى تخلع عليها إلا نادراً، وأندر من ذلك قدرتها على الاستمرار إلا لفترات قصيرة بمثل تلك الوسائل التى وصفها بارنج.

إدارة بلد مفلس: من المراقبة الثنائية إلى لجنة التصفية

بدأ بارنج عمله بحيويته المعتادة وقدراته العملية، وفى خلال الأيام التى سبقت وصول دى بلنيير، كان قد أعد تقريراً عن أسباب انخفاض العوائد الجمركية المحصلة بالإسكندرية، وبدأ وضع ما أسماه "برنامج العمل الحالى" الذى قدمه وزميله دى بلنيير إلى مجلس الوزراء فى أول اجتماع حضراه فى الأول من ديسمبر، وعكس البرنامج المقترح أهم معالم النظام المالى المصرى، والمشكلات التى تحتاج إلى معالجة ووضع أيضاً فكرتين أساسيتين: تذهب الفكرة الأولى إلى أن الجهود التى بذلت حتى الآن قدمت تناولاً جزئياً للمشاكل دون أن يتوصل إلى مبادئ ملزمة تقبل بها المحاكم المختلطة، ولذلك فإن الطريقة الباقية هى تشكيل لجنة التصفية بقانون خاص توافق عليه الدول التى تصرفت إزاء كل مظهر من مظاهر إفلاس مصر، لتحدد الإجراءات التى يجب اتخاذها حتى تسترد مالية البلاد عافيتها، والفكرة الثانية تذهب إلى أن لجنة التحقيق قد أرست بالفعل قواعد الحل التى يجب تفصيلها فى برنامج شامل للإصلاح، يقدم إما إلى اللجنة المقترحة "كنقطة إنطلاق" لعملها، أو يتم إصداره على الفور بناء على نصيحة المراقبين الماليين لوضع حد للإضطراب المالى، مع الحصول على موافقة الدول الأوروبية على الإلتزام به، وذلك فى حالة عدم تشكيل "لجنة التصفية"[384].

كانت تلك إستراتيجية جريئة، ذهبت – كما سنرى– عكس إتجاه الحرص الشديد فى التصرف الذى أخذ به سولسبرى، ويبدو أن تلك الإستراتيجية تعود إلى ما واجهه بارنج ودى بلنيير فى فيينا، التى أقنعتهما بأن عملية الحصول على موافقة الدول مقدماً قد تستغرق دهراً، وأن على بريطانيا وفرنسا أن تتصرفا بالشكل المناسب، وأن تضعا الدول أمام أمر

[384] توجد نسخة من هذا البرنامج مرفقة برسالة مالت إلى سولسبرى بتاريخ أول ديسمبر 1879.
PRO, FO 78/3005

واقع. وتضمنت الخطة نوعان من المقامرة: الأولى هو مطالبة حكومتيهما بإطلاق أيديهما والسير خلفهما، والثانية تتمثل فى المضى قدماً فى الإصلاح المالى، فتتحسن أحوال البلاد الإقتصادية، وترتفع قيمة سندات الدين المصرى، مما يؤدى إلى خفوت أصوات النقاد من الدائنين والجاليات الأوروبية القديمة بمصر على السواء، وقد حضا الخديو على دعوة مجلس النظار للإجتماع للنظر فى الموازنة، وهما يضمران فى أذهانهما تلك الأفكار.

وجاء قبول "برنامج العمل" من جانب الخديو ورياض والنظار ليمهد الطريق أمام بارنج ودى بلنيير لبذل نشاط مكثف من أجل الإعداد لموازنة العام القادم مستعينين فى ذلك بكم من الإجراءات التى اقترحتها لجنة التحقيق، أضف إلى ذلك مقترحاتهما الخاصة. وفيما يتعلق بتوصيات اللجنة الأولى فقد أنقصا الرقم المتوقع للإيرادات بمقدار نصف المليون جنيه، مع تخفيض المصروفات إلى نصفين متساويين تقريباً (4.323 جنيهاً للمصروفات الإدارية، و4.239 جنيهاً لسداد الديون)[385]، وقد استغرق النقاش والمساومة حول ذلك المشروع شهرى ديسمبر ويناير: وفى جانب الإيرادات قاما بالتخلص من الضرائب التى أسماها بارنج بالضرائب غير الجدية، مثل ضرائب الملح والجزية والمقابلة، وتقرر بدلاً منها ضريبة إضافية مقدارها 150 ألف جنيه على الأطيان العشورية، وفيما يتعلق بالمصروفات، حصلا على موافقة الخديو على إنقاص مخصصاته السنوية من 300 ألف جنيه التى أوصت بها لجنة التحقيق إلى 120 ألف جنيه[386]. وإقترحا أيضاً خفض أقساط الدين التى يتم تسديدها عن طريق خفض الفائدة على الدين الموحد إلى 4%، مما أثار المزيد من الخلافات.

ولما كانا يتحسبان للمستقبل، عمل بارنج ودى بلنيير على تكوين لجنة لدراسة كل المسائل المتصلة بضرائب الأطيان، ومظاهر التفرقة وعدم المساواة فيها، مع وضع القواعد الخاصة بمواعيد ووسائل جبايتها. وبمجرد طباعة تقرير اللجنة صدرت قرارات فى مارس تحدد مواعيد جباية الضرائب، وألغت عملية جباية الضرائب نوعاً التى كانت تتم بالصعيد، فتحولت إلى ضرائب نقدية. وعملا على إقامة إدارة خاصة بالحكومة على رأسها رياض باشا نفسه، لتبدأ

---

[385] Baring to Salisbury, 21 Jan. 1880, CP/2, FO 633/2; Modern Egypt, i, 168.

[386] Ibid, 168 – 9.

العمل على إعداد قانون التصفية المقترح إذا فشلت الجهود التى تبذل لإقامة لجنة دولية للتصفية، على أن يقدم القانون للدول منفردة لتتولى التصديق عليه[387].

كان حجم العمل هائلاً، حتى إن إيفلن بارنج شكا ثقل الأعباء، فطلب تعيين مساعد لدى بلنيير عندما اضطر الأخير إلى السفر إلى فرنسا فى 29 ديسمبر لزيارة أمه المحتضرة[388]، وكانت عملية التفتيش – على ما يبدو– تستغرق وقتاً طويلاً منهما لمتابعة سير العمل بنظارة المالية، فكان وقت الراحة محدوداً، وكذلك كان مجال الحياة الإجتماعية، فيما عدا حضور الحفلات الرسمية مثل حفل العشاء الذى أقامه الخديو ترحيباً بإدوارد مالت – القنصل البريطانى الجديد– فى 14 ديسمبر الذى جلس فيه بارنج فى مقعد بجوار رياض، قبالة الخديو وضيف الشرف.

ومن وجهة النظر البريطانية، كان المراقبان البريطانيان لنظام المراقبة الثنائية الجديد هما مالت وبارنج نفسه، وكتب مالت إلى والديه فى 2 يناير أن بارنج عملاق فى عمله[389]، وبعد ذلك بعشرة أيام: "أرى بارنج يومياً الآن حتى أحس أن لى يد فى التصفية، تتقطع أنفاسى وأنا أستمع إليه فى حديثه عن العمليات المالية – بالغة التعقيد– بسهولة ويسر"[390].

وليس لدينا سوى شهادة بارنج ومالت حول مدى النجاح الذى حققته الشراكة بين رياض وبارنج ودى بلنيير، وقراءة مراسلاتهما تجعلك تخرج بانطباع أن رياضاً كان يسعده أن يترك زمام قيادة الأمور لبارنج فى المسائل التى يرى فيها حرجاً سياسياً بالنسبة له، مثل قرار إلغاء المقابلة، كما أن وصف العلاقة بين بارنج ودى بلنيير يأتى من جانب واحد، فقد كتب بارنج فى 30 نوفمبر أن زميله كان توفيقياً عندما وافق على ما يعد – من وجهة النظر الفرنسية– من قبل التنازلات، فيما يتعلق بخفض فائدة الدين الموحد إلى 4%[391]. ولما كنا لا نعرف وجهة نظر دى بلنيير لا ندرى ما إذا كان موقف الأخير مبعثه الصفقات المتبادلة بين الطرفين، فيقدم لبارنج تنازلات معينة مقابل حصوله على تنازلات منه فى المقابل، ولكن

387 Malet to Salisbury, 14 and 15 Jan. 1880, PRO, FO 78/3140.

388 Malet to Salisbury, 29 Dec. 1879, PRO, FO 78/3004.

389 Malet, Egypt 1879 – 1883, 49.

390 Ibid, 50.

391 Baring, Memorandum, 30 Nov. 1879, enclosed in Malet to Salisbury, 2 Dec. 1879, PRO, FO 78/3005.

يتضح من رسائله – التى نشرتها وزارة الخارجية الفرنسية فيما بعد– أن دى بلنيير شارك زميله البريطانى الإحساس بأهمية التوصل إلى حل سريع للأزمة المالية المصرية عن طريق لجنة التصفية أو بدونها[392].

وجاءت البداية السريعة لعملية الإصلاح مفاجئة للكثيرين، بما فيهم اللورد سولسبرى نفسه، وقد أرسل وزير الخارجية برقية تحذيرية أولى فى 6 يناير 1880 تحفظ فيها على إصدار أى قرار مالى "فى الوقت الراهن" ناصحاً بأن يتم اتخاذ موقف مؤقت لحين حلول موعد انتهاء ولاية المحاكم المختلطة[393]. وجاء رد بارنج فى نفس اليوم واضحاً، ولكنه يتخذ موقف الدفاع عنه، فذكر أن برقية وزير الخارجية قد وضعته فى موقف لا يحسد عليه، فقد فهم عندما جاء إلى مصر أنه فى حالة تأجيل الجهود المبذولة لإقامة لجنة التصفية، فإن على الخديو أن يضع خطة بديلة خاصة به، وقد تم ذلك على شكل اقتراح للتنظيم العام للأوضاع الحالية التى تم نشرها فى ديسمبر، وأرسلت منها نسخة إلى لندن، والآن يشعر بارنج أن سولسبرى لا يؤيد إصدار الحكومة المصرية لقرار مالى، كما لا يقبل خطة التصفية المقترحة من المراقبين الماليين، ويبدو أنه يرى أن يحتفظ المراقبان بالخطة لنفسيهما ولاستخدامهما وحدهما، وأن يتم تسديد أقساط الدين وفقاً بها، ولا يقدمان على عمل نهائى حاسم حتى تجتمع الدول الموقعة على اتفاقية المحاكم المختلطة فى مؤتمر لمراجعة الأمر دولياً عند نهاية فترة السنوات الخمس الأولى لولايتها، أى فى عام 1881.

واعترض بارنج على مقولة "المعالجة المؤقتة" أنها أصبحت مستحيلة، فإن على المراقبين أن يصدقا على مشروع الخديو حتى يحصل على الموافقة الدولية، وأن نفوذهما الأدبى مستمد من كونهما يقدمان النصح فقط وبأمانة على ظن أنهما يخدمان مصالح مصر. ثم وضع بارنج ما يعد تحذيراً فى جملة قال فيها: "لما كانت الدول لا توافق أن تضع الحكومة المصرية قانوناً خاصاً بها طالبة موافقتهم عليه". وختم رسالته بالقول إن الخط الذى اتبعه

[392] e. g. de Blignieres to Baron de Ring (The French Consul – general) 5 Dec. 1880, Ministere des Affaires Etrangeres, Affaires Etrangeres:, Documents Diplomatiques, Affaires d'Egypte, 1880 – 1881 (Paris: Imprimerie nationale, 1881) 21 – 2.

[393] Quoted in Baring, "Confidential Observation on Lord Salisbury's tg of Jan, 6th, 1880, CP/2, FO 633/2.

المراقبان لن يقود إلى "نتائج مزعجة" قد يخشاها سولسبرى، وخاصة أن الدائنين أنهكهم التعب وسوف يقبلون بمقترحات المراقبين بإعتبارها مخرجاً من المأزق[394].

وظل هناك نوع من الترقب خلال الأسابيع التالية حاول فيه بارنج تأكيد أن الأمور على ما يرام، بينما كان سولسبرى راقداً بمنزله يعانى من مرض الكلى، باذلاً أقصى الجهد للدعوة إلى الحذر. واستغل بارنج مراسلاته لإقناع وزير الخارجية بأن تشكيل لجنة التصفية "غير مجد" من الناحية الإيجابية، على أساس أن الدول سوف تقضى على كل عمل جيد تم إنجازه.

وكتب فى 23 يناير، أنه كان دائماً يرى تلك اللجنة شراً، بينما كان ينظر إليها فى لندن على أنها ضرورية، والآن هناك فرصة فى مصر لتسوية الأمور كلها دون إدخال "غرباء" فى الموضوع[395]. ولكن سولسبرى لم يتأثر بذلك؛ فقد كان ينظر إلى المصالح البريطانية من منظور أوسع، وكان يرى أن السبيل الوحيد لدعم الوضع الأنجلو – فرنسى فى مصر دون تدخل من جانب الدول الأخرى هو بإصدار قانون التصفية الذى توافق عليه جميع الدول كضمان ضد تدخل المحاكم المختلطة لنسخ إحدى مواده، وأن ذلك يتطلب – بالتالى– تعيين لجنة دولية لوضع قانون التصفية.

وبعد ذلك بعدة سنوات، إمتدح بارنج سولسبرى لقدرته الفريدة على تقدير مدى ترابط المصالح البريطانية حول العالم[396]، غير أنه فى تلك اللحظة كان معنياً فقط بسمعته الخاصة فيما يتعلق بتطوره الوظيفى وقدرته على نصح الحكومة المصرية بالطريقة التى يراها ملائمة، ومن الممكن أن يكون عزوفه عن إتخاذ "مواقف مؤقتة"، وبقائه يرقب بصبر تجميع أجزاء المتاهة الدولية المتناثرة لتلتحم معاً، هو رغبته فى أن ينهى مهمته فى مصر على وجه السرعة حتى يعود إلى لندن ويستقر مع إيثل هناك بصفة دائمة.

كان بارنج ما يزال يجادل حول الحاجة إلى لجنة تصفية فى رسالة كتبها فى 16 فبراير، وعندئذ كان يعلم أن القضية قد أصبحت خاسرة أو تقترب من ذلك؛ لأنه بدأ يقدم مقترحاته

---

[394] Ibid.

[395] Baring to Salisbury, 23 Jan 1880, CP/2, FO 633/2.

[396] e. g. Maurice Baring, The Puppet Show of Memory (London: Cassell 1987), 178.

حول طريقة تشكيل اللجنة وصلاحياتها، من بينها ألا يكون المراقبان من أعضائها حتى تتاح لهما الفرصة للدفاع عن مصالح الحكومة المصرية التى ستكون – تبعاً له– "غير قادرة على ذلك"، واقتراح آخر ناتج عن حلول وسطية اقترحها سولسبرى، وهو أن يكون من حق الحكومة المصرية تقدير المبالغ اللازمة لمصروفاتها الإدارية.

حققت المفاوضات مع الدول تقدماً أسرع مما كان يظن بارنج ودى بلنيير، وتم استكمالها فى أواخر مارس، قبل أسابيع من سقوط وزارة المحافظين ومعها سولسبرى بعد هزيمتهم فى الإنتخابات العامة، وتقرر أن تضم اللجنة عضوين من كل من بريطانيا وفرنسا وعضواً واحداً من النمسا وألمانيا وإيطاليا ومصر، وقد تم اختيار ريفرز ولسون رئيساً للجنة، رغم أن بارنج كانت لديه اعتراضاته على ذلك الإختيار، بحجة أن تحالف ولسون مع نوبار باشا قد يؤدى إلى الإضرار بوزارة رياض باشا، وعين بطرس غالى السكرتير العام لنظارة الحقانية ممثلاً للحكومة المصرية باللجنة.

ولم يحقق نزاع بارنج مع سولسبرى النجاح؛ لأنه ارتبط بنزاع آخر مرير مع آل روتشيلد الذين لم يستأنفوا سداد أقساط القرض رغم الحل الوسط الذى تم التوصل إليه فى مباحثات بارنج والبارون إدمون؛ ففى خطاب كتبه بارنج إلى البارون فى 2 ديسمبر عبر عن شعوره بأن البارون قد خذله فى هذا الموضوع[397]، وقد كان السبب فى تأجيل سداد الأقساط إنتظاراً لليونان التى دخلت فى مفاوضات صعبة حول الإتفاقية الدولية الخاصة بنوفمبر التى أسقطت جميع الدعاوى ضد أراضى الدومين بعد تاريخ انتقال تلك الأراضى إلى الإدارة الجديدة فى 1878.

وحتى عندما تم تحقيق ذلك فى أواخر ديسمبر ظهرت مشكلات جديدة، منها نوع الضرائب التى يجب فرضها أو جبايتها من أراضى الدومين، وهو موضوع زاد من تعقيده إلغاء المقابلة التى تم سدادها عن بعض أراضيها لدومين دون غيرها، وكذلك زيادة الضرائب على الأطيان العشورية التى انطبقت على بعض أراضى الدومين أيضاً[398].

---

[397] Baring to Baron de Rothschild, 2 Dec. 1879, CP/2, FO 633/2.
[398] Note by Baring enclosed in Malet to Salisbury, 19 Jan. 1880, PRO, FO 78/3140.

ثم ترتب على ذلك سؤال أكثر تعقيداً حول ما إذا كان تعديل الضرائب على هذا النحو يؤثر فى قيمة الأطيان ذاتها، أضف إلى ذلك ممارسة كل طرف ضغوطاً على الطرف الآخر، ومن ثم أمر روتشيلد إدارة الدومين ألا تسدد للحكومة إلا قدراً أقل مما تطلبه من ضرائب، ورد رياض على ذلك بتحويل الضرائب التى يتم جمعها سداداً لأقساط القرض إلى الحساب المؤقت ببنك إنجلترا وليس إلى روتشيلد مباشرة[399].

وفى الوقت نفسه جرت مفاوضات لتسوية الخلافات بين روتشيلد من ناحية وبارنج ودى بلنيير من ناحية أخرى، وقد اعترض رياض على ما تم الإتفاق عليه بإعتباره يمس مبدأ عدم تأييد محاولة روتشيلد غير العادلة ليحظى بنصيب أكبر من الدين المصرى، ولم يتم تسوية المسألة نهائياً إلا فى أبريل 1880؛ حيث تم توقيع إتفاق تكميلى بين روتشيلد والحكومة المصرية تعهد فيه الطرف الأول بسداد أقساط القرض مقابل إفراج الحكومة المصرية عن المبالغ المودعة بالحساب الخاص ببنك إنجلترا لصالح روتشيلد[400].

ولا شك أن بارنج شعر بالمرارة إزاء المسألة كلها؛ فالأموال التى تأتى من قرض روتشيلد كانت مطلوبة بإلحاح لمواجهة إلتزامات مهمة، وأدى التأخر فى تحويل أقساط القرض إلى زيادة صعوبة معالجة قضية الديون، وقد بذل بارنج أقصى جهده للتوصل إلى تسوية مرضية، وعندما فشل فى ذلك استنتج أن نفوذه الشخصى فى الحكومة المصرية قد تأثر[401]. كما أحس أن سولسبرى قد خذله عندما وقف إلى جانب روتشيلد فى مسألة ضد مصلحة كل الأطراف الأخرى بما فى ذلك الحكومة البريطانية ذاتها[402]. على نحو ما جاء بخطاب شخصى أرسله إلى جوشن فى مارس.

ومرة أخرى هدد بارنج بالاستقالة، وإن كنا نشك أن ذلك جاء مناورة لدفع روتشيلد إلى تليين موقفه على نحو ما يذكر مارلو[403]. فيما يتصل مباشرة بهذه المسألة هو سعيه لمتابعة

---

399 enclosed in Malet to Salisbury, 2 Mar. and Salisbury to Malet, 10 Mar. 1880, PRO, FO 78/3141.
400 Malet to Salisbury, 14 Apr. 1880,PRO FO 78/3142.
401 Malet to Salisbury, 2 Dec. 1879, PRO, FO 78/3005.
402 Baring to Goschen, 19 March 1880, CP/2, FO 633/2.
403 Marlowe, Cromer in Egypt, 48.

الضغط على الممولين قبل التهديد بأنه فى حالة عدم التوصل مع المراقبين إلى تسوية، فإنهما سيلجآن إلى المحاكم المختلطة لرفع قضية ضد روتشيلد من الممكن كسبها[404].

ولا ريب أن هذا التهديد الأخير، والرغبة فى التوصل إلى حل قبل وصول لجنة التصفية كان السبب الرئيسى وراء التوصل إلى اتفاق روتشيلد والحكومة المصرية وتحسنت العلاقات بين بارنج وروتشيلد عندما كتب إليه ألفونس دى روتشيلد عن رغبة البنك فى إقامة علاقة ودية مع الحكومة المصرية، ويعلن عن رغبته فى بيع أو تأجير أراضى الدومين بقدر الإمكان[405]. فقد نتج عن زيادة ثقة المستثمرين فى الإقتصاد المصرى، وإنشاء بنك عقارى فرنسى فى مصر (البنك العقارى المصرى) إلى ارتفاع أسعار الأراضى الزراعية، مما جعل أراضى الدومين سلعة رائجة، وهنا احتاج كل طرف للآخر: بارنج لاستعادة عافية المالية المصرية، وروتشيلد لتنمية أصوله وتمهيد الطريق أمام الاستثمار الأجنبى فى مصر.

التصفية أخيراً

تمت إقامة لجنة التصفية بقرار من الحكومة المصرية صدر فى 31 مارس 1880 بعدما وافق عليها قناصل الدول الست الكبرى بالقاهرة: بريطانيا، وفرنسا، وألمانيا، والنمسا، وإيطاليا، وروسيا. وإلى جانب ريفرز ولسون رئيس اللجنة، تشكلت من المفوضين الأربعة بصندوق الدين العام، القنصل الألمانى العام، بطرس غالى، ورجل فرنسى آخر قام بأعمال سكرتارية اللجنة، وقد بدأت العمل آخر أبريل بالإنقسام إلى قسمين يتولى أحدهما فحص ما يتعلق بالإيرادات، بينما يتولى الآخر ما يتصل بالمصروفات.

وليس غريباً أن تحدث خلافات فورية بين اللجنة والمراقبين الماليين؛ فمن المعروف أن بارنج ودى بلنيير لم يرغبا فى تشكيل اللجنة أصلاً، كما كان من الواضح أنهما أرادا إحباط عملها عن طريق مدها بمعلومات عن الأمر الواقع تؤثر على ملامح التسوية النهائية التى قد تتوصل إليها اللجنة، مثل الحد المقبول للمصروفات الحكومية ومعدل فائدة الدين الموحد.

[404] e. g. Malet to Salisbury, 10 Mar. 1880, PRO, FO 78/3141.
[405] Alphonse de Rothschild to Baring, 25 May 1880, CP/2, FO 633/2.

وعلى رأس ذلك كله، جاء عدم ثقة بارنج فى ريفرز ولسون، وكذلك معارضته ودى بلنيير لسياسة حكومتيهما إذا ما تناقضت مع ما يريان فيه مصلحة مصر.

وجاءت دلالات المشكلات فى 27 أبريل، عندما تلقت اللجنة من الحكومة المصرية – بناء على نصيحة المراقبين– ما يفيد أنه لا بد من إصدار قرار بتحديد سعر الفائدة التى تسدد على كوبون مايو بـ 4% وحرصاً من اللجنة على كسب الوقت، ردت بأن الوقت مبكر لإتخاذ قرار من جانبها، ومن ثم على الحكومة المصرية أن تؤدى واجبها[406]، وعلى كل هناك اتفاق تام مدهش حول معدل الإيرادات والمصروفات الحكومية؛ حيث قبلت اللجنة بالتقديرات المنخفضة للإيرادات والتقديرات المرتفعة للمصروفات التى جاءت بمشروع موازنة 1880 الذى وضعه المراقبان الماليان، ويتضمن القبول بمعدل فائدة على الدين الموحد قدره 4%. ولا شك أن بارنج كان سعيداً بما استطاع تحقيقه حتى الآن.

وجاء الصدام الأساسى عندما بدأت اللجنة فحص مسألة التصرف فيما قد حققته الحكومة من زيادة فى الإيرادات مستقبلاً. فقد ذهب رياض باشا – بتأييد من المراقبين– إلى ضرورة احتفاظ الحكومة المصرية بتلك الزيادة كلها حتى تستطيع دفع عجلة تنمية اقتصاد البلاد إلى الأمام. بينما كان ريفرز ولسون يرى استخدام مثل هذه الزيادة لسداد جانب من الدين وخفض قيمته[407]. وتلا ذلك بضعة أسابيع من المناقشات الحادة؛ حيث ذهب رياض – بتشجيع من المراقبين– إلى القول بعدم قبوله أى قرار لا يستطيع عرضه على مجلس الوزراء، وقال بارنج – فى الوقت نفسه– لمالت إنه فى حالة استمرار الضغط على رياض باشا، فقد يجد نفسه مدفوعاً للاستقالة[408].

وفى النهاية، تم التوصل إلى ترضية معقدة تقرر بموجبها أن أية زيادة فى الإيرادات المخصصة لسداد الدين تذهب إلى هذا الغرض لتخفيض الدين، بينما أية زيادة فى مصادر الإيرادات الأخرى يجب عرضها أولاً على صندوق الدين ثم تقدم للحكومة المصرية للتصرف فيها، وبمجرد إزاحة هذه المشكلات عن الطريق شرعت اللجنة – على الفور– فى العمل

[406] Malet to Salisbury, 27 Apr. 1880, PRO, FO 78/3142.
[407] Malet to Granville, 19 May 1880, PRO, FO 78/3042.
[408] Malet To Granville, 19, 25, and 26 May 1880, PRO, FO 78/3142.

على وجه السرعة لإعداد قانون التصفية الذى يتناول مختلف الأمور الرئيسية المتصلة بإفلاس مصر، وصولاً إلى التسوية النهائية للديون. وما لبثت التسوية أن صدرت بقرار مصرى فى 17 يوليو 1880.

وفى الوقت نفسه، كان بارنج يعد العدة للرحيل، ليقينه أنه بمجرد صدور قانون التسوية، يصبح حراً فى العودة إلى إنجلترا، ومن مظاهر ذلك إعداده "مذكرة عن الأحوال الراهنة فى مصر" المؤرخة 30 أبريل 1880، ومن الواضح أن لذلك التاريخ صلة ببداية عمل لجنة التصفية، وربما كان الغرض منها لفت أنظار أعضاء مجلس وزراء جلادستون الذين شكلوا الوزارة قبل بضعة أيام، وقد ذكرنا من قبل بعض ما جاء بتلك المذكرة، وخاصة تلك الصورة الوردية لعلاقة العمل التى قال بارنج إنه نجح فى تحقيقها بينه وبين دى بلنيير ورياض باشا[409].

وقد تضمنت باقى المذكرة تفاصيل ما تم تحقيقه واحتمالات المستقبل، وهناك نبرة واثقة وإعتداد بالذات تتصل بالإصلاح المالى ذاته، والروح التى تم بها تنفيذه. كان المراقبان الماليان يهتمان بالمبتكرات العملية وليس بالسعى لتغيير النظام كله، وكان هدفهما التخلص من سوء الأداء، وإحداث نوع من التنسيق بين الممارسات واللوائح القائمة، ولتحقيق هذه الغاية تم تبسيط ضرائب الأطيان وخفضهما، وجعلها أكثر تقبلاً، وتم – فى الوقت نفسه– التخلص من ثلاثين ضريبة تافهة. ويكتب بارنج فى إحدى الفقرات واصفاً الأيام السيئة القديمة، بأنها كانت "مظاهر الحياة لا تكاد تتوفر لمن ليس له مهنة أو وظيفة مهما كانت متواضعة، فلا طعام ولا أسرة أو أى من مظاهر الحياة التى يمارسها الفقراء دون أن يكون عليهم أداء ضريبة عنها"[410].

بالإضافة إلى ذلك، لم يتم إعداد موازنة مالية منتظمة عند بداية كل سنة ضريبية، بل كان يتم فتح حساب بأحد البنوك تودع فيه مبالغ لموازنة أى مصروفات طارئة، وكانت كل القوانين تنشر بجريدة الوقائع المصرية باعتبارها الجريدة الرسمية، وكانت النتائج متاحة لاطلاع الجميع: قيمة سندات الدين العام أخذت فى الإرتفاع، إنخفضت معدلات الفوائد

---

[409] انظر ما ورد بهذا الفصل عن ذلك.
[410] Ibid.

على القروض الخاصة، وزادت قيمة الملكيات الخاصة، وبدأ رأس المال الأجنبى يتدفق على البلاد، وختم بارنج ذلك بالقول بأن المعارضة تأتى عادة من أولئك الذين أثر الإصلاح تأثيراً سلبياً على مصالحهم، ولكنه كان واثقاً من غلبة "الرضى" على موقف البلاد[411].

ورؤية بارنج للمستقبل لا تخلو من الأهمية أيضاً على ضوء مفاهيمه عندئذ، وما أصبحنا نعرفه عن ذلك الشعور بالقلق الذى كان يخفيه ذلك الهدوء الظاهرى عند وزارة رياض. ويرى بارنج أنه لابد من مرور زمن طويل قبل أن يكون إنشاء جمعية تشريعية فى مصر ممكناً. وأن الحكومة كانت وستظل "شخصية محضة"، ولذلك يظل استمرار الإصلاح مرهوناً بوجود مصلحين من أمثال رياض ونوبار على رأس الحكومة، ولكن إذا نجح حزب "الردة" بزعامة شريف بإقناع الخديو بإعادتهم إلى الحكم، فسوف يتم التخلى عن جميع الأعمال الحسنة. وتغرق البلاد فى الفوضى، وسوف يؤدى ذلك – عاجلاً أم آجلاً–0، إلى المزيد من التدخل المباشر من جانب الدول الأوروبية.

وإذا كان الكثير من ذلك يبدو مألوفاً؛ لأنه يعود إلى الاستجابة الأوروبية فى منتصف القرن التاسع عشر لحاجة البلاد غير الأوروبية للإقتراض التى أنتجت مصطلحاتها الخاصة بها، وتبريراتها لما يمكن أن نسميه اليوم "السوق الحرة" وإصلاحاتها التى يتم إنجازها من بين أنياب مقاومة محلية قوية، على يد حفنة من السياسيين المحليين يطلق عليهم مستشاروهم الأوروبيون لقب "حزب المصلحين" وفى حالة بارنج، كان لهؤلاء أفكار متميزة رغم أنها مستمدة من تجربة محدودة تماماً، ولكنها تلقى التشجيع – على نحو ما رأينا– فى حالة رياض باشا. ولعل بارنج – شأنه شأن غيره من الخبراء الأجانب– ظن أنه يراقب الأمور من الخارج بموضوعية. غير أن المستشارين الأجانب من أمثاله لا مفر من تورطهم فى صراع المصالح المحلية مع بعضها البعض، فيتم استخدامهم – فى نهاية الأمر– من جانب أولئك الذين كانوا يظنون أن بوسعهم استخدامهم لخدمة مصالحهم، على عكس المحليين المتعاونين معهم، ولكن باستطاعتهم – على أية حال– المغادرة إذا ساءت الأحوال أو تم استدعاء الجيش أو الأسطول كما جرت العادة فى القرن التاسع عشر.

---

[411] Ibid.

وثمة فكرة نهائية تتصل بمسألة الإغفال واللوم، فحتى أبريل ومايو 1880، كانت هناك شواهد على أن الأمور لن تجرى على هوى رياض والمراقبين الماليين؛ إذ يبدو أن الأخيرين كانا لا يريان السخط الذى سببه استخدام الكثير من الأوروبيين فى الحكومة برواتب كبيرة أضافت أعباء على الموازنة المالية، ويقدرها أحد المعاصرين بما قيمته 4.5% من إجمالى الإيرادات عام 1881[412]. وهناك مثال آخر يقدمه بارنج فى رده على مقال كتبه مجهول بإسم "مراسل غير دورى" بجريدة التايمز ذهب فيه إلى أنه من أجل إرضاء الدائنين فى مصر، هبطت موازنة العام 1880 بالمصروفات إلى أدنى حد، فبلغ الإنفاق العسكرى 430 ألف جنيه بدلاً من 800 ألف إلى مليون جنيه أيام إسماعيل، إلى جانب التقتير فى الإنفاق على التعليم والأشغال العمومية، فرد بارنج بأن الإنفاق العسكرى زاد أربعين ألفاً عن العام السابق، وأن من وجهة نظره تقتصر مهام الجيش والبحرية على الأغراض الدفاعية وحدها[413].

وربما كان موقف بارنج مقبولاً من وجهة نظر الإدارة المالية السليمة، ولكنه كان يهدد الاستقرار المحلى؛ لأن جماعة الضباط المصريين كانت لا تزال تمثل قوة سياسية وإدعى بارنج فى كتابه "مصر الحديثة" (فيما بعد) أنه كان على دراية بمشكلة الضباط المصريين منذ ديسمبر 1880، وعندما مر بالقاهرة فى طريقه إلى الهند حذر رياض باشا من أن النظام قد اضطرب فى الجيش نتيجة حوادث فبراير 1879، ودعاه إلى معالجة أى متاعب يشكو منها الجيش، وأن رياضاً أخبره أن تلك المخاوف لا ضرورة لها[414]. ونظراً لأن هذا التحذير لم يرد ذكره إلا بعدما قام أولئك الضباط بإسقاط وزارة رياض فى سبتمبر 1881، كما لعبوا دوراً أساسياً فى الأحداث السابقة على الإحتلال البريطانى، فيجب أن نأخذه بحذر.

ويبدو واضحاً أن ما أثار حلق بارنج ومالت ورياض فى أوائل صيف 1880 هو وصفه مالت بالعداء الشديد للجنة التصفية من جانب الباشاوات من غير أعضاء الوزارة الذين كانوا يضمنون إلى جانب من أسماهم بارنج "حزب الردة" نوبار أيضاً؛ فقد إتخذوا – على حد قوله– من إلغاء المقابلة "فرس رهان" وطالبوا بالحكم الدستورى، وتبع ذلك تقديم عرائض كان

412 J. C. McCoon, The Egyptian Problem (London, 1884), 21.
413 Enclousure in Malet to Salisbury, 16 Feb. 1880, PRO, FO 78/3141.
414 Cromer, Modern Egypt, i, 173 – 4.

أحدها – على ما يبدو – من ضباط الجيش، ولكن مالت (وكذلك بارنج ورياض فى اعتقادنا) كانوا يعتبرون أن كل هذه الأنشطة ليست سوى من عمل "الموتورين" الذين لا يريدون أن يجنى رياض[415] ثمار ما جلبته الأزمة إلى مصر، وما لبث مالت أن أبدى إرتياحه عندما أخذه رياض أن الأمور موضع سيطرته، وأنه وجه إنذاراً إلى الثمانية والأربعين من الباشاوات الموقعين على العريضة بأنهم قد يوضعون تحت رقابة البوليس[416]. غير أن الشعور الشعبى المعادى للأجانب، وإحساس الضباط المصريين بالظلم الناجم عن خضوعهم لقيادات من الضباط الأتراك – الجراكسة، ظل ذلك كله بعيداً عن إدراك رياض لخطورته.

الهند مرة أخرى، ليس لندن

بحلول مايو 1880 كان بارنج يمتع ناظريه بنظراته الأخيرة إلى القاهرة. فقد حقق انتصارات مهمة فى صراعه مع ريفرز ولسون ولجنة التصفية، وفى لندن أصبحت هناك حكومة الأحرار التى ضمت نورثبروك والكثير من الأصدقاء والزملاء السابقين، وكان باستطاعته أيضاً أن ينال إجازة صيف طويلة فى لندن مع مولد طفله الجديد سواء استقال من خدمة الحكومة المصرية أم بقى فى منصبه، وهناك كلمات تنم عن الإرتياح والطمأنينة كتبها إلى ليال فى مايو، جاء فيها:

> "لم أعد أشعر بالأسف لتركى النشاط البرلمانى؛ لأن عملى هنا يبدو ممتعاً.. فالأمور تسير على ما يرام هنا.. ولكن النظام يبدو مختلفاً، وإذا تعلم أهالى البلاد كيف يسيرون وحدهم (دون مساعدة) ستتحسن الأمور، والآن أتولى والرجل الفرنسى إدارة البلاد مع الإبقاء على مظهر الإدارة الذاتية"[417].

ولكن تغييراً كان يلوح فى الأفق: ففى 19 – 20 مايو ذهب بارنج فى صحبة مالت لإصطحاب الماركيز ريبون Marquess of Ripon نائب الملك الجديد بالهند من الإسكندرية

[415] Malet to Granville, 25 May 1880, PRO, FO 78/3142.
[416] Scholch, Egypt For the Egyptians ! 128 – 30.
[417] Baring to Lyall, 8 May 1880, LP. MS Eur. F 132/39.

إلى القاهرة فى العربة الخديوية الملحقة بقطار بريد الهند[418]. وكان الشك يساور بارنج فى ذلك الرجل الذى اعتنق حديثاً كاثوليكية العصور الوسطى[419]. ولكنه أبدى عدم ارتياحه للكولونيل تشارلز جوردون السكرتير الخاص لنائب الملك، فوصفه فى خطاب لنوثربروك بأنه "متغطرس يستخدم عبارات نابية غبية، ويبالغ فى أهمية وظيفته ووضعه"[420]. وذكر – بعد ذلك– أن الماركيز ريبون قد اختار جوردون ليحمى نفسه من هجوم حزب الكنيسة فى بريطانيا[421]، ولكن ذلك حدث بعد فترة من استقالة جوردون بمجرد وصول نائب الملك وحاشيته إلى الهند.

ولا ندرى ما إذا كان الماركيز ريبون قد انتهز الفرصة ليعرض على بارنج أن يكون العضو المالى فى مجلس نائب الملك، على كل قدم العرض بعد ما يزيد على أربعة أسابيع، وأعلن فى مصر 16 يونيو 1880، وتلتزم "الملاحظات" الصمت إزاء ظروف قبول بارنج للوظيفة؛ إذ يبدو ذلك غريباً على ما قاله بشأن خططه ومستقبله فى السياسة البريطانية. ولا شك أنه تعرض لضغوط شديدة من أولئك الذين كان يهمهم تأييد ريبون فى مهمته فى مواجهة أغلبية معارضة بمجلس نائب الملك، ولعل بارنج رأى فيها حلاً لمشكلة التحول إلى نائب بالبرلمان دون راتب، فلم تكن الرواتب فى الهند أعلا كثيراً منها فى إنجلترا فحسب، بل إن الإنضمام إلى مجلس نائب الملك للعمل مع رجل من الأحرار فى عهد وزارة الأحرار قد يفسح أمامه الطريق لتولى الوزارة عندما يصل الأحرار إلى الحكم مرة أخرى. وأخيراً، ربما كانت هناك بقايا عنصر المنافسة مع أحد عناصر إدارة ليتون السير جون ستراشى Strachey الذى كان خصماً قديماً لبارنج، والذى كان أداؤه المالى موضع مساءلة نتيجة اكتشاف سوء تقدير تكاليف حرب الأفغان[422]. والشرط الوحيد الذى وضعه بارنج هو ألا يتوجه إلى الهند

---

[418] Malet to Granville, 26 May 1880, PRO, FO 78/3142.

[419] Baring to Lyall, 7 Sept. 1880, LP. MS Eur. F 132/39.

[420] Baring to Northbrook, 23 May 1880, CP/2, FO 633/2.

[421] BN 250 – 1.

[422] قد تكون هذه إحدى القراءات لما ورد برسالة نورثبروك من أنه قبل عرض "منصب ستراشى" (21 June 1880, CP/1 Northbrook Correspondence 1876 – 1890, FO 633/2, 26 – 7. Also, Lady Betty Balfour, The History of Lord Iylton's Indian Administration, 1876 to 1880 (London: Longmans, Green, 1899), 498 – 9, 500 – 1.

وبصحبته زوجته إلا فى نوفمبر، حتى تضع طفلها فى لندن أواخر سبتمبر أو أوائل أكتوبر[423].

وقد أصيب زملاء بارنج بمصر بصدمة شديدة؛ فعد رياض باشا خسارة بارنج أكثر من مصيبة على نحو ما جاء فى رسالة مالت إلى لورد جرانفيل – وزير الخارجية الحر الجديد– فى 26 يونيو؛ حيث استطرد قائلاً[424]:

"هناك شعور عميق بالأسف والحزن لم يشهده من قبل غياب موظف أوروبى فى مصر؛ لأن الماجور بارنج كسب احترام وتقدير كل من اتصل به، وهو يترك مصر نموذجاً للرجل الإنجليزى المتمسك بمثله العليا، واضح وصائب فى تقديره للأمور، وقد تحمل معه (أى رياض) مسئولية وزارة المالية، وكان يعرض عليه كل الأمور التى تستحق الإهتمام، فكان يبدى قدرة ملحوظة على الحيلولة دون تعقيد الأمور".

وقد بدا هذا التعليق من جانب رياض على خدمات بارنج موقفاً عادلاً من وجهة النظر البريطانية، فقد شاركه اللورد نورثبروك الشعور ذاته عندما كتب إلى ريبون بعد ما بلغه أمر تعيين بارنج:

"ستجد فيه قدرة غير عادية على إنجاز العمل على وجه السرعة، وكاتباً متميزاً، شجاعاً يمكنك الركون إلى ما يبديه من رأى يتسم بالصراحة، ولكنه يحرص قليلاً على الإعتداد بنفسه عندما يتناقش مع الآخرين، ويتردد فى قبول التعامل مع الأفراد الذين لا يثق فى قدراتهم، ولكنه قضى أربع سنوات بعد خدمته معى يمارس أعمالاً بالغة الحساسية فى مصر أنجزها بإتقان، وأقام علاقة متينة مع زميله الفرنسى المسيو دى بلنيير الذى لا يعد رجلاً يسهل التعامل معه"[425].

[423] Lear, 1880 Diary, 28 June 1880.
[424] Malet to Granville, 26 June 1880, PRO, FO 78/3143.
[425] Northbrook to Ripon 25 July 1880, NP, MS Eur. C 144/19.

وعندما اطلع نورثبروك على رسالة مالت المؤرخة 26 يونيو بوزارة الخارجية استأذن فى أن يرسل صورة منها إلى إليزابيث بارنج وهو ما تم بالفعل[426]. وعاد بارنج إلى لندن فى الثالث من يوليو.

---

[426] Note From Lord Northbrook enclosed in Malet to Granville, 17 July 1880, PRO, FO 78/3143.

الفصل التاسع
الذراع اليمنى للورد ريبون فى الهند
(1883 – 1880)

الاستعداد للعودة إلى الهند

قضى إيفلن بارنج شهر يوليو 1880 فى لندن قبل توجهه إلى جلينمازان لودج قرب إنفرنس Inverness فى شمال إسكتلندا لقضاء إجازة قصيرة فى أوائل أغسطس. كان إدوارد لير فى لندن عندئذ، ويشير فى يومياته إلى أن بارنج قام بزيارته لمدة ساعة واحدة فى 11 يوليو، وعلق على ذلك بقوله: " لا أظن أن أحداً لم يتغير على مدى العشرين عاماً مثل إيفلن بارنج، وحتى لو لم تتغير مواقعه الوظيفية، فإن بقاءه على هذا النحو لافت للنظر، ويزداد أهميته كلما بلغ مكانة أعلى قدراً"[427] !

ورغم ما يتسم به لير من كراهية للتغيير، فإن تلك شهادة طيبة عن بساطة بارنج فى التعامل مع من عرفهم وأحبهم. وبعد تلك الزيارة بخمسة أيام دعى لير لتناول العشاء مع بارنج وعائلته فى 15 سيمور ستريت؛ حيث جلس على المائدة إلى يسار إيثل، فى مواجهة رجل لم يكن يعرفه يدعى جورج ستراهان (أصبح السير جورج سترهان فيما بعد)، فكتب عنه قائلاً: "لم يكن باستطاعتى التعرف عليه، فقد أصبح كبيراً"[428] والتقى لير بارنج مرة أخرى فى حفل الاستقبال الذى أقامته البحرية البريطانية فى 19 يوليو، وزار إيثل فى اليوم التالى ليقدم لها كراساً ملأه برسوم الطيور من عمله وذلك لتدريب الطفل رولاند (الذى تجاوز الثانية من عمره بثلاثة شهور) على التلوين[429] وتضمنت الرسوم طيوراً بديعة من مختلف الأنواع[430].

وبدأ بارنج الاستعداد لتولى منصبه الجديد فى الهند، مدفوعاً بإحساس الذنب لعجزه عن اللحاق باللورد ريبون على وجه السرعة، ولعل ما دعاه إلى الإنتظار الصدمة التى جلبتها أنباء هزيمة البريطانيين فى مايواند فى 27 من يوليو التى هددت المجهود العسكرى

[427] Lear, Diary 1880.
[428] Entry For 16 July 1880, ibid.
[429] Entry for 20 July 1880, ibid.
[430] أعاد لير رسم نفس الطيور فى Lear, Queery Leary None sese.

البريطانى فى جنوب أفغانستان أثناء الحرب التى شنها ليتون على الأفغان، وقد أبلغ بارنج ريبون أنه يستغل وجوده فى لندن؛ لإجراء إتصالات مستمرة مع السلطات المالية بوزارة الهند[431].

وما قصده بارنج "بالسلطات المالية" هو لويس مالت Louis Mallet وهو اقتصادى متميز، له رؤية واضحة فى نوع الإصلاحات التى يرى دعاة النزعة الدولية، والاستفادة المتبادلة من التجارة الحرة، كما كان من أقوى المعارضين لسياسة التوسع البريطانى[432]، وربما لعب دوراً فى زيارته للهند عام 1876، ولمس إتفاقه معه فى الرأى. ولم تلبث هذه الشراكة فى الرأى بينهما أن انعكست آثارها على الشئون الهندية، جعلت من لويس مالت مصدر إلهام، أصبح نفوذه موضع تساؤل ريبون نفسه، وبعض الوزراء الليبراليين ذوى العلاقة، ومن بينهم صديقه القديم اللورد نورثبروك[433].

وما لبث بارنج أن وضع إستراتيجية للعامين التاليين نتيجة مناقشاته مع لويس مالت، وكانت تلك الإستراتيجية تقوم على نحو ما ذكر لريبون – على الإنتظار حتى تنتهى "المسألة الأفغانية التعيسة" قبل إجراء أى تغييرات كبيرة فى نظام الضرائب. ويقتضى ذلك تقديم موازنة بالغة التحفظ فى مارس 1881، ثم استغلال الصيف التالى للنظر فى الوضع كله على ضوء المسألة المهمة المتصلة باستخدام العناصر المحلية فى الإدارة بدرجة أكبر مما كانت عليه الحال من قبل[434]. وقد أينعت تلك الفكرة فى مشروع لا مركزية المالية المحلية الذى ارتبط بدرجة أكبر من الإدارة الذاتية الذى قدم عام 1882.

غادر بارنج لندن فى طريقه إلى إستكتلندا أوائل أغسطس، وثمة إشارة فى خطاب له إلى ليال يشير فيه إلى توعك صحته[435]، وكان فعلاً يحتاج إلى الراحة. ولما كانت إيثل تمر بالشهور الأخيرة للحمل، فقد بقيت فى لندن، وليست هناك معلومات متوفرة عما حدث بعد

---

431 Baring to Ripon, 29 July 1880, RP, Add. MS 43596, CVI, fo. 1.

432 Bernard Mallet, Sir Louis Mallet: A Record of Public Service and Political Ideas (London: James Nesbit 1905), 93 – 7, 155 – 6.

433 Lucien Wolf, Life of the First Marquess of Ripon, vol. ii (London: John Murray, 1921) 74 – 5; Ellis to Baring 8 Dec. 1881 (misdated as 1880), CP/1, India 1880 – 1883: Letters Received E – Z.

434 Baring to Ripon, 29 July 1880, RP, Add. MS 43596, CVI, fo. 1.

435 18 Aug. 1880, LP, MS Eur. F 132/60.

ذلك، وما إذا كان الخطاب المثير للقلق الذى كتبته إليه بتاريخ 15 أغسطس يعود إلى تلك السنة أو غيرها، وهو الخطاب الذى سبقت الإشارة إليه والذى توقعت فيه موتها، فلا شك أنه كان فى العام 1880؛ لأنه عاد إلى لندن على وجه السرعة، بعدما كان ينوى العودة أوائل سبتمبر ليكون موجوداً بلندن عند ميلاد الطفل المتوقع فى 7 سبتمبر الذى سمى وندام Windam (ربما على إسم وليم وندام، شقيق بارنج الذى توفى عام 1876) وجاء مولد الطفل، الإبن الثانى لإيفلن بارنج فى 19 سبتمبر[436].

وثمة دليل على أن بارنج ظل مشغولاً تماماً بالشئون الهندية منذ 15 سبتمبر، فقد كتب إلى ريبون ناصحاً بضرورة تقديم تشابمان Chapman (وزير المالية بحكومة الهند) استقالته، فقد عده مسئولاً عن الأخطاء المتعلقة بتقدير تكلفة الحرب الأفغانية، واقترح تعيين تيودور هوب Theodore Hope (عضو مجلس نائب الملك) بدلاً منه، كما اقترح ضرورة الإذن له باصطحاب محاسب كفؤ معه من لندن للعمل إلى جانبه بالهند، وكانت ثقة المستشار الليبرالى للمراجعة المالية فى دقة حسابات حكومة الهند، ذات أهمية بالغة، وهو ما يمكن تحقيقه عن طريق المراجعة الشاملة لمالية حكومة الهند على يد خبراء من خارج تلك الحكومة، طالما كان موظفى حكومة الهند لهم نصيب فى الإضطراب الذى حدث، بدرجة أو بأخرى[437].

وقد أجرى بارنج – فى ذلك الحين– حلقتين من النقاش المهم جاء أولها مع اللورد هارتنجتون Hartington وزير الهند الجديد؛ حيث ناقش معه تحسن الوضع البريطانى نتيجة نجاح اللورد روبرتس Lord Roberts فى إنقاذ حامية قندهار التى كانت موضع تهديد، منذ هزيمة مايواند، مما ساعد ريبون فى اتخاذ قرار الإنسحاب من أفغانستان فيما عدا المناطق الجنوبية فى بيشن Pishin وسيبى Sibi، وهو حل وسط، عارضه بارنج دائماً؛ لأنه يمثل خروجاً عن القاعدة العرفية بعدم التوسع خارج حدود الهند[438].

---

[436] كان ذلك هو تاريخ خطاب أرسله إلى ليال Lyall, ibid

[437] Baring to Ripon, 15 Sept. 1880, RP, Add. MS 43596, CVI, fo. 7.

[438] Baring to Northbrook, 4 Oct. 1880, CP/1. Northbrook Correspondence, 1876 – 1890.

كذلك ناقش الوزير هارتنجتون مع بارنج تقرير اللجنة التى شكلت لدراسة المجاعات التى أصابت الهند بشكل دورى فى السبعينيات (ق 19)، التى ذهبت إلى الحاجة إلى خمسة آلاف ميل جديدة من السكك الحديدية التى يجب مدها على وجه السرعة حتى يمكن نجدة المناطق التى تتعرض للنقص فى المواد الغذائية، وكان هارتنجتون يرى أن يتولى رأس المال الخاص بناء تلك الخطوط الحديدية الجديدة دون تقديم ضمانات حكومية كلما كان ذلك ممكناً[439]، ونتيجة لذلك أجرى بارنج إتصالاً مع السير ناتانييل روتشيلد Nathaniel Rothschild رئيس الفرع البريطانى من بنك روتشيلد حول إمكانية تدبير المال اللازم لبناء الخط الحديدى من جيسور وخولما إلى كلكتا الذى تعتزم حكومة البنغال تشييده، ولا شك أن استجابة السير ناتانييل روتشيلد قد أسعدته؛ إذ قال له: "تأكد أنه يمكن تأسيس شركة جديدة لهذا الغرض ودعمها بالتمويل اللازم، إذا كانت حكومة الهند على استعداد لتقديم الأرض التى يقام عليها الخطوط للشركة"[440].

أما الحلقة الثانية من المناقشات، فقد أجراها بارنج مع رئيس الوزراء وليم جلادستون؛ فبعد نقاش دار بينهما حول المالية الهندية بشكل عام انتقل النقاش إلى المسألة الصعبة المزمنة حول متى وكيف يمكن إلغاء العوائد الجمركية الهندية التى تفرض على القطن المستورد، وكانت المصالح الكبرى فى منسوجات لانكشاير تواصل الضغط من أجل ذلك. وكان جلادستون وبارنج يريان إمكانية ذلك عندما تعود الموازنة المالية فى الهند إلى تحقيق فائض كاف مرة أخرى، بعد تغطية نفقات الحرب الأفغانية بالكامل. وكان بارنج حريصاً على إقناع رئيس الوزراء بعدم وجود أخطاء جسيمة فى الوضع المالى للهند، وأن حكومة الهند قادرة على تحمل كافة تكاليف الحرب الأفغانية التى قدرت – عندئذ– بسبعة عشر مليوناً ونصف المليون من الجنيهات الإسترلينية، إذا طلب منها ذلك[441].

---

[439] Horace Bell, Railway Policy in India (London: Rivington, Percival, 1894), 30.

[440] Quoted in Baring, Notes of the Financial Department, 31 Dec. 1880, NAI, Finance and Commerce (Accounts), A, Proceedings (Feb. 1881).

[441] Baring to Gladstone, 29 Oct. 1880, GladP, Add. Ms 44466, CCCLXXXI, fo. 231; L. Mallet to Secretary of the Treasury, 24 Nov. 1880, in "Failure of The Estimates of the Cost of the War in Afghanistan, 1879 – 80" NAI, Department of Finance and Commerce (Accounts and Finance), A, Proceeding (Feb. 1881). 340.

وكان بارنج حريصاً تماماً على إقناع جلادستون أن مالية الهند لا بأس بها، وأن شيئاً لم يخرج عن حدود الضوابط المعمول بها، كما كان واثقاً من معرفته الكافية بأضاع مالية الهند، ومن قدرته على موازنة الإيرادات والمصروفات رغم الصعوبات المتوقعة على المدى القريب.

غير أنه بعد إختلافه مع جلادستون (فيما بعد) حول حملة الإنقاذ فى السودان عام 1884 / 1885، وغيرها من الأمور، إختار بارنج أن يعطى صورة سلبية عن لقاءاته مع جلادستون[442]، ولكنه – فى ذلك الوقت– لم يكن ثمة شك أنه كان مازال مديناً لجلادستون، ويرى أن مدة حكم ريبون للهند يمكن أن تلعب دوراً فى اجتذاب ليبرالية جلادستون للهند.

وكرر بارنج مقولة قدرة حكومة الهند على تغطية كافة نفقات الحرب الأفغانية فى خطاباته إلى اللورد ريبون، التى أشار فى أحدها إلى أن تقديرات وزير المالية للعام 1880 / 1881 لم تبعث الخوف فى نفسه، حتى عندما توقع الدخول فى صراع مع الأقسام المختصة بالمصروفات التى يأمل أن يكون نائب الملك قد كسبها إلى صفه. وذكر فى نفس الخطاب أنه أصبح من الصعوبة بمكان أن تجد فى لندن من يستمع إلى الشئون الهندية؛ لأن الجميع تشغلهم أيرلندا، ويقصد بذلك الخطابات التى ألقاها بارنل Parnell بالبرلمان داعياً إلى الإدارة الذاتية فى أيرلندا، وعلق على ذلك بقوله: "أتمنى ألا يحدث انقساماً آخر فى معسكر الأحرار" وهى ملاحظة مخلصة ما لبثت أن تجاوزتها سلسة من الأحداث المزعجة[443].

سافر بارنج وأسرته إلى الهند أواخر نوفمبر وبرفقته عدد من الخدم وطباخ فرنسى، وأخذوا معهم الكثير من الأمتعة التى أثارت إيفلن بارنج عندما رآها مكدسة على رصيف ميناء الإسكندرية، فكتب لمالت أن متاعه مكون من 24 صندوقاً كبيراً، و21 حقيبة لم يكن من الممكن الاستغناء عن أى منها – من وجهة نظر إيثل– دون المساس بمتطلبات الرحلة[444] وبعد قضاء أسبوع بمصر زار خلاله رياض باشا وزملاءه القدامى، غادر بارنج ميناء السويس فى التاسع من ديسمبر ووصل إلى كلكتا فى الحادى والعشرين منه، وهناك التقى

---

[442] BN, 314.
[443] RP, Add. Ms 43596, CVI, fo. 14.
[444] Baring to L. Mallet, 2 Dec. 1880 CP/1, Mallet Correspondence, India 1875 – 83.

بارنج سلفه ستراتشى Strachey الذى كان يخالف تماماً الأفكار التى حملها بارنج معه من لندن بالنسبة للتمويل الخاص لمشروعات السكك الحديدية[445].

وقامت أسرة بارنج برحلة إلى مدينة الله أباد؛ حيث كان اللورد ريبون يرقد مريضاً بعد رحلة صيد نجح فيها إبنه (المعروف ببراعته فى الصيد) فى إصطياد تسعة نمور[446]. ولم تكن تلك بداية طيبة لتعاون بارنج مع ريبون، فمن الواضح أن بارنج وجد ريبون مثيراً للقلق، بقدر ما شعر ريبون بذلك أيضاً تجاه بارنج لتأخره فى القدوم إلى الهند، فقد ذكر بارنج لمالت (فى وزارة الهند) أن ذلك اللقاء "ألحق الضرر بالأمور كلها"؛ لأن نائب الملك ليس مؤهلاً للتعرض للشمس لفترات طويلة، وكان عليه أن يترك صيد النمور للشباب وحدهم[447]. وكان هذا حكماً قاسياً على أى حال؛ لأن ريبون كان – عندئذ– يوشك على الموت حتى أنه أوصى بمنح طبيبه وسام "نجمة الهند، لإنقاذ حياة نائب الملك"[448]، ولكن ملاحظة بارنج كانت تنم عن ضيق كل منهما بالآخر، التى غلبت على الشهور الأولى من عملهما معاً.

ولكن الحوادث أثبتت فيما بعد أن الرجلين كانت تجمعهما عادات عمل مشتركة، وإن اختلفت شخصية كل منهما عن الآخر إختلافاً تاماً، مما يسر تعاونهما معاً. وكان جورج فردريك روبنسون، ولورد جراى Earlde Grey ثم الماركيز ريبون، تماماً مثل بارنج لم يلق تعليماً متميزاً، ولم يلتحق بالجامعة، وكان مثله أيضاً فى بناء مستقبله الوظيفى على أساس مهاراته الإدارية التى دعمتها القدرة الفائقة على العمل الجاد، وسرعة التركيز على الأساسيات. كما شارك بارنج فى تحمل الكثير من هموم الجناح الراديكالى بحزب الأحرار من إصلاح الجيش إلى معارضة سياسة دزرائيلى التوسعية ولا ريب أن من بين أسباب عودة ريبون إلى الخدمة بعد استقالته عشية تحوله إلى الكاثوليكية عام 1874، وهو شعوره العميق بأن الحرب التى شنها ليتون على الأفغان كانت لا أخلاقية[449].

---

[445] Baring to L. Mallet, 22 Dec. 1880, ibid.

[446] Jonathan Garbier Ruffr, The Big Shots, The Edwardin Shooting Parties (n. P, Debrett, 1977) 43 – 4, 135.

[447] 22 Dec. 1880, Mallet Corres pondence.

[448] Wolf, Life of First Marqueas of Ripon, II, 66.

[449] Anthony Denholm, Lord Ripon 1827 – 1909, A Political Biography (London, Croom Helm, 1982) 126.

أما الإختلافات بين الرجلين فكانت أيضاً لافتة للنظر، فقد كان ريبون أكثر تسامحاً مع المعارضين السياسيين من بارنج، وأكثر ميولاً إلى الديمقراطية والعمل على تحقيق العدالة الإجتماعية. فقد إنضم فى شبابه إلى حركة الإشتراكية المسيحية، وقد عمل بجد واجتهاد للنهوض بالحركة التعاونية الوليدة، وإتاحة التعليم للطبقة العاملة. فظل مؤمناً أن عقيدته الدينية يمكن تطويعها لخدمة راديكاليته السياسية، حتى بعد تحوله إلى الكاثوليكية[450]. أما بارنج فكان أكثر إندفاعاً، وأسرع فى اتخاذ القرار، لذلك ضايقه ميول ريبون إلى التريث، وشدة حساسيته، وما أطلق عليه بارنج "شعوره القوى بالحب المجرد"[451]، كما زاده ضيقاً حماس ريبون الدينى والأخلاقى، فإذا أخذنا فى الإعتبار فكرته السيئة عن الكاثوليكية، فقد وجد صعوبة فى التعامل مع رجل يحركه الوعى الإجتماعى المسيحى. كان ذلك هو الحال ما دام حريصاً على الإحتفاظ بإيمانه لنفسه، يرى فيه مكوناً محدوداً للنظرة إلى الحكم الصالح، الذى كان – عند بارنج– أكثر اعتماداً على الأفكار العلمانية الخاصة بالأمانة والنزاهة، والكفاءة، وأهمية الثبات على المبدأ.

ترى.. كيف يعمل هذان الرجلان معاً؛ لتنفيذ البرنامج الإصلاحى لحكومة الأحرار الذى حملاه معهما من لندن ؟ كان ذلك البرنامج يقوم على تحقيق الحكم الصالحالذى يقود إلى نوع من الحكم الذاتى، واللامركزية التى تعد الطريق الأمثل لتنمية روح المبادرة. وسياسة جلادستون الإقتصادية، كلها مثلت مكونات الإجماع السياسى الذى شارك فيه العديد من قيادات حزب الأحرار البارزة فى تلك الأيام، وقد جمعت مكونات البرنامج فى الخطب التى ألقاها جلادستون فى نوفمبر 1879، وعلموا أن جانباً من تقرير اللجنة التى شكلت لبحث قضية المجاعات نص على التوجه نحو تشجيع الإدارة الذاتية حتى يشارك الأهالى فى الجهود التى تبذل لمواجهة المجاعات، كما كانت تشكل جانباً من أفكار الشخصيات البارزة المهتمة بالهند والشئون الهندية وخاصة اللورد هارتنجتون ولويس مالت[452]. وكما تبين لاحقاً، كان اللورد ريبون وإيفلن بارنج يمثلان آخر ما توصل إليه الأحرار فى ظرف دولى ميز

[450] Introd., ibid.
[451] Baring to L. Mallet, 1, July 1881, CP/1, Mallet Correspondence.
[452] e. g. Denholm, Lord Ripon, 139 – 40.

الفكر السياسى البريطانى، الذى ما لبث أن تغلبت عليه النزعة الذاتية ذات التوجه العنصرى، والحتمية العدوانية لإمبريالية العصر الفيكتورى المتأخر.

زوبعة المائة يوم الأولى

كان قدوم بارنج إلى كلكتا شبيهاً بالزوبعة؛ فقد كان عازماً على معالجة القضايا المالية الأساسية الراهنة، مع العمل على تعويض ما ضاع من وقت، وكان أهم الموضوعات المثيرة للجدل عندئذ استمرار النزيف الناجم عن سوء تقدير تكاليف حرب الأفغان، واقتراح بارنج إعادة مجال العمل أمام رأس المال الخاص فى مشروع بناء الخطوط الحديدية، وإلى جانب ذلك كانت هناك تساؤلات حول شكل الموازنة الأولى التى يحين موعدها فى مارس، وأخيراً كانت هناك المشكلة العامة وهى كيفية إضفاء طابع حكومة الأحرار على إدارة ريبون، وكان من سوء حظ بارنج أن عليه أن ينجز ذلك كله مع نائب الملك المريض، ومن بين أسنان مجلس يضم غالبية مؤيدى ليتون Lytton الذين يساورهم الشك فى الأفكار التى حملها وريبون معهما من لندن، وخلال بضعة أسابيع استطاع أن يبعث الضيق فى نفوس معظم كبار الموظفين، وكانت تلك فرصته لتأكيد شهرته بالعناد والإعتداد بالنفس.

كان مكتب بارنج يقع فى مصلحة المالية والتجارة بشارع هارنجتون، وهو مبنى آيل للسقوط، ما لبث أن استبدل به مبنى إدارياً فخماً، يمكن رؤيته فى مواجهة قصر نائب الملك القديم الذى أصبح المقر الرسمى لحاكم غرب البنغال[453]. وتحدد دور المكتب فى إطار تعديل النظام الحكومى الذى تم فى 1879 الذى تم فيه حصر الإدارة المدنية فى مصلحتين: أولهما، الداخلية والإيرادات والزراعة وثانيتهما: المالية والتجارة التى تولاها بارنج، وتضم أقسام خمسة هى: الحسابات، والسكة والبنكنوت، والإيرادات الخاصة (وتشمل كل الضرائب والعوائد الجمركية ما خلا ضرائب الأطيان)، والإحصاء، وأخيراً الأموال العامة التى تعاملت مع الإجازات، والمعاشات، والمصروفات النثرية[454].

---

[453] Baring to L. Mallet, 27 Aug. 1881, CP/1 Mallet Correspondence.

[454] Guide to the National Archives of India (New Delhi, 1982), pt VIA, Particularly, pp – 180 – 1.

وجاءت إقامة عائلة بارنج بالقرب من المصلحة فى 23 تشاورنجى رود؛ حيث تولت إيثل (التى تضيق ذرعاً بالأسفار وتعانى من نزلة برد حادة) الإشراف على فريق المربيات والعاملات والطاهى وغيرهم من خدم العائلة، وكان هناك فرق كبير بين مقر إقامة العائلة، ومقر نائب الملك حيث عاش بارنج فترة خدمته السابقة مع اللورد نورثبروك، ولكنه كان أنسب للراحة من متاعب العمل. فقد كتب لإبن عمه فى 11 يناير 1881 "إننى أناضل ضد المصالح الحكومية الكبرى، ولكنى مرتاح بفضل طباخى الفرنسى الخاص"[455].

جاء بارنج إلى الهند مشبعاً بالفكرة السائدة فى لندن عن نفقات حرب الأفغان. وشكلت لجنة فى يوليو 1880 بوزارة الهند بدأت جمع الأدلة على ذلك، وكان واضحاً أن معظم توصياته قد وضعت قبل ظهور تقريرها النهائى فى فبراير التالى، بل إن الكثير من تلك التوصيات جاء فى رسالة صدرت من وزارة الهند فى يناير، تتضمن ملاحظات وزارة الداخلية على التقديرات المعدلة لإيرادات ومصروفات العام 1879 / 1880 مع التعليمات الخاصة بكيفية إعداد تلك التقديرات فى المستقبل، وقد دفع ذلك بارنج إلى المضى قدماً فى إصلاح نظام المحاسبة القديم. مما مكنه من أن يضع فى اعتباره المطالبة باستخدام الحسابات الشهرية حتى تصبح الأرقام النهائية متاحة عند نهاية السنة المالية[456].

غير أنه كانت لا تزال هناك بعض المشاكل الباكرة؛ فقد كان هناك ضغط من هارتنجتون لتقديم رقم نهائى لجملة تكلفة حرب الأفغان فى 10 يناير حتى يستطيع طرح القضية على البرلمان للنظر فى الطريقة التى تتبع لمشاركة لندن كلكتا فى تحمل نفقات الحرب، ولكن أوجه القصور التى عانى منها النظام المحاسبى حالت دون استطاعة بارنج تلبية الطلب فى الموعد المحدد، مما سبب له قدراً من التوتر الشخصى، ولم يستطع البرلمان إتخاذ القرار إلا فى أبريل 1881؛ حيث وافق على المساهمة بخمسة ملايين جنيه فى نفقات الحرب، تسدد على قسطين سنويين فى السنتين الماليتين 80 / 1881 و81 /1882.

---

[455] Baring to L. Mallet, 11 Jan. 1881, CP/1, Mallet Correspondence.

[456] Government of India to Secretary of State, 14 Mar. 1881, NAI, Department of Finance and Commerce, A. (Accounts and Finance) Proceedings, (July 1881), 1158.

وهناك مسألة تتصل بإصلاح ما فسد فى الهند ذاتها، فتم إجراء تحقيقات داخلية كثيفة للبحث عمن يتحمل مسئولية الإخفاق فى الحسابات، ويشير تقرير مؤرخ 21 مايو أن الأعضاء الماليين والعسكريين قد استقالوا، وأن المراجع العام كان فى إجازة طويلة، وأن السكرتير المالى تشابمان على وشك ترك منصبه، مما مهد الطريق أمام بارنج لتطبيق نظامه المحاسبى الجديد الذى يسير على نهج النظام البريطانى الذى يقوم على تقارير مالية دورية، وليس على "مهارة وذكاء الأفراد" على حد قوله[457]. وكان من شأن تلك الهجمة المضادة للطرق المحاسبية التقليدية أن تزيد من المعارضة الداخلية لأى "بدع" أخرى يقدمها بارنج.

أما الموضوع الآخر المثير للجدل، فهو السكك الحديدية، وحرصاً على الأخذ بزمام المبادرة، بدأ بارنج مناقشة الموضوع بمجلس نائب الملك، فكان اقتراحه بقيام روتشيلد بتمويل بناء خط البنغال له وقع "القنبلة" إلى حد كبير[458]. وقد تم المسألة بالقول إنه رغم استمرار سريان الفكرة القائلة بأن تفضل الحكومة استخدام مصلحة حكومية بدلاً من رأس المال الخاص الذى تقدم له الحكومة الضمانات، وذلك إعتباراً من العام 1869، فإنه يرى أن الفرصة لم تتح لإفساح مجال العمل أمام رأس المال الخاص دون ضمانات حكومية، وهناك مبالغ طائلة من رءوس الأموال فى سوق لندن المالية، كما أن رأس المال البريطانى ساهم فى بناء العديد من الخطوط الحديدية فى العالم دون ضمانات. وبنك روتشيلد على استعداد للقيام بالمشروع على نحو ما جاء فى خطاب ناتانييل روتشيلد (الذى قام بعرضه على المجلس)، وقد تحمس وزير الهند لهذا العرض. وفى محاولة متميزة للتغلب على المعارضين، نقل بارنج المناقشة من المفاضلة بين إقامة المشروع إعتماداً على التمويل الخاص أو الحكومى، إلى الحديث عن الواقع المالى الراهن، لافتاً النظر إلى عدم جدوى الوقوف فى صف الإحتكارات المطلق، وأن ما يعنيه هنا هو ما يخص الهند، فرغم قيام وزير الهند بتغطية مبلغ المليونين جنيه اللازمة للأشغال العامة فلابد من البحث عن مصادر التمويل[459].

---

[457] Government of India to Secretary of State, 21 May 1881, and Notes by Financial Member, ibid, 1160 ff.

[458] Baring to L. Mallet, 29 Dec. 1880, CP/1 Mallet Correspondence.

[459] E. B., "Preliminary Discussions in Council", 30 Dec. 1880, in E. B., "Notes of the Financial Department" 13 Dec. 1880, File, Proposed Construction of the Central Bengal=

ولكن الحجج التى أثارها بارنج لم تلق آذاناً صاغية، كما يتضح من قائمة أسماء المعارضين من أعضاءالمجلس من كبار الموظفين: تشابمان (السكرتير المالى)، الكولونيل "ترفر Trever" (الأشغال العامة) ستانتون (سكرتير مصلحة سكك حديد البنغال)، وغيرهم من الأعضاء[460]. غير أن بارنج لم ييأس؛ ففى مذكرته المؤرخة 12 يناير ذهب إلى أن معارضة التصرف المباشر "لا وزن لها"، وقام على الفور بتشكيل لجنة لوضع الشروط التى تقدم لروتشيلد والشركات الأخرى المحتملة[461] وتعقدت الأمور بعض الشئ بعد تلقى رسالة من اللورد هارتنجتون (وزير الهند) فى نفس الشهر تضع الأسس التى يجب أن يقدم عليها كل مشروع سكك حديدية خاص ليتم إنشاء الخطوط الحديدية "على أساس تجارى" مع الإلتزام بدفع عوائد قدرها 4% خلال خمس سنوات من تاريخ تشغيل الخط. وهو ما تعجز أى شركة فى قطاع النقل على الوفاء به فى الماضى والحاضر على السواء[462]. وقد بلغ هذا الإرتفاع فى مد الطاقة أقصاه فى تصدير بارنج لموازنة مارس 1881 التى عبر فيها عن أمله فى اجتذاب رأس المال البريطانى للاستثمار فى بعض المشروعات الخاصة بالسكك الحديدية التى تقررت فعلاً، كما أعرب عن رغبته فى إتاحة الفرصة أمام رأس المال المحلى أيضاً للاستثمار فى هذا المجال[463].

ورغم أن معظم هذه المعارك قد دارت عندما كان ريبون يمر بمرحلة النقاهة من مرضه، فإن بارنج كان يدرك تماماً أن نائب الملك يؤيده فى تلك المشروعات، ولكنه وريبون كانا لا يزالان يضعان الأسس التى يمكن أن يقوم عليها تعاون ناجح بينهما، يساعد على تنفيذ الكثير من المشروعات. وكان من بين عوامل الرضى عند بارنج، عرض اللورد ريبون استقالته فى يناير 1881 خلال نزاع حول فشله فى الحصول على موافقة مجلس الوزراء على مشروع إقامة خط حديدى فى ولاية بهوبال. ورغم أنه سارع بالإعتذار، وعزا موقفه إلى

=Railway by Messrs Rothschild, NAI, Department. Of Finance and Commerce, (Accounts) A, Proceedings (Feb. 1881) 362 – 8.

460 Ibid.

461 Ibid.

462 Bell, Railway Policy, 30 n.

463 Financial Statement by the Government of India For 1881/82, PP (1881) 68, 307,

مرضه، فإن بارنج أدرك أن ريبون لا يستطيع الصمود أمام نيران السياسة، وربما كانت لديه رغبة لعدم إغضاب وزير الهند خشية أن يؤدى ذلك إلى فشل إدارته الليبرالية[464].

كذلك كان هناك نوع من الصدام الشخصى بين الرجلين، فتكشف خطابات بارنج إلى اللورد ريبون إفراطاً فى النصح على أساس معرفته السابقة بالهند، وتذكير بأمور يعرفها بالفعل، ولا شك أن ريبون – من ناحيته– رأى بارنج "كالثور فى محل الخزف"، وأن تعامله مع زملائه لا يبعث على الإرتياح، ولا يحقق النجاح، كما أزعجه احتفاظ بارنج باتصالات مع رجال متنفذين فى لندن مثل لويس مالت ونورثبروك[465]. وكان بارنج من جهته يرى أن نائب الملك لا يقدم له عوناً فى صراعه ضد "البيروقراطية النابليونية" الذين يحتشدون فى إدارة حكومة الهند، والذين يعجزون عن إدراك "خطورة الأمور المعروضة"، ويزدادون بعداً عن مبادئ حكومة الأحرار التى سوف تنتشر فى وقت قريب[466]. وكتب إلى نورثبروك بنبرة حزينة فى مارس "لا شك أنه لا انسجام بينى ومن حولى، ولا أدرى ما إذا كنت قد أسرفت فى بيان ذلك، أم أنهم يعدون عدتهم ضدى، وربما كان الأمر يتضمن شيئاً من هذا أو ذاك، وينعى على ريبون إفتقاره إلى الحزم"، وأنه لولا مساندته له لما تحقق شئ هنا على الإطلاق، وهناك الكثير مما يجب عمله[467].

وقد تركت تجربة الشهور الأولى فى كلكتا بارنج فى حالة من الشعور بالأسى على نفسه، ولكنه مازال مناضلاً عنيداً. فقد كتب لمالت فى 6 مارس "لا تنزعج لإرهاقى النفسى بالعمل، فلم أكن أحسن حالاً يوما مما أنا عليه الآن:

> "طباخى الخاص جيد، وألعب التنس كل يوم، فكل من عمل مع نورثبروك يستطيع استيعاب عمله بسرعة. وما يقلقنى هو وجود زوجتى وأطفالى فى هذا المناخ القاتل، ولكننا سنذهب غداً إلى سملا، ولا أظن أن صحتى مهددة بالخطر، وإن كنت قد قلقت على عينى أحياناً، ولكن لدى الآن كاتب اختزال يساعدنى مساعدة قيمة، وفيما

---

464 Quoted ins. Gopal. The viceroyalty of Lord Ripon 1880 – 84 (London: Oxford University Press 1953) 216.

465 Baring to L. Mallet, 27 Feb. 1881, CP/1, Mallet Correspondence.

466 Baring to L. Mallet, 21 Feb. and 3 Mar. 1881, Mallet Correspondence.

467 Baring to Northbrook, 6 Mar. 1881, CP/1, Northbrook Correspondence 1876 – 90.

عدا الخطابات التى أكتبها إليك أو إلى برت Bertt (سكرتير وزير الهند)، لا أكتب إلا القليل بخط يدى"[468].

غير أنه كن واضحاً أن بارنج وريبون سوف يغرقان إذا لم يتعلما العوم معاً، والتفاهم المبدئى الأول بينهما تم التعبير عنه جيداً فى تقرير بارنج لموازنة مارس 1881 "الذى يعد بياناً مشتركاً يحدد المبادئ التى تحكم عملهما، والأهداف التى يعتزمان تحقيقها خلال خدمتهما بالهند، وهناك جدل حول استثمار رأس المال الخاص فى مشروعات السكك الحديدية فى الهند. كما أن هناك نصاً ينص على أن مشاركة رأس المال المحلى الهندى تمثل حجر الزاوية فى الإدارة الذاتية التى يهدفان إلى تحقيقها، وهناك التزام بتخفيض معدل الضرائب، يتصل بفكرة بارنج بالإطمئنان، ويجعلهم ينفقونه فيما يعود عليهم بالفائدة، وهناك إشارة ضمنية إلى إعادة النظر فى قوانين الصحافة الجائرة التى أصدرها ليتون، جاءت فى العبارة التى نصت على الحاجة إلى إزالة القيود عن حرية التعبير والرأى الذى يساعد على إلقاء الضوء على العديد من المثالب والشرور ويساعد على اتخاذ القرار الرشيد[469].

كل ذلك ساعد على بلورة عدد من الموضوعات التى اختلف بشأنها نائب الملك مع مساعده الأول. وعلى كل، بقيت العديد من الأمور التى كان لابد من أن يتم التوصل إلى إتفاق حولها قبل إعداد الخطوط الرئيسية للموازنة بالإتفاق بينهما، ومن بين الأمور الأخلاقية التى لابد من التوصل إلى اتفاق حولها ضريبة الرخص التى كان ريبون يأمل فى إلغائها، وفوق ذلك الضغوط التى جاءت من لندن لإلغاء العوائد الجمركية على واردات القطن[470].

الإنتقال إلى سملا والجدل حول موازنة 82 / 1883

لعل أسرة بارنج تنفست الصعداء عندما انتقلت إلى سملا فى نهاية مارس 1881؛ فقد تم الإنتقال إلى هناك قبل الموعد المعتاد بعدة أيام بسبب الحالة الصحية السيئة لنائب الملك، ويذكر بارنج فى رسالة إلى نورثبروك كتبها بعد بضعة أيام من الوصول إلى سملا أن

[468] CP/1 Mallet Correspondence.
[469] القانون الذى أعطى للحكومة حق إغلاق الصحف الهندية بدون إذن قضائى قد ألغى أخيراً فى فبراير 1882.
[470] Ripon to Baring, 9 Feb. 1881, CP/1, Ripon Correspondence. 1880 – 1882.

زوجته وولديه فى أحسن حال نتيجة هذا التغيير[471]. فقد أقاموا فى كنيدى هاوس، وهو أول بيت بنى فى سملا فى العشرينيات (ق 19) ويقع عند النهاية الغربية للهضبة، ويجاور (بيترهوف) مقر إقامة نائب الملك.

ويتضح من رسم للبيت بعد إنشائه أنه كان من طابق واحد، له سقفان منحدران، وفى الزاوية اليمنى من السقف يقع مخروط مرتفع يشبه المدخنة[472]، ومن المحتمل أن بيوت كبار موظفى المالية والتجارة كانت بيوتاً مستأجرة قريبة من بيت بارنج.

وقد تغيرت سملا كثيراً خلال السنوات الخمس التى انصرمت على خدمة بارنج بالهند، فقد بذلت جهود كبيرة خلال فترة حكم ليتون لجعل سملا أكثر صلاحية للسكنى، فتم توسيع الطرق، وتم تشييد طريق جيدة للعربات حول جاخو (التى كان ينطقها كيبلنج والموظفين البريطانيين المحليين جاكو) وهو التل الذى يقع عند الطرف الشرقى للهضبة، فأفسح بذلك المجال الحركة، وأصبحت المياه تصل إلى معظم البيوت عن طريق شبكة الأنابيب، ورغم ذلك كان هناك حاجة إلى المزيد من العمل لتحسين ظروف السكنى، فلم يتم البحث عن حل لمشكلة توفير مكاتب لائقة لموظفى الحكومة إلا عام 1881، فإشترت مصلحة الأشغال العامة عدداً من البيوت السكنية، ثم عدلت منها حتى تلائم ذلك الغرض[473]، وفى الوقت نفسه، كان نائب الملك يسعى لإقامة مستشفى لخدمة الأوروبيين بوضع خطة لذلك الغرض، وتم إفتتاح المستشفى عام 1885. وبالنسبة لمقر إقامة نائب الملك، إكتفى ببناء طابق فوق (بيترهوف) كبديل لخطة ليتون الرامية إلى إقامة بيت أوسع مساحة على تل المرصد الفلكى ناحية الغرب، وانتظر هذا المشروع حتى جاء اللورد دافرين خليفة ريبون فتولى تنفيذه[474].

وأصبحت سملا فى عهد ليتون أكثر بهاء، فكثرت الحفلات، والمراقص، والجمخانات (الملاعب)، وبعض التغيرات الأخرى التى أضيفت إلى العروض المسرحية، والرحلات ومسابقات التنس وحفلات العشاء، وأمسيات التمشية على طول المول، بل كانت هناك

[471] Baring to Northbrook, 3 Apr. 1881, Northbrook Correspondence. 1876 – 1890.
[472] Buck, Simla, Past and Present 5.
[473] Pamela Kanwar, Imperial Simla: The Political Culture of the Raj (Delhi, Oxford University Press 1999), 54.
[474] Ibid. 51.

مساحة للتزلج. لقد كان ريبون أكثر رزانة من سلفه المندفع، وكان حريصاً على الإقتصاد فى النفقات، فكان يخرج وحده مرتديا سترة الصيد، ويحاول الاستغناء عن الحرس بقدر الإمكان[475]. غير أن الميول إلى التسلية كان كافياً لإضفاء جو من المرح فى الصيف نرى انعكاساً له فى القصص القصيرة الأولى التى كتبها كبلنج التى تستمد إطارها من الرحلات التى بدأها أوائل الثمانينيات (ق 19) وكما لاحظت الليدى ليتون، كان مجتمع سملا يتأرجح بين السكون والنشاط[476].

أما بالنسبة لأسرة بارنج، فقد كان لديهم ما يشغلهم عن الحاجة إلى المشاركة فى المناسبات الإجتماعية إلا بقدر ما يجدون أنفسهم فى حاجة لذلك. ومروا بأزمات عائلية مثل "أسبوع القلق" فى أوائل يونيو عندما عانى ونيدام – الطفل الصغير– من الحمى، وعبر بارنج عن ذلك بقوله: "إن من يقبلون العمل فى خدمة حكومة الهند، يخاطرون بخسارة ما لا يمكن شراءه بالمال"[477]. وما لبثت إحدى خادمات الأطفال أن فرت من البيت وتزوجت من أحد أصحاب الفرق الموسيقية، مما جعل إيثل تشعر باليأس (على حد قول روبرت شقيق إيفلن الذى كان فى زيارة لهم عندئذ)[478]، ولكن يبدو أن حياة الأسرة هناك كانت حياة سعيدة فى المحصلة النهائية، ورغم أن المجتمع الهندى البريطانى فى سملا كان "متحاملاً" على الأحرار – (على حد قول بارنج)، وكان بعيداً تماماً عن التناغم مع الأحوال فى إنجلترا، وكان هناك أناس على شاكلتهم يجعلونهم يتمسكون بمواقعهم[479]. وكانت الأسرة تفضل إقامة معكسر بين التلال القريبة؛ حيث يتجه بارنج إلى عمله ممتطياً جواده، وتمضى إيثل الوقت فى الرسم والتلوين بالألوان المائية حتى يعود. وكما كتب فى "الملاحظات" كانت تلك من أمتع الأوقات التى قضاها بالهند" فى خيام أقيمت فى الغابات العظيمة وراء سملا"[480].

وقد إلتقى ليال مع آل بارنج فى سملا كثيراً تلك الأيام، وكان يرى سملا مكاناً كئيباً[481]. وكان على نقيض صديقه الحميم بارنج تماماً، متطير، قلق، متوجس، تعيس فى زواجه،

---

[475] Wolf, Life of the First Marquess. Ii, 15.
[476] Quoted Longford, A Pilgrimage of Passion, 152.
[477] Baring to L. Mallet, 10 June 1881, CP/1, Mallet Correspondence.
[478] Northbrook to Baring, 23 June 1881, CP/1, Mallet Correspondence.
[479] Baring to Northbrook, 3 Apr. 1880, Mallet Correspondence.
[480] BN 342.
[481] Lyall to Barbra Lyall, 2 Apr. 1881, LP, MS. Eur. F 131/7.

تشغله أحلام المراهق فى الهرب مع إمرأة جميلة. ولكنه كان –أيضاً– مراقباً لماحاً لسلوك الآخرين أكثر من بارنج، ويهتم كثيراً بنزوات وهفوات البشر، ورغم ذلك كان الرجلان يكنان الإحترام لبعضهما، فكان بارنج معجباً باتجاه ليال إلى دراسة المجتمع الهندى، بينما أعجب ليال بقدرة بارنج على تحديد الهدف الذى يسعى إليه، وعلى إنجاز ما يريد من أعمال، وكثيراً ما كان ليال يدعى وزوجته أو منفرداً لتناول الطعام مع أسرة بارنج الذى يعده الطاهى الفرنسى الخاص بالأسرة، وهى مناسبات كان يكتب عنها لأخته باربرا.

فقد كتب إليها فى يونيو 1881: "إيفلن بارنج يقدم لنا عشاءً فخماً، فإذا حضر المرء متأخراً بعد تقديم الحساء، أحس بالإمتلاء"[482]. وكان بارنج أقل إحساساً بالراحة فى بيوت الآخرين، فقد ذكر ليال لأخته بربرا بعد نحو الأسبوعين من ذلك التاريخ: "أستطيع القول إنه رغم ذكائه وكفاءته، لا يعد نجماً شديد التألق، نزاهته وأمانته ممتازة، ولكن سلوكياته الإجتماعية ينقصها التهذيب لدرجة أن أحداً لا يتقبلها؛ فقد غرقت فى الضحك عندما رأيته ليلة الأمس يصافح العديد من السيدات فى قاعة هويز للطعام، فمد يده لإحداهن بينما كان ينظر فى الإتجاه المعاكس، وقد تناولنا عشاءً مهلكاً، ودهشت عندما حثنى بارنج على تناول عشاءً خفيفاً معه فى بيته؛ لأنه يشعر بالجوع"[483].

ونظر كل من بارنج واللورد ريبون إلى انسحاب القوات البريطانية من أفغانستان فى مايو 1881، باعتباره علامة على أن باستطاعتهما أخيراً المضى قدماً فى طريق الإصلاح المالى، فقضيا معظم الصيف فى مراجعة المسائل الأساسية على جدول الأعمال الخاص بالإصلاح، وعلى رأسها من حيث الأهمية التغيرات التى يجب إدخالها على موازنة 1882 / 1883 وديباجتها التى كانت نسخة من مشروعها: قد أرسلت إلى لندن فى 15 ديسمبر للحصول على موافقة وزارة الهند، وقرأ بارنج الكثير من الأعمال الأولية، وتولى مساعدته السكرتير المالى الجديد تيودور هوب، وهو الشخص الذى وجد فيه ضالته المنشودة لمناقشة الأمور المالية[484].

[482] Lyall to Barbra Lyall, 24 June 1881, ibid.
[483] Lyall to Barbra Lyall, 8 July 1881, LP. MS. Eur. F 132/7.
[484] Baring to L. Mallet, 9 Apr. 1881, CP/1, Mallet Correspondence.

وكانت هناك أمور كثيرة تقتضى أن يوليها بارنج إهتماماً كبيراً بعيدة عن الموازنة الجديدة، من بينها تحول مصلحة الأشغال العامة إلى استخدام رأس المال الخاص، مما يشبه المعجزة، فيما يتصل ببناء السكك الحديدية، ولكنها لم تكن قادرة على تنفيذ تلك السياسة وحدها، فاقترح بارنج – على الفور– ضم عضو جديد إلى مجلس نائب الملك لتوجيه المصلحة إلى تلك الوجهة الجديدة، وهو المنصب الذى أعطى لهوب[485].

والمسألة الثانية كانت تتصل بالموقف الذى تتخذه حكومة الهند إزاء "مؤتمر النقد الدولى الثالث" المقرر إنعقاده فى 1881 التى تطرح فيه مسألة الأساس الثنائى للمعدن الذى يمثل رصيد النقد بدلاً من الإعتماد على الذهب وحده، أو الفضة وحدها كأساس للعملة؛ فقد كانت هذه المسألة بالغة الأهمية للبلاد التى تتخذ من الفضة أساساً لعملتها كالهند، فقد تدهورت قيمة الفضة مقابل الذهب. وكان بارنج يرى توجيه تعليمات إلى الوفد البريطانى فى المؤتمر للتعبير عن اهتمام الهند بالجهود الرامية إلى الأخذ بمبدأ ثنائية المعدن أساساً للعملة، ولكنه عجز عن الحصول على دعم كل من ريبون وهارتنجتون لمشروعه، وفى نهاية المطاف، تم تفويض العضوان الممثلان لمصالح الهند (أحدهما لويس مالت) ألا يتجاوزا حدود وعد حكومة الهند بتقديم "مساعدة عملية" لأى بلد يعتزم الإنضمام إلى اتحاد نقدى قائم على ثنائية المعدن المتخذ أساساً للعملة[486].

ومن اللافت للنظر أن ريبون نفسه حاول مقاومة تلك الصيغة المائعة على أساس أن دعم مبدأ ثنائية المعدن الأساسى للعملة يتعارض مع مبادئ الإقتصاد السياسى، وسوف تؤدى إلى نتائج خطيرة[487]، وقد كانت تلك المسألة من بين الإختلافات بين بارنج وريبون القائمة على تباين الخبرة الإقتصادية لكل منهما، وكذلك الإختلاف حول السياسة عامة الذى استمر طوال فصل الصيف فى سملا، ورأى بارنج أن ريبون ليس الرجل المناسب لتنفيذ التغييرات التى يطلبها الوضع. فقد جأر بالشكوى منه قائلاً: "إذا كان المطلوب أن تغرق أمور الهند

---

[485] يجب تذكر أن نورثبروك قد قاوم بضراوة محاولة سولسبرى تعيين مثل هذا المندوب فى 1874 – 1875، بغرض التوصل إلى سياسة أفضل لمواجهة المجاعة وأعمال الإغاثة، وليس لتشجيع استثمارات القطاع الخاص.

[486] Report of the International Monetary Conference of 1881, by Sir Louis Mallet and Lord Reay, 14 Feb. 1882.

[487] Quoted in L. P Mathur, Lord Ripon's Administration in India (1880 – 84), New Delhi, S. Chand, 1972) 188 – 9.

فى سبات عميق، فهو نائب الملك المناسب لذلك.. أما الإصلاح فلا يوافق هواه"[488]. ويبدو أن بارنج ظل يرى فى نفسه المقاتل الوحيد فى المعركة، ويتجلى ذلك خطابه التالى لمالت الذى أكد فيه أنه بينما تحتاج الهند إلى أن يحكمها وزير له سمة رجل الدولة، فإن من يتولى أمرها الآن – بدلاً من ذلك– هؤلاء:

1. نائب ملك يعشق الحلول الوسط.
2. عضو قانونى ماهر إلى حد ما، ولكنه ليس سياسياً.
3. أربعة من البيروقراط: مدنيان، وعسكريان.
4. عضو مالى إنجليزى راديكالى، يعانى من العزلة وفقدان الأمل.

وكان ذلك أقوى تعبير عن انتمائه للجناح الراديكالى لحزب الأحرار طوال حياته السياسية خارج إنجلترا، وهو وضع أخذ يتراجع عنه تدريجياً فى السنوات العشر التالية.

وما لبثت مشاجرات بارنج مع نائب الملك أن تحولت إلى حرب معلنة عندما بدأ يضع مقترحاته الشخصية بشأن الميزانية التالية فى عدد من المذكرات التى أصبحت مطروحة للتداول فى منتصف سبتمبر. وقد اقترح إلغاء العوائد الجمركية على جميع الواردات ما عدا ما كان مقرراً على الخمور. خفض عام – مع مراعاة التعادل– لضريبة الملح، وبعض الإعفاءات الضريبية فى بعض الولايات الفقيرة مثل أوض Oudh والولايات الشمالية الغربية، مع تعويض النقص فى الضرائب الناجم عن ذلك فى تحويل ضريبة الرخص إلى ضريبة على الدخل الذى يزيد عن ألفى روبية يدفعها موظفو الحكومة، والمهنيون، وملاك الأراضى فى الولايات الوسطى والبنغال الذين يدفعون ضرائب أطيان بسيطة.

وقد استخدم بارنج ثلاثة إدعاءات أساسية لدعم مقترحاته، أولها أن العوائد الجمركية على الواردات تتعارض مع مبادئ الإقتصاد السياسى وإلغاؤها يضع نهاية لخلاف ممتد بين حكومتى الهند وبريطانيا، وثانيها أنه فى حالة إلغاء تلك العوائد يجب البحث عن مصادر إيرادات أخرى لموازنة الإتفاق الحكومى الهندى، وأخيراً، فإن هذه المقترحات تتجه إلى فرض

---

[488] Baring to L. Mallet, 1 July 1881, CP/1, Mallet Correspondence.

الضريبة على الأغنياء وتخفيف الأعباء الضريبية عن كواهل الفقراء، وخاصة أكبرها فى مجتمع شديد الحرارة، ويعنى بها ضريبة الملح[489].

وكان رد فعل ريبون محبطاً، مما أدى إلى تبادل عدد من الرسائل بينه وبين بارنج، فقد رأى نائب الملك أن المقترحات بالغة التطرف، وأن الأمر يتطلب الحذر، بينما أبرز بارنج – من جانبه– الحاجة إلى ضرورة اتخاذ مواقف حاسمة. ولجأ كل منهما إلى حكومة جلادستون لدعم موقفه، مما دفع كل منهما إلى عرض وجهة نظره فى إطار المبادئ العامة وليس التفاصيل، ولذلك عندما زعم ريبون أن ضريبة الدخل التى يقترحها بارنج، تتعارض تماماً مع السياسة التى وضعها نورثبروك عام 1873، رد بارنج بأن الأمور قد تغيرت، ولابد أن تواكب السياسة ذلك التغيير، وعندما طلب ريبون تأجيل المقترحات حتى يتم استطلاع الرأى العام الهندى بشأنها، رد بارنج مستندا إلى عدة حجج تم تحديدها بالإشتراك مع لويس مالت، هى أن اتجاه حكومة الهند إلى استطلاع رأى النخبة الهندية الثرية، بينما من واجبها أن تضع فى اعتبارها الطبقات الفقيرة أيضاً، يجعلهم يشترون البضائع المستوردة بسعر أرخص وخاصة المنسوجات القطنية، وأنه إذا كان على الهند أن تتخلص من "الشرور الفردية" الناجمة عن غياب المؤسسات "وجب عليها الاستفادة من وجود سلطة تنفيذية قوية"[490]. وكان الملجأ الأخير لبارنج هو إعتقاده الراسخ أن الحكومة الحالية "حكومة حزب الأحرار" "لديها واجب خاص لمعالجة الإصلاح المالى فى الهند معالجة شاملة وجريئة"[491].

ونقل النقاش حول المقترحات إلى مجلس نائب الملك الذى كان لا زال منعقداً بسملا، وهناك أعلن ريبون عدم رغبته فى قبول اقتراحين أساسيين، هما: إلغاء العوائد الجمركية على الواردات، وإعادة فرض ضريبة الدخل؛ لأنهما سوف يثيران سخط الرأى العام الهندى. وكحل وسط، اقترح تأجيل الأجزاء الأكثر إثارة للجدل فى الموازنة إلى العام التالى.. وقد عد بارنج ذلك نوعاً من "التخاذل"[492]. إنقسم المجلس حول الموضوع، ولكن بارنج وجد مساندة بعض الأعضاء حتى أن ريبون خشى رفع الأمر إلى لندن، وهى خطوة قد تدفع ريبون إلى الكشف

---

[489] e. g. Wolf, Life of the Marquess of Ripon, ii, 72; Baring's Memorandum to the viceroy of 26 Sept. 1881, RP, Add. MS. 43546, CVI.

[490] Baring, Confidential, 26 Sept. 1881, ibid.

[491] Enclosure in Baring to Ripon, 7 Oct. 1881, ibid.

[492] Baring to L. Mallet, 8 Oct. 1881 CP/1, Mallet Correspondence.

عن كفاءته[493]، وأصبح الأمر يتوقف على الطرف الذى سوف يحظى بتأييد مجلس الوزراء البريطانى فى لندن، وكان من المتوقع أن ينال بارنج تأييد هارتنجتون (وزير الهند)، بينما كان نورثبروك يدعو إلى حل وسط، كما أن عرض المسألة على مجلس الوزراء يتوقف على قدرة كل منهما على ضبط النفس لأطول فترة ممكنة.

وربما كان ذلك وراء اختيار ريبون هذا الوقت بالذات لمغادرة سملا فى رحلة صيد، بينما بقى بارنج مع عائلته فى المخيم الذى أقامه بين التلال، واستمر يحض لويس مالت على تبنى موقفه وكذلك فعل مع برمروز Primrose السكرتير الخاص لريبون؛ لإعتقاده أنه يميل إلى تأييده، وشعر ريبون أن موقفه ليس مؤيداً من لندن فى مسألة تجعل سلطته كنائب للملك عرضة للخطر. ومن ثم لمح لنورثبروك بالتفكير فى الاستقالة. ويكشف خطابه المؤرخ 15 أكتوبر عن حالته النفسية والمزاجية عندئذ؛ إذ يقول:

"إذا كنت وبارنج على خلاف الآن، فلست أدرى أن أى موقف سوف يتخذه هارتنجتون، فقد تأكدت أن مقترحات بارنج نالت تأييد مالت، وتأثير مالت على الوزير (هارتنجتون) معروف فى هذه الأمور. ولعلك تقدر دقة موقفى إذا رفضت وجهة نظرى.. إن ذلك لن يكلفنى سوى العودة إلى الوطن، فصحة زوجتى ليست على ما يرام، ولا أدرى مدى تأثير الطقس هنا على حالتها الصحية. وبدأ ضغط العمل يثقل كاهلى، فإذا كانت الحكومة لا تريدنى هنا أكثر من ذلك، فلن أشعر بالأسف لعودتى إلى بلادى، أما إذا رأت أننى ما زلت نافعاً هنا، فليست لدى الرغبة فى الهرب من العمل"[494].

ورغم التحذيرات التى أثارها هذا الخلاف فى لندن، استمر الصراع طوال نوفمبر مع عودة جميع الأطراف إلى كلكتا، وقد قام بارنج وأسرته بزيارة دلهى فى طريق العودة، عندئذ أدرك كل من الرجلين أن نورثبروك وحده هو الذى يحمل مفتاح الحل، وهذا يفسر سلسلة الرسائل التى كتبها ريبون له، حتى يعمل على كبح جماح إبن أخيه على نحو ما جاء بخطابه المؤرخ فى 15 نوفمبر :

---

[493] Ibid.
[494] Quoted in Wolf, Life of the First Marquess Ripon, II, 75.

"إننا (بارنج وأنا) نتفق من حيث المبدأ، ويمكن القول إن الفارق الوحيد بيننا أنه متمسك بالنظرية، بينما لا أفعل ذلك. وأعتقد أن أى سياسة مبنية على أساس نظرى تؤدى إلى نتائج خطيرة فى الهند. لقد جاء إلى هنا حاملاً معه سياسة جاهزة أعدها مع لويس مالت فى وزارة الهند دون أن يأخذا فى اعتبارهما ظروف الهند أو الرجال الذين يعملون بها. ومالت أكثر نزوعاً إلى النظرية من بارنج وأكثر منه إيماناً بمساوئ وضعف الخدمة المدنية بالهند. وأظن أنه هو ومالت إعتقدا أننى رجل لا لون لسياسته، بل ليس له رأى أو سياسة، وهو ما يجافى الحقيقة"[495].

إنه نقد مرسل، ولكنه لا يخلو من الحقائق، فقد كان بارنج قد تبنى قضية لها منطقها الإقتصادى التى قد يرى البعض عدم ملاءمتها لظروف الهند، فهو ومالت يجدان أمراً متفقاً عليه فى لندن أن الهند ليست مستعدة بعد للإتجاه نحو التقدم بالقدر الذى يسمح بالتحول من نظام الضرائب غير المباشرة إلى الضرائب المباشرة.

ولكن محاولة الدفع بهذا التطور رغم معارضة جلادستون ونورثبروك وريبون الذين كانوا ضد هذا التحول على وجه الخصوص، شئ آخر[496]. إنه يبدو منافياً للدروس التى تعلمها بارنج من نورثبروك حول قوة المعارضة المحلية لكل من الرخص وضريبة الدخل.

وهناك دليل على أن بارنج بدأ يدرك ذلك قبل مغادرته سملا[497]، وعندما صحب إيثل فى رحلة إلى دلهى أعاد ترتيب أفكاره فى إطار مختلف، ولما كان نورثبروك قد بدا مؤيداً له، فقد شجعه ذلك على الإتجاه نحو حل وسط، لقد كان يظن أن نورثبروك يؤيد رغبته فى "موازنة جريئة"، ولذلك أبلغ مالت أن هذه الموازنة "إنتقالية وليست نهائية"، وأنه لا يريد الآن معالجة موضوع ضريبة الرخص وضرائب الدخل "هذا العام"، وأن من الأفضل ألا يفعل شيئاً الآن بدلاً من أن يتخذ خطوة قد تعرقل التحول إلى الضرائب المباشرة مستقبلاً[498].

وهكذا، بمجرد وصول بارنج وعائلته إلى كلكتا، أصبح مستعداً للقبول بحل وسط، يقوم على الإبقاء على ضريبة الرخص كما هى عليه، وأن يوافق على تقدير أعلى لإيرادات الأفيون

---

[495] Quoted Ibid.
[496] Gopal, Viceroyality of Lord Ripon, 202.
[497] Baring to L. Mallet, 23 Oct. 1881, CP/1 Mallet Correspondence.
[498] Baring to L. Mallet, 20 Nov. 1881, ibid.

من تلك التى قدرها من قبل، وذلك فى مقابل موافقة نائب الملك على الإلغاء التام للعوائد الجمركية على الواردات وخفض ضريبة الملح[499].

وتم إرسال الوثيقة التى تحمل النسخة المعدلة من مقترحات الموازنة بعنوان: "الترتيبات المالية للعام 1882 – 1883" إلى لندن فى ديسمبر، وحصلت على موافقة وزير الهند فى الثانى من فبراير 1882. وتدفقت الخطابات الواردة من لندن تحمل أخبار الإرتياح التام لما تم التوصل إليه، جاء أحدها من الجنرال آرثر إليس Arthur Ellis الذى لام بارنج لعدم اتصاله مباشرة بهارتنجتون أو تكثيف اتصاله بنورثبروك، والتركيز على الإتصال بلويس مالت الذى كانوا يعدونه متهوراً، ومتمرداً سياسياً[500]. كان هذا التعليق دقيقاً رغم أن بارنج كان يحس براحة شديدة عندما يبث همومه مع ريبون إلى مالت، كما شجعه ذلك على التشدد فى موقفه حتى وجد المسألة كلها "مؤلمة وغير معقولة"؛ لأنها جعلته يواجه مباشرة من يشترك معهم فى الكثير فى كل من لندن والهند[501]. ولكن تلك المواجهة مثلت نقطة تحول فى علاقته مع ريبون؛ ففى قمة النزاع كتب لمالت أن يرى أن "الوضع لا يمكن السكوت عليه، وأن ذلك يضر بالصالح العام، ويعوق تطلعى إلى الإصلاح"[502]، وكرر الرسالة نفسها بعد عودته من رحلة رأس السنة التى قضاها فى بورما البريطانية مؤكداً أنه تصالح مع اللورد ريبون، ولن يتعارك معه مرة أخرى[503]، ولعل بعض أسباب أسفه يعود إلى أنه دفع إلى الإعتقاد بعدم قدرته على تغيير النظام المالى فى الهند وحده، وأن بعض أفكار نائب الملك حول طريقة عرض الميزانية كانت أفضل من أفكاره، وأنه كى يجعل من عمله فى الهند علامة فى حياته العملية يحتاج إلى ريبون قدر حاجة الأخير إليه.

---

499 Baring to L. Mallet, 4 Dec. 1881, CP/1, Mallet Correspondence.

500 Ellis to Baring, 8 Dec. 1881, (misdated as 1880), CP/1. India 1880 – 1883 Letters Received E – Z.

501 Baring, "very Private and Confidential,: For the Viceroy Only", 31 Mar. 1883, CP/2, FO 633/99.

502 4 Dec. 1881, CP/1, Mallet Correspondence.

503 Baring to L. Mallet, 9 Jan. 1882, CP/1, Mallet Correspondence.

إقامة شراكة مع ريبون

دخل بارنج واللورد ريبون فى علاقة صداقة بعدما انقشعت سحابة الخلاف بينهما، ووجدا نفسيهما على استعداد للتعاون معاً بإنسجام تام. وساعد على ذلك ما أبداه ريبون من مشاعر فياضة عندما كانت حياة إيثل مهددة بالخطر بعد إصابتها بحمى التيفود، فقد إنتقل الطفلان إلى بيت نائب الملك الذى تولى مهام بارنج الوظيفية أيضاً طوال تفرغ إيفلن بارنج لرعاية زوجته المريضة[504]، وتبع ذلك تقرير الموازنة العام 1882 / 1883 الذى قدمه بارنج فى 15 مارس 1882، والذى يكشف عن التمسك بالمبادئ والرغبة فى العمل المشترك. وإلى جانب التغيرات التوفيقية التى جاءت بالموازنة، تم تطبيق ما يعرف "بالنزعة الإقليمية"، فأصبح لكل ولاية ميزانيتها الخاصة كخطوة أولى فى الطريق إلى الإدارة الذاتية؛ حيث لم تعد الولاية تحصل على ربط مالى محدد من الحكومة، بل تحتفظ بنسبة من الإيرادات تعادل نحو 60%، يتم الإنفاق منها على متطلبات الولاية التى يتم إقرارها فى مجالس ولجان منتخبة إنتخاباً جزئياً[505].

فقد أصدرت الحكومة قراراً فى سبتمبر 1881 وقعه نائب الملك وبارنج، وجهت فيه الدعوة إلى السلطات الإقليمية للنظر فى حساباتها وحسابات البلديات لتحديد البنود التى يمكن تخصيصها للمجالس واللجان الجديدة[506]. وقضى شهر مارس 1882 فى مفاوضات حول التسويات بين الحكومة المركزية والولايات، وهو نظام أدخله اللورد مايو، وأصبح يستخدم لدفع عجلة تحول الموارد المالية إلى سلطة الولايات المحلية، وقد أولى بارنج هذه العملية إهتماماً خاصاً، وحال دون وصول تفاصيل "العقود" التى تتضمن التسويات المتفق عليها إلى لندن[507]، وعلل ذلك بأن وزارة الهند قد تسئ فهمها، وكان دافعه الشخصى لذلك هو الرغبة فى الحيلولة دون تدخل طرف خارجي فى عملية يراها بالغة التعقيد.

---

[504] Baring to L. Mallet, 5 Feb. 1882, CP/1, Mallet Correspondence.

[505] Financial Statement of the Government of India For 1882 – 1883, PP (1882) 48.301.

[506] Gopal, Viceroyality of Lord Ripon, 91 – 2.

[507] انظر مذكرة بارنج فى ملف بعنوان:

"Secretary of State's Observations Concerning Certain Points, relating to the detailed provincial arrangements with the local governments and administration" NAI, Department of Finance and Commerce (Accaunts and finance), A, Proceedings (Aug. 1882), 890.

وكان جانباً رئيسياً من بيان بارنج عن موازنة 1882 / 1883 منصباً على التركيز على أن الإيرادات الناجمة عن صادرات الأفيون تمثل ضرورة حيوية للشعب الهندى، ولما كانت تلك المسألة بالغة الحساسية، وخاصة أن هناك جماعة فى لندن تحارب تلك التجارة، فكان عليه أن يصوغ تلك الفقرة بحرص شديد مؤكداً أن إلغاء إحتكار الأفيون سوف يؤدى إلى أزمة خطيرة لعدم وجود مصادر ضريبية بديلة لتغطية عجز الإيرادات، وصعوبة فرض ضرائب على الهنود؛ حيث لا يزيد الدخل السنوى للفرد فى الهند على 17 روبية (2.7 جنيه إسترلينى)[508]. وإتخذ بيان ريبون نفس الإتجاه، مع التأكيد على أن الواجب الرئيسى لحكومة الهند مراعاة مصالح رعاياها (وليس مصالح أهل الصين المستهلك الرئيس للأفيون).

وإذا كان ذلك قد وخز ضمير كل من بارنج وريبون، فلعل ضميرهما قد استراحا عند الزيارة التى قام بها ماكى تشونج (سكرتير اللجنة الصينية الإمبراطورية) إلى سملا فى صيف 1881. فقد تحدث الموفد الصينى بالفرنسية مع بارنج حول موقف حكومة الهند من عقد مفاوضات حول مستقبل تجارة الأفيون، فلم يجبه بارنج. وعندما قابل نائب الملك اقترح أن يعطى للصين حق احتكار تجارة أفيون الهند لمدة 30 أو 50 عاماً، تعمل خلالها حكومة بلاده على إنقاص واردات الأفيون الهندى تدريجياً، والتوسع فى زراعته فى الصين[509]، وهذا الإقتراح يبدو لصالح حل وسط بين الحزبين المعارضين فى بكين: أحدهما يطالب بزراعة الأفيون فى الصين، والآخر يطالب باستمرار استيراده من الهند[510].

وفى كلا الحالتين تبدو الحكومة الصينية – فى نظر الإنجليز– أكثر استغلالاً لشعبها مما يفعله الإنجليز بالهند، وتم نقل الإقتراح إلى لندن حيث يدخل ذلك فى اختصاص وزارة الخارجية، ولكن لم يتم التوصل إلى شئ بهذا الصدد.

وقد أوضح بارنج وجهة نظره الخاصة بالتطور المالى فى المناقشات التى دارت فى المجلس التشريعى عقب إلقاء بيانه برغبة حكومتى بريطانيا والهند فى توسيع العمل فى البلاد الذى يقوم به الهنود أنفسهم، وأعرب عن أمله فى زيادة عدد الهنود العاملين فى قطاع الخدمات

---

[508] قدر هذا على أساس سعر الصرف عندئذ.

[509] Gopal, Viceroyality of Lord Ripon, 200.

[510] File marked "Opium Trade with China, NAI, Proceedings. Of Government of India, July – Dec. 1881.

بعد إزالة العقبات الإجتماعية والدينية التى تحول دون ذلك، وهى ملاحظة أثارت سخط الأعضاء الهنود، فذكره المهراجا براساد أن الهندوس الأقحاح لا يمكن أن يشجعوا مثل هذا الإتجاه، ورد بارنج بالتعليق على الفئات المتميزة بين الهنود فى صورة رد مهذب على الهجوم الذى تلقاه. فقال إنه سمع كثيراً عن حرمان الهند من المجالس النيابية، ولكنه لا يعرف من الهنود من يمكن تمثيلهم بتلك المجالس سوى 228 ألفاً يدفعون ضريبة الرخص، والحكومة تعلم جيداً ما يعانونه خارج المجلس وداخله، فإذا اقتصرت الميزانية على خدمة مصالح طبقة صغيرة من الأثرياء، فإن الحكومة تضحى بذلك بمصالح الهند، وتشرع لخدمة مصالح طبقة بعينها[511].

وهنا نجد أفكاراً استمر بارنج فى تطويرها بعد عودته إلى مصر عام 1883، ومن وحى بعض مبادراته فى الموازنة الهندية، من بينها إدخال نظام صندوق توفير البريد فى البنغال ومدراس، وتشجيع الزراعة الجيدة، كل ذلك تطور على يديه فى مصر. والفكرة الثانية إلتقطها من تقرير "لجنة مجاعة الهند" هى أن اقتصار العمل فى البلاد على الزراعة وحدها "لا يوفر إيجاد سبيل لاستيعاب الأعداد المتزايدة من السكان فى أعمال يكسبون منها العيش إلا فى الصناعة والأعمال المماثلة". ولما كانت الحكومة قد اشترت مجموعة متنوعة من الإنتاج المحلى، فقد كان يأمل أن تكون استجابة رأس المال المحلى إيجابية للتعامل مع هذه السوق الآخذة فى الإتساع[512].

سملا فى 1882: اللامركزية المالية وآخر ميزانية لبارنج

حرص بارنج على نقل عائلته من كلكتا إلى سملا على مراحل يسيرة مراعاة للحالة الصحية لإيثل حتى وصلوا إلى سملا فى أواخر مارس، وما كادت الأسرة تصل إلى هناك حتى سقط بارنج مريضاً بحمى التيفود. ورغم أن الإصابة بالمرض كانت معتدلة، فإنه لم يستطع القيام بالعمل كما يجب على مدى شهرين أو ثلاثة شهور[513]، وكتب إلى ليال فى مايو: "لقد

---

[511] Discussion Following of Financial Statement of the Government of India for 1882 – 83, PP (1882), 48/293.

[512] Ibid. 319.

[513] 13N341.

أفادنى هذا التغيير أنا وزوجتى، وقد عاودتنى الحمى قليلاً، ولكنها أضعفت بدنى تماماً، فترطيب الفم بالماء القراح لا يعد شراباً"[514].

وقام بارنج فى نفس موسم الصيف بتسوية أمور تتعلق بإبنته (غير الشرعية) لويزا، فيبدو من المراسلات التى ظلت متبادلة بينه وبين الأسقف وغيره من أهالى كورفو فيما بين 1880 – 1882 أنه كان يرسل نقوداً إلى كورفو بصفة منتظمة، فهناك خطاب يقترح فيه أن يرسل 15 جنيهاً مرتين فى العام، والآخر أن يتم السداد من خلال بنك إيونيان Ionian Bank وبعض المبالغ غير المنتظمة كان يسددها لمواجهة بعض الظروف الطارئة. وفى فبراير 1882 أثار أسقف كورفو مسألة عمل ترتيبات مالية أكثر دواماً لصالح لويزا التى إقتربت من التاسعة عشر. وعرض بارنج أن يدفع 300 جنيه دفعة واحدة، ولكن الأسقف رفض العرض وطالبه بدفع 600 جنيه وديعة لدى أحد البنوك بفائدة 5%، وبذلك تدر عائداً قدره 30 جنيهاً سنوياً. وأجاب بارنج بالخطاب التالى الذى أرسله من مكتبه فى 11 أغسطس:

عزيزى الأسقف

تلقيت خطابكم المحرر 12 يوليو الذى ذكرتم فيه أن مبلغ 300 جنيه لا يكفى كدوطة تكفل للويزا زواجاً مناسباً، وطلبتم منى أن أرسل 600 جنيهاً. لقد كنت أخشى دائماً أن تربى البنت على توقعات لا يمكن تحقيقها، وإذا رجعتم إلى خطاباتى التى أرسلتها لكم طوال الأعوام الماضية، فسوف تجدونها معبرة عن تلك المخاوف، وعلى كل ليس من المفيد الآن الإصرار على هذه النقطة.

إننى لست ثرياً بأى حال من الأحوال، ولدى زوجة وطفلين ومبلغ الستمائة جنيه يتجاوز حدود قدراتى المادية، وأفكر فى الإعتذار تماماً عن الدفع على ضوء هذه الظروف، ولكنى لا أرغب – على أى حال– فى التقاعس عن ضمان السعادة للبنت، ولذلك أرسل لك شيكاً بمبلغ 600 جنيه، راجياً منك وضعه فى مجال يحقق مصلحة البنت، وأرجو أن يكون مفهوماً تماماً أننى لن ألقى بالاً لأى مطالبات مالية أخرى بهذا الخصوص فى الحاضر أو المستقبل لحساب هذه الفتاة، فقد أديت

[514] Baring to Lyall, 14 May 1882, LP, MS. Eur. F 132/39.

واجبى، بل أكثر مما يقتضيه الواجب نحوها، وعلى الفتاة أن تبحث عن عريس إذا شاءت ذلك أو تلتحق بالعمل فى مؤسسة محترمة لزيادة دخلها.

وأشكركم الآن مرة أخرى على كريم عنايتكم بهذا الموضوع، وأرجو منكم إفادتى باستلام هذا الخطاب والشيك، وبذلك تتوقف مراسلاتنا التى دامت 18 عاماً؛ لأننى لن أرسل طبعاً المبلغ الذى كنت أدفعه كل ستة شهور.

ولم تكن هذه الصفقة المزعجة التى اقترنت بالمرض الذى أصاب العائلة، لتجعل بارنج فى أحسن حالاته المزاجية؛ ففى أبريل نجده يخبر مالت أنه يفكر فى العودة من الهند إلى إنجلترا " لم يمر أسبوع منذ وصولى إلى الهند دون استدعاء الطبيب إلى منزلى"، ولكن ما كان يدعو إلى الإرتياح تحسن علاقة العمل مع نائب الملك، فبدونها لم يكن باستطاعة أحدهما أن يفعل شيئاً.

واستطرد قائلاً:

"انظر إلى قضية الإدارة الذاتية الحالية، إنها خطوة كبيرة إلى الأمام، ونحن على إتفاق تام، مما يتيح لنا هزيمة البيروقراطية بسهولة ويسر. ولكن إذا دب الإنقسام بيننا فلن يكون لى نفع، ويسرنى القول إنه ليس هناك ما يفوق علاقتنا الآن ولعلى تأثرت بالعطف الشديد الذى أبداه كل من اللورد والليدى ريبون أخيراً تجاه مشاكلى العائلية الحالية، ولكن من المؤكد أن ذلك يرجع إلى يقينى من كفاءته بقدر أكبر مما كنت فى العام الماضى، كما أننى فهمت شخصيته بصورة أحسن من ذى قبل، وأبذل ما استطعت من جهد حتى لا أجرح مشاعره الحساسة، وهو من ناحية لم يأل جهداً فى استشارتى والاستماع إلى نصيحتى"[515].

وكان الجهد الأساسى الذى يلتزم بارنج القيام به دائماً هو إعداد الموازنة التالية، وخاصة المسألة الشائكة المتعلقة بإمكانية إصلاح ضريبة الرخص، ولكن، قبل أن يوضع الموضوع موضع البحث، جاءت الأخبار المزعجة التى تتعلق بالأوامر الصادرة إلى حكومة الهند؛ لإرسال قوات إلى مصر تنضم إلى القوات البريطانية التى يقودها الجنرال جارنت ولسلى

[515] Baring to L. Mallet, 2 June 1882, CP/1, Mallet Correspondence.

Garnet Wolseley، والتى تتأهب لسحق الثورة المعادية للرقابة الأجنبية، والتى يقودها الكولونيل أحمد عرابى. وأعقب ذلك الإبلاغ البغيض أن على حكومة الهند تحمل جميع نفقات الحملة. وواجه ريبون وبارنج احتمال أن يتحول الفائض المقدر فى موازنة 1882 / 1883 ببضع مئات الألوف من الجنيهات إلى عجز كبير فى الموازنة، فأرسلا على الفور احتجاجاً إلى لندن فى 26 يوليو، ثم تلاه آخر فى 4 أغسطس، ذكرا فيهما أن مصر تدخل فى اختصاص حكومة إنجلترا وليس حكومة الهند، وأن حكومة الهند لم تستشر بشأن هذه الحملة، وأن كل ما يتحقق من مغانم من وراء ذلك العمل سيعود إلى بريطانيا وليس الهند.

كانت النقطة الأخيرة من إبداع إيفلن بارنج الذى أحس بحزن عميق؛ لإهدار النتائج التى حققها لإصلاح مالية الهند، وكذلك إهدار ما بذله من جهد فى مصر لتنظيم أمورها.

كما أن عمله فى الهند تطلب تسوية الآثار السلبية لحرب الأفغان على المالية الهندية، وما كادت الأمور تتحسن حتى جاءت تلك المهمة العسكرية الجديدة التى لا يستطيع التحكم فى تكلفتها.

وتتجلى حالة الإنزعاج التى أصابت بارنج فى البرقية المطولة التى أرسلتها حكومة الهند إلى هارتنجتون فى 14 أغسطس. وتبدأ بالتأكيد على صعوبة وضع أى خطط مالية قبل معرفة حجم مساهمة الهند فى الحملة على مصر، وكيف سيتم تقسيم تكاليف الحملة بين الحكومتين: الهند وبريطانيا بصورة مرضية، ثم قدمت عرضاً لأحوال الهند المالية، وكيف أن حكومة الهند تواجه العديد من المشاكل رغم قدرتها حالياً على حل العديد من المشاكل الصعبة. فقد تؤدى المنافسة الصينية إلى تدهور إيرادات تجارة الأفيون، وقد يحدث تدهور فى قيمة العملة التى تقوم على أساس الذهب والفضة، ومن ثم ترتفع فوائد القروض التى تقدمها البنوك البريطانية. وأخيراً فإنه بعد عقد التسويات الأخيرة بين الولايات الهندية والحكومة المركزية، لم يعد لدى الأخيرة إحتياطيات كافية لتغطية مثل هذه التكلفة الطارئة الباهظة، وختمت البرقية بالتذكير بفقر الهنود المدقع، وأن استمرار حالة السلام ضرورة حيوية لاقتصاد الهند، ونظراً؛ لأنهم لا يعيشون فى مجتمع ديمقراطى، فليس باستطاعتهم

تنظيم الإحتجاجات ضد سياسة الحروب، وما قد يترتب عليها من زيادة أعبائهم الضريبية[516].

ورغم كل تلك السحب التى تجمعت فى سماء المالية الهندية، كان بارنج يعتزم إعادة فتح موضوع إدخال نظام الضرائب المباشرة، ولكن ريبون أبدى اعتراضه، فلم يشأ بارنج المضى قدماً فى هذا الإتجاه. وبذل جهداً أخيراً لإقناع ريبون بإمكانية إصدار قانون إنشاء المجالس واللجان وفق مبادرة ريبون فى مايو 1882 لإقناع الهنود بنظام الضرائب المباشرة، ولكن المحاولة باءت بالفشل بسبب اعتراض لندن[517]. ولذلك أصبح إصلاح ضريبة الرخص مستحيلاً، وشغل بارنج نفسه بإعداد موازنة تقليدية للعام 1883 / 1884، تماماً كما فعل فى العام 1881 / 1882.

وجاء الفرج عندما أقنع ريبون جلادستون بأن تساهم لندن فى تكلفة القوات الهندية المرسلة إلى مصر بمبلغ نصف المليون جنيه، على أن تتحمل حكومة الهند باقى التكلفة التى تقل قليلاً عن 700 ألف جنيه[518].

أما العمل الآخر الأساسى الذى قام به بارنج ذلك الصيف، فهو التفاوض مع حكام الولايات الذين كان عليهم الآن وضع التفاصيل لنظام اللامركزية المالية الذى إبتدعه بارنج، عن طريق إقامة مجالس ولجان محلية لإدارة الشئون المالية فى كل ولاية من الولايات، وقد تم وضع الإطار العام لها فى القرار الصادرعن إدارة ريبون فى مايو 1882. وتضمن ذلك أن تكون غالبية أعضاء المجالس أو اللجان من غير موظفى الحكومة، وأن يتم إنتخابهم كلما كان ذلك ممكناً من الناحية العملية، وتحدد حكومات الولايات شروط الترشيح والإنتخاب بعد الاستماع إلى آراء أعيان الولاية، وتكون الولاية التامة على ما يتم جبايته من ضرائب بالولاية لذلك المجلس، الذى يتولى تحديد قيمة الضريبة وطريقة جبايتها، وبمرور الزمن يمكن أن

---

516 NAI, Department. Of Finance and Commerce (Accounts and Finances, A, Proceedings (Sept. 1882), 1211.

517 Baring, "Very Confidential: The Licence Tax", Simla 2 Oct. 1882, CP/2, FO 633/99.

518 Gopal, Viceroyalty of Lord Ripon, 204.

تحصل المجالس على حق جباية ضريبة الرخص، وهى نقطة حاول بارنج الاستفادة منها فى المبادرة سالفة الذكر[519].

وكان ألفرد ليال Alfred Lyall واحداً من الحكام الذين عليهم مواجهة هذا الأمر، فقد تم نقله حاكماً للولايات الشمالية الغربية فى أبريل 1882، متخذاً من نانيتال Nainee Tal عاصمة صيفية التى واصل منها مراسلاته ليس إلى أخته باربرا فحسب، بل وإلى بارنج نفسه. وتلقى الخطابات المتبادلة بين الرجلين ضوءاً كاشفاً على المزاج السياسى فى ذلك العصر، ويجب أن تقرأ على ضوء وجود أفكار القومية والحكم الذاتى التى كانت تحوم فى الأفق بتأثير مطالبة أعضاء البرلمان الإنجليزى من الإيرلنديين بالحكم الذاتى، وشعار ثورة عرابى "مصر للمصريين"[520].

كان ليال واعياً بأهمية ما يبذل من محاولات فى هذا الصدد، وإن كانت لديه بعض الشكوك رغم تأييده العام لها، فكما جاء فى خطابه إلى أخته باربرا فى يونيو:

"لقد فعل ريبون وبارنج كل ما فى استطاعتهما للإبقاء على دوران الكرة، بنشر الدعوة إلى إدخال نظام انتخابى عام للمجالس والبلديات فى الولايات، ولست متأكداًمن الإتجاه الذى ستدور نحوه الكرة، ولكن مع انتشار النظام وتقوية أركانه، سوف تصبح أعباء إدارة تلك الأصقاع محتملة"[521].

كان بارنج مهموماً بتحقيق كل ما من شأنه تصحيح المسار الذى ألزم نفسه ونائب الملك به؛ فبعد تقرير مطول أرسله إلى ليال حول الأزمة المصرية القائمة عندئذ، وشعار "مصر للمصريين" استطرد قائلاً إنه يعتقد أن صيحة: "الهند للهنود قد تنطلق بعد حين، ربما أقرب مما يتصور الكثير من الناس، ومن المهم أن ندرك أن اللحظة آتية، وأن نستعد لها تماماً، فمثل هذه الحركة يمكن التحكم فيها لو أحسنا توجيهها، ومنعنا حدوث الإنتقالات المفاجئة".

---

[519] Ibid, 94.

[520] كان شعار "مصر للمصريين" موجهاً بصورة أكبر نحو الترك من النخبة المحلية، وليس لإقامة دولة وطنية مستقلة Scholch, Egypt, For the Egyptians ! 310 – 11.

[521] Lyall to Barbara Lyall, 9 June 1882, LP. MS Eur. F 132/7.

"لا أظن أن الساسة الإنجليز.. يعترفون اعترافاً كافياً أن الهدف النهائى للحكم البريطانى فى الهند هو تدريب الشعوب على حكم أنفسهم بأنفسهم، ولا يكاد الإنجليز – الهنود أن يدركوا عمق التغيرات التى تحدث أمام أعينهم، وهو أمر طبيعى على أية حال– فأنا لا أشعر بتقدمى فى السن كلما نظرت فى المرآة كل صباح لحلاقة ذقنى، ولكن أصدقائى سوف يلاحظون ذلك عندما أعود إلى إنجلترا، ومن السهل عليك أن ترى أن شعار الإدارة الحالية (فى الهند) هو الإعداد للتغير التدريجى. دعنا نتحرك بحذر ولا نلجأ إلى السرعة، وإلا تجاوزتنا الهند، وتحركت وحدها على طريق التغيير"[522].

ويبدو المنطق واضحاً تماماً، ولا يعود ذلك إلى إيمان بارنج بالإدارة الشعبية، فمهما كانت الحاجة إليها شديدة، على الأقل بين المتعلمين فى بريطانيا والهند، فإن من الحكمة إمعان النظر فى الأمر بدلاً من تجاهله تماماً، وكما جاء فى خطابه إلى ريبون فى أغسطس 1882: "سواء قبلنا أو لم نقبل بفكرة البابو Baboo التقليدى، فإن علينا أن نعترف بوجوده"[523]، ووضع نفس الفكرة بوضوح تام فى خطاب كتبه إلى مالت فى الشهر التالى جاء فيه: "لن نقلب الإمبراطورية البريطانية رأساً على عقب إذا سمحنا للبابو البنغالى بمناقشة أمور مدارسه، وما يصيب بلاده من جفاف، بل علينا أن نزوده بصمام أمان إذا وجهنا عنايته إلى تلك الموضوعات الشائكة"[524].

كان مصطلح "بابو Baboo" يستخدم لإحترام المخاطب، مثل "السيد"، ولكنه يستخدم هنا بالمعنى الوارد فى قاموس هوبسون جوبسون: "نوع بسيط من التواضع الذى يميز الرجل البنغالى المشعوذ رقيق الحاشية"[525].

أما ليال، فقد بنى موقفه بصورة أوضح فى إطار الداروينية الإجتماعية التى كانت ذائعة عندئذ. فقد كتب إلى بارنج فى 27 يوليو 1882 مبدياً إعتراضه على نظريته القائلة بأن

---

[522] Baring to Lyall, 19 July 1882, LP, MS Eur. F 132/19.

[523] Baring to Ripon, 3 Aug. 1882, RP, Add. MS 43596 CVI.

[524] Baring to L. Mallet, 25 Sept. 1882, Quoted in Gopal, Viceroyalty of Lord Ripon, 95.

[525] Colonel Henry Yule and A. C. Burnell (eds.), Hobson – Jobson: A Glossary of Colloquial Anglo – Indian Words and Phrases (New Delhi: Rupa 1994; First Pub. 1886), 44.

الهدف النهائى للحكم البريطانى فى الهند هو تدريب الشعوب على حكم أنفسهم بأنفسهم، فقال:

"تأسيساً على نظرية الوجود التى تقر بالإبقاء للأصلح التى تنطبق على الإنسان والنبات، ولا أعلم أن ثمة أمة فى التاريخ تعلمت على يد أمة أخرى كيف تحكم نفسها بنفسها وكيف تمارس استقلالها، فكل أمة شقت طريقها بالقتال كما فعلت بريطانيا، يحركها إيمان عظيم بالمبادئ، واستعداد تام لبذل الدماء عندما يتطلب الأمر ذلك. إن مشكلتنا ليست مع الهنود المتعلمين، ولكنها مع الجنس الأقوى منا فى آسيا، سواء كانوا الأفغان أو الروس أو الصينيين"[526].

إنه درس كان على الشعوب الخاضعة للاستعمار أن تعيه بنفسها عندما أدركت أن عليها أن تحارب الإنجليز من أجل الحصول على استقلالها.

كلكتا: الشئون المالية وصدمة قانون إلبرت

وعندما عاد بارنج إلى كلكتا، كانت هناك ثلاثة أمور أساسية تستأثر باهتمامه أولها: وضع اللمسات الأخيرة على البيان الخاص بموازنة 1883 / 1884، وثانيها: وضع مسودة رسالة طموحة تهدف إلى إرساء مجموعة من المبادئ العامة التى تتبع عند إقامة خطوط السكك الحديدية مستقبلاً، وأخيراً: العودة مرة أخرى إلى الموضوع المعقد الخاص بضريبة الرخص، وقد دفعه إلى الإهتمام بموضوع السكك الحديدية ترقية تيودور هوب إلى منصب عضو الأشغال العامة بمجلس نائب الملك، فقد أصبح هناك من يشارك بارنج تناوله الجرئ لأمور الإدارة، وبحلول يناير 1883 أعدا مجموعة من المقترحات التى صممت لتجاوز الجمود الذى سببه اعتراض وزير الهند على السياسة الشاملة المتعلقة بإنشاء السكك الحديدية فى سبتمبر 1881، وتضمنت خطتهما المقترحة دفاعاً عن قرار العرض المقدم من روتشيلد لتكوين شركة سكك حديد وسط البنغال، وهى شركة محدودة ذات ضمان مدته خمس سنوات، باعتباره عرضاً "مأموناً يقدم ضمانات معقولة" يمكن اتخاذها نموذجاً للتعامل مع

---

[526] CP/1, India 1880 – 1883, Letters Received, E – Z.

المستثمرين الآخرين. ولكن هارتنجتون علق الموضوع؛ لأنه كان مصراً على أن رأس المال الخاص يمكن أن يتوفر دون ضرورة تقديم مثل هذه الحوافز[527].

كانت مقترحات بارنج – هوب تحاول أن تقيم بناءً على أساس تجربة العاملين السابقين التى تمت خلالها ترتيبات أولية مع أربع – على الاقل– من الشركات الخاصة قدمت لثلاث منها بعض الضمانات، وقد رأيا أن الوقت قد حان لإنهاء تلك المفاوضات المضيعة للوقت بالعودة إلى المبادئ العامة، وكانت تلك المقترحات بمثابة الثورة التى تدعو إلى سياسة مباينة تماماً للسياسة القديمة التى تطالب الدولة ببناء الخطوط عديمة الجدوى إقتصادياً (غير المثمرة بلغة تلك الأيام) وترك الخطوط "المثمرة" للشركات الخاصة دون تقديم ضمانات سوى تقديم الأرض التى تقام عليها الخطوط للشركة كمنحة من الدولة[528].

وقد استغرقت المسألة من اللورد كمبرلى Lord Kimberley – الذى خلف هارتنجتون فى وزارة المستعمرات– وقتاً طويلاً لدراستها ووصل رده فى 16 أغسطس 1883، عندما كان بارنج يتأهب لمغادرة الهند. وقضى الرد بتعليق المسألة مرة أخرى لحين انتهاء لجنة برلمانية شكلت خصيصاً لهذا الغرض من دراسة الموضوع. ومن الواضح أن الأمر كان أكثر تعقيداً مما كان يظن ريبون وبارنج وهارتنجتون، ولم يجد معها نفعاً ما توصلت إليه عملية مسح الأراضى التى سوف تقام عليها سكك حديد وسط البنغال من نتائج مبشرة بالخير، مما أدى إلى مزيد من الحرج عندما تم التفاوض على عقد جديد عام 1887 بمساهمة مالية كبيرة من الحكومة[529]. غير أن خبيراً معاصراً هو هوراس بل Horace Bell يرى أن مشروع بارنج – هوب لإيجاد أسس للتمييز بين بناء الخطوط الحديدية المثمرة وغير المثمرة ما لبث أن أصبح موضع التنفيذ؛ حيث اتخذته سكك حديد حكومة الهند دليلاً للعمل فى التسعينيات من القرن التاسع عشر[530].

---

527 Bell, Railway Policy, 33 – 4.

528 Government of India to Secretary of State, 23 Jan. 1883, NAI, Department. Of Finance and Commerce (Accounts and Finance) A, Proceedings (Jan. 1883) 244 – 6.

529 Bell, Railway Policy, 81.

530 Ibid., 57.

وقد برهن تعامل بارنج مع مسألة ضريبة الرخص على أنها قضية لا تقل صعوبة عن سياسة تشييد السكك الحديدية. فبعد جهد جهيد أعد مسودة تقرير مفصل عن المسألة، كتبه بخط اليد وجاء فى 20 ألف كلمة، وضع له عنوان "شديد الخصوصية وسرى لنائب الملك وحده"، مؤرخ 31 مارس 1883[531]. والتقرير يحمل السمات المميزة لتقارير بارنج فى تلك الفترة من حيث سوق الأدلة التى تقود إلى أن ثمة طريق واحد للسير قدماً فى حل المسألة.

وفى هذا الصدد ذكر أن إلغاء الضرائب الجمركية أدى إلى إنهاء الجدل حول الضرائب المباشرة فى مواجهة الضرائب غير المباشرة، يجعل الإنتقال إلى نظام الضرائب المباشرة أمر لا مفر منه. وظلت مسألة وضع ذلك المبدأ موضع التنفيذ غير واضحة، رغم ميوله إلى إدخال هذا النظام على الضرائب المحلية وليس الضرائب المركزية.

والتقرير عبارة عن وثيقة شديدة الخصوصية، كتبت فى الغالب بقصد إثارة حماس نائب الملك، ولا يهدف إلى إثارة مشكلة أخرى معه، فكتب بارنج عن مشكلته فى محاولة دفع عجلة التفكير قدماً إلى الأمام، ويشرح تطور اهتمامه بالقضية، والطريقة التى تعامل بها مجلس وزارة الهند بإهمال معها فى 1881.

وذكر كيف قدم مشروعاً جديداً عام 1882 كان يهدف إلى إدخال نظام الضرائب المباشرة بصورة أبطأ إيقاعاً، وأقل مدعاة إلى الخلافات السياسية، ولكن ذلك لم يلق تقديراً كافياً فى لندن، مما جعله ونائب الملك يطرحان القضية مرة أخرى عام 1882 / 1883. وعلق الموضوع عند هذا الحد. ويتضح من حجم التقرير، والإهتمام الذى بذله بارنج فى إعداده، إنه كان يأمل فى أن يبذل ريبون محاولة أخرى.

وفى تلك اللحظة، قبيل استدعائه إلى مصر، توقف التفكير تماماً فى البحث عن إتجاهات جديدة، وعلق الموضوع برمته نتيجة الأزمة السياسية التى نجمت عن الإضطراب الإنجليزى الهندى الشديد الذى صاحب نشر "قانون تعديل الإجراءات الجنائية" الذى وضعه السير كورتناى إلبرت Courtenay Ilbert العضو القانونى بمجلس نائب الملك، فى الثانى من فبراير. وبدا بذلك أشهر نزاع فى تاريخ الهند البريطانية، وإن كان المؤرخون الهنود ينزعون

---

[531] CP/1, FO 633/99.

عنه صفة الشهرة، ويتعلق القانون بمحاكمة الأوروبيين بمحاكم الأقاليم فى الأماكن البعيدة عن عواصم الولايات الهندية، وكان الحق فى مثل هذه المحاكمات قد منح لهم عام 1872 عندما لم يكن هناك سوى قضاة من الإنجليز ومدعين يمكن الإعتماد عليهم فى نظر تلك القضايا. وحتى ذلك الوقت الذى لم يكن فيه سوى أربعة هنود فى السلك القضائى، كان من المسلم به أن الموضوع سوف يثار مرة أخرى عاجلا أو آجلا، وهو الموضوع المتعلق بدور القضاه الهنود فى المحاكم الإقليمية. وقد تمت محاولة لطرح الموضوع بمجلس نائب الملك قبل وصول نورثبروك وبارنج إلى الهند عام 1872 باءت بالفشل، وظل النظر فى قضايا المحاكم الإقليمية من اختصاص القضاة الإنجليز وحدهم.

وقد طرحت المشكلة جدياً مرة أخرى عام 1881، وبينت المناقشات التى دارت بمجلس نائب الملك أن بارنج وعضو آخر هو جيمس جبس James Gibbs كانا يؤيدان إعطاء القضاة الهنود حق النظر فى قضايا الجنايات التى يتهم فيها الأوروبيين، ولكن ريبون رأى عدم مناسبة التوصل إلى قرار لوجود أربعة أعضاء ضد إدخال ذلك التعديل[532]، ولكن نائب الملك دفع إلى إعادة نظر الموضوع بحدثين وقعا عام 1882، أحدهما إلتماس تقدم به بيهارى لال جوبتا Behari Lal Gupta القاضى الهندى الذى عين فى أعالى البنغال لمنعه من محاكمة الأوروبيين. والحدث الثانى خطاب تلقاه نائب الملك من حاكم البنغال السير أشلى إيدن Ashley Eden أشار فيه إلى أن قاضى المحكمة الإقليمية الهندى لا يجب أن تقل سلطته عن مرءوسه البريطانى أو زميله الهندى فى مقر الولاية الذى يتمتع بنفس السلطة.

وقد تم إرسال خطاب إيدن إلى حكومات الولايات كإجراء روتينى لاستطلاع الرأى فيه، وبدا أن الجميع فى صف إلغاء القيد على سلطة القاضى الهندى فيما عدا عضواً مدنياً واحداً فى مجلس مدراس حذر من أن أى تحرك فى هذا الإتجاه سوف يؤدى إلى معارضة شديدة من جانب المجتمع الإنجليزى الهندى. ورفع الأمر إلى لندن حيث أقر مجلس وزارة الهند الخطوط العامة لمشروع جديد، فيما عدا تحذير تلقاه المجلس من السير هنرى مان Henry Maine الذى غاب عن الجلسة، وأبدى رأيه كتابة محذراً من عواقب ذلك. وبطريقة ما لم يتم عرض وجهة نظر مان على هارتنجتون عندما أرسل موافقته إلى كلكتا، وهو قصر نظر

[532] Gopal, Viceroyalty of Lord Ripon, 127 – 8.

من جانب وزير الهند الذى لامه بارنج فيما بعد لوضعه خطاب هنرى مان فى جيب معطفه ونسيانه له تماماً؛[533].

وأصبح إلبرت طليق اليد فى إعداد مشروع القانون الخاص بذلك، وقد جاء معيباً بكل المقاييس، ولم يكتف بالاستجابة لالتماس القاضى جوبتا فلم يوسع القانون من صلاحيات القضاة الهنود فى المحاكم الإقليمية فحسب، بل أطلق يد حكومات الولايات فى منح حق محاكمة الأوروبيين لقضاة يقلون مرتبة عن جوبتا[534]. فالتقط الأوروبيون فى الهند هذا الخيط للهجوم على ريبون، الذى لجأ إلى إثارة الرأى العام "لعدم وجود مبرر للخوف من القضاة الهنود" والظن بأن كل أوروبى قد أصبح عرضة للخطر[535].

وجاءت بادرة المتاعب الحقيقية فى اجتماع عام ببلدية كلكتا فى 28 فبراير عندما اتخذ جمع غفير من الإنجليز الهنود قراراً بالإحتجاج على القانون. وكانت الضوضاء الصادرة عن الإجتماع شديدة حتى إن صيحات الإحتجاج والوعيد وصلت إلى آذان ريبون فى مكتبه بقصر الحكومة المجاور[536]. وكان هناك قلق حول مدى قدرة الحكومة على الحفاظ على النظام مع وجود ما لا يزيد عن سبعين أميناً إنجليزياً للشرطة فى كلكتا[537].

ونوقش الموضوع – مرة أخرى– فى اجتماع مجلس نائب الملك فى التاسع من مارس، وهو إجتماع لزم فيه بارنج الصمت على غير عادته. وقد فسر ذلك – فيما بعد– بأنه لم يتعود على الخطابة، وأن النقاط التى تبادرت إلى ذهنه تناولها آخرون فى أحاديثهم بإيضاح تام[538]، وهو مبرر لا يكفى من رجل كان من المتوقع أن يكون الذراع اليمنى لريبون. ويبدو أن الأمر كله كان مفاجئاً، فلم يستطع إعمال الفكر فيه، فكما يذكر "بالملاحظات"، بادر بتأييد القانون عندما أرسل إليه إلبرت مشروعه بعدما علم أنه قد تم استطلاع رأى الموظفين المحليين. ولكنه يعترف بأنه فعل ذلك دون دراسة المشروع المقترح بدقة لظنه أن المسألة

---

533 Zetland, Lord Cromer, 79 – 80.

534 Gopal, Viceroyalty of Lord Ripon, 136 – 7.

535 Ibid, 138.

536 Quoted in Louis L. Cornell, Kipling in India, New York 1966, 57.

537 Uma Dasgupta, "The Ilbert Bill Agitation 1883, in Ravi Dayal (ed.), We Fought together for freedom, Chapters from the Indian National Movement (New Delhi, Oxford University Press 1995), 59.

538 Farewell Speech of 27 Aug. 1883, Quoted in Zetland, Lord Cromer, 80 – 1.

"ذات أهمية فنية"، وأرجع ذلك إلى ضغوط العمل[539]. وفى تفسير آخر – فيما بعد– ذكر أن القانون يقوم على مبادئ كانت موضع موافقته منذ زمن طويل، وربما كان ذلك يعود إلى خدمته الأولى بالهند مع اللورد نورثبروك.

ويبدو أن بارنج قد فوجئ – وبقية زملائه– بقوة المعارضة الإنجليزية الهندية ضد ريبون وكل ما قام به من أعمال، وكان رد الفعل الأول عنده الذى وعاه طوال حياته الوظيفية – فيما بعد– هو أسفه لإثارة القضية فى المحل الأول؛ "لأن الفائدة المحدودة للإصلاح تفوق إختلال التوازن الناجم عن السخط الذى يترتب عليها". ولكن ما دام القرار قد إتخذ بالفعل، فإن هيبة الحكومة وقوة أهدافها "تتطلب المضى قدماً فى المسألة إلى نهايتها"[540]، ولذلك لم يكن أمامه مفر من تأييد نائب الملك تأييداً تاماً لما أبداه من شجاعة. "لقد رفعت مسألة إلبرت من قيمة ريبون فى نظرى بنسبة 100%، فهو حازم صلب الإرادة لا تلين له قناة" على نحو ما ذكر لمالت[541].

عقد مجلس نائب الملك إجتماعاً قصيراً إتخذ فيه قراراً بإحالة القضية إلى لندن طلباً للمشورة، وذلك قبيل الإنتقال إلى سملا فى 17 مارس، وهو أكثر التواريخ تبكيراً بالإنتقال سواء فى عهده أو فى عهود من سبقوه من نواب الملك، واعتبر خصومه أن هذا الإنتقال المبكر إنسحاب مشين، وعبر عن ذلك رودوارد كبلنج Rudward Kipling فى قصيدة نشرت فى 29 مارس، جاء فى ختامها:

بسبب فكرته (ريبون) عن غضب الوطنيين،
عارضت الهند، وثارت،
وعندما يشتد غضب الهند،
نجده يقول: "إنتهى النقاش"
فالحر يضر بصحتى
أحن إلى ثلوج الهمالايا.

---

[539] BN, 348 – 55.
[540] Compare Baring to L. Mallet, 27 Feb. 1883, CP/1 Mallet Correspondence. And BN, 348 – 55.
[541] 6 Mar. 1883, CP/1, Mallet Correspondence.

وبفضل السلطات الخاصة بمنصبه،
والمراوغة التى يتسم بها،
أصم أذنيه عن نصف الأمة،
وتركها تزمجر وحدها،
ومعه تشريع (ماهاب) المثير،
خفق بجناحيه وطار[542].

وبعد الوصول إلى سملا تلقى بارنج طلباً بالاستدعاء إلى مصر كخلف لمالت القنصل البريطانى العام، ورغم تردد ريبون فى الترخيص له بالذهاب إلى هناك، قرر الموافقة على الطلب، وكان ذلك يعنى تماماً توجيه ضربة لنائب الملك وإصلاحاته.. عندئذ كان تأييد بارنج الصريح لقانون إلبرت، مما أثار انتباه الصحافة الإنجليزية – الهندية. ووفقاً لما ذكره فى "الملاحظات"، كان يتعرض للهجوم مثل ريبون تماماً[543].

غير أن بارنج كانت لديه بعض الشكوك حول تصرفه فى هذه القضية؛ ففى خطاب ألقاه فى 27 أغسطس بإحدى حفلات التوديع التى أقامتها له جمعية شرق الهند، أحس أن عليه تفسير صمته فى اجتماع مجلس نائب الملك فى التاسع من مارس، ولكنه أكد أنه "موافق تماماً" على القانون فى النص الأصلى الذى قدم به، طالما كان ذلك يتمشى مع المبادئ، وأنه ما زال متمسكاً برأيه الذى أبداه قبل تسعة شهور[544].

وقدم بارنج وجهة نظره بإسهاب فى مقال كتبه لمجلة "القرن التاسع عشر" نشر فى أكتوبر، دافع فيه عن قانون إلبرت، ويعد هذا المقال التعبير الأساسى عن موقفه من الموضوع، بهدف تقوية مركز ريبون فى لندن، مستخدما النقاش الذى داربينه وبين ريبون قبل مغادرته الهند، ويشير المقال إلى القضية باعتبارها تعبيراً عن الصراع بين مجموعتين متعارضتين

542 Rudyard Kipling, "A New Departure", In Early Verses, 184 – 5. Ma – bap is translated as ingratiating.

543 BN 348 – 55.

544 مقتبس من Zetland, Lord Cromer, 80 – 1 الإشارة إلى "تسعة شهور" غريبة، ومن المرجح أنها زلة قلم، فعدد الشهور ستة وليس تسعة، منذ أن رأى المشروع الأول لقانون إلبرت. ومع ذلك ربما كان يشير إلى نقاش سابق لرسالة إيدن.

حول ما إذا كان يجب أن تحكم الهند وفق المرسوم الملكى الصادر فى 1858 "الذى يتبنى سياسة رجعية معادية للوطنيين الهنود"، الذى صاغه جانب من الجالية الأوروبية بالهند. وقد أيد بارنج الوضع السابق الذى يحظى بتأييد الصحافة الحرة، وبترقية التعليم، وإدخال الهنود فى الخدمة المدنية[545].

زادت معارضة قانون إلبرت إتساعاً خلال الصيف، وأدت إلى إنشاء "جمعية الدفاع عن الأوروبيين والإنجليز الهنود" بالهند، وظل ريبون متمسكاً بموقفه، ولكن دوائر الحكومة سادها إجماع على ضرورة إدخال تغييرات على القانون على ضوء ما جاء برد وزير الهند فى 24 يوليو، بعد طول انتظار، ولعل رحيل بارنج كان وراء جنوح ريبون إلى البحث عن حل وسط، بعدما لم يعد بمجلس نائب الملك من يؤيد القانون سواه وإلبرت، وبعد مفاوضات مطولة تم إقرار نسخة معدلة من القانون فى يناير 1884، فأصبح من حق من يحاكم أمام المحاكم الإقليمية من الأوروبيين أن يصر على ضرورة أن يكون نصف المحلفين والمدعين من الأوروبيين، كان ريبون فى حاجة إلى تقديم تنازلات فى مواجهة الحملة فائقة التنظيم التى نظمها الإنجليز الهنود، فلا يسقط فى نظر الرأى العام للمتعلمين، ويعود إليه الفضل – عامة– فى تشجيع المرحلة الأولى للحركة الوطنية الهندية بقيادة المؤتمر الوطنى الهندى التى تأسست فى العام التالى.

ولا شك أن مسألة قانون إلبرت قد ألقت بظلالها الكثيفة على الشهور الأخيرة التى قضاها بالهند، فإذا أضفنا إلى ذلك أن مشروعيه الكبيرين لإدخال نظام الضرائب المباشرة، وتطوير نظام السكك الحديدية فى الهند باستخدام رأس المال الخاص، قد ظلا معلقين، وإن إثنتين من موازناته الثلاث كانتا ضحية الإنفاق الحربى الذى كان خارج دائرة سلطته، يمكن القول إن تأثيره على فترة حكم ريبون جاء أقل من توقعاته فى الشهور الأولى لتولى حزب الأحرار الوزارة فى إنجلترا عام 1880. ولعل ما قد يكون أحس به من ارتياح هو شعوره أن سياساته قللت من أعباء الملايين من الفلاحين الهنود، وأن مشروعه المشترك مع ريبون لتحقيق لا مركزية الإدارة والمالية قد يأتى أكله فى المستقبل. ومن المؤكد أنه لم يقبل بطرفة كونه

[545] Evelyn Baring, Recent Events in India, Nineteenth Century 14 (Oct. 1883), 572, 586.

وريبون يذكران الآن فى الهند بإثارة المعارضة الإنجليزية الهندية، وإثارة رد فعل عكسى من جانب الهنود لقانون إعتبروه إجراء لا أهمية له من إجراءات الإصلاح الليبرالى.

الاستدعاء إلى مصر

وفى غضون احتدام الجدل حول قانون إلبرت فى مايو 1883، عرض على بارنج العودة إلى مصر قنصلاً عاماً بدرجة وزير مفوض فى السلك الدبلوماسى، وقد رأى أن هذه الوظيفة تعنى أن يتولى قيادة مهمة أخرى لتنظيم الإدارة المصرية ثم يلى ذلك مباشرة إنهاء الإحتلال البريطانى للبلاد الذى وقع فى أغسطس – سبتمبر 1882، ولا شك أن بارنج حاول أن يظل على اتصال مباشر بالشئون المصرية كما كان زملاؤه فى حكومة حزب الأحرار فى لندن يستشيرونه فى تلك الشئون.

ويمكن أن نقف على بعض أفكاره الأولى حول هذا الموضوع فى خطاب بعث به إلى ليال فى 19 يوليو 1882 بعدما عاد الأخير إلى الهند بعد زيارة قصيرة للقاهرة التى كانت تموج بالإضطرابات: "أتفق معك على أن ثمة سياستين يمكن اتباعهما، تلك التى يتبناها بلنت Blunt أو التى يتبناها كولفن Colvin وأتفق معك أيضاً أن سياسة كولفن هى الأنسب"، وفى هذا إشارة إلى نشاط ولفرد بلنت الشاعر المعادى للإمبريالية الذى حث وزارة جلادستون على القبول بالبرلمان الذى قدمته ما أسماها "الحكومة الوطنية" بعد إقالة رياض باشا فى سبتمبر 1881، وكذلك إشارة إلى خليفة بارنج فى المراقبة المالية أوكلاند كولفن، وكذلك سلوك دى بلنيير، واتجه بارنج إلى الإعتقاد أن بلنت يتعجل الأمور كثيراً، وأنه لو كان بالقاهرة لأعطى عرابى "حبلاً كافياً ليشنق به نفسه", ورأى أن المراقبة الثنائية إعتمدت كثيراً على داونج ستريت "مقر الوزارة البريطانية" والكى دورسيه Quay D'Orsay (مقر الخارجية الفرنسية). ويصدق هذا بالتأكيد على كولفن الذى تضمن "إعتماده" على لندن شن حملة لإقناع حكومة جلادستون أن حركة عرابى تمثل تحدياً أساسياً لنظام المراقبة الأوروبية برمته، ولكن ملاحظة بارنج لا تصدق على دى بلنيير إلا جزئياً، فقد فقد منصبه بالقاهرة عندما حاول إتباع نفس الخط، وقال بارنج أن النتيجة واحدة مهما فعل المراقبان؛ لأن أصول المشكلة تعود – فى رأيه– إلى فترة مبكرة عندما لم تبد الحكومة المصرية الرغبة فى

معاقبة ضباط الجيش المصرى الذين أدت مظاهرتهم التمردية إلى إسقاط وزارة نوبار فى فبراير 1879[546].

وتتضمن مذكرة مطولة كتبها بارنج فى 18 سبتمبر 1882، رداً على أسئلة معينة طرحها عليه اللورد جرانفيل Granville وزير الخارجية البريطانى، واللورد نورثبروك، تتضمن وجهة نظره بشأن السياسة الواجب إتباعها بعد وقوع الإحتلال العسكرى، وجاءت الفكرة الرئيسية التى طرحها بالمذكرة رداً على سؤال: "كيف يمكن إقرار النظام فى مصر ؟" فرد بارنج بأنه يعارض فرض الحماية على مصر معارضة تامة، فمهما يكن الخطأ الذى وقع فيه عرابى "فلا أرى أن ما اعتبره المصريون أمة، قد قامت بتقوية حقها فى حكم نفسها" زد على ذلك أن ذلك الإتجاه – من وجهة النظر البريطانية– يتضمن تحمل مسئولية كبرى تتصل بمستقبل البلاد الجنوبية "يقصد السودان"، ومن ثم يجب ترك مهمة إقرار النظام إلى الخديو ليقوم بهذه المهمة إلا فى حالة وجود دليل على عجزه عن القيام بذلك، فإن الحل عندئذ إعلان الحماية على مصر، وعلى كل إذا سارت الأمور سيراً حسناً يجب ترك توفيق يختار وزراءه بنفسه، ورياض وشريف يمثلان اختياراً مناسباً.

ونصح بارنج بإنهاء الرقابة الثنائية باستبدال من يتولى ممارسة سلطة محدودة للتدخل المباشر بالمراقبين الفرنسى والإنجليزى "فلم يعد هناك فى مجال الإصلاح المالى ما يمكن أن يفعله المصريون أنفسهم" على حد قوله فى عبارة لافتة للنظر، وعلى كل رأى أن من الواجب على الأوروبيين أن يتحركوا بسرعة كبيرة. وأخيراً رأى أنه يفضل مساعدة الإنجليز للخديو على توطيد دعائم سلطته، وهى مهمة لا تستغرق – فى اعتقاده– سوى ما يتراوح بين 6 – 12 شهراً على أكثر تقدير.

وثمة سؤالين آخرين يتصلان بسياسة حكومة حزب الأحرار، أحدهما رد عليه بارنج بأنه ضد تسليم عرابى للخديو ليحاكم ويعدم، وفضل على ذلك توقيع عقوبة عليه، وبالنسبة للسؤال الآخر أعرب عن رأيه فى أن استقلال مصر عن الدولة العثمانية يصب فى مصلحة بريطانيا ومصر؛ لأن ذلك قد يؤدى إلى إلغاء الإمتيازات الأجنبية، وهى سلسلة الإتفاقيات

[546] LP, MS Eur. F 132/39.

التى تعطى للأجانب نوعاً من الحماية فى الإمبراطورية العثمانية التى رأى أن إلغاءها على درجة بالغة من الأهمية مع إمكانية حماية المصالح الأوروبية فى مصر بصورة أو أخرى.

وفى إجابة عن سؤال آخر، رأى أن مع إتمام السيطرة على قناة السويس، تستطيع بريطانيا مراقبة التطورات اللاحقة "للمسألة الشرقية" (وتتصل بمستقبل الإمبراطورية العثمانية) بلا اكتراث[547].

ولعل تلك الآراء قد وضعت نصب عيون مستشارى جلادستون الأساسيين عندما جاء وقت البحث فى كيفية تنفيذ عملية جلاء بريطانى منظم من مصر، ولما كان مجلس الوزراء البريطانى منقسماً على نفسه؛ فقد تم إرسال اللورد دافرين Dufferin السفير البريطانى فى استانبول إلى مصر فى نوفمبر لتقديم النصح للخديو حول إجراءات إعادة بناء سلطته. واتخذت خطوة أخرى بإلغاء نظام المراقبة الثنائية على المالية المصرية بعد مفاوضات شاقة مع فرنسا، واستبدل بالمراقبين مستشار مالى بريطانى واحد. وحدد تقرير دافرين المؤرخ فى فبراير 1883 المسائل الأساسية التى يجب البحث عن حل لها، دون أن يستطيع تقديم سوى حلول مؤقتة، ويقول فى مستهل التقرير: "إذا كان على أن أضع الأمور على نسق الدولة الهندية لإختلفت وجهة النظر، فإن اليد العليا للمقيم البريطانى تستطيع أن تجعله يطوع كل شئ لإرادته، وفى خلال خمس سنوات يستطيع تحقيق رفاهية البلاد، ولكن المصريين سوف يعتقدون أن هذه المنافع قد تحققت على حساب استقلالهم السياسى. أضف إلى ذلك أن حكومة جلالة الملكة والرأى العام فى إنجلترا كانا ضد هذا الحل، ولكن من المهم قطعاً ألا نجعل النسيج الذى صنعناه يتعقد على الأرض بمجرد إنسحابنا"[548].

وكان الحل الذى إرتآه دافرين للأمن والنظام هو البدء بإعادة تنظيم الجيش والشرطة، وإصلاح النظام القضائى المختص بالمصريين، وإقامة مجلسين نيابيين كبديل لمجلس شورى النواب هما مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية، وكانت توصيات دافرين الواردة فى

[547] Baring, "Very Confidential Memorandum on the Present Situation in Egypt", 18 Sept. 1882, CP/2, Fo 633/99.

[548] Dufferin to Granville, 6 Feb. 1883, PP (1883), 83, 129.

تقريره، والنظام الجديد الذى اقترحه هى الدليل الوحيد للعمل الذى وجده بارنج عند توليه المنصب فى مصر.

ولم يترك لنا بارنج تسجيلاً للسبب الذى دعاه إلى قبول المنصب، وخاصة أنه كان عليه الإتجاه مباشرة إلى مصر دون التوجه أولاً إلى لندن، ويمكننا أن نتصور أنه تعرض لضغوط زملائه فى حكومة حزب الأحرار بلندن، وربما أحس أن نظام المراقبة الذى ساعد على إقامته فى مصر فى حاجة إلى إصلاح، ومن الممكن أيضاً أن يكون من أسباب القبول أن جلادستون نصحه عام 1880 أنه لا داعى لدخوله البرلمان لأن برنامج حزب الأحرار الذى وضع فى الماضى لم يكتمل بعد، على نحو ما ذكر فى مقال نشره فى أواخر أيام حياته[549].

وينطوى تعليق ليال على موضوع بارنج ومصر على أهمية جديرة بالنظر، فبعد أن أبلغ أخته باربرا فى مايو 1883 أنه يشعر بالأسى؛ لأن بارنج سيترك الهند، مضى قائلاً: "أظن أن مصر أكثر مناسبة له من الهند، فهو يستطيع أن يلم بكل الأمور هناك، ولا يوجد بمصر السلطة المطلقة التى يتمتع بها كبار الموظفين بالهند، فهذا الإحساس بالقوة العظيمة وضعف السلطة فى الوزارة يجعل بارنج يسرع إلى العمل هناك"[550].

وهناك ملاحظة مهمة أبداها زميل آخر لبارنج لعلها كانت أقرب لواقع الحال صاغها شعراً عن نقل بارنج إلى مصر فى تلك الأيام نفسها:

نمتعه بفضيلة الصبر معروف
ولكن، أعتقد أنه إذا نفد
فإن شعب مصر سوف يتأوه
فهناك الكثير من الشر فى بارنج[551]

[549] "The Politician Wordsworth", The Spectator, 11 Dec. 1915, repr. Earl of Cromer, Political and Literary Essays, Third Series (London, macmillan 1916), 261 – 2.

[550] Lyall to Barbra Lyall, 25 May 1883, LP. MS Eur. F132/8/9 a.

[551] القصيدة كانت متداولة ومعروفة ونشرت فى العديد من الكتب وقد إقتبسناها من Encyelopaedia Britannica (1910), 484.

الباب الثالث
حكم مصر
(1907 – 1883)

الفصل العاشر
التمترس فى مصر
(1883 – 1885)

إقامة دار المعتمد البريطانى

جاء بارنج من الهند إلى القاهرة مباشرة – بعدما أصبح السير إيفلن بارنج– فوصلها فى 11 سبتمبر 1883 – عاد إلى شارع المغربى حيث اتخذ منها مقراً لإقامته، واتخذ من دار يملكها السير ألكسندر بيرد Alexander Baird مقراً لعمله، وهو البيت الذى أصبح مقراً للترف كلب Turf Club بعد انتقال المعتمدية البريطانية فى ديسمبر 1893[552]. ووصف هارى بويل Harry Boyle الدار التى بدأ عمله بها عام 1885، بأنها "صغيرة ومتهالكة"، ويختلف هذا الوصف عن الصور الفوتوغرافية الملتقطة للمبنى من خارجه"[553]. وكلمة "صغيرة" نسبية على أى حال؛ فالمساحة توصف حسب كفايتها لتلبية الحاجات التى ما لبثت أن إزدادت أهميتها.

ومنذ فبراير 1886، كان بارنج وموظفوه يبحثون عن مقر أوسع بديل[554]. ومن ثم كان لدى بارنج الدافع للمبالغة بالحديث عن ضيق المكان أثناء ضغطه على لندن حتى توافق على بناء مقر ملائم ومريح لدار المعتمد البريطانى؛ ففى أواخر عام 1886 كتب إلى اللورد إيدسلاى Earl of Iddesleigh – الذى تولى وزارة الخارجية البريطانية لفترة قصيرة– أن حجرات الاستقبال أصغر من أن تستوعب عدد الضيوف الذين يضطر إلى توجيه الدعوة لهم، وفيما يتعلق بغرف النوم "لا توجد سوى مساحة محدودة لى وزوجتى والطفلين والمربيات، فإذا كان على استقبال زوار – كما حدث عند زيارة اللورد ريبون نائب الملك أثناء عودته من الهند– تعرضت للمتاعب وتحمل نفقات مالية، لأننى أضطر فى هذه الحالة

---

[552] الترف كلب Turf Club (نادى الجالية البريطانية) نقل مرة أخرى إلى مبنى جديد، وهو المبنى الذى أحرق تماماً فى حريق القاهرة 26 يناير 1952.

[553] توجد صورة للمبنى فى سمير رفعت: "بيت اللورد" نشر فى مجلة:
Cairo Times, 29 Apr. 1999; Boyle, A Servant of Empire, 39.

[554] Letters From R. H. Boyce, Cairo To The First Commissioner For Works, London, 16 Feb. 1886 (Copy in the Chancery of British Embassy, Cairo).

إلى إرسال زوجتى وأولادى إلى أحد الفنادق"[555]، وفيما يتعلق بالمبنى الذى تقع فيه مكاتب دار المعتمد، قال إن الديوان يتكون من حجرتين إثنتين صغيرتا المساحة، إحداهما كانت فى الأصل مخزناً لمستلزمات المائدة، والأخرى شديدة الحرارة لا يمكن العمل فيها صيفاً "محشور" فيها ستة أفراد هم جملة عدد العاملين معه بينما تكدس المحفوظات (الأرشيف) فى مختلف أنحاء المبنى، حيثما وجد فضل مكان[556].

ولم يكن لدى بارنج – فى الشهور الأولى بالقاهرة– دبلوماسى مدرب لمعاونته، ولكن نظراً لتعليق إمكانية الجلاء البريطانى السريع عن مصر فقد انضم إليه إدوين إجرتون Edwin Egerton، ثم لحق به دبلوماسيان آخران هما جيرالد بورتال Gerald Portal وفرانسس إليوت Francis Elliot، فإذا أضفنا الملحق العسكرى، ومترجم شامى، وكاتب الديوان، فإن عدد العاملين بدار المعتمد كان ستة أفراد فى يوليو 1885، وما لبث المترجم الشامى نيقولا عرنجى أن مرض مرضاً أعجزه عن الاستمرار فى العمل، فحل محله هارى بويل قادماً من السفارة البريطانية فى إستانبول[557].

ونظراً للوضع الجديد الذى كسبته بريطانيا بعد الإحتلال، ما لبثت دار المعتمد البريطانى أن أصبحت مركز السلطة فى القاهرة، يتردد عليها بانتظام وزراء الحكومة المصرية، وقناصل الدول الأوروبية الأخرى، وممثلى الجاليات الأوروبية فى مصر، وغيرهم. كما كانت مقر إجتماعات بارنج مع المستشارين الإنجليز بالوزارات المصرية: كليفورد لويد Clifford Lloyd (وكيل وزارة الداخلية)، وكولن سكوت مونكريف Colin Scott Moncrieff (المفتش العام للرى بوزارة الأشغال العمومية) الذى استخدمه دافرين قبل وصول بارنج إلى القاهرة، وإدجار فنسنت Edgar Vincent (اللورد أبرنون فيما بعد) الذى كان فى السابعة والعشرين من عمره، واختاره بارنج ليخلف أوكلاند كولفن مستشاراً لوزارة المالية إعتباراً من أكتوبر 1883.

ويعطينا فنسنت – فى يومياته التى كان يكتبها بإنتظام – صورة لما جرى فى بعض تلك الإجتماعات، كما يقدم لنا صورة عامة عن الطريقة التى اتبعها بارنج فى العمل؛ ففى

[555] Baring to Iddesleigh, 26 Oct. 1886, CP/2,PRO, FO 633/5.

[556] Ibid.

[557] لم يحصل بويل على منصب "السكرتير الشرقى" الذى أنشئ حديثاً، إلا فى 8 ديسمبر 1899.
(Boyle, Servant of Empire, 39; BP, Box A, file 3).

إجتماع حضره جوليوس بلم Julius Blum – الذى كان سكرتيراً مالياً للحكومة المصرية منذ زمن بعيد– عقد فى 21 ديسمبر 1883، كان الموضوع الرئيسى على جدول الأعمال هو الحاجة العاجلة إلى تخفيض مصروفات الحكومة المصرية إلى ما كانت عليه عام 1880، واستهل بارنج الإجتماع بالقول بأنه ينوى أن يجعل من نفسه "شخصاً بغيضاً" عند الحكومة المصرية فيما يتعلق بهذا الموضوع، فالبريطانيون لا يقتصر دورهم على تقديم المشورة والنصح فحسب، بل الإصرار على تنفيذ ما أشاروا به، ثم دار نقاش حول الطريقة التى تصاغ بها هذه الرسالة. وكان بارنج يرى الكتابة مباشرة لشريف باشا رئيس مجلس النظار[558]، ولكن فى الإجتماع التالى لاحظ فنسنت وبلم أن بارنج قد غير رأيه؛ فقد أبلغهم أنه بعد خطابه فى 23 و24 ديسمبر وجد أن المسألة تتعلق "بنسب هائلة" من المصروفات، وأن الخطة الجديدة تتركز فى وضع حد معين يصل إليه التخفيض العام فى المصروفات، ثم تشكيل لجنة من فنسنت، وبلم، وفيتزجيرالد Fitzgerald (مدير الحسابات) للنظر فى التفاصيل، واقترح بلم أن ينضم إلى اللجنة ناظر المالية أيضاً، فتمت الموافقة على ذلك[559].

وكان دار المعتمد البريطانى أيضاً بؤرة للتصرفات التى تعبر عما يعنيه الوجود البريطانى عند المصريين، فكان بارنج يستخدم عربة خاصة (تجرها الخيول) يحرسها جنود الجيش البريطانى، وذلك عندما يتوجه إلى قصر عابدين لمقابلة الخديو أو عندما يذهب إلى محطة السكك الحديدية بالقاهرة (باب الحديد) لاستقبال شخصية مهمة، أو لحضور العروض العسكرية المعتادة للجيش البريطانى. كذلك أصبحت أسرة بارنج ذاتها على رأس الجالية البريطانية فى مصر، تنظم حفلات العشاء والرقص للمستشارين وكبار الضباط ولعلية القوم من الإنجليز عند مرورهم بالقاهرة، ولم يدع إلى تلك الحفلات من أهل البلاد سوى الأرستقراطية التركية – الجركسية وأفراد قلائل من المصريين، مما جعل دار المعتمد البريطانى قلعة للتضامن الأوروبى عامة والبريطانى خاصة، ورمزاً للتصاعد الجديد للنفوذ البريطانى.

[558] Vincent, Memo of conversation with Sir E, Baring, Diary 21 Dec. 1883, DP. Add. Ms 48948.

[559] Ibid, 26 Dec. 1883.

ووجدت إيثل نفسها فى موقع السيدة الأولى رغم أنفها، سواء برضاها أو رغماً عنها، رغم أن المنافسة كانت شديدة بينها وبين مدام بارير Barrere الزوجة الإنجليزية للقنصل العام الفرنسى، ومن بين الحوادث التى تتصل بمدام بارير إحتجاجها على مطالبة إيثل برعاية حملة للتبرع للأعمال الخيرية الكاثوليكية؛ لأنها رأت إن ذلك من واجبات القنصلية الفرنسية بإعتبار فرنسا من أكبر الدول الكاثوليكية[560]. وثمة حوادث أخرى أدت إلى توتر العلاقة بين القنصليتين الفرنسية والبريطانية، فوفقاً لما يذكره فنسنت أن الفرنسيين ظلوا فى حالة "غضب لمدة أسبوع"؛ لأن بارنج نفسه رفض مراقصة مدام بارير فى حفل أقامته دار المعتمد البريطانى[561].

قضى بارنج الشهور السبعة الأولى غارقاً فى دار المعتمد المزدحمة فى عمل مضن متواصل قبل أن يتم استدعاؤه إلى لندن فى أبريل 1884 ليساعد على الإعداد للمؤتمر الدولى عن المالية المصرية، وقد كتب فيما بعد أن الشهور الثلاثة الأولى من العام 1884 كانت أسوأ فترات حياته؛ إذ كان عليه التعامل مع الضغوط الناجمة عن المراحل الأولى لمهمة جيرالد جوردون فى الخرطوم[562]، فقد كان مريضاً، مرهقاً بالعمل، متوتراً، مبتئساً: فالعمل والسكنى فى مكان واحد له مزاياه وعيوبه، فقد كانت إيثل إلى جواره تتولى رعايته وتشاركه مشاغله وهمومه من ناحية، بينما كان معاونوه يأتون إليه عارضين المشاكل فى أى وقت حتى عندما يكون مريضاً، من ناحية أخرى.

تعليق الجلاء

كانت التعليمات التى يتلقاها بارنج من جرانفيل – وزير الخارجية– محدودة، فكان عليه أن يعمل – ببساطة– على ضوء التعليمات التى سبق أن تلقاها اللورد دافرين، وهى تنص على توجيه "النصح" للخديو بشأن إعادة بناء السلطة، وإصلاح بعض جوانب الإدارة بما فى ذلك الجيش، والإشراف على تحسين النظام القضائى المحلى، وكان وراء ذلك – على أى حال– تأكيد أن الإحتلال العسكرى سوف يكون قصير الأجل بقدر الإمكان. وإذا كان ثمة شك عند

---

560 Vincent, "Notes: M. Barrere and the Conference", Diary, 20 July 1884, DP. Add. MS 48948.

561 Ibid.

562 Cromer, Modern Egypt, I. 417.

بارنج حول مدى ما لذلك الخط من أهمية عند الحكومة بلندن، فقد عززت مراسلات أعضاء وزارة حزب الأحرار التى تلقاها من جلادستون، ومن نورثبروك خاصة، الذى كتب إلى بارنج فى 5 سبتمبر: "إن مشكلتنا الرئيسية (يقصد حكومة الأحرار) هو كيفية عودة قواتنا سالمة من القاهرة"[563].

كان هذا هو الخط الذى إلتزم به بارنج أيضاً، وإلا لما قبل المنصب فى المحل الأول، ولابد أن يكون قد وضع إطار دافرين الإصلاحى للحكومة المصرية موضع التقدير، الذى يتضمن مجلس شورى القوانين ذى الثلاثين عضواً، وأن يقدر – أيضاً– النبرة الأرستقراطية التى تبدو من "نظامه الأساسى" الذى يقوم على إيجاد جمعية غير منتخبة تناسب – نصاً– "شعباً جاهلاً ورعاعاً همجاً"[564].

وكان بارنج يتمتع بمزايا خاصة فى حالة تنظيم انسحاب سريع للقوات البريطانية منها معرفته بالشخصيات السياسية مثل الخديو، ورؤساء الوزارة الثلاثة البارزين: شريف ورياض ونوبار، وكذلك خبرته الطويلة بأحوال مصر المالية. فقد كانت لهجة رسائله الأولى إلى لندن تتسم بالرزانة؛ ففى رسالتين إلى جرانفيل فى 17 نوفمبر و14 أكتوبر، وجد فى نفسه القدرة على اقتراح إنقاص عدد جنود حامية القاهرة الإنجليز من 6700 إلى 3000 جندى مع إنسحاب جميع القوات خارج القاهرة[565] وحقاً أصاب أعضاء مجلس الوزراء البريطانى بالإنزعاج عندما وصف الدرجة من الضعف التى وصلت إليها سلطة الخديو، ليس من جراء الأحداث الأخيرة (يقصد الثورة العرابية) وحدها بل أيضاً نتيجة إصلاحات دافرين التى هدفت إلى "حماية الناس من التصرفات الجائرة لحكومتهم"[566]. وختم بارنج الرسالة بقوله إن دافرين رسم صورة وردية للمشهد المحلى فى مصر، ولذلك كان من واجبه أن يركز على التناقضات الأساسية المتعلقة بالسياسة البريطانية الرامية إلى استعادة سلطة الخديو، بينما كان ينقل السلطة بعيداً عنه فى الوقت نفسه.

---

[563] Quoted in Zetland, Lord Cromer, 27 – 8.
[564] Dufferin to Granville, 5 Feb. : 1883, PP (1883), 83, 94, 129.
[565] CP/2, FO 633/5.
[566] 8 Oct. 1883, CP/2, FO 633/6.

وقد دعت مثل هذه الأفكار بارنج إلى أن يبدأ الدعوة إلى اتخاذ عدد من الخطوات الضرورية التى تضمن عدم وقوع حالة من الفوضى فى مصر بعد خروج القوات البريطانية منها، على أساس إفتراض "إنه يجب ألا يطول بقاؤنا فى مصر". وكانت تلك الفكرة مقنعة حتى لرجل مثل جلادستون[567]، وتضمن ذلك التأكيد على بعض القضايا التى أبرزها خلال خدمته السابقة بمصر (1877 – 1880). من بينها محاولته إقناع جرانفيل أن يقدم للدول الأوروبية مشروعاً متكاملاً للإصلاح فى مصر للموافقة عليه بدلاً من الرجوع إليهم فى كل مسألة على حدة.

وعندما رفض هذا الإقتراح بحجة صعوبته، حاول إقناع الحكومة البريطانية بتأييد إجرائين آخرين؛ لتحقيق الاستقرار للمالية المصرية التى تعانى الإضطراب: أحدهما التفاوض مع الدول لتعديل قانون التصفية، وثانيهما عقد قرض للحكومة المصرية تستعين به على سداد ما عليها من ديون نتجت عن الثورة العرابية، وهى تتمثل فى تعويضات مستحقة تزيد على الأربعة ملايين جنيه نجمت عن تعرض ممتكات الأجانب للتدمير خلال حوادث الشغب التى أعقبت القصف البريطانى للإسكندرية فى يونيو 1882. ومرة أخرى، لم يبد مجلس الوزراء البريطانى، وخاصة تشيلدرز Childers وزير المالية، لم يبد تحمساً لما طرحه بارنج من آراء، ولكنه وافق على عقد مؤتمر دولى لمناقشة هذه الأمور وغيرها، وقد تم عقده فى لندن فى يوليو 1884.

وتغير الوضع بكامله تغيراً جذرياً عندما وصلت أنباء هزيمة جيش أرسلته الحكومة المصرية إلى السودان بقيادة ضابط بريطانى متقاعد هو الكولونيل هكس Hicks لمواجهة إنتفاضة غرب السودان، وكانت ثورة ضد الحكم المصرى قد أعلنت فى مايو 1881 بزعامة محمد أحمد، وهو رجل متدين استغل ظروف تصاعد المد الدينى ليدعى أنه المهدى، وهو إعتقاد عند المسلمين بأن شخصية مبشرة تستمد الهداية من الله تحمل على عاتقها إعادة الحكم الصالح إلى بلاد الإسلام فى زمن احتدام الأزمة الإجتماعية[568]. واتسع نطاق حركته إتساعاً

---

[567] Baring to Granville, 28 Oct. 1883, CP/2, FO 633/6, "Edward Hamilton, The Diary of Sir Edward Walter Hamilton 1880 – 1885, ed. Dudley W. R. Bahlman (Oxford Clarendon Press 1972). 503.

[568] P. M. Holt, The Mahdist State in the Sudan, 1881 – 1898, A Study of Its Origins, Development and Overthrew, (Oxford, Clarendon Press 1958), 22, 42 – 3.

كبيراً عندما نجحت قواته فى هزيمة قوتين عسكريتين مصريتين أفضل تسليحاً وأكثر عدداً، وذلك فى سبتمبر 1882، وامتدت الثورة إلى سواحل البحر الأحمر شرقاً؛ حيث أصبح أتباع المهدى على مشارف سواكن القاعدة المصرية الأساسية التى تربط مصر ببربرة التى تقع على النيل على بعد نحو 250 ميلاً عبر الصحراء إلى الغرب، ووصلت أخبار القضاء التام على الجيش الذى قاده هكس إلى القاهرة فى 22 نوفمبر 1883.

ولم يهدد ما أصابته الثورة من قوة بزوال الحكم المصرى بالسودان فحسب، بل هدد بزحف جيش المهدى على مصر ذاتها، وكان من أسباب زيادة الموقف سوءاً أن الثورة وقعت فى وقت حل الجيش المصرى الذى قاده عرابى، وعندما كانت عملية تكوين جيش جديد، وقوة للشرطة مازالت فى مراحلها الأولى من حيث التنظيم والتدريب. وكان هناك إحتمالان أحدهما تأجيل انسحاب القوات البريطانية من مصر على وجه السرعة إلى أجل غير مسمى، وثانيهما الحاجة إلى البحث عن إجابة لعدد من الأسئلة الصعبة تتعلق بالسياسة الواجب اتباعها إزاء الأزمة المتفاقمة: ما مدى خطورة التهديد، وكيف يتم إحتواؤه ؟ ما الأدوار المحددة التى تقوم بها الحكومة المصرية ومستشاروها البريطانيون وخاصة بارنج نفسه، والجنرال السير إيفلن وود Evelyn Wood سردار (قائد) الجيش المصرى الجديد ؟ ومن الذى يتولى سداد تكاليف الحملات العسكرية ؟ ومدى تأثير ذلك على المالية المصرية مستقبلاً ؟ وماذا يكون دور الحامية البريطانية سواء بالنسبة لاستعادة السلطة بالسودان أو الدفاع عن مصر ذاتها ؟ ومما جعل الأمور أكثر تعقيداً أن الإجابة على هذه التساؤلات ترتبط بمشكلات أكبر حجماً، مثل التنفيذ الدقيق للنصائح البريطانية، وتحديد المسئوليات بين مصر وبريطانيا، وحماية المصالح البريطانية فى الشرق الأدنى (مهما كانت تلك المصالح) التى يختلف حولها المعنيون من البريطانيين بين التشكك والتنازع المتنامى.

وتبين المراسلات المتبادلة بين بارنج وجرانفيل – عندئذ– كيف كان الرجلان يناضلان من أجل التوصل إلى ما يجب عمله لمواجهة الأوضاع الجديدة، وكان بارنج – فى الوقت نفسه – لا يكتفى بإيضاح خطه السياسى فحسب، بل يزود وزير الخارجية باستجابة المصريين للتهديد المهدى، وهى استجابة سمح له وضعه بتشكيلها. وجاءت الإشارة إلى الكثير من القضايا فى رسالة جرانفيل المؤرخة 25 نوفمبر التى جاءت رداً على تقرير بارنج عن

الاستعدادات العسكرية المصرية، وقال إن مجلس الوزراء البريطانى يرى أن المسئولية الكاملة تقع على عاتق الحكومة المصرية وحدها، وعليها أن تعتمد فقط على مواردها[569].

وكان بارنج أسرع وصولاً إلى استنتاج شخصى مؤداه أن بريطانيا متورطة فى الأمر بشكل أعمق مما يتصور مجلس الوزراء البريطانى، ولذلك خصص الجانب الأكبر من مراسلاته لحث لندن على إيضاح موقفها بإجبارها على الاستجابة لعدد متنوع من السياسات الممكنة مثل استخدام القوات البريطانية أو الهندية أو حتى العثمانية للدفاع عن سواكن وطريق سواكن – بربرة[570]. وكانت النتيجة تلقيه مجموعة من التعليمات من جرانفيل، بما فيها خطابه المؤرخ 13 ديسمبر الذى طلب فيه من بارنج أن يوصى الحكومة المصرية بالإنسحاب من الأراضى الواقعة جنوب مدينة أسوان أو جنوب وادى حلفا (على أقل تقدير) على الحدود المصرية السودانية[571].

ورد بارنج ببرقية فى 22 ديسمبر ضمنها إقتراحين على درجة كبيرة من التطرف، طالب فى أولهما بإعطائه سلطة الإصرار على الإنسحاب التام من السودان (وكان يعلم أن حكومة شريف باشا سوف تقاوم هذا الإقتراح)، وأضاف "إذا لم تكن الحكومة المصرية الحالية قادرة على القيام بهذا العمل، فلتذهب وسنجد من يقوم به"[572]. وثانيهما ضرورة إرسال "ضابط بريطانى إلى الخرطوم مزود بسلطات واسعة" تكون لديه صلاحيات إجلاء الحاميات المصرية من السودان، وأن "يضع الترتيبات اللازمة لحكم البلاد مستقبلاً"[573]. وقد تمت الموافقة على هذين الإقتراحين فى إجتماع مجلس الوزراء البريطانى فى 4 يناير 1884، وأرسلت بعده برقية إلى القاهرة أضافت قدراً من البريق إلى اقتراح بارنج الأول بوضع المبدأ الذى نص على أنه: "لابد من اتباع نصيحة حكومة صاحبة الجلالة فى كل الأمور المتعلقة بالإدارة وأمن مصر، طالما بقى الإحتلال المؤقت قائماً، وعلى الوزراء والمديرين تنفيذ تلك النصائح أو ترك مناصبهم"[574].

---

569 Allen, Gordon and the Sudan, 204.
570 Cromer, Modern Egypt, I, 376 – 8.
571 Ibid, 379 – 80.
572 Ibid, 381.
573 Allen, Gordon and the Sudan, 206.
574 Cromer, Modern Egypt, I, 382.

ولم ترد إشارة مباشرة إلى الإقتراح الآخر الخاص بإرسال "ضابط بريطانى مزود بسلطات واسعة"، غير أنه تشابك بعد بضعة أسابيع مع القرار السيئ بإرسال الجنرال تشارلز جوردون Charles Gordon إلى السودان، وهو أمر أثار فزع جلادستون وأعضاء وزارته وإيفلن بارنج طوال حياتهم.

ذهب بارنج لمقابلة شريف باشا – على الفور– متسلحاً ببرقية الحكومة البريطانية، وتلقى شريف باشا أمراً بريطانيا بإخلاء السودان، فاستقال فوراً فى 7 يناير 1884. وكلف الخديو نوبار باشا بتشكيل الحكومة تنفيذاً "لنصيحة" بارنج، ونتج عن ذلك وضعاً كلاسيكياً، إعتمد بموجبه المحتلون الإنجليز على الساسة المحليين البارزين وحدهم لتنفيذ السياسات المبغوضة شعبياً لمصلحة البريطانيين، كما أن نوبار لم تكن له قاعدة توفر له أسباب القوة، ويعلم تماماً أنه لا يستطيع الاستمرار فى الوزارة إلا بموافقة الإنجليز، وكانت نتيجة ذلك نشوء توتر فى علاقات العمل بين نوبار وبارنج قدر لها أن تستمر على مدى السنوات الأربع التالية، وكانت شروط هذه العلاقة مفهومة تماماً من الطرفين، فعلى نوبار أن يتخذ كل الإجراءات الكفيلة بتحقيق الجلاء السريع عن السودان، وعلى بارنج – فى المقابل– أن يسمح له بممارسة درجة أكبر من الحرية فى السياسة الداخلية بما فى ذلك حق منع التدخل البريطانى فى النظام القضائى المصرى ونظارة الداخلية. وقد صرح نوبار لصحيفة التايمز فى 23 مايو 1884 أنه يؤيد "الإشراف البريطانى وليس الحكم البريطانى"[575].

كان نوبار يكبر بارنج بأربعة عشر عاماً، وكان يقترب – عندئذ– من الستين، وقد وصفه دبلوماسى بريطانى بأنه "كان طويل القامة، وسيماً، رمادى الشعر، جذاباً"، وكان له سجل حافل طويل فى خدمة الحكومة المصرية، بما فى ذلك الصراع الطويل من أجل إقامة المحاكم المختلطة، أولاً ثم تعديلها بعد ذلك[576]. وكان يتميز بالذكاء والرغبة فى المحافظة على ما تبقى من استقلال مصر. غير أنه كانت لديه أوهام حول ممارسات السياسة الدولية من ناحية، والطبيعة المتغيرة للعلاقة الجديدة بين مصر وبريطانيا. ونتج عن ذلك سلسلة من

[575] Quoted in Jacques Berque, Egypt: Imperialism and Revolutions, trans. Jean Stewart, (London: Faber & Faber 1972) 154.

[576] Sir J. Rennell Rodd, Diplomatic and Political Memories 1894 – 1901, Egypt and Abyssinia (London: Edward Arnold, 1923), 31.

الأفكار الطريفة حول اللاعبين الرئيسيين على المسرح الأوروبى. فذكر لفنسنت فى سبتمبر 1884 تعليقاً على فشل مؤتمر لندن الخاص بالمالية المصرية: "الحكومة البريطانية قريبة الشبه بالقط، فهى تندفع نحو شئ ما، وعندما يفلت منها تسقط مرة أخرى، ويظن المرء أنها ستتكسر وتتبعثر أشلاؤها، ولكنها تقع واقفة على أقدامها"[577]، بل وأكثر من ذلك قوله: "من السهل خداع الإنجليز، ولكن عندما تظن أنك خدعتهم، تصاب بركلة مؤلمة فى مؤخرتك"[578] كما كان نوبار يتحلى بروح التسلى الحذر فى علاقته ببارنج والإختلافات الكثيرة بينهما، فأخبر فنسنت بعد ذلك بشهر "إننى أقول نعم دائماً، ليس لأننى أوافق، ولكن لأننى أريد أن أترك فرصة للزمن، فبارنج يتخذ قراره فجأة، بينما لا أستطيع أن أتوصل إلى رأى حول فكرة رجل آخر، أو أن أتوصل إلى فكرة من عندى إلا بعد تفكير عميق يستغرق أسبوعين"[579].

وبالنسبة لشخصيتهما كانا مثل الطباشير والجبن، كتب عنه بارنج فى يومية 12 أبريل، بعدما وصف كيف شاهد الدموع تترقرق فى مآقى نوبار حين أبلغه أن الحكومة البريطانية وليس المصرية، تتحمل مسئولية إتخاذ قرار – كان مثاراً للجدل– للتوقف عن دفع أحد الكوبونات لصندوق الدين العام، كتب عنه "يا له من رجل عاطفى غريب، ألا يمكنه تخيل ذلك ؟! شرقى حقاً"[580] وكان ثمة ما يفوق ذلك، فقد بذل كل منهما جهداً للتحايل من أجل إقناع رؤسائهما بمختلف الصيغ، فكان كل منهما يستخدم الآخرين ويستغلهم.

وأشار كل منهما إلى النزعة الإعاقية عند الغير فى معرض إلقاء مسئولية الأعمال التى لا يرغب كل منهما أن يقوم بها على الآخرين، فقد أدرك بارنج أهمية هذا التكتيك، فكان يعمل على استدراج نوبار إلى الإعتراض على السياسات التى لا يريد لها "بارنج" النجاح، مثل الضغط الذى تلقاه من وزير المالية البريطانى تشيلدرز لإنقاص عدد الموظفين المصريين فى لحظة حرجة فى مارس 1884[581] أو يزعم أن نوبار قد يستقبل إذا تم تنفيذ إقتراح تشيلدرز زيادة الضرائب على الأطيان العشورية وذكر لتشيلدرز أن كل شئ فى مصر

[577] Vincent, "Nubar's tidbits", Diary 22 Sept. 1884, DP, Add. Ms 48949.
[578] Quoted in Berque, Egypt, 155.
[579] Vincent, "Nubar, Northbrook and Baring", Diary 24 Oct. 1884, DP, Add. Ms 48949.
[580] Journal 1884 – 85, BA, DEP, 11.
[581] 4 Mar. 1884, CP/2, FO 633/5.

يتوقف على رجلين إثنين: شخصه ونوبار رئيس مجلس النظار، وأن الرجال الذين يمكن أن يلعبوا دور نوبار ليسوا على هذه الدرجة من الوفرة[582].

عودة جوردون إلى الخرطوم

كانت المسألة الأولى التى واجهت بارنج والحكومة البريطانية بعد تعيين نوبار باشا رئيساً للوزراء هى الكيفية التى يتم بها ضمان جلاء الحاميات المصرية العديدة المبعثرة فى أرجاء السودان الشاسعة، التى قدر عدد جنودها بـ 21 ألف جندياً، إضافة إلى 11 ألفاً من المدنيين الذين رغبوا فى مغادرة السودان مع القوات المصرية[583]. وكان بارنج يفضل إرسال ناظر الحربية الجديد عبد القادر باشا الذى كان حاكماً عاما للسودان من قبل، إرساله إلى الخرطوم ليتولى تنفيذ الجلاء. ولكن عبد القادر باشا رفض قبول المهمة عندما أبلغه بارنج أن أول واجباته هناك هو إصدار بيان عام يعلن فيه أن مصر تتجه الآن إلى إخلاء جميع أراضى السودان، وكان على حق عندما برر موقفه بأن أهالى السودان لن يجدوا لهم مصلحة فى التعاون مع الإدارة على الإخلاء، ويصبح أمامهم كل العذر لإعلان ولائهم التام للمهدى وحركته[584]. وفى نفس الوقت، كانت لندن تشهد تزايداً هائلاً فى الدعوة إلى إرسال جوردون إلى السودان، إذا لم يكن ذلك للإشراف على الإنسحاب، فعلى الأقل يستطيع أن يزور سواكن ويوافى الحكومة بتقرير عن مدى تأثرها بالإخلاء.

وقد جاءت الأحداث التى أدت إلى طرح الفكرة فى إطار اقتراح بارنج بإرسال ضابط بريطانى ليتولى تنظيم الإنسحاب المصرى من السودان، وقد أثار ذلك موجة من الجدل حول نوع الإدارة التى تحل محل الإدارة المصرية، وهو جدل ترددت أصداؤه فى العديد من الكتب، وفى هذا الصدد سوف أقف وراء برنارد ألن Allen مؤلف كتاب "جوردون والسودان" لأنه كان أول من اعتمد فى تحليله المفصل على البرقيات والمراسلات المتبادلة بين لندن والقاهرة بطريقة ترصد بدقة المسئوليات والحيرة التى عبر عنها الطرفان. ولا أقصد بذلك إعادة صياغة القصة القديمة مرة أخرى، ولكننى أريد أن أبرز – ببساطة– دور بارنج فى

---

582 Baring to Childers, 30 June 1885, CP/2, FO 633/5.

583 هذه الأرقام أوردها ألن منسوبة إلى ناظر الحربية المصرى فى كتابه: Gordon and the Sudan, 224.

584 Ibid.

تلك الأحداث المأساوية، ومقارنة ذلك بالطريقة التى عرض بها بارنج القضية فى كتاباته المتأخرة، وخاصة فى "الملاحظات" و"مصر الحديثة".

فقد كان بارنج – عند مجلس الوزراء البريطانى– رجل الموقف الذى يحظى بثقة الوزراء، فقد كان مسئولاً عن التنسيق السياسى مع الحكومة المصرية، وكانت تتم استشارته فى أمور السياسة العسكرية بعدما يرجع فى ذلك إلى الضابطين الكبيرين البريطانيين الجنرال ستيفنسون قائد الحامية البريطانية فى مصر (جيش الإحتلال)، والسير إيفلن وود (قائد الجيش المصرى) وقد توازت خطوات بارنج والحكومة البريطانية فى الأسبوعين الأولين من يناير.

وعندما رفض عبد القادر باشا عرض بارنج بالعودة إلى السودان، جاء أول تدخل فعلى فى المسألة من جانب بارنج، الذى عاد إلى اقتراحه السابق بإرسال "ضابط بريطانى كفء يتمتع بكل الصلاحيات العسكرية والمدنية"[585] وقد تلاقت برقيته المؤرخة 14 يناير التى أحيى فيها إقتراحه القديم مع برقية جرانفيل التى وصلت إلى القاهرة بعد ذلك ببضع دقائق، فسأل بارنج الرأى فى إيفاد جوردون فى مهمة قصيرة إلى سواكن ليعد تقريراً عن الأوضاع العسكرية فى السودان[586]. وجاء رد بارنج باقتراح الجمع بين المهتمين، فلا تقتصر مهمة جوردون على تقديم المشورة بل تتضمن تنفيذ الإنسحاب الفعلى، وعلى حد قوله: "الجنرال جوردون سيكون أنسب رجل يتولى تنفيذ سياسة الإنسحاب من السودان فى أقرب وقت ممكن – إذا قبل القيام بذلك– مع المحافظة على أرواح الأفراد. ويجب أن يفهم تماماً أنه سوف يتلقى تعليماته من المعتمد البريطانى فى مصر، ويقدم تقاريره إليه.. إننى أفضله على غيره، لأن هناك تفاهماً تاماً معه على حدود هذه المهمة، والخط السياسى الذى عليه تنفيذه"[587].

وقد أدمج ما جاء بهذه البرقية فى التعليمات التى أصدرها جرانفيل إلى جوردون. فكان عليه أن يتجه إلى سواكن ليعد تقريراً عن الأوضاع العسكرية واقتراح أفضل السبل لإخلاء الحاميات المصرية من داخل أراضى السودان، ولكن عليه أن ينفذ فى ذلك أوامر بارنج التى

---

[585] Ibid, 225.
[586] Ibid, 226.
[587] Ibid.

تصله من القاهرة، وأن "ينفذ أى مهام تكلفه بها الحكومة المصرية عن طريق إيفلن بارنج"[588] ولاحظ ألن أن العبارة الأخيرة غيرت تماماً من طبيعة التعليمات، لأنها عندما قرأت إلى جانب طلب بارنج إرسال ضابط "يتمتع بكل الصلاحيات العسكرية والمدنية"، فتحت الطريق أمام إسناد "مهام تنفيذية كبيرة" إلى جوردون[589]. وقد برزت بعض هذه الإحتمالات على الفور عندما طلب جوردون – أثناء سفره عبر فرنسا– أن يعين حاكماً عاما للسودان، فوافق بارنج على الفور فى برقية بعث بها إلى لندن[590].

وتضفى السرعة التى تمت بها تلك الإجراءات قدراً من الإرباك وعدم الوضوح إلى القصة كلها؛ لأنه بمجرد فشل مهمة جوردون ألقى الجميع التبعة إما على زملائهم أو على جوردون نفسه، كما تثير سؤالين مهمين حول الأسباب الكامنة وراء تصرفات بارنج فى ذلك الحين: لماذا غير رأيه تجاه جوردون بعدما رفض الاستعانة به فى برقية 11 يناير، قبل ثلاثة أيام من موافقته على ذلك ؟ ولماذا وافق على توسيع نطاق المهمة من مجرد استطلاع الأحوال العسكرية من سواكن إلى إدارة مؤقتة فى الخرطوم ؟

والإجابة عن السؤال الأول أسهل من الإجابة عن السؤال الثانى، فكما ذكر بارنج لنورثبروك فى 4 أبريل 1884 إنه اضطر للموافقة على جوردون؛ لأن الكثير من الناس (فى لندن) كانوا يصرون على إرساله، ولأن "الرأى العام البريطانى بدا مجمعاً على ذلك"، وكان ذلك كافياً لتبديد مخاوفه من شخصية جوردون، وخشيته من الوقوع فى فخ[591].

وقدم فى كتابه "مصر الحديثة" – فيما بعد– قائمة بأسماء أولئك الذين أيدوا اختيار جوردون بدءاً من وزراء الحكومة البريطانية فى لندن، وصولاً إلى نوبار باشا والجنرال وود بالقاهرة، وذكر أنه عندما فوجئ بهذا الإجماع على أمر يتعارض مع رأيه، جعله يشك فى قدرته الشخصية على التبصر فى الأمور[592].

---

[588] Ibid, 231 – 2.
[589] Ibid, 232.
[590] Ibid, 236, 238, 242.
[591] CP/2, FO 633/4.
[592] Cromer, Modern Egypt, I, 437 – 8.

وفيما يتعلق بالسؤال الثانى، لابد أن تكون التعليمات الموجهة من جرانفيل إلى جوردون، ثم تصديق مجلس الوزراء البريطانى على اقتراح تعيينه حاكماً عاماً للسودان، قد أقنعت بارنج أن الحكومة البريطانية – أو على الأقل– الوزراء البارزين فيها يدعمون فكرة توسيع نطاق الدور الذى يلعبه جوردون، ويجب أن نتذكر أيضاً أن رفض عبد القادر باشا الذهاب إلى السودان أوقع بارنج فى حيرة من أمره حول كيفية تحقيق انسحاب منظم للحاميات المصرية بسلاحها وعتادها بالغ القيمة. وأخيراً استقر رأيه حول الحاجة الملحة إلى الإحتفاظ بقدر من النظام على الحدود الجنوبية لمصر بعد سحب الحاميات العسكرية المصرية من السودان، ولعل ذلك كله يكفى لتفسير توسيع المهمة والدور الذى لعبه بارنج فى ذلك بقدر أكبر مما كانت تريده حكومة جلادستون.

وكان من الممكن أن تقف المسألة عند هذا الحد، لو سارت الأمور على ما يرام فى الخرطوم، ولكن فشل المهمة، وما تلاها من استمرار فى توجيه الإتهامات حول مسئولية التركيز الضرورى للسلطات الذى زاد من مشقة المهمة. فبالنسبة لجلادستون وجرانفيل – على وجه الخصوص– لم يكتفيا بما أصابهما من تلوث السمعة، بل تركا من الأدلة ما جعل بعض من ترجموا لهما يبرئون ساحتهما على الأقل بعد وفاتهما[593].

وقد شارك بارنج فيما يمكن أن نطلق عليه "الإتهام الجماعى" ففى مقال كتبه بالتايمز فى نوفمبر 1905 تعليقاً على ظهور كتاب اللورد ادموند فيتزموريس عن حياة اللورد جرانفيل، أبدى اعتراضه على ما ذهب إليه المؤلف من أن التعليمات التى حملها جوردون تغيرت فى القاهرة عند وصوله إليها. وقال إن التغير حدث – على العكس– فى لندن، وأن جورودن نفسه زاد منه أثناء سفره عبر فرنسا[594].

ويلاحظ ألن أن ذلك يبدو صحيحاً، ولكن بارنج نسى تماماً أنه صاحب اقتراح إرسال ضابط بريطانى إلى السودان بصلاحيات واسعة[595] وتستمد وجهة نظر بارنج – فى المقال– قوتها

---

[593] e. g. Morley, The Life of William Ewart Gladstone, ii, 155 – 64; Philip Mangnus, Gladstone, A Biography (London: J. Murray, 1864) 326 b; Lord Edmond Fitzmaurice, The Life of Earl Granville, vol. ii (London: Longmans, Green 1905), 383 – 6.

[594] Allen, Gordon and the Sudan, 245 – 46.

[595] Ibid, 245.

من تفسير التعليمات الإضافية التى زود بها نوبار باشا جوردون عند وصوله إلى القاهرة التى سنتناولها فيما بعد. ترى هل كان هناك "تغيير" فى التعليمات كما يذكر جرانفيل، أم أنه تم توسيع نطاق ما تم الإتفاق عليه من قبل ؟[596].

ومن الطريف قراءة الصور الخاصة التى رسمها بارنج لجوردون فى "الملاحظات" التى كتبها فى زمن معاصر لمقال التايمز، وهنا نجد جوردون رجلاً سكيراً متعصباً، لديه ميول إجرامية، حاد الطبع، يتأرجح بين العقل والجنون[597]. ويعنى ذلك أن توسيع نطاق مسئولياته الشخصية قد أعاقته المبالغة المعتمدة فى شخصية جوردون الغريبة تماماً. ومن الملاحظ – أيضاً– أن بارنج أغفل ذكر اقتراحه بشأن إرسال ضابط بريطانى إلى السودان فى كتابه "مصر الحديثة"، وهو إغفال اضطر للإعتراف به فى رده على أحد نقاد الكتاب[598]. غير أنه يحسب لبارنج أنه لم ينكر أبداً أن موافقته على قيام جوردون بهذه المهمة كان من أكبر الأخطاء التى إرتكبها فى حياته[599].

وقد بدأ جوردون مهمته من محطة القطار فى تشارنج كروس (لندن) حيث كان جرانفيل فى وداعه ودفع عنه ثمن التذكرة، وبصحبته دوق كمبردج الذى فتح له بنفسه باب العربة[600]. وسافر عبر فرنسا ثم البحر المتوسط إلى بورسعيد وقناة السويس فى الطريق إلى سواكن. ولكن، ما كاد جوردون ومرافقه الكولونيل ستيوارت يصلان إلى الأراضى المصرية حتى تلقى جوردون برقية من جرانفيل يأمره فيها بالتوقف فى "القاهرة"، استجابة لطلب ملح من بارنج تلقاه وزير الخارجية. وقد اعتبر ذلك ضرورياً لإعطاء بارنج الفرصة للتأكد من أن جوردون – الذى كان يفتقر إلى الثقة عنده– يدرك أبعاد مهمته وكيفية القيام بها، وليزوده – بنفسه– بالتعليمات اللازمة. وكتب بارنج لجرانفيل فى 21 يناير "كان من المناسب أن يتلقى (جوردون) أوامره منى، وإن كان رجلاً مثله يلجأ إلى الرسول أشعيا وقت الملمات، مهيأ لعدم

---

596 This Point is dealt wiht in Lord Elton, Gordon of Khartoum, The Life of General Charles George Gordon (New York: knopf, 1955) 292 – 5.

597 BN, 243 – 5.

598 For The relevant passage, Cromer, Modern Egypt, i, 242; for his acknowledgement, Cromer to CoptainAthkins, 17 Nov. 1911, PC12, fo 6331.

599 For his thinking at the Time, See Baring to Northbrook, 4 April 1884, CP/2, FO 633/4 for his later summing up of matters see Cromer, Modern Egypt, i. 436 – 9.

600 Elton, Gordon to Khartoum, 290 – 1.

إطاعة أوامر أحد"[601] ولعل ذلك كان من بين أسباب اللهجة اللينة التى استخدمها بارنج فى الخطاب الذى سلمه بنفسه إلى جوردون عند وصول الباخرة التى أقلته إلى بورسعيد، وتبدأ كالتالى:

"سررت كثيراً؛ لتلقى برقية اللورد جرانفيل التى أخبرنى فيها بقدومكم وستيوارت إلى مصر، وإننى على ثقة أنكما ستؤديان خدمات جليلة فيما يتعلق بمسألة السودان، ولست بحاجة إلى التأكيد لكم أنكم تستطيعون الإعتماد على مساندتى المخلصة ودعمى التام"[602].

وقد حقق الخطاب الأثر المرجو، وجعل جوردون يأتى إلى القاهرة لمدة يومين، ذهب صبيحة أولهما للقاء الخديو، ثم ذهب إلى دار المعتمد البريطانى، حيث ناقش التعليمات الموجهة إليه مع بارنج ونوبار وتم الإتفاق على أن يحمل جودون معه فرمانان بتوقيع الخديو، أحدهما بتعيينه حاكماً عاماً للسودان، والفرمان الثانى إعلان لسياسة إخلاء السودان، وطلب منه أن يبذل جهده لوضع نظام عملى يكفل الحفاظ على القانون والنظام بعد الإنسحاب، وقد عقد هذا الطلب الأخير مهمته، وتعارض مع سياسة الإخلاء التى لا تشجع السودانيين على التعاون من أجل إقامة ذلك النظام غير أن ذلك كان يساير روح التفاؤل التى سادت عندئذ، والتى استندت إلى قدرات جوردون، وثقته أن باستطاعته إقناع المهدى بالتعاون معه من أجل تنفيذ سياسة الإخلاء، وقد سارع المؤرخون – فيما بعد– بالقول إن التقدير بالغ السوء للموقف الذى توصل إليه جوردون مرده إلى افتقاره الشديد إلى المعلومات الدقيقة حول شخصية محمد أحمد (المهدى) ومدى ما لديه من قوة ونفوذ[603].

بات جوردون بدار المعتمد، حيث أقام له بارنج حفل عشاء على شرفه حضره نوبار وجمع غفير من أرستقراطية القاهرة. ولما كان جوردون يمل سريعاً مثل تلك المناسبات، فقد انسحب من المائدة وتسلل إلى حجرة نوم طفلى بارنج بالطابق العلوى ليلقى نظرة على الطفلين، ومن اللمسات القليلة الرقيقة بينهما ملاحظة أضافها جوردون إلى رسالة بعث بها

---

[601] CP/2, FO 633/5.
[602] 22 Jan. 1884, GP, Add, Ms 51303.
[603] e. g. Holt, The Mahdist State, 80 – 1.

إلى بارنج "أطلب من صغارك الصلاة من أجلى"[604]. وفى اليوم التالى دعى إلى بيت نوبار، وهناك اندفع جودرون نحو عبد الرحمن منير الزبير، حاكم أحد أقاليم السودان السابق، وتاجر الرقيق الذى أمر جوردون بقتل إبنه لتزعمه حركة تمرد ضد الحكومة عام 1879. ورغم أن الزبير رفض أن يمد يده لمصافحة جوردون، أمسك الأخير بيده ووضعها على رأسه إشارة إلى اقتراح أن يعود الزبير بصحبته إلى الخرطوم، ولكن بارنج قدر خطورة ذلك مع ما بين الرجلين من عداوة. وغادر جوردون وستيوارت القاهرة بالقطار إلى نهاية الخط الحديدى عند أسيوط فى العاشرة من مساء اليوم نفسه، وكان بارنج فى وداعهما بمحطة القاهرة (باب الحديد) وبصحبته الوزراء المصريين وكبار ضباط جيش الإحتلال.

وصل جوردون إلى بربرة فى 11 فبراير على متن قارب بخارى، وهناك اتخذ خطوتان لهما دلالتهما، فصرف كل مرافقيه من الجنود والمدنيين المصريين، معلناً أن حكم السودان أصبح للسودانيين وحدهم. والخطوة الثانية أراد بها إعلان سياسته بقراءة الفرمان الذى يخوله إخلاء السودان إخلاء تاماً[605]. وقد اختلف المؤرخون حول مبررات هاتين الخطوتين، ولكنهم أجمعوا على أنها كانت تمثل خطأ فادحاً، فيذهب هولت Holt – المؤرخ واسع المعرفة بالسودان– أن الخيار الوحيد أمام جوردون كان العمل على إخراج الجميع من السودان قبل أن يدرك المهدى حقيقة ضعفه. ويشير هولت إلى أن جوردون نفسه كان قلقاً مما فعل، حتى أنه لم يكرر نفس الإعلان عندما وصل إلى الخرطوم[606]. وهنا – أيضاً– لابد من تحميل بعض الذنوب لبارنج.

كان الواقع الحقيقى للأحوال واضحاً فى الخرطوم، فقد أخذ ولاء الشيوخ المحليين والأعيان يتحول بمجرد علمهم بقرار الإخلاء. وأدى ذلك بدوره إلى جعل جوردون يتجه لإقامة النظام الإدارى القادر على حفظ الأمن والنظام بعد خروج المصريين من السودان، وكان الحل هو الاستعانة بالزبير. فما كاد جوردون يصل إلى الخرطوم فى 18 فبراير حتى أبرق إلى بارنج طالباً تعيين الزبير خليفة له. ورغم أن بارنج كان يساوره القلق لوجود ثأر بين الرجلين، أيد الطلب فى برقية بعث بها إلى جرانفيل، مؤكداً أن الزبير "هو الرجل الوحيد الذى يمكن قيامه

[604] Gordon to Baring, 28 Jan. 1884, CP/2, FO 633/5.
[605] Holt, The Mahdist state, 84.
[606] Ibid, 87.

بهذا العمل"[607]. ولكن الحكومة البريطانية رفضت الإقتراح فى 23 فبراير على أساس أن "الرأى العام البريطانى لن يتقبل هذا التعيين"، ووصلت الرسالة إلى جوردون بعد ثلاثة أيام، عندئذ كرر بارنج من ناحيته الحث على الموافقة مستخدماً أسلوباً أصاب الجميع بالدهشة حتى الملكة ذاتها:

"مهما كان الرأى مخالفاً لإقتراحى، فإن حكومة جلالة الملكة مسئولة – فى الواقع– عن وضع الترتيبات المطلوبة الآن فى السودان.. ومن حق حكومة صاحبة الجلالة أن تقدر ما للرأى العام من أهمية فى إنجلترا، ولكنى أتجاسر على الإعتقاد بأن أى محاولة لإيجاد حل للمشكلات المصرية على ضوء اتجاه الرأى العام البريطانى سوف يترتب عليه وقوع الضرر، وفى مثل هذه الحالة وغيرها كثير، من المستحسن الاستماع إلى نصيحة السلطة (البريطانية) المسئولة فى الميدان"[608].

وعندما حاولت الحكومة البريطانية المماطلة بحجة الحاجة إلى معلومات تفصيلية عن مدى خطورة الأحوال هناك، ألح بارنج مرة أخرى مؤكداً أن الزبير يمثل حجر الزاوية فى إقامة مركز للسلطة قادر على حكم السودان بعد مغادرة جوردون مضيفاً أنه نظراً لحرج الموقف والحاجة إلى تصرف سريع يسحب إعتراضه السابق على أن يعمل جوردون والزبير معاً فى الخرطوم[609] على كل، لم يكن باستطاعة الحكومة سوى أن تصر على الرفض؛ لأن المعارضة فى مجلس العموم لإرسال تاجر الرقيق المشاغب إلى السودان، كانت بالغة القوة، وقد وصلت أنباء الرفض إلى بارنج فى القاهرة، ولكنها لم تصل إلى الخرطوم، فقد صادف ذلك الوقت قيام المهديين بقطع الخط التلغرافى مع القاهرة.

وأصبح لصعوبة الإتصالات بين القاهرة والخرطوم أثر بالغ على الأحداث، فكان باستطاعة بارنج أن يبعث برسائله إلى بربرة، ولكن وصولها إلى الخرطوم يعتمد على الرسل الذين يحملونها عبر دروب معادية، فلم تصل سوى رسالة واحدة فقط من بين الرسائل التى أرسلها بارنج بين مارس ويوليو، ومما زاد الطين بلة، أن تلك الأحوال السيئة لم تكن واضحة للعيان

---

[607] Allen, Gordon and the Sudan, 274.
[608] Allen, Gordon and the Sudan, 289.
[609] Ibid, 293.

لمدة شهر أو نحوها، مما جعل بارنج والحكومة بلندن يظنان أن جوردون أهمل الاستجابة لتلك الرسائل، وبعد ذلك لم يعد باستطاعتهم معرفة الرسائل التى تلقاها جوردون فعلاً. كما أن الرسائل العديدة التى بعث بها جوردون إلى القاهرة كانت تصل بغير انتظام، وفى مجموعات نادراً ما كانت تتوافق مع زمان إرسالها.

وكان مما زاد الأمور إضطراباً، أن جوردون كان من النوع الذى يستخدم مراسلاته فى طرح الخيارات المختلفة التى يفكر فيها بصوت عال، مما يجعل معرفة ما استقر عليه رأيه من الصعوبة بمكان، وكانت ممارساته موضع الشكوى حتى قبل انقطاع خط التلغراف، وفى 29 فبراير أبلغ بارنج جرانفيل أن رسائل جوردون "متفرقة ومتناقضة بصورة تبعث على اليأس"[610] وفى 11 مارس أبلغ نورثبروك أنه تمنى على الله "أن يفعل مثل فتاة ديكنز، فيعد من واحد إلى عشرين قبل أن يكتب برقية"[611] وكان أعضاء مجلس الوزراء البريطانى – أيضاً– تتملكهم الحيرة، رغم محاولات نورثبروك إقناعهم أنه رغم ما يذكره جوردون فى برقياته من كل "التفاهات والحماقات التى تصادفه.. فإن تقديره للأمور ممتاز"[612].

ويلاحظ ألن أن بارنج أسهم فى تعقيد مشكلة الإتصالات مع جوردون، فأحياناً كان يرسل ما يتلقاه من جوردون ببرقية إلى لندن، وأحياناً أخرى كان يرسلها بالبريد العادى البطئ، وثمة صعوبة أخرى فى تعامل موظفى الخارجية البريطانية مع رسائل جوردون التى كتبها بطريقة غير مألوفة لهم، وقام بارنج فى بعض الحالات بتلخيص رسائل جوردون وإبراز أهم ما جاء بها بطريقة أدت إلى سوء فهمها.

وأبرز مثل على ذلك يسوقه ألن، برقيتان أرسلتا من جوردون إلى القاهرة فى 26 فبراير، أبلغ فى إحداهما بارنج أنه قرر إرسال حملتين إلى الأقاليم المحيطة بالخرطوم لاستعراض قوته، ورغم أن أى منهما لم تطلق رصاصة واحدة، فإن احتواء البرقية الثانية على عبارة مفادها أن الحملتين خرجتا "لمهاجمة الثوار"، كان كافياً لإقناع أعضاء حكومة جلادستون أن جوردون نحى بعيداً سياسة الإنسحاب السلمى من السودان، وأنه قرر مواجهة قوات المهدى بقوة

---

[610] Cromer, Modern Egypt, i. 500.

[611] Zetland, Lord Cromer, 112.

[612] Granville to Baring, 8 Feb. 1884, CP/2, FO 633/7.

السلاح ويذهب ألن إلى أن هذا الإنطباع الذى ساد مجلس الوزراء ربما قلت حدته لو لم يحذف بارنج عبارة جاءت بالبرقية الأولى لجوردون جاء فيها أن "الإنسحاب لا يزال فى بداياته الأولى"[613] وبذلك وغيره من السبل، ساهم بارنج – بغباء– فى إساءة العلاقات بين جوردون ومجلس الوزراء البريطانى، ولعل ذلك كان وراء رفض المجلس الموافقة على إرسال الزبير إلى السودان، مما جعل من الصعب على جلادستون وزملائه فى الوزارة إرسال نجدة فورية عندما اتضح أن جوردون محاصر فى الخرطوم إلى الأبد.

وازداد شعور بارنج بالتوتر كلما إزدادت معرفته بالأوضاع الخطرة المتفاقمة فى شمال السودان، فقد كان يرى أن حكومة جلادستون أصبحت مسئولة عن إخراج جوردون سالماً من السودان طالما كانت وراء إرساله إلى الخرطوم، ودفعه ذلك إلى إرسال برقيتين إلى لندن فى 24 مارس مقترحاً الطريقة التى يتم بها ذلك، إحداهما تقوم على الإعتماد على الثبات فى مواقعه حتى الخريف عندما يساعد الفيضان على إرسال حملة عسكرية بالقوارب صعوداً فى النيل حتى الخرطوم، والثانية تقترح إرسال قوات على الفور من سواكن إلى بربرة (التى يستطيع جوردون الوصول إليها بقارب بخارى)، وهى خطة رأى الجنرال وود فى سواكن، والجنرال ستيفنسون فى القاهرة إمكانية تنفيذها "رغم المخاطر العسكرية غير العادية"[614] وعندما تلقى بارنج رفض مجلس الوزراء البريطانى للخطة الثانية، قال إن من الصعب عليه أن يقمع "هدوءه الدبلوماسى" ما دام الوزراء فى لندن استخدموا عبارته "المخاطر العسكرية" لرفض الإقتراح[615].

ولكن بارنج لم يستسلم، فأبرق مرة أخرى إلى جرانفيل فى 26 مارس:

> "دعنى أتوسل إلى حكومة صاحبة الجلالة أن تضع نفسها موضع جوردون وستيوارت، فقد تم إرسالهما فى أكثر المهام صعوبة وخطورة بأمر الحكومة البريطانية. وتم رفض اقتراحهما بإرسال الزبير الذى لو تم قبل أسابيع لتغيرت الأمور تماماً، لقد صدقت توقعاتهما".

---

613 Gordon and the Sudan, 278 – 80.

614 Gordon and the Sudan, 311 – 12.

615 Cromer, Modern Egypt, i, 52- 4; Allen, Gordon and the Sudan, 313.

وألح بعد ذلك على ضرورة إبلاغ جوردون الثبات (تحت الحصار) إلى نهاية الصيف، حتى يمكن إرسال حملة لإنقاذه، وختم البرقية بالتأكيد مرة أخرى أنه ما دام قد تم إرسال جوردون إلى الخرطوم "فإن الواجب يحتم علينا إنسانياً وسياسياً ألا نتخلى عنه"[616].

وقد اعتبر جرانفيل هذه البرقية شبيهة "بطلقة مدفع ثقيلة"، ولم يكن ذلك من قبيل المبالغة[617] فاستخدامه لكلمة "التخلى" كان له تأثيره المباشر داخل مجلس الوزراء البريطانى وخارجه، وبدأت المطالبة بإتخاذ موقف، وعرضت البرقية على الملكة، التى أمرت على الفور بونسونبى PONSONBY سكرتيرها الخاص أن يبرق إلى رئيس الوزراء جلادستون بأن "السير إيفلن بارنج يعبر عن مشاعرى"[618] بل وجهت اللوم إلى بونسونبى على اللغة التى استخدمها فى صياغة برقية سابقة بإسم الملكة جاء فيها: "من الواضح أن السير إيفلن بارنج مستاء إلى ما تسميه الملكة التصرف البائس المتأخر للحكومة"[619].

أجبرت تلك الهجمات جلادستون لوضع برنامج فعال للحد من الخسائر، فشرح للملكة فيكتوريا أن ما يقترحه بارنج هو "قلب السياسة الرسمية رأساً على عقب"، وأنه يستغل أكثر الصعوبات العسكرية خطورة، وهو يستند إلى أخطار لا يتوفر دليل عنها، ويرجع ذلك إلى جهله بحقيقة الظروف التى يواجهها الجنرال جوردون، وعدم علمه برأيه ورغباته[620]. وكان لبرقية بارنج أثرها داخل مجلس الوزراء أيضاً، وصدر قرار عدم الموافقة على إرسال حملة على الفور فى جلسة عاصفة، هدد فيها البعض بالاستقالة من الوزارة إذا لم يتم إرسال حملة فى الخريف.

وبدا للبعض أن برقية بارنج جاءت لإحتواء إحتمال مطالبته بالاستقالة، وكان لذلك رد فعل حاد عند نورثبروك الذى كتب له فى 17 مارس:

"لعلك تذكر أن المسئولية تقع على عاتقنا وليس عليك، فمع حقك الكامل فى التعبير عن رأيك بحرية تامة، يجب أن تعلم أنه ليس من الممكن فحسب، بل ومن المحتمل

[616] Allen, Gordon and the Sudan 313 – 14.
[617] Granville to Baring, 29 Mar. 1884, CP/7, FO 633/5.
[618] Elton, Gordon to Khartoum, 323.
[619] Ibid, 314.
[620] Allen, Gordon and the Sudan, 325 – 6.

أيضاً أننا رغم بعدنا عن التأثر المباشر بالظروف المحيطة بك، أننا على حق، وأننا أقدر منك على تقدير الأهمية الحقيقية للشئون المصرية فى إطار المصالح العامة للإمبراطورية، وبينما يجب أن نقدر مشاعر الشعب الإنجليزى تقديراً جيداً وكذلك البرلمان الذى لم تكن له يوماً اليد العليا فى حكم البلاد كما هو الحال اليوم، فإن أداء الحكومة يجب أن يكون منضبطاً"[621].

وجاء رد بارنج فى الرابع من أبريل، فيما وصفه "بأطول وثيقة" كتبها منذ مجيئه إلى مصر، ويبدو من لهجته الدفاعية أنه تأكد من أنه تجاوز الحدود، كما أبدى نوعاً من التحسر على النفس، فهو لم يتضايق لعدم قبول مقترحاته، بل أحس "بالإحباط والتثبيط" فمن الإحباط الوقوف أمام السلبيات "وكأننى لم أفعل شيئاً جيداً من قبل"، وأنه يحس بأنه ترك وحيداً فى بيداء شاسعة، إذ يجب على الحكومة أن تتذكر أنه ما خلا المؤشرات العامة، لم يكن لديه دليل عمل من لندن، وأنه كان من المفترض – أيضاً– إعتبار عدم التدخل فى السودان على الإطلاق يمثل أفضل السبل، وهو لا يستطيع أن يرغم نفسه على الإعتقاد بأن النتائج كانت ناجحة.

غير أن بارنج ظل على موقفه، فقد تضمنت الرسالة بعض "القرصات". فذهب إلى أنه لو لم تأخذ بريطانيا على عاتقها مسئولية السودان، فإننا "سوف نتورط تدريجياً فى حكمه بأنفسنا". وأن الكثير من هذا الدرس ينعكس على مصر أيضاً. فإذا أخذت بريطانيا على عاتقها المسئولية كاملة فى سبتمبر 1882 "لكنا قد قطعنا شوطاً كبيراً فى تحقيق الهدف الذى نسعى إليه.. مثل ترك مصر تحكم نفسها بنفسها"[622] وكان من الصعب عليه أن يغفل عن المقارنة بينه وبين جوردون فقد أرسل كل منهما فى مهمة لتنفيذ الجلاء عن مصر بالنسبة له، وعن السودان بالنسبة لجوردون.

لقد نجح بارنج – على الأقل– فى أن يساعد على تحريك الأمور فى لندن، دون أن يكون عامداً لتحقيق ذلك، فقد كانت فرصة الإجماع على قرار باتخاذ إجراء فورى فى السودان من الصعوبة بمكان فى ظل توازن القوى الذى قامت عليه وزارة جلادستون، غير أنه أعطى

[621] Zetland, Cromer, 115 – 16.
[622] Ibid, 117 – 18.

دفعة ملحوظة لفكرة إرسال حملة فى الخريف، ولكنها ما لبثت أن وهنت. وكان من البديهى – عند بارنج وأبناء جيله– أنه إذا كان الموظف الموفد فى مهمة بعيداً عن أرض الوطن قد وجد نفسه محاصراً، فلابد أن يمارس الضغط دائماً لإرسال قوات لإنقاذه. أما إذا كان الزبير هو الذى أوفد فى مهمة وتعرض للحصار، فلن يهتم أحد فى لندن بشأنه، أو يعانى من الأرق قلقاً عليه، ولكن ضابطاً إنجليزياً له مكانة جوردون ما كان يجب إيفاده فى مهمة كهذه ما لم يكن مفهوماً ضرورة التحرك على الفور لإنقاذه إذا ساءت الأحوال.

استدعاء بارنج إلى لندن لمناقشة المالية المصرية

وفى نفس الوقت، كانت الأحداث تتحرك بسرعة على الجبهة المالية، وما لبث فنسنت أن عمل مع كبار موظفيه على إعداد ثلاثة تقارير تتناول تقديراتهم لمعدلات الإيرادات والمصروفات للعام 1884 / 1885، ثم استدعى إلى لندن فى مارس 1884 لمساعدة الحكومة البريطانية فى مفاوضاتها الصعبة مع فرنسا التى كانت ضرورية للإعداد للمؤتمر الدولى الخاص بالمالية المصرية. وأخيراً تم إدماج تقريره وتقرير بارنج فى الكتاب الدورى الموجه من جرانفيل إلى الباب العالى والدول الأوروبية فى 19 أبريل، وتضمن اقتراحين كان بارنج يلح عليهما منذ الخريف الماضى: أولهما، تعديل قانون التصفية للسماح للحكومة المصرية بالتصرف فى فائض الإيرادات المتصلة أو غير المتصلة بالديون. والإقتراح الثانى يتضمن الموافقة على عقد قرض لمصر بضمان دولى قيمته ثمانية ملايين جنيهاً إسترلينياً لسداد تعويضات حوادث الإسكندرية (أثناء الثورة العرابية) وسداد الديون السايرة التى استجدت وتراكمت منذ العام 1882، مع مليون واحد آخر لأعمال الرى لتحسين الطاقة الإنتاجية للزراعة، (ومن ثم زيادة حصيلة الضرائب).

ولم يكن بارنج قد استدعى شخصياً إلى لندن لتقديم مشورته، وليس واضح كيف تطلع إلى ذلك بينما كان جوردون محاصراً فى الخرطوم، ولعل من بين أسباب ذلك يقينه من العودة إلى القاهرة قبل حلول موعد الفرصة الثانية لتوجيه حملة إنقاذ عندما يعلو فيضان النيل فى سبتمبر. ومن المحتمل أنه كان يسعى إلى معالجة الآثار الناجمة عن توتر العلاقة بينه وبين زملائه فى حكومة حزب الأحرار فى لندن. لقد كان منهكاً من إرهاق العمل، وسعيداً بالإبتعاد عن القاهرة لأسباب شخصية حتى يتمكن من قضاء جانب من الصيف بلندن مع

إيثل والطفلين. وترك إدوين إجرتون Edwin Egerton (الذى يليه فى المرتبة) ليقوم بأعمال المعتمد البريطانى أثناء غيابه، ليتحمل وحده تبعة مأساة جوردون، والنقد الشديد لعجزه عن بذل الجهد لإنقاذه من الخرطوم.

وبذلك انتهت الشهور السبعة الأولى لبارنج فى مصر، فتحسنت الأمور بالقدر الكافى، ولكنه عانى توتراً متزايداً منذ ديسمبر، فقد كان النظام الجديد القائم على الإدارة البريطانية المؤقتة للقضايا الأساسية الخاصة بمصر من الصعوبة بمكان، كذلك كان بينه وبين المستشارين (الإنجليز فى الوزارات المصرية) مشكلات من حين لآخر، فهدد بعضهم علاقته الطيبة مع نوبار بالإصرار على التدخل المباشر فى الداخلية والقضاء، كما ضايقهم عدم استطاعتهم العمل معاً كفريق لوضع برنامج للإصلاح منذ إندلاع أزمة السودان[623]. ومثل كليفورد لويد مشكلة من نوع خاص، فرغم تقدير معرفته بأحوال الريف فى الشهور الأولى، إعتبره بارنج مثل "الثور فى محل الخزف" لقدرته الفائقة على إغضاب نوبار وكبار موظفيه، وكذلك الكثير من زملائه الإنجليز[624].

ومما زاد الطين بلة، أن بارنج لم يكن لديه طاقم العاملين القادر على تحمل عبء العمل المتزايد، فكان عليه أن يكتب بيده قدراً أكبر مما اعتاده من قبل حتى استطاع استخدام كاتب اختزال فى يناير 1884. أضف إلى ذلك ما عرفناه من إيثل ومصادر أخرى أنه كان متوعك الصحة معظم الوقت، فقد كتبت إلى نورثبروك فى فبراير 1884:

> "لزم إيفلن الفراش عدة أيام لإصابته بالحمى والتهاب الحلق، ونادراً ما رأيته مريضاً بهذا الشكل. وأرجع هذا الوهن الشديد الذى يعانيه إلى حجم العمل والقلق الذى أصابه مؤخراً، ولا شك أنه لم يستطع التمتع بصفاء الذهن عند تناوله كل أمر من الأمور – كبر أم صغر – التى تعرض عليه"[625].

ويلقى بارنج الضوء على تلك الظروف بالقول: "إننى مثقل بالعمل، كما كنت فى الأسبوع الماضى، الكل يجلس صامتاً منتظراً الأوامر فيما عدا القلة ممن لديهم الجرأة على اقتحام

---

[623] e. g. Vincent, "Note: Clifford Lloyd, Benson Maxwell and Baring", Diary, 20 July 1884, DP. Add. MS 48948.

[624] Marlowe, Cromer in Egypt, 98.

[625] Zetland, Lord Cromer,94-95.

غرفة نومى رغم المحاولات الشجاعة من جانب زوجتى لصدهم، متسلحة فقط بزجاجة مزيج لعلاج السعال"[626].

وأخيراً، هناك مسألة دوره كعضو بحزب الأحرار، معاد لفكرة ضم مصر، وجد نفسه فى وضع أصبح فيه استمرار الإحتلال يبدو أمراً لا مفر منه، كما عبر عن ذلك فى خطاب مؤرخ 4 أبريل 1884. أرسله إلى نورثبروك:

"لا شك أن ثمة قدراً يحركنى، فرغم آرائى الصارمة المعادية لضم مزيد من الأراضى إلى الإمبراطورية، وتحمل مسئوليات جديدة، ومع مناهضة التطرف الوطنى التى تتأصل عنى كلما تقدم بى العمر، أجدنى مضطراً إلى تقديم مقترحات لها من النظرة الأولى مذاق التطرف الوطنى، وفى هذا الجو السياسى المصطنع، على دائماً أن أتحدث بغير ما أريد قوله".

كذلك لم يتم تسوية مسألة ضيقة بتباطؤ جلادستون فى تناول الأزمة السودانية، وعجزه عن حماية سياسة الحكومة فى مواجهة التحمس المفاجئ المتميز الذى أبداه فى البرلمان والصحافة ومن بين أمور أخرى، أخبر نورثبروك أن مسألة جوردون "جعلتنى أحترس دائماً من التأثر بالرأى العام البريطانى"[627].

وما كاد بارنج يصل إلى لندن، حتى تبادل المراسلات مع جلادستون، وانتهز الفرصة لطرح عدة تساؤلات عليه بشأن السياسة البريطانية تجاه المالية المصرية، وعما أشارت إليه مضبطة مجلس الوزراء "بالحكومة الوطنية"[628] ذلك بجلسة الأول من مايو، وأدى ذلك إلى دعوته لطرح أفكاره الشخصية المتصلة بمصر على مجلس الوزراء فى إجتماع 14 مايو. فذكر أن الأمر يتطلب خمس سنوات على أقل تقدير لإصلاح المالية المصرية وإعادة الأمور إلى نصابها، وإن كان يمكنه تحقيق ذلك خلال ثلاثة أعوام ونصف العام لو أطلقت يده من قيود الرقابة المالية الأوروبية، وتحدث بصراحة تامة فى اعتراضه على اقتراح

---

[626] Zetland, Lord Cromer, 96 – 7.
[627] CP/2, FO 633/4.
[628] H. G. C. Mathew (ed.), The Gladstone Diaries: With Cabinet Minutes and Prime Ministerial Correspondence, vol Xi: July 1883 – Dec. 1886 (Oxford: clarendon Press, 1990) 140 – 1.

بضرورة أن يتم الجلاء عن مصر فى موعد أقصاه 1888، لما يترتب على هذا الإقتراح من آثار سلبية فى انجلترا قد يؤدى إلى إعاقة إمكانية التوصل إلى إتفاق بشأن القرض، كما يؤدى – فى مصر– إلى تبديد الثقة فى إمكانية استمرار الحكم المستقر، وعلم أثناء وجوده بغرفة اجتماع مجلس الوزراء أن خصمه اللدود كليفورد لويد سوف يترك مصر إلى إنجلترا[629].

كما جرت مناقشات بين بارنج وجرانفيل فى وزارة الخارجية حول مستقبل الإشراف على مالية مصر، وقد ضمن أفكاره فى خطاب أرسله إلى جرانفيل فى الثانى من أبريل كرر فيه ضرورة تعديل قانون التصفية وأن يكون التعديل نهائياً كما أكد ضرورة إحكام الرقابة على مصروفات الحكومة المصرية، واقترح أن تسند هذه المهمة إلى "صندوق الدين العام" وأن تتم استشارته فيما يتعلق بموازنة الحكومة المصرية على أن يحرص تماماً على عدم زيادة المصروفات الحكومية عما يكون قد تم إقراره، وأخيراً، إنتهز الفرصة لعرض الفكرة القائلة بأنه إذا كان من "الحكمة" ألا تتطلع بريطانيا إلى إدارة أمور مصر بصفة دائمة (حيث لا تتركز مصالحها إلا فى قناة السويس) إلا أن من المستحسن أن تتأكد بريطانيا من أن مصر تحكم "بصورة معقولة"[630].

وقضى بارنج باقى مدة وجوده بلندن فى عمل شاق بلجنة ضمته وريفرز ولسون، وبلم (الذى جاء خصيصاً من القاهرة) وموظفان بريطانيان آخران، لإعداد تقرير بعنوان: "عن الأوضاع المالية فى مصر". ومن الطريف أن الشاب إدوارد جراى كلف بالعمل سكرتيراً خاصاً له، – وهو الذى أصبح وزيراً للخارجية فيما بعد – ومن ثم أصبح رئيساً لبارنج فى آخر سنة من عمله فى مصر (1906 / 1907)، وقدم التقرير إلى مجلس الوزراء فى 21 يونيو[631]. وتضمن تقديرين أحدهما عن المصروفات المتوقعة مستقبلاً والآخر عن الإيرادات المستقبلية. ودعم التقدير الأول بمجموعة من المقترحات التى وضعها بارنج أولها أن تجبر نظارة المعارف العمومية على ضغط نفقاتها، وثانيها أنه ونوبار بريان أن الحكمة تقتضى

---

629 Ibid, 146 – 7; Baring to Granville, 31 May 1884, CP/2 FO 633/5.

630 FO, Further Correspondence Respecting the Finance of Egypt, n – 23 (1884), 9 Copy in pp. (1884) 89, 43 ff.

631 Matthew (ed.), Gladstone Diaries, Xi, 162.

عدم فصل الموظفين الذين عينوا منذ 1880. وتضمن التقدير الثانى أن هناك إجماع فى مصر أن ضرائب الأطيان مرتفعة وأخيراً، أكد التقرير أن الديون السايرة قد بلغت نحو الثمانية ملايين جنيهاً[632].

وتم إفتتاح المؤتمر الدولى فى 28 يوليو، وقد سبقته اجتماعات متصلة من الجانب البريطانى ومباحثات مبدئية مع الفرنسيين، وقد طغت المناقشات السياسية على المالية نتيجة الوضع الذى وضعت بريطانيا نفسها فيه باحتلالها المتفرد لمصر، واحتاج البريطانيون إلى موافقة الفرنسيين وكذلك الأوروبيين على عقد قرض دولى لمصر، وكان الفرنسيون من جانبهم حريصين على استرداد المالية المصرية عافيتها؛ لأنهم يملكون مصالح واسعة فى الدين المصرى العام، كما أن لهم الكثير من الاستثمارات فى مصر. ورغم يقينهم أن الجلاء السريع مستحيل التحقيق، كانوا يصرون على أن تعلن بريطانيا تاريخاً محدداً معلوماً يتم فيه الجلاء مستقبلاً، وفى مقابل ذلك يريدون توسيع الرقابة المالية الأوروبية وصلاحيات أوسع لصندوق الدين العام[633].

وقد أتاح ذلك كله مساحة للتوافق، إذ يدرك الطرفان الأسباب السياسية التى أدت إلى إنخفاض قيمة سندات الدين المصرى، كما أنه كان يساورهما القلق من امتداد أفكار المهدى إلى شمال أفريقيا، غير أنه كانت بينهما مواجهة فيما يتعلق بالأهداف قصيرة الأجل، فالإنجليز يحاولون قصر المباحثات على حالة مصر المالية والفرنسيون يريدون توسيع نطاق المباحثات لتشمل مسألة الجلاء عن مصر وطبيعة الرقابة المالية على مصر بعد أن يتم الجلاء مستقبلاً.

عقد المؤتمر سبع جلسات فيما بين 28 يونيو و2 أغسطس، وقد حضر دى بلنيير – زميل بارنج السابق– جميع الجلسات ماعدا الجلسات الثلاث الأولى، ونظراً لخبرتهما بالمالية

---

632 "Report by sir Evelyn Baring, sir R. E. Welby, sir C. Rivrs Wilson, and sir J. Carmichael, on the Financial Situation of Egypt (June 28, 1884)", in FO, further Correspondence concerning the affairs of Egypt, Egypt, no. 28 (1884), a copy of which can be found in PP (1884) 89, 373 ff.

633 Samir Saul, La France et l'egypte de 1882 a 1914, Interets economiques et implication Politiques, (Paris: Ministere de l'economie des finance d'Industrie / comite pour l,histoire economique et financiere de la finance, (997), 575 – 83.

المصرية كانا المتحدثان الرئيسان، والخصمان الرئيسان أيضاً عند الحديث عن جباية الضرائب، والحد الأمثل الذى لا يجب أن تتجاوزه المصروفات الإدارية، وفيما يتصل بصندوق الدين العام كان الرأى يتجه إلى كفاية الصلاحيات التى يتمتع بها عندئذ، ودارت مناقشاتهما حول انتقادات دى بلنيير للتقرير الذى وضعته اللجنة البريطانية، فرد بارنج مفنداً إنتقادات دى بلنيير، واصطدما عندما أيد بلنيير الموقف الفرنسى الذى يرى مناسبة المعدلات الحالية لضرائب الأطيان، على حين كان بارنج يراها مرتفعة ويطالب بتخفيضها[634]. وعلى الأقل هناك مراقب واحد لاحظ أن الفرنسيين حصلوا على مكسب فى المفاوضات السابقة على المؤتمر، إذ يشير تيجران باشا (صهر نوبار) أن دى بلنيير حصل على الموافقة على زيادة حجم الواردات المصرية مما يعنى أن الريف المصرى ليس على تلك الدرجة من الفقر التى يدعيها بارنج، على حين جاء دفاع بارنج عن الفلاحين المصريين أمام المؤتمر موضع تقدير المصريين[635].

ولعل إدراك بارنج لعدم إمكانية تلافى الصدام مع دى بلنيير جعله لا يركن إلى اللين فى المباحثات السابقة على المؤتمر، ولكنه كان حريصاً على العلاقة الودية معه عندما عملا معاً بإنسجام تام 1879 – 1880. وهو ما توقعه دى بلنيير عندما وصل إلى لندن على حد قول إدجار فنسنت، ولكن بارنج لم يزره سوى مرة واحدة مجاملة، وعامله معاملته لأحد معارفه وليس معاملة الصديق والزميل[636].

الفشل الذريع لمهمة نورثبروك

لم يتمكن المؤتمر الدولى (أو مؤتمر لندن) من التوصل إلى قرار بشأن المالية المصرية، وتم الإتفاق على فض إجتماعاته. وطلب بارنج – عندئذ– أن يؤذن له بحضور جلسة مجلس الوزراء عند النظر فى إرسال اللورد نورثبروك "كمبعوث خاص" ليضع تقريراً، وأن ينصح حكومة صاحبة الجلالة بالمشورة التى يمكن أن تقدمها للحكومة المصرية.. فيما

[634] "Protocols or Conference Held in London Respecting the Finances of Egypt" FO, Further Correspondence Respecting the Finances of Egypt, Egypt no, 29 (1884), 26 – 9, 32 – 4 a copy of which can found in pp (1884) 89, 439 ff.

[635] Vincent, "Egypt and the New Loan", Diary, 20 July 1884, DP, Add. MS 48948.

[636] Vincent, "Note: Barrere at the Conference, Diary 20 Sept. 1884 DP Add. MS 48949.

يتصل بالمالية"[637] ولا زال الغموض يحيط بتلك المهمة، ويبدو أن هدفها كان كسب الوقت حتى يتم إجراء حلقة أخرى من المفاوضات مع فرنسا. ولعله مع تصاعد قضية حملة إنقاذ جوردون، جعل جلادستون يفضل وجود أحد زملائه البارزين فى مجلس الوزراء بالقاهرة، حتى يطلعه على حقيقة ما يجرى هناك[638].

وهناك أمران لا يتطرق الشك إليهما: أولهما إن نورثبروك نفسه ذهب إلى القاهرة بنية حسنة وأحس بخيبة الأمل عندما كان مصير تقريره "الرفض التام" بعد عودته إلى لندن[639]. والأمر الثانى، أن كل من بارنج وفنسنت ظنا أنهما يستطيعان الاستفادة من وجود نورثبروك بالقاهرة لتكوين (لوبى) موحد الكلمة، يدعم فكرة مواجهة الفرنسيين، والحد من سلطات المراقبة الأوروبية على المالية المصرية[640]. ولا جدال فى إمكانية الربط بين النقطتين، ولعل بارنج وفنسنت أرادا الاستفادة من بعد نورثبروك عن جلادستون وجرانفيل وغيرهما من زملائه فى لندن، فى التأثير على ما يتوصل إليه من نتائج، ودفعه إلى التأييد المباشر لفكرة إنفراد بريطانيا بشئون مصر، رغم أن ذلك كان يعد أمراً بالغ الخطورة فى نظر معظم أعضاء مجلس الوزراء البريطانى.

سافر نورثبروك وبارنج معاً إلى القاهرة وبصحبتهما السير جارنت ولسلى Garnet Wolseley ليتولى أمر حملة إنقاذ جوردون، وكان بارنج يعرفه منذ أيام الدراسة بكلية أركان الحرب. وبمجرد الوصول إلى القاهرة فى التاسع من سبتمبر كان أول عمل ينتظرهما هو الإهتمام بالوضع المتردى للمالية المصرية، فرغم الحصول على قرض من روتشيلد قيمته مليون واحد من الجنيهات، كانت الطلبات الواجبة السداد فوراً من الكثرة لدرجة أن بارنج وفنسنت يجبران على محاولة كسب المزيد من الوقت بتوجيه النصح إلى الحكومة المصرية بألا تدفع إلا لصندوق الدين مستحقات خدمة الديون لمدة شهر واحد. واستخدام الباقى فى تغطية المصاريف الإدارية بدلاً من تغطية العجز فى خدمة ديون الدومين والدايرة السنية كما هو مقرر فى قانون التصفية. وكان وجود نورثبروك بالقاهرة مهماً لتأييد ذلك الإتجاه.

---

[637] Matthew (ed.), Gladstone Diaries, xi, 183.
[638] Ibid, 188.
[639] Mallet, Thomas George Earl of Northbrook, 229 – 30.
[640] Vincent, Diary, 15 Sept. 1884 DP Add. MS 48949.

ولجأ صندوق الدين العام إلى مقاضاة الحكومة المصرية أمام المحاكم المختلطة، وحصل على حكم لصالحه فى 15 ديسمبر 1884 ولكن هذه الإستراتيجية حققت الغرض المنشود منها، وكانت الأولى فى سلسلة من الدعاوى عن أقساط عجاف لخدمة الدين كان أغلبها من تدبير فنسنت، جعلت المالية المصرية قادرة على العوم لمدة ثلاث سنوات، ومن الممكن أن يكون قرار الإشراف على صندوق الدين العام جزء من سياسة أوسع مدى؛ لحث لدن على إدراك مدى ما يثيره الفرنسيون من معوقات، ومن ثم تشجيع مجلس الوزراء على الاستجابة لمطالب بارنج وفنسنت بإطلاق أيديهما فى العمل. ومن المؤكد أن بارنج كان يدرك تماماً أن الفرنسيين يتقبلون مبادراته المالية طالما بقيت استثماراتهم فى مصر مأمونة، وذلك رغم ما يظهرونه من عدم التحمس لها.

عاد نورثبروك إلى لندن فى نهاية أكتوبر، وكتب معظم تقريره على متن الباخرة خلال رحلة العودة، ثم عدله عندما واجه نقداً لاذعاً من بعض زملائه بمجلس الوزراء[641] ويذهب جون مارلو إلى القول بأن مجلس الوزراء إعتبر نورثبروك متحدثاً بلسان إبن أخيه (إيفلن بارنج)[642] وأكد للتقرير فكرة محاولة بارنج وفنسنت دفع جلادستون وجرانفيل على مدى نحو عام إقناع الحكومة البريطانية بأن التقديرات السابقة المتعلقة بأوضاع مصر المالية كانت مفرطة فى التفاؤل، وأن توسيع مساحة الإدارة الذاتية للمالية المصرية شرط أساسى لاستعادة عافيتها، كما تضمن التقرير توصيتهما الخاصة بضرورة ضمان عقد قرض قيمته 8.7 مليون جنيهاً إسترلينياً بضمان الدومين والدائرة السنية لدفع ديون مصر السايرة مع ترك قيمة قرض المليون جنيه (من روتشيلد) لينفق على تحسين نظام الرى[643] وأخيراً، أبدى بارنج تحمسه للتقرير فى رسالة بعثها إلى جرانفيل فى العاشر من نوفمبر.

أثبت رد الفعل المباشر فى لندن كيف أن نورثبروك وبارنج قد أساءا تقدير المزاج السياسى السائد هناك. فيذكر نورثبروك أن تقريره "استفز" زملاءه بمجلس الوزراء[644] وشعر جلادستون

---

641 Mallet, Thomas George Earl of Northbrook, 191.

642 Marlowe, Cromer in Egypt, 103 – 4; Northbrook to Vincent, Diary 30 Oct. 1884, DP, Add. MS 48937.

643 A Copy of Northbrook's report can be found in PRO,CAB 37/13/39, dated 9 Aug. 1884.

644 Mallet, Thomas George Earl of Northbrook, 195.

بالحرج، بينما كتب تشيلدز إلى بارنج واصفاً التقرير "بالديناميت"[645] فقد كانت هناك نقطتان تثيران القلق: إحداهما أن مسألة القرض المضمون من الحكومة البريطانية، لا يعنى التورط الشديد فى المالية المصرية فى المستقبل بالقدر الذى لا يقبل به أعضاء حكومة حزب الأحرار فحسب، بل قد يعطى إنطباعاً لحملة سندات الدين الذين يرتابون دائماً، أن ثمة دعماً رسمياً لمصالحهم من جانب الحكومة البريطانية، والنقطة الثانية المهمة تتمثل فيما ذكره نورثبروك "صراحة" أن الرقابة المالية البريطانية فى مصر سوف "تحل محل" الرقابة الأوروبية التى اقترحها مؤتمر لندن، فكل ذلك يقف حجر عثرة فى وجه الجهود التى تبذل لاستئناف التفاوض مع الفرنسيين حول أوضاع مصر المالية، كما أن ثمة شك فى الحصول على عدد كاف من أصوات نواب حزب الأحرار لتمرير القرار فى مجلس العموم[646]، وأخيراً، أحس جلادستون وتشيلدرز أنه بدلاً من تخفيض ضرائب الأطيان – كما جاء فى إقتراحات نورثبروك– "يجب أن يدفع كبار الملاك قدراً أكبر من الضرائب"[647].

وناضل نورثبروك فى مجلس الوزراء من أجل القبول ببعض ما جاء فى تقريره إلى حد التهديد بالاستقالة فى ديسمبر 1884 وأوئل يناير 1885 فى محاولة للحد من سلطات الرقابة الدولية على المالية المصرية، وقد حقق هذا التهديد نتيجة عندما استطاع نورثبروك وإثنان من الوزراء أن يقفوا حائلاً دون اعتزام جلادستون قبول إقتراح فرنسى بتشكيل لجنة تحقيق ثانية فى أحوال المالية المصرية، ولكن الحكومة البريطانية ظلت متمسكة بمجموعة من المقترحات التوفيقية التى أتت ثمارها – أخيراً– فى إتفاقية لندن المؤرخة 18 مارس 1883، فحصلت بريطانيا على الموافقة على عقد قرض بضمان دولى (وليس بريطانى فقط) لمصر قيمته تسعة ملايين من الجنيهات الإسترلينية، وتخفيض الفائدة على الدين العام 5% من قيمتها لمدة عامين (1885 و1886)، ولكن ذلك إقترن بشرط خطير، هو ضرورة تشكيل لجنة تحقيق دولية ثانية إذا لم يتم سداد الأقساط كاملة فى موعدها عام 1887. وفى المقابل كان على بريطانيا القبول بضم مندوب ألمانى وآخر روسى إلى صندوق الدين العام،

---

[645] 21 Nov. 1884, CP/2, FO 633/5.
[646] Childers to Baring, 21 Nov. 1884, CP/2, FO 633/7.
[647] Baring to Childers, 30 Jan. 1885, CP/2, FO 633/5.

والقبول بإدخال تعديلات معينة على قانون التصفية مما سماه بارنج "طريقة بالغة التعقيد" لتوزيع أى فائض فى الإيرادات بين صندوق الدين العام والحكومة المصرية[648].

أحس بارنج بالمرارة وخيبة الأمل، فقد تبدد أمله فى إجازة مجلس الوزراء لتقرير نورثبروك، والآن تم توقيع وثيقة بائسة "تضع المالية المصرية تحت رحمة الفرنسيين أكثر من ذى قبل"[649]. وكتب إلى جرانفيل فى 3 مارس يقول: "لا أستطيع القول إننى معجب بالإتفاقية المالية، ولكن علينا أن نحقق منها أكبر قدر من الفائدة، وأتمنى ألا تكون وزارة الخزانة (البريطانية) أكثر إلتزاماً (بالإتفاقية)"[650]. كان ذلك علامة على أنه يهيئ نفسه لخوض معركة جديدة لتحقيق المعادلة المالية، التى دخل بشأنها فى صراع مع مختلف وزراء المالية البريطانيين: تشيلدرز، واللورد راندولف تشرشل، وصديقه القديم جوشن، حول المصروفات العسكرية وغيرها، وحول صندوق الدين العام وفرنسا.

حل عقدة جوردون

وفى نفس الوقت الذى كانت فيه حملة إنقاذ جوردون تشق طريقاً صعوداً فى النيل، وصلت أخبار عاجلة فى أكتوبر عن وجود المهدى نفسه على مشارف الخرطوم، وأن دفاعات المدينة أصبحت فى متناول قواته مع ارتفاع الفيضان وتدفق مياه النيل عبر ضفتيه، وتلقى بارنج آخر رسالة نجح فى تهريبها وذلك فى أول أيام السنة الجديدة، وكانت فى حجم طابع البريد، وتحمل تاريخ 14 ديسمبر 1884، وتحمل ببساطة العبارة التالية:

"الخرطوم بخير – جوردون"[651] وقد شجعه هذا على الإبراق إلى ولسلى مقترحاً – مرة أخرى– إرسال تجريدة من سواكن إلى الخرطوم عبر الصحراء، ولكن الإقتراح رفض مرة أخرى[652].

ثم جاءت الأخبار فى 5 فبراير أن حملة الإنقاذ التى أرسلت بالقوارب البخارية ما كادت تصل إلى الخرطوم حتى وجدتها فى يد قوات المهدى، وأن جوردون ربما يكون قد قتل.

---

[648] Baring to Goschen, 7 Feb. 1885, CP/2, FO 633/5.
[649] Ibid.
[650] CP/2, FO 633/5.
[651] Entry for 1 Jan. 1885, Journal 1884 – 5, BA, DEP, 11.
[652] Ibid.

كانت هذه ضربة قوية تلقاها بارنج، وإزداد إحساسه بالألم عندما عادت الحملة ومعها ستة أجزاء من يومية (غطت الفترة من 10 سبتمبر حتى 4 ديسمبر 1884) كان جوردون يرسل واحدة أو إثنتين منها إلى القوات البريطانية عند الحدود المصرية. وتضمنت اليوميات تعليقات صريحة عن بارنج وجلادستون وجرانفيل، وغيرهم، واعتبرتها الحكومة فى لندن وثيقة رسمية قامت بنشرها دون تأخير[653].

ويذهب ألن إلى أن تلك اليوميات كانت مجرد كتابات يتسلى بها رجل وحيد، حزين، بعدما أرسل ستيوارت وآخر من كان معه من مرافقيه الإنجليز إلى الشمال فى 10 سبتمبر 1884، فلم تتبق له إلا يومياته التى راح ينفثها همومه[654]، غير أن ما كتبه فيها عن بارنج يمكن قراءته على ضوء عدم إرتياحه له، فهو يسخر من عرضه الحماسى لدعمه عند مروره بالقاهرة فى يناير 1884 (يومية 19 سبتمبر)، ويتهمه "بالطيش والحماقة" (نفس اليومية)، ويلومه لفشله فى تأييد فكرة إرسال حملة إنقاذ فى الربيع السابق (يومية 24 أكتوبر)، ويراه رجلاً جاداً إلى درجة العزوف عن الضحك (يومية 7 نوفمبر)، ولم يكتف برسم صورة ساخرة له، بدا فيها على شكل ببغاء عبوس، بل سخر من تنازعه مع إجرتون Egrton حول الصور التى رسمها لهما أثناء وجوده بالقاهرة (يومية 17 نوفمبر).

"قال بارنج لإجرتون: هل تقول إن هذه الصورة بشعة، إذن ماذا تقول عن الرسم الذى رسمه لى ولك ؟ ومدى فظاعته إذا ما قورن بهذا، فإذا وضعهما فى يوميته شبه الرسمية أصبحنا لا نساوى شيئاً، فإذا هوجم على إقدامه على الرسم على هذا النحو مع كونه ضابطاً بريطانياً كبيراً، إدعى أنه رسمها بإعتباره حاكماً عاماً (للسودان)".

ولابد أن يكون بارنج قد اطلع على نسخ من اليومية فى وقت ما قبل نشرها أواخر 1885[655]. ووجهة نظره التى عبر عنها فى كتابه: "مصر الحديثة" أن بعض الفقرات قد تم

---

[653] نشرت اليوميات لأول مرة فى صيف 1885 بمقدمة وحواشى كتبها Egmont Hake بعنوان:
The Journal A.s of Major – General C. G. Gordon, C. B., at Khartoum; I quote from the facsimile reprint (London: Draf, 1984).

[654] Gordon and the Sudan, 377 – 8.

[655] ذكر فى يومية 21 يوليو 188 أنه عندما كان يكتب عن بعثة جوردون بشعر كأنه ينعه.

حذفها رسمياً؛ لأنها احتوت على "قدر كبير من التعدى العنيف الأحمق على اللورد جرانفيل"[656].

ومن الغريب أن يوميات بارنج نفسه لا تحتوى على أى إشارة إلى مشاعره إزاء النهاية العنيفة لجوردون. وكل ما نعلمه من فنسنت أن بارنج وزوجته إيثل لم يريا أن خبر مقتل جوردون يعد سبباً كافياً لإلغاء حفل راقص بالملابس الرسمية الفخمة، أقاماه فى نفس الأمسية، ويفهم من تعليق فنسنت أن ذلك التصرف بعيد عن اللياقة[657]. وقد تقدم السير وليم ماريوت – عضو البرلمان– بسؤال استنكارى حول هذا التصرف[658] ولكن بارنج – فى رده على السؤال– ذكر أنه فى مواجهة الهزيمة المهينة التى عانت منها العسكرية البريطانية، والإساءات التى لحقت بالإمبراطورية جراء ذلك، كان لابد من إقامة الحفل المقرر فى موعده لنؤكد للشامتين أن العمل البريطانى يجرى كالمعتاد. لقد كانت هناك خشية من حدوث حالة فزع فى القاهرة، حيث ظن الكثيرون أن غزو مصر ذاتها سوف يكون الخطوة التالية للمهدى، وشعر بارنج بوجود جو عام من القلق، وكان مرتاحاً لنفى الزبير إلى جبل طارق بعدما استطاع نشال تابع للبوليس العثور معه على "رسائل تدينه" كانت متبادلة مع المهدى وبعض أتباعه[659].

إنعكاسات الشهور العشرة السيئة

لم يغادر بارنج القاهرة لقضاء الصيف فى إنجلترا، إلا فى بداية يوليو 1885، وعلم عندئذ نبأ سقوط حكومة حزب الأحرار وتشكيل حكومة مؤقتة من المحافظين، أعادت خصمه سولسبرى إلى وزارة الخارجية، ورغم توتر العلاقة بينه وبين وزارة جلادستون، لم يكن بارنج يتطلع إلى خدمة وزارة أخرى تضع على جدول أولوياتها إعادة غزو السودان، وإرسال مبعوث مالى جديد إلى مصر، وهو ما رفضه على الفور[660]، ماذا بعد فشل نورثبروك إقناع الوزارة بقبول تقريره عن المالية المصرية، والمأساة التى وقعت فى الخرطوم، والمتاعب

[656] Modern Egypt, I, 432.

[657] Vincent, "Cairo Society", Diary, 30 Mar. 1885 DP, Add Ms 48949.

[658] Marriott to Baring, 20 Oct. 1887, CP/2, FO 633/6.

[659] Journal, 1884 – 85, 23 Mar. 1885, BA, DEP 11.

[660] Baring to Ethel Baring, 27 June 1885,CP/1 Letters From the First Earl of Cromer.

المستمرة التى يلقاها من الفرنسيين، لقد برهنت الشهور العشرة التى أمضاها بالقاهرة على أنها كانت أسوأ من شهوره السبعة الأولى بها.

وبعض مظاهر هذا التوتر يبدو فى الحدة الواضحة على مراسلاته، كما نجدها بارزة فى إحدى يومياته التى كتبها أواخر نوفمبر 1884. وهى يوميات ليست كيوميات جوردون التى كتبت للنشر، بل هى وسيلة خاصة للتنفيس عن مكنون صدره، ويتضح هذا مما كتبه فى 25 نوفمبر 1884 على ضوء رفض مجلس الوزراء مقترحات نورثبروك:

"إن الطريقة التى مسخت بها الحكومة موضوع مصر تثير المخاوف لقد كانوا يقفون بين الشيطان وأعماق البحر، الأول يمثل البرلمان والآخر يمثل الدول الأوروبية، وليست لديهم المقدرة على رسم الخط الذى يرضى أحد الطرفين، ولا أرى فى ذلك كله إلا الحرب أو أن نتراجع تماماً فى موقفنا الدولى، والحكومة الحالية تفضل الخيار الأخير مهما كان بغيضاً".

وفى اليوم التالى – وكان فى ذروة الضيق– يكتب أنه أبرق سائلاً عما إذا كانت الحكومة تتجه حقاً إلى رفض فكرة نورثبروك عن الإدارة الذاتية للمالية المصرية، ولا يدفعنى إلى ذلك توقع إجابة ذات مغزى، فالحكومة لا تستمع لنصيحة أحد، فكل ما يعنيهم الحصول على بعض الأصوات فى مجلس العموم، ثم يطرح بارنج على نفسه سؤالاً لعله سأله عدة مرات من قبل: "على كل، ما الواجب على عمله ؟ بالطبع تقديم العون بقدر طاقتى، واستمر فى تنفيذ سياستهم المتخاذلة السيئة، إنه عمل غير مستساغ، ولكن على أن أؤديه على أحسن وجه".

وعاد بارنج إلى نفس الموضوع فى يومية 9 ديسمبر 1884، وكان قد قرأ لتوه يوميات كوكر وتعليقاته على الدوق ولنجتون وإحساسه بالواجب، حتى أنه جعل من نفسه إنساناً لا يحظى بالشعبية: "كنت أتمنى أن يقال ما هو أكثر من ذلك عن الرجل المتحدث باسمنا.. إن فن الحكم يحتاج إلى الكثير من الشجاعة الأدبية". وهناك تعليق آخر بنفس النبرة فى 13 ديسمبر 1884 تحدث فيه عما أسماه "تدخل مقنع" من القناصل الفرنسى والروسى والألمانى والنمساوى للتخلص من نوبار رئيس مجلس النظار، ثم قال: "كم أتمنى أن أثق فى أدوات

عملى (لمواجهتهم)، ولكنى أتعامل مع جبناء هنا وفى الوطن (إنجلترا) –حيث أكثر حكوماتنا عجزاً– فى الشئون الخارجية تولت حكم بريطانيا".

وعلينا أن نضع فى اعتبارنا أن الكثير من الدبلوماسيين، والعسكريين، وغيرهم يكنون نوعاً من العداء التقليدى لرؤسائهم السياسيين، ولكن عند بارنج كان ذلك جزء من كيانه مع تزايد سخطه من ليبرالية جلادستون، ونفوذ الناخبين الذين حصلوا مؤخراً على حق التصويت، الذين كان بارنج ينظر إليهم بإزدراء. ويبدو حب بارنج لأسرته – الذى عبر عنه فى اليوميات– بمثابة نوع من التعويض عن معاناته، وعلى سبيل المثال، يذكر ذهابه إلى الإسكندرية 17–18 مايو لتوديع إيثل وولديه عند سفرهم لقضاء الإجازة الصيفية، وكيف كان يفتقدهم كثيراً، كما يذكر فى البرقية التى أرسلها إلى زوجته فى عيد زواجهما يوم 28 يونيو: "إنها تسع سنوات من السعادة يا زوجتى العزيزة" والخطاب الذى أرسله بهذه المناسبة وسبق تناولنا لفقرة منه، يجمع بين التعبير عن الحب والضيق معاً:

"عزيزتى – إننى محبط سياسياً، فالحكومة الجديدة (حكومة المحافظين) مثل سابقتها، فهم لا يستشيروننى، وألقوا بأنفسهم بين أحضان ولسلى الذى يحضهم على الذهاب إلى الخرطوم، وأرى ذلك ضرباً من الجنون، وأفكر فى الأرواح الغالية التى سوف تزهق هباء لو تم اتخاذ ذلك القرار، ورغم حبى لولسلى لا أراه سياسياً، ولو كان كذلك، فلا يجوز استشارة جنرال فاشل ترتعد فرائضه من الفشل، فهو يرى أن المسألة فى غاية البساطة، ويريد أن يصلح من شأن سمعته، ولكن ماذا عساى أن أفعل، ولم يسألنى أحد الرأى، وإذا أبديت رأيى الشخصى متطوعاً، فسر ذلك على ضوء انتمائى الحزبى (الأحرار) فعد ذلك نوعاً من الدوافع الحزبية.. ولكننى لن أفعل ذلك بالسياسة البريطانية أبداً، ويزداد إحساسى بذلك يوماً بعد يوم، فلا أحد يفهمنى ولا أكاد أرى حولى أحداً يستحق الإحترام، ويتملكنى اليأس إذ أبحث عبثاً عن الوطنية الحكيمة، فلا أرى إلا محواً تاماً للآراء الشخصية والطموح، ربما لأن المثل التى أؤمن بها رفيعة المستوى. على كل، لن أقبل غير هذه المثل، ولن أعمل إلا بها، بغض النظر عن تأثيرها على طموحاتى الشخصية، ولكن عندما أموت ستكون عبارة "أسئ فهمه" أنسب عبارة تكتب على قبرى.

واختتم الخطاب بقوله: "إننى مشتاق إلى أن أكون معك.. قبلاتى للوجنات المباركة والخصلات فائقة الجمال"[661].

ولابد أن يكون قد أحس بالإرتياح الشديد عندما التقى إيثل فى فينسيا فى 11 يوليو وعادا معاً إلى لندن بالقطار، وبعدما إلتقى سولسبرى وافق على الاستمرار فى العمل فى السلك الدبلوماسى. وأخيراً وصل إلى بيت الأسرة المستأجر فى إسكتلندا فى 2 أغسطس حيث "هرب إلى الغابة الجميلة بعيداً عن السياسة والإلتزامات الإجتماعية". وفى يوميته المؤرخة 16 أغسطس 1885 تحدث عن نظامه اليومى: "أستيقظ فى السابعة وأتمشى قليلاً، ثم أتناول الإفطار فى الثامنة والنصف، وأستمع إلى الموسيقى وأتعلم الألمانية، ثم الغداء فى الواحدة، وتمشية طويلة، وفى الرابعة تناول الشاى، العشاء فى السابعة، والنوم فى العاشرة".

[661] على الخطاب ملاحظة بخط إيثل: "خطاب من حبيبى مينا".

الفصل الحادى عشر
النجاة من بعثة دراموند وولف والسباق ضد الإفلاس
(1887 – 1885)

بعثة بريطانية إلى مصر

عندما كان بارنج يتأهب للعودة إلى القاهرة فى نهاية صيف 1885، كان شغله الشاغل هو ما سمى "السباق ضد الإفلاس"، وهو المصطلح الذى سكه ألفرد ملنر Alfred Milner للنضال من أجل إعادة الفائدة على الدين العام إلى كامل قيمتها خلال العامين اللذين حددتهما إتفاقية لندن[662] وحتى قبل مغادرة بارنج لندن إلى النمسا (ربما للاستشفاء أو الصيد) علم أن ثمة تطورات ملحوظة سوف تشهدها الساحة الدولية أيضاً، ويعنى بذلك قرار سولسبرى إيفاد السير هنرى دراموند وولف Henry Drnummond Wolff إلى استانبول والقاهرة، مبعوثاً فوق العادة ووزيراً مفوضاً للتفاوض مع الباب العالى حول الجلاء عن مصر[663]، وكان السير هنرى سكرتيراً خاصاً للجنرال ستوركس فى كورفو، ولديه خبرة واسعة بالعلاقات العثمانية المصرية، عندما كان عضواً بلجنة جوشن – جوبير وهى لجنة التحقيق فى أحوال المالية المصرية عام 1876، ثم أصبح مبعوثاً بريطانياً إلى مؤتمر برلين الذى نظر فى إعادة تنظيم الرومللى الشرقى، وكان عند تكليفه بالمهمة الجديدة عضواً بالبرلمان، وكذلك عضواً فيما سمى "الحزب الرابع" الذى أسسه رودولف تشرشل.

وكانت التعليمات الموجهة لوولف "أن يضمن لهذا البلد (بريطانيا) القدر الضرورى من النفوذ لخدمة مصالحها الإمبراطورية"، ويرتبط بذلك "العمل على إقامة حكومة مصرية على درجة من الكفاءة، لا تخضع للتدخل المحتمل"[664]. وقد أوضح سولسبرى موقفه فى خطاب خاص إلى وولف مرسل فى 13 أغسطس: "إن الهدف الذى نعمل من أجله هو الجلاء ولكن مع تحفظات خاصة معينة، مثل الحصول على معاهدة تسمح لنا بإعادة إحتلال الإسكندرية

---

[662] هذا هو عنوان فصل فى كتاب ملنر. England in Egypt (London: Edward Arnold, 1892).

[663] لابد أن يكون بارنج قد علم بذلك منذ 23 أغسطس 1885؛ لأنه كتب فى ذلك التاريخ إلى سولسبرى يستفسر عن هذه البعثة.

[664] Marlowe, Cromer in Egypt, 110.

متى نشاء، وأن تكون لنا السيطرة على سكك حديد مصر"[665] وكان من المفهوم أيضاً أن على دراموند وولف إقناع العثمانيين بلعب دور فى السودان.

ولم يتلق بارنج أخبار هذه البعثة بالترحيب لأسباب عامة وخاصة، فالمبادرة الجديدة تهدد بإعادة طرح المسألة المصرية ومستقبل مصر على بساط البحث، فى وقت كان التركيز فيه يجب أن يكون على الحد من النفوذ المالى الأجنبى فى مصر، وأنه قد يؤدى إلى إحساس النخبة المصرية بالقلق؛ لأنهم يشكون تماماً فى أى محاولة لاستعادة السيطرة العثمانية على الجيش المصرى.

كما أن اعتبار وولف هو المسئول البريطانى فى مصر جعل بارنج يعيد التفكير فى العودة إليها، مفضلاً البقاء فى النمسا حتى تتكشف أبعاد مهمة وولف، وتلقى من سولسبرى ما يفيد أن وولف يشغل الآن دار المعتمد البريطانى، وأن عليه الإنتظار حتى يجد هو أو وولف مقراً آخر[666]. غير أن إيثل وطفليها كانوا قد سبقوا بارنج إلى مصر فى الموعد المقرر سلفاً، ولذلك وقع عليها عبء مساعدة عائلة وولف على الاستقرار بالدار، ولكن رغم ما عاناه بارنج من ضيق فقد أتاحت له هذه التطورات التمتع بحمامات كارلسباد مدة أطول[667].

وعبر بارنج عن عدم إرتياحه لما حدث فى رده على سولسبرى الذى أرسله من النمسا، مؤكداً إستلامه للتعليمات العامة المعطاة لوولف: "من المستحيل التيقن من إمكانية إحرازه النجاح... كما أنه من المستحيل التيقن من نجاحى فى كسب المعركة ضد التدخل الدولى فى مصر، فالتحرك فى هذا الإتجاه بدأ بعد إنفضاض مؤتمر لندن دون صدور إعلان من حكومة صاحبة الجلالة عن سياستها فى مصر وأصبح سريع الإيقاع بعد فشل مهمة نورثبروك"[668].

وإزداد إحساس بارنج بالضيق فى أواخر أكتوبر، عندما أبرم دراموند وولف إتفاقاً مع وزير الخارجية العثمانى تقرر بموجبه أن يلتقى مفوضان ساميان بالقاهرة أحدهما إنجليزى هو دراموند وولف ذاته، والآخر أحد كبار الضباط الأتراك هو الغازى مختار باشا، للتباحث

---

[665] Roberts, Salisbury, 343.

[666] 15 Sept. 1885, CP/2, FO 633/5.

[667] كان بارنج يعانى من عرق النسا ولعل تردده على المجر والنمسا منذ الثمانينيات له علاقة بالعلاج هناك.

[668] 19 Sept. 1885. Sp, Unbound letters.

حول الترتيبات المتعلقة بالإصلاح بما فى ذلك إعادة تنظيم الجيش المصرى، وأحسن السبل "لتهدئة" السودان بالطرق السلمية، ثم عندما يتم تأمين الحدود، "وتنتظم وتستقر" أحوال الحكومة المصرية برفع المندوبان الساميان تقريراً بذلك إلى حكومتهما؛ لإبرام إتفاق بينهما ينظم جلاء القوات البريطانية وفق جدول زمنى يتم تحديده بالإتفاق[669] وكان ذلك لا يعنى إحتمال التأخر فى التوصل إلى إتفاق فحسب، بل يعنى تسليم أعمال دار المعتمد البريطانى إلى دراموند وولف.

لم يعد بارنج إلى القاهرة إلا فى 2 نوفمبر، وكان نوبار وإجرتون، وهارى بويل فى استقباله، وسار بعربته فى حراسة 50 من الفرسان الإنجليز إلى فندق شبرد حيث أقام بأحد أجنحته حتى عثر وولف على مسكن له فى منتصف يناير[670] ولابد أن يكون بارنج قد مارس عمله فى مكتبه بدار المعتمد البريطانى أثناء إقامته بشبرد. وكان أول لقاء لبارنج مع بويل بالمكتب لقاء جافاً فى أول يوم بعد عودته من الإجازة، إذ سأله: "هل تتحدث العربية بطلاقة؟" فإضطر للإجابة: "لا يا سيدى، إننى أفعل ذلك بالكاد". وتركه بارنج ومضى إلى حجرته حيث سمعه بويل يقول لأجرتون: "ماذا يقصد هوايت (السفير البريطانى بإستانبول) من إرساله هذا الولد لنا هنا ؟ إنه أسوأ من أن يكون عديم النفع".

غير أن بويل استجمع شجاعته وطلب التفرغ لتعلم العربية، فمنح ستة أسابيع لهذا الغرض[671] وكان ذلك كافياً للبداية، ثم أصبح من أكثر معاونى بارنج تمتعاً بثقته، كما كان همزة الوصل بينه والنخبة الوطنية. وبعد بضع سنوات عرض على بارنج تعليمه اللغة التركية "للتسلية فقط" ولكن بويل كان عاشقاً لتلك اللغة، وتقدم بارنج فى دروس التركية حتى أنه وبويل كانا يتحدثان معاً بالتركية وحدها أثناء التمشية معاً يومياً"[672].

وصل الغازى مختار باشا إلى القاهرة فى 27 ديسمبر وبدأ المحادثات مع وولف على الفور حول إعادة تنظيم الجيش المصرى، وكان بارنج يعلم أن سولسبرى يعتبر الدور العثمانى حيوياً فى أى تسوية تتضمن موافقة الدول الأوروبية على أن تقوم بريطانيا بإعادة إحتلال

---

[669] Cromer, Modern Egypt, ii, 373.
[670] Boyle to Mrs Boyle, 2 Nov. 1886, BP, box A, file 2, 1885 – 7.
[671] Boyle, A Servant of the Empire, 40.
[672] BN, 151.

مصر فى ظل ظروف معينة يتم تحديدها ولكنه أصيب بعدم الإرتياح لتقدم مختار بخطة لاستبدال الضباط الإنجليز فى الجيش المصرى بضباط عثمانيين مع زيادة عدد وقوة الجيش المصرى دون الإهتمام بكيفية تنفيذ ذلك مالياً.

وزاد من اضطراب الأمور سقوط حكومة المحافظين بعد خسارتها إنتخابات *فبراير* 1886. *وحلت محلها وزارة جلادستون التى كانت مشغولة تماماً بقضية الحكم الذاتى التى يطالب بها الإيرلنديون، وقد أوجز نورثبروك تلك الظروف بقوله: "لقد تقرر مصير الفلاح المصرى بأصوات الفلاحين الإيرلنديين"*[673] *وأصدر اللورد* روسبرى ROSEBERY – وزير الخارجية الجديد– تعليماته إلى دراموند وولف برفض خطة مختار باشا المتصلة بإعادة تنظيم الجيش المصرى، مع الاستمرار فى المباحثات العامة بالقاهرة وإستانبول، وتم تجميد الموقف على هذا النحو حتى نوفمبر 1886 عندما عاد المحافظون إلى الحكم مرة أخرى، واستدعى سولسبرى – الذى عاد لمنصبه– دراموند وولف إلى لندن للتشاور.

وقد وجد بارنج لنفسه حليفاً فى شخص اللورد روسبرى الذى أصبح خلافه مع جلادستون حول السودان معروفاً، وعلى كل لم يضع بارنج الوقت فى طرح وجهة نظره على روسبرى وعبر فى رسالته الأولى عن تشاؤمه المعتاد بالقول بأنه يتعذر على القوات البريطانية الجلاء عن مصر قبل عدة سنوات، وإن الفرصة الضعيفة المتاحة تتمثل فى الاستعانة بالقوات العثمانية فى حالة أو أخرى، وحتى يعكس الجانب الكئيب من الصورة ذكر لروسبرى أنه قد حدث تحسن فى الأحوال المصرية خلال الشهور الستة التى قضاها بعيداً عن مصر، فقد تم نقل باريه القنصل الفرنسى المعادى لإنجترا مما يعنى أن الفرنسيين أصبحوا أقل توجساً من بريطانيا ربما؛ لأنهم لم يعد باستطاعتهم الإعتماد على تأييد ألمانيا، كما أن دفع التعويضات للمتضررين من حوادث الإسكندرية وفرت أموالاً فى السوق (بيد الجاليات الأجنبية) سمحت بتحقيق قدر من التقدم فى الإصلاحات التى بدأها الإنجليز[674].

وفى رسالة أخرى بعد أسبوع من تاريخ سابقتها، استعرض بارنج جوانب المشهد المحلى، وأشار إلى فقدان الخديو لسلطته، وعودة نوبار إلى مكانته، وعجز الجيش المصرى عن

---

[673] Wolff, Rambling Recollections, ii, 403.
[674] 9 Feb. 1886, CP/2, FO 633/6.

حفظ الأمن والنظام وحده.. عاد إلى الحديث فى نفس الموضوع: "أشعر بالأسى لوجودنا فى مصر، ويسعدنى لو كان باستطاعتنا الخروج منها، ولكن يجب النظر إلى الحقائق كما هى فلا أرى إمكانية لخروجنا فى الوقت الحاضر بأى معيار من المعايير، فإذا كان باستطاعتنا إيقاف حملة هكس، لأصبح بالإمكان تخفيض عدد الحامية البريطانية، وربما كنا الآن خارج مصر، ولكن كارثة هكس ضخمت الأمور كلها، وأدت إلى فقد السودان وزحف قوات قبلية تواقة للحرب مهووسة دينياً على حدود مصر بغرض السلب والنهب. إننى لا أقول إن إحتلالنا لمصر يجب أن يستمر إلى الأبد.. ولكن ما أريد قوله إننا لا يمكن أن ننسحب منها الآن، وتحديد أى موعد للجلاء يعد عملاً على درجة عالية من التهور"[675].

هنا يحدد بارنج بوضوح وضعاً يجعل الجلاء مستحيلاً، ومهما كان ما بذله من جهد لتهدئة الأمور، والإعراب عن وجهة نظره فى خطورة مبادرة وولف، فإن تعاقب الحكومات البريطانية فى وقت قصير 1885 – 1886 يجعل الأمر بعيداً عن اليقين، ويبدو واضحاً أنه بذل جهده لمواجهة التحديات، وكون مجموعة من الأفكار أصبح مقتنعاً بها ويعمل للدفاع عنها، ولو قدر لبعثة وولف النجاح لإضطر لقبول الأمر على مضض، ما فى ذلك شك، ولكن حتى تتكشف الأمور كان مستمراً فى الحديث عن أفكاره على أمل تأجيل اليوم المشئوم (الجلاء) ونلاحظ أنه أحال ما تبقى من الوعى الليبرالى عنده إلى التقاعد، فيما كتب إلى ليال فى نوفمبر 1886: "إذا احتلت دولة متحضرة بلداً شبه بربرى، فإن عليها أن تقرر على الفور ما إذا كانت ستترك ذلك البلد أو تبقى فيه"[676]. ومن الواضح تماماً أنه يعتبر أن تلك اللحظة قد انقضت، طالما أن ذلك لم يكن خطأ من جانبه.

الخلافات حول المالية

ونظراً لكل تلك المحاذير، ترك بارنج لفنسنت متابعة العمل اليومى المتصل بالمالية المصرية. وذكر فنسنت فى تقرير استعرض فيه أحوال مصر المالية بعد ذلك بعامين أن المعدل الإجمالى للإقتصاد لم يتجاوز 200 ألف جنيهاً مصرياً سنوياً على ضوء التحديد

[675] 15 Feb. 1886, CP/2, FO 633/6.

[676] 27 Nov. 1886, quoted in R. V. Mowat, "From liberalism: The Case of Egypt 1875 – 1887", Historical Journal, 6/1 (1973), 121.

الصافى للإيرادات والمصروفات[677]. ولذلك ركز المستشار المالى على الإجراءات محدودة النطاق لمحاولة سد الثغرة، وتضمن ذلك حث الموظفين الإنجليز فى الإدارة المصرية على القبول بتخفيض مؤقت فى رواتبهم، ثم مشروع أكثر تعقيداً لتخفيض سعر الفائدة على الدين العام عن طريق اقتراح تحويل دين الدايرة السنية والدومين، ولذلك لا يدهشنا أن تقوده تلك الإجراءات إلى التصادم مع نوبار، وخاصة ذلك الصدام الكبير الذى وقع عام 1886 عندما ألمح فنسنت – فى تقريره إلى الحكومة المصرية– إلى أن شغف الوزراء المصريين لوضع أياديهم على الأراضى التى تطرح للبيع نتيجة تحول دين الدايرة السنية والدومين يرتكز إلى "الجشع الشخصى" ولجأ نوبار إلى بارنج شاكياً، فقام بدوره بالكتابة إلى روسبرى طالباً منه تنبيه فنسنت إلى حساسية هذا القول[678].

وتحتوى الأوراق الخاصة لفنسنت على ما ترتب على ذلك التقرير من نتائج، فهى تشير إلى حدثين تركا "إنطباعاً سيئاً" أولهما تسريب معلومات وردت فى تقرير إلى روسبرى طلب فيه فنسنت إعتباره سرياً وخاصاً ففوجئ به يعرض ضمن جدوله أعمال مجلس النظار المصرى، والثانى أن ما جاء ذكره بتقرير فنسنت إلى نوبار عما أسماه "الجشع الشخصى" من أن ذلك يعبر عن الرأى الرسمى للحكومة البريطانية، وقد رد روسبرى غاضباً أن "هذه ليست المرة الأولى التى يذكر فيها فنسنت أن تصرفاته لا تتسق مع الإتجاه التوفيقى، الذى يدعو إليه وزير الخارجية البريطانى فى مصر، وأنهى الرد بالتأكيد أنه (وزير الخارجية) الشخص الوحيد الذى يعبر عن نوايا الحكومة البريطانية تجاه مصر"[679].

وأرسل بارنج بفحوى رد وزير الخارجية إلى نوبار مؤكداً له أنه تلقى برقية من وزير الخارجية أكد فيها أنه لا أساس لما جاء بتقرير فنسنت حول موقف حكومة صاحبة الجلالة، وأنه ليس من سلطته التحدث بإسمها، وأضاف أن البرقية ختمت بالكلمات التالية: "أتوسل إليك أن

677 "Finance", in Draft MS "Egypt in 1887", DP, Add. MS 48961 B.
678 Baring to Rosebery, 10 May 1886, CP/2, FO 633/6.
679 Rosebery to Vincent, DP, Add. MS 48937.

تنقل إلى نوبار باشا إحساسى الشديد بالضيق، وأنه يتمتع بثقة وتقدير حكومة صاحبة الجلالة"[680].

وحمل بارنج على عاتقه مهمة بالغة الصعوبة تتمثل فى حث الحكومة البريطانية على المساهمة فى النفقات العسكرية لحملة السودان وجيش الإحتلال، أو أن تتنازل (مؤقتاً) عن بعض ما تحصل عليه من فوائد أسهمها فى شركة قناة السويس وقدرها 175 ألفاً من الجنيهات الإسترلينية سنوياً، وقد جره ذلك إلى محاجاة شاقة مع وزراء المالية البريطانية الذين تعاقبوا على المنصب، والذين كان جل اهتمامهم موازنة المالية البريطانية أكثر من اهتمامهم بمخاوف بارنج من إقامة لجنة دولية ثانية للتحقيق فى أحوال مصر المالية[681].

وكانت المهمة الأخرى التى اضطلع بها بارنج هى الحد من الصدام بين المستشارين الإنجليز والوزراء المصريين، وهى ظاهرة لا مفر منها صاحبت التوسع فى بعض الإصلاحات الإدارية التى طالت مجالات جديدة فى الحكومة المصرية، مع وجود شعور عام بأن أيام الإنجليز فى مصر ستكون معدودة فى حالة نجاح بعثة دراموند وولف، وفى بعض الحالات كان بارنج يريد شيئاً ونوبار يريد شيئاً آخر، دون أن يحدد أى منهما بدقة ما يريد، كما حدث خلال إثارة قضية المحاكم الأهلية أوائل عام 1886، وهو النظام القضائى الخاص بالنظر فى القضايا المتعلقة بالمصريين. وفى حالات أخرى كان الوزراء المصريون يصرون على التمسك بمواقفهم بتشجيع من نوبار فى مواجهة المقترحات التى يدفع بها إليهم المستشارون الإنجليز.

كان نظام العمل – عند بارنج– لا يعتمد على التعليمات المكتوبة، ولكنه يعتمد على التأثير الشخصى للمعتمد البريطانى على نوبار والخديو وكبار الموظفين، ففى معظم الحالات كان ذلك التأثير كافياً. كتب إلى روسبرى:

"لو أتيح لى أن أمارس إشرافاً على الشئون العامة فى مصر عاماً ومؤثراً تأثيراً كافياً، يتيح لى منع المصادمات العديدة، وتهدئة الغيرة (المهنية) الشخصية، وحل

[680] Baring to Nubar, 18 May 1886, CP/2, FO 633/5 Also Rosebery to Baring, 21 May 1886, CP, FO 633/7.

[681] Edward Hamilton, The Diary of Sir Edward Walter Hamilton 1885 – 1906, ed. Dudley W. R. Bahlam (Hull: University of Hull Press, 1993), ii, 45.

المشكلات المتتابعة فى هذا البلد الذى يعد موطن كل المتاعب السياسية والإدارية... لما وجدت بين المصريين من لا يخشى تحمل المسئولية، ويعمل على إلقائها على كاهل غيره، وخاصة إذا ارتبطت بقرار غير متقبل عند الناس"[682].

ذلك إذاً نوع العمل الذى يراه بارنج مناسباً له، فقد تضمن الكثير من العمل المكتبى، والعديد من الزيارات الرسمية والودية، وكذلك العديد من اللقاءات والمناقشات التى تستمد أهميتها من توطيد النفوذ البريطانى فى مصر، وقوة بريطانيا ومكانتها، وتضمن ذلك الدخول فى حملات مطولة لا نهاية لها، لإقناع من بيدهم الأمر فى لندن بما يراه "حقائق الأمور" التى يضفى عليها رؤيته لمصر التى يعجز أهلها عن إدارة أمورهم، وتدبير أحوالهم، ولذلك ظل نوبار النموذج الأساسى عنده، وخلال عامى 1886 و1887 بدأ بارنج يقدمه للندن – فى كل مرة – على أنه الرجل الوحيد فى مصر القادر على القيام بهذه المهمة وإن كانت تنقصه بعض المهارات الضرورية، ولديه الشجاعة على اتخاذ القرارات غير المقبولة شعبياً، "وكلما واجهته مشكلة يلجأ لى مباشرة"[683].

ووسط ذلك كله يأتى دور دار المعتمد البريطانى، وتقدم الخطابات التى كان يرسلها هارى بويل إلى أمه، ملاحظاته حول ظروف العمل وأوقات الراحة فى مطلع صيف 1886[684]، ففى الأول من يونيو – مثلاً– يذكر لها أن أسرة بارنج أقامت حفلة إبتهاجاً بشفاء أحد الأولاد، فى حديقة الدار، حضرها بعض الدبلوماسيين الإنجليز، والعميد بوتشر من الكنيسة الإنجليزية، وطبيبان، ومجموعة ممن وصفهم بويل بأنهم "أرستقراطية الجاليات الأجنبية" الذين أحاطوا بإيثل لتقديم التهانى. وبعد ذلك بيوم أو بضعة أيام إحتشد جمع غفير من علية القوم على رأسهم نوبار ودراموند وولف والغازى مختار باشا على محطة القاهرة؛ لتوديع إيثل وطفليها عند سفرهم لقضاء الإجازة الصيفية، وكان بارنج بصحبتهم – عادة– إلى الإسماعيلية حيث يستقلون الباخرة من هناك. وظل بارنج وحيداً بالدار حتى الخامس من يوليو (على الأقل). وقد كتب بويل إلى أمه عن تفاصيل أيام العمل عندئذ من الثامنة

682 Baring to Rosebery, 10 May 1886, CP/2, FO 633/6.
683 Ibid.
684 BP, Box A, File 2: 1885 – 7.

صباحاً حتى السادسة مساء، يقوم خلالها بكتابة ثمان مراسلات لبارنج، وأربع مسودات مذكرات، وترجمة وثيقتين، وإرسال أربع برقيات بالشفرة.

ويستطرد قائلاً: "إن السير إيفلن بارنج غنى بالخبرات النافعة لمن يعمل معه.. تعليماته شديدة الوضوح، دقيقة التحديد"[685].

عودة إلى متاهة دراموند وولف

كان بارنج موجوداً بإنجلترا خلال جانب من المرحلة الإنتخابية للعام 1886 التى كسبها المحافظون، وجاءت بسولسبرى رئيساً للوزارة، واللورد إدسلاى Iddesleigh وزيراً للخارجية، وكانت عودة سولسبرى إلى الحكم موضع ترحيب بارنج؛ لأنه ونورثبروك وبعض وزراء حكومة الأحرار السابقة، كانوا يرون أنه أكثر حرصاً على مصالح بريطانيا الدولية والإمبراطورية من جلادستون، غير أن الرياح لا تأتى دائماً بما تشتهى السفن، فقد كان إدسلاى شديد التحمس لبعثة دراموند وولف التى يعارضها بارنج، وكتب إلى بارنج فى 5 نوفمبر (بعد عودته إلى القاهرة) أنه يؤمن تماماً أن "وضعنا فى مصر يجب تنظيمه مرحلياً، وإتخاذ الاستعدادات الكاملة للإنسحاب النهائى منها"[686]، فرد عليه بارنج بأنه ضد تحديد أى موعد للجلاء، ولكن إذا كان ذلك التحديد ضرورياً، فليكن بعد عشر سنوات دون أن يتضمن ذلك إلتزاماً محدداً[687].

ولابد أن يكون إدسلاى قد أيقن صعوبة التعامل مع بارنج، ولعله لم يعد ملتزماً بالعمل من أجل تحقيق الجلاء كما كان يظن من قبل، وتضايق وزير الخارجية من "التعبيرات الحادة المتزايدة" التى يعبر بها بارنج عن مشاعره، وكتب على هامش إحدى المراسلات الواردة له من بارنج "السير إيفلن بارنج غاضب يجب تهدئته"[688] ولعل ضيق وزير الخارجية من أسلوب بارنج فى التعامل معه، جعل بعض الكتاب يرونه من بين أسباب تأييد إدسلاى فكرة إعادة بارنج إلى الهند مرة أخرى ليتولى منصبه السابق كعضو مالى بمجلس نائب الملك

---

[685] Ibid.
[686] CP/2, FO 633/7.
[687] Baring to Iddesleigh, 31 Oct. 1886, CP/2, FO 633/6.
[688] Zetland, Lord Cromer, 146.

الجديد اللورد دافرين، والحقائق الخاصة بهذا الموضوع شديدة التعقيد والغموض، فمن الواضح أن اللورد كروس Cross – وزير الهند الجديد– أدرك أن خبرة بارنج نافعة لحكومة الهند، بينما رأى راندولف تشرشل – وزير المالية الجديد– أن الأمر يتطلب توفير مرتب بارنج، فلا تتحمل الخزانة سوى مرتب وولف وحده[689] وكتب إدسلاى إلى بارنج أنه رغم عدم تقبله للفكرة، يجد نفسه مضطراً لذلك بسبب ضغوط كل من تشرشل وسولسبرى[690].

وأبلغ بارنج كروس أنه على استعداد إلى الذهاب إلى الهند لمدة عام واحد فقط، رغم أن الفكرة "لا معنى لها"، وأنه لا يرى أن ثمة ما يفعله هناك[691]، غير أنه بدأ يتراسل مع دافرين حول الشئون المالية للهند، وعقد العزم على مغادرة مصر إلى لندن فى زيارة قصيرة يقوم بها فى أبريل 1887، على أن يصل إلى سملا فى مايو، وخلال ذلك العام يستطيع إعداد موازنة الهند للعام 1888[692]. ولكنه تلقى برقية من إدسلاى فى 28 ديسمبر بإلغاء الفكرة[693]، فكان ذلك بمثابة هدية الكريسماس بالنسبة له.

ووقع حدثان مهمان فى لندن تلك الأيام: أولهما الاستقالة الدرامية لراندولف تشرشل قبل أعياد الميلاد، وتولى جورج جوشن منصب وزير المالية خلفاً له، والحدث الآخر وفاة اللورد إدسلاى بالسكتة القلبية فجأة فى نفس الوقت الذى كان يتأهب فيه لترك منصبه للورد سولسبرى، وبذلك أصبح على بارنج أن يتعامل مع جوشن وسولسبرى بإعتبارهما يملكان مفاتيح صنع القرار، وذلك خلال المرحل الأخيرة من بعثة دراموند وولف والمرحلة الأخيرة من السباق المرير لتفادى الإفلاس.

رأى سولسبرى – مثلما كان إدسلاى– أن تحديد موعد للجلاء عن مصر هو الحل المناسب؛ لتهدئة الأمور بالنسبة للعلاقات الأوروبية – البريطانية. وكتب إلى دراموند وولف بعد أن أوفده ثانية إلى الباب العالى لمحاولة التوصل إلى اتفاقية مع الدولة العثمانية بهذا الصدد: "أتمنى من كل قلبى ألا نكون فى مصر، فلو كنا لم نذهب إليها لكان باستطاعتنا ألا نكترث

---

[689] Iddesleigh to Baring, 17 Dec. 1886, CP/2, FO 633/7.
[690] Iddesleigh to Baring, 12 Nov. and 3 Dec. 1886, Ibid.
[691] 21 Nov. 1886, CP/2, FO 633/5.
[692] 15 Dec. 1886, ibid.
[693] CP/2, FO 633/7.

بأحد فى العالم"[694] وكتب إلى الملكة أن "الإحتلال الدائم لمصر يعنى الخلافات الدائمة مع فرنسا والدولة العثمانية"[695]. وواصل بارنج التعبير عن شكوكه المعتادة، فكتب محذراً سولسبرى فى 21 يناير 1887: "إن الإمتناع عن وضع ترتيبات أفضل من وضع ترتيبات سيئة، وكرر النصح بعدم التورط فى تحديد تاريخ معين لجلاء القوات البريطانية عن مصر"[696].

غير أنه بعد مرور عدة أسابيع، بدأ بارنج يستنتج أنه يجب أن تؤخذ نوايا سولسبرى مأخذ الجد، وبدأ يقترح بعض الإجراءات التى تتيح للحكومة المصرية – بعد الجلاء– مواجهة الضغوط الأجنبية مثل إلغاء حق صندوق الدين العام فى مقاضاة الحكومة أمام المحاكم المختلطة[697] وفى 23 أبريل، أبدى رأيه فى حالة ضرورة تحديد موعد للإنسحاب أن ينص على ثلاث سنوات للإنسحاب من القاهرة، وخمس سنوات على إخلاء القوات البريطانية لمواقعها بالإسكندرية[698]، وأخيراً، قدم فى 15 مايو برنامجاً مكوناً من 14 نقطة، وضع لضمان وجود "حكومة صالحة" بعد خروج القوات البريطانية من مصر[699].

وأخيراً تم فى 22 مايو 1887 توقيع الإتفاقية التى طال انتظارها بينما وقع وزير الخارجية العثمانى عن الباب العالى، وبموجبه تعهدت بريطانيا بالإنسحاب من مصر خلال ثلاث سنوات ما لم تكن هناك "حالة خطر" تتعرض لها مصر داخلياً أو خارجياً. وسمحت الإتفاقية لبريطانيا والدولة العثمانية بالعودة إلى احتلال البلاد فى حالة قيام "حالة الخطر" بعد تمام الجلاء. وكان الشرط الذى أصر عليه سولسبرى أن تعلن الدول الخمس الكبرى موافقتها على الإتفاقية، وبذلك تحظى بريطانيا بالقبول الدولى الذى افتقدته من قبل. وأعطى السلطان عبد الحميد الثانى مهلة مدتها أربعة أسابيع للنظر فى الموضوع قبل الموافقة النهائية عليه.

---

[694] Cecil, Life of Salisbury, cie, 41, quoted in Marlowe, Cromer in Egypt, 114 – 15.
[695] Ibid, 39.
[696] SP, A 52.
[697] Baring to Salisbury, 4 Mar. 1887, SP, A/52.
[698] Ibid.
[699] Baring to Salisbury, 15 May 1887, SP, A/52.

وأرسل بارنج تهنئة إلى دراموند وولف قائلاً إنه يقدر الجهود الدبلوماسية التى بذلت لتغليب الجلاء على البقاء[700]. وفى خطابات أخرى كتبها عندئذ تحدث عن "إقتراب موعد جلاء القوات البريطانية عن مصر"[701] وعندما سافر إلى لندن فى منتصف يونيو لقضاء إجازة الصيف، كان من المتوقع أن يجد عند عودته إلى القاهرة أن الأوضاع قد تغيرت تماماً.

وهنا تحركت الحكومتان الفرنسية والروسية لإجهاض العملية كلها، فلم تقبل أى منهما بالحق التلقائى الذى أعطته الإتفاقية لبريطانيا بالإنسحاب أو البقاء تبعاً لظروف تحددها لندن وحدها. ودخل رئيس وزراء فرنسا مباشرة فى الموضوع عندما قرر أن الوضع القائم لبريطانيا فى مصر الذى لا يحظى باعتراف دولى يهيئ فرصة أوسع أمام بلاده للدفاع عن مصالحها المالية فى مصر، بصورة أكبر مما يمكن تحقيقه فى ظل احتلال له صفة قانونية[702] وكانت نتيجة ذلك أن واجه السلطان ضغوطاً هائلة من الفرنسيين والروس جعلته يلتمس من سولسبرى الموافقة على إعادة التفاوض حول بعض النقاط الواردة بالإتفاقية. فقبل سولسبرى العودة إلى التفاوض لمدة 15 يوماً، وعندما انقضت تلك المدة أمر دراموند وولف بالعودة إلى لندن فى منتصف يوليو، حدث ذلك فجأة ودون توقع.

وعلى ضوء ذلك، راحت كل الأطراف المعنية تبذل أقصى جهدها للاستفادة من ذلك الوضع غير العادى بقدر الإمكان، فما كسبته بريطانيا من حرية العمل فى مصر، تمت موازنته بالإلقاء على المؤسسات القديمة غير الضرورية التى أقامها النظام الدولى فى مصر، فوفقاً لبنود مشروع إتفاقية دراموند وولف كان لابد من "توجيه الدعوة إلى الدول المعنية للنظر فى إخضاع رعاياها لنظام قضائى وتشريعى موحد". غير أن فرصة تحقيق ذلك ضاعت إلى الأبد (على نحو ما تبين بعد ذلك). أما فرنسا فلم يعد لها والدول الأخرى سوى الإعتراض، ولكنها جميعاً فقدت إمكانية التأثير المباشر على الحكومة المصرية على نحو ما كان قد يصبح متاحاً لهم فى حالة جلاء القوات البريطانية عن مصر وتمهيد الطريق أمام المصريين لإدارة أمورهم بأنفسهم.

---

[700] 1 June 1887, CP/2, FO 633/4, quoted in Marlowe, Cromer in EGYPT, 118.

[701] e. g. Baring to Salisbury, 31 May 1887, PRO, FO 141/245.

[702] Saul, La France et l'Egypte, 600.

شيوع التوتر

فى غضون الشهور الصعبة التى صاحبت توقيع دراموند وولف على مشروع الإتفاقية، كان بارنج يناضل – أيضاً– فى مواجهة حكومته من أجل الحصول على عونها وتأييدها السياسى، وتكشف الرسائل التى كتبها خلال تلك الأيام عن حدة مزاجه وتوتره تماماً. ومما زاد الطين بلة معاناته من إلتهاب فى الحلق "بالغ الحدة والسوء" فى شهر فبراير، ويصفه لجوشن قائلاً: "لقد طلب منى أن أبذل من الجهد ما يكفى لاستقرار الأمور هنا، وأن أقتصد فى الكلام"[703] وكان قراره بإرسال إيثل والولدين إلى إنجلترا مبكراً عن الموعد المعتاد فى شهر أبريل مثاراً لتعليق عبر فيه عن ضيقه: "لابد أن أقوم بإجازة فيما بعد فلا أستطيع أن أنظر إلى الأعمال المتراكمة ويساورنى القلق أنها قد تحتاج إلى إثنى عشر شهراً لإتمامها هذا العام"[704] ووصلته أنباء أخرى مزعجة من لندن تتعلق "بإسرافه" لإعتزامه بناء دار للمعتمدية البريطانية[705].

كذلك كان الوضع السياسى – أيضاً– شديد التوتر والإضطراب. فكيف يمكن لأحد من الخديو إلى الفلاح البسيط أن يدرك ما قد يأتى به الغد، على ضوء تعاقب الحكومات فى لندن على مدى زمنى قصير، وتأرجح مهمة دراموند وولف بين إتصال وإنقطاع، وساورت بارنج الشكوك من إحتمال إنفجار شعور معبر عن السخط على البريطانيين نتيجة حالة الإضطراب التى عانى منها الرأى العام المحلى مثلما فعل عندما حشد القوات البريطانية عند وصول جثمان شريف باشا من إستانبول إلى الإسكندرية ليدفن فى أبريل 1887 "بحجة إظهار الإحترام لذكراه"[706]. كما شغل بالبحث عن السبل التى تجعل الإحتلال البريطانى أقل بغضاً، وكان ذلك من بين أسباب حرصه على توفير مياه الرى للفلاحين.

وبغض النظر عن شيوع حالة عدم معرفة ما قد يأتى به المستقبل لمصر، كانت هناك مسألتان تثيران الإهتمام: إحداهما تتصل بالصراع المتصل بين بارنج ووزير المالية البريطانية حول من يتحمل مسئولية نفقات جيش الإحتلال، وعدم رغبة الخزانة البريطانية فى

---

[703] 28 Feb. 1887, CP/2, FO 633/5.
[704] Baring to Goschen, 1 Apr. 1887, ibid.
[705] Baring to Primrose, 5 Mar. 1887, ibid.
[706] Baring to Salisbury, 24 Apr. 1887, PRO, FO 141/245.

تقديم العون، واللغة القاسية التى استخدمها جوشن – وزير مالية سولسبرى– للتعبير عن موقفه الرافض لتحمل الخزانة أى نفقات، وتعاقب اتهامات بارنج لهم بالإمتناع عن مد يد العون له، وهناك مؤشرات على أن سولسبرى نفسه ساءته خشونة أسلوب مراسلات بارنج، كما ساءت إدسلاى من قبل، ورد على بارنج بأسلوبه الصريح المعروف:

"السير/ جوشن يعترض بشدة على الإعتماد غير المحدود على الموازنة البريطانية الذى شاع مؤخراً بين رجال المالية المصريين. ويقول إن إدعاءاتك الأخيرة لا سند ولا أساس لها ومرفوضة تماماً؛ لأنها ستكون ذريعة للمزيد من المطالب مستقبلاً"[707].

وكما هو متوقع، حاول بارنج أن يكون مهذباً بقدر الإمكان فشكا لجوشن الدستور البريطانى القائم، وأنه يجعل من الصعوبة بمكان البت فى أى مشكلة صعبة وغياب الإتساق بين الوزارات البريطانية المتعاقبة الذى أدى إلى جعل الماليين يدفعونه فى إتجاه، والعسكريين يدفعونه فى إتجاه آخر، وقد أدى هذا الوضع إلى نوع من السخرية، فاللغة التى تكتب بها خطابات وزارة الحرب، وخاصة الخطاب الأخير الذى أرسله الوزير إلى الجنرال فرانسس جرانفيل Grenfell قائد القوات البريطانية فى مصر، جاء "مبهماً" وكأنه كتب:

"فى حضور أبو الهول فى مصر... فما استطعت فهمه أن من المتوقع أن نقوم من جانبنا بخفض الإنفاق العسكرى، على ألا نقوم بتخفيض عدد القوات، إننى أعجز عن قراءة هذا اللغز المحير. إن محاولة صناعة قوالب الطوب دون استخدام القش جربت يوماً على ضفاف النيل، ولكنها فشلت"[708].

فى نهاية الأمر تمت تسوية الموازنة المصرية دون حاجة إلى مساعدة بريطانيا، وساعد ذلك على إعلان العودة إلى سداد الفوائد على الدين العام كاملة عن عام 1887 / 1888 فى مارس 1887.[709] وساعد على ذلك إصرار بارنج على خفض مصروفات الجيش المصرى والشرطة، وقدرة فنسنت وبلم على تدبير مبالغ إضافية من الإيرادات من هنا وهناك، وإصرارهم الدائم على الإقتصاد فى النفقات، إلى جانب نظام محاسبة خلاق مكنهم من

---

[707] Zetland, Lord Cromer, 148 – 9.

[708] Baring to Goschen, 7 Mar. 1887, quoted in Zetland, Modern Egypt, 151.

[709] Sir Auckland Colvin, The making of Modern Egypt, (London: Thomas Nelson, n.d.), 177.

التوصل إلى هذه النتيجة الإيجابية[710]. ولكن إعتبار ذلك "نجاحاً" من وجهة النظر المصرية كان أمراً آخر. فبالنسبة لرجل مثل نوبار باشا سببت أعمال لجنة فنسنت له توتراً شديداً؛ لأن حرصها على توفير مليمات من هنا وهناك عن طريق الضغط الشديد للمصروفات قد اعترض سبيل خطته الرامية إلى إتاحة الوظائف وزيادة الأجور والمعاشات بالقدر الذى يراه مناسباً[711]. وأشار ملنر فى كتابه بعد عدة سنوات أن نوبار ربما كان يفضل تشكيل لجنة تحقيق دولية ثانية قد تؤدى إلى التخلص من السيطرة البريطانية على المالية المصرية[712].

أما المسألة الثانية التى أثارت اهتمام بارنج وقلقه معاً، فجاءت من اعتزام الحكومة المصرية إلغاء السخرة المقررة على الفلاحين لحفظ الجسور وتطهير الترع سنوياً فى فصل الصيف، واستبدال العمل المأجور بها، وهى فكرة نالت تأييد نوبار ورياض قبل العام 1882، ويمكن الدفاع عنها من عدة نواح: ففى السخرة إهدار للقوة العاملة، تبعد الفلاحين عن قراهم وحقولهم لمدة طويلة، وباعتبارها ضريبة بدنية، فقد إتسمت بالقسوة والظلم[713]. ولكن، لماذا أصبحت عندئذ مثاراً للجدل ؟ سؤال لازال محاطاً بالغموض، فطالما كانت هناك حاجة إلى تلك الأعمال التى تتم بالسخرة، زادت قيمة المبالغ التى كان على المالية أن تدفعها نظير تلك الأعمال، ولا تتوفر لديها إعتمادات مالية لذلك. غير أن تلك المسألة أثيرت بجهود سكوت مونكريف وزملائه من مهندسى الرى الذين أعلنوا منذ يناير 1885 أن الفلاحين لا يخرجون للعمل بالسخرة إلا إذا سيقوا إلى ذلك سوق الأنعام، ونالهم من التعذيب نصيب، وأرجعوا عدم النجاح فى خطة صيانة نظام الرى إلى هذا السبب[714].

وبالنسبة لبارنج، استطاع الاستفادة من مجموعة من الحوادث بدأت بتوصية نورثبروك بتخفيض ضرائب الأطيان نحو 450 ألف جنيهاً، وهذا رقم أسقطه فنسنت من موازنة 1885 / 1886. وشجع ذلك نوبار باشا والمستشارين الإنجليز على تخصيص 250 ألف جنيهاً من هذا المبلغ لتحقيق الإلغاء الجزئى للسخرة. وتقدمت الحكومة المصرية بطلب إلى

---

[710] Alfred Milner, England in Egypt, 11 th edn. (London: Edward Arnold, 1904) 205 – 6.

[711] Ibid, 108 – 9.

[712] Ibid, 110 – 11.

[713] Nathan J. Brown, "Who Abolished Corvee Labour in Egypt and Why ?, Past and Present, 144, (Aug. 1994), 124 – 30, Scott Moncrieff's report of 14 Jan. 1885. Quoted in Cromer, Modern Egypt, ii, 409.

[714] Ibid, 407.

صندوق الدين العام للموافقة على إضافة هذا المبلغ إلى المصروفات الإدارية؛ لتغطية أجور صيانة نظام الرى[715] وأخيراً، بينما كانت المناقشات دائرة حول الموضوع بين مفوضى صندوق الدين العام أولاً، ثم بين قناصل الدول الأوروبية فى مصر، سارع سكوت مونكريف إلى أخذ زمام المبادرة فى يده، وخصص 250 ألف جنيهاً مقابل إنقاص أعمال السخرة إلى النصف، والإعتماد على العمل المأجور فى إنجاز النصف الآخر، وذلك للعام 1886 دون انتظار لموافقة الدول على هذا التخصيص[716].

وجاء تدخل بارنج مهدداً بقيام أزمة دولية، عندما جعل الحكومة المصرية تعلن الإلغاء التام للسخرة فى فبراير 1887 رداً على تلكؤ الفرنسيين فى الموافقة على الترتيبات الجديدة. وعندما أدرك الفرنسيون أنهم قد وقعوا فى الفخ، وافقوا على مضض على تخصيص مونكريف مبلغ الربع مليون جنيه لهذا الغرض، ولكن ذلك يتوقف على موافقة الحكومة البريطانية على توسيع إختصاص صندوق الدين العام ليشمل الإشراف على جميع المصروفات الخاصة بالرى.

وبعد ضغوط من جانب بارنج، إتخذ مجلس الوزراء البريطانى موقفاً صلباً فى هذه الأزمة، بعد أن هدد سولسبرى وجوشن بسحب البساط من تحت أقدامه بإنقاص الموازنة المصرية نقصاً حاداً يجعل من المستحيل تحمل أجور العمل فى صيانة الرى[717] وتطلب الأمر هجوماً مضاداً شنه بارنج من القاهرة، جعل مجلس الوزراء يقبل باقتراح إنقاص مبلغ فوائد أسهم قناة السويس التى تحصل عليها بريطانيا لمدة زمنية كافية حتى تتمكن الحكومة المصرية من إيجاد مصدر جديد للإيرادات[718]. وكان ذلك كافياً لجعل بارنج يتجه إلى إلغاء السخرة تماماً وأن يستبدل بها العمل المأجور فى صيانة نظام الرى.

وأخيراً، قام الفرنسيون بحركة إلتفاف فى مارس للإنقاص من قيمة النصر الذى حققه بارنج، والذى وصفه فى رسالة بعث بها إلى سولسبرى: "بالعمل الوحيد الذى قمنا به فى مصر

[715] Milner, England in Egypt (1904), 193 – 95.
[716] Ibid, 411 – 13.
[717] Salisbury to Baring, 4 Feb. 1887, CP/2, FO 633/7.
[718] Salisbury to Baring, 11 and 13 Feb. 1887, ibid..

ونال قبولاً شعبياً"[719] فقد طلب منه سولسبرى أن يكف عن الدعاية للموضوع حتى لا يثير ثائرة الفرنسيين فى وقت تعانى فيه السياسة الأوروبية توتراً شديداً.

ورغم الموقف الصلب الذى وقفه بارنج فى هذه المسألة، فإنها أدت إلى توتر العلاقة بينه وبين إثنين من مستشاريه هما فنسنت ومونكريف، وانتاب مونكريف شعور بأن بارنج لم يقدم له الدعم الكافى. وكتب إلى مراسل صحفى سأله عن أسباب عرضه الاستقالة قائلاً: "رغم عدالة بارنج ونزاهته، فإنه لا يبدى حماساً، جامد كالصخر.. وأنه قصد بذلك تحريك بارنج ليرى ما فى المسألة من كآبة"[720] ولما كان بارنج يضيق ذرعاً بمثل تلك التهديدات بالاستقالة، فقد أرجع السبب إلى أن سكوت مونكريف "إنجليزى – هندى" لا يعرف أن مصر تختلف عن الهند، كما أنه ينتمى لاتجاه "مناهضة العبودية ومقاومة الأفيون". وهو من البريطانيين الذين ينشدون تحقيق الخير دون أن يتفهموا حقائق السلطة الإمبراطورية[721] غير أنه ما لبث أن كتب خطاباً إلى مونكريف بعد أيام، طيب فيه خاطره فسحب استقالته بعد بضعة أيام من تلقيه الخطاب[722].

كانت الأفكار متباعدة تماماً، مونكريف – مثلاً– تصرف على نحو ينم عن عدم فهمه تماماً لوضع بارنج عندما كتب إليه: "إننى أرى أن خلافنا معاً يعود إلى مبدأ كبير؛ لأننى أعتقد أن بريطانيا أصبحت مسئولة تماماً عن مصر منذ التل الكبير (الإنتصار على عرابى)"[723]. وعلى كل، كان من أخطاء بارنج عدم اتصاله بالمستشارين بصورة دورية حتى يتحقق من إدراكهم لموازنة الأهداف البعيدة بالإعتبارات السياسية ذات المدى القصير.

وتفسر الصعوبات التى أحاطت بمسألة السخرة الصدام الخطير مع فنسنت بعد استدعاء الأخير إلى لندن للتشاور حول الأمور المالية فى أبريل 1887. فكتب إليه بارنج خطاباً مطولاً (يقع فى 18 صفحة) أرسله من القاهرة فى 29 مايو إتهمه فيه بمخالفة ما تم الإتفاق

---

719 Quoted in Marlowe, Cromer in Egypt, 131.

720 Mary Albright Hollings (ed.), The Life of Sir Colin C. Scott – Moncrieff (London: John Murray, 1917), 219.

721 Baring to Salisbury, 7 Feb. 1887, SP, A/52.

722 Baring to Moncrieff, 6 Feb. 1887, CP/2, FO 633/5; Moncrieff to Baring, 7 Feb. 1887, CP/2, FO 633/7.

723 6 Feb. 1887, SP, A/52.

عليه بينهما بالتفاوض حول حل يعطى صندوق الدين العام اليد العليا فى شئون السياسة المالية المصرية يحد من قدرة وزارة المالية المصرية على الحركة، وذلك نتيجة استسلامه للمطالب الفرنسية لرفع سقف مصروفات الأشغال العامة[724] وأن ذلك حدث فى الوقت الذى تم فيه التوقيع على مشروع إتفاقية دراموند وولف الذى أعطى لفرنسا تنازلاً بدون مقابل بتحديد تاريخ معين للجلاء عن مصر[725].

وخطاب بارنج إلى فنسنت يعطينا فكرة مهمة عن الحالة الذهنية لبارنج خلال تلك الفترة القصيرة التى بدا فيها الإحتلال البريطانى لمصر على وشك الإنتهاء. فالأسلوب الذى صيغ به الخطاب يجمع بين الحسرة والقلق والحرص على أن يتم أداء الأعمال بصورة مختلفة فى المستقبل. ويشير إلى نضارة شباب فنسنت بقوله: "إننى أكبر سناً ومقاماً من الناحية الرسمية، لا أقبل أن يكون مصير رأيى الإهمال، فأنا أقوم بتنفيذى كل التعليمات التى أتلقاها بإخلاص، ولكن لا تسألنى عن الترتيبات التى لا أستطيع عملها، والتى أرى فيها السوء".

ويستطرد بارنج مؤكداً أن أوجه القصور التى حدثت فى إتفاقية 1885 كان ثمرة عمل رجال الخزانة البريطانية الذين ذاقوا عندئذ مرارة الصعوبات التى وضعونا فيها، وكان الدرس الذى استوعبه من ذلك أن "جانباً كبيراً من مسئولية مواجهة أى صعوبات قد تنشأ يلقى على عاتقى، ولذلك سأبذل قصارى جهدى ألا أوافق على أى خطة إلا إذا وجدت أن هناك فرصة جيدة لتنفيذها". وأن سياسة حكومة بلادنا (بريطانيا) شديدة الشبه بطريقة ويكفورد سكوير التى اتبعها لتعليم أولاده "الأمانة"، فتهجى الكلمة فى الصف أولاً، ثم كلف الأولاد بجمع الأعشاب من الحديقة "إننى وأنت (يقصد فنسنت) علينا أن نقوم بجمع الأعشاب من الحديقة"[726].

ورغم كل تلك المشاكل التى واجهها بارنج فى تعامله مع المستشارين الإنجليز، كانت علاقته برئيس الوزراء المصرى هى الأصعب. فالرجل الذى بلغت حد رعايته له بالإشارة إليه بالقول: "نوبارى My Nubar"، استمر يلعب دوراً حيوياً خلال مشكلة السخرة ومفاوضات

---

[724] Baring to Goschen, 9 May 1887, CP/2, FO 633/5.
[725] DP. Add. MS 48929.
[726] Ibid.

دراموند وولف، وقد وصفه بارنج فى مراسلاته إلى زملائه فى لندن بأنه "لا غنى عنه"، وأنه رغم أخطائه الكثيرة "أنسب الرجال لشغل هذا المنصب خلال السنوات الأخيرة"، ومع اعتبار قلة عدد من شغلوا مناصب الوزارة، لعله "الوحيد" بينهم[727] فهو "رجل دولة بالمفهوم الشرقى"[728]وهو الرجل الوحيد فى مصر الذى "يعمل وكأن ثمة رابطة بين الأفكار الشرقية والأفكار الغربية"[729] ويريد بذلك كله الإشارة إلى أنه لو حدث تغير مفاجئ فى وضع مصر الدولى، فإن نوبار هو الشخص الأنسب لجعل الخديو والنخبة المصرية يتقبلون ذلك التغيير، ويعنى ذلك أيضاً أن نوبار فى حاجة إلى حمايته من تصرفات المستشارين من أمثال فنسنت ومونكريف وغيرهم.

وإذا عدنا إلى قراءة تلك الرسالة نجد أن بارنج لمح إلى العديد من النقاط بين السطور، فمن ناحية يريد أن يبين للندن أنه يملك وحده زمام الأمور فى القاهرة، وأنه هو الذى يضع السياسة الإدارية المحلية، ولذلك عندما طلب منه دراموند وولف أن يستعلم من نوبار عن رأيه فى مستقبل الدايرة السنية والدومين، إعترض قائلاً: "ليس من الصواب أن نسأل نوبار عما يريد، بل نعمل الفكر فيما نريد عمله ثم نسأل نوبار الرأى فيما استقر عليه رأينا"[730] غير أن بارنج كان يرى أيضاً من مصلحته أن يجعل نوبار يتمتع بقدر كاف من السلطة ليقوم بما يظنه عملية صناعة القرار. حقاً نجده يعرب عن ذلك فى عبارة مثل "نوبار ليس الآن فى حالة مزاجية جيدة"[731] وعلى كل، فمن الممكن أن يعترض نوبار على بعض ما يقوله بارنج، ولكنه إختار عدم الإعلان عن الإعتراض صراحة.

ووصفت علاقة الرجلين بالزمالة القائمة على عدم المساواة، وهى زمالة مؤقتة، قائمة على تبادل المنافع بين الطرفين، كما أنها تضمنت تقسيماً واضحاً للعمل، حيث يقصر بارنج الإصلاح على مجالات معينة كالمالية والأشغال العمومية ولكنه لا ينازع نوبار السيطرة على القضاء والداخلية، على نحو ما ذكر لإدسلاى فى أكتوبر 1886:

---

[727] Baring to Salisbury, 22 May 1887, SP, A/52.
[728] Baring to Goschen, 28 Feb. 1887, CP/2, FO 633/5.
[729] Baring to Iddesleigh, 24 Oct. 1886, CP/2, FO 633/6.
[730] Baring to Salisbury, 2 Feb. 1887, SP, A/52.
[731] Ibid.

"أرى أن الفكرة القائلة بأننا نستطيع أن نعيد الأمور إلى نصابها خلال بضع سنوات، ثم نترك العملاء المحليين يتابعون ما عملناه، فكرة خاطئة.. فالبرنامج الذى قد ينال حظاً قليلاً من النجاح أن نصرف النظر عن الفروع الإدارية الرئيسية، وأن نركز جهودنا فى الإصلاح الذى قد تعمل أى حكومة وطنية على الاستمرار فيه فى حالة إنسحابنا (من مصر)"[732].

وكان لنوبار – أيضاً– برنامجه الخاص الذى تلتقى بعض جوانبه مع بارنج مثل أكفاء السخرة. وتعديل نظام المحاكم المختلطة والمحاكم الأهلية. ورغم أنه بدا مدافعاً عن المصالح المصرية فى بعض الأحيان، نجده – فى أحيان أخرى– يترك لبارنج الحبل على الغارب ليفعل ما يريده، وخاصة إذا كان ذلك يواجه بإعتراض من جانب المؤسسات السياسية المصرية، وما كان يفتقده هو القدرة على توصيل وجهات نظره إلى وزارة الخارجية ومجلس الوزراء البريطانى بلندن، فقد كان مضطراً على التعامل معهما من خلال بارنج وهو وضع كان موضوع كراهيته الشديدة[733] ولذلك إضطر فى صيف 1887 أن يقوم بحركة يائسة، فذهب إلى لندن ليحرض اللورد سولسبرى ورجال الخارجية البريطانية على بارنج وفنسنت ومن سوء حظه أن بارنج حضر واحداً – على الأقل– من هذه اللقاءات، ليتأكد من أن نوبار يلقى حسن الاستقبال وأنه لا يلقى التشجيع على ما جاء يشكو منه[734].

نقطة التحول – بارنج فى السادسة والأربعين

يعد صيف العام 1887 نقطة تحول بالغة الأهمية فى الحياة العامة لإيفلن بارنج، فإن أنباء فشل إتفاقية دراموند وولف كانت تعنى عودته إلى مصر فى الخريف مطمئناً إلى أن أمامه سنوات طوال يستطيع خلالها أن ينفذ برنامجه الإصلاحى فى مصر، حقا لم تكن أحوال مصر المالية قد وصلت إلى الحد الذى يستطيع عنده إعلان أن السباق ضد الإفلاس قد تم كسبه فعلاً، فإن ذلك كان يتوقف على مشروع الموازنة لعام 1888 الذى يعده فنسنت، ولكنه كان فى وضع يسمح له بالثقة بأن النتيجة أصبحت منظورة. وكان – أيضاً– عرضة للنقل

[732] 24 Oct. 1886, CP/2, FO 633/6.
[733] Edward Dicey, The Story of the Khedivate, (London: Rivingtons, 1902) 395 – 6.
[734] Cromer, Modern Egypt, ii, 340 – 1.

إلى مكان آخر بحكم كونه دبلوماسياً بالخارجية البريطانية. ولكن لا زال باستطاعتنا تحديد اللحظة التى بدأ فيها التنفيذ الجاد لما أطلق عليه: "عملى فى مصر"، وكان ذلك ما قام به فعلاً.

لقد أسفرت السنوات الأربع الأولى التى انقضت على عودة بارنج إلى مصر عن تغيرات أخرى مهمة. لقد شهدت إنتقاله من فكرة إمكانية تحقيق انسحاب مناسب وسريع للقوات البريطانية من مصر إلى اليقين، اليقين بحاجة إلى عشر سنوات على الأقل لإقامة نظام للحكم على درجة من القوة بالقدر الذى لا يسمح بتكرار الأحوال التى أدت إلى وقوع الإحتلال الأجنبى، وأعتقد إعتقاداً راسخاً أن مثل هذا النظام يخدم مصالح مصر، وهى نقطة كرر الإلحاح عليها فى مراسلاته إلى لندن"[735]. ويمكن ملاحظة كيف تحول من افتراض أنه المعبر الأمثل عن مصالح مصر المالية إلى الإعتقاد بأنه المعبر عن مصالح مصر جميعاً. وكل ما يحتاجه الآن هو أن يقنع نخبة الرأى العام البريطانى بتبنى رؤيته.

لقد أدت أفعال وأقوال بارنج فيما بين 1883 و1887 إلى المساعدة على وضع مصر على طريق كانت نهايته المنطقية ضمها إلى الإمبراطورية وليس منحها الحكم الذاتى، رغم أنه لم يدرك ذلك تماماً فى ذلك الحين، وبعبارة أخرى، أصبحت مصر خاضعة لعملية استعمارية مألوفة يتم من خلالها إجراء مجموعة من الإصلاحات، وكلما تطورت تلك الإصلاحات حسب الضرورة، وكلما توسعت، زاد اقتناع بارنج والبريطانيين بأن تلك الإصلاحات لا يمكن إنجازها إلا على أيدى الأوروبيين، والذى جعل مصر تختلف عن غيرها من البلاد التى حضعت للاستعمار ما أطلق عليه بارنج أحياناً "الصيغة الدولية" للمسألة المصرية، ويعنى بذلك العقبات التى تضعها الدول الأخرى ولاسيما فرنسا فى طريق بريطانيا. ورغم ما حققه بارنج من انتصار، فإن حملته ضد الضوابط المفروضة على حريته فى التصرف فى إدارة مصر التى رآها الأنسب، لم يتحقق تماماً.

وكما يلاحظ زيتلاند، شهد ذلك العام – أيضاً– إنشقاقه عن جناح جلادستون بحزب الأحرار البريطانى[736] وإذا كان بارنج قد قدم نفسه لروسبرى فى فبراير 1886 على أنه "ليبرالى

---

[735] e. g. Baring to Goschen, 28 Mar. 1887, CP/2, FO 633/5.

[736] Zetland, Lord Cromer, 119 – 26.

معتدل" وليس "راديكالياً" كما كان شأنه فى الهند، فمعنى ذلك أنه انضم إلى أولئك الأحرار مثل نورثبروك الذين أصبحوا يوقنون أن مصالح الإمبراطورية البريطانية فى العالم أكثر أمناً فى يد سولسبرى المحافظ منها فى يد غيره[737]، وأصبح بارنج مثلهم تزعجه مواقف مجلس العموم فى عصر الممارسة الديمقراطية. وظل – مثلهم– مؤمناً بالضرائب المنخفضة والإنفاق العسكرى المحدود، والتجارة الحرة.

وتبين صورة فوتوغرافية إلتقطت لإيفلن بارنج نحو العام 1890 رجلاً بديناً عريض الأكتاف، كستنائى الشعر، عيونه تبدو بحاجة إلى نظارة، ورغم أنه كان جالساً إلا أنه بدت عليه علامات التوتر والاستعداد ليهب واقفاً فى أى لحظة، وتدل هيأته على أنه رجل لا يمكن الاستهانة به، فكما يذكر أودن W. Auden نتحمل جميعاً مسئولية الهيئة التى نبدو عليها بعد سن الأربعين، وهنا تبدو صورة رجل أعد نفسه ليكون بارزاً، جاداً، وشخصية عامة يدافع عن استثماراته الشخصية من ناحية، وواسع الخبرة فى حكم الشعوب غير الأوروبية من ناحية أخرى، فلا عجب أن يخرج بلنت من لقاء معه فى 1883 بالإعتقاد بأنه يبدو أكثر سناً من عمره الحقيقى[738]، ولا عجب أن كان الكثير من زواره ينجذبون إليه ويحسون بالهيبة فى حضرته، ويرون فيه رجلاً قلقاً. وقال عنه أمير ويلز لجيمس رينل إنه رجل "قدير، ولكن ينقصه التهذيب"[739].

وعلى كل كان بارنج – فى حياته الخاصة– محباً للفكاهة مقبلاً على الاستماع إلى الحكايات الطريفة، ففى ليلة عيد الميلاد عام 1897 ظل يلعب مع بويل لعبة يقال لها enventive حتى منتصف الليل. كما نام على الأرض إلى جوار الجنرال جرنفل وظل كل منهما يضرب الآخر على رأسه بلفافة من الورق على سبيل المزاح[740]. كما كان عاشقاً للقراءة مفضلاً الأعمال الكلاسيكية على الأعمال الحديثة، والنثر على الشعر بينما كانت تعليقاته حادة جافة أكثر منها أدبية ورشيقة. يشير فى يومياته بتاريخ 9 ديسمبر 1884 أنه

---

737 Baring to Rosebery, 7 Feb. 1886, CP/2, FO 633/4; Mallet, Thomas George Earl of Northbrook, 232.

738 Longford, A Pilgrimage of Passion, 198 – 9.

739 Sir J. Rennell Rodd, Social and Diplomatic Memories 1884 – 93, (London: Edward Arnold, 1922), 188 – 9.

740 Boyle to Mrs Boyle, 26 Dec. 1897, BP, box B, file 1: Letters to mother 1896 – 7.

يقرأ الأوديسة واعتبر أن السطور التى قرأها "جميلة"، ولكن ما لبث أن ذكر أن ما تعانيه هو "أننا يجب أن نموت جميعاً" تعليقاً على الكتاب الثالث، وتعجب من أولئك الذين يفتتنون بالشعر، وأرجع ذلك إلى أن ما يجذبهم إليه التعبير عن معان عادية بلغة ناعمة رقيقة.

ومما يعزز وصف فنسنت له بأنه "أسلوبه صارم يتسم بالجدية"، ويغلب ذلك على نظرته للحياة، ذلك الحديث الذى ذكره للعميد بوتشر راعى الكنيسة الإنجليزية من أنه أعد – فى شبابه– قائمة بالخطايا منذ القرن الأول للمسيحية، فوجدها تبدو "شديدة التفاهة"[741].

ولكن ليتون ستراشى Lytton Strachey كان أكثر الكتاب فى تلك الفترة استيعاباً لشخصية بارنج، فلاحظ أنه:

> "عندما يتكلم لا يعبر عن كل ما يدور بذهنه، وهو حريص تماماً فى عمله، يتحسب لكل أمر، يتحرى الدقة... ومزاجه ينحصر فى الأزرق الداكن والرمادى، بعيداً تماماً عن الرومانسية، سمته غير محدد اللون يتسم بالقوة، ولديه ملكة بعد النظر التى يفتقدها الكثيرون، أضف إليها عزيمة لا تكل مما يجعل ثمار بعد النظر قريبة المنال. ثاقب النظر، شديد الصبر، يجيد فن التراجع مع الإحتفاظ بالكرامة، ثم ما يلبث أن ينطلق إلى الأمام"[742].

---

[741] Vincent, "Sir Evelyn Baring", Diary 5 April 1885, DP, Add. MS 48949.

[742] Lytton Strachey, Eminent Victorians, (first Published 1918, London: Penguin Books, 1986), 239.

الفصل الثانى عشر
توطيد السيطرة البريطانية
(1891 – 1887)

الهجوم الأخير على الإدارة الذاتية المصرية

عاد بارنج إلى مصر فى خريف 1887 حاملاً معه أولويتان رئيسيتان: دعم السيطرة البريطانية وخاصة فى الأمور المتعلقة بالقضاء والشرطة، والقيام بحملة لإقناع قادة الحزب والمشايعين لهم فى لندن أن البريطانيين أفضل من المصريين فى حكم مصر. ولم يكن النجاح فى هذه المهمة مضموناً، فرغم فشل إتفاقية دراموند وولف، كان هناك حديث متصل يدور بين فريق معين من ساسة بريطانيا حول الجلاء عن مصر، سواء من كان منهم فى الحكم أو المعارضة، فقد كان اللورد سولسبرى يرغب فى استخدام ورقة الوعد بالجلاء عن مصر فى مفاوضاته مع السفير الفرنسى فى يونيو 1889[743]. وكان أحرص من بارنج على عدم إغضاب فرنسا بالإقدام على أى شكل من أشكال التدخل قد يؤدى إلى الإلتفات إلى دور السلطة البريطانية فى مصر، بينما حرص حزب الأحرار على إحاطة موقفهم بالغموض حتى يصبح موضع الإختبار عند عودة الحزب للحكم فى الإنتخابات التالية.

ولم يكن اتجاه بارنج الجديد يعنى ضرورة تنحية نوبار من رئاسة الوزراء، أو لا تتم تنحيته على الفور، على أقل تقدير، وإن كان ذلك لا يعنى غض الطرف عن معارضته للمزيد من التدخل البريطانى فى الوزارات المصرية، فبمجرد عودة بارنج إلى القاهرة فى أكتوبر حرص على التأكد من استعداد رياض باشا لتولى رئاسة الوزراء إذا دعت الحاجة إلى ذلك، غير أنه كتب إلى سولسبرى أنه لا ينوى التخلص من نوبار فى ذلك الحين "لأن الجميع يتوقعون منى أن أفعل ذلك بعد الهجوم الذى شنه على فى لندن"[744] وعلى كل، كان نوبار يقضى وقتاً إضافياً فى الوزارة نتيجة للمشكلتين اللتين إرتبطتا به: وهما المحاكم الأهلية، ولجان اللصوص وقطاع الطرق، بعد الدور الذى لعبه فى تكوينهما عام 1884. وكان نشاط

---

[743] Saul, la france et L'Egypt, 611.

[744] Baring to Salisbury, 22 Oct. 1887 (Marlowe, Cromer in Egypt), 133.

المحاكم الأهلية موضع هجوم من أطراف متنوعة من بينها الجيش البريطانى والعلماء المسلمين، ونحى بارنج باللائمة على نوبار لإدارته المحاكم بشكل ساعد على إثارة الإنتقاد، وذلك بتحريض من بطرس غالى، فقد قيل إن نوبار كان ينحاز إلى المسيحيين عند تعيين القضاة[745].

أما لجان اللصوص وقطاع الطرق، فقد أنشئت لتعويض قصور المحاكم الأهلية فى التعامل مع مثل هذا النوع من العنف الريفى. وكانت الشواهد تدل على وجود هذه الظاهرة فى الريف قبل وقوع الإحتلال البريطانى نتيجة التغيرات الإقتصادية والإجتماعية التى حدثت فى العقود السابقة ومن بينها انتزاع أملاك عشرات الألوف من الفلاحين قسراً، لتكوين العزب[746] ولكن هذه الظاهرة وجدت إهتماماً كبيراً من نوبار عام 1884 تحديداً حتى يعطى إنطباعاً أن المصريين قادرين على إقرار الأمن والنظام فى بلادهم وخشية قيام المهدى – عبر الحدود السودانية– باستغلال مختلف أشكال السخط المحلى.

وقد أنشئت اللجان أولاً فى كل مديرية من مديريات الدلتا، ثم إمتدت إلى الصعيد عام 1885، ووضعت مباشرة تحت قيادة المديرين، وتم تجاهل البوليس والقضاء حيث يتمركز النفوذ الأجنبى، وكثرت الشكوى من تعرض المشتبه فيهم للتعذيب المبرح لإنتزاع الإعترافات منهم، مما أدى إلى تشكيل لجنة بالداخلية للإشراف على تلك اللجان، دون جدوى. ورغم ذلك ترك بارنج تلك اللجان تؤدى عملها حتى يتفرغ لأمور أخرى، ولعله رأى أن سلبياتها يمكن أن تستخدم لتوجيه ضربة موجعة للقضاء المصرى عندما تحين الفرصة فى مرحلة تالية.

وفى أول محاولة لإظهار القوة، أجبر نوبار على تعيين القاضى البلجيكى الجنرال لوجرل Legrelle نائباً عاماً فى أكتوبر 1886، بسبب الشكوى المتزايدة من المحاكم الأهلية ولجان اللصوص وقطاع الطرق. وجاءت المحاولة الثانية فى العام التالى على إثر الوفاة المفاجئة للسير فالنتين بيكر Baker المفتش العام للبوليس المصرى فى نوفمبر 1887، ولما كان

[745] Baring to Salisbury, 14 Dec. 1887, Printed as "Egypt, Confidential 1168, CP/2, FO 633/98.

[746] Nathan Brown, "Brigands and State Building: The Invention of Banditry in Modern Egypt", Comparative Studies in Society and History, 32 (1990), 265 – 6.

نوبار يحرص على الحد من الوجود البريطانى فى المديريات، فقد رغب فى تعيين مصرى فى ذلك المنصب، غير أن بارنج اعترض على ذلك ورشح للمنصب ضابطاً بريطانياً فى الجيش المصرى. عندئذ ألقى نوبار بالقفاز فى وجه بارنج، فأوفد صهره تيجران إلى لندن فى 1888 للعمل على كسب تأييد الحكومة البريطانية لخطته.

وتألم بارنج عندما أذنت الخارجية البريطانية لتيجران بالحضور إلى لندن على عكس التوصية التى اقترحها، وعد ذلك إختباراً لسلطته ولمدى تأييد الحكومة البريطانية له، فانهالت مراسلاته على سولسبرى مؤكداً أنه عندما يتعلق الأمر بإظهار موقع السلطة، فليس أمام نوبار سوى الخضوع. وحتى يصب الزيت على النار، هدد بتقديم استقالته حتى يرغم سولسبرى على دعم موقفه، فتحقق له ما أراد. ورغم أن وزير الخارجية كتب إلى بارنج طالباً منه عدم الإقدام على عمل استفزازى فى وقت ازدادت فيه العلاقات مع فرنسا توتراً، فقال: "إننى لا أريد القيام بأى عمل يكشف عن سيطرتنا التامة على مصر فى هذا الوقت بالذات"، رغم ذلك أبرق إلى بارنج مؤيداً موقفه بالقدر الكافى لإجبار نوبار على القبول بضابط بريطانى خلفاً لبيكر[747].

وفى غضون ذلك، لم يقم الخديو بإعفاء نوبار من منصبه إلا فى يونيو، وكان السبب المعلن لذلك "فقدانه ثقة الخديو"، فقد أخذ الخديو عليه محاولة توريطه فى مساندته فى مسألة تعيين المفتش العام للبوليس المصرى، وتركه يلقى الإهانة وحده، وبذلك، انتهت العلاقة بين بارنج ونوبار التى امتدت لما يزيد على السنوات الأربع.

ترى.. لماذا أقدم نوبار على التحدى ؟ يبدو أن بارنج وسولسبرى أرجعا ذلك إلى اعتقاده بأن الإنجليز لا يزالون يعملون على الجلاء عن مصر. وربما اندفع نوبار نحو الدخول فى مواجهة بسبب تآكل التأييد المحلى الذى كان يحظى به، وقد يكمن السبب إلى تزايد شعوره بالثقة بالنفس نتيجة تحالفه المؤقت مع الخديو الذى يعود إلى مهارته الدبلوماسية – على حد قول صديقه إدوارد ديسى Dicey– عندما خشى توفيق أن تتمخض إتفاقية دراموند وولف عن إصرار الباب العالى على إعادة والده (إسماعيل) إلى الحكم[748].

---

[747] Salisbury to Baring, 17 Feb. 1888, quoted in Marlowe, Cromer in Egypt, 146.
[748] Dicey, Story of the Khedives, 438 – 9.

لقد ترك نوبار وراءه آثاراً مهمة قدرها كبار الموظفين الإنجليز الذين عرفوه جيداً، حق قدرها، منها الإطار العام لخطة إصلاح المحاكم المختلطة التى ضمنها مذكرة عام 1886، فكانت تلك المذكرة دليل عمل لسولسبرى وبارنج فى جهودهما للتوصل إلى تفاهم مع الدول الأوروبية الرئيسية؛ لإخضاع الأجانب للقضاء المحلى وعدم الإعتراض على التشريعات المصرية المتصلة بالأجانب أمام المحاكم. وتكشف مراسلات بارنج عن المراوغة فى تلك المباحثات دون تقديم فكرة واضحة عن كيفية بدايتها والإعتماد على الآخرين كثيراً طلباً للمشورة[749].

ومن آثار نوبار الأخرى دوره فى إلغاء السخرة الذى قدره المهندس وليم ولكوكس الذى أهدى الطبعة الأولى من كتابه : "الرى المصرى Egyptian Irrigation" إلى نوبار عام 1893. وبعد ذلك، كان هناك القليل ممن يدافعون عن نوبار من الإنجليز أو الفرنسيين أو المصريين، بينما لا تتجاوز روايته للحوادث فى مذكراته عام 1879، تاركاً لبارنج وغيره وصفه بأنه كان ماهراً ولكنه غير جدير بالثقة، وأن أهميته التاريخية محدودة، وإذا كانت جهوده لحماية الحكم الذاتى المصرى قد نالت الإعتراف فى وقت لاحق، فإن ذلك يعود إلى طريقة تصويره لبارنج وزملائه بالتلهف على إقامة نموذج "هندى" للإدارة فى مصر ظل يمس وتراً وطنياً[750].

وفشل رياض باشا – خليفة نوبار– فشلاً ذريعاً فى محاولته مواصلة سياسة سلفه الرامية إلى الحد من النفوذ البريطانى فى مواجهة هجوم بارنج على إدارة القضاء المصرى، ولما كان "أميناً يفتقر إلى القدرة على المناورة"، فقد كان من السهل إحتواؤه[751] وما لبث بارنج أن قدم إلى رئيس الوزراء المصرى الجديد عدداً من الخيارات تتعلق بلجان اللصوص وقطاع الطرق مستنداً إلى تقرير عام 1888 للنائب العام لاجرال الذى ذهب إلى أن تلك اللجان شديدة العنف والظلم، فخير بارنج رياض بين إلغائها تماماً أو عرض من تحكم بسجنهم على لجنة مراجعة بها عضو أوروبى واحد على الأقل، فتوجس رياض خيفة من الخيار الثانى، وأمر

---

[749] Barbara Allan Roberson, "Judicial Reform and the Expansion of International Society. The Case of Egypt", Ph. D. thesis (London 1998), 212 – 17.

[750] e. g. Afaf Lutfi al – Sayyid, Egypt and Cromer: A Study in Anglo – Egyptian Relations (London: John Murray, 1968), 70 – 5.

[751] Berque, Egypt, 159.

بإلغاء اللجان فى مايو 1889[752]. وما لبث رياض أن منى بهزيمة أخرى عندما استطاع بارنج تعيين الضابط البريطانى هربرت كتشنر Herbert Kitchener مفتشاً عاماً للبوليس المصرى فى ربيع عام 1890.

وعندما قطعت المفاوضات مع الدول الأوروبية حول إصلاح المحاكم المختلطة فى 1889 طلب بارنج من حكومة الهند البريطانية إعارة القاضى جون سكوت John ليعمل مستشاراً قضائياً (بنظارة الحقانية المصرية) ويضع مشروعاً لإصلاح المحاكم الأهلية.

وأوصى سكوت – فى التقرير المقدم منه فى ديسمبر 1890– بتعيين مفتش عام قضائى بريطانى، وزيادة عدد القضاة الأوروبيين بالمحاكم الأهلية. فسارع رياض والخديو معاً إلى رفض الإقتراح، مما جعل بارنج يعود بإقتراح آخر يستبدل بالمفتش العام المقترح تعيين لجنة تفتيش تتكون من سكوت، والمستشار القانونى الإيطالى لدى الحكومة المصرية، والنائب العام. ومورس ضغط بريطانى شديد على رياض حتى قبل بالإقتراح، وبذلك ترك الخديو وحيداً مرة أخرى. وأدى ذلك القرار وتشجيع بارنج لسكوت وكتشنر بتخطى رياض، واللجوء مباشرة إلى الخديو، إلى دفع رياض – فى النهاية– إلى الاستقالة فى مايو 1891[753].

وهناك إجماع تام على أن بارنج هو الذى أجبر رياض على الاستقالة عمداً، بعدما رأى أن وجوده فى رئاسة الوزراء مدة أطول من ذلك يضر بمصالح بريطانيا. وحل مصطفى فهمى محل رياض، وقد شغل منصب الوزير (الناظر) لسنوات طويلة، وكان صريحاً فى تأييده للإحتلال البريطانى، وظل رئيساً لمجلس النظار طوال وجود بارنج فى مصر، فيما عدا مدة عامين 1893 – 1895، وعلق بارنج على هذا الحدث فى خطاب إلى محرر التايمز عبر فيه عن النصر الذى استطاع تحقيقه "الأحوال هنا مختلفة تماماً عما كانت عليه قبل 14 عاماً عندما بدأت علاقتى بهذا البلد، حقاً، لقد عقد لنا لواء النصر فى المعركة، فأصبحت كل الإدارات المهمة خاضعة للنفوذ البريطانى، وهو فى الغالب نفوذ تم اختياره جيداً"[754].

---

[752] Brown, "Brigands and State Building", 277.

[753] Robertson, Judicial Reform, 220 – 5, Harold Tolufson, Policing Islam: The British Occupation of Egypt, and the Anglo – Egyptian Struggle Over Control of the Police, 1882 – 1914 (Westport) coun: Gneenwood Press, 1999) 66.

[754] 5 May 1891, MBL, TA (1891).

وأحس الموظفون الإنجليز – أيضاً– بالإنتصار، ليس لما أدى إليه سقوط وزارة رياض من تخلصهم من "القطة السوداء" من أمثال على مبارك – ناظر الأشغال العمومية، وناظر المعارف– فحسب، بل لأنهم رأوا أن الباب قد فتح على مصراعيه الآن لإجراء إصلاح تام لكل جوانب الإدارة المصرية. وعلى نحو ما ذكر ألفرد ملنر – مستشار المالية– فى الملزمة التى طبعها بعنوان: "إنجليزى فى خدمة الحكومة المصرية" أن "أفضل السبل للخروج من مصر هو الغوص فيها، واستخدام محراث الإصلاح لتقليب تربة الإدارة المصرية من طرف إلى آخر"[755].

ولكن من الأهمية بمكان ملاحظة أن عدد البريطانيين الذين عملوا بخدمة الحكومة المصرية لم يتجاوز 366 موظفاً، تولى 39 منهم مناصب كبرى منهم إثنين فى المالية، وتسعة بالأشغال العمومية، وثمانية بالشرطة[756]. وزادت أعداد الموظفين البريطانيين زيادة كبيرة خلال ما تبقى من سنوات خدمة بارنج فى مصر. ولكن فى ذلك الحين وقع على عاتق هذا العدد المحدود من الموظفين الإنجليز إضافة إلى بارنج ومعاونيه، تسندهم حامية عسكرية صغيرة من خمسة آلاف جندى بريطانى، وقع عليهم عبء التوجيه العام لكافة الأمور. ولعل الإحساس بالضعف – فى ظل تلك الظروف– جعل بارنج يبالغ فى الإهتمام بإظهار القوة من حين إلى آخر بالعروض العسكرية المستمرة للقوات البريطانية فى القاهرة والإسكندرية ومدن قناة السويس، وكذلك الإستخدام الأمثل لجيشه الصغير من رجال الشرطة، والجواسيس، وعناصر المخابرات.

وتعد علاقة العمل بين بارنج واللورد سولسبرى حجر الزاوية فى نجاح بارنج فى التحكم فى الأركان الأساسية للإدارة المصرية، واحتاجت هذه العلاقة إلى وقت حتى تتوطد. ويذهب روبرتس الذى كتب سيرة سولسبرى بعد خروجه من الوزارة عشية سقوط حكومته فى إنتخابات 1892، إلى أن سولسبرى كون مع بارنج[757] "أحسن علاقة عمل" إستطاع سولسبرى أن يكونها مع موظف عام. ولم تخل تلك العلاقة من الضغوط والتوتر على أى حال، فقد كان بارنج ملحاً فى مطالبه، يضغط كثيراً طلباً لأمور تتجاوز ما يمكن أن يسمح

[755] (London 1892), 22.
[756] Marlowe, Cromer in Egypt, 154 – 5.
[757] Roberts, Salisbury, 532.

به سولسبرى المعروف بحرصه الشديد[758] ولعل بارنج كان موضوع شكوى سولسبرى إلى ليتون عام 1888 التى ذكر فيها أنه يجد نفسه محاصراً "بالمعادين للترك والوطنيين المتطرفين الذين يرغبون فى ضم (مصر) ببساطة، ويعارضون الجلاء فى كل الأحوال"[759].

غير أن بارنج عمل دائماً على عرض قضيته عرضاً مطولاً، حتى يعطى سولسبرى فكرة كاملة عما يعتزم القيام به، ويجعله على بينة تامة قبل أن يخطو خطوات مهمة، وبذلك ساد بينهما جو من الثقة والإرتياح المتبادل. ونتج عن ذلك أن أصبح كل منهما على معرفة بالضغوط التى يتعرض لها الآخر. كما إشتركا فى عدم الثقة فى المتهورين من أمثال الجنرالات الذى وصفهم سولسبرى بقوله: "إذا امتلكوا مقاليد الأمور سوف يصرون على أهمية إقامة حاميات عسكرية على القمر للدفاع عنها ضد المريخ"[760] وعندما بلغت هذه العلاقة غايتها فى أوائل التسعينيات (ق 19)، لم تعد هناك حاجة إلى إقناع سولسبرى بإغفال فكرة الجلاء، بل أمده بالمعلومات والأفكار التى تجعله يقر – بصراحة أكبر– أن بريطانيا جاءت إلى مصر لتبقى هناك[761].

وبينما كانت الأمور تجرى على هذا النحو، تركت إدارة مالية مصر بصورة كاملة لفنسنت، ثم لخليفته إلوين بالمر Elwin Palmer بعد صيف 1889. وقد هيأ فنسنت الأرض لتحويلين مهمين للديون الممتازة ودين الدائرة السنية اللذين تما فى صيف 1890 وقد نتج عن ذلك توفير 314 ألف جنيهاً من الفائدة سنوياً ثمرة ارتفاع قيمة سندات الدين المصرى. وكان الغرض الأساسى منها استخدام هذا الفائض فى تحقيق الإلغاء التام للسخرة. وقد أثار ذلك – كالمعتاد– معارضة الجانب الفرنسى، لما يعنيه من تمكين الإنجليز من إدارة المالية المصرية بصورة أكثر يسراً، لذلك عقد الفرنسيون العزم على معارضة تحويل الديون، وعندما فعلوا ذلك بدوا وكأنهم يناصرون فكرة الاستمرار فى استخدام أعمال السخرة، مما جعلهم موضع إنتقاد أعضاء الجالية الفرنسية فى مصر أنفسهم[762]، وأخيراً عدلوا عن موقفهم عندما

---

[758] Quoted ibid. 531.
[759] Quoted ibid, 350.
[760] Quoted ibid, 532.
[761] هذه الحدود الزمنية وردت عند روبرتس .Ibid, 531
[762] Saul, La France et l'Egypt, 611 – 15.

استطاع بالمر تأمين بديل للسخرة بالأموال الناجمة عن العوائد الجمركية المحصلة على واردات التبغ المتزايدة نتيجة حظر زراعة التبغ فى مصر فى يونيو 1890.

كذلك بدأت توقعات الإنتاج الزراعى تبدو مبشرة، رغم استمرار إنخفاض المعدلات الدولية لأسعار الغلال والقطن. وجاء ذلك نتيجة قيام سكوت مونكريف بإصلاح قناطر الدلتا (التى بنيت عام 1840) التى عندما ربطت بالرياحات الثلاث الخارجة منها وفرت كميات أكبر من مياه الرى لمناطق الدلتا، أما الباقى فجاء نتيجة الزيادة فى إنتاج القطن من متوسط قدره 2930000 قنطار فى السنة أعوام 1885 / 1886 – 1889 / 1890 إلى 4.760.000 قنطار فى السنة أعوام 1890 / 1891 1894 / 1895[763].

وثمة مبادرة أخرى – فى ذلك الوقت– لمحاولة الحد من النفوذ الثقافى الفرنسى، باستخدام المعلمين الإنجليز، وإقامة رأس جسر نظارة الأشغال العمومية والمعارف لنشر تعليم اللغة الإنجليزية، ويعد حجر الزاوية فى تلك السياسة تعيين الإسكتلندى دوجلاس دانلوب Douglas Dunlop لتعليم الإنجليزية فى مدارس القاهرة عام 1889، وتلا ذلك تعيينه مفتشاً بالمعارف فى يناير 1890. وكان دانلوب خريج جامعة جلاسجو، عمل ناظراً لمدرسة سانت أندرو بالإسكندرية (إحدى مدارس الإرسالية)، عرف بصرامته ومحدودية تفكيره، وعدم ميوله إلى الحياة الإجتماعية، جعله دوره المتزايد فى إدارة التعليم المصرى هدفاً للمعارضة المحلية للسياسة التعليمية البريطانية.

ولا نعرف تحديداً ما إذا كان بارنج قد أدرك نتيجة ما أقحم نفسه فيه، فقد كان البحث عن سبيل للحد من النفوذ اللغوى والثقافى لفرنسا فى مصر يحتل أولوية الإهتمام عنده، فتم تأسيس مدرسة ثانوية جديدة (المدرسة الخديوية) بالقاهرة عام 1889 لمواجهة المدرسة التى كانت تحت سيطرة الفرنسيين (المدرسة التوفيقية)، وجعل بالخديوية قسماً لإعداد معلمى اللغة الإنجليزية. وكان هم دانلوب تدريس الإنجليزية وجلب المزيد من المعلمين الإنجليز إلى مصر، ولعل بارنج كان يرمى إلى استخدام دانلوب "حصان طروادة" ليقوم بإنقلاب فى

---

[763] Egypt, Ministere des Finances, Departement de la Statisique Generale, Annuaire Statistique de l'Egypte, 1914 (Cairo: Imprimerie Nationale, 1914), 356.

التعليم يضعه تحت سيطرة مدير عام بريطانى فى إطار نظارة الداخلية[764]، وحتى بعد إجهاض الفرنسيين لهذه الخطة، ظل دانلوب المحرك الأساسى لسياسة لا تهدف إلى مواجهة الفرنسسين فحسب، بل لتفرض أيضاً رؤيته الخاصة الضيقة لحاجات مصر التعليمية من خلال هيكل بيروقراطى مركزى على درجة شديدة من الصرامة.

إقناع لندن

إتبع بارنج إستراتيجية مزدوجة فى حملته لحث سولسبرى والساسة البريطانيين والرأى العام البريطانى على الإقرار بأهمية استمرار الوجود العسكرى البريطانى فى مصر، وأحد مظاهر تلك الإستراتيجية إبراز قيمة الإصلاح الذى يتم برعاية بريطانيا، والآخر إعطاء أفكار معينة عن مصر وشعبها تقوم على عجز المصريين عن إدارة أمورهم بأنفسهم وحاجتهم الدائمة إلى المساعدة الأوروبية.. ومثل هذه الأفكار ليست غريبة أو جديدة، فقد تم العمل بها فى الهند وأماكن أخرى. ولكن ما كان جديداً فى رؤية بارنج أنه يدفع بقوة وإصرار بالوسائل التى يراها الأفضل لتوجيه الرأى العام المحلى طالما كان استمرار الوجود البريطانى فى مصرأمراً لا مفر منه، وكان بارنج عندئذ فى ذروة قوته الفكرية والبدنية، ومن الصعوبة بمكان ألا نصدق أن الطاقة التى شحب بها حملته تلك كان الدافع إليها – أيضاً– شعور بأنها حربه الشخصية المقدسة التى إقتنع فيها بأنه الرجل الوحيد الذى يحق له أن يتكلم بإسم مصر، وأن من يشك فى ذلك يعد عدواً سياسياً، بريطانياً كان أو أوروبياً أو مصرياً.

وقد تبلورت حملة بارنج ضد فكرة الحكم الذاتى المصرى من 1886 – 1887 استجابة لحدثين: مفاوضات دراموند وولف، وعودة ويلفرد بلنت Wilfrid Blunt إلى الظهور كبطل إحياء مبدأ "مصر للمصريين" ففى أكتوبر 1886، كتب بارنج إلى إدسلاى أن "الحكومة الوطنية" الوحيدة التى من المحتمل أن تقيم أركان الاستقرار هى الحكومة المسلمة "المتطرفة فى تعصبها"، والتى تستطيع أن تقود مالية البلاد إلى "إضطراب لا يبعث على الأمل"[765].

---

[764] عن المصادر الفرنسية المذكورة فى رسالة الدكتوراه للباحث.
David Chapin Kinsey, "Egyptian Education Under Cromer: A Study of East – West Encounters in Educational Administration and Policy 1883 – 1907, Ph. D. thesis (Harvard, 1965), 227.

[765] 13 Oct. 1886, CP/2, FO 633/5.

والأفكار التى طرحها – فيما بعد– فى كتابه "مصر الحديثة" الذى بدأ فى كتابته فى التسعينيات (ق 19) سبق له طرحها فى مراسلتين إلى اللورد سولسبرى عام 1887، جاءت الأولى رداً على خطاب من بلنت يقترح فيه إنشاء وزارة للمسلمين تلقاها سولسبرى وأحالها إلى بارنج طلباً للرأى (فى أبريل).

فذكر بارنج أن الصورة التى تكونت عن مصر فى ذهن بلنت بإعتبارها "بلداً محمدياً"، من الأفضل أن يحكمه المصريون العرب، صورة "ليست سليمة" فمصر – فى حقيقة الأمر– "بلد لا يمكن توصيفه"، وأنه إذا كان ممكناً إزالة قناة السويس والسكك الحديدية، وخطوط البرق إلى أوروبا، والجاليات الأوروبية، والتجارة، والإمتيازات الأجنبية، والدين العام، والمحاكم المختلطة، وتم تعيين بلنت – عندئذ– قنصلاً عاماً لبريطانيا، يصبح اقتراح بلنت قابلاً للتنفيذ، ولكن مثل هذه الحكومة سوف تكون أكثر "إغتصاباً وعنفاً وفساداً" من حكم الأرستقراطية التركية الذى يحتل مكانها[766].

وعادت تلك الأفكار إلى الظهور بشكل أكثر إطناباً فى رسالة ثانية بعث بها إلى الخارجية فى ديسمبر من نفس العام، يتناول فيها الآراء التى طرحها سليم فارس، وهو إبن لرجل مارونى منشق سياسياً، كان يتولى تحرير بعض الصحف المحلية فى القاهرة واستانبول. ورأى بارنج كتاب فارس الذى يحمل عنوان "تدهور مكانة بريطانيا فى الشرق" جدير بالإنتباه؛ لأنه يعبر عن آراء جمع غفير من المسلمين فى مصر، رغم ما جاء به من "أخطاء فادحة"، ومثل هؤلاء الناس يرون أن الحكومة الحالية فى مصر تقع فى يد الغرباء، ولا يقصدون بذلك الإنجليز وحدهم، بل يضعون إلى جانبهم الأرمن (ممثلين فى نوبار)، والمسيحيين (الشوام ولأقباط على السواء)، والأتراك.

وأثار ذلك – بدوره – التساؤل حول "من هو المصرى ؟" والإجابة التى قدمها بارنج هى أن كل من يعيش على أرض مصر يعد مصرياً، وهى صيغة تضم أولئك الذين تعمد فارس استبعادهم من دائرة المصريين، وهؤلاء الآخرون هم الذين يلعبون دوراً حيوياً فى إصلاح الحكم. ويترتب على ذلك أن أناساً مثل فارس ممن يدعون إلى تسليم مصر إلى المصريين

[766] 1 May 1887, SP, A/52.

الحقيقيين، إنما يدعمون – فى رأى بارنج– سياسة "غير عملية تتناقض ومصالح المصريين أنفسهم". ثم يتساءل بارنج عمن يعدهم فارس "المصريون الحقيقيون"، ويجيب بأنهم "خليط" من ثلاثة عناصر أساسية: جماهير الفلاحين من سكان البلاد "الغارقين فى غياهب الجهل"، وعدد محدود من صغار الملاك، وشيوخ القرى "الذين يمثلون أعيان البلاد"، والعنصر الثالث يتمثل فى علماء الأزهر على اختلاف مراتبهم، "الذين يبدو عجزهم عن الإشتغال بالإدارة واضحاً" والذين لا تؤدى عودتهم إلى السلطة إلا إلى "الفساد، وسوء الحكم، والظلم"[767]. وإذا كان البديل الخفى عند فارس هو حكومة تركية من إستانبول أو من الأتراك الموجودين بمصر منذ زمن بعيد، فلن تكون مثل هذه الحكومة أفضل حالاً[768].

ومن السهل أن نرى على ضوء هذا الطرح كيف أن بارنج قدم نوبار كأحد القلائل الذين يعتمد عليهم، وكانت دعوة فارس إلى استبدال رياض بنوبار صحيحة تماماً فى استنادها إلى إنعدام شعبية نوبار، ويرى بارنج أن ذلك لا يعود إلى كون نوبار أرمنى الهوية كما يزعم فارس، "بل لأنه مسيحى" وبإعتباره مسيحياً إرتكب عدة آثام منها إنشاء المحاكم الأهلية التى يعتبرها الكثير من المسلمين منافية للشريعة الإسلامية، ومن ثم محاباته للمسيحيين فى السلك القضائى على حساب المسلمين، وأن فارس لم يكتف بذلك، بل تحامل على بطرس غالى (القبطى) لأنه ونوبار لم يتقاعسا عن استشارة الرأى العام الإسلامى فحسب، بل تعاونا معاً على إبعاد القضاة المسلمين من مناصبهم لعدم كفاءتهم، واضطر بارنج إلى إصلاح الأمر بالإصرار على ضرورة فصل قاضيين من الأقباط لعدم كفاءتهم[769].

ويبدو هدف بارنج من هذا القسم من الرسالة واضحاً، فهو يؤكد أن نوبار يمكن أن يعد رمزاً لكل ما كان سيئاً فى مصر، وقد صوره أحياناً على أنه أحسن السيئين، وأنه ينتسب إلى إحدى الجماعات العديدة فى مصر التى تحتاج إلى رجل مثل بارنج يضع الأمور فى نصابها. ترى ماذا يقال عن باقى النخبة الحاكمة ؟ وماذا يقال عن استحالة قدرة المصرى على لملمة الأقسام المتباينة التى تكون سكان البلاد ؟ جعل بارنج من نوبار نموذجاً لمصر فى عجزه عن القيام بمثل هذا العمل، مبيناً أن البريطانيين هم الأقدر وحدهم على القيام بهذا

[767] Baring to Salisbury, 14 Dec. 1887, FO 633/98, 2 – 7.
[768] Ibid, 7 – 8.
[769] Ibid, 20 – 2.

العمل فهم غرباء غير منحازين، يمكن الإعتماد عليهم لضمان الإبتعاد عن التحيز الدينى والعنصرى.

وتوضح هذه الرسالة مدى إبتعاد بارنج عن السياسة التى كان يدعو لها عند وصوله إلى القاهرة فى سبتمبر 1883، فقد كان يتحدث – عندئذ– عن الحكم الذاتى وضرورة الجلاء العاجل. والآن إنتقل من الموقف الذى اتخذه أثناء الأزمة السودانية – الذى ذهب فيه إلى عدم الجلاء عن مصر إتقاء لإنتشار الفوضى– إلى الموقف الذى رأى فيه المصريين على درجة كبيرة من التخلف والإنقسام لدرجة لا يمكن عندها السماح لهم بحكم بلد أصبح "قطعة من أوروبا"، حتى وإن كانت ثورة عرابى تعبيراً عن درجة من الشعور الوطنى (على نحو ما ذكر مرغماً)، ورأى أن الأمور قد تطورت بصورة لا تسمح بالعودة إلى الوراء. فالسكان الذين كانوا بعيدين عن التجانس أصبحوا اليوم "متنوعى الأعراق، ذوى طبيعة دولية لدرجة لا يمكن تواجدها فى أى بلد آخر"، ولذلك أصبحت سياسة "جعل المصريين أمة مستقلة ذاتياً، سياسة غير عملية تماماً". واستطرد قائلاً: "أشك فى إمكانية الإنتقال المفاجئ للسلطة فى دولة شبه متحضرة إلى طبقة جاهلة وعاجزة مثل المصريين الأقحاح، فقد كان هؤلاء على مدى قرون جنساً خاضعاً للغير.. كما لا تتوفر لهم الآن الكفاءة اللازمة التى تجعل من مصلحتهم أو من مصلحة العالم المتحضر عامة، الإرتقاء بهم إلى مرتبة الحكم الذاتى"[770].

وكانت الذراع الأخرى لحملة بارنج تتمثل فى الإخراج الدرامى للإنجازات البريطانية فى مصر بشكل يجعل الحكومة البريطانية فخورة بما تم تحقيقه بإسمها، واتخذ هذا الإخراج الدرامى شكلين: أحدهما التقارير السنوية التى بدأ فى كتابتها منذ العام 1891، ودفع رجاله إلى كتابة المقالات التى تشيد بما أصبح يسمى "برسالة بريطانيا فى مصر".

وفيما يتعلق بالشكل الأول، استبدل بالتقارير غير الدورية التى كان يكتبها عن أحوال المالية المصرية تقارير جديدة حملت عنوان "التقارير السنوية عن إدارة مصر وأحوالها ومدى تقدم الإصلاح" وذلك ابتداء من مارس 1891، وقدمت تلك التقارير الخطوط الأساسية لما حققه الإنجليز فى مصر من أغراض مادية بصياغة ممتازة، ولكنها لا تتضمن ما عرف فى

---

[770] Baring to Salisbury, 14 Dec. 1887, CP/2, FO 633/98, 7.

السياق الهندى بالتقدم الخلقى لأنه – حسب قول بارنج– مستحيل فى مصر، على المدى القريب نتيجة انتشار تعدد الزوجات وغياب الحياة الأسرية[771].

وكانت تتم كتابة التقارير السنوية إعتماداً على مذكرات تأتى من مختلف المصالح الحكومية بصفة دورية، وعند اكتمال إعداد التقرير فى نهاية العام يتم إرساله إلى لندن فى الربيع حيث رأى بارنج أن لنشره فى ذلك الوقت أثر كبير، ورغم أن تلك التقارير جاءت متميزة كعمل تحريرى، رأى كولس Coles باشا مفتش عام البوليس أنه كان من الممكن أن تعد مصدراً دقيقاً للمعلومات – كما فى الهند– لو تأخرت كتابتها إلى ما بعد جمع الإحصاءات الذى لا يتم إلا فى وقت متأخر بعد نهاية العام[772]. وقصد بتلك التقارير توجيه رسالة إلى نوعين مختلفين من الجمهور :أحدهما فى بريطانيا، والآخر فى مصر، حيث يهتم الجمهور الأول – على حد قول بارنج– بالبحث والتمحيص بصبر وأناة، بينما لا يهتم الآخر إلا بإعادة النظر فى ضرائب الأطيان[773] وبينما كانت هذه التقارير تنال إعجاب بعض قرائها، دفعت البعض إلى إصدار مطبوعات للرد على ما جاء بهاتين أن السياسة البريطانية فى مصر لم تعمل على تحسين أحوال مصر، بل زادتها سوءاً.

ولعب إثنان من كبار الموظفين الإنجليز دوراً رئيسياً فى الشق الثانى من حملة بارنج، أحدهما إلدون جورست Eldon Gorest الذى جاء إلى مصر فى نوفمبر 1886، وألفرد ملنر Alfred Milner الذى جاء فى 1889. قضى جورست عامه الأول كدبلوماسى بدار المعتمد البريطانى، وكان يشغل وقت فراغه بتعلم اللغة العربية، واستطاع كسب ثقة بارنج بسرعة، فسمح له بالمساهمة فى كتابة تقرير عام 1887 عن "المالية المصرية"[774] على حين بدأ ملنر حياته العملية محرراً فى صحيفة البول مول جازيت Poll Mall Gazette، ثم تعلم الشئون المالية من خلال عمله سكرتيراً خاصاً لجوشن، فعاونه على إعداد الموازنات الثلاث الأولى عندما كان وزيراً للمالية البريطانية فى حكومة المحافظين 1886 – 1888[775].

---

[771] Baring to Nubar, 15 June 1891, CP/2, FO 633/5.

[772] C. E. Coles Pasha, Recollections and Reflections, (London: St Catherine Press, 1918) 170 – 1.

[773] Cromer to Villiers, 30 Jan. 1896, PRO, FO 78/4761.

[774] Mellini, Gorst, 18 – 19.

[775] John Marlowe, Milner: Apostle of Empire (London: Hamilton, 1976), 15.

وعينه بارنج مديراً عاماً للحسابات بالمالية المصرية بعدما ترقى بالمر إلى وظيفة المستشار المالى عام 1889 خلفاً لفنسنت. ووفقاً لما يذكره ويلفرد بلنت وآخرون، لم يأت تعيينه للاستفادة من خبرته المالية فحسب، بل لإتاحة الفرصة له لإعداد كتابه "إنجلترا فى مصر England in Egypt" الذى امتدح فيه "المنجزات البريطانية" وكتب معظمه عام 1891، ونشر فى لحظة حيوية قبيل عودة جلادستون والأحرار إلى الحكم فى خريف 1892[776].

طرح عمل ملنر الأفكار الأساسية التى تبرر استمرار إنجلترا فى حكم مصر، وتولى صياغة عبارات مثل "الحماية المقنعة veiled Protectorate"، "والسباق ضد الإفلاس"، و"الصراع على المياه" وهى عبارات استقرت فى الوعى الشعبى.

واستطاع أن يصوغ الكتاب كله فى إطار درامى، وحتمية هادئة محسوبة بدقة لجعل قراء العقد الأخير من القرن التاسع عشر يشعرون بالفخر بما استطاعت "الخصائص المتميزة للجنس البريطانى" أن تحقق من إنجازات فى مصر، كما لم يخل أسلوب الكتاب من تملق القارئ ودغدغة مشاعره، فقد قدم مصر فى صورة بلد التناقضات التاريخية والمتصلة بتعقيدات الواقع المعاصر، وأنه ليس باستطاعة أحد أن يدير أمورها بكفاءة سوى البريطانيين بما عرف عنهم من ذكاء، وصبر، وبراجماتية، وحس صادق.

ولقى الكتاب نجاحاً جماهيرياً على الفور حتى أنه طبع أربع مرات بحلول عام 1894، ثم سبع طبعات أخرى فى السنوات العشر التالية. وبغض النظر عن تأثيره فى إنجلترا، كان للكثير من الأفكار التى وردت به صداها فى فرنسا، وليس محض مصادفة أن يشهد عام 1893 صدور كتاب دوق داركور duc d'harcourt عن "مصر والمصريين"، كأول عمل فرنسى يبرر الإحتلال البريطانى لمصر. وسار على درب السابقة التى ترتبت على كتاب ملنر، فقوبل بالعديد من التعليقات المعادية فى القاهرة[777].

[776] Wilfrid Scawen Blunt, My Diaries: Being A Personal Narrative of Events 1888 – 1914 (London: Martin secker, 1932) 44 – 5; H. S. Deighton, "The Impact of Egypt on Britain: A Study of Opinion", in P. M. Holt (ed.), Political and social Change in Modern Egypt (London: Oxford university Press, 1968), 247.

[777] Blunt, My Diaries, 84 – 85; Kassem Amin, Les Egyptiens Reponse a M. le duc d'Harcourt (Cairo Barbier, 1894).

ومن الصعوبة بمكان نسبة الآراء الواردة بكتاب "إنجلترا فى مصر" إلى صاحبها، وبيان ما إذا كانت تعود إلى ملنر أو بارنج أو بويل أو غيره من رجال دار المعتمد البريطانى. فاستخدام ملنر لصيغة السؤال مثل: "من هم المصريون؟" أو "أين المصريين الذين يستطيعون حكم مصر؟" أو وصفه للمصريين بأنهم "جمهور متعدد الألوان"، استخدامه لها ينم عن تأثره بمراسلات بارنج مع سولسبرى. وجاءت مساهمة بارنج فى الكتاب من خلال ضبط بعض العبارات، وقدرته على تقديم الإمبريالية بإعتبارها واجب ودراما فى الوقت نفسه، وأنها عبء، وفرصة مثيرة إذا لم يكن هناك سعى من أجلها، لقد كان دور بارنج هو الإشراف على المشروع الذى يتولى إدارته ثم جنى معظم ثمار نجاحه. وقد توفرت لديه الكثير من المعلومات التى لم تظهر فى الكتاب، والتى أتاح له موقعه الوقوف عليها بحكم تعامله اليومى مع الخديو والنظار، وكان البحث عمن يكتبون ويتحدثون بإسمه يمثل أحد الأعمال المهمة له، حتى أن بلنت علق على الكتاب بقوله: "معظم ما جاء به من إملاء بارنج نفسه"[778].

وعلى كل، لم يكن ملنر – فى هذا الكتاب– بوقاً لبارنج، ففى العديد من فصول الكتاب كانت معالجته للقضايا الرئيسية أكثر منطقية ودقة مما نجده فى تعليق بارنج على كتاب سليم فارس أو فى المسودات الأولى لكتابه "مصر الحديثة" الذى قرأه ملنر، ونقده نقداً مهذباً عام 1896[779]، ولم يكن بارنج متحفزاً ومتوجساً مثلما كان بارنج أثناء معالجته لوضع فرنسا فى مصر مثلاً. ولعله قدم تحليلاً أكثر عمقاً للمجتمع المصرى، مولياً تزايد حجم الشريحة المهنية من موظفى الحكومة التى أهملها بارنج تماماً، وكان فى ذلك متعمداً، ليصور مسلمى البلاد على أنهم إما فلاحين وإما من سكان الحضر المتعصبين[780].

التحكم فى الأخبار

كان أحد الدوافع الرئيسية التى جعلت بارنج يشجع ملنر وغيره على الكتابة على هذا النحو الدروس التى تعلمها من طريقة تعامل حكومة جلادستون مع الشئون السودانية، ومن موقفها

[778] Entry For 31 Dec. 1892; Blunt, My Diaries, 86.
[779] Milner to Cromer, 21 May 1896, CP/2, FO 633/12.
[780] Compare Milner, England in Egypt, 324 – 8, with Baring to Salisbury, 14 Dec. 1887, 6 – 7.

المتردد من تحمل مسئوليات كاملة فى مصر على وجه العموم، وأعتقد أن السبب الرئيسى لفشلها هو خشيتها من مؤيديها فى البرلمان البريطانى الذى يتأثر بالصحافة والرأى العام، فرأى بارنج أن يوازن ما يتقدم به من طلبات إلى الجهات الرسمية فى لندن بالتأثير المباشر على أولئك الذين تعتمد السياسة على أصواتهم للوصول إلى السلطة.

ولذلك بينما كانت أفكاره تطرح على ما اعتبر البقية الباقية من الأحرار الذين يتصفون بالحكمة والثبات على المبدأ، راح يوجه تلك الأفكار إلى الناخبين من قراء الصحف[781]، وهذا القطاع كان– عنده– يجهل الشئون الخارجية، ورغم ذلك يحظى بأهمية تجعل من الصعب تجاهله، فعندما كان ملنر بلندن فى صيف 1891 يعمل على الإنتهاء من كتابه، كتب له بارنج: "السياسة الخارجية – دائماً– مسألة يجب على الجمهور التعرف عليها، ويحتاج إلى التوجيه بشأنها. وأعتقد أنه بالنسبة لمصر وغيرها من القضايا لا مندوحة عن اتباع نظام قانون كوبدن للقمح Cobden's Corn Law، وهو الاستمرار فى دق الطبول نفسها فوق رءوسهم دون كلل. لقد أديت ما عليك عمله جيداً"[782].

وكان هذا النوع من التفكير وراء سعى بارنج وراء قنوات تنقل آراءه إلى الصحافة البريطانية بصورة منتظمة، وبداية، استمر فى ممارسة أسلوب عمله العادى من خلال بعض الأفراد من مراسلى الصحف البريطانية، والقيام أحياناً بكتابة مقال معين ينشر فى جريدة بعينها، وكان مراسل التايمز بالقاهرة تشارلز موبرلى بل هو وسيلة الإتصال المحلية لبارنج بالصحافة اللندنية، وتعود صلته به إلى أوائل السبعينيات (ق 19)، وكان موبرلى بل أحد أبناء أسرة بريطانية تشتغل بالتجارة بالإسكندرية، تحول من مراسلة الصحف بشكل غير منتظم، فأصبح أحد مؤسسى صحيفة الإجبشيان جازيت Egyptian Gazette عام 1880، قبل أن تعينه التايمز مراسلاً دائماً لها بالقاهرة نتيجة التقارير التى كان يبعث بها حول الأحداث التى أدت إلى الإحتلال البريطانى عام 1882. وكان من بين الثمار العديدة لعلاقة بارنج به كتابة ملزمة نشرت عام 1887 عن "المالية المصرية".

[781] For his views on the existence of anon – party, Whiggish opinion, see Baring to Moberley Bell, 3 Apr. 1890, MBL, TA (1891).

[782] 27 June 1891, MP, quoted in Deighton, "The Impact of Egypt on Britain, 247.

وحانت فرصة ذهبية لاستخدام موبرلى بل فى التأثير المنتظم على الصحافة البريطانية عندما استدعى إلى لندن لإدارة التايمز فى 1890، فقد كتب موبرلى إلى بارنج يسأله مقترحاته للنهوض بالجريدة بعد الكارثة التى حلت بها نتيجة سوء معالجتها لقضية طلاق بارنل Parnell. ونتج عن الرد المطول الذى أرسله بارنج تبادل المراسلات بينهما حول البحث عن مراسل مناسب للجريدة بالقاهرة، وكان جورست هو اختيار بارنج الأول للقيام بهذه المهمة، فكتب خمس مقالات وبعض الخطابات قبل أن ينقل إلى وزارة المالية المصرية فى يناير 1891، فأصبح استمراره فى مراسلة الجريدة صعباً. ومن الطريف الوقوف على كيفية تعامل بارنج مع التايمز واختيار أحدهم مراسلاً لها، فقد كتب إلى موبرلى بل:

"سوف أعتمد عليه فى الاستفادة من المعلومات التى لم تتح للجمهور، وأتوقع منه ألا يرسل معلومات تسبب لى أو للحكومة البريطانية الحرج، وفيما عدا ذلك لا أهتم بشئ، ولن أتدخل فى مراسلاته أو برقياته قبل إرسالها لكم، أو أتوقع منه أن يستشيرنى بشأنها إلا فى الأمور المهمة التى تتعلق باقتراح شئ معين على التايمز وقرائها، إن السرية مهمة، ولذلك لن أبلغ أحداً هنا (بمهمة جورست) بما فى ذلك موظفى دار المعتمد البريطانى"[783].

وتم فتح قنوات أخرى مع الصحافة البريطانية فى السنوات التالية، كانت مجلة الاسبكتاتور The Spectator واحدة منها، فقد أصبح محررها وصاحبها جون سانت لوستراشى صديقاً حميماً لبارنج منذ دعاه الأخير ليتناول وزوجته العشاء على مائدة بارنج بدار المعتمد البريطانى أثناء زيارتهما للقاهرة عام 1896 التى إكتشف خلالها كل منهما توافقاً سياسياً مع صاحبه (على حد تعبير ستراشى)، ودامت تلك العلاقة على مدى العقدين التاليين[784]. وهناك صحافى آخر هو مراسل وكالة رويترز التى كانت تحصل على دعم مالى من دار

[783] 11 May 1890, MBL, TA (1890).

[784] John St Loe Strachey, The Adventure of Living, A Subjective Autobiography (London: Hodder Stoughton, 1922) 367.

المعتمد البريطانى، وكان مراسلها المحلى صديقاً لهارى بويل، وكان الصحافى الوحيد المسموح له بدخول مكاتب دار المعتمد البريطانى "حيث كان يلقى الترحاب دائماً"[785].

واستخدم بارنج قدراته الفائقة على الإلحاح للدفع بأفكاره عبر تلك القنوات، لقد حقق نجاحاً فى زيارات بعض الساسة، مثل: جوزيف تشامبرلين Chamberlain الذى عاد إلى برمنجهام فى مارس 1890 ليبلغ زملاءه أنه قد غير رأيه فى المسألة المصرية، وأنه "ليس من حق بريطانيا التخلى عن واجب ألقى على عاتقها القيام به"[786] وقد اعترف ويلفرد بلنت –الخصم السياسى لبارنج– الذى كتب عن استعداده الاستماع إلى الأفكار "مهما كانت تخالف رأيه الشخصى"، وهى سمة رأى بلنت أنها تعود إلى نجاحه فى تحويل الكثير من أعضاء البرلمان الراديكاليين الذين يصلون إلى القاهرة حاملين معهم فكرة الجلاء على عجل، ويتركونها وقد اقتنعوا أن الإقتراح مستحيل أو – على الأقل– لم يحن أو أن الجلاء بعد[787].

وكان إهتمام بارنج الأخير منصباً على إيجاد منفذ للتعبير عن تأييد بريطانيا فى الصحافة المصرية، التى كانت آخذة عندئذ فى الإتساع والإنتشار، إذ تشير قائمة مبكرة إلى وجود 168 صحيفة ودورية عربية فيما بين 1876 والتسعينيات[788] لم يعمر الكثير منها طويلاً، ولكن كثرة عددها تشير إلى أهمية تقديم الأخبار لأعداد متزايدة من الطبقة الوسطى المتنامية من أهل البلاد والأوروبيين، وكان التحكم فى الصحف من الصعوبة بمكان رغم وجود إدارة للمطبوعات بوزارة الداخلية تختص بإصدار التراخيص للصحف الجديدة، وبقى الكثير من الصحف يصدر دون ترخيص أو تحت مظلة الحماية الأجنبية. وكانت هناك ثلاث صحف عربية – على الأقل– تدخل ضمن الفئة الأخيرة، بما فيها صحيفة "الأهرام" المؤيدة لفرنسا[789].

---

[785] Quoted in Clara Boyle, Boyle of Cairo: A Diplomatist's Adventures in the Middle East (Kendal: titus Wilson, 1965), 113 – 14.

[786] The Times, 25 Mar. 1890.

[787] Blunt, My Diaries, 30.

[788] Martin Hartmann, The Arabic Press of Egypt (London: Luzac, 1899) 52 – 8.

[789] W. Fraser Rae, "The Egyptian Newspaper Press", Nineteenth Century, 32 (Aug. 1892), 214 – 16.

وتمثلت جهود بارنج لتوجيه الرأى العام المحلى فى العمل من خلال صحيفتين مواليتين للإحتلال، ممولتين منه، أولهما: الإجبشيان جازيت، والثانية صحيفة "المقطم" العربية التى أسسها عام 1889 فارس نمر وصحفيان آخران نزحوا من بيروت إلى القاهرة قبل خمس سنوات من ذلك التاريخ[790]. وبدأت الأخيرة الظهور فى أربع صفحات، وما لبث توزيعها أن وصل إلى 2500 نسخة يومياً، وهو رقم كبير فى تلك الأيام، وخصصت المقطم جانباً من الصفحة الأولى لترجمة مقالات عن مصر نقلاً عن الصحافة الأوروبية بما فيها التايمز[791] التى كان النقل عنها باعثاً على السرور عند بارنج. وتولى بويل مسئولية الإتصال اليومى بالمقطم، وكان يشير إلى أصحابها فى أحاديثه الخاصة بالمقطميين.

أسرة بارنج الكبرى بالقاهرة

أصبحت السنة التى يقضيها بارنج بالقاهرة ذات وتيرة ثابتة، حيث يقيم وعائلته بالقاهرة، من أكتوبر حتى نهاية موسم العمل الرسمى بالقاهرة، فيقام حفل استقبال كبير بدار المعتمد البريطانى بعد العرض العسكرى الذى يقام فى 24 مايو إحتفالاً بعيد ميلاد الملكة فيكتوريا، بعدئذ تسافر إيثل إلى لندن، ويلحق بها بارنج بعد شهر أو نحو ذلك.

وفى وقت معين من التسعينيات (ق 19) توقف عن المرور بحمامات كارلسباد بالنمسا فى طريق العودة (للاستشفاء من عرق النسا) مكتفياً باستخدام مياه كونتركسفيل Contrexeville المعبأة فى زجاجات التى يمكن شربها أيضاً فى أى مكان، على نحو ما ذكر لسولسبرى[792] وبمجرد سفر إيثل يتم إغلاق مكان الإقامة ويحصل الطباخ وفريق الخدم من الهنود على إجازتهم الصيفية حتى يتم توفير نفقات المناسبات الإجتماعية التى على بارنج أن يتحمل نفقاتها من حسابه الخاص[793].

ورغم الجهود التى بذلها بارنج، ظلت العائلة تقيم فى دار المعتمد القديمة، ولم يتلق موافقة على بناء الدار الجديدة على شاطئ النيل إلا عام 1890، وانتهى العمل فى بنائها أخيراً فى

---

[790] Hart mann, The Arabic Press, 101.

[791] Rae, The Egyptian Newspaper Press' 220 – 1.

[792] 15 May 1896, CP/2, FO 633/6.

[793] Rennell Rodd, Social and Diplomatic Memories, 1894 – 1901, 10 – 11.

شتاء 1893 – 1894، وعاش بارنج وزوجته وطفلاه رولاند ووندام مع طاقم العمل الدبلوماسى بالدار الذين كانوا عزاباً يسكنون فى أماكن بالقرب من الدار، فكان الجميع يتناولون الغداء على مائدة واحدة، وكثيراً ما كانوا يدعون لتناول العشاء أيضاً مع العائلة، وما لبث هارى بويل أن أصبح ملازماً للأسرة كعضو من أعضائها، يشاركهم رحلات العطلة الأسبوعية، وأصبح بمثابة عم عطوف للطفلين وساعد فى تمريض رولاند ليلاً ونهاراً عندما أصيب بالإلتهاب الرئوى فى ديسمبر 1888، وتلقى خطاب شكر حار من إيثل التى كانت تعانى من المرض فى الوقت نفسه، جاء فيه:

"عزيزى المستر بويل

أرجو أن تقبل هذه الصورة لطفل صغير لن ينسى أبداً عطفك عليه، ولا أستطيع أن أوفيك حقك من الشكر على الساعات الطويلة التى أنفقتها على تسليته وتعليمه.. وللأسف، هذه الصورة ستصبح من ذكريات الماضى، لأن عام 1889 سيجلب معه تغييراً كبيراً فى تصفيفه الشعر مع زى المدرسة، مما يجلب الحزن إلى الآباء؛ لأن القاهرة تفقد سحرها فى غيبة ذلك الصوت الرقيق، ولكن التغير لابد أن يأتى على أى حال"[794].

وكما يبدو من خطاب إيثل، إلتحق رولاند – الذى بلغ الثانية عشر– بالمدرسة الإعدادية بإنجلترا عام 1889، وإلتحق بعدها بمدرسة إيتون، وما لبث أن لحق به وندام، وبعدئذ لم يزورا القاهرة إلا فى أعياد الميلاد والفصح.

ولذلك أقام بارنج وإيثل – المتعطشان للحياة الإجتماعية– عدداً كبيراً من الحفلات، وحفلات الرقص. وفى أوائل 1887 ذكر إيفلن لمراسل صحفى فى لندن أن لديه نحو ألف إسم على قائمة المدعوين، وأنه يقيم حفلاً – غالباً– كل أسبوع[795].

وأصبح من بين المدعوين إلى الحفلات بعض زوار الشتاء الذين أخذوا يعودون إلى مصر منذ 1886 – 1887، وبعضهم كان يقيم بدار المعتمد مثل توم شقيق بارنج، أما الآخرون

---

[794] Christmas Eve 1888, CP/4, box 1, File 1; it is reproduced in Boyle, Boyle of Cairo, 82.

[795] Baring to Primrose, 5 Mar. 1887, CP/2, FO 633/5.

فتمت دعوتهم للإقامة على سبيل التجربة مثل بوسى دوجلاس الذى جاء إلى مصر لتغيير الهواء بالقاهرة لمدة ثلاثة شهور فى شتاء 1893 – 1894[796]. ورأى فيه بارنج "ولداً لا نفع فيه شديد التفاهة"[797] ولعل ذلك الشاب هو الذى ترك بعض الكتب الفرنسية الإباحية المصورة بحجرته، مما أحرج بارنج ودعاه إلى إلقائها فى المدفأة لحرقها[798] ورغم يقين بارنج من عدم صلاحية الشاب لأى عمل، بذل مساعيه لتعيينه ملحقاً شرفياً بالسفارة البريطانية بإستانبول[799]. ولكن السفير رفض الطلب[800].

ومارست إيثل واجباتها كرئيسة لسيدات الجالية البريطانية، وبذلت جهداً فى الحفاظ على السلوك الراقى، ورعاية من تعانين المشاكل والأزمات[801]، وما لبثت أن أصبحت مشغولة باستضافة نساء الموظفين الكبار الجدد عند وصولهن إلى القاهرة وتصحبهن معها فى المناسبات، مثل تقديمهن لزوجة الخديو التى كانت تدعو السيدات الأرستقراطية إلى القصر مرتين فى الشهر فى موسم الشتاء، وتذكر مابل كيلارد إحدى أولئك الزوجات أنهن كن يتجمعن فى دار المعتمد البريطانى أولاً ثم يتوجهن جميعاً إلى القصر، حيث كن يجلسن فى صالون الضيافة ثم يتلقين بعض كلمات التحية بالفرنسية، وبعد ذلك لا تترك إيثل واحدة دون إنتقاد مظهرها أو سلوكها[802].

أما عن أصدقاء بارنج المقربين، فقد كان الجنرال السير فرانسيس جرنفل واحداً منهم، وبغض النظر عن كونه سردار (قائد) الجيش المصرى، كان جرنفل مولعاً بالآثار مقتنياً لها، مول بعض الحفائر من جيبه الخاص، من بينها واحدة على البر الغربى للنيل عند أسوان[803]، وتبين يومياته أنه كان ضيفاً منتظماً فى زيارة دار بارنج.

---

[796] Wilde to Lady Queensberry, 18 Nov. 1893, in the Complete Letters of Oscar wilde, ed. Merlin Holland and Rupert Hart – Davis (New York: Henry Hollt, 2000), 575 – 6. Bosie's three months in Egypt allowed wilde the peace of mind to finish the Last three acts of An Ideal Husband and most of two Lesser – Known Plays; Richard Ellman, Oscar Wilde (London: Penguin Books 1988), 387 – 8.

[797] Cromer to Venetia Pollington, 6 Jan. 1894, CP/1, Letters from the 1st Earl of Cromer.

[798] Storrs, Orientation, 52 – 3.

[799] Cromer to Venetia Pollington, 6 Jan. 1894, CP/1, Letters from the 1st Earl of Cromer.

[800] Ellman, Oscar Wilde, 392.

[801] Rodd, Social and Diplomatic Memories, 1894 – 1901 21.

[802] Mabel Caillard, A Lifetime in Egypt 1876 – 1835 (London: Grant Richards, 1935), 107.

[803] Reverend A. H. Sayce, Reminiscences (London: Macmillan, 1923), 240.

وجاء اتصال أسرة بارنج بالأرستقراطية المصرية من خلال الأميرة نازلى فاضل بنت عم الخديو إسماعيل التى كانت تسكن بيتاً كبيراً يقع خلف قصر عابدين، ويصفها الجنرال جرنفل بأنها "بطلة النضال لتحرير المرأة"، وأنها كانت ترتدى اليشمك الشفاف، وشديدة القرب إلى بارنج[804] ورغم أنها كانت تؤيد ثورة عرابى من قبل، أصبحت شديدة التأييد للإحتلال البريطانى[805]، وكانت تقيم مآدب الغداء بشكل منتظم للنظار المصريين ورجال السلك الدبلوماسى وزوجاتهم، مما أتاح لبارنج ورجاله فرصة الإلتقاء ببعض الشخصيات المحلية المهمة، كما أخذت على عاتقها إمداد بارنج بالمعلومات التى تراها على جانب من الأهمية، وأنه يستطيع الاستفادة بها.

ففى خطاب شكر كتبه بارنج فى 8 مايو 1889 يرد ذكر قصاصات صحف، ومعلومات عن العائلة الخديوية وغيرها من الشخصيات المهمة[806]، ولعلها تعمدت تقديم بعض الشخصيات المصرية المهمة إلى بارنج ممن رأت أن فى معرفته لهم نفع له.

واحتل ويلفرد بلنت مكانة عند بارنج تجمع بين الصديق والمعارض السياسى، كان يماثل بارنج فى العمر ولكن أفكارهما عن الإمبراطورية كانت متباعدة ومتناقضة تماماً. فمن الواضح أن بارنج يعطى أهمية كبرى للتقدم على مستوى المجتمعات، ولكن بلنت المحافظ إجتماعياً، كان لا يجد غضاضة فى ترك الشعوب غير الأوروبية تحكم نفسها بنفسها دون أن تفرض عليهم مظاهر الحضارة الأوروبية، وبمرور الزمن أصبح يمقت الحملات العسكرية الموجهة ضد الأهالى المحليين، وما اعتبره "مذبحة" لعدد كبير من أتباع المهدى فى معركة أم درمان عام 1898.

وقد إصطدم بارنج ببلنت عام 1883 عندما ذهب بلنت إلى دار المعتمد البريطانى ملتمساً السماح لعرابى بالعودة إلى مصر، فرد بارنج بأن ذلك أمر مستحيل.وتدهورت العلاقة بينهما أكثر عندما زار بلنت بعض القادة الوطنيين فى السجن دون الحصول على ترخيص رسمى بذلك (وعندما تقدم طالباً الترخيص بعد ذلك رفض طلبه)، ثم منع من زيارة مصر لمدة

---

804 Grenp, Diary, 31 Dec. 1898.

805 Lutfi al – Sayyid, Egypt and Cromer, 95; Storrs, Orientations, 105.

806 Baring to Princess Nazli, CP/2, FO 633/5.

ثلاث سنوات، رغم أن السجناء الذين طلب إطلاق سراحهم كانوا قد خرجوا من السجن[807] وعاد إلى بيته الذى أحبه فى الشيخ عبيد بجوار القاهرة عام 1887. ورغم أنه أقسم بالإبتعاد عن السياسة، ظل يزور بارنج فى دار المعتمد البريطانى من وقت لآخر، وأرسل إلى بارنج قائمة بأعضاء ما سمى بحزب "الفلاح"، وهو حزب يضم المسلمين المصريين المتحدثين بالعربية الذين إعتقد أنهم يصلحون للحلول محل وزارة رياض التى كانت فى طريقها إلى الاستغناء فى فبراير 1891. وقد تم إعداد القائمة بالتعاون مع الشيخ محمد عبده – صديق بلنت– الذى سمح له عندئذ بالعودة من المنفى، وكان من بين من ورد ذكرهم بالقائمة المحامى سعد زغلول[808]. ورغم رفض بارنج الفكرة ظل مهتماً بالإحتفاظ بها للمستقبل، وساعد محمد عبده فى تولى منصب مفتى الديار المصرية وفى تعيينه عضواً بمجلس شورى القوانين عام 1899، وعين سعد زغلول ناظراً للمعارف عام 1906. واستمرت صداقته المضطربة مع بلنت لمدة 15 عاماً أخرى، ولعب بارنج دور الأب فى حفل زفاف بنت بلنت بالقاهرة فى فبراير 1889 عندما حال مرض بلنت دون حضوره من إنجلترا[809].

ومن بين مظاهر الحياة فى دار المعتمد البريطانى الظهور الدرامى للعبيد الآبقين، فقد لجأ أولئك العبيد إلى حدائق السفارات البريطانية والقنصليات فى بلاد الشرق الأوسط وخاصة إستانبول، وكانت السياسة الرسمية تقضى بتسليمهم إلى الشرطة المحلية الذين كان عليهم التفاوض مع ملاك أولئك العبيد حول عتقهم أو معاملتهم بالحسنى، ولكن أصبحوا يسلمون إلى مصلحة تحرير الرقيق التى أنشئت بعد إبرام إتفاقية تحريم تجارة الرقيق بين مصر وبريطانيا عام 1877. وكان يقع على عاتق المصلحة تزويد العبيد الآبقين بوثائق العتق، وتساعدهم فى الحصول على عمل يكسبون منه الرزق، وكان بارنج راضياً عن هذه المعالجة التدريجية للمشكلة مقتنعاً أن المجتمع الإسلامى يقبل العتق ولكنه لا يقبل الإلغاء التام للرق الذى يراه العلماء منافياً للشريعة[810]. ولما كان نحو 10 آلاف عبد قد تم عتقهم فى

---

[807] Longford, A Pilgrimage of Passion, 198 – 9.

[808] Blunt, My Diaries, 48.

[809] Blunt, My Diaries, 340 – 1.

[810] Y. Hakan Erdem, Slavery in the Ottoman Empire and its Demise 1800 – 1909 (Houmdmills, Basingstoke: Macmillan press 1996), 91 – 2, 161 – 4, 168 – 9.

مصر بين عام 1883 – 1889، فإن ذلك يعنى أن من لجأوا إلى دار المعتمد البريطانى هم أولئك الذين هربوا من بيوت العائلات المتنفذة سياسياً طالبين حماية بارنج لهم[811].

ويروى هارى بويل حادثة وقعت عام 1887 عندما كان بارنج يتناول الغداء مع رجلين من أقوى أعضاء جمعية تحرير الرق فى البلاد الأجنبية قدما من لندن فى زيارة للقاهرة. إذ اندفعت إمرأة جركسية نحوه وألقت بنفسها على أقدامه، وعندما سألها بويل عن السبب قالت إنها جارية لأسرة أرستقراطية، وإنهم يسيئون معاملتها، وطلبت إعتاقها عندئذ أخذها بارنج بنفسه إلى مصلحة تحرير الرقيق حيث تم تحريرها، وإرسالها إلى بيت الجوارى المعتقات بالقاهرة الذى أنشأه بارنج عام 1886 ليحمى الجوارى المحررات من الإشتغال بالدعارة[812].

وكان للصيف نظام الرتابة الخاص به. فقد تقضى الأسرة معظم وقتها فى بيت بمنتجع كيثنس فى الركن الشمالى الشرقى لإسكتلندا، تستأجره لهذا الغرض من مالك محلى ويقع أعلى نهر كورسو قرب هلكيرك على بعد 15 ميلاً من ميناء الصيد (كيك)، بنى فى مطلع القرن التاسع عشر[813].

ويصف وندام بارنج رحلة إلى فندق على بحيرة لوخ ألش على الشاطئ الغربى قبالة جزيرة سكاى فى أغسطس 1889 فى خطاب أرسله إلى بويل، يعطى فكرة عن مثل هذه الإجازة:

> "إصطدت ثعبان سمك طوله قدمان وبعض الأسماك الأخرى الصغيرة والكبيرة.. وإصطاد أبى الأيائل صحبة اللورد فوكس. هناك الكثير من الفطر، والفندق ملئ بالأطفال"[814].

وكانت الأسرة قد باعت منزلها فى سيمور ستريت وجعلت إقامتها فى لندن قصيرة حتى تتفادى متاعب السكن هناك وتتخلص من المجاملات الإجتماعية[815].

---

[811] Figure from Memorandum by Mr. Clarke, in FO, Egypt, No. 4 (1889), 44.

[812] FO, Egypt, no. 4 (1889), 72 – 3.

[813] Elizabeth Beaton, Caithness: An IIIustrated Architectural Guide (Edinburgh: Rutton Press, 1996) 104.

[814] Boyle, Boyle of Cairo, 83.

[815] Baring to Bell, 30 May 1890, MBL, TA (1890).

وخلال أعوامهم الأخيرة فى دار المعتمد البريطانى القديمة بالقاهرة، شهدت الأسرة ثلاث حوادث عائلية: الرحلة النيلية التى قام بها بارنج مع إيثل فى نوفمبر – ديسمبر 1889، والإحتفال بعيد الميلاد الخمسين لإيفلن بارنج فى فبراير 1891، ثم الأزمة التى لحقت ببنك إخوان بارنج الذى تملكه الأسرة بلندن فى أكتوبر 1890، فقد تورط البنك فى تقديم قروض غير مضمونة لشركات فى الأرجنتين، وتأرجح البنك على وشك السقوط بضعة أسابيع، ولكن تم إنقاذه فى منتصف نوفمبر بالتعاون بين محافظ بنك إنجلترا وعدد من البنوك الخاصة من بينها بنك روتشيلد. وكان شرط استقالة الشقيق الأكبر لإيفلن بارنج من إدارة البنك (ند Ned) أو اللورد لفلستوك الذى عد مسئولاً عن الكارثة، أحد شروط التسوية مع حل الشركة وتكوين شركة جديدة بإسم "إخوان بارنج وشركاهم"[816].

ذكرت إيثل لأختها أن الرحلة النيلية التى ظلا يتحدثان عنها لمدة 12 عاماً أصبحت ممكنة بفضل موقعة توشكى فى أغسطس 1889 التى ألحق فيها الجنرال جرنفل والجيش المصرى الهزيمة بجيش من الغزاة السودانيين قاده النجومى[817]. وبذلك أصبحت الملاحة آمنة فى النيل حتى الجندول الثانى. وقد استقلت عائلة بارنج الباخرة النيلية التابعة لشركة توماس كوك "البرنس" من أسيوط فى 16 نوفمبر، وأبحرت إلى أسوان، مع التوقف من حين لآخر للتفتيش على المحاكم والمدارس والسجون ومقابلة الأعيان والشيوخ[818].

وقد أعجبت إيثل بمنظر الشروق والغروب، واستمتعت بألوانهما البديعة[819]. وقد سجلت مناظر الرحلة فى 24 بطاقة بريدية ملونة بالألوان المائية تشهد بقدرتها على محاكاة كبار الرسامين، وقد أمرت بوضعها فى إطارات وإهدائها إلى بارنج فى عيد زواجهما الرابع عشر، وأطلقت عليها إسم "تذكار ثلاثة أسابيع هانئة على النيل"[820].

---

816 Zieglar, The Sixth Great Power, 244 – 56.

817 Ethel to Venetia Pollington, 21 Nov. 1889, CP/1, Letters from Ethel Errington (Cromer) to her sister Venetia Errington (Pollington).

818 Ibid.; Boyle, Boyle of Cairo, 98 – 9.

819 21 Nov, and 5 Dec. 1889, CP/1, Letters from Ethel Errington (Cromer).

820 Letters of 28. June 1890, CP/1, Letters and Papers of 1st Lady Cromer.

وما أن وصلوا إلى الأقصر حتى حضروا حفل استقبال كبير أقامه نائب القنصل على شرفهما حيث عزفت الموسيقى وعرضت عليهم بعض الرقصات المحلية التى لقيت إستياء بارنج وإيثل على نحو ما يذكر بويل[821].

وفى أرمنت التى تقع جنوب الأقصر صحب بويل بارنج فى مسيرة على الأقدام داخل الصحراء حتى وصلا إلى قرية بعيدة عن النيل حيث استقبلهما شيوخ القرية دون أن يعرفا هويتهما، وتحدثوا معهما عن تحسن الأحوال "منذ تولى الباشا الإنجليزى حكم البلاد". وعند انصرافهما أصر الشيوخ أن يدبرا لهما دابتين لتحملاهما حتى شاطئ النيل، فلم يجدوا لديهم سوى جمل واحد وحمار، ولكن الحمار عجز عن حمل بارنج ففضلا العودة على الأقدام ليجدا إيثل وجميع من على الباخرة فى حالة قلق لغيابهما[822].

وبعد زيارة للجندول الثانى على ظهر قارب عسكرى عاد بارنج ورفاقه إلى الأقصر حيث أقيم لهم إحتفال آخر.

وليس هناك تسجيل للكيفية التى كان عليها إحتفال بارنج بعيد ميلاده الخمسين بعد ذلك بعام، ولكنه ربما كان لا يزال مشغولاً بأزمة بنك العائلة، كما يتضح ذلك من خطاب كتبه إلى موبرلى بل قبل ذلك بشهر.

> "لقد دمر أقاربى أنفسهم وإسمهم التجارى المتألق ولكنهم لم يلحقوا الأذى بأحد.. لقد تلقى كبريائى ضربة لا أظنه سوف يشفى منها"[823].

وظل بارنج على علم بتطورات تسوية الأزمة عن طريق أخيه توم فى نيويورك، وحفلت خطابات توم بتوجيه اللوم إلى ند لما ألحقه من ضرر بالإسم التجارى للعائلة[824]. ولكن بارنج وإيثل ساهما مع أقاربهما فى الشركة الجديدة التى تم تأسيسها بمبلغ عشرة آلاف جنيه، كما

---

821 Boyle, Boyle of Cairo, 99.
822 Ibid. 98 – 90.
823 Ibid. 99 – 100.
824 Ethel to Venetia Pollington, 5 Dec. 1889, CP/1, Letters from Ethel Errington (Cromer).

ساهم توم بخمسة وعشرين ألفاً[825] وما لبث البنك أن استعاد عافيته تحت إدارة جون نجل ند الذى أصبح فيما بعد اللورد ريفلستوك الثانى، ولكنها كانت أزمة مؤلمة مهينة على أى حال.

[825] Ibid.

الفصل الثالث عشر
طرقعة السوط
(1892 – 1895)

مواجهة الخديو الجديد

إختار بارنج البلدة التى ولد بها "كرومر" ليحمل إسمها عندما نال رتبة اللورد فى مارس 1892، وبذلك أصبح "اللورد كرومر". وقد واجهته عندئذ مشكلتين تفاقمتا قبل أن يرسى أركان سلطته على أسس دائمة: أولاهما وفاة الخديو توفيق فى يناير 1892، ليخلفه ولده عباس حلمى الثانى الذى كان وافداً جديداً عليه ينقصه التدريب اللازم، أما المشكلة الأخرى فكانت عودة حكومة حزب الأحرار إلى الحكم فى بريطانيا فى الخريف برئاسة جلادستون وغالبية من الوزراء الذين يؤيدون فكرة الجلاء عن مصر، وقد ارتبطت المشكلتان ببعضهما البعض؛ لأن اللورد كرومر (الجديد) يحتاج إلى تأييد لندن المطلق فى سعيه لوضع الأمور فى نصابها مع عباس الثانى الخديو الجديد الذى بدأ تحدى سلطة الإحتلال. ولم يكن ذلك التأييد متوقعاً من حكومة الأحرار رغم أن هناك ما يبشر بتلقى عون كبير من اللورد روسبرى – وزير خارجية جلادستون– الذى كان قد زار مصر عام 1887 مما أتاح لبارنج عندئذ أن يطلعه على حقيقة الأمور فى مصر، كما واجهته حقيقة أن روسبرى إلتزم باتباع سياسة سولسبرى الرامية إلى دفع المصالح البريطانية فى أفريقيا.

وخلال السنوات العشر التى انقضت على الإحتلال أصبح الخديو توفيق شريكاً مثالياً للبريطانيين، وهو الرجل الذى وصفه والده إسماعيل بأنه "ليس لديه فكر، أو قلب، أو شجاعة" فلا عجب أن يصف ملنر شخصيته بأنه "يزداد تحمساً تجاه الإنجليز سنة بعد أخرى"[826]، والذى وصفه جاك بيرك بأنه "منكسر، لين العريكة، ليس لديه أحلام شخصية كبيرة"[827] وحتى ما بقى له من هيبة استخدم لمصلحة الإنجليز فى المناورات التى صاحبت طرد الوزراء من أمثال نوبار. ويمكن تلخيص وجهة نظر كرومر بالقصة التى رواها آرثر

---

[826] Scolch, Egypt for the Egyptians!; 308; Milner, England in Egypt, 135 – 6.
[827] Berque, Egypt, 151.

هاردنج Arthur Hardinge الذى جاء للعمل بدار المعتمد البريطانى فى 1890. وكلفه كرومر بإعداد مسودة رسالة موجهة إلى الخديو، وعندما كان يقرأها على كرومر، ووصل إلى العبارات الختامية التى كان نصها: "وإننى على ثقة أن هذه الرسالة سوف تسترشد بحكمة سموكم"، صاح كرومر: "لا لا يا هاردنج، إنك بهذا تفسده، فالرجل لا يعرف شيئاً عن الحكمة وحسن التقدير، وحتى لو كان لديه بصيص منها لما كان رشيداً"[828].

ومن كانت الوفاة المفاجئة لتوفيق، وهو فى الأربعين من عمره، بعد مرض قصير جداً، كان بمثابة الصدمة لكرومر الذى شعر بالضيق؛ لأنه كان يتوقع منه الكثير من السنوات الحافلة بالتعاون، حتى أنه كتب لسولسبرى أن توفيقاً قد قتل على أيدى "أطبائه السيئين"[829]فقد كان يرى أن موت الخديو سوف يؤثر على مجريات الأمور على المدى القريب. ومهما كانت درجة استكانة الخديو، يظل رمزاً مهماً لوضع مصر الدولى الغامض: فهى خاضعة إسماً للسيادة العثمانية، ولكنها خارج إطار السلطة العثمانية الفعلية بالقدر الذى يسمح لبريطانيا بإدارة دفة أمورها بإعتبارها ذات هوية خاصة بها، ونتيجة لذلك ظل الخديو يتمتع بقدر كاف من السلطة والمكانة، باستطاعته استخدامها فى معارضة أو حتى تغيير السياسة البريطانية فى العديد من المجالات الأساسية.

كان عباس حلمى – الإبن الأكبر لتوفيق– فتى فى السابعة عشر من عمره، تلقى معظم تعليمه فى أوروبا، وشمل ذلك زيارة عدد كبير من الدول الأوروبية منها إنجلترا، وفرنسا، وألمانيا، والنمسا – المجر، والتحق بعض الوقت بمدرسة بسويسرا (1883 – 1887)، ثم بأكاديمية تريزيانوم بالنمسا (1887 – 1892)، وقد بلغته أنباء وفاة والده أثناء وجوده بالأكاديمية فسافر على الفور إلى الإسكندرية على متن باخرة نمساوية وضعها إمبراطور النمسا فى خدمته[830].

---

[828] Sir Arthur Hardinge, A Diplomatist in The East, (London: Jonathan Cape 1928), 38.

[829] 10 Jan. 1892, SP, A/53 Baring also blamed Taufiq's death on his venereal disease; Baring to Salisbury, 11 Jan. 1892, CP/2, FO 633/7. The same story is told by the newly arrived British diplomat Horace Rumbold; See Martin Gilbert, Sir Horace Rumbold; Portrait of a Diplomat, 1869 – 1941 (London: Heinemann, 1973), 11.

[830] أملى عباس مذكراته على سكرتيره بالفرنسية فى وقت ما بعد خلعه على يد الإنجليز عام 1914، ونشرت أجزاء منها بجريدة "المصرى" فى أبريل 1951 ونشرت لها ترجمة بالإنجليزية بعنوان The Last Khedive of Egypt وقامت=

لقد كتب الكثير عن اللقاءات الأولى لعباس مع كرومر، بما فى ذلك ما رواه كل منهما عن تلك اللقاءات[831]، وغالباً ما استهدفت تلك الروايات المجتزأة الدفاع عن سلوك طرف أو آخر. كما أنها – أو أغلبها– كتبت بإدراك لاحق فى محاولة لشرح الأسباب التى جعلت الصدام يقع بينهما بما ترتب عليه من آثار على العلاقات البريطانية – المصرية. ولازالت محاولة إعادة رسم صورة اللقاءات الأولى بالغة الصعوبة، لعدم إمكانية تفادى الوقوع فى أسر الواقع الدرامى للأمور، مثل مواجهة المعتمد البريطانى المتعجرف الذى يبلغ عمره 51 عاماً مع شاب عديم الخبرة لديه إحساس متزايد بالكرامة، وبسلبية والده التى أدت إلى تكثيف الوجود البريطانى الذى أخذ يبدو وكأنه إحتلال دائم للبلاد.

ولكن يبدو واضحاً أن عداء كل منهما للآخر لا يهم كثيراً مقارنة بمواقفهما المتعارضة، فكل منهما اعتبر وجود الآخر يمثل تهديداً لمصالح بلاده الوطنية ومصالحه الشخصية. وهناك – فى حالة كرومر– ما يدعونا إلى الإعتقاد أنه أراد تطويع الخديو الشاب على نحو ما فعل اللورد ملبورن Melbourne مع الملكة الشابة فيكتوريا، ثم حاول أن يخفى فشله بنظام من التهديد والوعيد الذى يهدف إلى امتهان كرامة عباس حتى يلتزم الإطار المحدد له.

ويروى عباس فى مذكراته أن صراعه مع كرومر بدأ بمجرد وصوله إلى الإسكندرية وسماع النشيد الوطنى المصرى يليه النشيد الوطنى العثمانى تعزفه فرقة الموسيقى العسكرية البريطانية، فقد فهم أن كرومر قصد بذلك أن يذكره أن بريطانيا والباب العالى سيعملان دائماً على "إعاقة تطلعات مصر نحو الحرية والاستقلال"[832]. وهذا الإتهام بعيد عن الصحة؛ لأن كرومر إنبرى على الفور للدفاع عن مصالح مصر فى مواجهة ما يتضمنه فرمان تولية عباس من تحديد لحدود مصر الشرقية بصورة تجعل معظم شبه جزيرة سيناء خاضعاً للإدارة العثمانية وخارجاً عن حدود ولاية مصر. ولم يكن سولسبرى – فى لندن– يبدو مهتماً بالأمر، ولذلك يعود الفضل فى تعديل الفرمان إلى صلابة احتجاج كرومر الذى أعاد حدود

=بالترجمة إلى الإنجليزية أميرة سنبل، Reading, Ithaca Press, 1998) كما صدرت لها طبعة عربية عن دار الشروق بالقاهرة ترجمة جلال يحيى).

[831] For Abbas, see Abbas Hilmi, the Last Khedive, Particularly ch 14. For Baring, Earl of Cromer, Abbas II, (London: Macmillan, 1915), chs. 2 – 4.

[832] Abbas Helmi, The Last Khedive, 69.

مصر الشرقية إلى وضعها السابق عند الخط الممتد من العريش إلى خليج العقبة[833]، أضف إلى ذلك أن كرومر جعل قراءة الفرمان (المعدل) تتم أمام الخديو ورجاله، فى الوقت الذى قام فيه الجيش المصرى بعرض عسكرى أمام سراى عابدين[834].

وفيما يتعلق برواية كرومر نفسه، كانت لقاءاته القليلة الأولى مع عباس قد قادت إلى وقوع حالة نفور مبكر بينهما، فقد كتب كرومر إلى سولسبرى فى فبراير: "ركبت مهرى الجديد مستخدماً شكيمة خفيفة... وتدريجياً سوف يثق فى الحكومة البريطانية كما آمل أن يثق بى"[835] ولذلك غادر مصر لقضاء إجازة الصيف دون أن يتوقع حدوث أى متاعب أثناء غيابه.

وجرت الإنتخابات العامة البريطانية فى يوليو عندما كان كرومر فى منتجعه الإسكتلندى بعيداً عن لندن، وجاء فوز حزب الأحرار فى الإنتخابات بمثابة ضربة مزدوجة له، فقد أعاد جلادستون إلى رئاسة الوزارة، ووضعت بذلك نهاية لعلاقة العمل فائقة الإنسجام التى أقامها مع سولسبرى وفى الوقت نفسه كانت تلك الأخبار مشجعة للخديو ورجاله، وخاصة أن جلادستون تحدث عن النية فى الجلاء عن مصر فى إحدى خطبه الإنتخابية. كما سرت إشاعة فى مصر فسرت تأخير كرومر فى العودة بسبب المرض، بأنه قد لا يعود إلى القاهرة مطلقاً[836].

ولكن رغبة جلادستون فى الجلاء عن مصر، علقت على يد روسبرى – وزير الخارجية– الذى ألقى تصريحاً مناوراً أعلن فيه الموقف الرسمى للحكومة من التفاوض مع الباب العالى، وأن ذلك التفاوض سوف يرجأ إلى حين عودة مصر إلى "الحالة الطبيعية"، ورأى ويلفرد بلنت أن مصر كلها يجب أن تتحول إلى القبول برؤية اللورد كرومر. مما يعنى قيام نوع من اليوتوبيا الأنجلو – مصرية تتولى فيها حكومة ذات طابع بريطانى حكم مصر بدعم من

---

[833] Marlowe, Cromer in Egypt, 157.
[834] Haringe, Diplomatist in the East, 53 – 4; Egyptian Gazette, 14 Apr. 1892.
[835] 13 Apr. 192, SP, A/53.
[836] Mellini, Gorst, 44.

الرأى العام (المصرى) دون حاجة إلى وجود قوات مسلحة (بريطانية)، وهو ضرب من الخيال لن يتحقق على أرض الواقع[837].

وعاد كرومر إلى مصر ليجد عدداً من المستشارين وكبار الموظفين الإنجليز يشعرون بالقلق؛ لأن عباس لن يقبل بالدور المحدد له. وعزا جورست ذلك إلى طول غياب كرومر، وما قدمه تيجران باشا (وزير خارجية مصر) من مشورة سيئة[838]. ورأى آخرون أن ذلك يرجع إلى قيام عباس بالاستغناء عن رجال حاشية والده، واستبداله بهم رجالاً أصغر سناً، وأكثر عزماً وكراهية للإنجليز، وقيل أيضاً إن القنصل الفرنسى ريفرسو Reversaux يحرضه على ذلك[839]، وما لبث كرومر أن وجد الخديو يبدو معادياً، وأكثر حساسية فيما يراه ماساً بكرامته، وأكثر اتصالاً بالمصريين، يقوم بزيارة المدارس، والمصالح الحكومية، ويوجه التعليمات كتابة إلى موظفى الحكومة[840] كما علم من التقارير أن الخديو يعبر علناً عن انتقاده لبعض مظاهر الإحتلال، ويقوم بتشجيع الشعور المعادى للإنجليز فى الصحافة العربية المصرية[841]وكان رد الفعل من جانب كرومر إعطاء "محاضرة" قوية لعباس، لم يعد بعدها يواجه صعوبة فى التعامل معه، على حد قوله لروسبرى[842]. ولكنه أخطأ مرة أخرى؛ لأن ثمة أزمة كبيرة برزت بعد شهرين فقط من هذا الكلام.

ومع استمرار التوتر بين عباس والإنجليز، لم يمض وقت طويل حتى بدأ المصريون يركزون نقدهم على مصطفى فهمى رئيس مجلس النظار، فقد رأى فيه عباس ومستشاروه كل الأخطاء التى وقع فيها توفيق بحشد الوزارة بالدمى الإنجليزية. كما أن إعتلال صحة مصطفى فهمى أدى إلى إنتشار الشائعات حول من يخلفه، وفى يوم السبت 14 من يناير 1893 أرسل إليه عباس الثانى رسولاً طلب منه تقديم استقالته، فرد فهمى بتوجيه النصح إلى الخديو باستشارة اللورد كرومر أولاً. وتجاهل عباس النصيحة وعين حسن فخرى باشا رئيساً لمجلس النظار بدلاً منه، وفخرى كان ناظراً للحقانية عبر عن عدائه للإنجليز

---

[837] Lord Cromer and the Khedive, Nineteenth Century 35, (Jan. – June 1894), 187.

[838] Mellini, Gorst, 44.

[839] Mohamed Gamal – El – Din Ali Hussein El Musaddy, The Relations Between Abbas Helmi and Lord Cromer, Ph. D. Thesis, (London 1966), 30 – 35.

[840] Ibid, 36 – 7.

[841] Berque, Egypt, 165.

[842] 12 Nov. 1892, CP/2, FO 633/6.

بمعارضته الإصلاحات التى قدمها السير جون سكوت المستشار القانونى، وأجبر على الاستقالة فى ديسمبر 1891 بإصرار من كرومر شخصياً[843]. وتضمن قرار الخديو عباس حلمى الثانى طرد وزيرين آخرين وتعيين بدلاً منهما.

وإعتبر كرومر ذلك تحدياً سافراً لوضع بريطانيا فى مصر، فقد رأى فى كل محاولة لتأكيد استقلال مصر تهديد مباشر لسلطته. وقد برر عباس إقدامه على هذه الخطوة فى مذكراته بالقول إن "إختيار الوزراء من حق الخديو وحده"، ولا يبدو ذلك مقنعاً[844] إذ كان عليه وعلى مستشاريه أن يدركوا أن ذلك يمثل تحدياً للطريقة التى يمارس كرومر من خلالها السلطة البريطانية، ولعلهم أساءوا التقدير عندما ظنوا أن كرومر لن يحظى بدعم وزارة جلادستون فى لندن. وفى نهاية الأمر، لابد أن تؤدى مواجهة بهذا الحجم إلى حشد الرأى العام المصرى فى صف الخديو.

واندفع كرومر مباشرة إلى المعركة بإصرار، دون تحسب مما يجعله – دائماً– يبالغ فى تصرفه، ويمكن الوقوف على وجهة نظره من سيل المراسلات المتلاحقة إلى لندن والتى يعقب كل منها برقية إلى روسبرى. فبمجرد علمه بإقالة مصطفى فهمى وزميليه، إتصل تليفونياً بالخديو، وطالبه بعدم إعلان القرار قبل أن تتاح له الفرصة للإتصال بوزير الخارجية البريطانى[845]، وقد تضمنت برقية كرومر إلى روسبرى وصفاً لما حدث معتبراً إياه موجهاً ضد وضع بريطانيا فى مصر، وأن لندن ليس أمامها خيار سوى تأييد أى عمل مضاد يقترحه، وقدم مقترحاته كالتالى:

"إذا ترك الحبل على الغارب للخديو ليستمر فى القول بأن النظام الذى كان معمولاً به لمدة عشر سنوات لم يعد صالحاً، فإننا سوف نجد أنفسنا مدفوعين إلى مناقشة المسألة المصرية قبل الأوان فى صورة مرفوضة. أما إذا لقن الخديو درساً، فمن المحتمل ألا يثير المزيد من المتاعب[846].

---

843 H. D. Traill, England, Egypt and the Sudan, (London: Archibald Constable, 1900), 138.
844 Abbas Helmi, The Last Khedive, 79.
845 Berque, Egypt, 167.
846 15 Jan. 1893, CP/2, FO 633/6.

وأرسل كرومر برقيتين أخريين فى اليوم نفسه للتأكد من أن روسبرى ومجلس الوزراء البريطانى قد استوعبوا وجهة نظره، معلناً أنه تم التنسيق حول الأمر برمته مع الباب العالى والفرنسيين والروس، مكرراً الشائعة التى تقول إن الخديو ينوى أن يصدر قراراً بفصل جميع الموظفين الإنجليز فى الإدارة المصرية، إذا مر موضوع تغيير الوزارة بسلام.

وجاءت برقية روسبرى الجوابية فى اليوم التالى:

"تتوقع حكومة صاحبة الجلالة أن يتم التشاور معها فى الأمور المهمة كتغيير الوزارة، وترى أنه لا ضرورة ولا رغبة الآن فى التغيير، وأنها لا تستطيع المصادقة على اقتراح تعيين فخرى باشا"[847].

وتلقى كرومر برقية أخرى تسأله عن الخطوة التالية التى ينوى اتخاذها فى حالة إصرار الخديو على موقفه، وجاءت إجابة كرومر العنيفة بشكل كاف لانطلاق كل أجراس الإنذار. ففى حالة رفض الخديو التراجع: "أقترح أن تصدر الأوامر للجنرال ووكر (القائد العام للحامية البريطانية) باحتلال مقار وزارات المالية والحقانية والداخلية مع تعليمات بعدم السماح للوزراء الثلاثة الذين عينوا دون موافقتنا بدخول تلك الوزارات وعندئذ سوف أطلب من بالمر، وسكرت، وسيتل Settle (مفتش عام البوليس) أن يتولوا تصريف أمور تلك الوزارات، وأن يتلقوا التعليمات منى حتى يقدم لنا الخديو أسماء الوزراء الذين تقبل بهم حكومة صاحبة الجلالة"[848].

وكان هذا الإقتراح يفوق طاقة روسبرى على الإحتمال، وقال إنه يذكره بإنقلاب لوى نابليون فى باريس (ديسمبر 1851)[849]. كما زادت المقترحات من صعوبة المناقشات فى اجتماعات مجلس الوزراء تعبيراً عن الشك المتزايد فى نوايا كرومر عند جلادستون ووزراء حكومته[850].

---

[847] 16 Jan. 1893, PRO, FO 141/299.

[848] Ibid.

[849] Marquess of Crewe, Lord Rosebery, vol, ii, (London: John Murray, 1931), 415.

[850] Robert Rhodes, James, Rosebery: A Biography of Archibald Philip, fifth Earl of Rosebery (London weidenfeld & Nicolson, 1963), 277 – 9.

وكتب روسبرى إلى الملكة – التى كانت فى طليعة مؤيدى كرومر– معرباً عن قلق المجلس لما جاء فى برقيتى كرومر [851].

ولم يكن روسبرى قد تلقى بعد قرار مجلس الوزراء البريطانى بهذا الشأن، عندما كان كرومر فى قصر عابدين صباح اليوم التالى محاولاً كسب الوقت، فأخبر عباس أنه إذا أعاد مصطفى فهمى إلى منصبه، "فلن يكون هناك اعتراض على تعيين وزيرين جديدين للمالية والحقانية، على أن يعود كرومر إلى القصر فى اليوم التالى لمعرفة جواب الخديو" ولم يقل للخديو شيئاً عن استخدام قوات الحامية البريطانية. وما كاد كرومر يعود إلى دار المعتمد حتى وردت برقية روسبرى حاملة قرار مجلس الوزراء:

"إننا (الحكومة) نرى أن الوسائل التى يقترحها لورد كرومر بالغة العنف، وقد تمثل خرقاً للقانون الدولى. ومن الأفضل إبلاغ الخديو أنه فى حالة تمسكه بموقفه، عليه أن يتحمل تبعات ذلك، ولا يجب القيام بأى عمل دون الرجوع إلى حكومة صاحبة الجلالة طلباً للتعليمات بهذا الخصوص. وقد يعطيك ذلك فرصة للتفكير فى عمل أقل عنفاً"[852].

كان القرار واضحاً بالقدر الذى يدفع إلى تغيير المسار، فيذكر كرومر فى كتابه: "عباس الثانى" أن اجتماعاً عقد بعد ظهر ذلك اليوم تم بينه وتيجران باشا وبطرس غالى حيث إتفق الثلاثة على خطة بموجبها يتم إحلال رياض باشا محل مصطفى فهمى، بينما يعلن الخديو الكلمات التى أملاها كرومر وهى أنه "حريص جداً على إقامة علاقات صداقة متينة مع بريطانيا، وأنه يتطلع دائماً إلى سماع نصيحة حكومة صاحبة الجلالة مستقبلاً فى جميع المسائل المهمة"[853].

ولم يخف كرومر شعوره بخيبة أمله فى الموقف الذى وضعته فيه الحكومة البريطانية، وذلك فى البرقية التى أرسلها إلى لندن فى اليوم التالى، واصفاً ما جرى فى زيارته للخديو:

---

[851] Crewe, Lord Rosebery, ii, 419.
[852] Ibid, 419.
[853] Cromer, Abbas II, 27.

"كان من الواضح أن أقوم بتسوية المسألة بهدوء، على ضوء التوتر القائم هنا، وبرقيتكم التى لا تشير إلى عدم وجود نية لديكم لدعم أى عمل أقوم به ممثلاً لكم... لقد أبدى الخديو أسفه لما آلت إليه الأمور، وقال إن إعادة تعيين مصطفى فهمى يسئ إلى كرامته ويضر بسلطته، ولذلك يتوجه بالرجاء إلى حكومة صاحبة الجلالة ألا تصر على ذلك.. واقترح تعيين رياض بدلاً من فخرى.. وترددت فى الإصرار على تعيين مصطفى فهمى فهو على أى حال مريض، وسوف يستمر كذلك لوقت ما، وبعد كل ما حدث لا أظن علاقته بالخديو ستكون جيدة مرة أخرى وأعتقد أيضا أنه ليس من الحكمة إهانة الخديو أكثر من ذلك.. ولذلك قلت على مسئوليتى الشخصية.. أننى أقبل بإقتراح الخديو كحل نهائى لهذه المسألة".

وينتهى القرير بأنه تصرف وفق ما عبرت عنه الحكومة من رأى حتى ينظم أداءه وفقاً له، ولا يفعل شيئاً عرضة للرفض[854].

وبدأ كرومر على الفور البحث عن سبيل للإلتفاف حول تلك التعليمات.. ففى برقية أخرى أرسلها فى اليوم نفسه طلب تعزيز الحامية البريطانية فى مصر بكتيبة مشاه؛ لأن شعبية الخديو إزدادت، والجيش المصرى لا يعتمد عليه، وأنه يريد أن يعلن فى أقرب فرصة عن زيادة عدد القوات البريطانية فى مصر[855]. وقد أدى ذلك الطلب إلى جلسة عاصفة أخرى بمجلس الوزراء البريطانى وجد روسبرى نفسه فيها يمثل وزميل آخر أقلية فى مواجهة جلادستون وباقى الوزراء. ونقل عن جلادستون قوله بالجملة (20 يناير): إن كرومر ربما يطلب منه أن يضع شعلة على برج كنيسة وستمنستر وهو يرسل القوات إلى مصر[856] وقال روسبرى إنهم إذا لم يستجيبوا لطلب كرومر، قد يضطرون للجلاء عن مصر بأمر يصدره الخديو، أو يضطرون لإرسال قوات أكبر لإحتلالها مرة أخرى بعد ذلك، فإضطر المجلس إلى الموافقة[857] ولكن ذلك كان مجرد كلام. ففى 21 يناير (أى اليوم التالى) أبرق روسبرى إلى كرومر أن هناك إجتماعاًآخر يعقد بعد يومين، "فإذا لم يقرر مجلس الوزراء تزويدك

[854] Cromer to Rosebery, 18 Jan. 1893, quoted in Marlowe, Cromer in Egypt, 165 – 6.
[855] Cromer to Rosebery, 19 Jan. 1893, quoted ibid 167.
[856] Hamilton, Diary 1885 – 1906, 20 Jan. 1893, 186 – 7.
[857] James, Rosebery, 276.

بالصلاحيات المطلوبة فسوف تنتقل وزراة الخارجية إلى وزير آخر"[858]. فرد كرومر ببرقية على الفور: "إذا كنتم ستضطرون إلى ترك الوزارة، فسوف أحذو حذوكم فى مجالى المحدود. وسوف يترتب على ذلك إستقالة الكثير من كبار الموظفين الإنجليز هنا أو يتم فصلهم.وسوف تنهار الإدارة كلها[859] وكان الموقف الموحد لروسبرى وكرومر كافياً لإقناع جلادستون بالاستسلام حتى لو لم يعلن روسبرى إعتزامه الاستقالة فى جلسة مجلس الوزراء[860]، وبناء على إقتراحه صدرت الأوامر لكتيبة المشاة (بلاك ووتش BLACK WATCH) التى كانت على ظهر سفينة تقترب من قناة السويس فى طريقها إلى الهند، فتم إنزالها وتوجهها إلى القاهرة، وأمر كرومر – على الفور– بعرضها فى شوارع القاهرة فى استعراض للقوة.

وليس من اليسير تصوير مزاج كرومر خلال تلك الأيام العشرة العصيبة، ولكن نستطيع أن نتخيل تأثير الضغوط المتضاربة القادمة من لندن، ومن الجاليات الأوروبية المحلية ومن المستشارين الذين كان بعضهم يدعوه إلى التصرف بحزم بينما ينصحه البعض الآخر بإلتزام جانب الحذر التام. غير أن الإيقاع السريع للأحداث والحاجة إلى تسوية الأمور مع مجلس الوزراء، تطلب ردود أفعال متواصلة. وكما جرت عليه عادته كانت تصرفاته الفورية تتسم بالعنف، وتختلف فى حدتها حال إعمال الفكر فيها: كذلك نستطيع أن نلمس استمتاعه بمعالجة الأمور الصعبة وخاصة ما اتصل منها بإظهار القوة. وكان يلعب التنس يومياً بالنادى الخديوى خلال الأزمة حتى يدعم ثقة الإنجليز بأنفسهم، ويضايق الفرنسيين وغيرهم من الخصوم الأوروبيين[861].

وعند إنتهاء الأزمة إلتمس كرومر سبل الراحة، على حين لم تعد فكة الجلاء عن مصر تحظى بنفس القبول فى إنجلترا رغم تمسك حكومة الأحرار بالفكرة[862]، ولذلك علاقة بالحملة التى نظمها كرومر لكسب الرأى العام البريطانى لتأييد وجهة نظره من ذلك إعادة طباعة كتاب ملنر: "إنجلترا فى مصر"، وكان هذا وذاك وراء تهنئة كرومر لنفسه بالنجاح فى

---

[858] CP/2, FO 633/6.
[859] 22 Jan. 1893, CP/2, FO 633/6.
[860] James, Rosebery, 279 – 80.
[861] Zetland, Lord Cromer, 191.
[862] Rosebery to Cromer, 14 Feb. 1893, CP/2, FO 633/7.

إجتذاب حكومة الأحرار إلى الإعتراف بما يراه حقائق الأمور فى مصر، وخاصة إدراك خطورة مغادرة مصر إلى الأبد، وأهمية استمرار الوجود العسكرى البريطانى فيها.

غير أن ثمة أسباب للقلق ظلت باقية، فإذا كان كتاب ملنر قد استقبل بحفاوة فى بريطانيا، فإن ترجمته العربية تركت أثراً عكسياً فى القاهرة، فقد أكد الحديث عن سياسة الحماية المقنعة التى اتبعها كرومر شكوك المصريين حول حقائق الإحتلال. فيذكر بلنت فى يومياته أن الكتاب ساعد على إجتذاب قطاعات شعبية واسعة إلى صف أعداء بريطانيا[863] وكان ذلك كافياً لإيقاظ الشعور الوطنى الذى ظل يغط فى سبات عميق منذ 1882.

وقد اعترف كرومر بالتغير الذى طرأ على الأوضاع فى مصر، واستخدمه لتبرير إرسال المزيد من القوات البريطانية إلى مصر، فكتب عن المظاهرات التى يقوم بها طلبة المدارس العليا بالقاهرة وإلى حادث قيام الجماهير بفك خيول عربة الخديو، وجرها بأنفسهم عند ذهابه لأداء الصلاة بالأزهر يوم الجمعة، ونظمت مظاهرات عدائية أمام مقر جريدة المقطم فى اليوم التالى، وأشار إلى التقارير الورادة من الأقاليم والتى تشير إلى تزايد شعبية عباس هناك[864] وكان واضحاً أن المعارضة تتزايد حتى لو كان كرومر يتعمد المبالغة فى ذلك، ولا شك أن إعادة الأمور إلى نصابها تتطلب المزيد من الوقت.

الاستعراض الأخير للقوة ونتائجه

وعبرت روح المعارضة الجديدة عن نفسها فى موجة مستمرة من النقد الموجه إلى المستشارين الإنجليز والسياسة البريطانية فى مصر.

وجاء أحد مؤشرات المعارضة فى ديسمبر 1893، عندما رفض الأعضاء غير الرسميين بمجلس شورى القوانين إتخاذ الخطوة المعتادة لمناقشة موازنة العام التالى بحجة أنها قدمت فى وقت متأخر[865] واقترحوا بعد ذلك تعديلات من بينها إلغاء مصلحة تحرير الرقيق ومصلحة السجون لإنقاص المصروفات على الأشغال العامة والخدمة السرية وإنقاص رواتب الموظفين الإنجليز، ويبدو واضحاً أنهم لم يكونوا يخوضون معركة موجهة للرأى العام فى

---

[863] Blunt, My Diaries, 85 – 6.
[864] Lutfi al – Sayyid, Egypt and Cromer, 111.
[865] Ibid, 119 – 20.

بريطانيا ومصر، فقد اختاروا القضايا التى يطرحونها بعناية حتى يمكن تبريرها فى إطار ما أصاب دخول الفلاحين من إنخفاض نتيجة تدهور الأسعار العالمية للقطن، وعبروا عن نزعتهم الوطنية بالمطالبة بإنقاص الدعم الذى تقدمه الحكومة للمسرح الأوروبى حتى تستطيع تقديم الدعم للمسرح المصرى المحلى أيضاً[866]، وحث رياض زملاءه فى مجلس النظار على رفض جميع مطالب أعضاء مجلس شورى القوانين. غير أن تلك المقترحات اعتبرت من جانب كرومر وزملائه دليلاً على قدرة عباس على إثارة الشعور الوطنى المصرى ضد الإنجليز.

عندئذ إنتقل الصراع الرئيسى إلى ساحة الأمور العسكرية، فقد كان عباس يبدى إمتعاضه من الوجود العسكرى البريطانى فى القاهرة والسيطرة البريطانية على الجيش المصرى، كما كان على علم تام بحالة السخط السائدة بين الضباط المصريين الذين كانت رواتبهم تقل كثيراً عن رواتب زملائهم الإنجليز، ولعدم توفر فرص الترقى لهم إلى ما يزيد عن رتبة البكباشى[867]، وما لبث التوتر أن تصاعد نتيجة زيادة عدد جنود الحامية البريطانية فى يناير، ثم تعيين الخديو مصطفى ماهر وكيلاً للحربية فى نوفمبر 1893. وكان ماهر وكيلاً سابقاً لمحافظة الحدود (المصرية – السودانية)، وجاءت ترقيته من بك إلى باشا لتعطى مؤشراً للضباط المصريين بأن باستطاعتهم تولى المناصب الكبرى، على حد قول عباس حلمى[868].

وأدرك الجنرال ووكر سردار الجيش المصرى والماجور ونجت WINGATE رئيس المخابرات العسكرية أن ولاء الجيش يكاد يفلت من أيديهم[869] وأيقنوا أن المسألة شديدة الحساسية فى بريطانيا وأنها تزودهم بسلاح ماض يمكن استخدامه فى الحملة الرامية إلى الحد من نفوذ الخديو، وذلك بالتذكير بثورة الهند عام 1857، وعصيان الجنود الهنود لأوامر ضباطهم الأوروبيين، كل ذلك كان كافياً لدق ناقوس الخطر فى لندن، وكتب الجنرال جريفل

---

[866] Journal official, 146 (23 Dec. 1893), suppl., Copy in Cromer to Rosebery, 24 Dec. 1893, PRO, FO 78/4516.
[867] El – Musaddy, Relations, 72.
[868] Abbas Hilmi, The Last Khedive, 82 – 3.
[869] EL – Musaddy, Relations, 91.

إلى ونجت فى 5 نوفمبر 1893 أن روسبرى سوف يؤيد أى شئ يوصون به إذا نشبت أزمة تتعلق بالسردار وضباطه الإنجليز[870].

ويبدو أن كرومر إنضم إلى الفكرة نفسها عشية عودته من الإجازة فى أكتوبر 1893، فشن على الفور حملة لإقناع روسبرى أن ماهراً ليس سوى عميل الخديو، زرعه فى الحربية لتنفيذ خطة سرية لإبعاد الجيش المصرى عن قيادته البريطانية[871]، كما بذل أقصى الجهد لدق إسفين بين رياض وعباس ليقينه بحاجته إلى رياض عندما تحين الفرصة للقيام باستعراض أخير للقوة فى مواجهة الخديو[872].

وحانت الفرصة فى يناير 1894، عندما ذهب عباس وماهر وكتشنر فى جولة تفتيشية على القوات المصرية بالصعيد التى تحرس حدود مصر الجنوبية مع السودان، ورغم الخلاف حول تفاصيل ما حدث، يبدد أن الخديو أثار عدداً من الملاحظات التى تعيب على مستوى كتائب الجيش المصرى بقيادة الضباط الإنجليز التى قام باستعراضها فى أسوان ووادى حلفا. وقد اعترف كتشنر نفسه أن واحدة على الأقل من تلك الملاحظات كانت فى محلها[873]، غير أن كتشنر (سردار الجيش) أحس بالإساءة لدرجة أنه قدم استقالته، ولكن عباس مارس ضغطاً شديداً عليه فسحبها بعد بضع ساعات. غير أن كرومر إنتهز فرصة وقوع هذا الحادث لإذلال الخديو لآخر مرة. ورغم أن عباس أبدى هذه الملاحظات عن مستوى الجيش المصرى، فقد عد ذلك محاولة للتقليل من شأن السلطة العسكرية البريطانية، ووفقاً لما ذكره كرومر فى شرح رؤيته للحادث:

"قررت إختيار ميدان المعركة فى صدام لا يمكن تلافيه، وكان ضرورياً تصعيد الأزمة إلى درجة تجعل منها موضوعاً يهم الرأى العام البريطانى، وألا تعطى فرصة التدخل لأى دولة (أوروبية) أجنبية"[874].

---

[870] Quoted ibid. 76.

[871] Zetland, Lord Cromer, 208.

[872] Marlowe, Cromer in Egypt, 173.

[873] Kitchener's report on these events can be found in Cromer to Salisbury, 28 Jan. 1894, PRO, FO 78/4574; the Khedive's, Cromer to Salisbury, 18 Feb. 1894, ibid.

[874] Cromer, Abbas II, 53 – 5.

نقل كرومر برقية كتشنر التى أعلن فيها عزمه على الاستقالة إلى روسبرى، مع التوصية بأن تصر حكومة صاحبة الجلالة على إبعاد ماهر من نظارة الحربية، وإصدار أمر يومى من الخديو يبدى التقدير لقيادة كتشنر والضباط الإنجليز للجيش المصرى[875]، فرد روسبرى على الفور بالموافقة على ذلك، واستخدم كرومر هذا الرد فى إبلاغ تيجران ورياض بالقاهرة بما يجب عمله:

"أصدر إلى اللورد روسبرى توجيهاته لإبلاغ الخديو أنه يعتبر الحادث أمراً خطيراً، فقد دأب سموه على تقريع الضباط الإنجليز ومن الصعب أن تسمح حكومة صاحبة الجلالة باستمرار ذلك... ولابد من تقديم ترضية مناسبة، فإذا لم يتم ذلك سوف يوضع الجيش المصرى تحت المزيد من السيطرة البريطانية المباشرة. وقد صدرت التعليمات بتنفيذ ما يلى: "(أ) طرد ماهر (ب) إصدار أمر يومى بتقدير الجيش المصرى وضباطه الإنجليز"[876].

وكان الخديو – عندئذ– مسافراً بالقطار فى طريق العودة إلى القاهرة، فوجد نفسه محاصراً تماماً، بعيداً عما يمكن أن يحصل عليه من دعم محلى أو دولى، وأصر رياض على ضرورة الاستجابة إلى كرومر لتجنيب الجيش المصرى الذى يعدونه مصدراً للإضطراب وعدم الإنضباط والتمرد، تجنيبه الخضوع تماماً للسيطرة البريطانية التامة، وربما تأثر رياض بتفسير تهديد روسبرى على أنه يهدف إلى فرض الحماية أو حتى ضم مصر إلى الإمبراطورية البريطانية[877]، كما أن الفرنسيين والروس لم يحركوا ساكناً لنجدة الخديو. ولذلك عندما جاءه رياض بالأخبار عند الفيوم، لم يكن أمام عباس مفراً من إقالة ماهر باشا، وطبع أمراً يومياً يعلن فيه رضاءه التام على مظهر ونظام الجيش المصرى.

ويتفق المؤرخون على أن ما سمى "بأزمة الحدود" وضع نهاية لدور الخديو عباس كقائد عام للمعارضة الموجهة ضد الوجود البريطانى فى مصر. ومنذئذ أخذ يحرض الآخرين على المعارضة دون أن يغامر بالقيام بها علانية، مما أدى إلى ضآلة نفوذه. ولكنه لم يكتف

---

[875] Ibid, 56 – 7.

[876] Cromer to Tigrane, 24 Jan. 1894, PRO, FO 78/4574.

[877] Lutfi al – Sayyid, Egypt and Cromer; 123: William Blackwood.

برعاية جيل جديد من الوطنيين والصحافيين والسياسيين، بل التمس سبلاً غير مباشرة لتأكيد الهوية الوطنية المصرية، مثل استخدام إدارة الأوقاف فى إحياء العمارة المملوكية الحديثة التى وقفت شامخة أمام النمط المعمارى الأوروبى المفضل لدى الأجانب[878]. غير أن الحماية "المقنعة" أبرزت حقيقة أن كرومر على حد قول صحافى إنجليزى زار مصر فى تلك الأيام "الحاكم المطلق" فى مصر[879].

وكانت هناك نتائج أخرى لذلك منها الاستبعاد التام للحرس القديم من السياسيين الذين لعبوا دوراً على مدى العقود السابقة فى محاصرة النفوذ الأوروبى، فاستقال رياض من رئاسة الوزراء فى أبريل 1894، وذكر لبلنت أنه فقد الثقة فى الخديو تماماً منذ حادث الحدود[880]. وخلفه نوبار الذى كان أكثر إمتعاضاً، والذى إعتقد أن الإنجليز حققوا الكثير من المكاسب خلال السنوات الأولى من حكم عباس يفوق ما حققوه طوال حكم توفيق، وذكر فى خطاب شخصى كتبه فى 5 أبريل: "أن الإنجليز ذوى الإحساس المفرط يعاملون الوزراء أو من يسمون بالوزراء معاملة المجرمين الجبناء؛ لأنهم شجعوا الخديو (على المعارضة) ثم زحفوا عند أقدام كرومر فى اللحظة الأخيرة"[881].

وكان المسكين نوبار مريضاً بالسكر ويبدو – على حد قول كرومر– "مسناً ومستهلكاً"[882]، وبعد بضعة شهور سلم آخر المعاقل التى كان يحاول حمايتها من السيطرة الإنجليزية ألا وهى وزارة الداخلية، فبينما كان كرومر يتطلع منذ وقت طويل لفرض السيطرة الإنجليزية عليها، قدم جورست (الذى تحمس لإعادة نوبار إلى الوزارة) مشروعاً أثار إعجاب دار المعتمد البريطانى، يرمى إلى تعيين مفتشين إنجليز جدد للشرطة يتولون الإشراف على الأمن والإدارة على مستوى البلاد كلها بما فى ذلك الأقاليم والقرى[883] وكجزء من المشروع

---

[878] Andre Raymond et al. (eds.), caire L'art et les grandes Civilisations: L,es grandes cites (Paris: Citadelles & Mazenoud, 2000), 401; Donald Malcolm Reid, Whoes Pharaohs ? Archaeology, Museums, and Egyptian National Identity from Napoleon to world war 1 (Berkley: University of California Press, 2002), 239 – 42.

[879] G. W. Stevens, Egypt in 1898 (Edinburgh: William Blackwood, 1898), 64.

[880] Blunt, My Diaries, 135.

[881] From Nubar's unpublished memories, quoted in Berque, Egypt, 169.

[882] Cromer to Kimberley, 2 June 1894, CP/2, FO 633/6.

[883] Mellini, Gorst, 48 – 50.

يصبح جورست مجرد "مستشار" بالوزارة، فقال نوبار تعليقاً على ذلك "لم تعد هناك حكومة مصرية"[884].

وأتاحت هزيمة الحرس القديم الفرصة أمام ظهور شخصيات سياسية جديدة، نال الكثير منهم تشجيع الخديو ودعمه المالى، من بينهم مصطفى كامل، تلميذ مدرسة الحقوق الذى قاد المظاهرات أمام جريدة المقطم فى يناير 1893، والشيخ على يوسف محرر "المؤيد" الجريدة الوطنية الرئيسية، وما لبث الرجال الجدد أن وثقوا علاقتهم بالجيل السابق من الشخصيات الوطنية الثورية مثل عبد الله النديم الذى كان معارضاً شديداً للسيطرة الأوروبية منذ السبعينيات (ق 19) وأصبح محرراً لمجلة "الأستاذ" بعد عودته إلى مصر[885].

ويبدو أن كرومر كانت لديه معلومات جيدة عن نشاطهم مع ظهور إسم مصطفى كامل بشكل منتظم فى تقاريره باعتباره مهيجاً يجب ملاحظة نشاطه، وليس بصفته باعثاً لتيار جديد من الوطنية المصرية كما اتضح بعد حين[886]، وتجلت مهارة مصطفى كامل فى التفكير فى القيام بحركة دعائية هدفها إحراج عدوه البريطانى، فقد كتب إلى جلادستون – الذى كان قد تقاعد– يدعوه إلى توجيه النقد إلى الإحتلال. ونشر مقالاً تحدث فيه عن لقائه والتر – شقيق كرومر– على باخرة متجهة إلى مصر، وذكر أن شقيق اللورد أكد له أن الإنجليز جاءوا إلى مصر ليبقوا فيها[887].

وعلى كل، كان كرومر يرى عندئذ أن انتصاره على الخديو لم يكن كاملاً. فقد كتب إلى اللورد كمبرلى Kimberley – خليفة روسبرى فى الخارجية– فى أبريل 1894، أن عباساً لم يتغير بأى حال من الأحوال، ورأى أن الحاجة قد تدعو – مستقبلاً– إلى إختيار بديل له[888]. ومنذ ذلك الحين، تكررت الإشارة فى تقارير كرومر إلى سوء تصرفات الخديو، وراح هارى بويل ينقب فى تاريخ أسلاف عباس، ويسعى وراء أسراره الشخصية وعائلته[889]. ومن ذلك

---

[884] Nubar, Letter of 27 Nov. 1894, quoted in Berque, Egypt. 169.

[885] Arthur Goldschmidt Jr., "The Egyptian Nationalist Movement" in P. M. Holt (ed.), Political and Social Change in Modern Egypt (London: Oxford University Press, 1968), 311 – 12.

[886] e. g. Cromer to Salisbury, 28 Jan. 1896, PRO, FO 78/4761.

[887] الأهرام 28 يناير 1896.

[888] 20 Apr. 1894, CP/2, FO 633/6.

[889] Storrs, Orientations, 68.

خطاب كرومر إلى اللورد لاندسداون Landsdowne عام 1900 الذى ذكر فيه أن جميع أفراد العائلة الحاكمة التى ينتمى إليها عباس "منحطون"، فجده الأعلى إبراهيم "كان بكل تأكيد قاتلاً مختلاً"، وكان والده "مجمع أمراض"، وجمعته قرابة الدم مع زوجته، وأخاً يعانى من "نوبات الصرع"[890] وإذا كان ذلك نوعاً من الذخيرة التى يدخرها كرومر لحين وقوع ما يدعو إلى استخدامها، فإننا لا نستطيع أن نغفل دلالتها، فهى تعبر عن محاولة كرومر إقناع الآخرين بما استقر فى ذهنه من أن الحركة الوطنية المصرية ليست ظاهرة حقيقية ولكن مجرد أفعال عرضية شجعها ما لقيته من دعم الخديو.

ويذكر رنل رود Rennell Rodd الذى عمل دبلوماسياً بدار المعتمد البريطانى منذ مايو 1894، أنه وجد اللورد كرومر لا زال "يشعر بالإكتئاب حول مستقبل مصر"، شاعراً أن هناك ما يوحى بالنهاية المرتقبة، وأن كل ما يمكن عمله هو تنمية موارد البلاد فى ظل الأوضاع المائعة التى فرضها غياب سياسة بريطانية محددة، وأن ذلك يزداد صعوبة بالنظر إلى الإتفاق الفرنسى – الروسى الذى يستغله الخديو المعادى للإحتلال"[891].

غير أن كرومر تلقى أخباراً طيبة من مصر خلال قضائه إجازته بإسكتلندا، فقد تم إلقاء القبض على بعض الباشاوات من بينهم على باشا شريف – رئيس مجلس شورى القوانين قطب المعارضة لكرومر – لشرائهم بعض الجوارى، وكان شريف وراء الإصرار على الإلغاء الجزئى لمصلحة تحرير الرقيق أثناء مناقشة الموازنة فى الشتاء السابق على أساس أن الموظفين الأوروبيين بتلك المصلحة يتقاضون رواتب كبيرة، وأنه لم تعد هناك حاجة لتلك المصلحة. وإن كانت تعليقات كرومر التى ضمنها خطابه إلى بارنجتون Barrington السكرتير الخاص لرئيس الوزراء قد صيغت بعبارات محسوبة بدقة:

> "إننى لا أرى فيما ارتكبوه أمراً بالغ الخطورة، فالباشاوات القدامى لا يرون غضاضة فى شراء العبيد، فجميع أعمالهم غير قانونية فى الوقت نفسه، أضف إلى ذلك أن القضاء التام على تجارة الرقيق فى مصر لا يمكن تحقيقه إلا بإنهاء الطلب عليه الذى يتركز فى طبقة الباشاوات".

---

[890] 9 Nov. 1900, CP/2, FO 633/6.

[891] Rennell Rodd, Social and Diplomatic Memories, 1894 – 1901, 11 – 12.

واقترح كرومر أنه عند النظر فى القضية أمام محكمة عسكرية يطلب من السردار تعيين ضابط موثوق به، يفضل أن يكون مصرياً فى هيئة المحكمة للتأكد من أن الباشاوات لن يتم إبراء ساحتهم أو توقيع عقوبة خفيفة عليهم لمجرد كونهم باشاوات[892]، وأنه لا حاجة لبذل المزيد من الجهد لأن الحقائق أصبحت واضحة أمام الرأى العام البريطانى، فقد بدت المعارضة المصرية – مرة أخرى– فى صورة من يطلق الرصاص على قدميه.

وقد زعم على شريف باشا أنه يحمل الجنسية الإيطالية حتى يفلت من المحاكمة، ولكن السلطات الإيطالية خذلته، غير أن ذلك أخر محاكمته مع الآخرين، وعوقب أحد الباشاوات بالسجن لمدة خمسة شهور، وبرئ الباشا الآخر، وحكم على تاجر الرقيق بالأشغال الشاقة لمدة خمس سنوات، وأودع خمس من الجوارى ببيت الجوارى المعتقات[893]، أما شريف باشا فقد أعفى من المحاكمة لمرضه مقابل اعترافه بأنه قد إشترى ثلاثاً من أولئك الجوارى[894].

وحاول الأعضاء غير الرسميين بمجلس شورى القوانين متابعة توجيه النقد إلى الموازنة الجديدة فى ديسمبر 1894، فى غيبة شريف باشا، فأثاروا الموضوعات التقليدية: تخفيض الإعتماد الخاص بالمصاريف السرية، والحد من استخدام اللغات الأجنبية فى الدوائر الحكومية، وتخفيض الضرائب على الأطيان بسبب استمرار الكساد الإقتصادى[895]، وشجع كرومر نوبار على إنتقاد الأسلوب الذى طرحته الإنتقادات فى تقرير مجلس النظار[896]، ولكنه وازن ذلك بتقديم بعض التنازلات فى بعض الحالات التى كان فيها النقد – على حد تعبيره– "له ما يبرره"[897]، وعلى كل فقد تم تجاهل معظم ما أثاره أعضاء المجلس من إعتراضات، ولعل ذلك التصرف كان وراء اقتصاد أعضاء المجلس فى توجيه الإنتقادات إلى موازنة 1895، وأحياناً كان كرومر يدرك حقيقة أن عباساً لم يعد باستطاعته إثارة

---

[892] 31 Aug. 1894, PRO, FO 78/4596.

[893] Eve Marie Troutt Powell, "Colonized Colonizers: Egyptian Nationalists and the Issue of the Sudan, 1875 – 1917', PH. D. Thesis (Harvard 1995) 144 – 62.

[894] Egyptian Gazette, 29 Sept. 1894.

[895] Cromer to Kimberley, 2 Jan. 1895, PRO, FO 78/4668.

[896] Cromer to Kimberley, 4 Jan. 1895, PRO, FO 78/4668.

[897] Cromer to Salisbury, 2 Dec. 1895, PRO, FO 78/4669.

المتاعب[898] كما كف مجلس شورى القوانين عن إثارة الكثير من الإنتقادات، فيما عدا إنتقاد سياسة التعليم التى ظلت وراء تأجيج الشعور الوطنى حتى استقالة كرومر عام 1907.

حكاية قصرين

كان من المصادفات الطريفة أن انتصار كرومر على عباس جاء فى الوقت نفسه من شتاء 1893 – 1894 الذى إنتقل فيه وأسرته والعاملين معه إلى المقر الجديد لدار المعتمد البريطانى بقصر الدوبارة على ضفة النيل، الذى يقع على بعد مئات الياردات من ثكنات الجيش البريطانى بالقرب من جسر قصر النيل، كما يبعد أقل من ميل واحد عن قصر عابدين، وأصبح المبنيان: قصر الدوبارة، وقصر عابدين يمثلان قطبا الحياة السياسية فى مصر، الأول مقر "الحاكم الفعلى" الذى تسنده قوات عسكرية تقف على أهبة الاستعداد. ويستطيع أن يعززها بقوات من مختلف أنحاء الإمبراطورية، أما القصر الآخر، فيقيم به الحاكم الذى لا حول له ولا صول[899]. وعلى الصعيد العام، حاكى كل قصر منهما الآخر فى إقامة الحفلات للساسة ورجال السلك الدبلوماسى، وفى توزيع الأوسمة والنياشين، ويظهران للناس بعرباتهما التى تطوف أنحاء القاهرة، أو من خلال جولاتهما بالأقاليم.

وقد قام بتصميم مبنى قصر الدوبارة المهندس المعمارى بويس Boyce من وزارة الأشغال البريطانية، وتكلف بناءه وتأثيثه 40 ألف جنيه إسترلينى، وكان مبنى لافتاً للنظر له شرفة كبيرة فى الواجهة، وشرفات أخرى بالطابقين الأول والثانى على الواجهة الغربية التى تقع على النيل (ولذلك كانت أطيب هواء)، وجعل المدخل الرئيسى مواجهاً للمدينة من الجهة الشرقية. وإلى يسار المدخل داخل المبنى يقع مكتب كرومر والديوان حيث يعمل الدبلوماسيون والموظفون، وحجرة الطعام، وإلى اليمين تقع قاعة الاستقبال وقاعة الرقص. واحتل مقر إقامة عائلة كرومر النصف الشمالى من الطابق الأول بكامله، ويضم حجرات النوم، وغرفتين للملابس، وحماماً، وحجرة العمل، وخزانة كبيرة مكشوفة للثياب، وكانت هناك حجرة كبيرة للضيوف، وحجرة جلوس للزوار المتميزين تطل على النيل، وغرف نوم أخرى

[898] Ibid.
[899] Steevens, Egypt in 1898, 68.

على طول الواجهة[900]. وزينت الدار ببساطة، وطليت جدرانها باللون الأبيض الناصع وأثثت بمناضد خشبية ومقاعد بيضاء اللون[901] وهناك جناح للخدم من طابقين ينزوى بعيداً عن مرمى البصر فى الركن الجنوبى الغربى.

وما لبث أن اتضح أن الدار قد بنيت على عجل بتكلفة بسيطة، مما جعل كرومر يقضى سنوات فى الإشراف على إصلاح ما اكتشف من عيوب، أو إضافة ما أهمل تنفيذه فى التصميم الأصلى للمبنى[902]، وكان هناك الكثير مما يتطلب إنجازه فى الحديقة الكبيرة التى تقع بين الدار وضفة النيل، وتولت إيثل الإشراف على تنظيم الحديقة ورعايتها[903]. ولذلك لم تكن السنوات الخمس الأولى للإقامة فى قصر الدوبارة مريحة، ولم تتميز بما حدده روبرت كير فى كتابه عن تصميم دار مثالية للمقيم البريطانى فى المستعمرات من متطلبات (صدر 1864)، ورأى أن الدار يجب أن تجمع بين وسائل الراحة المتاحة فى إنجلترا وسهولة الاستخدام[904]، فقد تمت التضحية بالكثير من المتطلبات لتوفير النفقات التى تتحملها الخزانة البريطانية، والحرص على إقامة دار تعكس طابع الهيمنة البريطانية على مصر[905]، وعلى كل، فقد كان آل كرومر يعتبرون الدار "بيتهم" فى القاهرة.

ففى تلك الدار مارس إيفلن وإيثل حياتهما الخاصة والعامة معاً، يعاملان طاقم الدار باعتبارهم أعضاء فى أسرتهم الكبيرة، وقد كتب كلينتون داوكنز Dawkins إلى ملنر واصفاً الطابع العائلى للدار: "لا أظن أن هناك شخصين يعيشان تماماً لنفسهما ولأولادهما مثل اللورد والليدى كرومر"[906] فكانت الدار مكاناً للراحة بعد انتهاء العمل، ويصف هوراس رامبولد Horace Rumbold الذى خدم بالقاهرة ملحقاً ثم سكرتيراً ثالثاً فيما بين 1892 –

---

[900] Plan in F. A. Huntley, H. M. Diplomatic Agency, Cairo', May 1894 (copy in the chancery of The British Embassy, Cairo). Huntly was the local Superintendent of works who acted as Surveyor. There is much the same layout today except that the Ambassador's Study and the Chancry offices are now in a new building next door.

[901] Thomas S. Harrison, The Homely Diary of A Diplomat in the East 1897 – 1899 (Boston Houghton Mifflin, 1917), 28, 69.

[902] e. g. Cromer to Lord Esher, 23 Nov. 1899, CP/2, FO 633/8.

[903] Cromer to Boyce, 12 June 1897, CP/2, FO 633/8.

[904] Karen Chase and Michael Levenson, The Spectacle Intimacy: A Public Life for the Victorian Family (Priceton: Princeton university Press, 2000), 159.

[905] Dawkins to Milner, 16 Aug. 1896, quoted in Mellini, Gorst, 55.

[906] Ibid.

1895، يصف كرومر بأنه كان شديد الحدب على ولديه، يعشق الموسيقى، وكثيراً ما تجده يجلس إلى البيانو يعزف إحدى مقطوعات شتراوس أثناء انتظاره للعشاء[907]. ويذكر أنه استعار حزام الوسط من كرومر وبعض مجوهرات من إيثل، ليحضر وزوجته حفلاً راقصاً بالملابس الفاخرة أقامه كتشنر[908]. ويذكر موريس بارنج قريب كرومر الذى أقام بالدار أثناء زيارته لمصر فى نوفمبر 1896، إنه كان يتناول الإفطار المكون من البيض الصغير والموز فى الشرفة العليا لغرفته المطلة على النيل، وهو يستمع إلى عمه يقرأ بصوت عال بعض "البذاءات" المنشورة ضده بالصحف المصرية[909].

كل ذلك يسهم فى إبراز الجانب الخاص الرقيق فى شخصية كرومر الذى كان خافياً عن الغرباء، فظلت إيثل ترى فيه دفء المشاعر وحساسيتها التى لم يسمع الغير عنها[910]. وعده رامبولد "جذاباً دائماً فى أعين معاونيه" يعبر عن ثقته بهم من حين لآخر[911]، وفوضهم القيام بجانب كبير من العمل، وأعطى لمن يبقون بالقاهرة صيفاً حق إدارة أمور دار المعتمد وفق ما يرونه مناسباً فى غيبته أثناء إجازة الصيف الطويلة[912]. وقد ذكر كرومر ذلك بوضوح لأحد معاونيه:

> "يجب أن تفهم يا عزيزى هاردنج أنه عند قيامى بالإجازة تصبح أنت المسئول الوحيد، وإننى سوف أمتنع عن الإجابة عن أى سؤال يتعلق بمصر. وإذا كتبت لى تسألنى ماذا تقول أو تفعل مع تيجران أو الخديو، فسوف أجيبك بأننى مشغول بصيد السمك فى كيثنس شاير، ولا أعرف شيئاً تماماً عن أولئك الأفراد"[913].

---

907 Gilbert, Sir Horace Rumbold, 20 – 1.
908 Ibid, 16.
909 Baring, Puppet Show of Memory, 168 – 9.
910 e. g. extract from Scott Moncreiff's diary for 26 Oct. 1891 in Hollings (ed.), Life of Sir Colin C. Scott Moncreiff, 267.
911 Gilbert, Sir Horace Rumbold, 11.
912 Rennell Rodd, Social and Diplomatic Memories, 1894 – 1901, 59.
913 Harrison, Homely Diary of a Diplomate in the East, 42.

غير أن الغرباء ظلوا ينفرون منه، ويضايقهم ما عرف به من فظاظة لعل مردها إلى مظهره وقوة شخصيته، حتى بالنسبة لشخصين مهمين مثل كتشنر والجنرال راندل فقد أخبرنا رنل رود أنهما عندما يقتربان من باب مكتب كرومر "يشعران بالرهبة والتوجس"[914].

ويؤكد وصف نظام العمل اليومى بالدار التداخل بين ما هو رسمى وما هو عائلى. فما يذكره رنل رود عن أحد أيام منتصف التسعينيات أن كرومر يتناول إفطاره مبكراً، ويتجه إلى مكتبه حيث يعد مسودات البرقيات ويملى مجموعة من المراسلات يأخذها معاونوه لصياغتها بلغة واضحة، ثم يأتى الزوار: المستشار المالى البريطانى الذى كان همزة الوصل بين المعتمد البريطانى ومجلس النظار، ورؤساء مختلف المصالح الحكومية، ثم الوفود التى تمثل الأعيان، وعلماء الأزهر، وأعضاء مجلس شورى القوانين الذين يتولى بويل تقديمهم للورد ثم يقوم بالترجمة أثناء حديثهم معه. ويتناول طاقم الدار طعام الغداء مع آل كرومر على مائدة واحدة، يلى ذلك الخروج بالعربة التى تجرها الخيول إلى الحقول القريبة من الأهرام أو إلى المقطم حيث يسير كرومر على قدميه بصحبة بويل أو رونل رود أو غيرهما من الدبلوماسيين العاملين معه. وغالباً ما كان يفكر بصوت عال أثناء المشى فى المشاكل التى يواجهها أو يدخل مع مرافقه فى مناقشة عامة حول ما يجب عمله[915]، وتضمنت التسلية لعب التنس بنادى الجزيرة. ولاحظ رامبولد أن كرومر كان يكره الهزيمة فى اللعب، كما أن لعب التنس يعطيه فرصة استخدام الكلمات العربية المحدودة التى يعرفها، فيصيح منادياً الصبى الذى يقوم بجمع الكرات: "ولد.. كورة"[916].

وكان الكثير من أمسيات موسم القاهرة حافلاً بالأنشطة الترويحية: كحفلات الاستقبال، ودعوات العشاء، وحفلات الرقص بالملابس الرسمية (التى كانت تضم أحياناً 600 مدعو)، أو القيام بزيارات منزلية. وتمتع مطبخ الدار بشهرة خاصة، فيذكر رامبولد أن أول وجبة تناولها بدار المعتمد القديمة بدأت بطبق لسان الغزال ثم كان الطبق الرئيسى الجمبرى بالكارى الذى يجيده طاهى الدار[917] ويكتب توماس هاريسون القنصل الأمريكى عن عشاء

[914] Rennell Rodd, Social and Diplomatic Memories, 1894 – 1901, 5.
[915] Ibid, 59 – 60.
[916] Gilbert, Sir Horace Rumbold, 12.
[917] Ibid, 12.

دعى إليه عام 1897 بدأ بالحساء الذهبى، يليه طبق شريحة لحم العجل، وطبق صدور البط البرى البارد، وأخيراً الحلوى والآيس كريم[918]. وكان كرومر يولى قائمة الطعام إهتماماً كبيراً، وأثناء الإجازة فى إنجلترا يحرص على شراء مستلزمات الطعام التى يحملها معه إلى القاهرة لتستهلك فى الشتاء مثل لحم الخنزير المقدد[919]. وكان يحرص دائماً على ملاحظة مدى إقبال ضيوفه على تناول الطعام. وهذه العادة ربما كانت وثيقة الصلة بقصة غريبة تروى، بطلها أمير ويلز أثناء الزيارة التى قام بها لمصر عام 1889، فقيل أنه نادى كرومر على المائدة طالباً: "المزيد من هذا الكارى الممتاز" فرد عليه كرومر: "من الخير لك أن تكتفى بما أكلت لأنه ثقيل، وقد أكلت إثنين منه بالفعل"[920]. وكان يقوم على خدمة المائدة فى التسعينيات خدم هنود بعمائم بيضاء وصديرات مطرزة بالذهب، واستبدل بهم عام 1900 خدم مصريين يرأسهم إنجليزى، عندما أصبحت تكاليف استخدام الهنود أكبر مما تتحمله ميزانية كرومر[921].

وكان الضيوف عامة من الأوروبيين: الدبلوماسيون، ومندوبو صندوق الدين العام، وقضاة المحاكم المختلطة، وبعض كبار المحامين، وضباط الجيش البريطانى، والموظفون البريطانيون، وبعض كبار زوار مصر فى موسم الشتاء. وكان عدد الضيوف من المصريين محدوداً[922]. ويبدو أن الكثير من الضيوف كانوا يشعرون بهيبة المناسبة وما اشتهر به اللورد كرومر من قلة الحديث مع زواره، وما يقال عن تحفظه المهذب، الذى وصفه مابل كيلارد Mabel Caillard بأنه "يحتفظ ببشاشته لما بعد الحفلات"[923] غير أن كرومر استطاع بمعاونة إيثل أن يقيم عدداً من المناسبات بما فيها الرقص بالملابس الرسمية، وأن يظل واقفاً حتى نهاية الرقصات التى تستمر أحياناً حتى الرابعة صباحاً[924].

---

[918] Harrison, Homely Diary of a Diplomat in the East, 35.
[919] Rennell Rodd, Social and Diplomatic Memories, 1894 – 1901, 11.
[920] Boyle, A Servant of Empire, 58.
[921] Boyle to Mrs. Boyle, 10 Sept. 1900, BP, box B, File 3.
[922] Boyle, A Servant of Empire, 51.
[923] Caillard, A Lifetime in Egypt, 117 – 18.
[924] Ibid.

وكان من بين واجبات السكرتير الثالث مساعدة إيثل فى إعداد الترتيبات اللازمة لتلك المناسبات داخل دار المعتمد وخارجه[925]، وتضمن ذلك الحفلات التى تقيمها المؤسسات الخيرية المحلية برعاية كرومر، ومن بينها الحفل المسرحى للهواة الذى يقام سنوياً لجمع التبرعات لجمعية الرفق بالحيوان (التى أنشئت عام 1894) حيث تعرض فرقة الهواه إحدى أوبرات جيلبرت أوسوليفان[926]. وقام جورست – الذى كان ممثلاً هاوياً بارعاً– بمساعدة إيثل فى ترتيب بعض تلك الحفلات المسرحية[927].

وإذا كان المساء خالياً من مثل تلك المناسبات، أو لم تكن هناك دعوات خارجية لحضور مناسبات رسمية أو مشاهدة إحدى حفلات الأوبرا. تقضى الأسرة المساء مع الأصدقاء وطاقم العمل بالدار فى لعب الورق أو فى المناقشات الأدبية مع كرومر، ويذكر رامبولد أن كرومر كان يتمتع بذاكرة قوية جعلته يتذكر كل ما يقرأ، وكان معجباً بديكنز ويستطيع إجتياز أى إختبار فى أعماله، كما أحب الروايات الفرنسية والمذكرات، والشعر الإنجليزى الخاص بالقرن الثامن عشر[928] ولاحظ رنل رود أنه كان لا يستسيغ الشعر الحديث وخاصة أعمال براوننج Brawning[929] وقدم آخرون صورة أكثر تقديراً لقراءاته، بينما تكشف مراسلاته الرسمية عن متابعته للسير الذاتية التى نشرت فى عصره، كما تكشف مراسلاته الخاصة عن تبادل الروايات مع أصدقائه وأقاربه[930] فقد أعاره اللورد نورثبروك رواية إميل زولا الجديدة "روما"[931].

وفى أيام العطلة الأسبوعية، كان يخرج بعربته إلى منطقة هرم سقارة المدرج أو إلى حدائق القناطر الخيرية، حيث كان الموقعان من أفضل الأماكن عند أسرته للقيام برحلة قصيرة[932].

وما لبث قصر الدوبارة حيث دار المعتمد البريطانى الذى أطلق عليه القاهريون إسم "بيت اللورد"، أن أصبح مركزاً لنظام على درجة عالية من الفردية فى حكم مصر، وكان كرومر لا

---

[925] Gilbert,Sir Horace Rumbold, 12.
[926] Caillard, A Lifetime in Egypt, 127 – 8.
[927] Mellin, Gorst, 75.
[928] Gilbert, Sir Horace Rumbold, 21; St Loe Starchey, The Adventure of Living, 370.
[929] Rennell Rodd, Social and Diplomatic Memories, 1894 – 1901, 56 – 7.
[930] Baring, Puppet Show of Memory, 168 – 9.
[931] Northbrook to Cromer, 11 Nov. 1896, CP/2, FO 633/11.
[932] e. g. Boyle to Mrs. Boyle, 17 Jan. 1897, BP, box B, file 1: Letters to Mother 1896 – 97.

يحتفظ إلا بالقليل من الوثائق المكتوبة التى تتصل بعلاقته بالإدارة المحلية، مفضلاً الإحتفاظ بها فى ذاكرته، وذلك على نقيض الجانب الدبلوماسى من عمله الذى يوثق دائماً[933] وقد عد ذلك دليلاً على قوة النظام الكرومى الذى قضى على ما تسببه المحررات الإدارية من تأخير وسوء فهم[934]، ولم يستخدم كرومر إلا عدداً محدوداً من الأفراد لمعاونته. وفيما يتعلق بالإتصال المباشر مع الحكومة المصرية فضل أن يتم ذلك من خلال موظف بريطانى واحد: إلدون جورست، ثم إلوين بالمر، ثم كلينتون داوكنز، وأخيراً وليم جارستن، فلعب كل منهم هذا الدور لفترة معلومة. وأرجع داوكنز ذلك إلى كراهية كرومر للكسل الذى دفعه للعمل من خلال رجل واحد، وأن يستمع إليه وحده كمصدر للمعلومات[935].

وعلى النهج نفسه وضع بارنج الإطار العام للسياسة فى مصر، فكان الزوار من الأوروبيين من رجال الصحافة ورجال الأعمال من إختصاص رئيس الديوان، وترك لهارى بويل مهمة التعامل مع رجال الصحافة المصريين، وتلقى سيل هائل من الإلتماسات والشكاوى المقدمة من المصريين، وبمرور الزمن أصبح بويل يتولى إعداد كل المعلومات المتعلقة بالرأى العام المصرى السياسى والدينى التى يتولى جمعها من خلال إتصالاته الشخصية وشبكة من العملاء السريين ومصادر المعلومات. ولكن هذا الوضع لم يكن يبعث على الإرتياح، ففى أواخر الثمانينيات أصبح بويل – الذى كان شاباً فى العشرينيات من عمره– المصدر الوحيد المهم الذى يستقى منه كرومر المعلومات ويتلقى فيه المشورة فى كل ما اتصل بالرأى العام الشعبى والدينى. ومما زاد الأمر سوء أن بويل حرم نفسه من التعرف على الرؤى الخارجية، فقد قضى السنوات التسع الأولى من خدمته فى القاهرة دون أن يحصل على إجازة، ولم يغب عن دار المعتمد البريطانى سوى مرة واحدة حصل فيها على إجازة قضاها فى إنجلترا، ثم لم يترك مصر بعدها إلا بعد استقالة سيده عام 1907.

ولعب قصر الدوبارة دوراً باعتباره قاعدة لفرض نفوذ كرومر بالقاهرة والأقاليم، فما لبث كرومر أن أصبح شخصية معروفة فى القاهرة، يجول خلالها بعربة مكشوفة مرتدياً السترة

---

[933] Rennell Rodd, Social and Diplomatic Memories, 1894 – 1901, 29; Mellini, Gorst, 99; Boyle to Tommy, 30 Oct. 1899 BP, box B, file 3.

[934] Eldon Gorst, Lord Cromer in Egypt (1905), quoted in Mellini, Gorst, 88.

[935] Dawkins to Milner, 16 Aug. 1896, quoted in Mellini, Gorst, 55 – 6.

الطويلة الرمادية، معتمراً قبعة بيضاء، حوله كوكبة من الخدم يرتدون زياً بنى اللون، وأمام عربته يجرى القواص معلناً إسمه آمراً المارة بإفساح الطريق له[936]. وتروى الأميرة نازلى فاضل أن الخديو توفيق سمع صيحات القواص من نافذة قصر عابدين، فإكفهر وجهه وتمتم قائلاً: "ترى.. ما الذى جاء يطلبه منى ؟"[937] كما أن كرومر وإيثل وجميع العاملين بدار المعتمد كانوا يحضرون جميع العروض العسكرية البريطانية التى أقيمت بميدان عابدين أمام القصر، وهى عروض قصد بها التذكير بالمركز الحقيقى للسلطة فى مصر، ولاحظ القنصل العام الأمريكى أن "أى صورة للقاهرة لا يظهر فيها جندى تعد ناقصة، فالطابع العسكرى واضح بصورة ملحة.. فسرايا الجند وفصائلهم تسير فى شوارع القاهرة من آن لآخر، حتى يحس الزائر أن القاهرة قد تحولت إلى معسكر حربى"[938].

ويمكن أن نقف على استخدام كرومر للحضور العسكرى الدائم فى شوارع القاهرة من الوصف المعاصر للإحتفالات التى أقيمت بمناسبة العيد الستين لحكم الملكة فيكتوريا فى يونيو 1897. ففى يوم الأحد السابق على موعد الإحتفال، خرج كرومر بموكبه من قصر الدوبارة لحضور القداس الذى أقيم بهذه المناسبة بكنيسة جميع القديسين. وبعد يومين (يوم الإحتفال نفسه) حضر العرض العسكرى البريطانى الذى أقيم أمام قصر عابدين، راكباً عربة يرافقها جنود الكتيبة 21 من حملة الرماح، وهناك تلقى التحية الملكية، وقام بتوزيع الأوسمة والنياشين، ورأس استعراض القوات البريطانية، وعاد إلى دار المعتمد ليستضيف الجالية البريطانية فى حفل استقبال أقامه هناك، وفى عصر اليوم نفسه حضر احتفالاً بريطانياً أقيم بحديقة الأورمان بالجيزة، أعقبه حفل عشاء أقامه قائد القوات البريطانية بفندق الكونتننتال، ثم عاد إلى احتفال حديقة الأورمان فى تمام العاشرة مساء. وحرص الإنجليز – فى الوقت نفسه– على أن تغمر الأضواء المتلألئة مدينة القاهرة منها خط طويل أمام دار المعتمد على شاطئ النيل وحرفى VR بحجم هائل مضاء باللمبات الملونة وضع فوق القلعة حتى يشاهد فى كل ركن من أركان المدينة، واكتمل المشهد بألعاب نارية أقيمت فوق المقطم مع طلقات

[936] Rennell Rodd, Social and Diplomatic Memories, 1894 – 1901, 60.
[937] Storrs, Orientations, 52.
[938] Frederick Penfold, quoted in Mellini, Gorst, 96.

المدافع بالتحية[939]. ومن الصعوبة بمكان أن نتخيل غزواً أكثر من هذا لفضاء الخديو. ولا يمكن أن يكون سكان القاهرة قد غابت عنهم طبيعة الوجود البريطانى فى عاصمة بلادهم.

وبذلك يمكن النظر إلى دور كرومر فى مصر كمتمم للدائرة التى بدأت بمشاركته فى الجهود الرامية إلى الحد من السلطة الفردية للخديو إسماعيل فى أواخر السبعينيات، ثم بدأ يقيم الطابع الخاص للحكم الفردى الذى مارسه بنفسه مع وجود الإحتلال، وذلك واضح تماماً لا لبس فيه ولا غموض، ولما كان قد اقتنع بأن ذلك ما تتطلبه ظروف مصر الخاصة، راح يردد ذلك فى مراسلاته الرسمية كلما أتيح له تحديد معالم المشهد المصرى[940]، وقبل الكثير من الإنجليز هذه الفكرة، بل ودافعوا عنها أيضاً فها هو ذا المدعو فيتزروى بل FITZROY BELL الذى كان من خبراء التعليم، قام بزيارة لمصر، وكتب عام 1902: "إن الاستبداد هو نظام الحكم الوحيد المناسب لمصر، لأن من يديرون أمور الحكم دون أن يكون لديهم برلمان، عليهم أن يبرروا عملهم أمام العالم المتحضر. وكذلك أمام محكمة التاريخ"[941].

وليس هناك إلا أفراد قلائل من أولئك الذين عملوا بالقرب من كرومر، أشاروا – بقدر كبير من الخصوصية– إلى بعض ما يتضمنه ذلك من أخطار، فقد لاحظ كلينتون داوكنز فى نظارة المالية أن "الرجل يفقد بعض ما لديه إذا اعتبر نفسه لا غنى عنه، ولكن كرومر ليس على استعداد أن يتحمل مشقة رؤية الأمور بعينيه هو على نحو ما تشير مذكراته إلى أنه كان يفعل ذلك من قبل"[942] ويكتب رنل رود فى وقت لاحق عندما أصبحت سلطة كرومر "فردية تماماً" تؤدى إلى التطور فى اتجاه الطابع الأوتقراطى الذى يقابل بالرفض التام"[943].

ولا يبدو واضحاً أن كرومر قد أدرك حقيقة الغواية البغيضة التى يخضع لها لا محالة الشخص الذى يجمع فى يده سلطات واسعة. فلابد أن يكون قد قرأ الكثير من الأعمال الأدبية الضخمة التى تناولت الموضوع من ثيوكليدس إلى ميكيافيللى. وشكسبير، وجيبون، واللورد أكتون. ومن ناحية أخرى، كان شديد التباهى بأنه يسمح لمعاونيه من الشباب بإبداء

---

939 Egyptian Gazette, 22 June 1897.

940 e. g. Cromer to Salisbury, 8 May 1896, CP/2, FO 633/6.

941 R. Fitzroy Bell, "Education in Egypt", Nineteenth Century and After, 52 (July – Dec. 1902), 412.

942 Dawkins to Milner, 18 Sept. 1896, quoted in Marlowe, Cromer in Egypt, 232.

943 Rennell Rodd, Socail and Diplomatic Memories, 1894 – 1901, 18 – 19.

آرائهم بحرية تامة[944]، كما أنه يعرب عن إيمانه التام بأن حكام الأسرة الخديوية هم الذين ارتكبوا خطيئة الحكم الفردى، أو أنهم سوف يفعلون لو سمح لهم بذلك، وبادر بتوجيه النقد إلى رياض؛ لأنه عجز عن رؤية حقيقية أنه "تحت حكم القانون، لا يستطيع دائماً أن يتصرف وفق هواه"[945].

غير أننا لو أردنا أن نحكم عليه من واقع أعماله، فإن كرومر لم يكن مدركاً للأخطار الناجمة عن اعتماده على حفنة من الأفراد يستمد منهم وحدهم معلوماته عن حياة وتطلعات أولئك الذين يتولى حكمهم، كما أنه لم يدرك أيضاً أن تماديه فى ربط كل ما يجرى فى مصر بشخصه، جعله عرضة للنقد من جانب الرأى العام فيما يتعلق بكل جانب من جوانب المسألة المصرية سياسياً وإدارياً، ولعله كان لديه تركيز غير متوازن على مصر عبر عنه سولسبرى فى تعليقه الشهير: "إذا كان العالم يتمزق إرباً أمام ناظريه، وبقيت مصر على حالها، لما طالب كرومر بالمزيد"[946].

ظلت إيثل تلعب دوراً حيوياً – كعادتها– فى الحياة العامة والخاصة لدار المعتمد البريطانى، وإزدادت ثقة من الناحية الإجتماعية مع تراكم الخبرة لديها والتقدم فى العمر، فتولت تنظيم كل المناسبات الإجتماعية الشتوية، ونظمت الإحتفالات والألعاب، فوازنت بذلك النقص فى شخصية زوجها الذى لم تتوفر لديه المهارات الإجتماعية التى كانت تتميز بها[947]. ولعبت دوراً وراء الكواليس فى تطييب خواطر أولئك الذين أزعجهم النفوذ المتزايد لهارى بويل.

ومثلت إيثل الوجه الخير لدار المعتمد البريطانى فيما يتعلق بالعلاقة بين الجاليات الأوروبية والمجتمع المصرى ككل، تقود عربتها فى شوارع القاهرة لتقدم بنفسها المساعدات أو العزاء للعائلات التى عرفتها، وتقدم التبرعات للمستشفيات والملاجئ والجمعيات الخيرية[948]، وقد ساعدت بذلك على إعطاء إنطباع – بقصد أو بغير قصد– أن المرأة الأوروبية أكثر تمتعاً

944 Gilbert, Sir Horace Rumbold, 11.
945 e. g. Cromer, Modern Egypt, ii, 345.
946 Quoted by the French Ambassador to Britain in a dispatch of 3 Oct. 1896, Lutfi al – Sayyid, Egypt and Cromer, 127 – 8.
947 Caillard, A Lifetime in Egypt, 117 – 18; Rennell Rodd, Social and Diplomatic Memories, 1894 – 1901, 21.
948 Ibid, 106 – 7; Ethel's obituary notice, Egyptian Gazette, 17 Oct. 1898.

بالحرية من النساء المصريات، وأن الحياة الأسرية الأوروبية المنفتحة والقائمة على الإختلاط بين الجنسين أرقى من نظام الخدر الذى يبقى النساء بمعزل عن المجتمع.

الفصل الرابع عشر
عودة إلى السودان ومأساة وفاة إيثل
(1895 – 1899)

قرار استعادة السودان

كان اعتقاد كرومر أن الخديو المهزوم قد يسبب المتاعب للإنجليز، وراء اهتمامه المتواصل بالسياسات التى تحقق النمو الإقتصادى فى مصر، وقد تناول الحكمة من وراء ذلك فى رسالة بعث بها إلى سولسبرى بعد ذلك ببضع سنوات، فكتب أنه كان متأكداً أن : "كلما طال وجود الإحتلال، فإن الخديو والطبقة الصغيرة ذات النفوذ التى يقودها سوف يستمرون فى الإبقاء على حالة العداء (لبريطانيا) التى لا سبيل لإحتوائها.. ومن ثم تتطلب الضرورة السياسية أن تشعر جماهير الشعب بالرخاء المادى لتقديم البرهان العملى فى مواجهة إثارة شعور الكراهية العنصرية والتعصب الدينى"[949].

وكان حجر الزاوية فى تلك السياسة بناء "خزان أسوان"، وأن تجنى مصر – فى الوقت نفسه – ثمار تزايد الإيرادات الناجمة عن إرتفاع أسعار القطن بعد كساد عام 1894، وما ترتب على زيادة مياه الرى الصيفى بالدلتا من آثار إصلاح القناطر الخيرية مما أدى إلى تحقيق زيادة كبيرة فى إنتاج المحاصيل الزراعية، وتم إجراء مساحة للأراضى الزراعية عام 1898 لتحديد حقوق الملكية الخاصة، وتثبيت الإلتزامات الضريبية على الأطيان لمدة الثلاثة عقود التالية على أساس المبادئ التى اتبعت فى الهند.

وفكرة إقامة خزان لمياه النيل فى أسوان بدأت تلقى إهتماماً فعالاً منذ 1891، عندما عين المهندس البريطانى وليم ويلكوكس Willcocks مديراً لدراسة مشروع الخزان، وانتهى من تحديد الموقع الملائم لإقامة الخزان فى 1893، فتم اختيار أسوان بالذات؛ لأن تكوينات الصخور الجرانيتية هناك تشكل أساساً متيناً لإقامة جسم الخزان، كما توفر مواد البناء للخزان نفسه، ودعيت لجنة دولية للحضور إلى مصر لأسباب سياسية؛ لأن موافقتها على المشروع تيسر سبيل تمويله من فوائض الإعتمادات المالية التى يحتفظ بها صندوق الدين

[949] 15 June 1898, SP, A/111.

العام[950]. وظهر تقرير ويلكوكس عام 1895 مقدماً تلخيصاً وافياً للموضوع، وكان كرومر حريصاً على البدء بتنفيذ المشروع فى أسرع وقت ممكن، رغم ما سوف يترتب عليه من إغراق معبد فيلة الذى يقع إلى الجنوب من الموقع المحدد لإقامة الخزان.

ولكن كرومر شعر بالضيق عندما قررت حكومة المحافظين برئاسة اللورد سولسبرى فى 12 مارس 1896 بالرد على هزيمة الإيطاليين على يد الأحباش فى عدوا، بتخفيف الضغط عن الإيطاليين عن طريق "تثبيت أقدام مصر لمسافة أبعد فى أعالى النيل"، على حد تعبير سولسبرى[951]. ورغم أن كرومر كان يعلم – منذ زمن بعيد– بضرورة القيام بحملة عسكرية بتصفية بقايا الدولة المهدية فى مرحلة ما، إلا أن تجربته المرة جعلته يدرك تماماً ما ينطوى عليه المشروع من تكلفة مالية كبيرة.

وكان ذلك سبباً كافياً لتأجيل مشروع "خزان أسوان" عدة سنوات، وزاده ضيقاً اتخاذ القرار فى لندن دون استشارته أولاً، ودون وضع مصالح مصر فى الإعتبار. وشكت إيثل لليدى آن بلنت أن الأمر كله تم دون استشارة زوجها[952]. ونتج عن ذلك العديد من البرقيات الغاضبة التى أرسلها كرومر إلى لندن تضمنت تلميحات إلى احتمال استقالته إذا لم تقم الحكومة بتهدئة خاطره[953].

كان سولسبرى يعرف كرومر جيداً ويرى ضرورة عمل شئ فى هذا الصدد، فتم اتخاذ قرار فورى بأن يكون كرومر نفسه مسئولاً عن الحملة العسكرية المحتملة، وأن يتلقى تعليماته من وزير الخارجية وليس من وزارة الحرب، وفى السياق نفسه، إختار كرومر إسناد قيادة الحملة إلى هربرت كتشنر – سردار الجيش المصرى الجديد– على أن يكون مسئولاً مباشرة أمام كرومر وليس وزارة الحرب فى لندن. وساعد على ذلك عدم ثقة كل من سولسبرى وكرومر فى هيئة الأركان العامة البريطانية فى ضبط الإنفاق على الحملات أو فى اتخاذ القرارات ذات التأثير على المجال الدبلوماسى، ولعلهما أرادا تفادى تسلسل القيادات الذى أعاق عمل حملة إنقاذ جوردون قبل ذلك بعقد من الزمان. وأخيراً ساعد سولسبرى كرومر على تهدئة

---

[950] William Willcocks, Sixty Years in the East (Edinburgh: W. Blackwood, `1935), 128.
[951] Salisbury to Cromer, 13 Mar. 1896, SP, A/55.
[952] Blunt, My Diaries, 220.
[953] Marlowe, Cromer in Egypt, 202.

الخديو الذى ساءه عدم استشارته أولاً، وحثه على توجيه رسالة إلى قوات الجيش المصرى تعبر عن تشجيعه لهم[954].

وبمجرد إزالة تلك العقبات الأولية، كان باستطاعة كرومر وسولسبرى أن يسترجعا علاقة العمل الطيبة التى بدأت فى أواخر الثمانينيات، فقد وثق كل منهما فى الآخر بالقدر الذى جعل المراسلات بينهما تقتصر على الأمور الأساسية وحدها. فقد وجد سولسبرى فى كرومر مجموعة من المهارات الإدارية والمالية والعسكرية والدبلوماسية التى تحتاجها إدارة مثل هذه الحملة، كما يكفى ذلك لطمأنة البرلمان البريطانى أن الحملة فى أيد أمينة.

وكانت علاقة كرومر بكتشنر تمثل الكثير من التحديات، فقد كان كتشنر لا يتمتع بشعبية من الضباط البريطانيين، وأشيع عنه عدم الإهتمام بالقوات الواقعة تحت قيادته واتهم بالإهمال فى حملة السودان 1884 – 1885، وكان مما يثير قلق كرومر، إحتفاظ كتشنر بخط إتصال خاص مباشر مع سولسبرى من خلال صداقته لليدى أليس كانبورن – شقيقة زوجة سولسبرى– كما أنه عين اللورد إدوارد سيسل نجل سولسبرى معاوناً عسكرياً له فى حملة السودان، ولكن أتيحت الفرصة لكرومر أن يحبط مساعى كتشنر للحصول على تأييد لفكرة الزحف على دنقلة، عندما كان كرومر يقضى الإجازة الأسبوعية فى ضيافة سولسبرى وعائلته فى هاتفيلد هاوس صيف 1894، وهى مناسبة عائلية حرص عليها سنوياً[955].

غير أن مزايا كتشنر فاقت عيوبه، فقد بذل جهداً فائقاً فى تدريب الجيش المصرى وإعداده للقيام بمثل هذه الحملة منذ 1892. كما أنه يعرف مسرح العمليات المرتقبة جيداً، وأعجب كرومر بمهارته المالية وقدرته على الإقتصاد فى النفقات بما لا يثقل كاهل الموازنة التى يضعها كرومر، فقد رفض شراء ملابس جديدة للجنود المصريين[956]. وكان كرومر يثق تماماً فى قدرة كتشنر على معالجة الأمور فكتب إلى سولسبرى: "لا أتوقع أن أواجه صعوبة فى الإبقاء على كتشنر رهن إشارتى"[957]، وكان كتشنر إيجابياً من هذه الناحية، فكتب إلى

[954] Blunt, My Diaries, 221.
[955] John Pollock, The Road to Omdurman, (London: Constable) 1998, 88 – 9.
[956] Philip Warner, Kitchener: The Man Behind the Legand (New York: Athenaeum 1986), 75.
[957] 17 May 1896, SP, A/55.

السكرتير الخاص لسولسبرى أن "كرومر رجل عظيم، يشرفنى العمل تحت رئاسته، فهو يعمل كل ما أريده، وكان لطيفاً دائماً"[958].

وهنا بدأت علاقة عمل صعبة بين الرجلين من تلك العلاقات التى ميزت عصر الإمبراطورية. وربما كانت هناك صفقات خارجية مشتركة تجمع بينهما، فهما يتسمان بالغلظة و"الخشونة حين يطفح الكيل"، وكلاهما يكره إلقاء الخطب العامة، كما أن الكثير من القصص المتماثلة قيلت عنهما تتحدث عن ضيق كل منهما بالحفلات والحرج الذى يقع فيه كل منهما عند اضطراره إلى التحدث إلى السيدات[959]. ولا حاجة لنا إلى القول إن أى منهما لم يلحظ هذا التشابه بينه وبين صاحبه، فكل منهما يعتبر نفسه – مثلاً– مختلفاً عن الآخرين، فأحدهما دبلوماسى وممول دولى، وشخصية عالمية، والآخر عسكرى ليس لديه وقت للعبث، عقد العزم على أن يبنى مستقبله العسكرى عن طريق إلحاق الهزيمة بالقوات المهدية، غير أن كلا منهما يعلم حجم المخاطرة وراء هذا العمل، وأن كلا منهم بحاجة إلى صاحبه، ولا يحتمل أى منهما تكرار ذلك الحرج الذى واجهته بريطانيا فى المعركة السابقة بالخرطوم، ولذلك بذل كل منهما جهده للإحتفاظ بهذه الشراكة رغم شكواه الدائمة من غباء صاحبه وسوء تقديره للأمور.

وقد واجه كرومر وكتشنر مشكلتين ملحتين تتصلان ببعضهما، أولهما التوجس من القدرات القتالية للجيش المصرى الجديد الذى لم تتح الفرصة لاختباره من قبل، وخاصة عندما يواجه قوات قد تبذل كل جهد ممكن لكسب الجنود المسلمين إلى صفها، كما كانت تقلقهما الحاجة إلى استدعاء قوات بريطانية فى حالة عدم قدرة الجيش المصرى على القيام بمهامه على النحو المرجو، لأن ذلك سوف يرفع من سقف الإنفاق العسكرى، ومن هنا جاء حرصهما على أن يتم الإشتباك العسكرى الأول بأسلوب أداء ناجح فى الظروف المتاحة[960] وأحسا بالإرتياح عندما قاتلت القوات المصرية ببسالة فى فركت على الطريق إلى دنقلة التى تقع على مسافة تزيد على مائتى ميل جنوب وادى حلفا، والتى تم الاستيلاء عليها عندما كان

[958] Kitchener to Barrington, 21 May 1896, KP, 30/57/9.
[959] Pollock, Road to Omdurman, 287.
[960] Cromer to Salisbury, 13 June 1896, CP/2, FO 633/6.

كرومر يقضى إجازة الصيف فى إسكتلندا فى سبتمبر[961]. أما المشكلة الثانية فكانت مالية، زاد من صعوبتها إقناع كرومر لسولسبرى أن الحاجة إلى إقامة "خزان أسوان" أصبحت ضرورية أكثر من ذى قبل لضمان تنمية الزراعة المصرية مستقبلاً وزيادة الإيرادات اللازمة لتغطية تكاليف الحملة، ومصاريف إدارة المناطق السودانية التى تتم استعادتها، وكان مفتاح الموقف فى يد صندوق الدين العام الذى يضع يده على إحتياطيات كبيرة، مما يتطلب موافقته على الإفراج عن جانب منها.

وجاءت المرحلة الأولى لحل المعضلة المالية معبرة عن الاستقطاب الدولى فى صندوق الدين العام، فقد لقى طلب الإفراج عن نصف مليون جنيه موافقة أربعة مندوبين فى مقابل معارضة مندوبى فرنسا وروسيا. وما كاد المبلغ يسلم للحكومة المصرية حتى لجأ المندوبان المعترضان إلى المحاكم المختلطة، فصدر الحكم لصالحهما ضد كرومر والحكومة المصرية، وبذلك أصبحت إعادة المبلغ إلى صندوق الدين العام واحدة. وكان على الحكومة البريطانية التدخل بتقديم قرض للحكومة المصرية قدره 800 ألف جنيه، كانت كافية – فى تقدير كتشنر– لدفع القوات المصرية إلى بربرة 1897، وما صاحبها من مد خطوط السكك الحديدية إلى أبو حمد[962]. ويعزى إلى كتشنر إقناع وزير المالية البريطانى بإتخاذ قرار القرض أثناء زيارة قصيرة قام بها إلى لندن فى نوفمبر، وإن كان كرومر هو الذى حث وزير المالية على إنقاص نسبة الفائدة على القرض من 3.5 إلى 2.5%[963].

كانت الأمور تجرى على ما يرام، ولكن حملة العام التالى كانت أكثر صعوبة كلما تقدمت بعيداً عن قاعدتها فى مصر، وقد بدأ التقدم فى أواخر الصيف كالمعتاد عندما يساعد ارتفاع الفيضان القوارب على تجاوز منطقة الجنادل جنوب وادى حلفا، وتم الاستيلاء على أبو حمد فى نهاية يوليو وبربرة بعد ذلك بشهر واحد. مما أتاح الفرصة لمد الخط الحديدى عبر الصحراء إلى أبو حمد وفى الوقت نفسه أقيمت طريق جديدة بين بربرة وسواكن على البحر الأحمر.

---

[961] Cromer, Modern Egypt, ii, 90.
[962] Marlowe, Cromer in Egypt, 207.
[963] Ibid.

وهنا بدأ كتشنر يواجه متاعب حقيقية، فعلى صعيد الجبهة المحلية كان هناك تحسب شديد أن يكون انسحاب جيش خليفة المهدى المفاجئ من بربرة بعد مناوشات بسيطة حتى يستطيع قطع الخط الحديدى عبر الصحراء، وأدى ذلك إلى إثارة السؤال حول ما إذا كان الأمر يتطلب استدعاء تعزيزات بريطانية، والموعد الذى يحدد لذلك، وذلك لتقديم العون للقوات المصرية فى مواجهة قوات العدو التى استعصت على الهزيمة، وتتجمع فى مكان قريب. وزاد الطين بلة إعلان وزارة الحرب تعيين جريفل قائداً عاماً للحامية فى مصر، وقد فسر ذلك التعيين على أنه سوف يتولى قيادة القوات المشتركة فى حالة وصول تعزيزات بريطانية. وأخيراً تبادل كتشنر مراسلات عنيفة اللهجة مع بالمر بالقاهرة الذى أجرى تخفيضاً على المبلغ الذى طلبه للإنفاق على حامية كسلا – المدينة الإستراتيجية المهمة– التى قام الإيطاليون مؤخراً بإخلائها وكانت تتحكم فى السهل الذى يربط الخرطوم بالبحر الأحمر.

هذه الحشود من المقاتلين التى اقترنت بالإرهاق نتيجة العمل المتواصل، جعلت كتشنر على وشك الإنهيار، فقد كتب إلى كلينتون داوكنز فى 6 نوفمبر:

"إنك لا تدرى كم أعانى من التوتر والقلق، لا أظن أننى أستطيع أن أتحمل المزيد، وأشعر بالإنهاك الشديد إلى درجة تمنى الموت، وعلى أن أحصل على إجازة قبل أن يبدأ العمل الميدانى العام القادم، وإلا فسوف أنهار تماماً"[964].

وفى غضون تلك الأيام أبرق إلى كرومر عارضاً الاستقالة فى 18 أكتوبر[965] ولكن ذلك لم يزعج كرومر، الذى كتب إلى سولسبرى مؤكداً أن كتشنر تنتابه نوبات من الإكتئاب ما يلبث أن يتعافى منها[966]، ولا شك أن كرومر تذكر حالات التوتر التى قادته شخصياً إلى التقدم بالاستقالة، وإن كان قد استخدمها أداة للضغط، غير أنه اعترف بأن الوضع حرج للغاية، ولا يمكن أن يطلب من كتشنر ترك القيادة لوكيله والحضور إلى القاهرة.

ولا زال الدور الذى لعبه كرومر فى زيادة الأوضاع سوءاً موضع الجدل، فقد كان وراء التصويت ضد تخفيض الإعتماد المخصص لحامية كسلا، ولم ينفرد بالمر بذلك، وكان أقل

---

[964] Quoted in Pollock, Road to Omdurman, 111.
[965] KP, 37/57/11.
[966] Pollock, Road to Omdurman, 112.

تحمساً من كتشنر فى متابعة التحرك صوب الخرطوم، محذراً سولسبرى أن مثل هذا المجهود الحربى يتجاوز ما تستطيع الموارد المالية المصرية أن تتحمله[967]، ويؤكد ماجنوس Magnus (صاحب ترجمة كتشنر) أن لندن أكدت لكرومر أن تعيين جرنفل ليس فيه مساس بمركز كتشنر، ولكن كرومر لم يبلغه بذلك مما زاد كتشنر غضباً[968]، ولكن استدعاء كتشنر إلى القاهرة ثم إيفاده إلى مصوع ليجتمع بالحاكم الإيطالى هناك، ويناقش معه مستقبل كسلا، أتاح لكرومر أن يهدئ من روعه، ويطيب خاطره، بقدر ما كانت تلك فرصة للراحة بعيداً عن المتاعب اليومية، فقد أكد له كرومر أنه سيظل قائداً للحملة فى كل الأحوال، وأن الإعتمادات المالية لإقامة حامية فى كسلا على وشك التدبير، وأن باستطاعته طلب تعزيز الحملة بألاى من القوات البريطانية عند الحاجة[969].

وما كاد كتشنر يعود إلى قيادته فى وادى حلفا حتى تغير الوضع بكامله، فما كاد يعلم من ونجت (رئيس المخابرات الحربية) أن جيش الخليفة التعايشى على وشك الزحف على بربرة، حتى أبرق لكرومر أن الجيش لا يستطيع تحمل هذه المواجهة دون مساعدة القوات البريطانية[970]، وقد تبين فيما بعد أن المعلومة التى نقلها ونجت كانت كاذبة، ولكنها كانت – عندئذ– كافية لجعل كرومر ينحى الحذر جانباً وأن يطلب تعزيزات بريطانية فوراً حتى يتم تنفيذ مهمة الحملة دون تأخير، وركب كرومر موجة الحماس للحملة فى بريطانيا، فطالب بأن تظل قيادة الحملة بيد كتشنر، وأن تتحمل بريطانيا قسطاً كبيراً من تكاليفها[971].

وفى ديسمبر 1897، وقعت تطورات مهمة اقتضت أن يوليها كرومر قدراً كبيراً من الإهتمام، فقد توقع أن تكون تكلفة الإدارة الجديدة للسودان أكبر مما يمكن الحصول عليه من الموارد لعدة سنوات تالية، وراح يبحث بجد عن مشروعات تدر أموالاً كافية مثل الخطة التى أجهضت، والتى كانت ترمى إلى الإقتراض مقابل بيع حقوق إدارة سكك حديد السودان مستقبلاً. غير أن أمله الكبير فى زيادة الموارد المالية تركز على تنفيذ مشروع خزان أسوان،

---

967 22 Oct. 1897, SP, A/110.

968 Philip Magnus, Kitchener: Portrait of an Imperialist (London: John Murray 1958), 107 – 8.

969 Ibid, 112.

970 Cromer, Modern Egypt, ii, 96.

971 Zetland, Lord Cromer, 232 – 3.

وهنا أيضاً حاول أن يدفع بالمشروع قدماً إلى الأمام، فعندما رفضت الحكومة البريطانية إقتراحه بتقديم مليونى جنيه كمنحة أو قرض للحكومة المصرية عام 1896، إتجه إلى طرق أبواب القطاع الخاص، فأوفد بالمر إلى لندن لإجراء مفاوضات سرية مع شركة هندسية بريطانية هى إيرد وشركاه Aird & Co. فى فبراير 1898.

وكانت النتيجة التوصل إلى إبرام إتفاق معقد تقوم شركة إيرد بموجبه ببناء السد والخزان خلال خمس سنوات دون أن تتلقى أموالاً حتى يتم الإنتهاء من المشروع عام 1903، على أن يتم السداد بعد ذلك على أقساط لمدة 30 عاماً[972]. وكان من شأن ذلك سد الطريق على مطالبة صندوق الدين العام بطرح المشروع فى مناقصة دولية، مما لا يعوق البدء فى المشروع عدة سنوات فحسب، بل قد يؤدى إلى خروجه تماماً من أيدى الإنجليز[973].

ولأسباب غامضة كان من الضرورى إقتراض أموال تسمح بحصول الشركة المنفذة للمشروع على مستحقاتها فوراً، ولعل ذلك يرجع إلى أن الحكومة المصرية قد أجبرت على قبول عروض تنافسية فى لندن[974] وتكشف الخطابات المرسلة إلى سولسبرى وإلى اللورد ريفلستوك (قريب كرومر) بعض المشكلات المتصلة بذلك، فالسوق البريطانية لا تقبل عرضاً حكومياً ما لم يكن مدعوماً بضمان مناسب، وكان اللجوء إلى بنك بارنج مستبعداً لعدم مناسبة ذلك، وطالب بيت روتشيلد بضمان الحكومة البريطانية التى رفضت ذلك، ربما لعدم قانونيته فى إطار المعاهدات الدولية التى تحكم المالية المصرية[975].

وفى هذا الوقت الحرج، لجأ كرومر إلى السير إرنست كاسل Sir Ernest Cassel وهو ممول مستقل، كان يتردد على مصر للاستشفاء عدة سنوات، والذى أدرك على الفور أن ارتباط مشروع خزان أسوان بالإدارة البريطانية عامة، لابد أن يثمر فوائد مجزية[976]. وتم إبرام صفقة بين كرومر وكاسل، تحمل بموجبها الأخير المسئولية المالية نيابة عن شركة إيرد، فتعهد

---

972 Cromer to Salisbury, 5 June 1897, SP, A/110; Saul, La France et l'Egypte, 641.

973 Kurt Grunewald, "Windsor – Cassel": The Last Court Jew', Leo Baeck Institute yearbook, 14 (1969), 135; Cromer to Revelstoke, 2 Feb. 1898, CP/2, FO 633/8.

974 Helen E. Jeffries, Sir John Arid, DBB i, 18.

975 Cromer to Revelstoke, 2 Feb. 1898, to Salisbury, 4 Jan. 1898, CP/2, FO 633/6.

976 Brain Connell suggests that Cromer had organized Cassel's financial acumen when he visited Egypt on behalf of Bischoffsheims Bank in the 1870 S; Manifest Destiny: A study of the Rise of influence of the Mountbatten Family (London: Cassell, 1953), 71.

بأن يدفع لهم مستحقاتهم على الفور على أن يسترد أمواله من خلال قرض تحصل عليه الحكومة المصرية مدته 30 عاماً بموجب أقساط نصف سنوية، ومدة القرض 40 عاماً بفائدة قدرها 6% سنوياً[977]، ووافقت الحكومة البريطانية على الصفقة، وبذلك تم التوقيع على العقد فى فبراير 1898[978]. غير أن كاسل تنازل عن الحوالات التى أصدرتها الحكومة المصرية مقدماً لتغطية أعمال شركة إيرد، إلى شركة جديدة حملت إسم شركة استثمارات الرى Irrigation Investment Corporation وجمعت الشركة الأخيرة مبلغ 4.7 مليون جنيه قيمة الحوالات عن طريق إصدار سندات بفائدة 4% سنوياً، وفى عام 1902 قامت بتصفية أعمالها بإرادتها[979]، وبذلك كان المشروع استثماراً ناجحاً أولاً وأخيراً.

النصر والمأساة فى 1898

قامت أسرتا كرومر وجرنفل برحلة نيلية فى فبراير 1898 وكان الهدف من تلك الرحلة مزدوجاً: رؤية بعض الأماكن التى تمت استعادتها فى شمال السودان، ومقابلة السير كاسل فى أسوان، ولسوء الحظ جنحت الباخرة النيلية التى حملتهم عند نجع حمادى فى الطريق إلى الجنوب، ورغم أنه قد تم تعويمها باستخدام قاطرتين بخاريتين وسواعد 600 فلاح تم حشدهم لهذا الغرض، فقد قرر كرومر وصحبه العودة إلى القاهرة دون لقاء إرنست كاسل[980]. وكان سبب العودة على عجل معاناة إيثل من مرضها المزمن[981]. فقد ساءت حالتها طوال العام السابق حتى أنها أرسلت إلى زوجها بالترتيبات التى توصى بها عند وفاتها، وطريقة دفنها إذا حدثت الوفاة فى القاهرة، أو فى إنجلترا[982].

وعاد إليها ذلك الشعور العميق بدنو الأجل، فكتبت لزوجها فى 31 مارس بما يتبع عند وفاتها، ومن يحضرون لحظة دفنها[983]، وقد توجهت إلى لندن (فور العودة من الصعيد) لمراجعة أحد الأطباء المتخصصين، فقرر أن صحتها آخذة فى التحسن، وأن باستطاعتها

977 Grunewald, "Windsor – Cassell", 135.
978 Marlowe, Cromer in Egypt, 227.
979 Saul, La France et l'Egypte, 641.
980 Boyle to Mrs Boyle, 23 Feb. 1898, BP, Box b, file 2.
981 Cromer to Cassel, 26 Feb. 1898, CP/2, FO 633/6.
982 CP/1, letters and papers of 1st Lady Cromer.
983 Ibid.

العودة إلى القاهرة بعد قضاء فترة نقاهة فى إنجلترا، ولكن الماجور هربرت دنت Herbert Dent الطبيب الذى استشارته بعد ذلك رأى أن الأشهر المتبقية من عمرها محدودة. وقد تم استدعاءه كثيراً فى الليل لحقنها بمسكن للألم المبرح الذى عانته، وقد حاول دنت الكتابة إلى كرومر فمنعته من ذلك حتى لا يضطر للعودة لرؤيتها تاركاً حملة السودان. ولكن عندما ساءت حالتها طلبت من سيسليا شقيقة كرومر أن تتولى إبلاغه، وعندما حضر فى يوليو طلبت منه أن يذهبا معاً إلى بيتهما فى إسكتلندا[984].

وفى الوقت نفسه، كانت الأحداث قد بلغت ذروتها فى شمال السودان، فعلى الصعيد العسكرى، كان وصول القوات البريطانية قد بدأ فى يناير مما يعنى أن المعركة ستدور فى الصيف. وبدأت القوات تقدمها مرة أخرى فى مارس، حيث التقت بقوات كبيرة من الأنصار بقيادة عثمان دقنه كانت تعسكر عند التقاء نهر عطبرة بنهر النيل. كان كتشنر عاجزاً عن إتخاذ القرار وطلب من كرومر الرأى، وبعد تبادل البرقيات بينهما إقترح كرومر إلتزام الحذر ثم شن الهجوم[985]، وأمر كتشنر الجيش بالتقدم يوم الجمعة الحزينة – 8 أبريل– وألحق الهزيمة بالعدو.

وبذلك أصبحت الطريق مفتوحة إلى الخرطوم التى تبعد أقل من مائتى ميل جنوباً، وقضى كتشنر الشهور الأربعة التالية فى معسكر صيفى، يتلقى التعزيزات، ويستعد للزحف الأخير. وفى ذلك الوقت كان الجيش الإنجليزى – المصرى يضم 25.800 جندى، ثلثهم تقريباً من البريطانيين، وكان تموينه ونفقاته مؤمنة منذ قرار لندن فى يونيو بتقديم قرض قيمته 800 ألف جنيه يمكن اعتباره الآن على سبيل المنحة، كما سيتم توفير 750 ألفاً أخرى لتغطية نفقات بقية أعمال الحملة.

وعلى الصعيد السياسى، حدث تدخل أساسى من جانب بريطانيا عبرت عنه برقية سولسبرى إلى كرومر فى 3 يونيو، إقترح فيها التعامل مع السودان من وادى حلفا إلى وادلاى (الحدود مع أوغندا) على أنه دولة المهدية المستقلة وليس أرضاً مصرية (من الناحية القانونية)

---

[984] Major Herbert C. Dent, "The First Lady Cromer", The Graphic, 6 Jan. 1923.
[985] Magnus, Kitchener, 119 – 20.

يسيطر عليها الثوار[986]، والفرق بين الحالين على درجة كبيرة من الأهمية، فهو لم ينتزع بذلك السودان من الإمبراطورية العثمانية صاحبة السيادة عليه فحسب، بل خلق وضعاً إنجليزياً – مصرياً منفصلاً يستند إلى حق الفتح، ويساعد ذلك – بالتالى– على إحباط مساعى الدول الأوروبية التى تتطلع إلى بعض مناطق السودان، وخاصة فرنسا التى كانت قد أرسلت بالفعل حملة بقيادة الكولونيل مارشان Marchand ليقيم موقعاً على النيل عند فاشوده التى تقع على بعد 400 ميل جنوب الخرطوم.

ولزيادة إيضاح الأمور، إقترح سولسبرى رفع العلمين المصرى والبريطانى جنباً إلى جنب عند احتلال الخرطوم "رمزاً للمساواة القانونية بين الفاتحين"[987]، وكان لكرومر بعض الشكوك المتعلقة بهذه الخطة، وربما يعود ذلك إلى احتوائها على معنى استمرار الصيغ المبهمة التى أعاقت سياسته فى مصر. ولكنه أبلغ سولسبرى بعد أسبوع أن الفكرة نالت الكثير من إعجابه[988].

كان كرومر لا يزال يرعى حالة إيثل الصحية فى إنجلترا، عندما دارت الحلقة الثانية من المناقشات فى مجلس الوزراء البريطانى حول مستقبل السودان فى إجتماع 25 يوليو، الذى طلب منه حضوره، وكانت هناك مذكرة معروضة على المجلس أرسلها كرومر من القاهرة منذ شهر واحد، وتمت الموافقة على السياسة التى تتبع، وهى سياسة ذات شقين: أولها إقتراح كرومر إبلاغ الخديو إعلاناً مضمونه أن "حكومة صاحبة الجلالة تعتبر أن لها الكلمة العليا فى كل ما يتعلق بشئون السودان". كما وافق المجلس على اقتراح كرومر أن يعقب الاستيلاء على الخرطوم إرسال قاربين مسلحين أحدهما فى النيل الأزرق جنوباً حتى الروصيرص (الحدود المفترضة مع الحبشة) فيقوم برفع العلمين البريطانى والمصرى هناك، والآخر يبحر فى النيل الأبيض بقيادة كتشنر للتحقق من وصول الحملة الفرنسية إلى فاشودة، فإذا كانت هناك يعلن إدعاءنا الحق فيها، ويقدم إحتجاجاً رسمياً، ويقيم نقاطاً عسكرية شمال وجنوب الموقع الفرنسى[989].

---

[986] PRO, FO 78/5050.
[987] Ibid.
[988] 11 June 1898, CP/2, FO 633/7.
[989] Roberts, Salisbury, 696 – 7; Marlowe, Cromer in Egypt. 216.

وفى أوائل أغسطس تلقى كرومر برقية من كتشنر يلح فيها عليه بضرورة التواجد بالقاهرة فى الأول من سبتمبر[990]، ولكن حالة إيثل الصحية لم تمكنه من العودة، وكان موجوداً بكيثنس فى إسكتلندا عندما تلقى رسالة من الملكة تحمل أنباء الإنتصار فى معركة أم درمان فى الثانى من سبتمبر[991]، فعاد كرومر وزوجته إلى مصر رغم نصائح الدكتور دنت له لعدم قدرة إيثل على تحمل وعثاء السفر[992]، فوصلا إلى القاهرة فى الرابع من أكتوبر. وقد تحملت إيثل الرحلة على مشقتها، ولكنها لزمت الفراش فى 12 أكتوبر وقد تداعت حالتها الصحية تماماً، وماتت فى السادسة من مساء 16 أكتوبر بعد أن فرغ قس كاثوليكى من قراءة صلوات الموت عند سريرها[993]. وجاء بشهادة الوفاة أنها جاءت نتيجة هبوط حاد بالقلب، ولكن كرومر ذكر لولده رولاند أنها راحت ضحية "مرض الكلى الذى قتلها"[994].

وكتب بويل إلى والدته فى 14 أكتوبر عن محاولات كرومر إخفاء أحزانه، واللحظات التى يقتنصها للتفريج عن مكنون صدره[995]. كما كتب كرومر – فى اليوم نفسه– إلى شقيقة زوجته (فينيشيا) يبلغها أن حالة إيثل ميئوس منها وأنها ربما تكون قد قضت عند وصول الخطاب[996].

وغلب الحزن على كرومر حتى إنه لم يستطع حضور القداس الجنائزى الذى أقيم بكنيسة القديس سان جوزيف يوم 19 أكتوبر، ولا الصلاة التى أقيمت من أجل خلاص روحها بكنيسة جميع القديسين فى يوم الأحد التالى[997]. وجاء كتشنر على الفور إلى دار المعتمد البريطانى بعد عودته من مواجهة مارشان فى فاشودة، وذلك فى اليوم السابق على وفاة إيثل. وكتب إليه كرومر يشكره على ما قام به من أعمال فى تلك الظروف الصعبة، واعترف له بالفضل فى نجاح حملة السودان[998].

---

[990] Cromer, Modern Egypt, ii, 103.

[991] Ibid, 103 – 4.

[992] Dent, "First Lady Cromer"; Rennell Rodd, Diplomatic and Political Memories, 1894-1901, 239

[993] Ibid, 239 – 41.

[994] Cromer to Rowland, (Viscount Errington) 20 Oct. 1898, CP/4.

[995] BP, box b, file 2.

[996] CP/1.

[997] The text can be found in CP/2, FO 633/35.

[998] 19 Oct. 1898, KP, 30/57/14.

وقد أرسلت جثة إيثل إلى إنجلترا تنفيذاً لرغبتها، وتم دفنها فى 11 نوفمبر بجبانة ويمبورن رود فى براون ماوث بحضور ولديها[999]ودفنت أختها فينيشيا إلى جوارها بعد عامين[1000]، وذكر كرومر فى "الملاحظات" أن إيثل إختارت أن تدفن فى منطقة بورن ماوث؛ لأنها قضت فيها أوقاتاً سعيدة مع ولديها من قبل[1001].

وقد بذل الأقارب والأصدقاء كل ما باستطاعتهم لمواساته وخاصة الجنرال فرانسس جرنفل وعائلته[1002]وحضر ولداه رولاند ووندام إلى القاهرة لقضاء إجازة أعياد الميلاد معه وكان فى ذلك بعض السلوى لكرومر[1003]. وقد صحبهما كرومر معه وجورست وبويل فى رحلة إلى الأقصر لزيارة آثارها، ثم ركب الجميع الخط الحديدى الجديد إلى الخرطوم حيث زاروا معالم أم درمان، وألقى كرومر كلمات على الضباط والموظفين الإنجليز، وأبلغ جمعاً من شيوخ السودان أنهم الآن تحت حكم ملكة بريطانيا وخديو مصر[1004] وحتى يبدد مخاوفهم من أن تتولى حكمهم دولة مسيحية، طمأنهم أنه لن يكون هناك تدخل فى شئونهم الدينية، وقال فيما بعد رداً على سؤال حول الموضوع نفسه أن ذلك يتضمن استمرار تطبيق الشريعة الإسلامية، ولم يشر إلى تجارة الرقيق من قريب أو بعيد[1005]. وكان بويل يتولى ترجمة حديث كرومر جملة جملة[1006].

وزار كرومر وصحبه موقع المعركة الفاصلة، ووضع فى اليوم التالى حجر الأساس للمشروع الذى تبناه كتشنر ألا وهو "كلية جوردون التذكارية"[1007].

---

[999] Quotation from Elizabeth Stone, God's Acre; or, Historical Notices Relating to churchyards (1858), in Michael Wheeler, Death and the Future Life of Victorian Literature and Theology (Cambridge: Cambridge University Press, 1990) 57.

[1000] هذه المعلومات حصلنا عليها من القس تيرانس هيلى.

[1001] BN, 370 – 1.

[1002] Grenp, entries for 29 Oct. and 19 Nov. 1898.

[1003] The day after Ethel's death Cromer had written to Rowland, "I am so lonely and none but my beloved children can cheer me"; 17 Oct. 1898, CP/4.

[1004] Mellini, Gorst, 71; Blunt, My Diaries, 310 – 11.

[1005] Zetland, Lord Cromer, 218 – 19; Taj Hargey, Festina Lente: Slavery Policy and practice in the Anglo – Egyptian Sudan, Slavery and Abolition, 19/2 (Aug. 1998).

[1006] Grenp, entry for 4 Jan. 1899.

[1007] Quted in Boyle, Boyle of Cairo, 103.

ولم يستطع كرومر أن يتخلص من حزنه لوفاة إيثل وكان الإحتفال بذكراها سنوياً يجدد الذكريات القديمة الحزينة[1008]، وقد أشار إليها كرومر فى قصيدة كتبها عام 1900[1009]:

بأنفاس واهنة أمسكت بيد زوجى
وقلت لآلهة الزواج والموت
إن حباً لمثل هذا الرجل
يحيا ويبقى مع أولادنا

وقد أورد كرومر ذكر إيثل مرتين فى كتابه "مصر الحديثة" دون أن يذكر الإسم عندما تحدث عن "من أوحى إليه بكتابته" وعن الرفيق الذى ساعده على إدخال "المستوى الخلقى الرفيع إلى الحياة الإجتماعية المصرية"[1010] واستمر زمناً بعد رحيلها يرجع إلى ذكرياته معها إلتماساً للقوة والإرشاد، ورغم أنه تزوج مرة أخرى عام 1901، دفن إلى جوارها بعد وفاته[1011].

السودان

تقرر أن ترسل خطة سولسبرى المزدوجة فى صورة إتفاقية بين بريطانيا والحكومة المصرية. وأرسل كرومر مشروعاً للإتفاقية أعده المستشار القانونى تحت إشرافه فى 1 نوفمبر، وتعرض المشروع لبعض المراجعات نتيجة لقاء تم بين سولسبرى وكتشنر فقد اعترض الأخير على إعطاء القاهرة نصيباً كبيراً فى الإدارة وخاصة فى ضبط الإنفاق المالى[1012]، كما اعترض على إثم "المركزية" الذى يعبر عن رغبة كرومر فى التحكم فى كل شئ، وقد

1008 Cromer to Katherine Cromer 16 Oct. 1903, CP/5, box 1, file 1.

1009 The Earl of Cromer, Paraphrases and Translations from the Greek, (London: Macmillan, 1903), 98.

1010 Cromer, Modern Egypt ii, 104, 322 – 3.

1011 Wheeler, Death and Future Life, 2, 48, 55.

1012 M. W. Daly, Empire on the Nile: The Anglo – Egyptian Sudan 1898 – 1934 (Cambridge university Press, 1886), 16 – 17.

أقنع سولسبرى بذلك وكتب إلى القاهرة معترضاً على "وباء تكديس الأوراق الذى أصاب الإدارة البريطانية"[1013].

وتم التوقيع على الإتفاقية بالقاهرة من جانب كرومر، وبطرس غالى وزير الخارجية المصرى، فى 19 يناير فور عودة كرومر من رحلته النيلية، ونصت الإتفاقية على أن يتولى إدارة السودان حاكم عام يجمع بين القيادة العسكرية والسلطة المدنية معاً يتم تعيينه بمرسوم خديوى بناء على توصية الحكومة البريطانية، ومن حق الحاكم العام إصدار القوانين بالسودان مع إبلاغ المعتمد البريطانى ورئيس الوزراء المصرى بها، وتكون مصر والسودان ما يسمى الآن باتحاد إقتصادى جمركى له تعريفة جمركية واحدة، ولكنه منفصل من الناحية السياسية، ولذلك لا يسرى أى قانون مصرى على السودان ما لم يتم اعتماد الحاكم العام له، كما لا يخضع السودان للإمتيازات الأجنبية ولا للمحاكم المختلطة القائمة فى مصر.

ولم تكن اتفاقية السودان مقبولة لدى الخديو أو الرأى العام المصرى عامة، وشعر الوزراء المصريون بالحرج الشديد، وكانوا يرددون أن السودان قد تمت استعادته لمصر[1014]. وأرفق مجلس شورى القوانين بملاحظاته على الموازنة السنوية بياناً مفاده أن السودان جزء من مصر[1015] وعلق مصطفى كامل على نزوع الإنجليز نحو الثأر لجوردون مقارناً بين الثمن الفادح الذى دفعته مصر ثمناً لدم إنجليزى واحد، بينما تهدر دماء آلاف المصريين بلا ثمن؟[1016] ورأى المصريون أن مصر قد أهينت لتحميلها سداد العجز السنوى فى موازنة السودان البالغ قدرها مليون جنيه ونصف سنوياً حتى العام 1914، وكذلك تمويل كل مصروفات السودان الأساسية.

أرسل كرومر نسخة من الإتفاقية إلى كتشنر مرفقاً بها خطاباً يتضمن وجهة نظره بشأن العلاقة الجديدة بين القاهرة والخرطوم. فيتولى المعتمد البريطانى معالجة المسائل الكبرى ويترك ما عداها بما فى ذلك التفاصيل والتنفيذ للحاكم العام[1017]. وفى خطاب آخر شخصى

[1013] Salisbury to Cromer, 9 Dec. 1898, quoted in Marlowe, Cromer in Egypt. 218.

[1014] Blunt, My Diaries, 310.

[1015] عبد الرحمن الرافعى، مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية (القاهرة 1962)، 370 – 74.

[1016] Speech of 23 Dec. 1898, quoted in Powell, "Colonized Colonizers", 170 – 1.

[1017] 19 Jan. 1899, KP, 30/57/11.

قدم لكتشنر بعض النصائح والتعليمات، التى مهما كانت دوافعها المخلصة، تعد عند كتشنر ذات نفع[1018].

لقد بذل كرومر أقصى الجهد دفاعاً عن إدارة كتشنر للمراحل الأخيرة للمعركة وهجومه على أم درمان، فقد وصلت إلى لندن أنباء قتل بعض الأنصار من الجرحى. وأن الكثير من الجرحى من قوات المهدى "تركوا على أرض المعركة يلفظون أنفاسهم الأخيرة دون أن يحرك كتشنر ساكناً"، وما قام به من قصف قبر المهدى ونبشه وإلقاء رفاته فى النيل[1019].

وشنت صحيفة المانشستر جارديان حملة إنتقاد لتلك الممارسات[1020]، وقدمت استجوابات فى البرلمان فى هذا الصدد، وكانت هناك، إعتراضات على قرار البرلمان منح كتشنر ثلاثين ألف جنيه "عرفاناً بفضله"، حتى الملكة استاءت لما سمعته حول هذا الموضوع وخاصة هدم قبر المهدى والعبث برفاته، وذلك رغم سعادتها "بالإنتقام لمقتل جوردون"[1021].

أرسل كرومر خطاباً كتبه كتشنر أنكر فيه قيام قواته بقتل الجرحى[1022]. وقال كرومر لسولسبرى أنه رغم عدم وجود مبرر لتدمير قبر المهدى إلا أن ذلك كان ضرورياً[1023]، ولكنه استنكر العبث برفاته، ورأى أنه كان يجب دفنه فى قبر عادى[1024]، وأصدرت الحكومة "ورقة بيضاء" نشرت فيها خطابى كرومر وخطاب كتشنر لتهدئة الرأى العام البريطانى[1025]. ولكننا لا نعرف ما إذا كان ذلك من قبيل الدفاع عن أعمال كبار الموظفين أو كانت تعبيراً عن آراء الحكومة فعلاً.

ولم يتدخل كرومر فى البداية للحد من إسراف كتشنر فى الإنفاق على إعادة بناء الخرطوم، ودافع عنه أمام موظفيه بالقاهرة الذين أقلقهم هذا التجاوز فى الإنفاق.

[1018] Ibid.

[1019] e. g. Wilfrid Blunt's Letters to the Times, 10 Sept. 1898.

[1020] Ernest Bennet, "After Omdurman" Contemporary Review, 75 (Jan. 1899), 18 – 33.

[1021] Quoted in Magnus, Kitchener, 135.

[1022] Enclosuer in Cromer to Salisbury, 17 Feb. 1899, quoted in Daly, Empire on the Nile, 3.

[1023] 17 Feb. 1899, quoted in Daly, Empire on the Nile, 5.

[1024] Cromer to Salisbury, 2 Mar. 1899, quoted in Daly, Empire on the Nile, 6.

[1025] Dispatches from Her Majesty's Agent and Consul – General in Egypt respecting the conduct of British and Egyptian troops following the Battle of Omdurman, PP (1898) 112, 921 – 3.

ولكن الاستمرار فى الدفاع عن كشتنر أصبح صعباً إزاء رفض الأخير استشارة كرومر فيما يتخذ من قرارات وكذلك رفضه تقديم بيان مفصل عما يفعله بالعون المالى الذى كان يتلقاه من القاهرة[1026]، ثم ازدادت مساحة الخلاف فى مارس عندما أصدر كتشنر أمراً بإلغاء العلاوات الاستثنائية التى منحت للضباط المصريين الذين يخدمون السودان، وبذلك كان كتشنر يميز المصريين عن زملائهم من صغار الضباط الإنجليز، وعندما طلب كرومر إلغاء القرار صمم كتشنر على الرفض.

وكان مارتى دالى على حق عندما ذهب إلى أن وادى النيل " لا يحتمل رجلان طموحان مستبدان"[1027]، فقد كشفت المراسلات الشخصية لكرومر أن احترامه لكتشنر قد تبخر، وذكر سولسبرى أن كتشنر " لا يميز بين قيادة فيلق عسكرى وحكم بلد"[1028]، وفى مايو 1899 طلب من كتشنر الحضور إلى القاهرة لمناقشة موضوع آخر، فقد رفض السماح بتجارة الغلال فى المناطق التى اجتاحتها المجاعة جنوب الخرطوم بحجة أن بقايا قوات المهدى لا زالت هناك. وعندما رجاه كرومر أن يتذكر أنه يتعامل مع بشر وليس مع كتل خشبية، ثارت ثائرته وكتب له أنه ضاق ذرعاً بالسودان، وسوف يبحث عن عمل فى الهند[1029].

وبعد ما عاد كرومر وكتشنر من إجازة الصيف بإنجلترا إلتقيا بالقاهرة وتناقشا حول الأمور المالية المتعلقة بالسودان، وعلقت خلافاتهما الشخصية بعد تعيين كتشنر قائداً للقوات البريطانية التى اتجهت إلى الحرب ضد البوير فى جنوب أفريقيا فى ديسمبر. وخلفه ونجت سرداراً للجيش المصرى وحاكماً عاماً للسودان، وكان الأخير ألين عريكة فى التعامل مع كرومر، ولكن كرومر كان يحتد معه – من حين لآخر– بحجة إدارته للسودان دون الرجوع إلى القاهرة والسلطات المصرية والبريطانية بها. وكتب إلى ونجت فى مارس 1904: "إن السبب الأساسى لرفع العلمين البريطانى والمصرى على الخرطوم هو إبعاد الإمتيازات

[1026] Magnus, Kitchener, 149; Kitchener to wingate, 1 Feb. 1899, quoted in Daly, Empire on the Nile 32.

[1027] Daly, Empire on the Nile, 30.

[1028] Cromer to Salisbury, 22 Apr. 1899, CP/2 FO 633/7.

[1029] Cromer to Salisbury, 19 May 1899, CP/2, FO 633/7; Magnus, Kitchener, 151.

الأجنبية". وكان ذلك رداً على إصرار ونجت على تحصيل عوائد جمركية بنسبة 10% على قيمة المواشى المتجهة إلى مصر[1030].

وقد لخص كرومر مشاعره تجاه كتشنر فى خطاب أرسله إلى ريفلستوك بعد رحيل كتشنر إلى جنوب أفريقيا، فوصفه بأنه قائد عسكرى ممتاز، ولكنه مصاب بلوثة تجاه الإقتصاد. وأن المظهر الوحيد لإنسانيته بدا عندما بكى زوجتى أثناء جنازتها، وأن كل ما كان يهمه فى السودان هو ذلك القصر السخيف الذى يستضيف فيه الزائرات من سيدات الأرستقراطية البريطانية[1031].

[1030] 6 Apr. 1899, BP, box 2, file 2.
[1031] Magnus, Kitchener, 153 – 4.

الفصل الخامس عشر
سنوات النجاح الإقتصادى
1904 – 1900

إيجابيات وسلبيات الاستثمار الأوروبى

جلب العام 1898 إنتصاراً مزدوجاً على جيش خليفة المهدى وعلى الفرنسيين معاً، فقد تم – فى المحل الأول– إحباط مناورات فرنسا فى صندوق الدين العام لمنع استخدام الإحتياطيات فى تمويل حملة استرداد السودان ومشروع خزان أسوان، وظهور كاسل – فى المحل الثانى – وقدرته للعمل مع المموِلين المحليين مثل سوارس إخوان "الذين كانوا يحسبون – من قبل – على رأس المال الفرنسى"، مما فتح الطريق أمام الاستثمارات البريطانية التى سعى كرومر سعياً حثيثاً لدفعها قدماً إلى الأمام[1032]. وكان من بين الثمار الأولى لذلك تأسيس البنك الأهلى المصرى، وهو مؤسسة مالية أوجدها كرومر وبالمر لتلعب دور النقيض لصندوق الدين العام، ولمنع البنك الإمبراطورى العثمانى (الذى يسيطر عليه المموِلون الفرنسيون) من لعب دور مهم فى الشئون المالية المصرية[1033].

والدور الذى لعبه كاسل فى ذلك لا محل للمبالغة فيه، فقد كانت له علاقات وثيقة مع بيت روتشيلد، ولكن علاقته بالمموِلين اليهود المحليين كانت متينة أيضاً، وكان أولئك المموِلون يلعبون دوراً مهماً فى تمويل مشروعات الأعمال العامة[1034]، وأهم من ذلك كله إكتسابه ثقة كرومر، خلال زيارته الشتوية لمصر فى التسعينيات بينما كان يدعم – فى الوقت نفسه– علاقته ببالمر التى عادت عليهما معاً بمكاسب كبيرة، ومن ثم عندما إحتاج كرومر إلى تمويل لحملة استرداد السودان، وخزان أسوان، كان كاسل فى وضع يسمح بمد يد العون، ثم يلى ذلك الدفع بمشروعاته الخاصة قدماً إلى الأمام.

[1032] Saul, La France et l'Egypte, 649, 651; Cromer to Craver.

[1033] Cromer to Lord Hilingdon, 21 May 1898, CP/2, FO 633/8; J, Thobie, European Banks in the Middle East, in Rondo Cameron and V. I. Bovykin (eds.), International Banking 1870 – 1914 (New York: Oxford university Press 1990), 411 – 12.

[1034] Robert Vitalis, When Capitalists Collide: Buisiness Conflict and the End of Empire in Egypt (Berkeley: university of California press 1995), 33 – 8; Gudrun Kramer, The Jews of Modern Egypt, 1914 – 1952, (Seatle: university of Washington press 1989), 39 – 41.

ولا نستطيع أن نضع أيدينا على حجم الإهتمام الذى أولاه كرومر للتفاصيل الخاصة بالمشروعات التى كانت موضع التفاوض بين كاسل وبالمر، وخاصة مشروع إنشاء البنك الأهلى المصرى، وبيع مساحة 300 ألف فدان المتبقية من أطيان الدائرة السنية، وهما اللذان تم الإعلان عنهما فى يونيو 1898. فقد كان كرومر – شخصياً– مشغولاً بمتابعة الزحف النهائى على الخرطوم بالإضافة إلى إنشغاله منذ فبراير بتدهور الحالة الصحية لإيثل. وعلى كل فقد نال المشروعان تأييده التام، ولم يدرك إلا فى وقت متأخر أن المشروعين كانا من وجهة نظر الحكومة المصرية يمثلان تفريطاً خطيراً فى المصالح المصرية.

وقد حصل رالف سوارس Ralph Suares على امتياز تأسيس البنك وامتياز بيع أطيان الدائرة السنية أولاً، ثم سافر إلى أوروبا بحثاً عن مصادر للتمويل، وتلقى نصحاً بالتوجه إلى كاسل الذى كان يدرك تماماً ما للمشروعين من أهمية[1035] فالبنك يمنحه نفوذاً واسعاً، وأطيان الدائرة السنية تبشر بأرباح كبيرة عندما تبدأ أسعار الأراضى بالإرتفاع عند البدء فى مشروع خزان أسوان، وما قد يترتب عليه من توسيع شبكة الرى، بما لذلك كله من أثر على الإنتاج الزراعى.

كان البنك الأهلى المصرى شركة خاصة برأس مال مصدر قدره مليون جنيه مصرى واحد قدم كاسل نصفه بإسمه ومجموعة من ممولى لندن[1036]. وكان على البنك أن يلعب دور الخزانة الحكومية تودع فيه الحكومة جميع مواردها فيما عدا المخصص منها لصندوق الدين العام.

ونال البنك حق إصدار أوراق النقد المصرى حصرياً، وفتح البنك قسماً للإئتمان الزراعى – أواخر 1899– تنفيذاً لرغبة كرومر، وفى 1902 تحول ذلك القسم إلى شركة مستقلة بإسم "البنك الزراعى المصرى" مع وجود كاسل كأحد كبار المساهمين فيه. ويرجع اهتمام كرومر بالبنك الزراعى إلى موافقته على الضمان الذى قدمته الحكومة للبنك بألا تقل أرباحه عن

[1035] Grunwald, "Windsor – Cassel", 135 – 6.
[1036] Ibid. 136; A. E. Crouchley, Investment of Foreign Capital in Egyptian Companies and the Public Debt, Ministry of Finance Technical Paper no. 12 (Cairo, 1936), 32.

%4 من قيمة رأس المال، وأن يتولى جباة الضرائب (الصيارفة الحكوميون) مسئولية جمع وتوريد أقساط الديون الزراعية وفوائدها[1037].

وكان تكوين شركة أطيان الدائرة السنية مشروعاً أكثر تعقيداً، ولعل ذلك يفسر الوقت الذى استغرقه كرومر لفهم مغزاه، فقد كان المشروع يعنى شراء الشركة لممتلكات الدائرة بمبلغ 6.4 مليون جنيه مصرى، وهو يمثل قيمة القرض الذى رهنت الأطيان ضماناً له، رغم أن الأطيان لا تسلم للشركة قبل فبراير 1905، فإن سمح بأن تبدأ الشركة فى بيع الأراضى على الفور[1038]. وشكلت الشركة إتحاداً مالياً Consortium يجمع بين كاسل فى لندن وسوارس فى القاهرة[1039]، وفى الوقت نفسه تم بيع مصانع السكر التابعة للدائرة السنية وخطوط السكك الحديدية الضيقة بها إلى شركة محلية أخرى هى "الشركة العامة المصرية للسكر والتقطير" عام 1902[1040]. وفى هذه الحالة كان من العسير على أى ممول خارج دائرة كاسل الضيقة تدبير رأس المال اللازم لينال جانباً من تلك الصفقات الكبرى. غير أن كرومر ما لبث أن اقتنع تماماً أن الحكومة المصرية باعت أهم ما لديها من أصول بثمن بخس، فقد كتب إلى قريبه اللورد ريفلستوك فى ديسمبر 1903: "أعض أصبع الندم لأننى سمحت لكاسل أن يحقق كل تلك المكاسب الفاضحة"[1041].

كانت عملية خصخصة مؤسسات الحكومة المصرية وأصولها تقوم على قاعدة "الخطف والجرى"، وخاصة عندما يتعلق الأمر بتحديد السعر العادل المناسب، وعند نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين كانت عملية الخصخصة فى بدايتها، فقد بيعت شركة بواخر البوستة الخديوية بمبلغ 150 ألف جنيه مصرى فقط فى 1897، وتعلم رجال الإدارة – الذين كانوا يفتقدون الخبرة– من أخطائهم، وكان عليهم مواجهة مشكلة ترك الموظفين

[1037] Samir Saul, "European Capital and Its Impact on Land Distribution in Egypt: A Quantitive Analysis (1900 – 1914), in Georgy Blue, Martin Bunton and Ralph Crozier (eds.); Colonialism and the Modern World (Armonk, NY: M. E. Sharpe, 2002), 135.

[1038] Saul, La France et l'Egypte, 648.

[1039] Pat Thane, "Sir Ernest Joseph Cassel", DBB, i, 607.

[1040] Roger Owen, "The Egyptian Sugar Industry, 1870 – 1914" in Bill Albert and Adrian Graves (eds.), Crisis and Change in the International Sugar Industry Economy, 1860 – 1914 (Norwich: ISC Press 1984), 221 – 3.

[1041] 6 Dec. 1903, BA, 203076, Partners' File: Supplementary Set. Cromer must also have been aware of the fact that no sooner had shares in the Daira Saniya Company been put on the market than they appreciated enormously in value; Saul, La france et L'Egypte, 677.

الكبار الأكفاء مواقعهم بحثاً عن فرص عمل أفضل فى القطاع الخاص الآخذ فى الإتساع، وجاء انتقال بالمر من وزارة المالية ليعمل محافظا للبنك الأهلى المصرى متبوعا بانتقال موظفين أكفاء من المالية إلى البنك من أمثال فيكتور حريرى وغيره[1042]. ولم يكن ذلك يعنى مجرد حرمان وزارة المالية من بعض الموظفين الأكفاء، ولكنه كان ينطوى على نوع من تضارب المصالح، فقد حدثت مشاكل ذات طبيعة أخلاقية مماثلة، عندما قام بعض مهندسى الرى بتسريب معلومات حول مستوى ارتفاع فيضان النيل المتوقع خدمة لمصالح خاصة، مما ترتب عليه التأثير على سوق القطن فى الموسم التالى[1043]، فقد أبلغ الشيخ محمد عبده صديقه بلنت عام 1900 أنه رغم ثقته الشخصية بكرومر "هناك بعض ظلال الشك تحيط بتصرفات رجاله"[1044].

كان كرومر حريصاً – من ناحيته– على الحفاظ على ما عرف عنه من النزاهة فيما يتعلق بالأمور المالية، فكما شرح لغريمه اللورد ريفلستوك (رئيس بنك بارنج) عن سبب عدم لجوئه إلى بنك بارنج لبيع سنداته فى مصر، فقال إنه يعيش "فى بيت من زجاج"، مما يجعل أى شبهة تلاعب مثاراً لمعارضة شديدة من جانب "أولئك الذين رفض رشوتهم، وكل موظف فاسد سد عليه منافذ الكسب غير المشروع.. وكل أولئك الأندال من غير موظفى الدولة الذين يحفل بهم هذا المجتمع الذى يضم خليطاً متنافراً من البشر، ممن وضعت ضوابطى حدوداً لتصرفاتهم بصورة أو بأخرى"[1045]. ومن الممكن تسجيل بعض الحالات التى قام فيها كرومر بتوبيخ بعض الموظفين لاستغلالهم مواقعهم فى تحقيق مغانم شخصية، مثلما فعل مع هارى كروكشانك Harry Crookshank المدير البريطانى للدائرة السنية، الذى أبلغه أن شراءه لأرض من ممتلكات الدائرة يعد عملاً كريهاً[1046]. غير أن كرومر إعترف عام 1907 بعجزه عن وضع الضوابط التى تحول دون قيام الموظفين البريطانيين بالمضاربة فى سوق الأطيان العقارية[1047]. ونتيجة لذلك لم يكن باستطاعته سوى "توجيه النصح" لمن يقدم على

[1042] Cromer to Windham (Baring), 23 June 1904, BA, 203076, Partners' File: Supplementary Set.

[1043] Boyle to Mrs Boyle, 12 Apr. 1900,BP, box B, File 3.

[1044] Entry of 15 Feb. 1900 Blunt, My Diaries, 349 – 50.

[1045] 15 Nov. 1905, BA, 203076, Partners' File: Supplementary set.

[1046] CP/2, FO 633/8.

[1047] AR 1906, PP (1907), 100, 668 – 9.

أعمال "منافية للقيم الخلقية"، أو النصح بتعيين "خلف حازم"، كما حدث فى حالة بالمر الذى سمح لأعضاء مجلس إدارة البنك الأهلى المصرى بكشف حساباتهم للحصول على مبالغ طائلة لاستثمارها فى المضاربة فى السوق العقارية، وهو ما عده كل من كرومر وكاسل مثيراً للتساؤل[1048]، وهو موقف كان موضع تقدير الشيخ محمد عبده وبلنت الذى وصف كرومر بأنه: "صمام الأمان الوحيد – فى الوقت الحالى– فى مواجهة عصر المضاربات والفساد المالى"[1049].

ومع مرور الزمن، بدأ كرومر يعبر عن امتعاضه من تصرفات كاسل ذاته، فقد خرج بنصيب الأسد فى صفقة قرض خزان أسوان، وخدع كرومر فى صفقة الدائرة السنية، ولكن الأخطر من ذلك أنه كان صديقاً حميماً للملك إدوارد السابع الذى كان يكره كرومر؛ لأنه وزوجته رفضا استقبال المسز كيبل Keppel – عشيقة الملك المفضلة لديه– عند زيارتها القاهرة فى شتاء 1902 / 1903[1050]، وقد كسب كاسل صداقة الملك عندما لعب دور مستشار الاستثمارات للملك وعشيقته[1051]. وما لبث أن فعل الشئ نفسه مع الخديو، فأقرضه نصف مليون جنيه مصرى عام 1904 فى مقابل الحصول على بعض الإمتيازات، وأثار ذلك غضب كرومر الذى أراد الإبقاء على الخديو عباس الثانى فى حدود معينة من القدرة المالية حتى لا يستمر فى تمويل النشاط المعادى للإحتلال البريطانى[1052]. ولكنه ظل – رغم ذلك– يفضل كاسل على آل روتشيلد، على نحو ما ذكر لريفلستوك عام 1905[1053]؛ لأن كاسل مريح فى التعامل وعلى استعداد تام لقبول المشروعات المتنوعة، ويمكن أن يضاف إلى ذلك أنه بعد إبرام الإتفاق الودى عام 1904 قلت حاجة كاسل إلى استخدام لندن ضد باريس على أعلى مستوى[1054]، وأهم من ذلك أن كاسل كانت لديه روابط مهمة مع ذلك النوع

[1048] قيل إن أكبر المبالغ التى تم سحبها على المكشوف 400 ألف جنيه مصرى للفرد الواحد
Cromer to Revelstoke, 16 Feb. 1906, BA, 203076, Partners' File: Supplementary Set.
(كشف الحساب overdaft هو فى حكم القرض بدون ضمان – المترجم).

[1049] Diary entry for 17 Mar. 1905, quoted in Longford, Pilgrime of Passion, 359.

[1050] Cromer to Bell, 11 Nov. 1902, MPL, TA (1900 – 10); Hardinge to Grey, 13 Apr. 1906, PRO, FO 800/92.

[1051] Diana Souhami, Mrs Keppel and Her Daughters (London: Harper Collins, 1996) 53 – 7.

[1052] Pat Thane, "Financiers and British State: The Case of Sir Ernest Cassel" Business History 28/1, (Jan. 1986), 92.

[1053] 15 Nov. 1905, BA, 203076, Partners' File: Supplementary Set.

[1054] Saul, La France et l'Egypte, 669.

من الممولين الفرنسيين الذين يريد كرومر تشجيعهم على الاستثمار فى مصر؛ لأن ذلك يدعم الوضع الراهن فى مصر[1055].

ووجد كرومر فى إلدون جورست رفيقاً حميماً، كان جورست خارج دائرة خلصاء كرومر لفترة قصيرة قبل العام 1898 عندما ركز كرومر ثقته كلها فى بالمر[1056]، ولكن عندما سعى بالمر للحصول على منصب محافظ البنك الأهلى المصرى الأعلى راتباً والأغنى من حيث الفرص المتاحة، وجد كرومر فى جورست البديل المناسب لبالمر فى وزارة المالية المصرية، ولما كان كرومر فى لندن ليعود إيثل. فقد أبلغ جورست بتعيينه مستشاراً مالياً فى 21 يوليو، وقد انتهز كرومر الفرصة – على حد قول جورست: "ليوجه لى النصح فيما يتعلق بأدائى لعملى مستقبلاً... فأثار نقطتين إحداهما عن علاقاتى مع الجنس اللطيف التى رآها تتجاوز كثيراً حدود التراضى، والأخرى تتعلق بعلاقاتى مع أبناء جنسى التى رآها غير مرضية بالقدر الذى يكفى لتحقيق التوافق المطلوب"[1057]. ومن حسن الطالع أن جورست لم يعر ذلك النقد إهتماماً، وإتجه بهمة ونشاط نحو الاستفادة بكل المعطيات ليجعل من نفسه شخصاً لا غنى عنه، وقد وصف علاقة العمل الجديدة مع كرومر (عام 1900) على النحو التالى:

> "إن المستشار المالى يعد من الناحية العملية الرئيس الفعلى لمجلس وزراء البلاد، ومن الممكن أن يصبح اللورد كرومر حاكماً سمحاً عندما يضع ثقته فى المستشار المالى.. فلا يمكن عمل شئ بدون موافقتى، ولا يرجع ذلك إلى نفوذ اللورد كرومر وليس إلى مجرد توجيهه (الذى لا أرغب فى تحجيمه على أى حال)، إننى أدير حكومة البلاد بحكمة"[1058].

لقد كون كرومر وجورست معاً شراكة حيوية ساعدت على توطيد دعائم المركز الإقتصادى البريطانى فى مصر، فجرت سلسلة من المفاوضات مع صندوق الدين العام للإفراج عن الإعتمادات الإحتياطية لاستكمال إنشاء خزان أسوان، ولإقامة خطوط السكك الحديدية الجديدة، وتبع ذلك الإتفاق التجارى الذى أبرم عام 1902 بين إنجلترا وفرنسا، ثم المعاهدة

[1055] Cromer to Revelstoke. 6 Dec. 1903, BA, 203076, Partners' File: Supplementary Set.
[1056] Mellini, Gorst, 55 – 56.
[1057] Quoted Ibid, 67.
[1058] Ibid, 72.

الأنجلو – فرنسية عام 1904، التى أطلقت يد بريطانيا فى السيطرة على المالية المصرية، والتى نتج عنها محاولة تحجيم ما بقى من سلطات صندوق الدين العام، بالقيام بتحويل ضخم آخر لجانب من الدين الموحد، ولكن كرومر ما لبث أن توصل إلى أن المناورات السياسية بين إنجلترا وفرنسا حول مراكش (المغرب الأقصى) بلغت حداً بعيداً، وهى العملية التى كان كرومر نفسه طرفاً فيها، مهدت الطريق لحث فرنسا على التخلى عما بقى لها من حق الإعتراض فى صندوق الدين العام، على الطريقة التى يتم بها إنفاق الإيرادات المصرية.

وكانت الدروس التى وعاها كرومر وجورست من الإمتيازات التى منحت لكاسل وجماعته عام 1898، على درجة كبيرة من الأهمية. ففى 1899 لعب جورست دوراً محورياً فى منع كاسل من أن يدفع إلى الأمام بمشروعات مماثلة لأراضى الدومين لتلك التى قدمها بالنسبة للدائرة السنية، مفضلاً أن يتم بيع أطيان الدومين مباشرة لصالح الخزانة المصرية. وتبع ذلك قيام كرومر وجورست بإحباط المحاولات التى تمت لخصخصة سكك حديد مصر، بحجة أن الإحتكار يحبط مساعى رأس المال الخاص إلى المنافسة فى هذا المجال، مما يقلل من فائدة الإدارة الحكومية للسكك الحديدية[1059]، وفى الحالتين كان لذلك فائدته فى دعم الفرنسيين باستمرار وجود الإدارة الأنجلو – فرنسية للسكك الحديدية ولأطيان الدومين، وهى سياسة ترضية فى إطار الإتفاق الودى، طالما لم يعد هناك تدخل فرنسى رسمى فى هذا المجال.

فكرة كرومر عن مصلحة الدولة المصرية

ولعل هذا الوضع الجديد قد شجع على بلورة فكرة شديدة الوضوح عن مصلحة الدولة المصرية، وهى فكرة مبنية على أساس أن كرومر وحده هو الذى يحدد ما يعتبر من مصلحة الإقتصاد المصرى. ومن أهم مظاهر ذلك فقدانه الثقة فى رأس المال الخاص لقدرته على التدخل فى مشروعاته الخاصة. فقد كتب أن "التجار يجب أن يظلوا تحت

[1059] Saul, La France et l'Egypte, 660 ff.

السيطرة"[1060] وهنا نعود إلى القضية التى أثارها فى الهند عند النظر فى إنشاء الخطوط الحديدية والتى تتعلق بما يمكن للدولة أن تقوم به على خير وجه، وما يمكن أن يقوم به القطاع الخاص بصورة أفضل.

كما أن تقديره للطبيعة المركبة للإقتصاد المصرى له مغزاه الكبير، فهو ينمو بإيقاع أسرع، ولكنه فى الوقت نفسه يفسح مجال العمل أمام العديد من الشركات والطرق الجديدة لجنى الأرباح. فالتفكير فى الأمور الإقتصادية لم يعد مقصوراً على توفير الموارد اللازمة لسداد أقساط الدين العام، ولكنه أصبح يتضمن المسائل الخاصة بإدارة البنوك، وتحقيق التوازن بين الزراعة والصناعة، وتوفير فرص العمل للعاطلين، والسياسة الواجب اتباعها إزاء المشروعات الكبرى التى تواجه صعوبات إقتصادية. وكان كرومر مهيأ للتعامل مع بعض تلك الأمور مثل البنوك التى كان على دراية تامة بها، فقد فكر بتلافى تحويل البنك الأهلى المصرى إلى بنك مركزى للدولة أو "بنك البنوك"، على حد تعبيره، يكون له حق الإشراف على النشاط المصرفى كله للتأكد من توفر سيولة نقدية لدى البنوك لمواجهة المطالب العاجلة أو قصيرة الأجل، حتى يكون قادراً على توفير السيولة المطلوبة[1061]. وقد سنحت فرصة لتحقيق ذلك التحول بعد وفاة بالمر فجأة عام 1906، وبدأت فعلاً الخطوات اللازمة لتحويل البنك الأهلى المصرى إلى بنك مركزى، وعند وقوع أزمة 1907 لم تكن الخطوات قد اكتملت، ثم علق الموضوع تماماً[1062]. وهناك حالات أخرى لتدخل الدولة فى الإقتصاد تتمثل فى القرار الخاص بدعم الدولة للشركة العامة المصرية للسكر والتقطير، ليطرح من جديد للتساؤل حول ما يمكن أن تقوم به الدولة، وما تتركه لرأس المال الخاص.

ومن الملاحظ أيضاً أن كرومر بدأ يكثر من الاستفادة بالإحصاءات وخاصة المعلومات الواردة بتعداد 1897، فى الإشارة إلى مقولات النمو الإقتصادى وما حققه من رفاهية للمصريين، ففى السنوات الأولى من عمله بمصر، لم يهتم كرومر بالإحصاءات بل أمر عام 1883 بإغلاق مكتب الإحصاء، ولكن مع استمرار بقاء الإحتلال أصبح كرومر فى

[1060] Cromer, "The Government of Subject Races", repr. In the Earl of Cromer, Political and Literary Essays 1908 – 1913, (London: Macmillan, 1913), 51.

[1061] Cromer to Revelstoke, 22 Feb. 1906, BA, 203076, Partners' File: Supplementary Set.

[1062] Saul, La France et l'Egypte, 684, 688.

حاجة إلىالأرقام الإحصائية، فأعاد تأسيس المكتب عام 1905، واستخدم مادة الإحصاءات على نمط ما كان يتم فى التحليل الإقتصادى بالهند البريطانية: التوازن بين عدد السكان فى البلاد والموارد المتاحة بها، وكتب فى تقريره السنوى للعام 1906 أنه لا توجد بمصر مشكلات شبه مستعصية على الحل مثل التعداد المتزايد للسكان الذين يعيشون على حافة المجاعة[1063]. غير أن ثمة علامات مثيرة للقلق: فهناك مديرية أو إثنتان من مديريات الوجه البحرى تكتظ بالسكان، وهناك اعتماد متزايد على محصول واحد للتصدير هو القطن، وكان ذلك التفكير وراء ما توصل إليه من ضرورة إقامة تعليم فنى؛ لإتاحة فرص العمل أمام سكان الريف فى مجالات أخرى غير الزراعة، وكذلك دعم إنتاج قصب السكر كسبيل لتوزيع الإنتاج الزراعى[1064].

وتجلى تأثر كرومر بتجربته الهندية فى تفكيره بوجود مجالات ذات حدود معينة، ومن أبرز تلك المجالات الصناعة وموقفه من اتجاه بعض المصريين إليها، وعدم التوسع فى التعليم بالقدر الذى يتفق مع تطلعات الطبقة الوسطى المتنامية، وفيما يتعلق بالمجال الأول طرح الموضوع لأول مرة عام 1895 عندما التقى كرومر بريطانياً يدعى ماثيو ولكس Matthew Wilks حصل على ترخيص من نظارة الأشغال العمومية لإقامة مصنع بالقاهرة للمنسوجات القطنية، وشعر كرومر بالقلق لأن نجاح هذا المشروع قد يؤدى إلى قيام غيره من المصانع، وكتب للورد كمبرلى أن لذلك المشروع "نتائج خطيرة على المالية المصرية والتجارة الكبيرة فى القطن الجارية بين مصر وبريطانيا[1065]، وذكر أن الخزانة المصرية قد تفقد العوائد الجمركية التى بلغت نسبتها 8% على واردات المنسوجات القطنية، مما قد يؤدى إلى تذمر مصدرى المنسوجات فى لانكشاير، ومن ثم ذكر لولكس أن هناك أمرين ضروريين: "إما إلغاء العوائد الجمركية على صادرات القطن وإما فرض ضريبة عالية على المنسوجات القطنية المصنعة محلياً"[1066].

[1063] AR 1905, PP (1906) 100, 500.

[1064] Ibid, 503.

[1065] 15 Apr. 1895, PRO, FO 141/311.

[1066] Ibid Also E. R. J. Owen, Lord Cromer and the Development of Egyptian Industry, 1883 – 1907', Middle Eastern Studies, 2/4 (July 1966), 282 – 301.

وهكذا لم يستطع ولكس المضى قدماً فى مشروعه، ولكن عادت المسألة إلى الظهور عندما نقل ولكس حقوقه فى الإمتياز إلى مجموعة من رجال الأعمال الإنجليز الذين وضعوا خطة لإقامة "شركة المنسوجات القطنية المصرية المحدودة" عام 1898، فوجدوا أن كرومر لا زال مصراً على موقفه. ورداً على طلبهم عدم فرض ضريبة معوقة على إنتاج الشركة وجه كرومر جورست إلى تأكيد استحالة عدم فرض الضريبة، وقال جورست لهم "إن النظام الذى يسعون بموجبه؛ لإقامة مصانع للمسنوجات القطنية بمصر يقتضى الحماية، ولكن سياسة الحكومة المصرية تقف ضد الحماية تماماً"[1067]. ولكن ذلك لم يفت فى عضد أصحاب المشروع فمضوا فى خطتهم على أساس أن فرض الضريبة على إنتاج المنسوجات فيه مساس بما تكفله لهم الإمتيازات الأجنبية من حقوق، ومن ثم يمكنهم اللجوء إلى المحاكم المختلطة[1068]. وبدأ العمل فى بناء المصانع الجديدة عام 1900، وتم إحضار المديرين والفنيين من لانكشاير، كما بدأ تدريب العمال المصريين على تشغيل الآلات الجديدة.

وقبل بدء العمل بالمصانع فى مارس 1901 قام رئيس الشركة بمحاولة أخيرة للحيلولة دون فرض رسوم على إنتاج الشركة ولكن جهوده لم تكلل بالنجاح، وتحفزت لانكشاير للمواجهة[1069]. وصدر مرسوم يقضى بفرض ضريبة إنتاج على المنسوجات القطنية قدرها 8% المنتجة فى المصانع (ولا تسرى على النسيج اليدوى المنتج فى الورش)، على أن يسرى العمل بالمرسوم فى الشهر التالى، عندئذ لجأت الشركة إلى المحاكم المختلطة وكسبت القضية، غير أن كرومر لم يلق السلاح، فأمر الإدارة باستئناف الحكم[1070]. ولدهشة الجميع قضت المحكمة المختلطة العليا لصالح الحكومة وبذلك أصبح على شركة المنسوجات المصرية ومنافستها بالإسكندرية "الشركة الإنجليزية المصرية للغزل والنسيج" أن تدفعا 8% رسم إنتاج على جميع منتجات مصانعهما.

[1067] Gorst to Little and Johnson, 8 Oct. 1898, enclosed in Cromer to Salisbury, 29 Oct. 1898, PRO, FO 141/335.

[1068] For a copy of the relevant legal opinion, see de wiart to Garfallo, 4 May 1896, to be found in Egyptian Cotton Mills Ltd, Copy of the correspondence with the Egyptain Government Relating to the 8% Duty', enclosed in Lansdowne to Rennell Rodd, 9 Aug. 1901, PRO, FO 141/361.

[1069] Atherton to the Directors, 8 Mar. 1901, in, Copy of Correspondence with the Egyptian Government Relating to the 8% Duty'.

[1070] Cromer to Bergne, 2 May 1901, CP/2, FO 633/8.

ولا نستطيع التأكد من مدى تأثير كرومر على قرار المحكمة المختلطة، ولا من تأثير ضريبة الإنتاج فى الصعوبات التى واجهتها الشركتان، فقد عجزت شركة المنسوجات المصرية عن تحقيق أرباح ذات بال، وتمت تصفيتها عام 1907، وقامت الشركة الإنجليزية المصرية للغزل والنسيج حتى 1908 ثم ساعدها قرار جورست (الذى خلف كرومر فى منصبه) بتعليق رسوم الإنتاج لمدة خمس سنوات، وحددت الشركتان عدة أسباب لفشلهما منها ضعف الطاقة الإنتاجية وصعوبة وجود تجار تجزئة لتسويق الإنتاج طالما كان بيع المنسوجات المستوردة أكثر ربحاً. غير أن كون الشركتان تعملان على هامش النشاط الإقتصادى يجعل من فرض رسم الإنتاج سبباً أساسياً لإنهيارهما، كما أن عزم كرومر على محاربتهما بضراوة قد أحبط كل من يفكر فى اقتحام ميدان الصناعة، وجعله لا يتحمل عناء المحاولة.

وتوضح هذه القضية وجهة نظر كرومر عن الإدارة الاستعمارية والإمبراطورية على وجه العموم، فهو لا يعارض الصناعة الحديثة فى ذاتها، معتقداً أنها سوف تنمو بصورة طبيعية بمرور الزمن فى كل من الهند ومصر. ولا شك أنه سعى – فى حالات معينة– إلى العمل على تنميتها مثل دعمه لشركة سورناجا التى قامت بإنتاج الأنابيب اللازمة لنظام الصرف[1071]. ولكنه كان يرى أن تشجيع الصناعة لا يجب أن يتم على حساب الواردات الرخيصة من المنسوجات اللازمة لكساء الجماهير الفقيرة فى مجتمع غالبيته من الفلاحين[1072]، كما أنه كحاكم إمبريالى لم يكن يرى تناقضاً بين مصالح بريطانيا ومستعمراتها على نحو ما ذكر من قبل دفاعاً عن السياسات التى اتبعها مع ريبون فى الهند "لقد تنبأوا أن تضارب المصالح التجارية الهندية مع لانكشاير قد تسبب فى إحتقانات وتوترات قد تترتب عليها أضرار سياسية لا نهاية لها"[1073]. وفى هذا الصدد من المتوقع أن تلعب التجارة الحرة دوراً سياسياً وإقتصادياً بالحيلولة دون قيام نزاع داخل إطار الإمبراطورية ذاتها، وهنا كان من السهل على معارضيه فى الهند ومصر أن يقدموا نقيضاً لطرحه هو لزوم التضحية

[1071] M. E, Yapp (ed.), Politics and Deplomacy in Egypt: The Diaries of Sir Miles Lampson, 1935 – 1937 (Oxford: Oxford university press 1997), 231 – 2.

[1072] Baring, "Recent Events in India", 687.

[1073] The Fiscal Question in India' in Cromer, Political and Literary Essays, 1908 – 1913, 331.

بالمصالح المحلية لصالح المصالح البريطانية، والتضحية بالمصالح الصناعية المحلية لصالح فكرة إبقاء المستعمرات فى حدود التخصص فى الإنتاج الزراعى[1074].

وعندما كان الأمر يتعلق بسياسة التعليم فى مصر، كان كرومر أقل استعداداً لإعادة النظر فى آرائه، وأسباب ذلك متعددة ويصعب ترتيبها حسب الأهمية. ولعل من المناسب أن نبدأ بالقول أن التعليم فى إنجلترا – عندما كان كرومر صبياً– كان فى معظمه خاصاً ولم يكن أداة من أدوات السياسة الحكومية[1075] ولذلك كان من الطبيعى أن يتجه هذا الحاكم الإمبريالى إلى التجربة الهندية بحثاً عن النموذج الذى يمكن أن يصاغ على نسقه التعليم فى مصر، وعندئذ أصبح من السهل الوقوع فى فخ الفكرة السائدة فى الهند البريطانية من أن التوسع فى تعليم من لا يدخلون فى إطار النخبة قد يؤدى إلى إيجاد "فائض" من المتعلمين الذين لا تتوفر لهم وظائف، ومن ثم يتسببون فى الهياج السياسى. وكان انحياز كرومر لهذه الفكرة واضحاً حتى إنه رأى أن التعليم المصرى يخرج من يثيرون المتاعب، حتى عندما كانت المدارس المصرية عاجزة عن تخريج العدد المناسب من المعلمين فى تلك الحدود الضيقة للتعليم التى وضعها الإحتلال[1076].

وثمة تأثير آخر فى السياسة التعليمية جاء من التجربة الهندية فى العقود المتأخرة من القرن التاسع عشر، هو تزايد التشاؤم من إمكانية استخدام النموذج البريطانى للتعليم فى تخريج هنود يتمتعون بخصائص الهوية الأوروبية وقيمها الأخلاقية التى تعد متطلباً أساسياً للإدارة الفعالة. فقد رأى البريطانيون فى ذلك فشلاً ذريعاً للنموذج الإندماجى الذى روج له ماكولاى Macaulay وغيره. وعلى كل يمكن إرجاع ذلك إلى انتشار الأفكار الخاصة بالتميز العنصرى فى أواخر القرن التاسع عشر، والتأثر الشديد بها، تلك الأفكار التى ذهبت إلى صعوبة وربما استحالة استفادة أبناء المستعمرات من التعليم البريطانى[1077]. وكانت مقولة ملنر أن "استيعاب أسلوب الحياة الأوروبية عن الطبقة العليا فى مصر كان سطحياً" وانتقاده

[1074] e. g. ''Report of the Organizing Committee for the First Egyptian National Congress', Pt. 111: The Economic Situation', in Minutes of the Proceedings of the First Egyptian National Congress (Alexandria 1911), 30 – 1.

[1075] Kinsey, Egyptian Education Under Cromer, 79, 213 – 15.

[1076] Kinsey, Egyptian Education Under Cromer, 195 – 213.

[1077] Ibid, 86 – 7.

لأفراد تلك الطبقة بالقول بأنهم فى حاجة إلى "سلسلة فقرية"[1078]، كانت تلك المقولة نموذجاً نمطياً لأسلوب التعبير عن الاستعلاء العنصرى.

ومن ثم نجد مجموعة من التحيزات ذات الأصول الهندية، دعمها التخوف المحلى من الرغبة فى زيادة المكون البريطانى فى النظام التعليمى المصرى، والشح الشديد فى الإنفاق على التعليم. وقد أوضح كرومر هذه المبادئ (إذا جاز لنا أن نعدها مبادئ) التى حكمت تفكيره فى عقد التسعينيات، عندما تعرض لضغوط مجلس شورى القوانين والصحافة المصرية، وذلك فى تقريره عن العام 1902[1079]، فقال بضرورة وجود نوعين من التعليم الأول تعليم أوروبى الطابع فى المدارس الإبتدائية والثانوية، والمدارس العليا الثلاث، لإعداد العناصر اللازمة للعمل بالمصالح الحكومية، وتحد الرسوم الدراسية من الإقبال على هذا النوع من التعليم. أما النوع الآخر من التعليم فهو أوسع مدى، ويتمثل فى "الكتاتيب" فى الريف[1080]، التى قد يحصل أحسنها على معونة حكومية حال خضوعه للتفتيش، وهو مشروع توقف توسعه على وفرة الإعتمادات المالية اللازمة للمعونة والعدد المناسب من المعلمين.

وتم تبرير هذا الإتجاه بمنطق على قدر من التشوه، فقد ذهب كرومر إلى أن الحكومة الصالحة تحتاج إلى جهاز إدارى جيد وموظفين أكفاء، ولكن من الخطأ تخريج أعداد من المتعلمين تفوق حاجة الحكومة إلى الموظفين، أو إعطاء الإنطباع أن المدارس الحكومية الإبتدائية هى بداية الطريق إلى الإلتحاق بالوظائف الحكومية، ومن ثم استخدمت الرسوم الدراسية كأداة ضبط للحد من عدد تلاميذ المدارس، كما استمر كرومر فى تنفير أولياء أمور التلاميذ من التعليم الثانوى بالإلحاح على أن التعليم الفنى أجدى نفعاً من الناحية العملية، ولابد أن يكون الإنجليز قد رأوا تلك السياسة معقولة؛ لأنهم نظروا إلى الأمور من زاوية الأمن العام والإدارة الجيدة، ولكنها كانت تمثل تحدياً لرجال التعليم الذين يؤمنون بضرورة التعليم كقيمة فى حد ذاته، وللطبقة الوسطى المصرية الآخذة فى الإتساع التى تتطلع إلى مستقبل عملى أفضل لأبنائها.

[1078] Milner, England in Egypt, 321, 328.

[1079] PP (1903), 87, 1008 – 14.

[1080] Cromer to Freemantle, 17 Dec. 1896, CP/2, FO 633/8.

وارتاح كرومر إلى دانلوب باعتباره من أنسب من يتولى تنفيذ سياسته التعليمية، رغم يقينه من قدراته المحدودة، لحرصه على الإلتزام بما يطلب منه، وقدرته على تحمل النقد الشديد الذى يتعرض له[1081]، ولابد أن يكون كرومر قد وافق على الطريقة التى اتبعها دانلوب فى اختيار المعلمين الإنجليز، تلك الطريقة التى أثارت المزيد من النقد منذ عام 1903 عندما استبدلت بها سياسة تعيين خريجى الجامعات من الإنجليز، فقد تبين أن الكثير منهم لا يصلح للتدريس، ويستخدم العمل بالمدارس المصرية موضع قدم للقفز إلى وظيفة أخرى فى المصالح الحكومية[1082]. غير أن الكثيرين منهم بقوا فى التعليم مما أخل بالتوازن فى المعارف تماماً، فبينما إزداد عدد المعلمين الإنجليز بالمدارس الثانوية والمدارس الفنية من 57 إلى 120 معلماً فيما بين 1896 – 1906، إنخفض عدد المعلمين المصريين من 128 إلى 98 معلماً[1083]. كما أن دانلوب حال دون تولى المصريين مراكز مهمة فى إدارة المدارس خوفاً من ضعف كفاءتهم للقيام بمثل هذا العمل، وهى فكرة عكست ضيق أفقه[1084].

ومن الصعوبة بمكان معرفة ما إذا كان أى حاكم إمبريالى آخر على استعداد للإهتمام بمنح المصريين فرص أفضل للتعليم، ففى حالة كرومر، من المؤكد أنه لم يتعرض لضغط من دانلوب أو مستشاريه الآخرين لتقديم المزيد فى مجال التعليم[1085]. وعلى سبيل المثال، اختار ملنر عنواناً للصفحات القليلة التى كتبها عن التعليم فى كتابه "إنجلترا فى مصر"، هو "النوافل والغايات فى الإصلاح". غير أن الفترة التى شهدت نمواً إقتصادياً غير مسبوق، وزيادة فى السكان بلغت 125 ألف نسمة سنوياً، شهدت زيادة فى عدد تلاميذ المدارس الإبتدائية الحكومية من 6800 تلميذ عام 1892 إلى 8520 تلميذاً عام 1905، ولكن عدد من حصلوا على الشهادة الإبتدائية عام 1902 لم يتجاوز مائة تلميذ[1086]. ويعترف تقرير

[1081] Kinsey, "Egyptian Education Under Cromer", 250 – 1.

[1082] Humphery Bowman, Middle East Window (London: Longmans, Green 1942) 38 – 41.

[1083] Kinsey, Egyptian Education Under Cromer', 308.

[1084] Ibid, 398.

[1085] Kinsey, "Egyptian Education Under Cromer", 202 – 3.

[1086] Milner, England in Egypt, 303; Marlowe, Cromer in Egypt, 290; Reid, Cairo University and the Making of Modern Egypt, 18.

كرومر للعام 1902 أن الإنفاق على التعليم لا يزيد عن واحد بالمائة من بند المصروفات بالموازنة[1087].

فلا عجب أن نجد المصريين على اختلاف مواقعهم يتحدون فى الهجوم على سياسة كرومر التعليمية، فذهبوا إلى أن فرصة التعليم ليست متاحة إلا لعدد محدود من أبناء الأثرياء، وأن التعليم يتم باللغة الإنجليزية دون الإهتمام بالتاريخ والثقافة الوطنية، بينما لا يجد السواد الأعظم من المصريين أمامهم مجالاً للتعليم سوى الكتاتيب على ما شابها من قصور، ورأى مصطفى كامل أن الهدف من السياسة التعليمية "القضاء التام على الشعور الوطنى"[1088] وذهب الشيخ محمد عبده إلى أن تلك السياسة تهدف إلى تخريج موظفين للعمل بالحكومة ولا تهدف إلى تقديم التعليم المناسب والتهذيب الخلقى والوجدانى[1089]، ورغم أن أحمد لطفى السيد كان يمتدح إتجاه كرومر إلى توسيع قاعدة الكتاتيب، فقد إنتقد النظام التعليمى لإفتقاده إلى دعم الإنتماء المصرى، وإهماله دراسة العالم السياسى المحيط بمصر[1090].

الوحدة والزواج الثانى

حولت وفاة إيثل، والوحدة والحزن، دار المعتمد البريطانى إلى مكان خال من السعادة[1091]. وحاول كرومر أن يلتمس سبيلاً للهروب من تلك الحالة بالإنشغال بمهام منصبه، وبترجمة بعض الأشعار اليونانية إلى الإنجليزية حتى تجمع لديه كتاب صغير تبادله أصدقاؤه عام 1903، ويقدم لنا بويل وصفاً لعادات العمل عند كرومر فى تلك الأيام: "كان اللورد يضع على الطاولة ثلاث سلال كتب على واحدة منها "مهملات"، وعلى الثانية "الديوان" وعلى الثالثة "تحت النظر"، وكلن يتم تفريغ سلة "الديوان" نحو العشرين مرة فى اليوم الواحد ليملأها فى كل مرة من جديد"، وكان هناك جرس على الطاولة يقرعه كرومر لاستدعاء موظفى الديوان فى الحجرة المجاورة لمكتبه. وقد قرعه – ذات يوم– 18 مرة خلال ساعة

[1087] Ibid.

[1088] Mustafa Kamil, Egyptiens et Anglais (Paris: Perrin 1906), 28.

[1089] Charles C. Adams, Islam and Modernism in Egypt: A Study of the Modern Reform Movement Inaugvrated by Muhammad Abdouh (London: Oxford University Press 1933) 196.

[1090] الجريدة، 15 سبتمبر، 23 نوفمبر، و6 ديسمبر، 1908.

[1091] Letter to Rennell Rodd, Apr. 1900, quoted in Zetland, Lord Cromer, 287.

ونصف الساعة، وكان يخرج من مكتبه إلى حجرة موظفى الديوان بين الفينة والأخرى ليروى نكتة أو يسأل سؤالاً[1092].

وكان كرومر يتناول طعام العشاء وحده معظم الأيام، ما عدا الأيام التى يحضر فيها ولداه ونينا إبنة أخيه لزيارته، وكان عندما يتناول العشاء وحيداً يقضى فترة ما بعد العشاء فى التدخين والعزف على البيانو حتى منتصف الليل عندما يأوى إلى فراشه[1093]. وازداد ارتباطه بهارى بويل باعتباره من القلائل الذين يرتاح إلى صحبتهم[1094]. ولاحظ هوراس رامبولد – الذى عاد إلى القاهرة عام 1900– أنه لم يعد من السهل التواصل مع كرومر كما كانت الحال من قبل، فقد أصبح "بويل يقف حائلاً بيننا وبين رئيسنا"[1095]. كما ترك غياب إيثل فراغاً، فلم يعد مجتمع القاهرة عنده إلا "مجموعة من السخافات". ووسط هذا الجو الكئيب كانت هناك ضغوط دائمة على كرومر لحثه على الزواج ثانية، وربما زاد شعوره بالحاجة إلى ذلك بعد زواج نينا فى أكتوبر 1900 ووفاة فيننشيا شقيقة إيثل وموضع ثقته فى نوفمبر 1900، كما أن أخيه توم تزوج للمرة الأولى عام 1901 وكان فى الثانية والستين من عمره.

ولعل ذلك يفسر إسراع كرومر إلى الخطبة والزواج فى خريف 1901، وكانت عروسه هى الليدى كاترين تاين Thynne بنت الماركيز باث الرابع. وكانت – فى الواقع– تربطها صلة قرابة بعيدة بإيثل، كما كانت صديقة لها[1096]. ويرى بلنت أن قرار كرومر الزواج جاء مفاجئاً، فقد كان مقرراً أن يزور بورنماوث ليضع إكليلاً من الزهور على قبر إيثل فى منتصف سبتمبر، ثم يتجه إلى باريس للقاء جورست، ولكن الخطبة تمت فجأة[1097].

[1092] 23 Mar. 1900, BP, box B, File 3.

[1093] Boyle to Mrs Boyle, 29 Sept. 1901, BP, box B, File 3.

[1094] Zetland, Lord Cromer, 287.

[1095] Quoted in Gilbert, Sir Horace Rumbold, 40.

[1096] Boyle, Boyle of Cairo, 148; Charles Douglas – Home, Evelyn Baring: The Last proconsul (London: Collins, 1978), 18 – 19. Cromer's Cousin Harriet Ashburton had married Katherine's.

[1097] 4 Oct. 1901 Blunt, My Diaries, 425.

ويبدو من الرسائل القصيرة التى وجهها لكاترين أنه كان متيماً بها[1098]، وكتب إليها فى الليلة السابقة على الزفاف: ".. أحبك من أعماق قلبى وروحى، ولن تندمى قط على الخطوة التى تقدمين عليها"[1099].

وقد تمت مراسم الزواج بكنيسة سانت توماس ببورثمان سكوير فى لندن، وحضر الحفل أبناء كرومر وبعض أقاربه وعلى رأسهم اللورد نورثبروك وإبنته إما، وصديقه وزميله السابق بالهند ألفرد ليال وزوجته[1100]. وعرضت هدايا العروسين بقاعة الاستقبال بمنزل والدة كاترين ومن بينها حامل من الفضة أهداه الملك لكرومر[1101]. وقضى العروسان الليالى الثلاث الأولى لزواجهما ببيت توم (شقيق كرومر) فى نورفلك، ثم غادرا محطة تشارنج كروس للقطارات بلندن فى طريقهما إلى برنديزى حيث لحقا بالباخرة إيزيس المتجهة إلى بورسعيد.

ويبدو أن رجال دار المعتمد البريطانى قد سعدوا بهذا الحدث، فيذكر رامبولد أنه شعر بالإرتياح عندما تلقى النبأ، وكتب لوالده أن كرومر لم يكن يوماً أسعد مما هو عليه الآن، وأن ذلك الزواج سوف يقلل من تأثير بويل على كرومر مما يتيح لرامبولد لفت انتباهه واستعادة ثقته به[1102]، كما لاحظ بويل أن وصول كاترين إلى الدار أعادها إلى ما كانت عليه من قبل، وأن اللورد العجوز عاد إلى طبيعته[1103]، واشتركت كاترين مع كرومر فى حب المشى على ضفة النيل، كما أحبت الجرى على رمال الشاطئ[1104].

غير أن الأحوال إختلفت عما كانت عليه من قبل، فيذكر رامبولد – الذى التقى كاترين بحفل شاى إنجليزى قبل خطبتها بكرومر – أنها لم تكن لافتة للنظر، ضيقة الأفق، شديدة العناد، ولا تحسن التصرف فى الأوقات الحرجة[1105]، بينما رآها رونالد ستورس "رقيقة الإحساس نبيلة المظهر... ولكنها لا تهتم كثيراً بالدبلوماسية والحياة الإجتماعية"[1106]. وقيل أيضاً إنها أدارت

[1098] CP/5, box 1, File 1.
[1099] CP/5, box 1, File 1.
[1100] The Times, 23 Oct. 1901.
[1101] Ibid' Daily News, 22 Oct. 1901.
[1102] Gilbert, Sir H. orace Rumbold, 43.
[1103] Boyle to Mrs. Boyle, 31 Oct., and 6 Nov. 1901, BP, box B, file 3.
[1104] 23 Nov. 1901, BP, box B, file 3.
[1105] Gilbert, Sir Horace Rumbold, 42 – 3.
[1106] Storrs, Orientations, 53.

أمور دار المعتمد بقدر من الإهمال والفوضى، حتى إنها كانت تنعس أثناء حضورها حفلات العشاء (مثلما كانت تفعل والدتها)، وأنها كانت ترفض التحدث إلى الجالية البريطانية بالقاهرة، وتراهم جميعاً أغبياء ما عدا السير إدوارد جريج Grigg[1107].

ولم يكن من السهل على كاترين تولى إدارة شئون بيت كانت تديره من قبل الزوجة الأولى التى كانت تحظى بتقدير الجميع، وخاصة أن شيئاً لم يتغير بالدار، فظلت صورة إيثل وغيرها من الصور التذكارية باقية فى أماكنها[1108]، وقد أصبحت زوجة أب لشابين، ومسئولة عن الواجبات الإجتماعية التى على كرومر القيام بها تجاه العديد من البريطانيين والأوروبيين والمصريين. ورغم ما شاب أداءها من قصور، رآها البعض جذابة، وحيوية، وذات اهتمام بالمؤسسات الخيرية المحلية[1109]. ويذكر إرنست رتشموند – الموظف بالأشغال – أنها إمرأة عظيمة تهتم بالضعفاء وتشملهم بعطفها[1110].

ومن الصعب الوقوف على وجهة نظر كرومر نفسه، فلابد أنه كان يعرف الكثير عن نشأتها الغريبة حيث كان والدها يصطحبها وحدها معه لقضاء أعياد الميلاد فى فينسيا، وكانت أمها تحظر على بناتها الثلاث التطلع كثيراً فى المرايا مما قد يعكس القلق من طلعتهن المتواضعة الجمال[1111]. كما يعلم أيضاً أنها كانت سعيدة فى حياة العزلة – قبل الزواج– فى منتجعها الخاص فرست سانت ألبان، وأنها (على حد قول أخيها) ليست متعلمة، وأنها ميالة إلى الأعمال الخيرية إلى حد إشتغالها بأندية الأولاد بلندن[1112]. ولكنها كانت على درجة كبيرة من الثراء، بلغت قيمة ثروتها عشرة آلاف جنيه إسترلينى، كما أنها كانت ذات صلات وثيقة بنخبة الأرستقراطية البريطانية[1113]. ولابد أن يكون كرومر قد وثق بقدرتها على إدارة الجانب الإجتماعى من حياته الرسمية دون الكثير من القلق. كما أن بويل يقدم الدليل على أن الزاوج رفع من معنويات كرومر وجعله أكثر إقبالاً على الحياة، من ذلك أيضاً ترجمته

[1107] Douglas – Home, Evelyn Baring 19.

[1108] Boyle to Mrs Boyle, 31 Oct. 1901, BP, box B, file 3.

[1109] إعتقد كرومر أن الزوجات المصريات لا يجدن رعاية أطفالهن.
Cromer to Graham, 14 Oct. 1901, CP/2, FO 633/14.

[1110] Richmond to Murai Lubbock, 3 June 1906, RL.

[1111] Douglas – Home, Evelyn Baring, 17 – 18.

[1112] Alexander Thynne to Katherine Cromer, 28 Jan. 1902, CP/5, box 1, file 2.

[1113] Douglas – Home, Evelyn Baring, 18.

لقصيدة عن اليونانية للشاعر ماركوس أرجنتاريس Marcus Argentaris نشرها عام 1903، عنوانها "الحب والعالم"[1114].

وما لبث التشاحن أن عرف سبيله إليهما، ولكنه تحول إلى نوع من المشاكسات المتبادلة، فكاترين تنتقد إسرافه فى الشراب وكرومر ينتقد أخطاءها الهجائية وما اعتادت عليه من عدم كتابة التاريخ على رسائلها، وقد عبر عن ذلك فى قصيدة عنوانها "إلى زوجتى" لعله كتبها نحو نهاية عام 1902[1115].

قضى الزوجان شتاءهما الأول بالقاهرة، وصيفهما الأول فى بيتهما الجديد بلندن برقم 26 ويمبول ستريت، مع قضاء بعض الأيام بإسكتلندا، ثم زار كرومر أكسفورد للحصول على درجة فخرية فى نهاية يونيو، وتوجها معاً فى أغسطس إلى إكس ليبان Aix – Les – Bains ربما ليستشفى كرومر بمياهها من النقرس، ثم ذهب مع جورست لزيارة معرض جون سنجر. سارجنت الذى بدأ فى الخريف السابق، وتضم اللوحات المعروضة رسماً لكرومر[1116].

ولم يسجل لنا جورست إنطباع كرومر عن هذا الرسم، ولكن أهم من ترجموا لسارجنت يقول إن كرومر بدا فيها على هيئة رجل أعمال[1117]. وكتب أحد نقاد مجلة سبكتاتور أن الرسم لم ينجح فى إبراز شخصية الرجل الإنجليزى الذى أصبح أعظم من حكم مصر منذ أيام الفراعنة[1118]، ورأى بلنت أن الصورة التى ظهر بها كرومر فى تلك اللوحة التى رسمها سارجنت جاءت بمثابة ثأر له شخصياً من كرومر[1119].

وخلال الشتاء الثانى لكرومر وكاترين بمصر، قاما بحضور حفل افتتاح خزان أسوان مع دوق ودوقة يورك (جورج الخامس والملكة مارى فيما بعد) فى ديسمبر 1902، ثم ذهبا إلى الخرطوم لقضاء إجازة عيد الميلاد، وإن كان قد فاتهم عشاء عيد الميلاد بسبب جنوح

1114 Cromer, Paraphrases and Translations from the Greek, 8.

1115 Cromer "Occasional Verses", CP/5, box 5.

1116 Gorst, Diary, 24 Sep. 1902, GD. The portrait is at present on loan from the National Portrait Gallery to the British Embassy in Cairo.

1117 Charles Merrill Mount, John Singer Sargent: A Biography, (newyork W. W. Norton 1957), 190.

1118 Quoted in William Howe Downes, John S. Sargent: His Life and work (Boston: Little, Brown, 1925), 209.

1119 16 May 1903 Blunt, My Diaries, 469.

السفينة التى كانوا يقضون بها نزهة يوم فى النيل الأزرق، وظلت كذلك حتى جاء قارب عسكرى عند منتصف الليل ليسحبها، وقضى الجميع وقتهم فى إلتهام كل ما كان على السفينة من طعام ولعب الورق، والمزاح البعيد عن الرسميات، حيث قام جورست بتقليد حركات كرومر[1120].

وبعد ذلك قام كرومر وجماعته بالإبحار فى النيل الأبيض صحبه ونجت، ويذكر بويل (الذى كان ضمن المجموعة) أنهم كانوا يتسلون بتبادل الأشعار الطريفة من تأليفهم[1121]. ولعل مرجع سعادة بويل بالرحلة أنه خطب أثناءها صديقة لكاترين هى الكونتيسة فالدا جليشن (لوقت قصير)، كما يذكر كرومر مشهد قوافل الفيلة والزراف على الشاطئ وأفراس النهر التى أحاطت بالسفينة، ولم يشك سوى لدغات الحشرات[1122]. ومن الذكريات الطريفة صعود بعض أفراد قبيلة من أكلة لحوم البشر إلى السفينة مبدين رغبتهم فى مشاهدة وجوه النسوة البيض[1123].

ووضعت كاترين طفلها الأول (إيفلن) فى 29 سبتمبر 1903 بمنزل والدتها بلندن، وكانت قد تركت القاهرة فى مايو متجهة إلى لندن لهذا الغرض، وكان كرومر يكتب لها باستمرار معبراً عن أشواقه وقلقه، إلى جانب الحديث عن أجود أنواع الحليب للطفل الوليد[1124]. وفى النهاية عاد الرضيع إيفلن مع أمه إلى القاهرة فى نوفمبر، قبل أن يعود مع مربيته إلى لندن هرباً من حرارة الطقس فى مايو. ووصف كرومر مشاعر كاترين فى غيبة طفلها بقصيدة من نظمه[1125].

واستمرت عملية إرسال الطفل صحبة مربيته إلى لندن مع بداية إرتفاع حرارة الطقس فى أبريل طوال السنوات الباقية من خدمة كرومر بمصر، وفى عيد الفصح عام 1906 كتبت إليه كاترين خطاباً أرسلته إلى إسكتلندا، حيث كان يقيم مع مربيته:

[1120] Boyle, Boyle of Cairo, 111 – 12.

[1121] Quoted Ibid, 106.

[1122] Quoted in a memoir entitled Evelyn: Earl of Cromer, for the British Academy, by Lord Sand erson Proceedings of the British Academy 8, 25 n., Copy in CP/2, FO 633/43.

[1123] Address to dinner of the Royal Geographical Society, 26 Sept. 1911, CP/2, FO 633/28.

[1124] Lelters in CP/5, box I, File 1.

[1125] Douglas – Home, Evelyn Baring, 15 – 16.

"طفلى العزيز الصغير إننا نفتقدك كثيراً حتى إن البيت أصبح لا يطاق بدونك وحجرة نومك ساكنة لا صوت فيها، ووالدك يحلق ذقنه وحده ويضع رباط عنق أحمر، وأحياناً أحمر وأصفر.. لقد كان الجو لطيفاً.. وكان بوسعك البقاء معنا حتى الآن"[1126].

الإتفاقية الإنجليزية ـ الفرنسية عام 1904

أحيا حل أزمة فاشودة الآمال فى إمكانية تحقيق التحرر المالى الكامل وإنهاء الإعتراض الفرنسى على استخدام الإحتياطات النقدية المتزايدة التى لمصر طرف صندوق الدين العام، وقد سأل كرومر سولسبرى فى نوفمبر 1898 "ألم يحن الوقت لكى نقول للفرنسيين إن العقبات التى يضعونها فى طريقنا فى مصر لم تعد مقبولة ؟"[1127]، ولكن المشكلة كانت تعود إلى أن الإنجليز ليس فى يدهم ما يقدمونه إلى الفرنسيين مقابل ذلك، وكان البديل هو جعل صندوق الدين العام محدد الفعالية بالعمل على تحويل معظم الدين العام عندما يصبح ذلك ممكناً عام 1905، وكان كرومر يأمل أن يؤدى التهديد – فى حد ذاته– إلى جعل الفرنسيين يراجعون موقفهم[1128].

وفى النهاية جاءت الإنفراجة عن طريق تزايد المصالح الفرنسية فى سلطنة مراكش (المغرب الأقصى). وقد بدأت المباحثات الإنجليزية الفرنسية حول تلك المسألة وغيرها من المسائل الاستعمارية فى عام 1902. ولكن لم تحدث نقلة إيجابية فى المباحثات إلا عندما أدرج كامبو Cambon وزير الخارجية الفرنسى مسألة مصر ضمن القضايا الاستعمارية التى قام بالتباحث بشأنها مع اللورد لانسداون وزير الخارجية البريطانى الجديد عام 1903، وكان كرومر يدرك أن الظروف ملائمة للتوصل إلى تسوية فطلب من لانسداون أن لا يدع الفرصة المتاحة تضيع[1129]، وكان عندئذ بلندن فى إنتظار مولد طفله، فكتب مذكرتين شكلتا الأساس الذى قامت عليه مباحثات لانسداون مع الجانب الفرنسى، وأتاح له وجوده بلندن التشاور مع لانسداون قبل كل اجتماع، معدداً له كل ما تريده بريطانيا فى مصر، وما

[1126] BP, Durham University, File GRE/I/153.
[1127] 28 Nov. 1898, SP, A/55.
[1128] Cromer to Landsdowne, 7 July 1903, CP/2, FO 633/6.
[1129] 17 July 1903, quoted in Marlowe, Cromer in Egypt, 247.

تتنازل عنه فى المغرب[1130]. وعدها كرومر أهم مهمة دبلوماسية تناولتها بريطانيا منذ زمن بعيد[1131].

وعندما عاد كرومر إلى القاهرة، رتب لجورست مهمة فى لندن (ديسمبر 1903)، وكان عليه أن ينتظر بقلق شديد رحلات جورست المكوكية بين لندن وباريس حاملاً معه مسودات الإنفاق بشأن المسائل الاستعمارية التى كان أقلها يتعلق بمصر، يساوره القلق أن يتسرب شئ عما يدور إلى الجالية الفرنسية فى مصر، فتعمل على تفجير سخط الرأى العام الفرنسى بما ينجم عن ذلك من آثار سلبية[1132]. وكانت العبارة النهائية المهمة هى اعتراف فرنسا بحق بريطانيا البقاء فى مصر دون تحديد لزمن معين، وأرسل جورست لكرومر إقتراحاً بالصياغة التى يرتاح إليها، ولكن عندما وصلت المذكرة الإيضاحية التى كتبها جورست إلى القاهرة، كان التوقيع على الإتفاقية قد تم بالفعل فى 8 أبريل 1904، ورغم أن كرومر رد لعدم الإرتياح إلى الصياغة، فلم يكن لذلك أى أثر[1133]. ولكن الفرنسيين وعدوا بعدم الإعتراض على أى عمل تقوم به حكومة صاحبة الجلالة البريطانية فى مصر، وألا تطلب تحديد موعد لنهاية الإحتلال البريطانى، مما يعنى إعترافاً ببقاء بريطانيا فى مصر حسبما تشاء[1134].

وفيما يتعلق بالأوضاع المالية وافق الفرنسيون على نص مرسوم خديوى يرفق بالإتفاقية كملحق لها، يقضى بالإلغاء التام أو الجزئى لكل المراسيم التى تنظم المالية المصرية، وتطلق يد الحكومة المصرية فى استخدام مواردها التى تزيد عن متطلبات خدمة الدين، كما أفرجت عن الأرصدة الموجودة لدى صندوق الدين فى اعتمادين منفصلين، ما عدا مبلغ محدد تم الإبقاء عليه كاحتياطى لمواجهة أى نقص يحدث فى الموارد اللازمة لخدمة الدين، ونتج عن ذلك حصول الحكومة المصرية على ستة ملايين جنيه بما يعادل نصف ما تحققه من إيرادات سنوية[1135].

[1130] Roberson, "Judicial Reform", 239 – 40.

[1131] 1 Nov. 1903, CP/2, FO 633/6.

[1132] Zetland, Lord Cromer, 280.

[1133] Ibid, 281 – 4.

[1134] "Declaration Respecting Egypt and Morocco:, PRO, FO 371/68; Zetland, Lord Cromer, 284; Marlowe, Cromer in Egypt, 251.

[1135] Ibid, 252.

وقد اعتبر القسم المتعلق ببريطانيا فى الإتفاقية الإنجليزية الفرنسية من منجزات كرومر، لكن الكثير من الفضل يجب أن يحسب لجورست الذى قام بمعظم العمل الدبلوماسى الشاق بين لندن وباريس، وكوفئ على ذلك بترقيته إلى وظيفة أعلى بالخارجية البريطانية، وكانت تلك خطة كرومر لإتاحة الفرصة أمام جورست لتوسيع نطاق خبراته بشئون الإمبراطورية البريطانية قبل أن يعود إلى مصر ليخلف كرومر فى منصبه[1136].

[1136] Mellini, Gorst, 73 – 74.

الفصل السادس عشر
إحتدام الموقف
(1907 – 1904)

تراكم الأحزان

رأى كرومر الإتفاقية الإنجليزية – الفرنسية عام 1904 نصراً شخصياً له، فقد مهدت الطريق أمامه لتحقيق هدفه النهائى، ألا وهو إلغاء الإمتيازات الأجنبية بإعتبارها المانع الدولى الأخير الذى يقف عقبة فى طريق إحكام السيطرة البريطانية على مصر وقد أصبح ذلك شغله الشاغل طوال السنوات الثلاث التى مكث فيها بمصر (1904 – 1907). وكان محظوظاً – لفترة محدودة على الأقل– لأن تلك السنوات الثلاث شهدت إزدهاراً إقتصادياً كبيراً قفزت فيه أسعار الأراضى والإيجارات نتيجة لما أسماه القنصل العام الأمريكى "تدفق رأس المال المستثمر فى القروض العقارية"[1137].

ولسوء حظ كرومر، شهدت تلك السنوات وقائع جلبت معها عوامل معينة حدت من قدرته على التصرف، جاء بعضها عرضاً، وبعضها الآخر كان من صنعه. كان من بينها تقدمه فى السن، وتضعضع صحته، فقد كتب إلى لانسداون فى أبريل 1905 أنه استشار "العديد من الأطباء" الذين قالوا له الشئ نفسه، وهو أنه:

"ليس هناك مشكلة عضوية عندى، وإننى قد أعيش عدة سنوات لو إلتزمت الحرص والعناية بصحتى، وقد أجمعوا على أننى استنزف قواى، وأنى لا أستطيع المضى قدماً فى تحمل عبء العمل الذى أقوم به لمدة تسعة شهور فى مثل هذا المناخ... ولكن العمل يتزايد، ولا يتجه إلى التخفيف".

[1137] "Report on the Present Prosperity of Egypt', in Iddings to Bacon, 12 Jan. 1906, US National Archives, II, Washington DC, State Department, RG/59, T 41/24.

وختم كرومر رسالته بأنه فى حالة حصوله على أربعة شهور إجازة سنوية بدلاً من ثلاثة شهور، يستطيع الاستمرار فى العمل ست سنوات أخرى يستقيل بعدها من خدمة الحكومة[1138].

ونستطيع أن نضع أيدينا على ما يمكن أن يعد إحساساً منه بدنو أجله، فقد كتب إلى ولده رولاند من منتجعه فى إسكتلندا صيف 1905، أنه بدأ يفكر فى توزيع ممتلكاته على أبنائه، وبدأ فى أغسطس من العام نفسه كتابة "ملاحظات على السيرة" التى تزيد على الأربعمائة صفحة، وقال فى مقدمتها إنه يهدف بذلك إلى "أن يحيط الأبناء علماً بمسيرة أبيهم"[1139] وهى تضم نوعاً من المذكرات والطرائف، والدروس التهذيبية، ومعلومات لها دلالاتها عن الشخصيات التى عرفها، الطيب منها والردئ على السواء، فاحتل ستوركس ونورثبروك مكانهما فى النصف الأول، بينما جاء فى النصف الثانى الخديو إسماعيل "المبذر واللص والقاتل"، وجلادستون "الذى يجهل حقائق الأمور فى مصر التى يعرفها أى قارئ للصحف" وجوردون "السكير الذى يتأرجح عقله بين الجنون والحكمة"[1140] وبذل محاولة لوضع حياته فى إطار من الدروس الخلقية لإصلاح شأن شاب مستهتر مبذر، لم ينل حظاً من التعليم الجيد، محب للمتعة، أرعن، حوله العمل الجاد الشاق والرغبة فى أن يكون جديراً بحب إيثل إلى إنسان آخر.

وبدأ يساوره القلق على صحته – بصورة واضحة– بعد عودته إلى القاهرة من إجازة الصيف، واستخدمه سبيلاً لإلتماس العذر عندما اعتذر عن عدم قبوله تولى منصب وزير الخارجية فى وزارة الأحرار الجديدة التى تشكلت فى ديسمبر برئاسة كامبل بانرمان Canpbell – Bannerman. وقد شرح ذلك فى كتاب إلى قريبه اللورد ريفلستوك: "إننى لا أستطيع الإمساك بزمام العمل فى الخارجية لوقت طويل.. لقد عانيت من حمى الدنجية[1141] التى هدت قوايا تماماً"[1142] وبعد ذلك بأسبوعين أبلغ ولده رولاند أن ما كان يعانيه لم يكن حمى

[1138] Cromer to Landsdowne, 30 Apr. 1905, Quoted in part in Zetland, Lord Cromer 288 – 9.

[1139] BN 370 – 1.

[1140] BN 242 – 3, 312.

[1141] تعرف بحمى الضنك، ويسميها العامة (أبو الركب) – المترجم.

[1142] 15 Dec. 1905, CP/3, Barings: Partners Files, Lord Cromer, 1899 – 1908.

الدنجية، ولكنه إرتفاع فى الحرارة نتيجة حقن الطبيب له بمصل مضاد للدفتاريا بغرض علاج إلتهاب الأعصاب فى ذراعه[1143].

وازدادت حالته الصحية سوء عام 1906 عندما بدأ يعانى من التهاب معوى أو قولونى زاد من حدته التوتر، وضغط العمل، وتصاعد الإنتقاد لأسلوبه فى إدارة البلاد فى مصر وبريطانيا[1144] وأصبح من الجلى أن نظام حكم الفرد الواحد الذى أوجده كرومر لم يعد السبيل الأمثل لحكم مصر، كما أنه ألقى على كواهله أعباء ينوء بحملها؛ فهناك ما يتعلق بالسودان من أمور، وأصبحت هناك زيادة فى التعقيدات الإدارية مع وفرة الأموال نتيجة الإفراج عن الأرصدة الإحتياطية بصندوق الدين العام بعد إبرام الإتفاقية الإنجليزية الفرنسية، وإزدياد الحاجة إلى الاستثمار فى مجال الخدمات الإجتماعية بقدر كبير، كما كان عليه أن يفعل الكثير من أجل تحقيق هدفه الأسمى بإلغاء الإمتيازات الأجنبية، وكان من الممكن حل كل تلك المعضلات لو كان جورست المبدع الكفء إلى جواره. ولكن جورست عاد إلى وزارة الخارجية البريطانية عام 1904، ولم يكن بديله فنسنت كوربت Corbett يتمتع بقدر كاف من الكفاءة. وقد وصفه كرومر بأنه "لا يعد رجلاً قادراً بأى حال من الأحوال"، وأنه لم يلق منه عوناً مخلصاً[1145]. كما أنه لم يكن راغباً فى أن يدع الوزراء المصريين يلعبون أى دور فى ربط الإدارة بالمجتمع. وكان مصطفى فهمى وزملاؤه أعضاء مجلس النظار (الوزراء) يحتلون مناصبهم منذ العام 1895، ويبدو أنهم سيبقون فى مواقعهم حتى تدركهم الوفاة[1146]. وكان القليل من الموظفين الإنجليز مثل رينل رود وستورس يدركون نواحى القصور فى النظام[1147]. ولكنهم كانوا – مثل كرومر– على استعداد لمتابعة العمل به دون أن تتوفر لديهم الأفكار التى تعين على تحسين الأداء.

كما لم تكن الأمور أحسن حالاً بدار المعتمد ذاتها، فتناول رامبولد مرض كرومر بأسلوب ينم عن عدم الإكتراث، وأشار إلى أن الليدى كرومر تتردد فى معاملة طاقم العمل بالدار

[1143] Cromer to Rowland (Errington), 29 Dec. 1905, CP/1, Letters from the 1st Earl to the 2nd Earl, 1905 – 1906.

[1144] Cromer to Rowland (Errington), 24 Nov. 1905, CP/1, Letters from the 1st Earl to the 2nd Earl, 1905 – 1906.

[1145] BN, Insertion 1, 2 Aug. 1910.

[1146] وردت هذه العبارة فى المقال الإفتتاحى للأهرام، 11 نوفمبر 1908.

[1147] Mellini, Gorst, 103.

كأعضاء فى الأسرة كما كانت الحال من قبل، واعتبر ذلك مبرراً للبحث عن مكان آخر للعمل[1148]. ولاحظ فيما بعد أن بويل بدأ يحاول استعادة نفوذه، محاولاً اغتصاب صلاحيات رئيس ديوان دار المعتمد لنفسه، حتى يلتقى اللورد "متى شاء"، وكيف أن الليدى كرومر كرهت بويل[1149]. وزادت طريقة كاترين العشوائية فى تأدية الواجبات الإجتماعية الأمر صعوبة، ورغم المشاعر القوية التى كان كرومر يكنها لها، وحرصها الشديد على حمايته من المناسبات الإجتماعية الطويلة المدى، فلابد أنه كان يحاط علماً باستمرار أن الأمور لم تعد تسير على النحو الذى كانت عليه فى حياة إيثل[1150].

وكان لسوء التفاهم الذى حدث بين كاترين ورولاند بلندن فى خريف 1906 أثره فى الكشف عن الكراهية بينهما التى لم يعرف كرومر عنها شيئاً. وقال رولاند فى خطاب شرح فيه موقفه أنه "صدم على نحو لم يحدث له منذ الكارثة الكبرى" (فقد أمه). وكان كرومر يدرك أن شيئاً كهذا قد يحدث ولكنه ظن أن مخاطره قد تم تجنبها، لأن "كاترين تهمل أحياناً وكثيراً ما تنسى... ولكنها طيبة القلب" وأنها تحرص على رولاند وأخيه، ولا تقدم على عمل قد يلحق بهما الضرر[1151]. وقد ترك هذا الأمر المحزن معلقاً دون أن يعرف طريقه إلى الحل، وهو ما كشف عنه عقب وفاة كرومر بعد عشر سنوات من ذلك التاريخ.

وفى الوقت نفسه، شهد وضع كرومر فى مصر تحولاً درامياً نحو الأسوأ، فقد أعقب عودة حكومة الأحرار إلى السلطة فى ديسمبر 1905 إنتصار كاسح لحزب الأحرار فى الإنتخابات العامة التى أجريت فى يناير 1906، فجاء إلى مقاعد البرلمان رجال عرفوا بإنتقادهم للطريقة التى أديرت بها الإمبراطورية[1152]. ومن ثم كان كرومر يدرك جيداً أن وزير الخارجية إدوارد جراى Idward Grey يتعامل بحرص مع باقى أعضاء مجلس الوزراء، كما يحسب ألف حساب للنواب الأحرار الراديكاليين الذين أخذوا يسألون أسئلة استنكارية فى البرلمان حول السياسة المتبعة فى مصر، وذلك رغم علاقته الطيبة بوزير الخارجية، ولم يعد

[1148] Gilbert, Horace Rumbold, 55.

[1149] 31 Oct. 1905, ibid, 52.

[1150] Caillard, A Lifetime in Egypt, 117.

[1151] 8 Nov. 1906, CP/1, Letters from the 1st Earl to the 2nd Earl, 1905 – 1906.

[1152] Bernard Porter, Critics of Empire: British Radical Attitudes to Colonialism in Africa 1895 – 1914 (London: Macmillan, 1968), 294 – 5, 314.

باستطاعة كرومر أن يستمر فيما ذكره لقريبه ريفلستوك عام 1903 من أن إدارة مصر شأن يخصه وحده، وأنه لا يرجع إلى لندن إلا فيما "يجب عليهم عمله"[1153].

كما أن انتقاد المصريين لسياسة كرومر إرتفع مده نتيجة حادثتين وقعتا عام 1906: أولهما المواجهة مع الترك حول الحدود مع الإمبراطورية العثمانية (المعروف بإسم حادث العقبة أو حادث طابا)، ثم العقوبات القاسية التى وقعت على الفلاحين الذين إتهموا بمواجهة الضباط الإنجليز أثناء صيدهم الحمام بقرية دنشواى بالدلتا. فقد أدت الحادثتان إلى إنطلاق موجة عارمة من الهجوم على كرومر بالصحافة المصرية، ونتج عن ذلك وقوع كرومر ورجاله فى حالة من الإرتباك، وشعور الجاليات الأجنبية فى مصر بالتوجس والخوف. ورغم اتجاه رجال دار المعتمد إلى إلقاء تبعة تلك الموجة الكاسحة من الهجوم على عاتق بعض المحرضين من المصريين، وبعض من تدخلوا فيها من الأجانب، فقد بات واضحاً أن الأمر يتطلب تغييراً تاماً للسياسة البريطانية فى مصر وأن سن كرومر وحالته الصحية لا يؤهلانه لتنفيذ مثل هذه السياسة الجديدة.

كيف يتم إنهاء الإمتيازات

كانت الإتفاقية الإنجليزية الفرنسية تعنى – عند كرومر– نهاية الإمتيازات الأجنبية فى مصر تأسيساً على افتراضه العام أن فرنسا أطلقت يد بريطانيا فى مصر، وخاصة فى المادتين السريتين اللتين أضيفتا نتيجة إصراره على ذلك: فنصت الأولى على اعتراف فرنسا بحق بريطانيا فى التصرف منفردة فى موضوع الإمتيازات فى حالة إعتراض الدول صاحبة الإمتيازات، وألزمت المادة الثانية فرنسا "بفحص" المقترحات البريطانية بهذا الصدد[1154]. والمشكلة أنه لم يكن هناك تفاهم حول موعد بداية المفاوضات مع الدول صاحبة الإمتيازات. فعلى حين كان كرومر يريد الضغط من أجل التبكير بالمفاوضات بقدر الإمكان، كان جراى – على وجه الخصوص– يفضل الإنتظار حتى تحكم فرنسا قبضتها على مراكش (المغرب)

1153 7 May 1903, BA, Partners' files, Lord Cromer, 1899 – 1908.

1154 Cromer to Lansdowne, 21 and 14 Mar. 1904, copies in PRO, FO 800/124. See also G. P. Gooch and H. Temperley (eds.), British Documents on the Origins of the war 1898 – 1914, vol. i (London: HMSO, 1927), 354 – 5. 385 – 95. Cromer mentions the clauses in his letter to Sir John Rees, 24 Nov. 1911, CP/2, FO 633/20.

أولاً[1155]. فقد ذكر لكرومر فى إحدى مراسلاته الأولى بهذا الخصوص أن الحاجة ماسة إلى الإهتمام "بحضانة الإتفاق بحرص شديد"[1156].

وثمة إشارة مبكرة إلى اتجاه كرومر نحو إنهاء الإمتيازات الأجنبية نجدها فى الخطبة التى ألقاها فى وداع جورست يوم 22 أبريل 1904، فقد امتدحه فيها لكونه أحد أعضاء فرقة صغيرة من الأروبيين الذين جعلوا همهم الأساسى تطبيق سياسة "مصر للمصريين"، بمعنى أن تكون تلك السياسة عملية ونافعة لصالح كل الأطراف المعنية، وهى سياسة لا تهدف إلى أن يكون حكم مصر مقصوراً على أبنائها، ولكنها تعنى أن المعيار الأساسى الذى يستخدم عند النظر فى أى مسألة مصرية هو مدى مناسبة الأمر المقترح لمصالح "سكان" مصر، مهما كانت أصولهم القومية أو عقيدتهم الدينية[1157]. ومن ثم كانت الفكرة العامة الشائعة عن المصالح المشتركة التى تجمع سكان مصر حولها بغض النظر عن ملتهم أو نحلتهم، تمثل حجر الزاوية فى إقناع الدول الأوروبية بالتنازل عن حقوقها فى الإمتيازات إلى حكومة مصرية خاضعة للسيطرة البريطانية، واستخدم كرومر تقريره عن العام 1904 (الذى كُتِبَ فى أوائل 1905) لإطلاق عاملين أساسيين فى خطته تجاه الإمتيازات الأجنبية: أولهما، وجوب تنازل الدول المعنية إلى الحكومة البريطانية وحدها عن الحقوق التشريعية التى مارستها على رعاياها من خلال المحاكم المختلطة، وثانيهما، ضرورة إقامة "أداة تشريعية" محلية جديدة لسن القوانين لجميع سكان مصر من الوطنيين والأجانب[1158]. وقد تم تفصيل هاتين الفكرتين وتوضيحهما فى مجموعة من "المذكرات المبدئية التى يمكن استخدامها كأساس للمحادثات الخاصة بتغيير النظام التشريعى المعمول به حالياً فى مصر" التى تم إرسالها إلى الخارجية البريطانية فى أبريل. وذهب كرومر إلى أن الضرورة تتطلب إقامة نوع من الآلية التى توفر ضمانات للجاليات الأوروبية فى مصر، مع عدم المساس بحقوق الحكم الذاتى التى تتمتع بها الحكومة المصرية، ويمكن تحقيق ذلك على الوجه الأمثل بتأسيس مجلس تشريعى جديد للأوروبيين وحدهم[1159].

[1155] Roberson. "Judicial Reform", 248.
[1156] 20 Dec. 1905, PRO, FO 800/46.
[1157] Quoted in Mellini, Gorst, 79 – 80.
[1158] PP (1905), 103, 1097, 1100.
[1159] PRO, FO 881/8616.

وطلب كرومر من جراى أن يأذن له باستخدام تقريره السنوى التالى لطرح مقترحات للنقاش على الساحة المحلية، للإبقاء على المشروع ولجذب الجاليات الأوروبية فى مصر وخاصة الإنجليز والفرنسيين إلى تأييد الفكرة[1160]. ولكن جراى ساوره القلق من الطريقة التى قد يتم بها استقبال مثل هذه المقترحات فى باريس، فاستشار رئيس الوزارة ومجلس الوزراء قبل أن يعطى موافقته لكرومر، واشترط عدم ذكر أى شئ يشير إلى أن الحكومة البريطانية ملتزمة بهذه الخطة، أو أنها تعتزم اتخاذ خطوات بهذا الصدد[1161].

وهكذا طرح كرومر – فى أوائل 1906– مجموعة من المقترحات المتصلة بالموضوع طالباً التعرف على وجهات نظر غرف التجارة الأوروبية القائمة فى مصر، وكذلك المؤسسات الخاصة بالجاليات الأجنبية. واتخذ فى الوقت نفسه خطوات للتأكد من جعل الترجمة الفرنسية للتقرير السنوى متاحة، على أن تتحمل الحكومة المصرية نفقات الطباعة[1162]. وكان اقتراحه الأساسى إقامة مجلس مستقل "يتكون من رعايا الدول التى وقعت على المعاهدات التى بموجبها تم تحقيق الإصلاح القضائى "عام 1876" على أن يتم إصدار التشريعات بأغلبية أصوات أعضاء المجلس، ثم تصدر الحكومة المصرية مراسيم بفحواها يلتزم بها جميع سكان البلاد من الأجانب[1163]، ويعمل هذا المجلس إلى جانب مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية، ولا يجب أن يتجاوز عدد أعضاء المجلس 35 – 30 عضواً يتم إختيار غالبيتهم بالإنتخاب. وذكر أنه يدرك تماماً عدم وجود سوابق لوجود نوعين مختلفين من المجالس التشريعية يعملان معاً جنباً إلى جنب، ولكنه أسهل فى التأسيس من إقامة مجلس مشترك يضم غرفتين أوروبية والأخرى مصرية[1164].

ووضع كرومر قائمة بالموضوعات المتحفظ عليها والتى لا تدخل ضمن الصلاحيات التشريعية للمجلس المقترح، وذلك حتى يفتح الباب للنقاش حول كيفية تكوين المجلس وطبيعة عمله[1165]. وذهب كرومر إلى أن المجلس المقترح يمارس مع الحكومتين البريطانية

[1160] Cromer to Grey, 25 Nov. 1905, PRO, FO 800/46.
[1161] Grey to Cromer, 20 Dec. 1905, PRO, FO 800/46.
[1162] AR 1905, PP (1906), 137, 485.
[1163] Ibid, 486.
[1164] Ibid, 486 – 7.
[1165] Ibid, 487 – 8.

والمصرية المسئوليات المتعلقة بالشئون المدنية والجنائية المتصلة بالجاليات الأوروبية والسلطات القنصلية التى يتبعونها مع وضع مجموعة من التحفظات مرة أخرى[1166].

ولا يعنى ذلك أن كرومر إعتقد فعلاً أن مثل هذا المشروع الطموح الغريب سوف يؤخذ مأخذ الجد أو يعرف طريقه إلى التطبيق؛ لأن ذلك يتطلب إقتناع الجاليات الأجنبية أن مصالحهم سوف تتمتع بحياة أفضل من جانب البريطانيين فى مصر من تلك التى توفرها لهم حكومات بلادهم، وكان عليهم أن يمارسوا الضغط على حكوماتهم لإجبارها على تنفيذ المشروع. كما كان ذلك يتطلب أن يقبل المصريون بما يبدو واضحاً من إنقاص هائل ودائم لسيادتهم الوطنية، وجاء البرهان على عدم واقعية الفكرة على شكل رفض لمشروع المجلس التشريعى الدولى من جانب غرفتى التجارة البريطانية والإيطالية فى مصر[1167].

ويمكننا إلقاء نظرة ثاقبة على تفكير كرومر فى ذلك الوقت من خطاب مهم أرسله إلى سانت لوستراتش St. Loe Strachey – أحد ثقاته من البريطانيين– ورئيس تحرير اسبكتاتور فى مايو 1906. فذكر أن ولفرد بلنت أخطأ عندما قال بأن مصر بلد مسلم، "فعندى أن كل سكان مصر مصريون: المسلمين، والأقباط، والشوام، وكل الأوروبيين الذين يمثلون العنصر المتحضر فى البلاد".. لقد كان أملى ومسعاى منذ جئت إلى هنا هو إدماج كل تلك الطبقات فى كيان واحد، والعمل على جعلهم أمة واحدة. وكل ما هو بالإمكان إتخاذ خطوات على الطريق المنشود".

و"الخطوات" التى تم اتخاذها حتى الآن هو وضع نهاية للصعوبات الإدارية والمالية وإقرار النظام فى دوائر الحكومة، وبث روح ليبرالية بين الموظفين، وإنهاء الصراع الأنجلو – فرنسى، والتخلص من صندوق الدين العام، والخطوة التالية تتجه نحو الإمتيازات الأجنبية وهى مسألة تتطلب وقتاً طويلاً، فإذا نجحت فى تحقيق ذلك تنتهى بذلك مساهمتى فى بعث الحياة فى شرايين الحكومة المصرية، ويتطلب الأمر أن يخلفنى رجل شاب". وذكر أنه سيتجه إلى الإسكندرية فى الأسبوع التالى ليضع حجر الأساس لكلية فيكتوريا وينتهز الفرصة لنشر فكرته عن إدماج جميع العناصر التى تسكن وادى النيل، وهى فكرة جديدة

[1166] Ibid, 488 – 9.

[1167] Cromer to Grey, 1 Dec. 1906 and, 12 Jan. 1907, PRO, FO 800/46.

تماماًعلى الرأى العام المصرى، ولكنها "تدور فى مخيلتى منذ زمن بعيد"، وطلب من ستراتشى أن يروج للفكرة فى إنجلترا[1168].

ومن الصعوبة بمكان المبالغة فى هذه الممارسة الغريبة، والطائشة، والطموح الذى يكمن وراء ما أسماه "بناء الأمة".. ومما يلفت النظر أكثر من زيف المشروع، جنون العظمة الذى ارتبط به. فاعتقاد كرومر أن رجلاً واحداً يستطيع إقناع جميع سكان مصر بالإندماج فى أمة واحدة، دليل على حكمه الفردى، وعلى القطيعة التامة بينه وبين المجتمع الخاضع لحكمه وما يجرى فيه من تطورات. كما تبين أن القوة الحقيقية لمن يبنى مركزه على الإفراط فى القوة الغاشمة، تتحول إلى ضعف عندما يتخلص ذلك الشخص من الضوابط. فقد اقتنع كرومر الآن بمنطق ساخر: بما أن المصريين لا يشكلون أمة ولا يستطيعون إدارة أمورهم بأنفسهم، ولأن الأوروبيين قد يتخلون عن الإمتيازات الأجنبية إذا حصلوا على مركز خاص فى مصر، فإن الطريق الوحيد أمامه هو إقناعهم جميعاً بأن يصبحوا شيئاً آخر، جديداً تماماً. ويتشابه ذلك مع رؤية رجل لعامل إقتصادى أولى، فأقنع نفسه أن أى تطور مادى حقيقى يمكن تحقيقه بتخطى كل الحواجز اللغوية والعرقية والدينية التى تقسم الناس، ليس إلى مجرد طبقات مختلفة، بل إلى مجتمعات متباينة الثقافات.

لقد فشل كرومر فى قراءة الإشارات المحلية جيداً، فمن وجهة نظره التى صرح بها لستراتشى كان الوقت ملائماً لطرح فكرته، فلم يلجأ الإنجليز والفرنسيون إلى تهدئة الصراع بينهما فحسب، بل إن ما أسماه "الاستعراض الحالى للتعصب الإسلامى" جعل الجاليات الأوروبية تنضم إلى الإنجليز لوضع حد "لتطور وطنى خالص" كذلك الذى روج له ولفرد بلنت. وهو يشير بذلك "التعصب" إلى جهود مصطفى كامل وغيره أثناء حادث طابا لحشد التأييد للسلطان عبد الحميد الثانى العثمانى واستجابة الآخرين له، مثل الأوروبيين الذين أفزعهم علو نبرة الجامعة الإسلامية، والمثقفون المصريون المؤيدون لكرومر الذين نظروا إلى القضية من زاوية المصالح الوطنية وليس الشعور الدينى. وهنا نجد جانباً من الحقيقة، ولكن نظرة أكثر حكمة للأمور كانت تقتضى الإعتراف بأن المعارضة الشديدة للإحتلال يمكن حشد صفوفها عند وقوع مثل هذه الحوادث. ولكن كما جرت العادة، إستخدم كرومر اليد

[1168] 18 May 1906, CP/2, FO 633/8.

الثقيلة بتحريك القوة العسكرية البريطانية لطمأنة الأوروبيين إلى أن ثمة قوة يمكنهم الإرتكان إليها، وظن أن ذلك يدعم مشروعه للتخلص من الإمتيازات الأجنبية، ولكن ذلك الاستخدام للقوة جر الكثير من المصريين إلى الحركة الوطنية المعادية للاستعمار التى حاول كرومر تجنبها.

طابا ودنشواى

ترجع أصول حادث طابا إلى القلق البريطانى من إمكانية قيام العثمانيين بمد فرع من سكك حديد الحجاز إلى العقبة، مما يؤدى إلى زيادة القيمة الإستراتيجية للقطاع الجنوبى من الحدود المصرية – العثمانية التى لم يتم تحديدها بدقة، ولذلك تم إيفاد جننجز براملى W. E. Jennings – Bramley الضابط بمصلحة الحدود على رأس قوة صغيرة بتعليمات من كرومر لإحتلال نقطة إستراتيجية على الجانب الذى يقع فى سيناء من خليج العقبة على بعد بضعة أميال من العقبة نفسها، وكان ذلك فى أواخر يناير 1906[1169]. وعندما وصلت القوة إلى طابا وجدت هناك حامية عثمانية صغيرة، ولذلك تحركت القوة مسافة قليلة إلى الجنوب على متن بارجة بريطانية[1170]. وأعقب ذلك عملية طويلة من المراسلات الدبلوماسية، صحبتها حملة صحفية قادها مصطفى كامل تأييداً لموقف السلطان على صفحات "اللواء"، كما طالب المصريين بدعم الحقوق العثمانية[1171]. كذلك نظم مصطفى كامل إضراباً بمدرسة الحقوق لم يتم إنهاؤه إلا بتدخل كرومر بين ناظر المدرسة الفرنسى والطلاب، وكان الناظر مصر على عدم إعادة من كان قد فصلهم من الطلاب المضربين[1172].

ويذهب رشيد الخالدى إلى أن تلك المعارضة الداخلية ربما كانت سبباً فى تشجيع كرومر على حث وزارة الخارجية البريطانية على التدخل مما أعطى النزاع بعداً دولياً أوسع بما فى ذلك احتمال دعم الألمان للموقف العثمانى[1173]. ويحتمل أن يكون كرومر قد وجد فى

[1169] Findlay to Grey, 25 Jan. 1906, PRO, FO 371/60.

[1170] For Jennings – Bramley's own account, General Sir James Marshall – Cornwall, "An Enigmatic Frontier", Geographical Journal, 125/3 – 4 (Sept. – Dec. 1959).

[1171] Quoted in Lutfi al – Sayyid, Egypt and Cromer, 167.

[1172] Ibid, 169; Goldschmidt, "Egyptian Nationalist Movement", 319.

[1173] Rashid Khalidi, British Policy Towards Syria and Palestine 1906 – 1914 (London: Ithaca Press, 1980) 32 – 3.

الحادث سبيلاً لدفع لجنة الدفاع عن الإمبراطورية المشكلة حديثاً للضغط عسكرياً على جراى وزملائه المدنيين بوزارة الأحرار. على كل استمر العثمانيون فى المقاومة، ورفضوا الاستجابة للمطالب البريطانية بترك طابا كمقدمة للتحكيم حول الحدود. وقد كتب كرومر رسالة إلى جراى خلال الأزمة إقترح فيها أن يتجه أسطول بريطانى إلى إستانبول، وإن كان يفضل الحل السلمى[1174]. ويقدم لنا بويل الدليل على حالة التحفز التى سادت دار المعتمد البريطانى بالقاهرة، فيذكر لوالدته أنهم يشعرون بعودة أيام "العز" القديم عند تناولهم لأزمة العقبة، واللورد يبدو سعيداً بالعودة إلى القتال من جديد، ولا شئ يسعده سوى طابور من جنودنا فى إستانبول[1175].

وأخيراً استطاع كرومر أن يقنع جراى ومجلس الوزراء بالحاجة إلى الحفاظ على مكانة بريطانيا، وحماية المواصلات الإمبراطورية وكانت النتيجة توجيه إنذار صارم إلى الباب العالى بسحب قواته من طابا خلال عشرة أيام، مع توجيه الأوامر إلى الأسطول بالتوجه نحو الدردنيل والاستيلاء على الجزر التى تقع فى الطريق، الواحدة تلو الأخرى[1176]، وكان ذلك كافياً لإجبار العثمانيين على التراجع وسحب قواتهم من طابا، والإشتراك فى عملية ترسيم الحدود التى أنجزت وتم التوقيع عليها فى الأول من أكتوبر. لقد كانت مصر دائماً "أم الإرتجال، وإبنة عم الخديعة"، على حد قول ستورس[1177]، فقد ذكر كرومر لجراى فى مايو أنه لو عالج الأتراك الموضوع بطريقة دبلوماسية، لكان من الصعب "تبرير استخدام القوة فى حادث صغير كهذا"[1178].

ولكن لا يبدو أنه قد حصل على كل ما كان يتطلع إليه، فما رآه كرومر حدوداً دولية، أسماها العثمانيون "الحدود الإدارية الفاصلة"[1179]، ولذلك استمر الموضوع مثار متاعب للدول

[1174] Dispatch of 7 Apr. 1907, quoted ibid. 35.
[1175] 11 Apr. 1907 quoted ibid, 40.
[1176] Grey to Cromer, 3 May 1906, PRO, FO 800/46.
[1177] Storrs, Orientations, 22.
[1178] 16 May 1906, PRO, FO 800/46.
[1179] Marshall – Cornwall, "Enigmatic Frontier", 461.

التى خلفت الإمبراطورية العثمانية حتى تمت تسويته نهائياً عندما قبل الإسرائيليون التنازل عن فندق طابا إلى المصريين فى أوائل الثمانينيات[1180].

ونستطيع أن نرى وراء صلابة موقف كرومر فى الأزمة دافعاً مصرياً مهماً؛ لأن خطة كرومر الرامية إلى إنهاء الإمتيازات الأجنبية تتطلب إقناع الجاليات الأجنبية فى مصر، أنه رغم المخاوف التى تساورهم من قيام ثورة إسلامية عارمة، فإن أمنهم فى يد البريطانيين، ومن ثم جاء طلبه زيادة عدد جنود الحامية البريطانية فى مصر – للمرة الثانية– فى أبريل، مستنداً إلى "الضرورة الملحة لدعم الثقة فى الحفاظ على الأمن والنظام"[1181].

كما قام جنود الجيش البريطانى بعروض عسكرية فى الأحياء الوطنية بالقاهرة، وتم نزع سلاح البوليس بالبحيرة[1182]. ومن ناحية أخرى أيقن كرومر أن تفريغ فكرة الجامعة الإسلامية من مضمونها على درجة كبيرة من الأهمية، ولذلك شجع من أسماهم "أكثر العناصر الوطنية إعتدالاً من أتباع الشيخ محمد عبده وبطانته". وكتب إلى جراى: "على المصريين أن يدركوا أننا لدينا الأفضل، وأن الأتراك ينحدرون فى وهدة التخلف"[1183] وقد أثر النمط نفسه من التفكير على معالجته للحادث الثانى، عندما هاجم بعض الفلاحين بعض الضباط الإنجليز، فحشد القوات البريطانية فى مظاهرة للقوة من القاهرة إلى الإسكندرية فى منتصف يونيو.

كانت الكتيبة البريطانية قد وصلت إلى قرية كمشيش بمديرية المنوفية بالدلتا فى 13 يونيو 1906، واتجه خمسة من ضباط الكتيبة بينهم طبيبها إلى قرية دنشواى المجاورة لصيد الحمام كما فعلوا فى العامين السابقين. وما حدث بعد وصول الضباط إلى دنشواى كان موضع خلاف، وعلى كل، استناداً إلى التقرير الذى جاءت به المحاكمة التى أعقبت الحادث، بدأ الضباط الصيد خارج المدينة، بعدما انقسموا إلى مجموعتين، قبل الحصول

[1180] هذه مغالطة غريبة من المؤلف، فقد ظلت إتفاقية 1906 بشأن ترسيم الحدود مع الدولة العثمانية سارية بين مصر وفلسطين طوال عهد الإنتداب البريطانى، حتى استولت الصهيونية على قرية أم الرشراش شرقى طابا وأقامت ميناء إيلات فى أعقاب توقيع إتفاقيات الهدنة عام 1949، وعندما تم التحكيم حول طابا فى الثمانينيات لم يكن ذلك تنازلاً من إسرائيل، بل استعادة لحق مغتصب بالعدوان (المترجم).

[1181] Cromer to Grey, 21 May 1906, PRO, FO 141/397.

[1182] Richmond to Muriel [Lubbock] May 1906, RL.

[1183] 28 Apr. 1907, PRO, FO 800/46.

على ترخيص بذلك من العمدة[1184]. ويذكر مراسل التايمز أن أحد الفلاحين الخمسة قال للدليل المرافق لهم بالعربية "خد بالك" أو "إحترس"[1185].

وبدأت المتاعب عندما قام الملازم بورتر Porter بإطلاق النار، فاشتعلت النار فى قمح مشون بالجرن، مما جعل صاحبه محمد عبد النبى يحاول إنتزاع البندقية من الملازم بورتر، وأثناء تلك المحاولة إنطلق الرصاص من البندقية ليصيب خمسة من الفلاحين من بينهم زوجة عبد النبى، ومرت لحظة ساد فيها الإعتقاد أن المرأة تحتضر، وهرع الماجور باين كوفن Pine – Coffin قائد المجموعة ليستطلع الأمر، ويحاول تهدئة الفلاحين، فأمر باقى المجموعة بتسليم بنادقهم والإنسحاب إلى عرباتهم، عندئذ هاجمتهم جموع الفلاحين الغاضبين ومنعتهم من الهرب، فطلب الماجور من الكابتن بول Bull والطبيب أن يعدوا فى اتجاه المعسكر طلباً للعون، ولكن الكابتن بول إنهار نتيجة ضربة تلقاها على رأسه إضافة إلى إصابته بضربة شمس، ومات مساء اليوم نفسه، وقد قام بعض رجال البوليس والخفراء بإنقاذ الباقين من أيدى الفلاحين، وأخيراً وصل جنود الكتيبة، وقاموا بإعتقال سبعين فلاحاً بطريقة عشوائية.

وكانت الاستجابة الفورية لكرومر عندما وصلته أخبار الحادث، تشكيل محكمة خاصة لمحاكمة الفلاحين تطبيقاً لأمر كان قد صدر عام 1895 بهذا الخصوص. وكما ذكر لوزير الخارجية، كان يرى أن الأمر يتطلب اللجوء إلى أداة لمعالجة الأمر "بسرعة وإختصار" لمواجهة الهجمات على الجنود والبحارة الإنجليز، يكون لها صلاحية توقيع عقوبات تفوق – من حيث القسوة– تلك التى تعمل بها المحاكم الأهلية[1186]، وهكذا جاءت المحاكمات سريعة ومختصرة. فقد قامت المحكمة المشكلة من خمسة أعضاء: مصريان وبريطانيان برئاسة بطرس غالى (القائم بعمل وزير الحقانية)، قامت بالاستماع إلى المتهمين والشهود على مدى ثلاثة أيام، وأصدرت أحكامها فى 27 يونيو، بإعدام أربعة فلاحين بتهمة قتل الكابتن بول عمداً، وقضت بجلد ثمانية فلاحين آخرين على أن يتم تنفيذ الأحكام فى اليوم الثانى علناً

[1184] Correspondence Respecting the Attack on British Officers at Denshawai", PP (1906), 137.

[1185] The Times, 5 July 1906.

[1186] 24 فبراير 1895 نشرت نسخة من الأمر فى "Correspondence Respecting the Attack on British officers", 689..

أمام جميع سكان القرية. وحكم على عبد النبى ورجل آخر بعقوبة السجن المؤبد، وحكم على عشرة آخرين بالسجن لمدد تراوحت بين سنة واحدة وعشر سنوات[1187].

وغادر كرومر مصر إلى لندن قبيل بدء المحاكمات، قبل موعد الإجازة المعتاد؛ لأن إصابة كاترين بالحصبة جعلتهما يقطعان خليج بسكاى إلى لندن على متن باخرة بدلاً من السفر بالقطار عبر فرنسا، وعند وصولهما فى 30 يونيو، كان مانسفيلد فندلاى Mansfeld Findlay– القائم بعمل كرومر– قد أبلغ الخارجية بالأحكام التى صدرت، وبدأ يثير قضية قسوة الأحكام وما شاب إجراءات المحاكمة من قصور، ذاكراً لجراى أن إثنين من قضاة المحكمة الإنجليز أخبراه أن أى محلفين بريطانيين سوف يجدون المتهمين الستة الأول مذنبين بتهمة القتل[1188].

وعندما تلقى كرومر النبأ، أحس أن ثمة خطأ قد حدث. ويذكر جراى أنه جاء إليه "منزعجاً" مما قد يترتب على تلك الأحكام من أثر سيئ على الرأى العام، وأنه لو كانت لديه فكرة عما قد يحدث "لما ترك مصر قبل إنتهاء المحاكمة"، ولكن طالما أن الأحكام قد أعلنت فلا مفر من تنفيذها[1189]، وعبر كرومر عن موقفه فى مذكرة أعدت على عجل، إنتهى فيها إلى أنه يعتبر الأحكام "رغم قسوتها، عادلة وضرورية"[1190]، ولكن هذه المذكرة تعكس شعوره بالحرج؛ لأن تنفيذ عقوبة الإعدام علناً تم إبطاله فى مصر منذ سنوات خلت، كما أن تقاريره السنوية كانت تركز باستمرار على أن الإنجليز وضعوا نهاية لاستخدام "الكرباج"، الذى كان يستخدم فى جلد الفلاحين عند جباية الضرائب.

واعترف بويل لأمه فى خطاب أرسله من القاهرة أن "العقوبات جاءت صاعقة، لأننا لم نكن نتوقع الحكم بالإعدام على أحد"[1191] وعلق ستورس على الحدث بعد ذلك بقوله: "أحس بعضنا أن ثمة خطأ قد حدث"[1192]. وحاول همفرى باومان Bowman – مفتش التعليم

1187 Ibid, 704 – 5.

1188 Findlay to Grey, 27 June, 1906, PRO, FO 141/404, and 8 July 1906, PRO, FO 800/46; Parl. Deb, vol. 159, col. 1111 c 28 July 1906).

1189 Lord Grey of Falloden Twenty – Five Years: 1892 – 1916 (New York: Frederick A. stokes, 1925, i, 134.

1190 Memo. By Lord Cromer, 12 July 1906, PRO, FO 141/404.

1191 6 July 1906, BP, box C/3.

1192 Storrs, Orientations, 64.

البريطانى المعين حديثاً– أن يبرر لنفسه الأمر بالقول بأنه كان من الضرورى الحكم بالإعدام على شخص واحد، ولكن لصعوبة توفر الأدلة التى تدين أياً من المتهمين حكم عليهم بالإعدام[1193].

ولكن أياً من تلك التبريرات لم يجد نفعاً عندما هبت عاصفة النقد الموجه ضد أحكام الإعدام فى بريطانيا ومصر، وبينما لم يتجاوز عدد الأسئلة الموجهة بمجلس العموم عن مصر عشرين سؤالاً فى خريف وربيع 1906، قدم النواب 52 سؤالاً فيما تبقى من الفصل التشريعى لذلك العام، كانت كلها عن دنشواى[1194]. وأثار النائب الحر جون ماكينون روبرتسون القضية خلال عطلة الصيف فى أغسطس مستخدماً مادة حصل عليها من مصر مفادها أن هجوم الفلاحين على الضباط الإنجليز لم يكن مدبراً، على نحو ما جاء بالمعلومات المقدمة لمجلس العموم، وأن الماجور باين كوفن لم يكن يعتقد أن إصابة الكابتن بول خطيرة عندما كلفه بالجرى مسافة ستة أميال طلباً للعون، وأن "الأعمال الكبيرة للورد كرومر لا تبرر له السماح بممارسة عمل من أعمال الإنتقام الفاضح الذى يتنافى مع تقاليد الإمبراطورية البريطانية"[1195].

وقد سعى جراى لإخماد لهيب الهجوم، متخذاً طريقاً وسطاً بين محاولة إيقاف الحملة تماماً تلبية لطلب كرومر وفندلاى، والسماح للنواب بالتعبير عن مشاعر القلق المشروعة عندهم، وقد فعل ذلك مع تناقص تأييده لما حدث، فقد أحس أنه دفع للتورط فى الإدلاء ببيانات غير دقيقة استناداً إلى المعلومات التى تصله من القاهرة، ولكن عندما "أصبحت الحقائق متاحة لى، شعرت أن ما تم عمله لابد أن يخضع للمساءلة"[1196]. ولعل ذلك يفسر عدم تحمسه للدفاع عن السياسة البريطانية فى مصر خلال العطلة البرلمانية فى مواجهة الجدل الذى أثير حولها، مؤكداً أن الإعدام العلنى تجربة لا يجب التورط فيها إلا فى الحالات النادرة، وأنه لا يجب العودة إلى عقوبة الجلد علناً أيضاً[1197].

[1193] Entry for 27 Sept. 1906, Journal Sept. 1905 – Mar. 1910, Bow P, box 3 A.
[1194] Mellini, Gorst, 116 – 17.
[1195] Parl. Deb. Vol., 162, cols. 1831 – 5 (4 Aug. 1906).
[1196] Quoted in Mellini, Gorst, 271 n 66.
[1197] Parl. Deb., vol. 162, cols. 1831 – 5 (4 Aug. 1906).

وفى الوقت نفسه، كان بلنت، ينظم حملة خارج البرلمان من المقالات الصحفية، والنشرات، وزيارات السياسيين المصريين هدفها جميعاً إبراز سلبيات سياسة الإحتلال فى مصر. وكان من أبرز أعماله نشرة طبعت فى منتصف سبتمبر بعنوان "فظائع العدالة البريطانية" عن حادث دنشواى، استعان فى كتابته بمادة الصحافة المصرية[1198]. وحدد الهدف من تلك النشرة بيان أن دنشواى لم تكن حادثاً منعزلاً للخطأ فى تطبيق القانون، ولكنها جزء من نظام حول جميع القوانين المتحضرة إلى أداة لخدمة أغراضه السياسية، وهو نظام يتحكم فيه تماماً اللورد كرومر. وفى القضايا ذات الطابع السياسى لا تجرؤ أى محكمة محلية فى مصر على ممارسة الحد الأدنى من الاستقلال[1199]، وبعد أن قدم عرضاً للحوادث التى وقعت بين المصريين وجيش الإحتلال من قبل، وما لقيته أحكام دنشواى من هجوم حاد، أرجع ذلك كله إلى كرومر، وطالب باستدعائه لمحاسبته على ما اقترف من أعمال.

وقد ترجمت النشرة إلى العربية ونشرت بإثنتين من صحف القاهرة فى مطلع أكتوبر[1200]. وجاء بالمقال الرئيسى بالمانشستر جارديان أن الأمر الخاص بإنشاء محاكم مخصوصة يتعلق فقط بالهجوم على الجنود أثناء قيامهم بواجباتهم العسكرية، وتساءلت الصحيفة عن مدى استطاعة كرومر إقناع الجاليات الأجنبية فى مصر بالتخلى عن الإمتيازات الأجنبية طالما أنه – ذاته– لا يثق فى المحاكم المصرية[1201].

وقام برنارد شو بتقديم القول الفصل فى القضية بعدما أطلعه بلنت عليها، ففى تقديمه لمسرحيته "جزيرة جون بول الأخرى" إختار للتقديم عنوان فظائع دنشواى، وطلب من قرائه أن: "عليهم أن يتخيلوا مشاعر قرية إنجليزية ظهرت فيها فجأة فصيلة من الجنود الصينيين، أخذت فى اصطياد البط والأوز والدجاج الرومى، ثم حملت ذلك كله معها، مصرين على أنها جميعاً طيور برية فى عرف أهل الصين، وأن الإستياء الذى عبر عنه أهل القرية ليس

[1198] W. S. Blunt, Atrocities of British Justice Under British Rule in Egypt (London: T. Fisher unwin, 1906); Longford, A Pilgrimage of Passion, 360 – 1.

[1199] Blunt, Atrocities, 6.

[1200] Blunt to Mynell, 2 Oct. 1906, Houghton Library, Harvard University, W. S. Blunt, b MS Eng. 1235.

[1201] Manchester Guardian, 12 Sept. 1906.

سوى تعبير عن كراهيتهم للصينيين، وربما اتهموا بالتآمر ضد العقيدة الكنفوشية لصالح الكنيسة الإنجليزية"[1202].

وكان حادث دنشواى فى مصر عاملاً مساعداً فى إثارة الشعور الوطنى الكامن والمعادى للإنجليز، الذى عبر عن نفسه بمختلف السبل. ووفقاً لما ذكره مصطفى كامل، أحس الخديو عباس بالإهانة؛ لأن العفو الذى أصدره عن سجناء دنشواى قد رفض دون الرجوع إليه، فتعمد البقاء بالإسكندرية حتى لا يضطر إلى حضور العرض العسكرى البريطانى بمناسبة عيد ميلاد الملك[1203]. وقامت الصحافة المحلية – فى الوقت نفسه– بتوجيه مجموعة الإنتقادات الفردية التى عبر عنها كتاب المقالات، تحولت إلى حركة عامة شعبية تدعمها الأحزاب والبرامج السياسية، وزادت درجة حرارة الحركة إرتفاعاً من خلال الهجوم المتبادل بين الصحافة الموالية للحكومة وتلك المعارضة لها، وظهرت على الفور عدة أعمال روائية حول الموضوع مثل مسرحية "فتاة دنشواى"، ومسرحية "دنشواى" التى تم منعها عام 1908، والعديد من القصائد الشعرية التى لعبت دوراً مهماً فى توعية جماهير المدن الإقليمية[1204]. وتناول بعضها وصفاً لأحزان أبناء دنشواى على من صدرت بحقهم الأحكام الجائرة[1205]. وفى مذكرات المصريين الذين عاصروا الحادث، يرد ذكرهم له باعتباره يمثل أحلك لحظات حياتهم[1206].

ولعل كرومر قضى وقت الإجازة فى مراجعة الأمور، بعدما عادت الهواجس القديمة تطارده من جديد، فحكومة حزب الأحرار فى السلطة، يشغل قادتها أنفسهم بتهدئة الراديكاليين من أعضاء مجلس العموم، وقد برهن بلنت على قدرته على إثارة المتاعب بفضل ما له من تأثير فى الرأى العام، والأخبار تترا من فندلاى وبويل عن ارتفاع مد النقد فى مصر للسياسة البريطانية، وما له من تأثير سلبى على القلة المحدودة من أنصار الإحتلال[1207]. وقبل

1202 George Bernard Shaw, "Perface For Politicians", in John Bull's Other Island and Major Barbara, also, How He Lied to Her Husband (London: Archbald constable, 1907), xliv – xlv.

1203 Blunt, entry for 19 Dec. 1906, My Diaries, 575 – 6.

1204 The Times 27 Aug. 1906, Findlay to Grey, 20 July 1906, PRO FO 371/67; Pierre Cachia Popular Narrative Ballads of Modern Egypt (Oxford: Clarendon Press, 1969), 247 – 57.

1205 Ibid, 255, 257.

1206 انظر على سبيل المثال – "تربية سلامة موسى".

1207 "Review of Week's Press Activity", 10 Sept. 1906, HP, VIII.

عودته إلى القاهرة، عقد كرومر إجتماعاً مع بعض محررى الصحف اللندنية، ووصف محرر التريبيون بأنه كان عاطفياً، أبدى إستياء شديداً لما ترتب على حادث دنشواى من نتائج[1208].

ولم يكن أمام كرومر وفندلاى من سبيل سوى الإلحاح على جراى بالفكرة القائلة بأن المعارضة فى مصر ما كانت لتتسع على هذا النحو لو لم يكن هناك مساندة لها من جانب بعض أعضاء مجلس العموم البريطانى[1209]. وكان كرومر لا زال يردد تلك الفكرة فى أغسطس عندما ذهب إلى أن مصطفى كامل وأتباعه على اختلاف مشاربهم يجدون فى كلمات أحد أعضاء مجلس العموم (يقصد روبرتسون) ما يشد أزرهم، مما ترتب على ذلك بروز "الحزب الوطنى" إلى عالم الوجود[1210]، وقد كررت الفكرة نفسها بصورة نمطية من قبيل تعليق اللوم فى رقاب الآخرين.

وكان مما يخفف الضغوط على كرومر ظهور جماعة مناوئة لمصطفى كامل داخل الحركة الوطنية المصرية ذاتها، ولابد أن يكون كرومر قد شعر بالغبطة عندما قرأ رسالة فندلاى فى 5 من أغسطس، التى تحدث فيها عن الجهود التى يبذلها مصريان من أبناء النخبة الإجتماعية المتميزة هما محمد محمود وأحمد لطفى السيد لإنشاء صحيفة جديدة بعنوان "الجريدة"، وذلك بهدف إرساء دعائم حوار عام صحى حول المفاهيم الدينية والإصلاح يقوم على أساس ضرورة القبول بنظام الحكم كما هو، وعدم الإعتراض على الدور الذى يلعبه المستشارون الإنجليز أو الحكومة البريطانية[1211].

غير أن كرومر كان سياسياً يدرك ضرورة تقديم تغييرات، وثمة إشارات لذلك فى مذكرته عن الوضع فى مصر التى انتهى من إعدادها فى 8 سبتمبر، وكان جانب منها يتسم بالروح الدفاعية: "فلا يوجد بين الناس من يهتم برفاهية الشعوب سوى رجال الإمبراطورية"، وخصص جزءاً منها للحديث عن الحاجة؛ لإدماج سكان مصر معاً، ولكنه طرح ثلاث

[1208] Blunt, entry for 6 Oct. 1906, My Diaries, 568.

[1209] Findlay to Grey, 20 July 1906, PRO, FO 371/67.

[1210] 26 Aug. 1906, PRO, FO 371/67.

[1211] Findlay to Grey, PRO, FO 371/67; Charles Wendell, The Evolution of the Egyptian National Image: From its Origins to Ahmed Lutfi al – Sayyid (Berkeley: University of California Press, 1972), 215 – 6n; Lutfi al – Sayyid, Egypt and Cromer, 188.

مبادرات جديدة: "أولهما يتصل بالحاجة إلى توسيع نطاق مشاركة أبناء البلاد فى الإدارة المركزية والمحلية، مع إنفاق الإيرادات الناجمة عن عوائد الضرائب الجديدة، وثانيها، تشجيع المجموعة الصغيرة من "المعتدلين" على إنشاء صحيفة لا تحتاج إلى دعم مالى حكومى، وأخيراً، قرر تناول المشاكل المتصلة بالحكومة الفردية بالبحث عن سبيل لجمع رؤساء المصالح الحكومية معاً، ولكنه لم يكن على استعداد لتقديم مقترحات بشأن بعث الحيوية فى مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية؛ لأنه كان يرى ضرورة إلتزامهما بدورهما المحدود[1212].

الشهور السبعة الأخيرة لكرومر فى مصر

عاد كرومر إلى القاهرة فى أكتوبر، وكتب إلى جراى فى 27 أكتوبر أن الأوضاع أحسن مما كان يتوقع، وأن مصطفى كامل فقد تألقه. وفى 2 نوفمبر ذكر له أنه قد استمع إلى جميع الأطراف وتم نسيان دنشواى تماماً[1213]. وأصبح ذلك هو الخط العام الذى يتبعه دار المعتمد البريطانى، وهو أن الشعور العام عند المصريين يميل إلى الإعتدال، وأنه إذا كان مصطفى كامل وأتباعه يثيرون المتاعب فذلك؛ لأنهم يلقون تأييداً من بعض أعضاء مجلس العموم وغيرهم من الأصدقاء فى لندن، وهو خط كان مقدراً له ألا يصمد طويلاً، وكل ما استطاع تحقيقه خلال إجازة الصيف بلندن بددته ضغوط العمل والقلق.

ورغم معاناة كرومر لمشاكل الهضم، أغرق كرومر نفسه فى عدد من المبادرات الجديدة إضافة إلى جهوده فى العمل على تحقيق تقدم فى مشروع الإمتيازات الأجنبية، وكانت أولى مبادراته تحويل مصلحة المعارف العمومية إلى وزارة، وتعيين سعد زغلول (أحد المعتدلين) ناظراً لها فى نوفمبر، وكان قد عرف زغلول منذ عدة أعوام باعتباره من محاسيب الأميرة نازلى فاضل التى شجعته على تعلم الفرنسية والإلتحاق بمدرسة الحقوق، وجعلته مستشاراً قانونياً لها، وكان مستقلاً من الناحية السياسية ولكنه كان على علاقة وثيقة بأحمد لطفى السيد و"الجريدة".

1212 PRO, FO 371/68.
1213 CP/2, FO 633/13.

وكان كرومر يهدف من وراء تعيين سعد زغلول ناظراً للمعارف – على حد قوله لجراى– تشجيع التعاون مع الوطنيين فى المناصب الكبرى؛ لأن الظروف الراهنة حولت الوزراء التقليديين إلى أصفار، ولكن "زغلول لن يكون مثلهم"[1214]. وكان مما يتوقعه من وراء هذا التعيين وضع حد للنقد الموجه لسياسة التعليم، وتهدئة طلاب مدرسة الحقوق وغيرها من المدارس العليا. وقد نال هذا التعيين تأييد بلنت بعدما أقنعه مصطفى كامل أن زغلولاً سوف يتمسك بسلطته فى مواجهة دانلوب[1215].

وقد مرت أعياد الميلاد بسلام، وأعرب كرومر لجراى عن سعادته بتلك الأعداد الكبيرة من المصريين الذين زاروه بهذه المناسبة لإعتقادهم أنه "العيد الكبير" عند الإنجليز. وقد اعتبر ذلك دليلاً على أن الإحتلال ليس مكروهاً على أى حال[1216]. ولكن أصيب كرومر بالضيق فى أواخر يناير بسبب زيارة روبرتسون (عضو مجلس العموم) للقاهرة، وقد أخذ كرومر حذره فكلف عميلاً موثوقاً به من الشرطة بمراقبة نشاطه فوجده "جاهلاً، لا نفع له"[1217]. وقد التقى كرومر ثلاث مرات مع روبرتسون الذى ذكر له بعض الأمور التى عرفها خلال الزيارة، من بينها أنه علم من بعض المصريين أنهم على استعداد لدفع ضرائب أكثر لو كانت حصيلتها ستنفق على التعليم[1218].

وذكر روبرتسون لبلنت أنه وجد كرومر "عصبياً وحساساً تجاه الرأى العام البريطانى"[1219]. وذكر كرومر لرئيس الجمعية التبشيرية الإنجليزية أنه اكتشف أن روبرتسون "من أقصر من قابلتهم نظراً" فقد ابتلع كل ما قاله له الوطنيون[1220]. وبعد ذلك بستة أسابيع استدعى كرومر رئيس الجمعية التبشيرية ليبلغه بما قاله روبرتسون فى مجلس العموم عن النشاط التبشيرى فى جنوب السودان، وذكر له أنه من المفزع حقاً أن يقوم أوروبى بإثارة "التعصب الإسلامى على هذا النحو" وطلب منه أن يكتب إلى ممثل الجمعية التبشيرية فى البرلمان حتى يحذر

[1214] 2 Nov. 1906, CP/2 FO 633/13.

[1215] Entry for 19 Dec. 1906, Blunt, My Diaries, 577.

[1216] 26 Dec. 1906, CP/1, File marked "Typed copy of Private Correspondence with sir Edward Grey over Dinshawai".

[1217] 12 Jan. 1907, ibid.

[1218] Cromer to Grey, 1 Feb. 1907, CP/2, FO 633/13.

[1219] Entry for 19 Feb. 1907, Blunt, My Diaries, 578 – 9.

[1220] Maclnnes to Baylis, 12 Apr. 1907, quoted in Mellini, Gorst, 126 المقابلة تمت فى 4 مارس 1907.

أعضاء مجلس العموم من الإستماع إلى هذا النقد الغبى غير المسئول الموجه إلى النشاط التبشيرى[1221]. وإذا تذكرنا أن كرومر كان يعانى من المرض عندئذ، فإن فى ذلك الموقف نوعاً من الفصام السياسى.

وكان الإهتمام الآخر لكرومر منصرفاً إلى إلغاء الإمتيازات الأجنبية. وقد إقتنع تماماً أن مشروعه لن يلقى النجاح إلا إذا كان هناك إعلان واضح عن استمرار الإحتلال البريطانى فى مصر، وكان يرى أن ذلك مطلوب؛ لتهدئة روح الجاليات الأجنبية بعدما شهدوه من إتجاه المصريين إلى العنف بعد حادث دنشواى. وذكر لجراى فى 17 يناير 1907 أنه ما لم تقم الحكومة البريطانية بتحرك فى اتجاه إعلان استمرار الإحتلال علينا أن نودع فكرة إلغاء الإمتيازات إلى الأبد، وحذر من تقديم أى تنازلات لمصطفى كامل بهذا الصدد، وإلا فإن جميع الأوروبيين المقيمين فى مصر سوف يلوذون بدلوهم ويتمسكون بحمايتها لهم[1222]. ولكن جراى تحسب لمعارضة مجلس الوزراء البريطانى فألغى كلمة "المستمر"، وكلمة "الدائم" من الكلمة التى اعتزم كرومر إلقاءها أمام غرفة التجارة الإنجليزية بالقاهرة، طالباً منه أن يقول إنه "ليس هناك ما يحول دون الإصلاح" أو يثير الشك حول استمرار الإحتلال البريطانى الذى استقرت نية الحكومة البريطانية على الحفاظ عليه"[1223].

وقد كرر كرومر الصيغة ذاتها فى التقرير السنوى للعام 1906 الذى استخدمه للرد على ناقديه، وللتشجيع على الحوار بين الجاليات الأجنبية فى مصر عندئذ بدأ ينتابه المرض، وكتب بعض التقارير وهو يبحر صاعداً فى النيل طلباً للشفاء[1224]. وزاد من متاعبه تشكيل لجنة للشئون المصرية بمجلس العموم البريطانى لمراقبة ما يجرى فى مصر، واعتقد جراى أن بلنت كان وراء تشكيل اللجنة، وكانت هذه اللجنة تضغط على كرومر وجراى من أجل تحسين التعليم، واتخاذ الإجراءات الكفيلة بإعداد المصريين لحكم أنفسهم[1225]. واضطر

[1221] تمت المقابلة فى 25 أبريل 1907 بعد استقالة كرومر Maclnnes to Baylis, 11 May 1907, quoted in Mellini, Gorst, 127.

[1222] CP/2, FO 633/13.

[1223] Grey to Campbell – Bannerman, 18 Jan. 1907, C – BP, Add. MS 4/2/8' Griey to Cromer, 18 Jan. 1907, quoted in Roberson, "Judicial Reform", 25.

[1224] 6 Feb. 1907, PRO, FO 800/46.

[1225] Grey to Cromer, 1 Nov. 1906, CP/2, FO 633/13, and 1 Mar. 1907, ibid.

كرومر أن يدخل تعديلات على تقريره السنوى فى اللحظات الأخيرة استجابة لذلك النقد[1226]. وأحياناً اتخذ ذلك شكل إدخال تغييرات على الموازنة أيضاً، فكتب لجراى عن ضرورة زيادة الإنفاق على التعليم فى العام التالى؛ لأنه يمثل مطلباً عاماً هنا، كما أنه إحدى نقاط الإرتكاز فى هجوم روبرتسون وأصدقائه على سياسة الإحتلال فى مصر، وتبين التعليقات التالية مدى ما سبب له هذا النوع من السياسة من متاعب:

"إذا كان علينا أن نتبع خطاً يرمى إلى إزالة أسباب إساءة استخدام السلطة لمجرد كونها كذلك، أو نأخذ بالإصلاح لمجرد كونه مطلوباً، فإن ذلك على النقيض تماماً من السياسة التى إتبعناها من قبل وحققت النجاح الكبير لما يزيد عن 22 عاماً، كما أنها سوف تضعنا فى مآزق مالية حرجة"[1227].

لقد كان التقرير السنوى ثمرة جهد جماعى، ويمكن أن نلمس مساهمة كرومر فيه عندما يتناول رأيه فى الوطنية المصرية أو فى مستقبل السياسة التعليمية، كذلك كانت آراؤه معروفة فى مختلف الدوائر. وبعض ما ورد بالتقرير السنوى كان صدى لمذكرته عن "حالة مصر الراهنة"، فيذكر أن هناك آراء تدعو إلى تكوين رأى عام مصرى يدعو "للقومية المصرية"، وكان الإتجاه الأول مدفوعاً بالجامعة الإسلامية، أما الثانى هو الذى يعبر عنه الحزب الوطنى المصرى بزعامة مصطفى كامل، وهو يتكون من مجموعة من مثيرى الضوضاء الذين لا يعبرون عن آمال وتطلعات الشعب المصرى، وهو يطالب بالتوسيع الفورى للمجالس النيابية مما يؤدى إلى خلق حالة فوضى، كما أن المطالبة بالرقابة على الشئون المالية سوف تدفع بالبلاد فى اتجاه الإفلاس. ومن ثم فإن الوطنية المصرية الجديرة بالإعتبار هى تلك التى تجمع بين جميع من يسكنون مصر، وأن تكوين الروح الوطنية لا يتحقق إلا من خلال المصالح الحقيقية فى البلاد[1228]. وفيما يتعلق بالتعليم يشير التقرير إلى أنه حتى لو توفرت الأموال اللازمة للإنفاق على التعليم، فإن الإتجاه نحو التعليم الحر أو

[1226] Cromer to Grey, 1 and 9 Mar. 1907, PRO, FO 800/46.

[1227] 28 Feb. 1907, ibid.

[1228] PP (1907) 100, 672 – 32.

زيادة الإهتمام باللغة العربية لن يتحقق إلا إذا توفر العدد اللازم من المعلمين، والهدف الآخر الذى ظل مثاراً للنقد هو التوسع فى التعليم الإبتدائى[1229].

وفى لندن، إستمرت اللجنة المصرية – التى تضم أعضاء فى مجلس العموم البريطانى– فى تقديم ما يزيد على عشرة أسئلة أسبوعياً عن مصر[1230]. وبالإضافة إلى التعليم، كانت هناك أسئلة عن المحاكم الخاصة والعقوبات التى وقعت على المتهمين فى دنشواى بالسجن لمدد طويلة. ورغم معاناة كرومر من مرض الجهاز الهضمى، بذل أقصى الجهد فى الدفاع عن نفسه، وتزايد ضيقه من جراى لعدم الدفاع عنه بشكل كاف ضد "أولئك الذين ينبحون ورائى ويعضون كعبى". ورأى أن متاعبه ليس منشأها الواقع المحلى فى مصر، ولكنها تعود إلى "التحمس الزائد عن الحد فى لندن للعناصر المتطرفة المعارضة هنا"[1231]. وفى ظل هذه الفكرة إزداد هجومه على "حماقة الناقدين الإنجليز"، وذهب إلى أن مطالبة النائب روبرتسون بالتقدم السريع فى اتجاه تحقيق الإستقلال الذاتى فى مصر هو "من ضروب المحال"، أن نترك هؤلاء المصريين الذين يفتقرون إلى الكفاءة يفعلون ما يريدون مع وجود الإحتلال، إنه نوع من الجنون[1232]. وبعد ذلك بخمسة أيام رد على إدعاء روبرتسون وبطانته بعدم وجود تطور للقيم الخلقية فى مصر، بأن ذلك يستغرق أجيالاً وليس سنوات، بعدما شعر أن روبرتسون وجماعته أصبحوا يضايقونه كما البعوض، وذكر أن ما يعوق تطور القيم الخلقية فى مصرهو أن المصريين مثقلون بعقيدتهم الدينية التى يرتكز التعبير عنها فى القرآن[1233].

ووجد كرومر نفسه طرفاً فى مناقشات متوترة مع جراى، الذى أراد تهدئة المعارضة البرلمانية بمراجعة بعض أحكام محكمة دنشواى[1234]. ورغم أن كرومر أقر بأن معظم الناس "يرونها أحكاماً شديدة القسوة رغم ضرورتها، وأنها كانت مبالغاً فيها"، فقد طلب إرجاء تلك المراجعة لعامين أو ثلاثة أعوام[1235]. ولكنه إضطر إلى الموافقة على عدم اللجوء إلى المحاكم

[1229] Ibid, 711 – 19.
[1230] Grey to Cromer, 1 Mar. 1907, PRO, FO 800/46.
[1231] Cromer to Grey, 3 Mar. 1907, CP/2, FO 633/13.
[1232] Ibid.
[1233] Cromer to Grey, 8 Mar. 1907, PRO, FO 800/46.
[1234] 1 Mar. 1907, CP/2, FO 633/13.
[1235] 7 Mar. 1907, PRO, FO 800/46.

المخصوصة مرة أخرى، وأن تحال كل قضايا التعدى على الجنود البريطانيين إلى المحاكم الأهلية[1236].

وقد حرص جراى أن يرد على كرومر بقدر ما استطاع من لين، واستجاب لطلبه زيادة حجم قوات الإحتلال مرة أخرى، كما أكد له أنه لن يتردد فى مساندته عندما يقتضى الأمر ذلك، وقد شمل ذلك موقفه من دنشواى فى العام السابق، عندما دافع عما تم عمله فى دنشواى رغم سهولة دحض موقفه على أساس عدم استناده إلى معلومات صحيحة[1237]. ولكننا نشك فى قيامه بالعمل على مساندة الإهتمامات الأخرى لكرومر، وفى 22 مارس أبلغه كرومر أنه لزم الفراش ويأمل أن يسترد عافيته بعد يومين أو ثلاثة أيام[1238]، وبعد نحو الأسبوع، قدم استقالته فى 28 مارس، وكانت صحته – عندئذ– قد بلغت حداً كبيراً من التدهور، إلى حد قول بويل "حتى اضطر لاستخدام طعام خاص بالأطفال، ولكنه عجز عن هضمه أيضاً"[1239].

وقد تضمن خطاب استقالة كرومر الإشارة إلى عدة مشكلات بدءاً من تدهور صحته منذ العام 1898، الذى يرجعه إلى أسباب عائلية لا يستطيع أحد سواه تقدير ما لها من أثر عليه (وهو يشير بذلك إلى فقد جراى لزوجته فى حادث قبل ذلك التاريخ بعام واحد)، ويستطرد كرومر قائلاً:

"ورغم محاولاتى لإتباع اللامركزية بإلقاء الكثير من الأعباء على كاهل غيرى، جاء رحيل جورست من مصر ليغير الأوضاع تماماً عندى، وليس لدى الآن سوى جارستن الذى لا يعد من كوادر الخارجية بالمعنى الضيق للكادر. وإذا كنت أصغر سناً لاستمتعت بمواجهة الخديو ومصطفى كامل وحلفائهما من الإنجليز، وأعتقد أنه كان باستطاعتى هزيمتهم".

1236 Grey to Cromer, 15 Mar. 1907, PRO, FO 371/246; Cromer to Grey, 22 Mar. 1907, PRO, FO 800/46.

1237 9 Mar. 1907, ibid.

1238 Ibid.

1239 27 Mar. 1907, BP, box C, File 3.

وذكر أن طبيبه المحلى – وهو رجل حاذق– نصحه بترك مصر، ولكنه نصح جراى بالتأكيد على أن الاستقالة ترجع لأسباب صحية فى المحل الأول، حتى لا يترتب على ذلك حدوث إضطرابات أو هبوط لقيمة السندات المصرية، كما نصحه بأن يؤكد أن تغيير الأفراد لا يعنى تغيير السياسة[1240].

ورد جراى بأنه "صدم" عندما بلغه النبأ برقياً، وطلب من كرومر إعادة النظر فى الموضوع[1241]، ولكنه عندما تلقى خطاب استقالة كرومر المؤرخ 28 مارس أدرك أن كرومر قد حزم أمره استجابة لنصيحة طبيبه، وشعر أن جورست هو خير من يخلفه فى منصبه، رغم ما قد يعترضه من صعوبات فى البداية لعدم وجود تأثير شخصى له على "العناصر البريطانية والموظفين الإنجليز"[1242]. وقد لاحظ جراى فى خطاب إلى هاردنج – وكيل الوزارة الدائم– قبل ذلك ببضعة أيام تخبط كرومر فى تصرفاته بسبب سوء حالته الصحية[1243].

وأعلن جراى عن استقالة كرومر – رسمياً– أمام مجلس العموم فى 12 أبريل، ورغم أنه أكد أن الاستقالة قدمت لأسباب صحية وليس سياسية، فإن ذلك لم يدخل فى اعتبار الزعماء الوطنيين المصريين الذين أكدوا أن الحكومة البريطانية طلبت من كرومر تقديم استقالته نتيجة حملتهم التى شنوها ضده، وعدم موافقة الحكومة البريطانية على تصرفاته[1244]. كانت تلك هى الفكرة التى طرحها مصطفى كامل فى مقاله "باللواء"، فذهب إلى أن صحة كرومر لم تتدهور إلا بعد ما لقيه من المعارضة نتيجة حادث دنشواى، ورغم نزاهته الشخصية، فقد حب الشعب المصرى الذين عجز عن تربيتهم سياسياً على النحو الذى يريد[1245]، وقد تكررت الفكرة نفسها التى تناسب الزهو الوطنى فى كتب التاريخ بالمدارس حتى الثلاثينيات من القرن العشرين[1246].

[1240] 28 Mar. 1907, CP/2, FO 633/13, copy in C – Bp, Add. Ms 4, 2, 8, vol XIII.

[1241] 5 Apr. 1907, ibid.

[1242] 7 Apr. 1907, ibid.

[1243] 30 Mar. 1907, PRO, FO 800/46.

[1244] El – Musaddy, "Relations", 392.

[1245] 14 Apr. 1907.

[1246] Barak Aharon Salmoni, "Pedagogies of Patriotism: Teaching Socio – Political Community in Twentieth Century Turkey and Egypt, Ph. D. thesis (Harvard 2002) 853 – 4, 918.

وقدم أحمد لطفى السيد فى تعليقه على الحدث "بالجريدة" عدة نقاط كانت موضع تفكير المصريين لعدة عقود من السنين، ففى مقال بعنوان "اللورد كرومر أمام التاريخ" ميز تمييزاً قاطعاً بين "النتائج العظيمة" لسياسته المالية، وتحامل المصريين عليه بسبب معارضته السياسية لإنهاء الإحتلال البريطانى، ورغم توسيع نطاق الحرية الفردية، عجز كرومر عن إقامة نظام تعليمى "نافع ومثمر". واعتمد على الإنجليز – وليس المصريين– فى تنفيذ إصلاحاته، وتجاهل "القومية المصرية" لصالح محاولة إقامة "قومية دولية" فى مصر[1247].

وكان رد الفعل للاستقالة فى بريطانيا أكثر تحديداً، فعند إعلان استقالة كرومر إعتبرت "خسارة كبرى لحقت بالخدمة العامة فى هذه البلاد"[1248]. وأشاد بالفور Bal four زعيم المعارضة المحافظ "بعظمة" ما أنجزه كرومر، و"الصبر" الذى تحلى به طوال قيامه "بالعمل العظيم المنوط به"[1249]. وبعد أن أعرب محرر التايمز عن أسفه لاستقالة كرومر، ذكر أن إسمه سوف يظل مقترناً "بمصر الحديثة"[1250]. وذهبت صحيفة الدايلى تلجراف إلى أنه "الإدارى البارع الذى قاد سفينة العمل وسط الأنواء فى بحر الرخاء"[1251]. وبالنسبة لمعارضى كرومر، يذكر بلنت أنه تنفس الصعداء عند سماعه النبأ، وغادر لندن إلى الريف يتملكه "شعور الصياد بعد نهاية رحلة الصيد، وقد وضع ريشة قبعة كرومر فى جيبه"[1252]. وبعد بضعة أيام كتب بلنت نقداً لسياسة كرومر فى المانشستر جارديان بعنوان "نظام جديد فى مصر"، فذكر أن كرومر يعانى مما يصفه الفرنسيون "بعيوب قدراته: فقد أدى نجاحه الطويل المدى فى جوانب إدارية معينة إلى تضييق نطاق الرؤية السياسية عنده، لدرجة عجزه عن رؤية الحقائق الواضحة ذات اليمين وذات الشمال، وأدت شخصيته القوية إلى إغراق الأمة البريطانية فى حالة عدم وضوح الرؤية التى تخالف طبيعتها. وقد حان الوقت لوضع نهاية لذلك، إذا كان علينا التحلى بالحكمة السياسية، والفرصة متاحة الآن أمامنا

[1247] 13 Apr. 1907, quoted in Wende, Evolution, of the Egyptian National Image 298, 300 – 1.
[1248] Parl. Deb. Vol. 172, col. 391, (11 Apr. 1907).
[1249] Ibid, cols. 391 – 2.
[1250] The Times, 12 Apr. 1907.
[1251] Daily Telegraph, 12 Apr. 1907.
[1252] Entry for 11 Apr. 1907, Blunt, My Diaries, 581.

بعدما زالت اللعنة التى لازمتنا. يجب أن تتفتح عيوننا على الحقائق، وأن نرى الأمور فى مصر على حقيقتها"[1253].

وكتب إدوارد دايسى فى عدد مايو 1907 من مجلة الإمباير ريفيو Empire Review فذكر أن مصر الآن لم تعد مهيأة للحكم الذاتى مثلما كانت قبل ذلك بربع القرن، فقد نجح الاستبداد (الكرومرى) فى إبعاد المصريين عن جميع المراكز الإدارية المهمة.

[1253] Manchester Guardian, 23 Apr. 1907.

الفصل السابع عشر
العودة إلى إنجلترا
(1907 – 1908)

الأيام الأخيرة فى مصر

ظل كرومر يدير الأمور السياسية فى مصر حتى وصول جورست وزوجته واستلامه العمل فى 24 أبريل 1907، وكان كرومر حريصاً على العودة إلى انجلترا على وجه السرعة، فقد كتب إلى ولده رولاند "لا استطيع أن أصف لك مدى حاجتى إلى الهدوء والراحة"[1254]. وكانت تلك الأيام حافلة بالإضطرابات والصعوبات. ومن العوامل التى كانت وراء ذلك إنهيار سوق الأوراق المالية فى الولايات المتحدة الأمريكية، مما جعل البنوك المحلية تضع على الفور قيوداً صارمة على الإئتمان العقارى، ونتج عن ذلك ما وصفه مراسل الإيكونومست "موجة من التصرفات اللاأخلاقية.. ليس ثمة ما يوازيها" فى بورصة الأوراق المالية بالإسكندرية[1255]. وعندما قدم كرومر تفسيراً لما حدث، غاب عنه البعد العالمى، فأرجع ما حدث فى مصر إلى "الإفراط فى المضاربات" الذى كان يحذر منه منذ سنوات، والذى تضاعف نتيجة المعارضة الوطنية، والقلق الناجم عن قراره بترك منصبه[1256].

وثمة سبب آخر أثار القلق هو الإضرابات التى نظمها العمال المحليون، واشترك فيها ما بين سبعة وثمانية آلاف سائق عربة حنطور فى 18 أبريل إحتجاجاً على الطريقة التى إتبعها البوليس فى فحص خيولهم، واستبعاد من لا يصلح منها للخدمة، وحتى يتم شل حركة الموصلات بالمدينة تماماً، حطم المضربون عربة ترام وهاجموا العربات الخاصة وتلك التى تنقل الأطفال إلى مدارسهم، وقد عاد الكثير من سائقى الحنطور إلى ممارسة عملهم فى

[1254] 6 Apr. 1907, CP/1, Letters from 1st Earl to 2nd Earl 1905 – 1906.
[1255] The Economist, 23 Mar. 1907, 504. Also Crouchley, Investment of Foreign Capital, 64 – 5.
[1256] Cromer to Grey, 13 Apr. 1907, CP/2, FO 633/13.

اليوم التالى، ولكن بعد حصولهم على بعض التنازلات بما فى ذلك إبعاد أربعة من الموظفين المكروهين[1257].

وتلى ذلك إضراب العربجية الذين حطموا 43 عربة ترام، عندئذ قامت القوات البريطانية باستعراض قوتها فى بولاق، حيث كانت معظم إسطبلات خيول المضربين، وأخيراً أضرب نساجو الحرير، وصناع الحصير، ثم أضرب الجزارون فى مايو[1258].

ورغم أن الإضرابات وقعت فى نهاية موسم السياحة كغيرها من الأنشطة التى تأثرت بذلك، أرجع الإنجليز هذه الإضرابات إلى الحملة التى شنتها المعارضة الوطنية، وقد زاد ذلك من حالة القلق واتجاه السلطات إلى اتخاذ إحتياطات عديدة لمنع قيام المظاهرات المعادية خلال إلقاء كرومر خطبة الوداع بدار الأوبرا فى 4 مايو، ورغم أن حفل الوداع كان مقصوراً على الأصدقاء ورؤساء الجاليات الأجنبية، فقد قاطعه جميع الساسة المصريين فيما عدا ثلاثة منهم هم: مصطفى فهمى باشا الذى تحدث عن المساهمة الكبيرة التى قدمها كرومر لتحقيق التقدم فى مصر، ورياض باشا، وسعد زغلول باشا، ومرت عربة كرومر فى شوارع خالية، ولكن لم تحدث مظاهرات شعبية.

وكانت خطة كرومر تكراراً لما عده من الإنجازات البريطانية التى تحققت على يديه بمصر، ولكن كان ثمة تغير ملحوظ فى إبراز تلك الإنجازات. فقد قدم إلغاء السخرة والكرباج والقضاء على فساد الإدارة (الرشوة) بإعتباره تقدماً "أخلاقياً" وليس "مادياً" عرفته مصر على يديه، فى محاولة للرد على من اتهموه بالتركيز على الجوانب المادية وحدها، كما تضمنت الخطبة إبرازاً للخط المتشدد الذى أنتقد فى تقريره السنوى الأخير، فأكد أن الإحتلال باق إلى أجل غير مسمى، وأن الحكومة البريطانية سوف تظل مسئولة عن إدارة أمور مصر ما بقى الإحتلال، وأن جورست (خليفته القدير) سوف يسير على النهج نفسه، وأنه (كرومر) عند عودته لإنجلترا "سيحث الحكومة البريطانية على التعامل مع تلك الدعوة المصطنعة لتطوير المجالس النيابية بما تستحقه فعلاً"؛ لأنها لا تعبر عن "أصوات الحكماء من سكان مصر

[1257] John Chalcroft, "The Striking Cabbies of Cairo and Other Stories: Crafts and Guilds in Egypt, 1863 – 1914", Ph. D. thesis (New York, 2001), 409 – 33.

[1258] Ibid, 433 – 56.

الأوروبيين والمصريين". وأخيراً، بينما يدعو معارضوه فى لندن إلى تغيير السياسة فى مصر، سوف يعمل "على استمرارها بقوة"[1259]. وكان ذلك أكثر مما يمكن أن يتحمله الشاعر المصرى أحمد شوقى، فرد عليه بقصيدة الوداع الشهيرة[1260].

لما رحلت عن البلاد تشهدت   فكأنك الداء العياء رحيلاً

وغادر كرومر مصر وبرفقته كاترين بعد يومين من الحفل، وحتى لا تعكر المظاهرات صفو الرحيل، تم إيقاف المواصلات، واصطف الجنود الإنجليز على جوانب الطريق من دار المعتمد حتى محطة القاهرة مروراً بميدان الأوبرا، وتذكر الإجبشيان جازيت أن شرفات المنازل والفنادق على طول الطريق إحتشدت بالنظارة، وأن "الآلاف من أبناء البلاد إحتشدوا على طول الطريق بمظهر شديد الإحترام"[1261]، وعندما تحرك القطار أطلق المدعون عبارات الأمنيات الطيبة المعهودة، وأطلقت المدافع خمسة عشر طلقة تحية، وعندما وصل كرومر وزوجته إلى فولكستون بعد أسبوع، استقلا قطاراً خاصاً إلى محطة فيكتوريا، حيث كان فى استقبالهم ولده رولاند وحفيده إيفلن وأمير ويلز ورئيس الوزراء وإدوارد جراى، ثم حملتهم عربة إلى قصر باكنجهام الذى يقع بالقرب من المحطة.

وكان رحيل كرومر من مصر على وجه السرعة، حتى أنه ترك وراءه كميات كبيرة من الأوراق الخاصة التى قضى بويل بضعة شهور فى تجميعها، ومن بينها مخطوطة كتابه مصر الحديثة، وقام بإحراق بعضها[1262] وقد ترك كرومر بعض كتبه لمعاونيه[1263]. ولكن بقى الكثير منها فأودعها بدار المعتمد البريطانى بالقاهرة حتى جاءت أخته غير الشقيقة (دروثيا) إلى مصر بعد وفاته عام 1917 فقامت ببيعها[1264].

[1259] Earl of Cromer, Speeches and Miscellaneous Writing, vol. 1, London: privately printed 1912, 142 – 6.

[1260] Hussein N. Khadim, "The Poetics of Postcolonialism: Tow Qasidahs by Ahmed Shawqi", Journal of Arabic Literature, 28, (1997), 180 – 2.

[1261] Egyptian Gazette, 7 May 1907.

[1262] Boyle to Cromer, 19 Aug. 1907, CP/2, FO 633/11 Boyle to Mrs. Boyle, 20 Aug. 1909 BP, C/3.

[1263] Storrs, Orientations, 54 – 5.

[1264] الأهرام، 6 يوليو، 1990.

إنجلترا وإسكتلندا

قضى كرومر الأسابيع الستة الأولى التالية لعودته إلى لندن فى أحد بيوت الرعاية الطبية، ثم أمضى فترة نقاهة مع كاترين فى كيثنس وفى منزل شقيقتها أليس، وهو بيت كبير من العصر الجورجى بمقاطعة أردجوان، بنى على ربوة على مصب نهر كلايد خارج مدينة جلاسجو، ويذكر زيتلاند أنه شعر بالكثير من الإرتياح لتلقيه العديد من الخطابات من زملائه وأصدقائه الذين بعثوا إليه بتمنياتهم له بالشفاء[1265]. وربما ساعده ذلك على مواجهة المعارضة التى ظهرت فى البرلمان ضد اقتراح الحكومة منحه مكافأة قدرها خمسين ألف جنيه إسترلينى تقديراً لخدماته، وكان من الأسباب الرئيسية للمعارضة أن مثل هذه المنح تعطى للعسكريين وحدهم، ولكن كان الدافع إليها أنه رغم وصول مرتبه السنوى إلى 6500 جنيه فإن معاش التقاعد الذى حصل عليه بلغ 900 جنيه سنوياً فقط[1266].

واستند المعارضون إلى أنه ليست هناك سابقة لمثل هذا الكرم الحكومى، وأنه لا يجب أن يكافأ على فشله فى تنفيذ سياسة الجلاء من مصر التى أرسل إلى هناك من أجل تنفيذها، وذكر دراموند وولف أن دنشواى "مثلت سوء التطبيق للعدالة بصورة وحشية رعناء"[1267]. ولكن جراى رئيس الوزراء وبالفور – رغم معارضة المحافظ– تصدوا للدفاع عنه. ونوه جراى بما حققه كرومر من إنجازات عظيمة، فبفضل جهوده أصبح الإحتلال مقبولاً فى بريطانيا وعند الدول الأخرى، وإن دافع الضرائب البريطانى مدين له بما تحقق وبما تمكن من تفاديه من أخطار[1268]. وألقى روبرستون خطبة بالغة الأثر ذكر فيها أنه مادام البريطانيون قد أقاموا حكماً فردياً فى مصر، وأيدوا النظام الذى كان كرومر يمثله، ليس من حقهم "المماطلة فى مسألة المنحة المقترحة"[1269]. وفى النهاية تمت الموافقة على المنحة بأغلبية 254 صوتاً ضد 107 أصوات، وامتناع الكثير من نواب حزب الأحرار عن التصويت، وأبدى بلنت سعادته؛ لأن أصوات المحافظين أنقذت الحكومة من الهزيمة[1270].

[1265] Zetland, Cromer, 299 – 302.

[1266] Marlowe, Cromer in Egypt, 275 – 6.

[1267] Parl. Deb. Vol. 179, col. 863 (30 July 1907).

[1268] Ibid, cols. 875 – 83.

[1269] Ibid, col. 886.

[1270] Entry for 1 Aug. 1907, Blunt, My Diaries, 590.

وبحلول شهر أكتوبر، كان كرومر قد تعافى تماماً ليتلقى تكريم بلدية لندن، وفى خطاب القبول الذى ألقاه بالجيلد هول هاجم من أدخل فى روع المصريين – من الإنجليز وغيرهم– أن الرأى العام البريطانى يناصر تطورهم السياسى السريع، فهؤلاء هم "المتطرفون" الذين نجدهم فى القاهرة وكلكتا ودبلن، وأن كل محاولة للتوافق معهم تعنى الإنتحار السياسى فى الهند وإيرلندا، ويؤدى إلى عودة مصر إلى الفوضى وسوء الإدارة الذى عانته فى الماضى، وبعدما امتدح جورست ذكر أنه يستطيع أن يخدم نفسه بشكل أفضل لو امتنع عن الهرولة تجاه "المهووسين" بإنجلترا، والقبيلة الكبيرة العدد التى تتحمس لهم فى مصر[1271].

كان النشاط الأساسى الذى يقوم به كرومر يقتصر على وضع اللمسات الأخيرة لكتابه "مصر الحديثة"، بما فى ذلك نقد الفقرات التى تهمه من كتاب بلنت "التاريخ السرى للإحتلال البريطانى لمصر" الذى نشر عام 1906، وأيضاً تغيير خاتمة "مصر الحديثة"، وكتابة أخرى جديدة بعنوان "مستقبل مصر"[1272]. وحصل بعد ذلك على موافقة القصر الملكى ووزارة الخارجية على طبع الكتاب، بعد أن أثار جراى "مشكلة" عندما أصر على حذف إقتباس من خطاب للملكة فيكتوريا[1273]. وأخيراً ساعده كل من بويل وجورست فى مراجعة تجارب الكتاب فى نوفمبر 1907.

وتم نشر المجلدين "مصر الحديثة" اللذين جاءا فى 1200 صفحة فى أوائل مارس 1908، وكان الغرض المعلن هو سرد قصة بعض الحوادث الرئيسية فى مصر من الإفلاس (1876) إلى وفاة توفيق (1892) ثم شرح "النتائج التى عادت على مصر من جراء الإحتلال البريطانى"[1274]. ورغم أن كرومر سجل صراعه مع الخديو عباس الثانى فإنه لن يشأ نشره إلا بعد خلع عباس عام 1914. وذكر هدفين آخرين لنشر الكتاب: تصحيح بعض المعلومات التاريخية "المغلوطة" التى تسربت إلى مفاهيم الرأى العام حول السياسية البريطانية فى مصر، وتقديم دليل للمشكلات العامة التى تواجهها "الحكومات الشرقية" حيث

[1271] The Times, 29 Oct. 1907, copy in CP/2, FO 633/25.

[1272] Zetland Cromer, 303, 307.

[1273] Cromer to Rowland, (Errington), 6 Nov. 1907, CP/1, Letters from 1st Earl to 2nd Earl, 1905 – 1906.

[1274] Cromer, Modern Egypt, i, 1 – 2.

يتطلب إصلاحها الأخذ بمتطلبات الحضارة الأوروبية[1275]. وبدت مصر – عند كرومر– جزء من الشرق له ملامح خاصة، فهى بلد يسيطر فيه جنس (الإنجليز) على جنس آخر (الترك) لحكم جنس ثالث (المصريون)، وأنه يجب إصلاحها دون تغيير "أحوال الحكومة" التى كانت موجودة قبل الإحتلال[1276]..

ويضم القسم التاريخى من الكتاب 33 فصلاً، مع اهتمام خاص بطبيعة ثورة عرابى، وأسباب الإحتلال ثم إخلاء واسترداد السودان، ويحتوى معظمه على نقد تفصيلى لسوء الإدارة المالية فى عهد إسماعيل، يلى ذلك شرح مستفيض للجهود التى بذلها كرومر ورجاله لإصلاح المالية المصرية، ولكن التركيز الكبير فى التناول جاء على تحليل الطبيعة "شبه الوطنية" للحركة التى قادها عرابى، ثم تفصيل لتعدد درجات المسئولية عند اتخاذ قرار إخلاء السودان، وبعثة جوردون، والتأخر الطويل المدى لإرسال بعثة إنقاذ جوردون، وهنا لا يلقى اللوم على المصريين أو السودانيين، ولكن على الألداء الثلاثة: بلنت، وجلادستون، وجوردون. وكلما ورد ذكر بلنت كانت الفرصة متاحة لتأكيد أن المسلمين العرب – الذين مال إليهم بلنت– لا تتوفر لهم المقدرة على إدارة شئون بلادهم، ولا يقتصر ذلك على أنهم كانوا على مر التاريخ "جنساً خاضعاً" للغير، ولكن لو أتيح لهم الإمساك بمقاليد الحكم فسوف يتجهون إلى تصفية من تتوفر لهم المهارات الإدارية: الأوروبيون، والأتراك، والخديو توفيق، والشوام، والأرمن[1277]. وهى الفكرة نفسها التى قدمها كرومر لسولسبرى عام 1887، ولكنه قام بمطها لتنسحب على الفترة السابقة على 1882 بقدر انسحابها على السنوات التالية لها.

وبالنسبة لجلادستون وجوردون يلاحظ أن الحدة التى تناولهما بها فى المسودات الأولى للكتاب، قد لانت نسبياً بعد المراسلات التى تبادلها مع جون مورلى كاتب سيرة جلادستون وغيره، غير أن ما بقى يصور جوردون بصورة "الطائش" الذى أسندت إليه مهمة لا يصلح للقيام بها، ويصور جلادستون بصورة المتخاذل الذى لا يريد الإعتراف بالخطر المقبل،

[1275] Ibid, 2 – 5.
[1276] Ibid, 5 – 6.
[1277] Ibid, 323 – 8.

ولذلك كان متردداً فى إرسال حملة لإنقاذ جوردون حتى ضياع فرصة إنقاذه[1278]. ويحسب لكرومر إعترافه بخطئه عندما وافق على إرسال جوردون إلى الخرطوم وإن التمس لنفسه العذر لتأثره بتحمس نورثبروك لجوردون، وكذلك آخرين ممن يقدر لهم حكمهم على الأمور[1279].

ولا يبدأ القسم الخاص بمصر المعاصرة بالحديث عن الموارد الطبيعية للبلاد، ولكنه يبدأ بالحديث عن مختلف أنواع سكانها، مركزاً على عدم التجانس بينهم، الذى يعبر عنه بالدرس نفسه الذى أعطاه لاما كيبلنج إلى كيم فى رحلته على الطريق الرئيسى الكبير، فقدم وصفاً عنصرياً مرتجلاً لمجموعة من المارة فى شوارع القاهرة المتخيلة حدد كل منهم بملامح وجهه وملابسه وعاداته[1280]. فهناك من يدل غطاء رأسه وأنفه المقوس على أنه بدوى، وآخر تدل قصر قامته وعيناه الحالمتان وبعد نظره على أنه كاتب قبطى بأحد دواوين الحكومة، وهلم جرا. ويتساءل كرومر: من هم – إذن– المصريون الأقحاح الذين يتحدث عنهم بلنت ؟[1281]. وهنا يبدأ الحديث عن الدور الإجتماعى للإسلام الذى يجعل القارئ لا يشك أن المسلمين المصريين – فى نظر كرومر– لا يختلفون عن المسيحيين فحسب، بل هم أقل منهم شأناً، فالإسلام يضع النساء فى منزلة "واضحة الإنحطاط"، ويخضع المسلم لشريعة قامت على "مبادئ قديمة"، فهو يقبل العبودية، ولا يتسامح مع جميع أتباع الديانات الأخرى[1282]، ونتج عن ذلك وجود حاجز منيع بين المسلم والمسيحى، فالمسيحيون – الذين هم الأوروبيون اليوم – يتحرون الدقة، ويعنون بالمستقبل، ولكن المسلمين – عند كرومر– على النقيض من ذلك تماماً[1283].

ولا نذافع عن هذا النوع من الكتابة إذا قلنا أن النظرة المتحيزة نفسها ضد الإسلام كانت شائعة بين معظم الأوروبيين وفى أمريكا الشمالية فى ذلك العصر، أو أن نذكر بأن كرومر كان يرى قبل ذلك بثلاثين عاماً أن الهنود والمصريين قادرون على حكم أنفسهم على نقيض

[1278] Ibid, 429 – 35, 582 – 92.
[1279] Ibid, 436 – 9.
[1280] Rudyard Kipling, kim (New York: Doubleday, Page, 1901), 96 – 9.
[1281] Cromer, Modern Egypt, ii, 127 – 8.
[1282] Ibid, 134 – 40.
[1283] Ibid, 145 – 50.

ما يراه اليوم. وما يمكن قوله أن التوسع الهائل لأوروبا فى بلاد غير أوروبية كان يتطلب هذا النوع من الأفكار، فلم يكن ذلك ضرورياً لتبرير الحكم الغاشم لتلك البلاد على أساس الفوارق العنصرية والحضارية فحسب، بل لتحويل النظر إلى السياسات التى تتبع فى تلك البلاد على أنها "رسالة" على نحو ما فسرت به سياسة بريطانيا فى مصر[1284]. وقد نظر كرومر إلى ما فعله بمصر من زاوية "عبء الرجل الأبيض"، لا من قبيل تأكيد حق الإنجليز فى السيطرة بحكم تفوقهم "الحضارى" فحسب، بل لمواجهة فكرة بلنت الداعية إلى حق المصريين فى الاستقلال الوطنى، وذلك كله فى سياق الدفاع عن سياسته فى مصر بإعتبارها تخدم المصالح البريطانية بقدر خدمتها لمصالح غالبية المصريين، وإن كان هؤلاء لا يستطيعون إدراك ذلك بأنفسهم.

ويجب القول إن ملاحظات كرومر عن الإسلام كانت عدواناً سافراً على معظم المسلمين، ولعل ذلك ما قصده هارى بويل عندما كتب إلى أمه فى نوفمبر 1907: "إن اللورد سيضع نفسه فى مأزق بسبب هذا الكتاب المبارك.. إننى أبذل الجهد لإقناعه بحذف بعض الفقرات التى تعد بالغة السوء من وجهة نظر أهالى البلاد"[1285].

ولكن ربما كان يقصد بعض النقاط الأخرى التى تميز أسلوب كرومر المندفع، من ذلك استخدامه لصورة مصرى حقيقى عرفه ليضخم من السلبيات التى يعانى منها المجتمع المصرى، ومن هنا استخدامه للشيخ محمد عبده (الذى كان قد مات) ليبين كيف أن المسلم المتدين الذى يهتم بالجوانب الشكلية للدين، وليس إلى روحه أو جوهره يتحول إلى شخص "قدرى"[1286]. ويذكر الشيخ محمد بيرم كنموذج لمعاناة المصلح الدينى الذى أيقن من استحالة وقف تدهور الإسلام[1287]. ولا يبدو أصدقاء كرومر من المسيحيين فى وضع أفضل، فقد وصف نوبار بأنه يمثل "ذلك النمط المتميز من الشرقيين" الذى يريد أن يحول مجموعة من

1284 Ibid, 124.
1285 18 Nov. 1907, BP, III/B.
1286 Cromer, Modern Egypt, ii, 179 – 80.
1287 Ibid, 181 – 88.

أنصاف الحقائق المتخيلة لتبدو فى صورة الحقيقة[1288]. بينما صهره تيجران يتمتع بخصائص الهوية الأرمينية التى تتمثل فى العقلية الفرنسية – البيزنطية[1289].

وثمة أداة تعبيرية أخرى ميزت أسلوب التناول عند كرومر هو البدء بذكر مجموعة من الطرائف التى تهدف إلى بيان مدى "تشوش ذهن" المصرى غير المتعلم، ليثبت أن الرجل الشرقى يتصرف ويتحدث ويفكر عادة على نقيض الأوروبيين تماماً[1290].. وهنا نجده يرتكن إلى فكرة هيرودوت عن مصر بلد التناقض، ويوسع من مدلولها. ولكن ما عد الرحالة اليونانى طرفة غريبة عندما ذكر أن المصريات يعملن بالبيع والشراء، بينما الرجال يقبعون فى المنازل يشتغلون بالنسيج، تحول على يد كرومر إلى دليل على تخلف الشرق، ومبرر لإخضاعه لحكم الغرب[1291]. فالمسلمون المصريون يمكن التعرف عليهم مباشرة من ملابسهم، وتصرفاتهم، وملامحهم البدنية، بغض النظر عما يفعلون أو يقولون، فلهم هوية مميزة تقترن بهم[1292].

والغرض السياسى الذى يرمى إليه من وراء تقديم غير الأوروبيين من السكان بإعتبارهم مجموعة من الطبقات البائسة والجماعات المتخلفة التى هى فى أمس الحاجة إلى التوجيه الخلقى والإدارى الأجنبى، على نحو ما تكشف عنه الفقرات الختامية عند كرومر، عندما يورد قائمة بتلك الطبقات والجماعات من حيث رؤيتهم للسنوات الأولى من الوجود البريطانى فى مصر. فقد كان بعض الباشاوات الأتراك – الجراكسة، والعلماء، والمصريين المتفرنجين يكنون العداء للإحتلال. بينما تأرجح الأقباط والشوام بين الصداقة والعداء، وأخيراً كانت جماهير الفلاحين من سكان البلاد مشربة بروح الود تجاه الإحتلال، ولكنهم لا يتكلمون فى السياسة، ويغرقون فى الجهل حتى أنهم لو حاولوا إسماع صوتهم قد يسقطون فى أيدى

[1288] Ibid, 337 – 8.
[1289] Ibid, 223.
[1290] Ibid, 151 – 64.
[1291] Herodotus, History, ed. J. Enoch Powell, book VIII (Oxford: Clarendon Press, 1939) 125 – 6.
[1292] Faisal Fatehali Devji, "Hindu / Muslim / Indian", Public Culture, 5/1, (Fall 1992) 11 – 12.

المهيجين السياسيين أو الصحافيين الذين يفتقرون إلى المبادئ والذين يجعلونهم يقولون ما يتناقض مع معتقداتهم الحقيقية[1293].

وصورة المجتمع الهيكلى الطبقى للمجتمع المصرى – عند كرومر– هى صورة المجتمع الزراعى المكون من الفلاحين وطبقة حاكمة من الأرستقراطية، التى تتكون أساساً من الأتراك – الجراكسة، و"جماعة" من العلماء المتمركزين فى الأزهر، وشرذمة من أعيان الريف من شيوخ القرى والعمد، وقاعدة عريضة من جماهير الفلاحين. ومن الجدير بالذكر أنه حدد كل طبقة من حيث موقفها من الإحتلال البريطانى، ولم يأت على ذكر التجار أو المهنيين أو رجال الأعمال من المصريين، ولا يدرك الكيفية التى يمكن أن تتطور بها تلك الشرائح الإجتماعية المهملة مستقبلاً كجزء من عملية مستمرة فى اتجاه التحضر والتصنيع[1294]..

وتقييم كرومر لمصر بإعتبارها تضم خليطاً من مختلف الأديان والأعراق، يهيئ القارئ لتلقى ما جاء بالكتاب من وصف للكيفية التى استطاع بها المصلحون البريطانيون بقيادة كرومر نفسه إقناع هذا الشتات من البشر أن ما يعود عليهم من خير عميم لا يمكن إنكاره[1295]. وقد تم ذلك بأسلوب بالغ المهارة، قدمت فيه طريقة أداء الحكومة المصرية فى سياق المقارنة بين المصنع الأوروبى الحديث ونظام الورشة التى تسودها الفوضى، فالنموذج الأول يقترن بالإدارة "المتحضرة" للدولة التى نعرف نحن (القراء) فيها معنى الاستبداد، والطرائق الدستورية للحكم، بينما لا نجد فى القاموس السياسى أى معنى أو وصف للحكومة المصرية[1296]. ومن ثم نكتشف أن هذه الحكومة ليست حكومة حقيقية، وأن الخديو ليس حاكماً حقيقياً، وكذلك الحال بالنسبة لكل السلطات بما فى ذلك النظام القضائى الحافل بالتناقضات[1297].

وإذا كانت الإدارة المصرية قد نظمت، فذلك من عمل الموظفين الإنجليز، بينما يظهر كرومر بصورة غير مناسبة فى فصل بعنوان "العمال الذين يديرون الآلة"، فبحكم دوره

[1293] Cromer, Modern Egypt, ii, 257.
[1294] Ibid, i, 289, 325; ii, 171 – 98.
[1295] Ibid, ii, 258.
[1296] Ibid, 260 – 2.
[1297] Ibid, 262 – 3.

كممثل لبريطانيا يتمتع "بسلطة غامضة واسعة النطاق"، استخدمها أحياناً لدفع "المصريين النافرين على طريق الإصلاح"، كما استخدمها أحياناً لعلاج نفاذ الصبر عند المصلحين الإنجليز[1298]. وبصفة عامة، كان عليه مساعدة حكومة البلاد دون أن يكتشف أحد قيامه بذلك، ودون أن تكون له سلطة قانونية على من يتعامل معهم[1299]. وفيما يتعلق بالعمال الآخرين يذكر ثلاثة منهم هم: الخديو توفيق، ونوبار، ورياض، ويقول إنهم تعاونوا معه تعاوناً نافعاً أحياناً، غير مجد أحياناً أخرى، بينما كان الرابع مصطفى فهمى باشا "يشبه رجل الدولة من حيث إدراكه لما يخدم مصالح بلاده، فعمل بإخلاص وولاء تام مع الموظفين الإنجليز بدلاً من معارضته لهم"[1300].

ويكشف هذا الوصف الموجز بوضوح أن أحد "العمال" كان أهم من الباقين جميعاً، رغم أن كرومر لم يستفض فى شرح مدى أهميته. وإذا أخذنا كرومر بكلامه لكان دوره أقرب ما يكون إلى دور "المدير" الذى يقرر وحده السرعة التى تعمل بها الآلة، والمال الذى يمكن استثماره ومن يلحقه بالعمل، ونوع الإنتاج. ولكن هناك ما يفوق ذلك فمقولة المصنع الردئ الذى يدار بطريقة بدائية وسيلة ملائمة لكرومر حتى يتهرب من اتهامه بالنزعة الدكتاتورية، كما أن تركيزه على الفترة السابقة على تولية عباس الثانى عام 1892، جعلته يستبعد الإشارة إلى التركيز الشديد للسلطة فى يد ممثل بريطانيا فى مصر طوال السنوات الخمسة عشر التالية.

ولا نستطيع الجزم أن كرومر تعمد تناول دوره بهذا الشكل الذى يفتقر إلى الفطنة، ويبدو أن ذلك يتناسب مع الصورة التى يريد رسمها لنفسه كمدير غارق فى مشكلات لم يكن له يد فيها. ومن الممكن القول إن ذلك يتضمن إشارة إلى أحد الإخفاقات الأساسية فى الدور الذى قام به، فالنموذج الذى يقدمه هو نموذج المهندس أو المخطط الإجتماعى الذى يعمل فى عالم حدد فيه كل شئ ليعمل على المدى البعيد، وكل شئ فيه تحت السيطرة، ولكنه لا يترك مساحة للحوادث السياسية اليومية، أو لاستشراف المشاكل المتوقع حدوثها مستقبلا إلا فى

[1298] Ibid, 321, 323.
[1299] Ibid, 326.
[1300] Cromer, Modern Egypt, ii. 327 – 46.

أضيق الحدود الممكنة، مثل تمسكه بالسياسة الرامية إلى الحد من عدد الخريجين من المتعلمين المصريين.

والفصول الباقية من "مصر الحديثة" تعدد الإصلاحات تحت عناوين: المالية، الرى، الداخلية، القضاء، التعليم، إلخ. التى قدمها كرومر بإعتبارها "بذور الحضارة الحقيقية، ودليل مفحم لأى محاولة يقوم بها دعاة التخلف فى مصر لتدميرها"، وتلك الإدعاءات صيغت بشكل محسوب للتأثير على القارئ الأوروبى وعلى الكثير من أعضاء النخبة الحاكمة فى مصر. وما وجده أعضاء تلك النخبة غير قابل للهضم، هو ما جاء بخاتمة الكتاب التى حملت عنوان "مستقبل مصر"، التى ذهب فيها إلى ضرورة استمرار الإحتلال إلى أجل غير مسمى، بينما أضاف عبارة "بعد جيل أو جيلين" عندما تحدث عن المدى الزمنى المقترح للتفكير فى طرح فكرة الحكم الذاتى فى مصر حتى تصبح الفكرة "صالحة للمناقشة المجدية"[1301]. وكرر طرح فكرته القائلة بأن تحقيق استقلال ذاتى حقيقى فى مصر مرهون بإنهاء الإمتيازات الأجنبية، عندئذ تتحول مصر "متعددة الأعراق" إلى الاستقلال الذاتى بعد سنوات وربما "أجيال"[1302]. وكان ذلك صادماً حتى لأصدقاء الإحتلال، ومثيراً للطلاب والمهنيين الذين يمثلهم مصطفى كامل، فلا غرابة أن نجدهم يتحدون أهم منجزات كرومر التى فندها ودحضها مراسل الإجبشيان ستاندرد فى لندن – تيودور روزستين Theodore Rothstien – فى كتابه: "خراب مصر Egypt's Ruin"[1303].

واتخذت عروض "مصر الحديثة" فى الصحافة البريطانية طابعاً إحتفالياً فوصفه مقال نشر بالتايمز بأنه ليس مجرد عمل أدبى، "ولكنه عمل على درجة كبيرة من الأهمية فى تطبيق علم إدارة الدولة"[1304]. وإعتبره مقال نشر على حلقتين بالملحق الأدبى للتايمز أنه "يروى على لسان ربان قدير للدولة قصة الأحداث الكبرى بتفاصيلها الدقيقة.. كاملة، واضحة، دون

[1301] Ibid, 567.

[1302] Ibid, 568 – 9.

[1303] Blunt, My Diaries, 581; Theodore Rothstein, Egypt's Ruin: A Financial and Administrative Record (London: A. C. Field, 1910).

[1304] The Times, 5 Mar. 1908.

تحفظ"[1305]. واعتبره سيدنى لو Sidney Low – المؤرخ والمحرر الأدبى لصحيفة ستاندارد – "كتاب عظيم لحاكم استعمارى"[1306] وفى عرض بدون توقيع ظهر فى الإسبكتاتور (لعله كان بقلم لوستراتشى Strachey رئيس التحرير) "يعد الكتاب دليل عمل ومصدر إلهام لكل أولئك الذين يعملون على تأسيس الإمبراطورية وتأمين جهودها، والحفاظ على طابع الحكم البريطانى القائم على العدالة والحكم الصالح"، وخص ستراتشى "تشخيص" كرومر "للمحمديين وعقيدتهم" بمديح وتقدير خاص؛ لأن "أحداً لم يستطع قبله أن يقدم تلك الرؤية الثاقبة الواضحة للمحمدية والعقلية الشرقية، والمحمدية والبنية الإجتماعية الشرقية، على نحو ما فعل"[1307]. وأيد ذلك الكاتب الهندى ميترا S. M. Mitra، فذكر أن آراء كرومر عن الشرقيين صحيحة باستثناء سقطة واحدة، فقد أخطأ عندما قدم نماذج "لنقص الذكاء عندهم" من قبيل القول بأنك إذا سألت المصرى عن أذنه اليسرى مر بيده اليمنى فوق رأسه ليضعها فوق أذنه اليسرى؛ لأن كرومر لا يعرف أن استخدام (المسلم) ليده اليسرى محرم[1308].

وليس غريباً أن يكون استقبال بلنت للكتاب فاتراً، ففى مقال ضمنه إنطباعاته الأولى عن الكتاب نشر بالمانشستر جارديان فى 5 مارس 1908، ذكر أن أهم ما جاء بالمجلد الأول (التاريخى) هو ما ذكره كرومر عن جوردون إستناداً إلى مراسلاته الخاصة وبعض المذكرات غير المنشورة، أما ما جاء بالمجلد الثانى عن "سكان مصر" فقد عده "تحد وقح للشعور الوطنى المصرى"، وعاد بلنت إلى الهجوم الذى جاء بكتابه "جوردون فى الخرطوم" (نشر 1911) الذى رمى فيه إلى حث "من يملكون زمام السلطة عندنا أن يتخذوا موقفاً تجاه العالم المحمدى أقل عداء لأفكار ومشاعر أهله"[1309].

1305 "A Great Page of History", Times Literary Supplement, 5 Mar. 1908, 73. The reviewer's only criticism was that the index was "derporably inadequate and slovenly", Times Literary Supplement, 12 Mar. 1908, 84.

1306 Sidney Low, "Lord Cromer on Gordon and the Gladstone Cabinet", Nineteenth Century and After, 63 (Apr. 1908), 674.

1307 John St Loe Strachey, "Lord Cromer's Record of His Trust" The Spectator, 1 (7 Mar. 1908), 874 and 2 (14 Mar. 1908), 420.

1308 S. M. Mitra, "Lord Cromer and Orientals", Nineteenth Century and After, 63 (May 1908), 749 – 50.

1309 W. S. Blunt, Gordon at Khartoum: Being A Personal Narrative of Events in Continuation of a "Secret History of the English Occupation of Egypt" (London: S. Swift, 1911), preface, V.

وأثارت آراء كرومر حول جوردون الجدل حول شخصية جوردون، وقد استغرق ذلك نحو نصف العرض المنشور فى الدايلى تلجراف فى 3 مارس 1908، والعرض المكون من قسمين الذى نشره ستيد Stead فى صحيفته الدايلى كرونكل بعد ذلك بأسبوع واحد، وكان لستيد دوافعه للمساهمة فى الجدل، فقد كان محرراً للبول مول جازيت عندما تبنى الدعوة إلى إرسال جوردون إلى الخرطوم.. فانتقد فى مقاله ما عده "تأنيباً" من كرومر لجوردون، وعاد إلى ما ذكره كرومر من قبل حول الموضوع فعد ما ذكره كرومر من أن جوردون "كان حاداً ومتغيراً" لون من ألوان (التكتيك) الذكى فى مواجهة الظروف المتغيرة التى وجدها عند وصوله إلى الخرطوم، ولم يخل مقاله من بعض الغمزات لكرومر[1310]. واستمر الجدل على صفحات الدوريات ربع السنوية، فرأى اللورد إشر Esher أن تعليقات كرومر "حاقدة"[1311]. كما تلقى كرومر سيلاً من الرسائل حول الموضوع، من بينها خطاب من أحد أقرباء جوردون سأله عما إذا كان يعنى أن جوردون كان مخموراً عندما كتب له أنه لا يملك زمام أمور نفسه[1312].

وهناك مجموعة أخرى من الآراء التى وردت بكتاب كرومر أثارت الكثير من النقد فى إنجلترا ومصر وبقية أنحاء العالم الإسلامى. فرأى تيودور موريسون Theodore Morrison أن ليس هناك ما يدعو إلى القبول بالفكرة التى يمليها علينا كرومر أن النظام الإجتماعى الإسلامى "يحتضر"[1313]. ورأى بلنت أن تلك الآراء "كتبت بنبرة الغطرسة الرسمية المتعالية"، وأن هجومه على "المحمديين" قد صمم لإثارة "رد فعل خطير فى الهند ومصر"[1314].

وقد أتاح نشر كتاب "مصر الحديثة" للقادة السياسيين والمثقفين فى مصر الفرصة للهجوم على سياسة كرومر بمختلف أبعادها، وليس مجرد التعليق على الكتاب، وقد نشر تعليق مهم بالمنار فى الأول من أبريل، لعله كتب بقلم محررها رشيد رضا. فبعدما امتدح كرومر؛ لأن معرفته بالبلاد تجاوزت حدود ما يعرفه الحكام الآخرون، إنتقد رضا توصيف كرومر للعقلية

[1310] W. T. Stead, "Lord Cromer on General Gordon", Daily Chronicle, 10 Mar. 1908.

[1311] Lord Esher, "Conversations with Zobeir Pasha at Gibraltar", Nineteenth Century and After, 63, (June 1908), 936.

[1312] Major A, Nelson to Cromer, 25 Mar. 1908, CP/2, FO 633/12.

[1313] "Can Islam Be Reformed ?", Nineteenth Century and After, 64, (Oct. 1908) 549.

[1314] Manchester Guardian, 3 Mar. 1908.

المصرية، وتساءل عن الأسباب التى جعلت كرومر يستمد معلوماته من الجهلاء وليس المتعلمين[1315]. كما انتقد كرومر؛ لأنه استمد آراءه عن الإسلام من الأوروبيين، وليس من المسلمين أمثال الشيخ محمد عبده[1316]. وأخيراً هناك فقرة محيرة عبر فيها كرومر عن رأيه فى الشيخ محمد عبده، شارك فى التصدى لها رشيد رضا مع الشيخ على يوسف محرر المؤيد. فقد اتفق رضا مع المؤيد فى أن انتقاد كرومر للشيخ محمد عبده يتناقض مع ثنائه عليه عام 1905 فى تقريره السنوى، وأبدى رضا قلقه من أن يكون كرومر قد استخدم الكتاب للتعريض بديانة الشيخ محمد عبده. ويبدو أن رضا لم يرد أن يقول ما قد يقلل من شأن تأييد كرومر لمحمد عبده، بينما يرى – فى الوقت نفسه– أن تأثير عبده على كرومر ربما كان أكبر لو استطاع الشيخ الحصول على مساندة شعبية كبيرة للإصلاحات التى دعا إليها[1317].

كانت المسألة ذات طبيعة خلافية حادة، تتناول علاقة محمد عبده بكرومر وكذلك صلته بالإصلاح الدينى والقومية المصرية، وهى مسألة لازالت موضع جدل متصل حتى اليوم، ومن الإنصاف القول – إعتماداً على المصادر التاريخية للفترة– أن كرومر بالغ فى طبيعة علاقته بالشيخ، فقد كان كل منهما يكن الإحترام لصاحبه، ولكن معارضة الشيخ للإحتلال لانت عندما تحقق الشيخ أن من الحماقة الدخول فى مواجهة مباشرة مع الإحتلال، وهو إعتقاد شاركه فيه الكثير من أبناء وطنه[1318].

استمر أصدقاء كرومر وأقاربه يكتبون له مدحاً للكتاب، أو تعبيراً عن رؤية البعض له باعتباره عملاً عتيقاً، فقد ذكر أحدهم لموريس بارنج أن كتاب عمه "أحسن ما كتب منذ حروب قيصر فى بلاد الغال"[1319]. وغلف البعض ملاحظاتهم ببعض التصويبات الخفيفة. وذهب موبرلى بل إلى أن ما ذكره كرومر من أن الشرقيين لا يميلون إلى قول الحق، من

[1315] المنار، 2 (أبريل 1908) 81، 84 – 87.

[1316] Ibid, 87 – 8.

[1317] Ibid, 90 – 104.

[1318] Adams, Islam and Modernism, 96 – 101 Also "The Future of Egypt" by An Egyptian Nationalist', 1910, PRO, FO 141/402. The author describes himself as a teacher in the Egyptian government schools since 1903.

[1319] 24 Aug. 1908, CP/2, FO 633/8.

الأفضل إعتباره نوعاً من الحرص الفطرى، ضارباً المثل بسؤال وجهه إلى نوبار حول المدة التى يقضيها فى الوزارة فأجاب: "إننى لا أدرى ماذا أقول لك"[1320].

لاقى كتاب "مصر الحديثة" إقبالاً كبيراً، بيعت منه ما يزيد عن تسعة آلاف نسخة فى العامين ونصف العام الأولين، كما بيعت منه أربعة آلاف نسخة فى الولايات المتحدة الأمريكية، وزاد ذلك ليصل إلى 15 ألف نسخة من الطبعة الفاخرة، و17 ألف نسخة من الطبعة الرخيصة فى أوائل عام 1915، محققاً عائداً يقل عن الأربعة آلاف جنيهاً إسترلينياً[1321]. ولكن لماذا حظى كتاب بهذا الحجم الكبير بكل هذه الشعبية ؟ لا نملك سوى إفتراض أن كون الكتاب يتحدث عن مصر الخديوية وليس مصر الفراعنة، وتمتع صاحبه بشهرة واسعة، وتناوله لقصة جذابة عن النجاح فى إقامة حكومة جيدة فى بلد يسكنها شعب قديم، والأسلوب الشيق الذى كتب به الكتاب والذى يعكس ثقافة الكاتب، ومعرفته بالتراث القديم، لعل ذلك كله كان وراء رواج الكتاب. فإذا أضفنا لذلك أنه يعكس روح العصر، والفخر بالإمبراطورية، والزهو بحكم الشعوب المستعمرة، بما يبرزه من مهارات أنهت موضع الإعتزاز فى العصر الإدواردى، أدركنا سر ما حققه الكتاب من رواج.

ومن الواضح أن كرومر كان يضع فى اعتباره القارئ الإنجليزى عند كتابته "مصر الحديثة" وكان يتطلع إلى ترجمته إلى العربية حتى يرى رد الفعل المصرى تجاهه، واختلف ذلك عن المقال المتمم لفكرة الكتاب الذى نشره كرومر فى مجلة أدنبرة ريفيو عدد يناير 1908 بعنوان "حكم الأجناس الخاضعة"، ويتضمن المقال مادة حذفت من "مصر الحديثة"، كتبت تحت ستار عرض لكتاب نشر حديثاً (عندئذ) عن سقوط الإمبراطورية الرومانية، وأتاح المقال الفرصة لكرومر للحديث عن حكم الشعوب الخاضعة التى تمر بمرحلة "الطفولة"، دون أن يكف عن التعليق على حالة مصر التى كان يحكمها خليفته جورست، كما أتاحت له فرصة تأكيد تفوق الإمبراطورية البريطانية على الإمبراطورية الرومانية بسبب قيامها على أساس "جرانيتى متين من الأخلاق والقيم المسيحية"[1322]. ومغزى ذلك لا يبدو واضحاً، إذ يبدو أن

[1320] 1 Mar. 1908, CP/2, FO 633/8..

[1321] BN, Final Addition, 15 Feb. 1915.

[1322] Cromer, "The Government of Subject Races", repr, in his Political and Literary Essays 1908 – 1913, 53.

الأخلاق المسيحية تقترن بالفضائل – التى ليست دينية بالضرورة– المتصلة بدور السياسة المالية الحكيمة فى إرضاء "الأجناس" الخاضعة[1323]. وذلك على ضوء تفكير كرومر فى ذلك الحين، نجده ينظر إلى المسيحية باعتبارها ضابطاً لسلوك حكام الإمبراطورية، الذين يملكون فى أيديهم سلطات واسعة لا رقيب عليها.

وثمة هدف آخر من وراء الكتابة، هو استخدام ما يريد قوله عن الإمبراطورية ليقول شيئاً محدداً عن بريطانيا ذاتها، فقد سار على درب كيرزون وغيره من معاصريه فى اعتبار الممتلكات الإمبراطورية ظاهرة أساسية لما تتمتع به بريطانيا من مركز عالمى بينما يعتبر إساءة إدارة الممتلكات خطوة على الطريق إلى "الإنهيار الوطنى والمذلة". أو بعبارة أخرى "الكوارث التى ترتبت على سوء الحكم الرومانى"[1324]. وتكتسب المقالة أهمية أيضاً لكونها محاولة لتركيز خبرته الإمبريالية الخاصة فى أسس مختصرة عريضة. فالحكم الصالح – عنده– هو ما يقوم به الحاكم من أعمال يراها فى صالح من يتولى حكمهم، وقد يأتى فى سياقها محاولة إقامة مؤسسات نيابية. فإذا فسد الحكم، كان من الصعب الدفاع عن الإمبراطورية "بالسيف" لفترة طويلة. وفى استعادة لأفكار إعتنقها فى شبابه، نجده يشير إلى أنه "يقال" إن الحكم النيابى فيه علاج لآثام الحكم الفردى، ويعد سبيلاً للتعرف على آراء وإتجاهات المحكومين وتدريبهم سياسياً، ولكن فى ذلك مغالطة؛ لأن من الواجبات البديهية للحاكم ألا يدخل نظاماً يمكن الأقلية من أبناء البلاد من الاستبداد بحكم البلاد، ولكن من واجبه أن يمكن جماهير الشعب العريضة من أن تحكم وفق القيم الأخلاقية المسيحية"[1325].

وتكرار هذه الأطروحة على الرأى العام، جعل من كرومر مشاركاً فى الحوار الذى دار حول طبيعة الإمبريالية فى العصر الإدواردى، فقد كان نقاد التوسع الإمبريالى من أمثال هوبسون وروبرتسون قد حفزهم إحتلال مصر وحرب جنوب أفريقيا إلى إنتاج ما عجز جلادستون عن تحقيقه "هو نظرية الإمبراطورية"[1326]. ليس لأنهم كانوا يعارضون الإمبراطورية بذاتها، ولكنهم

[1323] Ibid, 52 – 3.

[1324] Ibid, 3 – 4.

[1325] Ibid, 28.

[1326] Hobson, Imperialism; John M. Robertson, Patriotism and Empire (London: Grant Richards, 1899), pt. 111: "The Theory and Practice of Imperialism" Pt III, "The Theory and Practice of Imperialism".

كانوا ضد التوسع الإعتباطى، وضد النظريات التى استخدمها رجال مثل كيرزون وكرومر لتبريره. ويرون أن مقارنة الإمبراطورية الرومانية بالإمبراطورية البريطانية والقول بوجود صيغة إمبراطورية مسيحية يمثل جوهر الإنحطاط القومى[1327]. ورغم أن نقد الإمبريالية لم يجتذب عدداً كبيراً من أبناء العصر الإدواردى، فإن ذلك النقد كان له أثره فى الموقف الدفاعى الذى اتبعه ثلاثة من الحكام الاستعماريين البريطانيين المتقاعدين هم: اللوردات كرومر، وكيرزون، وملنر[1328].

[1327] Robertson, Patriotism and Empire, 151 – 7.

[1328] e. g. Lord Curzon, "The True Imperialism" Nineteenth Century, 63, (Jan. 1908) 151 – 65.

الباب الرابع
الإنغماس فى الحياة السياسية البريطانية
(1917 – 1907)

الفصل الثامن عشر
التقاعد الحيوى
(1908 – 1914)

العودة إلى الحياة السياسية البريطانية

قرر اللورد كرومر دخول الحياة السياسية البريطانية بمجرد استعادته لصحته عام 1908، فاحتل مقعده بمجلس اللوردات، وكان فى السابعة والستين من عمره، وقضى السنوات الأربع التالية فى الإشتغال بعدة قضايا متنوعة حتى أقعده المرض عام 1912، حتى عجز عن الذهاب إلى إسكتلندا – كعادته– لقضاء الصيف، وتلا ذلك نوبة إغماء فى خريف 1913، ثم مرض عضال أصيب فيه بجلطة فى ربيع 1914، إقتنع بعده أن حياته السياسية قد إنتهت من الناحية العملية[1329].

وكما حدث لغيره من رجال الإمبراطورية العائدين إلى الوطن، شعر كرومر أن السياسة البريطانية قد تغيرت خلال سنوات الغياب الطويل، فلم تكن هناك قضايا جديدة مثل سباق التسلح البحرى مع ألمانيا، والجمود بين مجلسى العموم واللوردات، والإضطرابات التى تنظمها النقابات العمالية، والمطالبة بحق النساء فى الإقتراع، والتطورات الخطيرة فى المسألة الإيرلندية فحسب، بل كانت هناك طرائق جديدة فى معالجة الأمور السياسية من بينها الحملات الصحفية والإضرابات، والتحرك المباشر الذى مارسه دعاة توسيع حق الإنتخاب.

وكان كرومر نفسه قد تغير، فقد مضى 35 عاماً على تاريخ ذهابه إلى الهند، قضاها كلها فى إصدار الأوامر، وليس فى ممارسة المهمة الصعبة سعياً وراء التأييد الشعبى أو البرلمانى.

وكان اهتمامه المبدئى منصرفاً إلى قضايا الإمبراطورية، وبصفة خاصة التحدى الذى يمثله بناء الأسطول الألمانى، والتحديات الأخرى التى تواجه وضع بريطانيا الدولى، والتى أعطت أهمية جديدة للإمبراطورية بإعتبار مصدرها الموارد الدولية التى تنالها بريطانيا. وكما ذكر

[1329] BN, Insertion, 15 Feb. 1915.

فى كلمته بنادى اتحاد التجارة الحرة فى يونيو 1908 أن من الحماقة ترك أيرلندا، بينما العالم يتجه إلى الإتحاد والتكتل[1330]. غير أن العودة إلى مبادرات ذات مستوى عال كهذه تقتضى العودة إلى نوع من السياسات لم يمارسها منذ المناقشات التى دارت حول إصلاح الجيش فى مطلع السبعينيات (ق 19)، وإلقاء الخطب التى كانت عملاً بغيضاً بالنسبة له، والتفاوض حول التوصل إلى حلول وسط وتكوين التحالفات التكتيكية. وحاول أن ينطلق من مقاعد مجلس اللوردات، والتحالف مع التكتلات التى تتجاوز المستوى الحزبى، مثل اتحاد التجارة الحرة، والنقابات الدستورية الحرة، ومركز الإتحاد الحزبى، وعصبة مناهضة توسيع حق الإنتخاب. وعلى كل، مضى وقت طويل قبل أن يعترف بالدور المركزى الذى تلعبه الأحزاب فى الحياة السياسية البريطانية، وأن تكوين المؤسسات غير الحزبية والحفاظ عليها من الصعوبة بمكان فى ظل الواقع السياسى القائم فى تلك الأيام[1331].

ويحسب لكرومر سرعة إدراكه لضرورة إعادة ترتيب أولوياته السياسية، وأن يعدل من مواقفه السياسية القديمة. وكانت الظروف المتغيرة تدفعه – أحياناً– فى الإتجاه المحافظ، مثل موقفه من حرية الصحافة بالمستعمرات التى اعترف أمام مؤتمر الصحافة الإمبريالية عام 1909 أنه كان شديد التفاؤل إزاءها[1332]. وفى بعض القضايا الأخرى أصبح أكثر ليبرالية، مثل اعترافه بفائدة نقابات العمال، وتحوله إلى تأييد قضية "الإصلاح الإجتماعى المعقول"، بعدما ابتدع لويد جورج مصدراً مهماً للإيرادات العامة من خلال إدخال الضريبة المتدرجة على الدخل[1333]. ومن الملاحظ أنه ابتعد أكثر فأكثر عن استلهام الأمثلة من خبرته السابقة، ويمكن أن نلاحظ إتجاهاً مماثلاً فى اهتمامه المتزايد بالتكتيكات الإنتخابية. ونجد اتجاهاً مماثلاً لذلك فى الخطبة التى ألقاها على رجال الأعمال فى شيفلد (ديسمبر 1909) عندما طلب من مستمعيه من أعضاء إتحاد التجارة الحرة أن يصوتوا لمرشحى النقابات العمالية؛ لأنهم يمثلون أقل الضررين، كما أنهم يهتمون بالنهوض بالدفاع القومى، وصيانة أمن

[1330] Copy in CP/2, FO 633/26.

[1331] Cromer, "Memorandum on work done 1907 – 1911" CP/2, FO 633/28.

[1332] See speech to Imperial Press conference 18 June 1909, Copy in CP/2, FO 633/26.

[1333] e. g. Cromer's speech on the Finance Bill 23 Nov. 1909, H. L. Deb., vols 5 – 6, Col. 23 Nov. 1909 823.

الإمبراطورية، ويعملون على حماية التربية الدينية، ويحرصون على أن يعمل مجلس العموم بكفاءة تامة[1334].

وقد ألقى كرومر كلمة فى 6 فبراير 1908 تأييداً للإتفاقية البريطانية – الروسية التى تم إبرامها؛ لأنها أنهت إحدى المنافسات الأوروبية فى الشرق مما يسهل على بريطانيا مواجهة القلاقل فى الهند[1335]. وقد بدت الكلمة جيدة على الورق، شأنها فى ذلك شأن أعماله الأخرى، ولكن وفقاً لما يذكره إدموند جوس أمين مكتبة مجلس اللوردات، كان من الصعب تتبع كلمته عندما أصابه التعب؛ لأن صوته كان منخفضاً فى نهاية الجمل لعجزه عن الجهر بالحديث فى مكان متسع الأرجاء[1336]. وقد بلغ عدد الخطب والكلمات التى ألقاها بالمجلس عام 1908 ثلاث عشر كلمة، غير أنه لم يتخلص من توتره عند الحديث فى مكان عام، وكثيراً ما حاول تهدئة توتره بالمكوث ساعة فى مكتبة المجلس قبل إلقاء كلمته، يقضيها مع جوس أو فى تصفح الكتب الجديدة، أو تقديم بعض المقترحات[1337].

ولم يكن من السهل على كرومر التخلص من العداوة السياسية المتنامية، عندما أصبحت سياسات حكومة الأحرار هدفاً لهجوم المحافظين فى مجلس اللوردات[1338]. وجاءت المواجهة الأولى عندما اعترض مجلس اللوردات على قانون تعليم البحرية عام 1906، وبحلول عام 1908 كانت القرارات الخاصة بالنواحى المالية هى القرارات الوحيدة التى يطمئن الأحرار إلى مرورها بالمجلس؛ لأنها من مسئوليات مجلس العموم وحده، وفى هذا الجو الإنقسامى إندفع كرومر فى اتجاه المحافظين بعدما اجتذبه إليهم قانون لويد جورج الخاص بمعاشات كبار السن عام 1908، الذى هاجمه فى 20 يوليو بإعتباره غثاً لا يتناسب مع مبادئ المالية السليمة[1339]. ورأى أنه من الممكن إقراره فى إطار سياسة للحماية، وأنه يجعل الحكومة غير قادرة على القيام بواجباتها الأساسية التى تستلزم الدفاع عن البلاد فى مواجهة

[1334] The Times, 18 Dec. 1909.

[1335] Parl. Deb. Vol. 193, cols. 1023 – 6 (6 Feb. 1908).

[1336] Edmund Gosse "Lord Cromer as a Man of Letters", Fortnightly Review 107 (Mar. 1917) 2.

[1337] Ibid, 3.

[1338] BN, 276 – 7.

[1339] Zetland, Lord Cromer, 327 – 8; Parl. Deb., vol. 192, cols, 1359 – 60 (20 July 1908).

الصراع الأوروبى الذى يفرض على بريطانيا بعد سنوات قليلة[1340]. ولكنه أعاد النظر فى موقفه عندما أدرك الأخطار التى قد تنجم عن الإعتراض على قانون لويد جورج ، ولذلك اقترح فى 28 يوليو تعديل المشروع بإضفاء الطابع المؤقت عليه بحيث يعاد النظر فيه فى 31 ديسمبر 1915 قبل أن يتم دفع معاشات أخرى[1341]. وعندما رفض ذلك الإقتراح أيضاً بحجة تعديه على حقوق أعضاء مجلس العموم فيما يتعلق بالقوانين الخاصة بالشئون المالية، وعقب على ذلك بأنه كان يتوقع ذلك، ولكنه كان من واجبه التصرف على نحو ما فعل[1342].

وهناك علامة أخرى على تحسب كرومر وقوع أزمة دستورية، عندما قام بالإشتراك مع عشرة من اللوردات إعترضوا على رفض قانون الرخص المقدم من حكومة الأحرار فى 14 نوفمبر ، ليجد نفسه فى الجانب الخاسر عندما رفض المجلس قراءة القانون للمرة الثانية[1343].

ونظراً لما له من وجهة نظر حول الكيفية التى يجب أن تدار بها الحكومة، فقد أبدى رأيه غير مرة فيما يحدث بالنسبة للإجراءات البرلمانية البريطانية، وخاصة الإسراع فى طرح مشروعات القوانين حتى أن الكثير من القوانين العامة تعرض على مجلس اللوردات دون أن يكون قد أخذ حقه من المناقشة[1344]. وكان كرومر من بين أفراد قلائل من اللوردات الذين يداومون على حضور الجلسات، فتم اختياره لرئاسة لجنتين لدراسة القوانين، كما طلب منه أن يتولى التوفيق بين سكك حديد ميدلاند وعمالها عام 1909.

وكانت قاعدة كرومر الرئيسية فى لندن هى بيته فى 36 ويمبول ستريت، وهو مبنى كبير به مجموعة من الخدم، ورئيس للخدم، وسائق، كما كان لديه سكرتير يساعده فى كتابة مراسلاته وما تطلبه عمله السياسى المتزايد. وكان يقضى الصيف مع كاترين عند عائلتها فى أردجوان أو فى تورسو كاسل التى استأجروها بعدما أصبح إيجار ستراتمو لودج مكلفاً، ويبدو أنه قد قضى فصول الشتاء وحده؛ لأن كاترين فضلت البقاء مع إيفلن الصغير فى

[1340] Ibid, cols 1353 – 6.
[1341] Ibid, vol. 193, Cols. 1086 – 91 (28 July 1908).
[1342] Ibid, vol. 193, Col. 1911 (28 July 1908).
[1343] Roy Jenkins, Mr Balfour's Poodle: Peers v. People, (New York: Chilmark Press, 1954), 61 – 2.
[1344] Parl. Deb., vol. 193, Col. 1088. (28 July 1908).

بروودستار بإقليم كنت، حيث الجو أكثر نقاء[1345]. وكان موضوع صحة الطفل يحتل الإهتمام حتى فى مراسلات كرومر إلى أصدقائه مثل جرترود بل[1346].

وقد حضر إيفلن الصغير حضانة بورتمان سكوير بشكل غير منتظم عامى 1908، 1909، قبل أن يتم إرساله إلى مدرسة إعدادية داخلية فى ساسكس. ومنذئذ أصبح بعيداً عن والديه، وقد كتب فى مايو 1914: "إننى سعيد لأن صحة أبى قد تحسنت، وأتمنى أن يظل حياً" وقد وضع خطين تحت العبارة الأخيرة[1347].

وفى أبريل 1908 تزوج رولاند الإبن الأكبر لكرومر من روبى Ruby إبنة اللورد منتو Minto نائب الملك فى الهند، وقد سكنا بالقرب من كرومر، وأنجبا له حفيدتين فى 1909 و1910. ويبدو أن حسن استقبال كاترين لروبى قد أدى إلى تحسين العلاقة بينها وبين إبن زوجها[1348]. وعاد ويندام إلى لندن عام 1910، وتزوج عام 1913 من الليدى جوينث بونسونباى Gweneth Pon sonby إبنة اللورد بسبرو Bessborough الثامن، وأنجبا لكرومر حفيدين فى 1914 و1916. وأدت مشاركة ويندام فى بيت بارنج المصرفى، وقضاء رولاند عام 1913 به إلى تقوية روابط كرومر مع ذلك البيت الذى استعاد مكانته من جديد محققاً أرباحاً بلغت نسبتها 27.1% فيما بين 1900 – 1909[1349]. وبذلك أصبح كرومر رجلاً ثرياً يصل دخله السنوى إلى 6691 جنيهاً عام 1915، ويمتلك مزرعة بلغت قيمتها 117.608 جنيهاً عندئذ، أى نحو السبعة ملايين بأسعار عام 2002[1350].

أزمة مجلس اللوردات

وصلت المواجهة بين مجلسى البرلمان: العموم واللوردات إلى درجة من المرارة نتيجة الموازنة التى قدمها لويد جورج فى نهاية أبريل 1909، متضمنة إقتراحاً مثيراً للجدل بإدخال ضريبة على الأراضى، ورغم أن مشروع الموازنة لقى دعماً من الأغلبية التى كانت لحزب

[1345] Douglas – Hume, Evelyn Baring, 20.

[1346] Cromer to Gertrude Bell. 14 Jan. 1911 CP/2, FO 633/20.

[1347] Douglas – Home, Evelyn Baring, 22.

[1348] Rowland (Errington) to Cromer, 10 Sept. 1907, CP/5, box 1, file 4.

[1349] Robert Skidelsky, Review of Niall Fergusson, The World's Bankers, New York Review of Books 16 Dec. 1999.

[1350] Accounts, CP/1.

الأحرار بمجلس العموم، فإنه لم يرسل إلى مجلس اللوردات إلا فى نوفمبر. وبعد مناقشات قصيرة. صوت أغلبية اللوردات برفضه إذا لم يطرح للتصويت فى انتخابات عامة. وكانت تلك هى المرة الأولى التى يصوت فيها اللوردات على قرار مالى منذ 250 عاماً. وأبلغ كرومر المجلس فى نوفمبر أنه لما كان لا يستطيع التصويت لصالح قرار غير مقبول، أو يصوت ضده، فإنه يفضل الإمتناع عن التصويت بسبب إشكالية الموضوعات الدستورية التى تتصل به. وقال إنه يخشى أن تؤدى المنافسات الطويلة إلى شل حركة الأمة فى حالة قيام حالة قومية طارئة؛ لأن الواجب الأساسى للبرلمان هو الإهتمام بالدفاع عن الأمة. ومن الأفضل الحفاظ على قوة اللوردات كحاجز منيع ضد مطالبة الإيرلنديين بالحكم الذاتى، وضد الإشتراكية. ويقصد بذلك إتجاه لويد جورج إلى الأخذ بمبدأ جباية الضرائب من أجل زيادة الإنفاق، وإتجاه الأحرار إلى علمنة النظام التعليمى[1351]. وإمتنع لورد ليتون ولورد روسبرى عن التصويت أيضاً؛ لأنه قد جرت انتخابات فسوف يستخدم الأحرار فوزهم المتوقع فى إلغاء حق الفيتو الذى يتمتع به مجلس اللوردات[1352].

وجرت الإنتخابات فى يناير 1910، ورغم أن الإتحاديين حققوا إنتصارات كبيرة، فإن الحكومة استطاعت الحصول على أغلبية 124 مقعداً فى مجلس العموم بفضل الأصوات التى كسبتها من الإيرلنديين وحزب العمال المستقل وغيرهم. واعتبر اللوردات ذلك تأييداً شعبياً لمشروع موازنة لويد جورج، فوافقوا عليه عند عرضه، ولكن أدرك الجميع أن هجوم الأحرار ضد صلاحيات مجلس اللوردات أو طريقة تشكيله أصبح متوقعاً[1353]. وأطلق اسكويث Asquith – رئيس الوزراء– عدة إشارات مؤداها أنه فى حالة تعطيل مجلس اللوردات القرارات، فسوف يطلب من الملك منح المزيد من رتب اللوردات حتى يتم تمرير القوانين بسهولة. ثم قدمت الحكومة مشروع القانون الخاص بتعديل العلاقة بين العموم واللوردات فى أول مارس، عندئذ قرر مجلس اللوردات مناقشة إصلاح نظامه الذى اقترحته لجنة برئاسة اللورد روسبرى تضمن النص على أن "الحصول على رتبة اللورد لا تكفى وحدها لدخول صاحبها مجلس اللوردات وحصوله على حق التصويت"[1354]. ووافق كرومر

[1351] H. L. Deb. Vol. 4, cols. 825 – 9 (23 Nov. 1909).
[1352] Jenkins, Mr. Balfour's Poodle, 96 – 7.
[1353] Ibid. 138.
[1354] Ibid. 139 – 40.

على الإقتراح، فكان يرى ضرورة إنقاص عدد اللوردات الوراثيين وإتاحة الفرصة لانتخاب أعضاء آخرين بشرط عدم المساس بصلاحيات مجلس اللوردات[1355].

وتوقفت المناقشات فجأة بسبب وفاة الملك إدوارد السابع فى 6 مايو، وبذلت محاولات للتوصل إلى حل وسط حتى لا يقع الملك الجديد فى الحرج، وكان كرومر أحد الذين عملوا على البحث عن طريق الإلتفاف حول المشكلة، مثل اقتراح تعديل قانون البرلمان وطرحه للاستفتاء الشعبى، وعندما ثبت عدم جدوى ذلك كله، دعا إسكويث إلى انتخابات عامة فى نوفمبر 1910 جاءت لصالح أغلبية حزب الأحرار.

وعاد الصراع مرة أخرى فى فبراير 1911 عندما قدمت الحكومة قانون البرلمان نفسه الذى قدمته من قبل، بعد أن حصلت على موافقة الملك سراً على استخدام صلاحياته فى تنصيب عدد جديد من اللوردات، وقد مر القانون بأغلبية كبيرة فى مجلس العموم، ولكن رفضه اللوردات فى تحد سافر لإرادة الناخبين[1356]. وعندها أعلن سكويث (نهاية يوليو) عن رغبة الملك فى تنصيب عدد من اللوردات الجدد[1357].

وتحول الصراع إلى اللوردات أنفسهم، مستعطفين الإتحاديين الذين قرروا متابعة الصراع ضد الخمسين عضواً المتشددين الذين صمموا على خوض المعركة حتى نهايتها، واتخذ كرومر لنفسه موقعاً بين دعاة التوصل إلى حل وسط مقترحاً أن يتضمن قانون البرلمان تحديداً واضحاً لما يقصد بقوانين المال[1358]. وطلب منه اللورد كرو Crewe زعيم الإتحاديين فى مجلس اللوردات مساعدته فى حث زملائه من الإتحاديين على عدم التصويت ضد القانون عند قفل باب المناقشات، ويذكر كرومر أنه دعا إلى اجتماع فى بيت اللورد باث Bath إنتهى بكتابة خطاب إلى كرومر لسؤاله عن عدد الأصوات التى يحتاجها؛ لأنه يتوقف على ذلك عدد من اللوردات الذين على الملك أن ينصبهم إذا تم رفض قانون البرلمان، وعندما

[1355] H. L. Deb., vol. 5, Cols. 308 – 10 (16 Mar. 1910); Jenkins, Mr. Balfour's Poodle, 141 – 2.
[1356] Jenkins, Mr. Balfour's Poodle, 210 – 11.
[1357] Ibid, 219.
[1358] H. L. Deb., vol 5, Cols 1047 – 53 (28 June 1911).

عجز كرومر عن تقديم إجابة رسمية كتابة، قرر المعتدلون ألا يصوتوا ككتلة حتى لا يعمل المتشددون على اجتذاب بعض الأعضاء إلى صفوفهم لتدعيم موقفهم الرافض للقانون[1359].

وعندما عقد المجلس جلسته، كان الرفض يعنى تدهور المكانة الشخصية للرافضين. فقد جاء الإنعقاد فى أغسطس 1911 فى جو شديد الحرارة، وفى ظروف أزمة أغادير مع ألمانيا، كما كان هناك إضراب لعمال الشحن والتفريغ بالموانئ، وكان هناك تهديد بإعلان أول إضراب لعمال السكك الحديدية. وكان كرومر يعتزم إلقاء خطاب فى هذه المناسبة، ولكن مرض النقرس أقعده عن الحضور، فأرسل خطاباً مكتوباً إلى المجلس أعلن فيه أنه يفضل الموافقة على القانون حتى يحول دون تنصيب اللوردات الجدد، وحث زملاءه على الحذو حذوه[1360]. وأخيراً تمت الموافقة على القانون بأغلبية 131 صوتاً ضد 114 صوتاً فى 10 أغسطس، وكتب كرومر خطاباً إلى جوس فى اليوم التالى أعرب فيه عن ارتياحه لما تم[1361].

معارضة حق النساء فى التصويت

كانت معارضة مطالبة النساء بالحصول على حق التصويت فى الإنتخابات العامة من بين القضايا السياسية الأساسية التى شغل بها كرومر فى تلك السنوات، وهى حركة كانت مثار خلاف فى وزارة إسكويث، وكانت تحظى بتأييد تام من جانب غالبية أعضاء مجلس العموم المنتمين إلى حزب الأحرار. وكان من بين مشجعى النساء على تكوين "العصبة النسائية الوطنية لمناهضة حق النساء فى التصويت" الليدى جرس، والكاتبة الروائية المعروفة المسز هامفرى وارد Ward[1362]. وانضم كرومر إلى "لجنة الرجال لمعارضة التصويت" فى ديسمبر 1908، وأصبح رئيساً فى سبتمبر 1909 لعصبة الرجال المعارضين للتصويت التى خلفت تلك اللجنة.

[1359] Cromer, "Memo. Randum of proceeding in Connection with passing of Parliament Bill", 11 Aug. 1911, CP/2, FO 633/28.

[1360] Zetland, Lord Cromer, 337 – 9; Jenkins, Mr. Balfour's Poodle, 250.

[1361] 12 Aug. 1911, quoted in Zetland, Lord Cromer: 339.

[1362] Janet Penrose Trevelyan, The life of Mrs. Humphry Ward (New York: Doodad, Mead, 1923), 230, 250.

وقد شرح كرومر أسباب إتخاذه هذا الموقف فى كلمة ألقاها بكوينز هول فى مارس 1909، فذكر أن منح النساء حق التصويت يخلق ثورة إجتماعية وسياسية تؤثر على الإمبراطورية كلها، وليس على المملكة المتحدة وحدها، فهى ليست مجرد مسألة دستورية خطيرة. وتساءل عما إذا كان من صالح الإمبراطورية:

"أن نحرم النساء من النفوذ اللطيف المهم الذى يمارسنه الآن، ونستبدل به مكاناً غير محدد الجنس فى لجان الإقتراع، وما يترتب على ذلك من المطالبة بعضوية البرلمان، وربما الجلوس على مقعد رئيس الوزارة للنظر فى تقرير أمور تتعلق بمصير ومصالح أبناء الوطن من الرجال والنساء"؟

إن ذلك يعنى الوقوف على طرف حد السيف، ولا يعرف أحد أين تتوقف تلك الحركة. واختتم كلمته بأن إعطاء كل شخص حق التصويت ضرب من ضروب "الإبتذال"، "دعونا نعطى المرأة قدراً من التعليم لتحسين مستواها... ولكننا لابد أن نقاوم الدخول فى معركة بين الجنسين"، حتى لا يؤدى ذلك إلى وقوع خلافات ونزاع داخل كل أسرة فى البلاد[1363]. وقدم المزيد من الشرح لما اعتبره "وقوف على حد السيف"، فى خطاب كتبه إلى المسز هامفرى وارد بعد بضع سنوات: "ليس من الحكمة منح حق التصويت لعدد محدود من النساء فإذا لم يحصل الجميع على هذا الحق، لا يجب منحه للبعض منهن، وإذا أعطى حق التصويت لجميع النساء، فلابد من أن يمنح لجميع الرجال، وذلك يؤدى إلى وقوع كارثة"[1364].

وهنا نقف أمام التيار الرئيسى المعارض لمنح النساء حق التصويت فى العصر الإدواردى: الخشية من إطلاق حق التصويت للجميع، والزعم بأن ذلك يؤدى إلى إضعاف بريطانيا أمام ألمانيا كما أنه يخالف إرادة الله التى تقضى بالفصل بين الجنسين[1365]. وقد قدم كرومر الكثير من تلك الحجج فى خطاب ألقاه فى مانشستر فى أكتوبر 1910 "إذا كان الرجل

[1363] Speech against votes for women, 26 Mar. 1909, The Times, 27 Mar. 1909.

[1364] 19 July 1915, CP/2, FO 633/24.

[1365] Brian Harrison, Separate Spheres: The Opposition to Women's Suffrage in Britain (London: Croome Helm, 1978) 33 – 4, 56.

الألمانى يعتز برجولته، والمرأة الألمانية تعتز بأنوثتها.. فهل نستطيع منافسة هذه الأمة إذا تحدينا الطبيعة وقلبنا قاعدة التفرقة بين الجنسين رأساً على عقب ؟!"[1366].

وقد شارك كرومر فى تلك الآراء بعض أصدقائه، وكان من المعارضات للحركة فيوليت ماركام Violet Markham وجرترود بل[1367]. وقد وجد كرومر صعوبة فى مناقشة بعض الجوانب الأخرى للقضية، وتكشف بعض النقاط اللاذعة التى كان يطلقها عن ذلك الشعور بالحرج الذى أحس به[1368]. ويبدو أن المسألة لمست وتراً حساساً عنده وعند غيره من رجال عصر إدوارد، فقد ذكر لفيوليت ماركام عام 1913: "داعيات حق الإقتراح يثرننى.. لأنهن أثرن عاصفة من الحوار غير المجدى حول القواعد الأساسية التى تحدد علاقة الجنسين ببعضهما، التى لا يجب أن تكون موضع المناقشة مطلقاً"[1369]. ومن الواضح أنه كان مستاءً من الحديث علناً عن المسائل المتعلقة بالإختلافات السيكولوجية عند الجنسين، عندما تحولت المناقشة إلى دور النساء فى رعاية الأطفال والخدمة الصحية[1370].

ومن الطريف أن نعلم مدى مشاركة زوجته كاترين فى آرائه، فقد كانا يتفقان تماماً فى الكثير من الأمور، مثل المسائل المتعلقة بالإمبراطورية، وما تمثله الإشتراكية من تهديد، وأهمية البحث العلمى، وتشريح الحيوانات لخدمة البحث الطبى، ولكن من اللافت للنظر أنها لم تقف إلى جانبه عند إلقاء كلماته المعادية للمطالبة بحق النساء فى التصويت، كما أنها لم تتطرق إلى هذا الموضوع عند الحديث عن مختلف القضايا العامة[1371]. ويدرك كتاب التراجم والسير تماماً أن ولفرد بلنت كان مغرماً بذكر أحاديث النميمة، ولكن يلاحظ فى أحد تعليقاته فى مارس 1909 قوله: "إن الليدى كرومر أصبحت من مؤيدى حق الإقتراع للنساء، معارضة بذلك زوجها"[1372].

1366 Quoted Ibid, 34.

1367 Violet Markham, Retun Passage: The Autobiography of Violet R. Markham C. H. (London: Oxford University Press 1953), 96.

1368 Speech at anti – suffrage meeting in Cambridge, 3 Mar. 1911, Anti – Suffrage Review, X. (Apr. 1911), 8.

1369 5 Nov. 1913, CP/2, FO 632/22.

1370 Harrison, Separate Spheres, 60.

1371 Katherine did appear with him at an "at home" for members of the United States women's League for Opposing Suffrage in May 1914; Anti – Suffrage Review, X (May 1914).

1372 Blunt, My Diaries, 648.

كانت لجنة الرجال المعارضين للحركة تتخذ لنفسها مقراً فى بريدج ستريت، وستمنستر، ولديها عدد محدود من الموظفين، وكان من نشاطها جمع التوقيعات على الإلتماسات، وحشد الأعضاء الجدد، وتنظيم الإجتماعات لإثارة حمية ما إعتبر "أغلبية" من الذكور ضد حق النساء فى التصويت، وتعود كرومر وزملاؤه على تلقى خطابات المعارضة العنيفة ضدهم بأعصاب باردة، والتعرض للسخرية التى كانت أحد أسلحة دعاة الحركة، وللمقاطعات الدائمة للخطب التى يلقونها. ويقدم لنا تقرير جريدة التايمز عن الإجتماع الذى عقد فى كوينزهول فى 11 يوليو 1910 فكرة عن الجو العام فى تلك الأيام. فقد استقبل كرومر بالهتاف والصفير، وتعرض للمقاطعة المتصلة، بينما قام الحضور الذين بلغ عددهم 800 رجل بطرد بعض الرجال والنساء خارج القاعة.

واتخذ كرومر وكيرزون من "عصبة الرجال" أداة لإحتواء "عصبة النساء" فى خريف 1910، فعرضوا على النساء حل منظمتهن، والإنضمام إلى "العصبة الوطنية لمعارضة تصويت النساء" برئاسة كرومر لمجلس العصبة المكون من سبعة رجال وسبع نساء[1373]. وكانت أسباب ذلك سياسية وعملية معاً، فقد خشوا أن تكون غالبية أعضاء مجلس العموم على استعداد لإعطاء ربات البيوت حق التصويت[1374]. كما لاحظوا أن عصبة النساء قد أفلست مالياً، وأن باستطاعة الرجال وحدهم جمع الأموال اللازمة لمقاومة حركة المطالبة بحق النساء فى التصويت[1375]. كما أن الرجال والنساء المعارضين للحركة رأوا أن من مصلحتهم توحيد الجهود لمقاومتها، كما أن الإندماج الناجح للعصبتين تطلب استخدام كرومر لمهارته الدبلوماسية والإدارية، وكانت هناك صعوبة فى اختيار الإسم الجديد للعصبة، ونسبة الرجال والنساء فى اللجان المنبثقة عنها، وفى تشكيل هيئة المكتب ذاتها[1376]. ومن الواضح أن كرومر وجد صعوبة فى التعامل مع إمرأة تتميز باستقلالها الفكرى، وخاصة أن التعامل مع

[1373] Harrison, Separate Spheres, 128.

[1374] "Annoncement of Men's League for Opposing Woman Suffrage" Anti – Suffrage Review, 10. (Sep. 1909), 8.

[1375] Earl of Ronaldshay, The Life of Lord Curzon, vol I (London: Ernest Benn, 1928), 190.

[1376] Harrison, Separate Spheres, 128 – 9.

الليدى جرس إتسم "بالصعوبة"[1377]. وعلى كل، قيل إنه يعترف بما عند النساء من قدرات[1378].

وقد جلبت إدارة العصبة الوطنية إلى كرومر عدداً من المشكلات التى كان عليه أن يواجهها، فقد كانت عضوات العصبة يرون أنهن بحاجة إلى المعارضين لحصول النساء على حق الإقتراع، ولكن لاستخدامهم فى إثارة الإهتمام بالقضية عند النساء المهتمات بالنشاط العام، كما أن إشتراك النساء فى قيادة العصبة يزكى فكرة قدرتهن على المشاركة فى اللعبة السياسية[1379]. ولهذه الأسباب كان من الصعوبة بمكان البقاء كحركة مستقلة بعيداً عن الأحزاب، طالما اقتحمت العصبة الساحة السياسية. ومن الأمثلة الأولى على ذلك، الضغط على أعضاء البرلمان لعدم تأييد قانون كيمب التوفيقى الذى يهدف إلى إعطاء حق التصويت إلى مليون إمرأة من ربات البيوت، بل كان من الخطورة على وحدة الحركة إقناع العديد من قياداتها بفكرة تشجيع النساء على المشاركة فى الحكومة المحلية، وهى فكرة كانت موضع معارضة كرومر أيضاً[1380]. وكانت المسز هامفرى وارد على رأس معارضيه، فقد كانت تعتقد فى ضرورة زيادة دور النساء فى الشئون البلدية، وأن العصبة يجب أن تشغل نفسها بما يتجاوز نطاق "القبول والرفض"[1381]. وكانت النتيجة نهاية فترة الائتلاف، وتكوين لجنة منفصلة بإسم "اللجنة النسائية للعمل على تقدم الحكومة المحلية".

ولكن ذلك لم يمنع إنقسام قطاع كبير من الناشطات، عندما قامت بعض العضوات بتأييد المرشحات لبلدية ماريلبون من مؤيدات حق النساء فى الإقتراع بقدر من التحفظ، وكان كرومر هو الذى دفعهن إلى ما وصفته هامفرى وارد "بالغضب الشديد من موقف العزيز لورد كرومر"[1382]. فقد ذهب كرومر إلى أن "الرجال ذوى الخبرة السياسية حذروا من صعوبة الخلط بين معارضة حصول النساء على حق التصويت، والخطوات التى تهدف إلى تشجيع

[1377] Ibid, 129; Martin Pugh, The March of Women: A Revisionist Analysis of the Compaign for Women's, Suffrage 1866 – 1914 (Oxford: Oxford University Press, 2000) 154 – 5.

[1378] Harrison, Separate Spheres, 130.

[1379] Pugh, The March of Women, 145.

[1380] Ibid, 155 – 6; Julia Bush, Edwardian Ladies and Imperial Power (London: Leicester University Press, 2000), 172 – 3.

[1381] Trevelyan, Life of Mrs. Humphry Ward, 230 – 1.

[1382] Quoted in Pugh, The March of Women, 156.

النساءعلى المشاركة فى عضوية المجالس البلدية، ولا يرجع ذلك إلى معارضته للمجالس ذاتها، ولكن لأنه من الصعوبة بمكان الحركة فى الإتجاهين[1383].

وكان كرومر على حق فى الإعتقاد بأن أى دعم للقضايا النسائية قد تترتب عليه إنقسامات سياسية، ولكن استقالته من رئاسة العصبة فى مايو 1912 جاء بمثابة اعتراف من جانبه بصعوبة التمسك بخط معين، كما أجهدته المقاطعة المستمرة التى حدثت فى الإجتماعات التى عقدت فى فبراير السابق ببريستول، عندما صعدت إحدى المؤيدات للحركة فجأة على المنصة بدعم من جمع من المؤيدين، مما جعل الرجال المنظمين يهاجمون المؤيدين بالقاعة ويطردونهم خارجها[1384]. وكما ذكر لكيرزون "لم تعد لديه الصحة والقوة والشباب، والمقدرة على التعامل مع أولئك النسوة اللاتى لا ينتمين إلى العصبة"[1385]. وتولى كيرزون رئاسة العصبة، وإلى جانبه الليدى جرس وسيدة أخرى كنائبتين للرئيس[1386].

مصر والإمبراطورية

كان اللورد كرومر وزميلاه اللورد كيرزون واللورد ملنر يمثلون أكبر المعبرين فى عصر إدوارد عن الفكرة التى صاغها كرومر، والتى مؤداها أن الإمبراطورية هى التى خلقت عظمة الأمة البريطانية[1387]. ولذلك أيدوا الإجراءات التى ترمى إلى الحفاظ على تماسك الإمبراطورية، وقد أزعجهم التهديد الألمانى، وشغلتهم كيفية التعامل مع المد الوطنى المتنامى فى مصر والهند. ويتضح موقف كرومر من آرائه حول تلك القضايا التى عبر عنها فى خطبة ألقاها تأييداً لقانون المجالس الهندية (الذى قدم ما أصبح يعرف بإسم إصلاحات مورلى – منتو) فى فبراير 1909، فقد ذكر أنه أقل اعتراضاً على تعيين هندى بمجلس نائب الملك من إعطاء الهنود حقوقاً تشريعية أوسع مدى. وذكر أنه يعلم أن الخبرة التشريعية مطلوبة، ويجب التدرب عليها، ولكنه "ليس واثقاً من النتائج التى تترتب

[1383] Cromer to Violet Markham, 9 Feb. 1912, CP/2, FO 633/21.
[1384] John Sutherland, Mrs. Humphry Ward, Eminent Victorian, Pre – Eminent Edwardian (Oxford: Oxford University Press, 1991), 319.
[1385] Quoted in Harrison, Separate Spheres, 134.
[1386] A Letter From Lady Jersey to Cromer Suggests That she would have Preferred to be Co – President' 24 Feb. 1912, CP/2, FO 633/21.
[1387] Speech at a dinner of the Unionist free Trade Club, 21 Nov. 1907, CP/2, FO 633/26.

عليها"[1388]، وكانت نصحيته الخاصة لجورست الذى خلفه فى مصر تسير على الخط نفسه: فالضغوط من أجل توسيع نطاق التمثيل النيابى لا يمكن تفاديها، ولكن يجب توجيهها من أعلى، وتوجيهها – إن أمكن– بعيداً عن المركز، بخلق مجالس إقليمية ومحلية[1389].

وقد استخدم كرومر خطابه السنوى كرئيس للجمعية الكلاسيكية عام 1910، ليقدم أفكاره فى سياق تاريخى أوسع. كان الخطاب يحمل عنوان "الإمبريالية قديماً وحديثاً" حيث صيغ لعقد مقارنة بين الإمبراطوريات القديمة والإمبراطورية الحديثة، فقد ذهبت أثينا ضحية "جنون الديمقراطية"[1390]. ولذلك كانت المقارنة الرئيسية بين روما وبريطانيا. وقد عالج الموضوع فى إطار الحاجة إلى التوسع من أجل الوصول إلى حدود يمكن الدفاع عنها، وعدم العرفان بالجميل من جانب أولئك الذين تم إنقاذهم من الاستعداد[1391] وكانت هناك فوارق كبيرة بين الإثنين هى سبب عدم تشجيع بريطانيا الزواج المشترك بين الشعوب التى دخلت تحت حكمها، واعتقدت أن الإدارة والاستغلال التجارى يجب أن يكون فى أياد أخرى، كما كان لها منافسون أوروبيون على درجة من الخطورة[1392].

وفى القسم الأخير تناول كرومر أفكاره النهائية حول مستقبل الإمبراطورية الاستعمارية، فذهب إلى أن الهند ليست أمة متجانسة، وأن تركها يؤدى إلى حالة خطيرة من الفوضى[1393] فلا شك أن من واجب بريطانيا أن تسلم شعلة الحضارة – فى وقت ما– إلى أولئك الذين أصبحوا متحضرين، ولكن ما نقوله اليوم لا يمكن تحقيقه إلا عندما تتغير طبائع البشر، وتختفى الصراعات العرقية والدينية من على وجه الأرض. ونقل شعلة الحضارة فى الوقت الراهن سوف يؤدى – دون شك– إلى إطفائها[1394].

وكانت مصر حاضرة فى ذهن كرومر فى ذلك الوقت، ولكنه كان لايزال يفضل إنكار الذات فيما يتعلق بالشئون العامة المتصلة بمصر. وكما ذكر فى خطابه بالنادى الثمانينى فى 15

[1388] Zetland, Lord Cromer, 312 – 13.

[1389] e. g. Cromer to Gorst 12 Mar. 1908 and 12 May 1910, CP/2, FO 633/14.

[1390] Cromer, Ancient and Modern Imperialism (New York: Longmans, 1910), 7 – 8.

[1391] Ibid, 29 – 31.

[1392] Ibid, 69 – 114.

[1393] Ibid, 121 – 4.

[1394] Ibid, 127.

ديسمبر 1908، شعر أن أجل خدمة قدمها لمصرهى "إمساك لسانه"[1395] ولكن ذلك – طبعاً – لم يحل دون كتابته العديد من الرسائل إلى جراى بالخارجية البريطانية حول شئون مصر، وكذلك مراسلاته مع جورست الذى كان يسأله الرأى دائماً. وأخيراً أيد سياسة جورست رغم أنه لم يكن راضياً عن التغيرات التى جعلت سياساته موضع المساءلة مثل ما قام به جورست من إعادة النظر فى أحكام دنشواى[1396]. وظل ممسكاً بلسانه عندما تأكد أن جورست لم يبذل جهداً لتنفيذ فكرته الخاصة بالمجلس التشريعى المختلط كسبيل للتخلص من الإمتيازات الأجنبية، وما كان قادراً على تحقيقه هو تكوين جمعية لقضاة المحاكم المختلطة مع إعطائها صلاحيات تشريعية فيما يتصل بالأجانب[1397].

وظل كرومر يؤيد جورست بصفة خاصة حتى قامت الأزمة السياسية نتيجة محاولته جمع أموال للسودان كبديل لمشروع "إمتياز قناة السويس"، وأدى ذلك إلى اغتيال بطرس غالى الذى كان جورست وراء تعيينه رئيساً لمجلس النظار فى فبراير 1910، مع رفض اقتراح مد إمتياز قناة السويس فى الجمعية العمومية، وكان هذا القدر من الإمتحان كفيلاً بإقناع الكثيرين فى إنجلترا ومصر أن تجربة إعطاء المصريين قدراً أكبر من الحقوق التشريعية، قد سقطت فعلاً. وقد انزعج كرومر مما قاله جورست للورد كرو من أن كل ما أراد عمله لم يتحقق[1398]. وقد أفصح كرومر عن حزنه فى إضافة إلى "الملاحظات" كتبها عندما كان يقضى إجازة الصيف فى إسكتلندا عام 1910: "لقد قمت بتدريب جورست، وأنا أظن أنه يتفق معى تماماً" ولكن عند تنفيذ هذه السياسة، استسلم جراى وجورست. ولم يعتقد كرومر أن "إنجاز عمره كله" قد تم التخلى عنه، ولكنه اعتقد أن الصرح الذى استغرق منه ربع القرن لبنائه قد تأثر، وإن الأمر أصبح يتطلب "العمل فى مختلف الإتجاهات من جديد"[1399].

وفى إضافة أخرى إلى "الملاحظات" كتبها بعد ذلك بعام: "صديقى المسكين جورست يحتضر بسبب معاناته للسرطان"[1400]. وفى إضافة ثالثة ذكر أنه بمجرد سماع نبأ وفاة

[1395] Cromer, The Situation in Egypt, (London: Macmillan, 1908), 5 – 8.
[1396] Grey to Cromer, 2 Aug. 1907, and Cromer to Grey, 2 Aug. 1907, quoted in Mellini, Gorst, 161.
[1397] Roberson, "Judicial Reform", 273; Mellini, Gorst, 229.
[1398] Quoted in Mellini, Gorst, 216.
[1399] BN, Insertion, 2 Aug. 1910, 5 – 7.
[1400] BN, Insertion, 26 July 1911.

جورست هرع إلى وزارة الخارجية ليوصى بتعيين كتشنر خلفاً له. وفى ذلك الوقت كان كتشنر السلطوى هو الأنسب لشغل المنصب، ولكنه تعرض للوم على بعض المبادرات التى لم يقبلها كرومر، ففى خطاب كتبه كرومر إلى ستراشى فى مارس 1913 تكلم عن خيبة أمله؛ لأن الصرح الذى أقامه على مدى ربع القرن قد تم إخضاعه، فقد ذهب جورست إلى أقصى النقيض، وها هو ذا كتشنر يتجه إلى أقصى النقيض الآخر، وأنه حذرهما من أخطاء سياستهما، ولكن كتشنر كان أقل استجابة من جورست[1401].

وكان أحد المواقف التى استاء منها كرومر عدم اهتمام كتشنر بمشروعه لتعديل الإمتيازات الأجنبية، بعدما رأى – مثل جورست– أنه لا توجد موافقة دولية أو محلية عليه[1402]. ودفع ذلك كرومر إلى إحياء الإهتمام بالمشروع فى مقالة نشرها بعنوان "الإمتيازات الأجنبية فى مصر" نشرت عام 1913، أكد فيها على أن حكومة "مصر للمصريين" لن تتحقق إلا بزوال الإمتيازات، واقترح – مرة أخرى– خطة يمكن بموجبها إندماج المصريين والأجانب معاً لدرجة تسمح بتعاونهما معاً فى المجال التشريعى، وما كان مطلوباً هو الثقة الدولية فى استمرار الإحتلال البريطانى[1403] وسوف يدرك الجميع – عندئذ– أن مستقبل مصر فى "الكوزمويولوتانية واسعة النطاق"[1404].

الكاتب

كان اهتمام كرومر بالشأن العام شديد الإتساع، فإلى جانب "نشاطه بمجلس اللوردات والعصبة الوطنية لمعارضة حق النساء فى الإنتخاب" كان رئيساً نشطاً لجمعية البحوث الدفاعية، كما كان مدافعاً عن استخدام الحيوانات فى البحوث الطبية عن طريق التشريح، وعضواً بجمعية الرفق بالحيوان، التى شارك فيها أعضاء الأسرة الحاكمة فى مقاومة الرياضات الدموية، كما كان عضواً باللجنة التى أعدت مشروع إقامة "مدرسة الدراسات الشرقية بلندن"، وفى الوقت نفسه وجد لنفسه مكاناً فى زمرة الكتاب، فكان يقرأ كثيراً ويعد

[1401] 26 Mar. 1913, CP/2, FO 633/22.

[1402] Mellini, Gorst, 229; Kitchener to Grey, 24 May 1912, PRO, FO 371/1362.

[1403] Cromer "The Capitulations in Egypt,' Nineteenth Century and After (July 1913), repr. In his Political and literary Essays 1908 – 1913, 161 – 2, 167.

[1404] Ibid, 171.

ملاحظات عرف بعضها طريقه إلى النشر فى مجموعة من الكتب الشهيرة التى عرضها على دائرة واسعة من الأصدقاء من بينهم جرترود بل وكيرزون وجوس.

ولم تتغير ميول كرومر إلى مجالات بعينها وفق ما يذكره جوس، فقد استمر يقرأ باستمرار فى الأدب اليونانى واللاتينى، ولكن ذلك لا يتضمن قراءة أعمال آباء الكنيسة بهاتين اللغتين؛ لأنه لم يكن يتمتع بعقلية إكليريكية[1405]، كما كان يختار الكتب التى تلقى الضوء على العادات الإجتماعية والسياسية القديمة[1406]. وعشق النثر الواضح السلس، ولذلك لم يهتم بكتابات بعض أقطاب كتاب العصر الإدواردى مثل والتر باتر[1407]. وكان من بين الكتب التى قرأها أكثر من مرة الإلياذة وغيرها من الأعمال الأدبية العريقة[1408].

وشجعته صداقته لستراتشى على تزويد مجلة الإسبكتاتور بعدد من المقالات، وخاصة عندما قلت مشاركته فى المناسبات العامة عام 1912، فظهر 22 مقالاً نشرت فيما بين نوفمبر 1912 وسبتمبر 1913 بما فى ذلك خمسة فى يوليو وستة فى أغسطس، كان نحو النصف منها عروضاً ومراجعات لكتب ذات موضوعات سياسية أو تتعلق بالإمبراطورية، ومعظم الكتب الأخرى التى عرض لها كانت أعمالاً أدبية، أو تتعلق بالكلاسيكيات أو التاريخ. وحفلت عروضه ببعض الطرائف المتصلة بحياته، وقد كان شديد الإهتمام بالكتب التى نشرها أصدقاؤه أو تلك التى تناولت حياتهم، وقد تمتع بذاكرة قوية، غير أنه كان يرسل بعض المقالات لأصدقائه لمراجعتها قبل النشر، وكانت أفكاره متسقة، يعرضها بأسلوب سلس، رغم أنها حفلت بالتكرار مع تقدمه فى السن، ولم يكن أسلوبه فى الكتابة رشيقاً، ولكنه إتسم بالوضوح والتدفق.

وتضمنت عروض الكتب والمقالات قدراً كبيراً من الأفكار الخاصة: مثل الدور الضرورى الذى يجب لعبه فى كتابة التاريخ، والحديث عن حرية التجارة والسمات الغريبة عند معظم الأمم غير الأوروبية، وأن معظم الهنود الذين تلقوا ثقافة أوروبية رفيعة يحتفظون بسمات

[1405] Gosse, Lord Cromer as a Man of Letters", 3 – 4.
[1406] Ibid, 6.
[1407] Ibid, 7 – 8.
[1408] Ibid, 13.

ثقافتهم الوطنية تحت ردائهم الأوروبى. كما تضمنت إضافاته إلى "الملاحظات" الكثير من أفكاره المتصلة بالنشاط السياسى الذى شارك فيه بعد تقاعده[1409].

وعندما تجمعت مقالاته، قسمت إلى ثلاثة أقسام نشر ماكميلان أحدها عام 1913[1410]، ثم قسمت مجموعة خطاباته ومقالاته السياسية إلى قسمين: أحدهما أدبى، والآخر سياسى. فقد كتب مذكرة شخصية بعنوان "الأعمال التى تم إنجازها فيما بين 1907 – 1911" تكشف عن رغبته فى ملء وقت فراغه بالأعمال والأنشطة النافعة[1411]، وتبدأ بأرقام مبيعات كتابه "مصر الحديثة"، وتورد ذكر الكتب التى قرأها أو أعاد قراءتها، والخطب التى ألقاها، كما بين الطريقة التى زاد من خلالها اتجاهه نحو صفوف المحافظين بمجلس اللوردات، أو إلى صفوف ما ظل يسميه "حزب الإتحاديين".

[1409] Cromer, "Lord Milner and Party", The Spectator, 24 May 1913.

[1410] Cromer, Political and Literary Essays 1908 / 1913.

[1411] CP/2, FO 633/28.

الفصل التاسع عشر
الحرب العالمية الأولى ولجنة التحقيق فى حملة الدردنيل والوفاة (1917 – 1914)

قيام الحرب وبعث الحياة فى كرومر

إقترب اللورد كرومر من الموت فى الشهور الأولى من العام 1914، فتذكرت روبى – زوجة إبنه– أنه كان يعانى كثيراً، وتوقف جهازه الهضمى عن العمل، وسمع مرة يهمس قائلاً: "أشعر أننى فقدت اتصالى بالعالم الحالى دون أن أدخل فى اتصال مع عالم آخر"[1412]. ثم تحسنت صحته فجأة، وبدا وقد نال نصيباً أوفر من الحياة. ولعب نشوب الحرب فى أغسطس دوراً مهماً فى ذلك، فقد جعله يشعر بإرتياح شديد، فلم تكشف الحرب عن اللون الحقيقى للألمان الذى نبه إليه من قبل فحسب، بل ساعدت البريطانيين على تجاوز خلافاتهم الحزبية المريرة، وأنهت التوتر الشديد حول أولستر Ulster، وأتاحت الفرصة – فى رأيه– لشعوب الإمبراطورية للإعراب عن ولائها بالوقوف وراء بريطانيا دعماً لقضيتها[1413] وجاءت الحرب بمكافأة مهمة عندما وضعت بعض زملاء كرومر القدامى فى مواقع السلطة، ومكنت كرومر من طرح أفكاره حول الإستراتيجية السياسية، وخاصة فى الشرق الأوسط.

وتطوع ولداه الكبيران فى الحرب، فأصبح رولاند ملازماً ثانياً فى الجراندديان جارد، وانضم وندام إلى إحتياطى متطوعى البحرية. وذهب رولاند – عندئذ– إلى الهند للعمل سكرتيراً خاصاً لنائب الملك اللورد هاردنج Hardinge بعد أن كتب كرومر إلى كتشنر – وزير الحرب– لتجاوز المتاعب التى لقيها ولده من المجلس الطبى[1414]. وفى عام 1916 عاد رولاند إلى إنجلترا ليعمل سكرتيراً خاصاً للملك جورج الخامس. وفى نطاق بيت كرومر، شغلت كاترين نفسها بالكثير من الأعمال الخيرية المتصلة بالحرب، بينما قام إيفلن الصغير

1412 Ruby Barin, Memo, "Lord Cromer", 29 Jan. 1917, 1, CP/1.

1413 "Lord Curzon's Imperialism', introd. To Earl Curzon, subjects of the Day, repr. In his Political and Literary Essays: Third Series 1 – 2, 6.

1414 Kitchener to Cromer, 10 Feb. 1915, CP/1.

– الذى كان فى الصف الأخير بمدرسة وبك الإعدادية فى ساكس– بالتراسل مع والده حول العمليات العسكرية، وطرح تساؤلات حول الإستراتيجية والأسلحة[1415]. وقضى كرومر وعائلته معظم الوقت فى لندن، بعيداً عن منتجعهم الصيفى فى تورسو كاسل بإسكتلندا؛ لأن جانباً كبيراً من الساحل الشمالى لإسكتلندا أصبح قاعدة رئيسية للأسطول البريطانى الذى يتولى الدفاع عن الوطن بقيادة اللورد جيليكو Jellico.

وعندما استجمع كرومر قواه، عاد إلى الكتابة فى الإسبكتاتور من جديد. وكما ذكر لستراتشى أن واجب كل من له مصداقية عند الرأى العام، ويعجز عن القيام بعمل أكثر قيمة، أن يلقى الأضواء على حقيقة الأمور مستخدماً قلمه[1416]. كذلك قام بعرض الكتب التى نشرت عن الحرب ذاتها، أو عن صورة العالم المتوقعة بعدها. وكان كرومر يرى أن باستطاعة الألمان أن يغيروا من الطابع العسكرى للحكم عندهم نتيجة ما سيلحق بهم من هزيمة ساحقة[1417]. وكان لا يريد محو الألمان من الوجود؛ لأن ذلك سوف يفتح باب أوروبا على مصراعيه أمام الجامعة السلافية، التى ذكر يوماً لزوجته وأخيه أنها أفضل قليلاً من الجامعة الجرمانية[1418]. ورأى أن من الخطأ أن يقوم الحلفاء – بعد انتصارهم– بإملاء التغييرات الداخلية فى نظام الحكم فى كل من ألمانيا والنمسا، وهى مسألة يستحسن تركها للألمان والنمساويين وحدهم.

كان الهدف الرئيسى لكرومر هو رؤية نهاية حكم أسرتى الهابسبرج والهوهنزولرن، مع التأكد من عدم قدرة الألمان على تهديد السلام فى أوروبا مرة أخرى[1419]. فقد بث الألمان الخوف فى نفوس الأوروبيين على مدى ربع القرن، مما جعل الدول تثقل نفسها باقتناء كميات كبيرة من السلاح[1420]، وقد أوضح كرومر تلك الآراء فى سلسلة من المقالات والنشرات، مع التأكيد على أن سعى ألمانيا إلى إحراز السيادة على العالم يجعلها تمد جهودها حول العالم[1421].

1415 Douglas – Home, Evelyn Baring, 22.
1416 Cromer to Stachey, 5 July 1915, CP/2, FO 633/24.
1417 30 Aug. 1915, CP/2, FO 633/24; Cromer's letter to The Times 11 Apr. 1916, CP/2, FO 633/33.
1418 Cromer to Alice Shaw – Stewart, quoted in Zetland, Lord Cromer, 343.
1419 Cromer to Herbert Warren 22 Nov. 1914, CP/2, FO 633/23.
1420 Cromer to Starchey, 10 Aug. 1914, quoted in Zetland, Lord Cromer, 343 – 4.
1421 (London: Darling 1916) 14 – 15.

وكان من الطبيعى أن يولى كرومر المسرح العسكرى فى الشرق الأوسط إهتماماً خاصاً، فمن ناحية هناك فرصة لتسجيل ضربة أخيرة للخديو عباس الثانى بنشر كتابه "عباس الثانى" الذى كان قد كتبه عند احتدام صراعه مع الخديو فى أوائل التسعينيات (ق 19)، ولكنه لم ينشره طوال وجود عباس فى الحكم[1422]. غير أن مصر أصبحت محمية بريطانية عام 1914، وتم عزل عباس الثانى، ومن ثم سارع بنشر الكتاب – كما قال لروسبرى– "حتى يدع المنظرين السياسيين البريطانيين الذين نعول عليهم، يدركون حقيقة ما تعنيه الحكومة فى الشرق.. مع الكشف عن عيوب الخديو السابق"[1423].

وكان الخط الرئيسى الثانى فى تفكير كرومر هو الاستفادة من الحرب لتشجيع الأفكار الخاصة باستقلال العرب التى شاعت بالقاهرة قبل العام 1914. ولذلك كتب للورد كرو فى أكتوبر 1914 ينصح بإرسال بعض الضباط الإنجليز الذين يتحدثون العربية إلى الجزيرة العربية "لإشعال الثورة فى البلاد ضد الأتراك"[1424] وفى مذكرة إيضاحية لذلك إقترح أيضاً النفخ فى أتون الثورة بين صفوف الأرمن والأكراد[1425]. ولكن التقدم فى هذا الإتجاه كان بطيئاً، ففى سبتمبر 1915 ذكر كرومر إمكانية إثارة قبائل بلاد الرافدين ضد الحكم التركى، ولكن الألمان وصلوا إلى هناك مع أموالهم[1426]. وبعد ذلك بشهر واحد إقترح التحالف مع شريف مكة وتسليمه بغداد بعد الاستيلاء عليها ليحكمها العرب[1427].

وكان الكثير من تلك الآراء متداولاً – بالطبع– فى تلك الأيام، ودعمته مراسلات كرومر مع أناس من أمثال جرترود بل، وونجت الذى ما لبث أن أصبح مندوباً سامياً بمصر خلفاً لكتشنر. ولا شك أن كرومر لعب دور المتحدث بلسان خبراء الشرق الأوسط، فتحدث – مثلاً– فى مجلس اللوردات (ربيع 1915) عن إمكانية إقامة "مملكة عربية"، وعن الفكرة الأبعد مدى القائلة بإقامة "خلافة عربية مستقلة سياسياً"[1428] كما تحدث عن الحركة

[1422] Cromer, Abbas II, preface, P. V.
[1423] 9 Jan. 1915, CP/2, FO 633/24.
[1424] Cromer to Boyle, 5 Oct. 1914, CP/2, FO 633/23.
[1425] 16 Oct. 1914, ibid.
[1426] Cromer to Bevan, 20 Sept. 1915, CP/2, FO 633/24.
[1427] Cromer to Curzon, 21 Oct. 1915, Ibid.
[1428] The Times, 23 Apr. 1915, and Cromer's letter to The Times, 24 Apr. 1915.

الصهيونية التى كتب عنها فى الإسبكتاتور (يوليو 1916)، فذكر أنها حركة لن يستطيع الساسة تنحيتها جانباً باعتبارها "حلماً متعصباً لحفنة من المثاليين"[1429].

الدردنيل

كانت كتابات كرومر عن الشرق الأوسط تكتب أو تملى – غالباً– وهو راقد فى فراشه، فقد عاوده المرض فى الشهور الأولى من العام 1915، إذ تورم أصبع قدمه بسبب النقرس حتى أصبح – على حد قوله– فى "حجم كرة البلياردو الحمراء"[1430]، ولكن صحته تحسنت بالقدر الذى سمح له بالعودة إلى مجلس اللوردات فى الربيع، وكان ذلك إجهاداً لقلبه الضعيف، فعاد ليلزم الفراش حتى نهاية العام[1431]. وقد حرصت كاترين على إعداد طعامه الخاص بسبب حالة عسر الهضم المزمنة التى عانى منها، حتى إن إيفلن الصغير كتب له من مدرسته "عندما ذكرت لى أمى أنك لا تريد أن تأكل الطعام الذى طبخته لك (تفهمت ذلك) لأننى على استعداد أن أقبل بأى شئ سوى تناول وجبة من إعدادها"[1432].

ولذاك لا يثير الدهشة إهتمام كرومر بحملة الدردنيل، آملاً أن تأتى لصالح بريطانيا فى البداية، ولكنه توصل إلى استنتاج أنها كانت "فوضى هائلة"[1433]. ونتيجة لذلك كان يفكر فى نوع من التحقيق البرلمانى الذى يجب عمله حول ذلك، وعن الأدلة التى يجب السماح بالإطلاع عليها. وكان الشخصان الأساسيان فى الموضوع هما أسكويث – رئيس الحكومة – الذى كان حريصاً ألا تتاح الوثائق السرية للبرلمان، والشخص الآخر هو ونستون تشرشل الذى طرد من منصب وزير البحرية عام 1915، والذى تحول إلى كبش فداء لكل ما حدث، وكان يصر على إتاحة الإطلاع على هذه الوثائق لأعضاء البرلمان، وجاءت مساهمة كرومر فى خطاب تضامن معه فيه ملنر وخمسة من اللوردات الآخرين، أرسل إلى أسكويث فى نوفمبر يحذرونه فيه من تشكيل لجنة تحقيق مكونة فقط من الوزراء الذين تولوا مهمة

[1429] Quoted in Blanche E. C. Dugdale, Arthur James Balfour: 1906 – 1930 (New York: G. P. Putnam's Sons, 1937), 166.

[1430] Cromer to Lord Mersey, 17 Feb. 1915, CP/2, FO 633/24.

[1431] Cromer to Lord Sydenham, 13 Nov. 1915, CP/2, FO 633/24; "Evelyn, Earl of Cromer', memoir by Lood Sanderson, Proceedings of The British Academy, 8, 30.

[1432] 2 Feb. 1916 BP, E. B's, Letters to parents, 1916 – 1917, GRE/I/158.

[1433] Cromer to Lord Mersey, 2 Sept. 1915, CP/2, FO 633/24.

الإشراف على الحملة؛ لأن ذلك سوف يثير إنتقاد البرلمان[1434] فاختار أسكويث تشكيل لجنة تحقيق تحتفظ بسرية الأدلة التى تطلع عليها، ولا تقوم بعرض الوثائق على البرلمان، وعرض على كرومر أن يتولى رئاسة اللجنة فى الربيع، رغم أن الإعلان عن تشكيل اللجنة تأخر حتى 20 يوليو[1435]، وكان الأعضاء الآخرون باللجنة هم: الأميرال سير وليم ماى، والفيلدمارشال لورد نيكلسون، ورئيس محكمة الاستئناف، وأربعة من أعضاء البرلمان. وقد خشى أصدقاء وأقارب كرومر مما قد تسببه اللجنة من آثار سلبية على حالته الصحية، فقال "أعلم أنها ستقتلنى، ولكن الشباب يضحون بحياتهم من أجل هذا الوطن، فلماذا يتقاعس عجوز مثلى عن القيام بواجبه"[1436]. كانت اللجنة آخر عمل رسمى يقوم به، أعاده إلى بداية دائرة خدمته الرسمية فى شرق البحر المتوسط قبل ستين عاماً.

وبدأت اللجنة عملها فى أغسطس بفحص برقيات وزارة البحرية[1437]. وكان عليها أن تبت فى طلب ونستون تشرشل حضور التحقيق للنظر فى الأدلة المتاحة لديه والاستماع إلى من يقدمهم من الشهود للإدلاء بشهاداتهم[1438] ولكن اللجنة لم تسمح بذلك، غير أنها سمحت للشهود بتقديم مذكرات مكتوبة تتضمن شهاداتهم مع إمكانية استدعاء من ترى اللجنة الحاجة إلى مناقشته فى شهادته[1439]، ومثل تشرشل أمام اللجنة مرة واحدة، وتقرر تزويده بالشهادات المكتوبة ليعلق عليها كتابة فى خطاب يوجهه إلى اللجنة[1440].

وعقدت اللجنة جلساتها فيما بين 19 سبتمبر و4 ديسمبر، استمعت إلى 33 شاهداً، كما استمعت إلى شهادة أسكويث وتشرشل، واضطر كرومر أن يلزم الفراش فى أوائل ديسمبر بسبب إصابته بنزلة برد، فعقدت اللجنة إجتماعاتها الأخيرة فى منزله بويميول ستريت. وزاره ولده رولاند وزوجته روبى بعد عودتهما من الهند عندما انتهت أعمال اللجنة، فاكتشفا أنه يجد صعوبة فى الكلام والسمع، ولكنهما سمعاه يقول عن زملائه باللجنة "إنهم جميعاً

[1434] Martin Gilbert (ed.), Winston S. Churchil: Companion (London: Heinemann, 1972), lil/2, 1248 – 9.

[1435] Zetland, Lord Cromer, 344.

[1436] Ruby Baring, Lord "Lord Cromer", 2.

[1437] Martin Gilbert, Winston S. Churchil, iii, 809.

[1438] Ibid, 804.

[1439] Cromer to Churchil, 19 Sept. 1916, ibid. 808 – 9.

[1440] Ibid, 809, 814, 1817 – 18.

متشددون... لقد قلت لهم: أيها السادة، إننى رجل عجوز، لدى خبرة بالحياة تفوق ما لديكم، وقد ارتكبت – شخصياً– العديد من الأخطاء، لذلك لا استطيع أن أكون متشدداً"[1441].

وتم نشر التقرير المبدئى للجنة بعد وفاة اللورد كرومر فى أوائل علم 1917[1442]. وتناول التقرير الخطة التى وضعت، ومسار العمليات فى الدردنيل منذ اندلاع الحرب فى 4 أغسطس حتى 23 مارس 1915، عندما تم صرف النظر عن الإعتماد على الهجوم البحرى وحده، وقد وزعت المسئولية بين مجلس الحرب وتشرشل وفيشر فى قيادة الأسطول، والمرحوم اللورد كتشنر. ورغم الجلسات الثلاث التى تحدث فيها تشرشل، وعدها كاتب سيرته "عرضاً للقوة"، أجمعت اللجنة على فشله فى عرض أفكار زملائه فى البحرية "بوضوح" أمام مجلس الحرب[1443]. وقدم والتر روش – عضو اللجنة وعضو البرلمان– تقرير أقلية، كان فيه أشد انتقاداً لتشرشل، متهماً إياه "بالفشل الذريع فى تقديم آراء مستشاريه من البحرية.. الذين كان معظمهم أقل تحمساً منه للحملة"[1444]. وأخيراً قدمت النتائج التى توصلت إليها الحملة إلى الحكومة فى فبراير – بعد وفاة كرومر بثلاثة أسابيع– وتمت مناقشتها فى البرلمان فى 20 مارس، وتحقق هدف أسكويث، فلم يكن للتقرير سوى أثر محدود، ولم تنشر تفاصيل أعمال اللجنة مطلقاً.

وفاة اللورد كرومر

لزم كرومر الفراش بعد انتهاء الجلسات الرسمية للجنة، وكان كيرزون يتردد على البيت يومياً للإطمئنان على زميله وصديقه، وليواسى كاترين، وغالباً ما كان يتناول العشاء معها[1445]. وفى 29 يناير كان كرومر فى حالة تسمح له بالتوقيع على القسم الأول من التقرير الذى وصل لتوه من المطبعة. وفى مساء اليوم نفسه، عندما أحضرت له كاترين طبق الشوربة،

[1441] Ruby Baring, "Lord Cromer", 2.

[1442] A Copy is published in Tim Coates (ed.), Lord Kitchener and Winston Churchil: The Dardanelles, Pt. 1: 1914 – 15 (London: Stationery office, 2000).

[1443] Robert Rhodes James, Churchil: A Study in failure (London: Weidenfeld & Nicolson, 1970), 89. Coates (ed.) Lord Kitchener and Winston Churchil,157.

[1444] Coates (ed.), Lord Kitchener and Winston Churchil, 211.

[1445] The very Reverend W. R. Inge, Diary of a Dean: st Paul's 1913 – 1934 (London: Hutchinson, 1949) 59.

قال إنه يرى رجلاً يقف أمامه رافعاً سلماً، عندئذ أصابته جلطة، ولفظ أنفاسه الأخيرة قبل وصول ولده رولاند[1446]، وكتب إيفلن الصغير إلى أمه من المدرسة مواسياً[1447].

كانت رغبة اللورد كرومر الأخيرة أن يدفن فى بورن ماوث[1448]، وتمت مراسم جنازته هناك فى 3 فبراير بحضور كاترين والأصدقاء والأقارب، ولكن غاب عن الجنازة إيفلن الصغير لإصابته بنزلة برد[1449] وأقيم قداس على روحه فى كنيسة وستمنستر آبى فى اليوم نفسه.

ونشرت جريدة التايمز رثاء على خمسة أعمدة بعنوان: "وفاة الحاكم العظيم... اللورد كرومر، صانع مصر الحديثة". وجاء بالرثاء أن لا أحد سواه يستطيع ترقية أحوال المعيشة لملايين الفلاحين المتخلفين[1450]. وكتب صديق من أصدقائه بعد أيام مقرظاً أعماله الأدبية ومقالاته[1451]. وتحدث ستراتشى فى الإسبكتاتور عن حكمته حول ما يجب عمله وما لا يجب عمله من أجل شعوب الشرق[1452]. وما لبث أن نشب نزاع بين كاترين ورولاند جعلها تترك بيت ويمبول ستريت، وتنتقل إلى بيت آخر تملكه فى سانت جونزوود.[1453]

1446 Ruby Baring, "Lord Cromer", 1.

1447 Douglas – Home, Evelyn Baring, 24.

1448 Zetland, Lord Cromer, 345.

1449 The Times, 5 Feb. 1917.

1450 Ibid, 30 Jan. 1917.

1451 Ibid, 3 Feb. 1917.

1452 The Spectator, 3 Feb. 1917.

1453 Douglas – Home, Evelyn Baring, 19.

الفصل العشرون
خاتمة: حياة فى خدمة الحكومة

يذكر هوراس رامبولد أنه عندما توجه إلى بيت كرومر فى أغسطس 1901 لتهنئته برتبة اللورد، نظر إليه كرومر سائلاً: عما يريد، فأجابه بأنه جاء مهنئاً، فأجاب "لا بأس.. مع السلامة"[1454]. هذا الجفاء والغطرسة هو ما عرف عن كرومر فى السنوات الأخيرة من عمله فى مصر، وهى التى بقيت عنه فى ذكريات الناس، أما صورة الكابتن أو الماجور بارنج أو حتى السير إيفلن بارنج فى السنوات الأولى لعمله فى مصر، فكانت باهتة. وانعكست تلك الصورة المتغطرسة الصلفة على رسوم الكاريكاتير التى نشرت لكرومر.

ولكن هيئة الشخص أو ما شاع عنه، لا شأن له بقصة حياته، صحيح أن "الملاحظات حول السيرة الذاتية" تحتوى على العديد من القصص حول حياته العائلية وأيام التعليم البائسة، ولكنه كتبها – على ما يبدو– ليبين كيف استطاع أن يتخلص من سلبيات تلك النشأة ليصبح مثقفاً خبيراً بشئون الحياة، زوجاً عطوفاً، وأباً حنوناً، وحاكماً حازماً. وما أتاحه وضعه الطبقى والإجتماعى من حصول على وظائف مهمة فى الشرق، وما حملته مراسلاته مع زوجته إيثل من وصف دقيق لحياته اليومية. فهذه المادة المتاحة تقدم لنا شخصية عامة، تحددت مواقعه بحكم صلاته بالحكومة هنا وهناك، نتيجة الإعتراف بما توفر له من خبرات إدارية ومالية ومهارات دبلوماسية، أتيح له استثمارها فى عمله بمصر، بقدر ما استثمر ما تعلمه من السير هنرى ستوركس واللورد نورثبروك وجوشن.

والكثير من ذلك كان كافياً لتحويل رجل طموح نشأ فى منتصف العصر الفيكتورى الذى شهد ترابط الإمبراطورية مترامية الأطراف، غير أن كرومر استطاع أن يترك علامة واضحة باعتباره قادراً على حل المعضلات، وعلى إتخاذ القرارات، والداعية الحقيقى الذى تميز عن زملائه بقدرته على رسم السياسات الإمبريالية بطريقة مفهومة من أبناء وطنه الإنجليز. من أبناء النخبة الإجتماعية والقاعدة العريضة من الناخبين قراء الصحف. ولم يكن ذلك كله

[1454] Gilbert, Sir Horace Rumbold, 42.

رحلة سهلة خالية من العقبات والعثرات، فكان سريع الإنفعال عندما يجد العقبات فى طريقه، حتى إنه فكر فى الاستقالة عدة مرات.

وكما ذكر صديقه ألفرد ليال، عجز كرومر عن فهم الهند، ولكنه كان قادراً على شق طريقه فى مصر فى المناسبتين اللتين أسند إليه العمل فيهما، فكان مهندس الإصلاحات المالية والإدارية التى تمت فيها، وعندما أصبح المعتمد البريطانى فى مصر سعى لإحكام السيطرة البريطانية على ذلك البلد عندما ساندته لندن فى لعب دور إدارة السياسة الخاصة باستمرار الإحتلال. وقد هيأ له ذلك مجالاً واسعاً للاستقلال فى صنع القرار بعدما ترك له مجلس الوزراء البريطانى مسئولية إدارة مصر حتى جرته التناقضات الناجمة عن التصرف الفردى والحكم الشخصى إلى النهاية المحتومة.

وهنا قدم مساهمته الشخصية فى التاريخ البريطانى والتاريخ المصرى على السواء، فلم يكن باستطاعة أحد أن يدير أمور دار المعتمد البريطانى بطريقة تؤدى إلى إيجاد سوابق مهمة سوى كرومر، ويلعب – إلى جانب ذلك– دور الحاكم الفعلى غير الرسمى لبلد غير محدد الهوية، فهو عثمانى جزئياً، ومستعمر جزئياً، ومستقل جزئياً أيضاً، وله تطلعات إمبريالية خاصة فى السودان. فلم يقتصر دور كرومر على توجيه شئونها المالية والإدارية فحسب، بل والدفاع عن حدودها وتحديد وضعها فى المجتمع الدولى. وإذا كان قد نجح فى ذلك بجهده الفردى وبالإعتماد على نفر قليل من المعاونين، فإنه يحتل بذلك وضع نائب الملك الذى خدم لفترة طويلة، والحاكم الإقليمى، والمصرفى الدولى، والسفير، وغير ذلك من الصلاحيات التى لمسها أولئك الذين خضعوا لحكمه.

غير أن وضع كرومر المنفرد بمصر كانت تكلفته عالية، فقد اتهم بالاستبداد بالسلطة، وكان الرد دائماً أنه يتلقى تعليماته من لندن، وأن الصحافة الحرة فى مصر تراقب عمله. ولكنه حاول أن يريح ضميره بالإستماع إلى نصيحة معاونيه، وبالعمل على تدريب المصريين على حكم أنفسهم، وهو إتجاه كانت خطاه محسوبة، ولكنها أثمرت مع مرور الزمن.

وفى ظل هذه الظروف، لم يكن باستطاعة كرومر أن يلزم الحدود بين ما رأى فيه دفاعاً عن مصالح مصر، وما اعتبر تجاوزاً لصلاحياته، مما جعله هدفاً للنقد الشديد والإحتكاك

بالمصريين الذين تعارضت سياسته مع آمالهم وأمانيهم. ومن هنا يأتى عدم إدراكنا لأهمية التعليم بين المطالب الوطنية، وكذلك ظنه أن مشكلة الإمتيازات الأجنبية والمحاكم المختلطة يمكن حلها بإقامة نوع من التمثيل النيابى المشترك بين المصريين والأجانب.

لقد كان كرومر يفتقر إلى شئ واحد، شأنه فى ذلك شأن أبناء جيله، هو غياب نموذج للتطور الرأسمالى غير الأوروبى يسترشد به فى عمله. فمع اهتمامه الزائد برفاهية جماهير الفلاحين، لم يدرك أن الرخاء الزراعى يقترن بالنمو الهائل للاستثمارات الأجنبية فى مصر خلال عقد 1897 – 1907 الذى ساعد على نشوء طبقة وسطى متسعة من الصيارفة والمستثمرين والتجار، ومن هم فى طريقهم للعب دور المنظمين فى النشاط الإقتصادى. كما أنه لم يحاول أن يتمثل صورة هذا التطور، ربما؛ لأن من السهل عليه تصوير أهالى البلاد أمام النخبة البريطانية والرأى العام البريطانى باعتبارهم فلاحين بسطاء بؤساء لا يدركون حقائق الأمور، ويحتاجون إلى الأوروبى ليعلمهم النظام والقانون، ويؤمن لهم الرى، وأنهم يريدون نظاماً ضريبياً لا يرهقهم مادياً. وبذلك لم يكن هناك فهم واضح للحاجة إلى التغيير، بل لعب كرومر دوراً فى صرف النظر عنه بحديثه المتكرر عن عدم توفر الكفاءة عند المصريين، وسوء خلق الأسرة الحاكمة، والحاجة إلى حماية الشعب المصرى من حماقات أمثال إسماعيل وعرابى. فكان شأنه شأن البريطانيين فى الهند الذين وجدوا أنفسهم محاصرين بين اختراع مجتمع شرقى، والعمل على التخلص منه.

والواقع أنه كان هناك العديد من المصريين الأكفاء الذين كانوا على استعداد للعمل مع كرومر إذا كان يهدف حقاً إلى إعداد مصر للاستقلال السياسى، وبالنسبة للبعض كان ذلك ممكناً فى إطار متابعة التطورات السابقة من أمثال نوبار وعلى مبارك ويعقوب أرتين، وآخرون من أمثال محمد عبده وأحمد لطفى السيد ومجموعة "الجريدة" الذين ركزوا إهتمامهم على الإمكانات الجديدة التى أتاحها الإحتلال. فعلى سبيل المثال استخدم محمد عبده مركزه كمفتى للديار المصرية فساهم فى مشروع عام 1899 لإصلاح إجراءات المحاكم الأهلية. ولذلك كان الخلاف بين النخبة المصرية وكرومر يتركز فى سياسة التعليم، والحاجة إلى توسيع نطاق مشاركة المصريين فى الإدارة وخاصة فى الوظائف الكبرى. وكان ثمة تداخل بين الخطتين يتمثل فى النزعة السلطوية التى تصر على الحاجة إلى توجيه من الجماهير

من أعلى، حتى يصبحوا مؤهلين ليكونوا مواطنين فى دولة حديثة. واتجهت التعليقات فى ذلك العصر إلى إعتبار وجود كرومر نفسه وسياساته معوقاً للتطور فى مرحلة كانت تتهيأ فيها مصر لاحتلال مكانها اللائق فى العالم الحديث.

وكان فشل كرومر فى تحقيق ما هو أبعد من الشراكة مع تلك النخبة المصرية من بين العوامل التى ساعدت على إنهاء عمله بمصر عام 1907، بل وفى موقف حكومة حزب الأحرار من سياسته.

وإذا أمعنا النظر فى إنجازاته بعد مغادرة مصر، نجده يلاحظ أن الإتفاقية الإنجليزية الفرنسية عام 1904 قد هدأت من المواجهة بين الدولتين فى مجالات تحاشى الإفلاس فى مصر، وإصلاح النظام الضريبى، واستعادة السودان، وبذلك تعاونت الدبلوماسية والسياسية والمالية والعسكرية على إنقاذ المصريين من حماقات حكامهم، وأن يتحرروا من المهدى والعثمانيين، والسماح للبريطاييين بوضعهم على طريق الحكم الصالح والرفاهية الإقتصادية مستقبلاً. ولكن عودة كرومر إلى لندن عام 1907 لا تعنى نهاية التاريخ، كان مغزى ذلك، تعداد ما للإحتلال البريطانى من أثر فى صناعة مصر الحديثة.

ومن الأهمية بمكان أن نتذكر أن الكثير من النقد الذى وجه إلى سياسة كرومر فى مصر جاء بعد مغادرته لها، وبعد الأزمة الإقتصادية عام 1907 التى أثبتت ضعف الأسس التى قامت عليها سياسته الإقتصادية، والتى زاد من حدتها ضعف محصول القطن عام 1908 و1909، مما أتاح الفرصة أمام منتقدى سياسته، ومن ثم سياسة بريطانيا، من الوطنيين المصريين الذين اتخذوا مظهراً رسمياً من خلال برنامج المؤتمر الوطنى المصرى الذى عقد فى مصر الجديدة عام 1910، ونشر كتاب تيودور روزشتين عن "خراب مصر". وهنا اتخذ الإنتقاد من إهمال التصنيع، وتنويع مصادر الإقتصاد المصرى، وضرورة إقامة بنك مصرى، محوراً أساسياً للسياسة الإقتصادية التى يجب أن تتبعها الحكومة المصرية منذ العشرينيات حتى قيام ثورة يوليو 1952.

لقد إنتهى عصر كرومر بعد وفاته من خلال سلسلة من الأحداث التى استجدت على الساحة الدولية: من المبادئ الأربعة عشر التى طرحها الرئيس الأمريكى وودر وولسون

Woodrow Wilson، مروراً بالثورة البلشفية، إلى إنشاء عصبة الأمم، وتطبيق نظام الإنتداب بالشرق الأوسط. وإذا قدر لكرومر أن يظل على قيد الحياة عند نهاية الحرب مثلما قدر لزميليه كيرزون وملنر، ربما كان باستطاعته تبنى ما روج له مارك سايكس Sykes وغيره من مهندسى سياسة ما بعد الحرب فى الشرق الأوسط، القبول بما سمى "روح العصر". ولكن من المحتمل أن تكون آراءه مناظرة لآراء زوجته كاترين التى أرجعت "تضغضغ الإمبراطورية" إلى الحرب العالمية الأولى – فى حديث لها فى العشرينيات– بفقد أيرلندا ومصر، وقرب فقد الهند. لقد وصف صديقه ستراتشى تجربة حياة كرومر باعتبارها نقطة معتمة تحول دون اكتشاف حقائق الأمور المتغيرة. ووصف أحد نقاد كتاب زيتلاند – الذى ترجم فيه لكرومر– "أنه يعبر عن حالة فكرية تلاشت ورمزاً للرغبة الإمبريالية المتهالكة للسيطرة أو الحكم".

ومع غياب تلك السمعة التى اكتسبها كرومر فى عصر الإمبراطورية، ضاع تأثير كتابه "مصر الحديثة" الذى جعله دليلاً لحكم الشعوب الشرقية. فلم تعد تلك الطريقة نافعة، فقد حاول لورد لويد السير على النهج نفسه فى مصر بعد الحرب، ولكنه فشل فشلاً ذريعاً أصاب لندن بالحرج، وتسبب فى إجباره على ترك منصبه.

لذلك كله يحتل كرومر مكاناً فريداً فى تاريخ الإمبراطورية البريطانية فلم يكن باستطاعة أى حاكم استعمارى أن يتولى شئون مصر لمدة طويلة كتلك التى قضاها كرومر، وكان لأعماله أثر كبير على أبناء عصر إدوارد، فقد إعتبروه من أعظم حكام المستعمرات، وأقدرهم على تحقيق الأمن والعدالة.

ويمكن تفسير الدور الذى لعبه كرومر فى مصر فى إطار العولمة، أكثر من تفسيره فى إطار الإمبراطورية. فقد جاء الإفلاس المالى الدولى بكرومر إلى مصر ليعمل فى إدارة مختلطة أقامتها الدول الأوروبية، وكانت مقدرته على استخدام المعطيات المالية والإدارية والقضائية المتاحة، وراء جعله يلعب دوراً متميزاً فى إعداد أجندة إفلاس مصر والإشراف على مرحلة تصفيتها، مما تطلب قدراً من الثقة بالنفس، وبعد النظر، وقوة العزيمة، والقدرة على التصدى للمشاكل الصعبة.

وكانت كل هذه المهارات متطلبة عند تولى كرومر منصب المعتمد البريطانى عام 1883، رغم أن بؤرة الإهتمام تركزت – هذه المرة– على المصالح البريطانية وحدها، فكان حرصه على عدم إنهاء الإحتلال قبل أن تقوى جذور الإصلاح الإدارى والمالى ومن ثم تطوير النظام الخاص بالرى الذى استمر حتى الخمسينيات (ق 20). ثم جاءت مرحلة إرساء دعائم الحكم الاستعمارى البريطانى بتحجيم المساحة المخصصه للحكم الذاتى المصرى، ولكن فى حدود الأوضاع الدولية القائمة: الإمتيازات الأجنبية والمحاكم المختلطة التى حاول كرومر – عبثاً– أن يتخلص منها.

ويمكن القول إن الطريقة التى مارس بها كرومر حكم مصر، جعلته يشعر بقدر كبير من الإرتياح النفسى إضافة إلى مجال العمل الذى أتاح له حرية التصرف دون قيد والعمل مع فريق يربطه به الولاء الشخصى، وليس مجرد علاقة العمل الوظيفية المحضة.

وكان كرومر رجل الحسم فى اتخاذ القرار، لاعتقاده أن طول التفكير فى الأمر يعوق القدرة على العمل، ولم تهتز ثقته بالقدرة على تقدير الأمور إلا لماماً، كما أن لإيمانه الدينى أثر فى اتخاذ القرار، وإن كان ذلك لا يعنى إغفاله الحقائق المبنية على العلم. ولعله إعتبر نفسه واحداً من أولئك الذين يسعدهم أن يتذكرهم الناس على الصورة التى يرغبون أن تتم رؤيتهم عليها، وأن يتطلع الناس إلى تحقيق ما نجحوا هم فى تحقيقه. ولكنه يفضل أن يعيش دائماً فى ظلال العصر الكلاسيكى الذى يضم كل ما أحب من الأدب، والدين، والطبيعة، والعائلة، تخضع جميعاً للقدر والتغير، وكلها تعيش حتى يدركها الموت الذى لا منجاة منه، كما صاغ كرومر ذلك فى قصيدة عنوانها "رحلة الحياة"[1455].

شاطئ الحياة يرتكز على مرفأ
نرفع الصارى وننشر الشراع
ونختار الإبحار تحت سماء الصيف
أحياناً نشعر رجفة الشتاء
ولا نعرف موقع النصيب

[1455] Cromer, Paraphrases and Translations From the Greek, 169.

تقودنا الصدفة، قد نغرق وقد ننجو

ومهما طال بنا الإبحار

يلقى الجميع مراسيهم فى القبر

المؤلف فى سطور

يعد روجر أوين من المؤرخين الإنجليز الذين برزوا فى ستينيات القرن العشرين، وتخصصوا فى تاريخ مصر الإقتصادى، فكانت رسالته للدكتوراه موضوع كتابه الأول الذى نشرته جامعة أوكسفورد عام 1969 بعنوان "القطن والإقتصاد المصرى 1820 – 1914" فكانت السياسة الإقتصادية لكرومر العمود الفقرى لتلك الدراسة المهمة.

إننا أمام مؤلف واسع الخبرة فى تاريخ مصر والشرق الأوسط الإقتصادى فى القرن التاسع عشر، وبالتالى على دراية كبيرة بالسياسات الإمبريالية فى المنطقة عامة ومصر خاصة.

المترجم فى سطور

رءوف عباس حامد

أستاذ التاريخ الحديث بكلية الآداب – جامعة القاهرة

له مؤلفات عديدة فى تاريخ مصر الحديث والمعاصر.